المؤتمر الدولي السنوي للعلامة الشيخ أحمد القطعاني
الدورة الخامسة
2023

الشَّيْخُ عَبْدُ السَّلَامِ الأَسْمَر

إمامٌ ومُصلحٌ ومفكرٌ من أعلامِ الأُمّةِ الإسلاميّة

(نحو إعادة قراءة سيرته وأعماله)

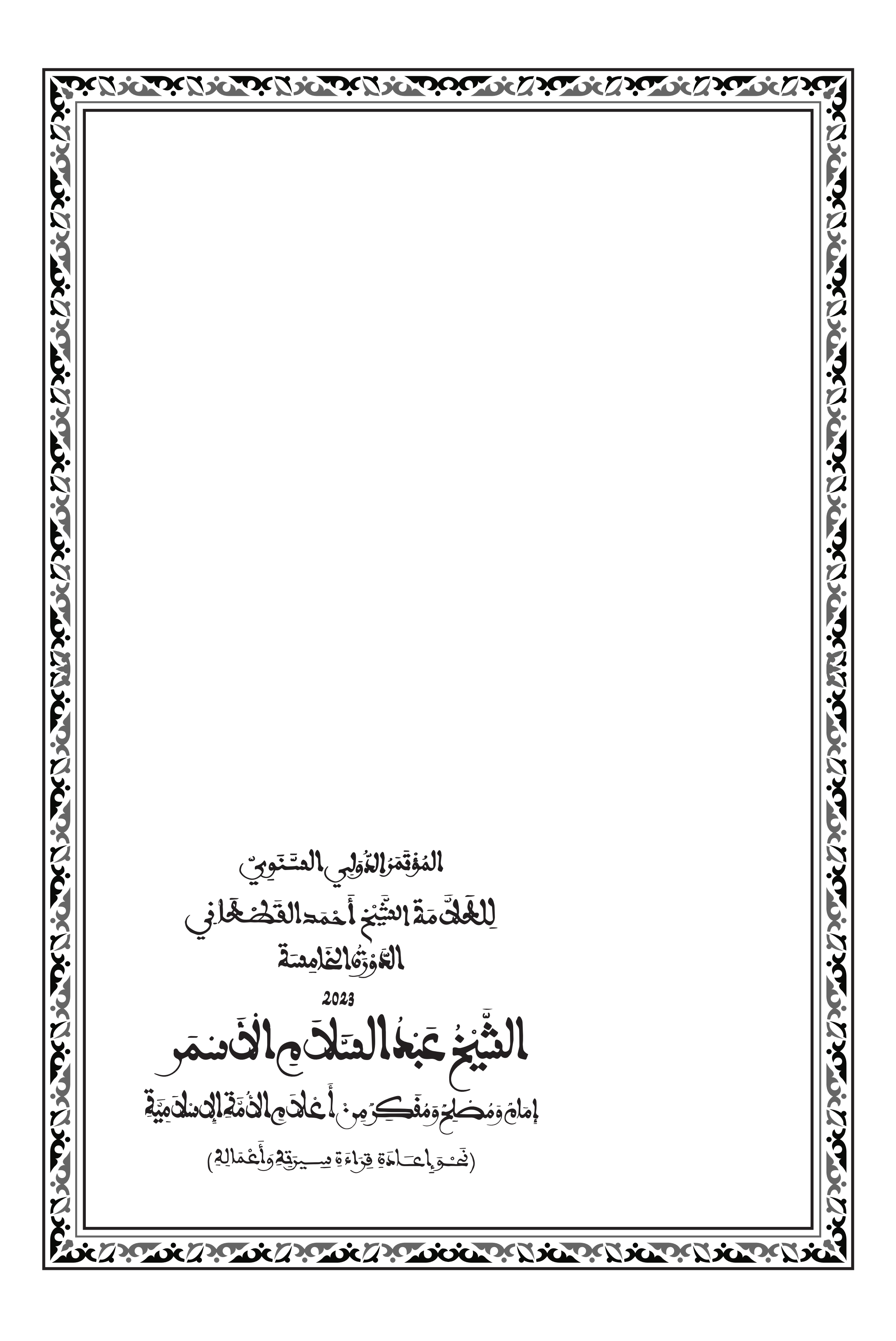
تقديم
د. علي جمعة
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

تحرير
أُسامة بن علي هامل



منشورات
مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الإسلامية
وزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر





المؤتمر الدولي السنوي

للعلامة الشيخ أحمد القطعاني

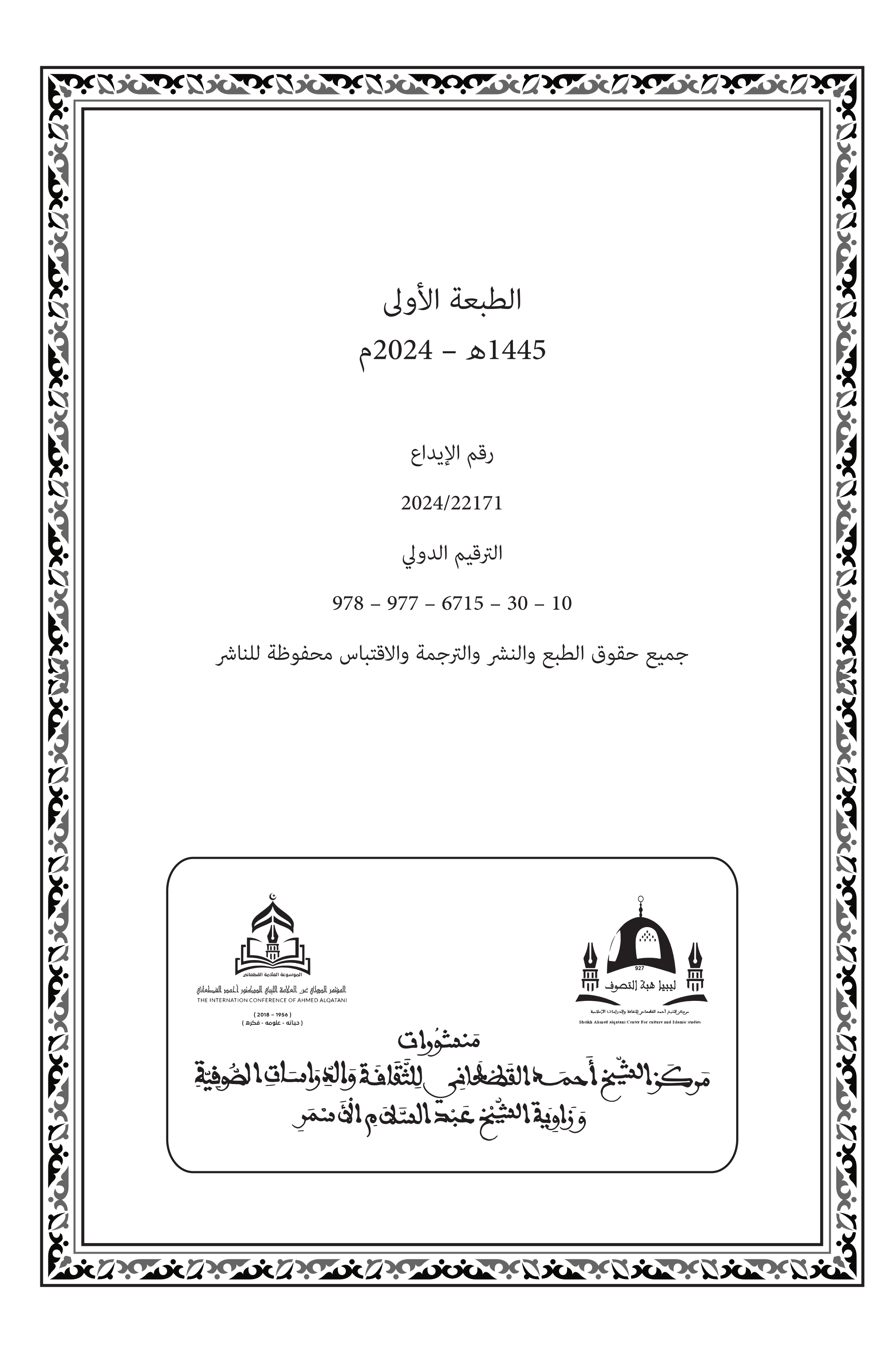
الدورة الخامسة

2023

الشيخ عبد السلام الأسمر

إمام ومصلح ومفكر من أعلام الأمة الإسلامية

(نحو إعادة قراءة سيرته وأعماله)



الطبعة الأولى

1445هـ – 2024م

رقم الإيداع

2024/22171

الترقيم الدولي

978 – 977 – 6715 – 30 – 10

منشورات

مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية

وزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر

المؤتمر الدولي السنوي للعلامة الشيخ أحمد القطعاني

الدورة الخامسة

2023

الشيخ عبد السلام الأسمر

إمام ومصلح ومفكر من أعلام الأمة الإسلامية

(نحو إعادة قراءة سيرته وأعماله)

تقديم

د. علي جمعة

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

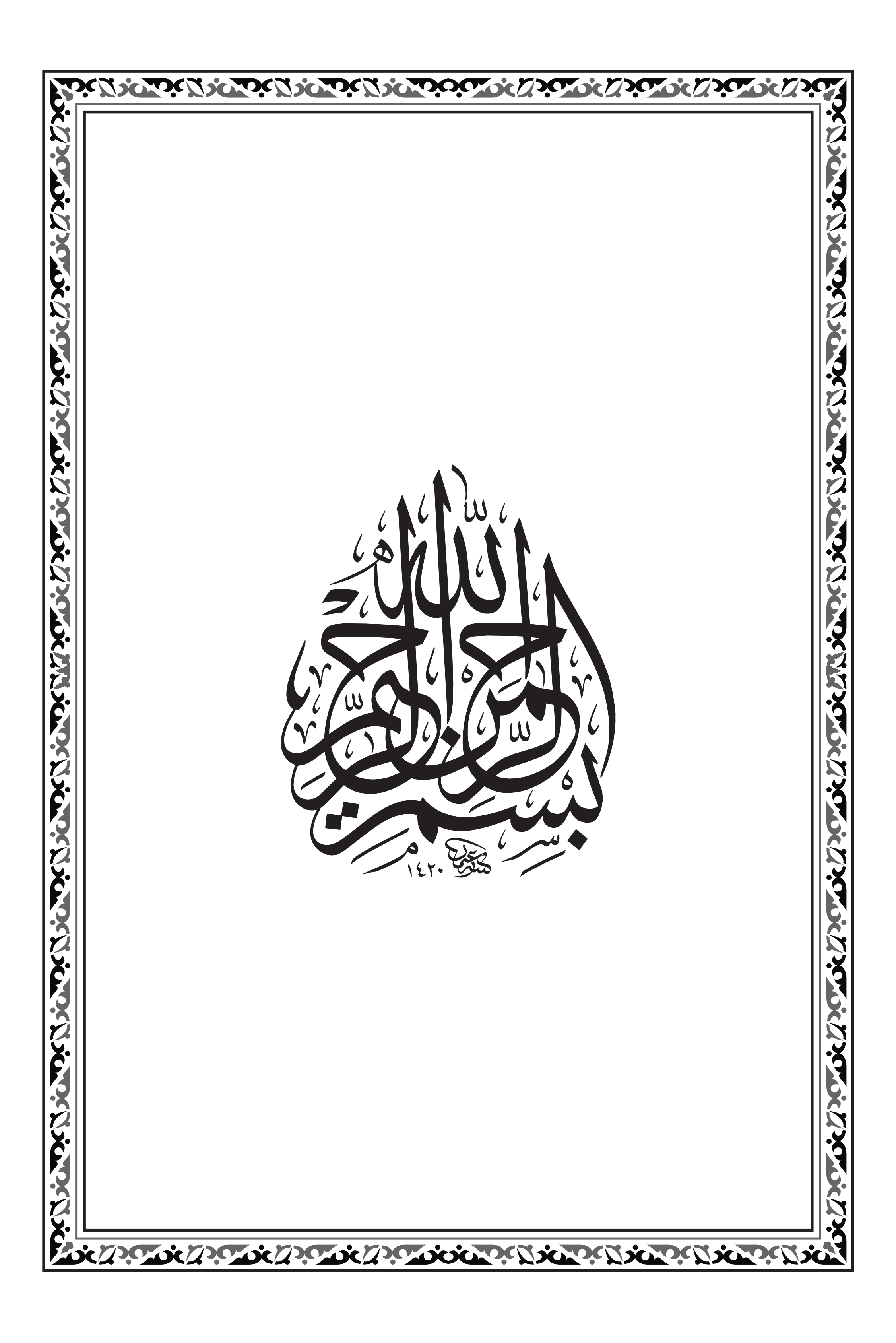
تحرير

أسامة بن علي هامل

منشورات

مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية

وزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر






فهرس المحتويات

محطات في السيرة العطرة للإمام الأسمر

الإمام الأسمر في فكر العلامة الشيخ أحمد القطعاني

جوانب وأبعاد مشروع الإصلاح في فكر وأعمال الإمام عبد السلام الأسمر

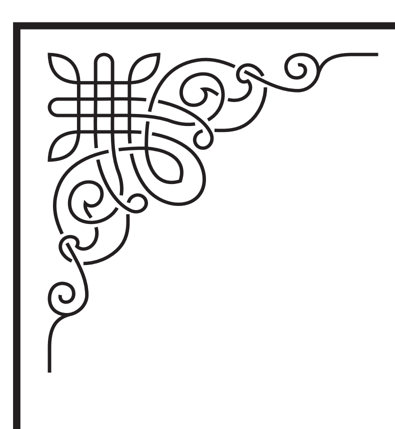
١ - في التربية والاجتماع

٢ - في التراث العلمي المكتوب والمخطوط

٣ - في الصحة والبيئة

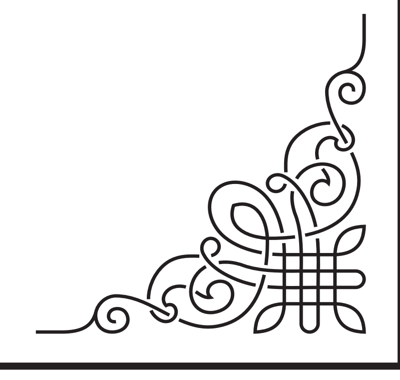
٤ - في الأدب والشعر

٥ - في الدعوة والانتشار



تقديم فضيلةِ الشيخ د. علي جمعة

عضوِ هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريفِ









بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على سيدِنا رسولِ اللهِ، وآلِه وصحبِه ومن والَاه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أشكرُ المنظمين لهذا اللقاءِ؛ حيثُ أتاحوا لي أن نلتقيَ بكم عبر هذه الكلمة، وكنت أتمنى أن أكون معكم، إلا أن المشاغلَ والشواغلَ منعتنا، فأحببنا أن نكون معكم ولو عبرَ هذه الكلمة.

نلتقي في رِحاب الشيخ عبد السلامِ الأسمر رضي الله تعالى عنه وأرضاه، في روضتِه وجنتِه التي تركها، ولا زالت زاويةً معطاءةً ومنهجًا واضحًا يسير فيه الصالحون في طريق الله إلى الله.

وُلد سيدي عبد السلام الأسمر، كما لا يخفى على شريفِ علمِكم، أواخرَ القرن التاسع الهجري عام 880هـ، وتُوفِّي والدُه وهو ابن سنتين وشهرين، فربَّته أمه السيدة سليمة الدِّرعيَّة، ثم احتضنه عمُّه الشيخ أحمد الفيتوري الذي كان على صلةٍ وصداقةٍ وثيقةٍ ومتينةٍ بالشيخ أحمد زرُّوق، وكان الشيخ زرُّوق يزور الشيخ أحمد الفيتوري، فيجد عنده ابن أخيه الشيخَ عبدَ السلام، فكان ينظر إليه ويقول: إن هذا الفتى سيكون له شأنٌ. وهذه الكلمة عندما تصدر عن أمثال الشيخ أحمد زرُّوق، فإنها تعني الشيء الكثير، فهي تعني أنه سيكون إمامًا من أئمَّة الهدى، وأنَّه سيكون عالمًا من علماء الأمَّة، وأنه سيكون رائدًا من روَّاد الطَّريق، وتعني أنه سيبقى نهجه إلى مئات السنين، فلم يكن الشيخ زرُّوق عالمًا وصالحًا فقط، بل كان صاحبَ بصيرةٍ، وهو ما كان بالفعل، إذ مدَّ الله في عمر سيدي عبد السلام الأسمر حتى توفي عام 981هـ وهو ابن 101 عامًا، وهو عمر لا يُستهان به في الخبرة والبركة والعطاء، وفي صلة الأصاغرِ بالأكابرِ.

كان سيدي أحمد الفيتوري يرسل ابن أخيه سيدي عبد السلام الأسمر من أجل حفظِ القرآنِ الكريمِ، فحفظه في وقت مبكر من حياته الكريمة، ويرسله لتعلُّم العلم، فأصبح مالكيَّ المذهب على ما عليه عادة أهل المغرب، وفي العقيدة كان على عقيدةِ أهل السنة والجماعة الأشاعرةِ.

كان سيدي عبد السلام رجلًا منورًا، وصاحبَ همَّة وتحصيل وجدٍّ واجتهادٍ، وصاحبَ فكر وعبادة، وقد قيل في تسميته بالأسمر، أنه كان يقضي الليل سمرًا في طاعةِ اللهِ، يعني وكأنَّه في احتفال عندما يقوم إلى الله ﷻ في الليل متهجِّدًا ومناجيًا وذاكرًا ومصلِّيًا وتاليًا لكتاب الله، ومتأمِّلًا في الكتاب المسطور وهو القرآن والكتاب المنظور وهو الكون، فكان هذا التهجُّد إنما هو نوع من أنواع السمر يشتاق إليه ويعيش فيه، فسُمِّي عبدَ السلامِ الأسمر.

وسيدي عبد السلام الأسمر من ولد عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط عليه السلام بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وسيدة نساء العالمين فاطمة بنت سيد الخلق سيد الكونين سيد عالم الغيب وعالم الشهادة، خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ، إذًا هو من جهة الأب حسنيٌّ، ومن جهة أمه كذلك فهي من الأدارسة، فقد تمحض فيه الشرف من ناحية النسب.

ولم يكن النسب وحدَه الذي يعلي الصِّلة بينه وبين سيدنا رسول الله ﷺ، بل كان السبب أيضًا هو اهتمامه بالعلوم، فكان يجلس لإقراء العلوم، يعطي التوحيد والعقيدة بعد صلاة الفجر، ويعطي بعد الظهر فكان يقرأ الفقه، وبعد العصر كان يقرأ للناس السلوك والتصوف وكيفية التعامل مع القلوب تخلية وتحلية وذكرًا وفكرًا، وبعد المغرب يتكلم في النحو والمعقول.

وكان أخذ هذه العلوم على يد الشيخ عبد الواحد الدُّوكَالي، الذي بعد سبع سنوات من الدراسة قال له: اذهب فقد اكتَفَيْتَ، ويعني باكتفيت: أنه أصبح مستعدًّا للعطاء، وكأنها إجازةُ تدريس، بمعنى أنه لم يفهم ويستوعب فقط، بل أصبح هو قادرًا على نقل هذا الدين لمن بعده.

ولم يكتفِ سيدي عبد السلام الأسمر؛ لأنَّ طالبَ العلم نَهِمُ ولا يشبعُ، حتى صار أشياخه أكثر من ثمانين شيخًا. إذًا نحن أمام عالمٍ أتقنَ العلمَ، لكنه أيضًا متصوِّفٌ يعرف حقَّ أهل الله، فتكوَّن مشروعُه من أسس: أولها: اللغةُ، فدعا النَّاسَ للاهتمامِ باللغةِ؛ لأن

اللغة الصحيحة تؤدي إلى الفكر الصحيح المستقيم، وبدون لغة وفهمها الفهم الصحيح سيتجادل الناس، ولن يفهموا بعضهم بعضًا، فاهتم سيدي عبد السلام باللغة وإحيائها في فهمها بين الناس.

ومن أسس مشروعه: التوثيق، فكان مهتمًّا جدًّا بالأسانيد ووصلِها وتوثيقِها؛ لأن هذا الأمرَ دينٌ فانظروا ممن تأخذون دينكم، واهتم أيضًا ببناء المنظومة الأخلاقية، فهذه الأسسُ الثلاثُ: اللغة والتوثيق والأخلاق شكَّل عليها مشروعَه. فهؤلاء الناس لمَّا يؤسِّسون مشاريعهم يؤسِّسونها على تجديد الدين وبعث هذه الأمة أخرى؛ لتأخذ مكانها في الريادة والقيادة للعالمين.

وكان عند سيدي عبد السلام الأسمر خاصيةٌ أخرى، وهي الاهتمامُ البليغُ بالخدمةِ الاجتماعيةِ، والاهتمام بالطبقة الأقل والأضعف والأكثر احتياجًا، سواء كان هذا الاحتياج يحتاج إلى العلم أو المال، أو احتاج إلى العمل، أو احتياج إلى من يُعيِّشه روحَ الإسلام.

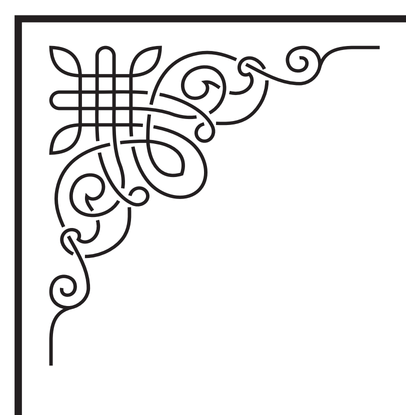
جادَله الكثير من علماء الظاهر، ثم انصاعوا لأمره، كما حدث مع سيدي أبي الحسن الشاذلي قبل ذلك بقرون، وسيدي سلطان العلماء العز بن عبد السلام. إذًا نحن أمام شخصية من الشخصيات المُنشِأَة المجدِّدة القائدة، فرضي الله عنه، ونفعنا الله به في الدَّارَيْن.

مزيد من الاهتمام، مزيد من الدراسة، مزيد من التحليل والبحث، لنستفيد من هؤلاء الأكابر الذين تركوا لنا شيئًا في العمل وفي الفكر وفي العلم لا يُستهان به، ولذلك نرى هذه الزاوية المباركة وهي ما زال يُقرأ فيها القرآن بعد 500 سنة، وهذا يدل على أن الله أيَّد هذا الرجل وأكرمه بالكرامة واستمرارِ هذا الخير لكل هذه الأجيال، فرضي الله عن عبد السلام الأسمر، ونفعنا بعلومه، ومكننا من أن نقوم ببعض ما في وصاياه وعلومه.

نرجو لمؤتمركم كلَّ خير، وأن تصلوا إلى المزيد من العمق في الدعوة إلى هذه الشخصية الفذَّة الفريدة التي تعلو وتنير كالشمس في رابعة النهار الطريقَ إلى الله ﷻ.

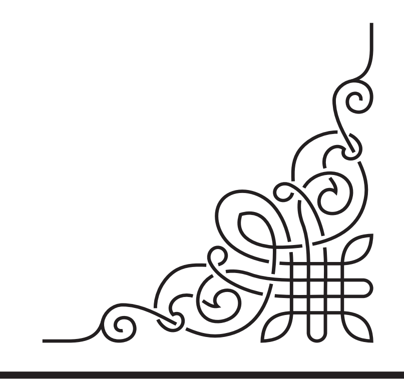
رضي الله عنه، ونفعنا به، وأمدنا بعلومه في الدارين، آمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



كلمة رئيس الدولة

فخامة الدكتور محمد المنفي







بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بدايةً يشرفني الحضور وتلبية الدعوة الكريمة المقدَّمة إلى فخامة السيد رئيس المجلس الرئاسي الدكتور محمد المنفي، الذي كُلِّفتُ منه أن أنقل إليكم تحياته وتمنياته لكم بالتوفيق والسداد لما فيه خير البلاد والعباد.

السادة الحضور،

باسمي وباسم السيد الرئيس نزداد شرفًا بالمشاركة مع هذا الجمع الكريم من أهل وطلاب العلم، خلال فاعليات المؤتمر الدولي الذي ينظمه مركز الشيخ والعلامة أحمد القطعاني بالتنسيق مع الزاوية الأسمرية العريقة.

وذلك من أجل إحياء سيرة أحد أهم علماء ومشايخ الإسلام في إفريقيا والعالم العربي والإسلامي، وهو الشيخ الجليل عبد السلام الأسمر، لتقديم سيرته العطرة بشكل علمي ومنهجي؛ لأجل تعزيز الهوية الصوفية الصحيحة من خلال إبراز أعماله كمصلح ومفكر من أعلام الأمة الإسلامية، وأن ذكر فضل هؤلاء الرموز والأئمة الأجلاء وكبار العلماء على الأمة الإسلامية والعربية، هي ثقافة لخلق الوعي والإدراك لأبناء هذا الجيل في الحفاظ على الإرث التاريخي للأمة.

وفي الواقع، لا يشك أحد في دور مثل هذه الشخصيات التي كان لها الأثر الكبير في نشر العلم وتعاليم الإسلام، وتحفيظ كتاب الله الكريم، بالإضافة إلى بناء الدولة وترسيخ المعاني الجليلة، والقيم النبيلة للسلام والاعتدال، والاستقرار والتعايش، وفق مفاهيم التسامح ونبذ العنف والتطرف والجهل والتخلف.

وحرصًا منا على استذكار المجاهدين من علماء ومشايخ الزوايا والطرق الصوفية في العالم الإسلامي وليبيا خاصةً، نذُكِّر بالحركة السنوسية ودورها وقياداتها الذين أضحوا رموزًا وطنيةً نستلهم منهم مبادئ الكفاح والنضال وبناء الدولة، ومنهم المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسي، وشيخ الشهداء قائد المقاومة الوطنية عمر المختار، الذين كانوا في الأساس مشايخ للعديد من الزوايا، يُعلِّمون بها القرآن الكريم وأصول الفقه.

ولا يتسع المجال لذكر العديد من الشخصيات الفاعلة من المجاهدين والرموز، فمنهم من كان على منهج الطرق الصوفية الأخرى، كالطريقة المدنية والقادرية والعيساوية والرفاعية، وغيرها من مدارس العلم والتربية، وقامت بنشر تعاليم الدين الإسلامي في شمال ومجاهل إفريقيا وآسيا، وكذلك الدور البارز في حركة الجهاد ضد الفاشست الإيطالي، والمحافظة على الهوية الدينية واللغة العربية.

ومن هذا المقام فإن العالم الجليل الشيخ أحمد القطعاني كان له الفضل في تناوُل الطرق الصوفية بالأساليب المنهجية والعملية الحديثة في مؤلفاته بعيدًا عن روايات الدجل والدروشة، وها هم تلاميذه يؤسسون هذ المركز لكي يستمر في هذه الرسالة بتنظيمهم لهذا المؤتمر الدولى العلمي عن الشيخ والإمام الأسمر، وزاويته التي أثبتت عبر قرون من الزمن أنها منارة للعلم وقِبلة للمريدين لحفظ القرآن الكريم، وقد كانت ولا زالت مصدرًا لتعليمه بروايته، تحفظه وتذود عنه، وتؤدي دورها في نشر تعاليم الدين الإسلامي السمح، الداعي للمحبة والتصالح والتعايش والإخاء.

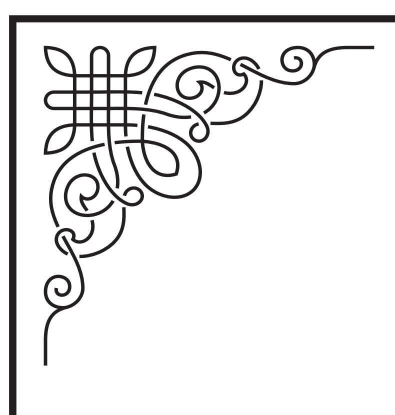
وختامًا،

فإننا نتمنى لهذا المؤتمر النجاح، وندعوهم لعقد مثله من المؤتمرات؛ للحديث أكثر عن أدوار هذه الشخصيات الوطنية الليبية، من أجل أن يكون لها الأثر والمساهمة في الانطلاق نحو تحقيق تطلعات الشعب الليبي لبناء دولة المؤسسات، بالاستقرار والازدهار، والمصالحة الوطنية الشاملة في كافة ربوع الوطن.

والسلامُ عليكُم ورحمةُ اللّهِ وبركاتُه

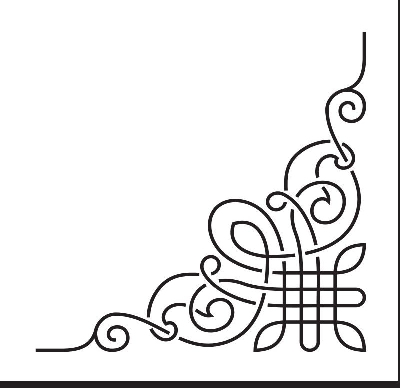
نيابة عنه المستشار بالمجلس الرئاسي

حسام عبد القادر بوحويش



كلمةُ رئيسِ مركزِ الشيخِ العلامة أحمد القَطعانيِّ للثقافةِ والدراساتِ الإسلامية

د. أسامة بن هامل






بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الذي عرَّف ذاتَه بذاتِه، وقال: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه:14]، وعرَّف رسولَه صراحةً: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفَتح:29]، وعرَّف أصحابَه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفَتح:29]، وأتباعَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [التوبَة:100]. الحمدُ الذي خلقَ الإنسانَ، وجعلَ له قلبًا، وللقلبِ روحًا، وللروحِ سِرًّا، وللسِّرِّ نورًا، تبعًا لخير متبوعٍ ﷺ.

السادةُ الضُّيوفُ.

السادةُ أهلُ القلمِ والبحثِ والدرسِ.

أربابَ هذا المؤتمرِ، روادُهُ ورائِدِيه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد أنابَ الحقُّ ﷻ عبادَه الأخيارَ لقسمةِ وراثةِ النبوةِ، وجعلَهُم هداةً يُقتدَى بهم، والاهتداءُ والاقتداءُ بهم لا يقتصر على اتباعهم حال حياتهم في الدنيا، بل تَحْمِلُ سيرهم حتى بعد مماتهم علاماتٍ للهدى وقسماتٍ تتبدى منها منارات للسائرين.

ولذا انشغل أهل السير والأعلام بتراجم أعلام هذه الأمة، فصنَّفوا كتب الطبقات والتراجم والسير؛ لحفظ تاريخهم وحيواتهم الكريمة، ومن هؤلاء الذين نهجوا هذا النهج أستاذُنا الكبيرُ المؤرخُ المحدثُ المسندُ والمحققُ العارفُ بالله الشيخُ أحمدُ القطعانيِّ، فترجمَ لعلماءِ هذا البلدِ رجالًا ونساء صلاحًا وعبادًا، ومن بينهم المتمسكُ بحبلِ اللهِ، المعتصمُ بكتابِ اللهِ، الزاهدُ العابدُ التقيُّ الورعُ سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري الإدريسي الحسنيُّ النبويُّ الشريفُ.

لقد نهج شيخُنا القطعانيُّ في الكتابة عن الإمام الأسمر نهجًا جديدًا فيه إحياء لسيرتِه العطرةِ بكلِّ تفاصيلِها، وَفْقَ قراءةٍ خاصة تجعل سيرته وطريقته دائمةَ الحياة والنفع، فخصَّه بكتابٍ شاملٍ في تفاصيل سيرته سمَّاه: «القطب الأنور عبد السلام الأسمر»، وحقق أهمَّ

المخطوطاتِ في مصادرِ سيرتِه كـ«مختصرِ البحرِ الكبيرِ» للشيخ عبد الرحمن المكِّي، و«فتح العليم» للشيخ عبد السلام بن عثمان، وخصَّص له صفحاتٍ طويلةً في موسوعته الكبرى عن تاريخ ليبيا، وفرَّع الدراسات والبحوث في علومه كالحديث عن الهوية الليبية من خلال فكره، واستخرج صورًا من حياة المجتمع الليبي من خلال وصيَّته، وعشرات المقالات الأخرى التي أكَّدت فيها على مكانته الكبيرة بين علماء المالكية، ودورِه الجهادي في صد غزوات الأسبان وفرسان القديس يوحنا.

لقد انشغل شيخنا القطعانيُّ ﷾ بكل ما هو ليبي وعربي وإسلامي، وبذل الجهود الكبيرة ليكون الوصل والاتصال بين أقطار هذه الأمة المرحومة على أسس من كتاب الله وسنة سيدنا رسول الله ﷺ، ومن ذلك أنه استخرج سندًا سماعيًّا ليبيًّا لصحيح البخاري، وانفرد به، وعقد مجلسًا لسماع الصحيح، واستدعى لذلك الشيخ الحبيب البخاريَّ اليدريَّ الغدامسيَّ، ولم يكن لهذا السند أي وجود قبل أن يستخرجه شيخُنا القطعانيُّ.

يهتز كل قلب من فيض أشواقي، كالأرض حين ينزل بها مائي، تربو بها ألذ حديث من ثجاجات قطعاني.

السادةُ الضيوفُ، السادةُ الباحثون: نجتمعُ اليومَ في هذا المؤتمر تحت رايةِ شيخنا القطعاني بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، لنكتب ونحقق ونحيي سيرة الإمام الأسمر، وإنه لعَمْري دليلٌ على صدق محبته وحسن مقصده في ترجمة لعلماء الأمة لإحياء ذكراهم وتناول سيرهم وَفْقَ مناهج وأساليب حديثة لتجديد وبقاء ذكراهم.

وفي ختام هذه الكلمة، لا بد لي أن أوجه الشكر العميق الجزيل الأثيل باسم (مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية) لكلِّ من وقف ودعم هذه الدورة من دورات المؤتمر، خاصةً منهم:

- (زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر) التي تعاونت مع مركزنا لعقد الدورة الخامسة من دورات المؤتمر السنوية.

- (مؤسسة إنسان للأعمال الخيرية والتنمية) لدور رئيسها وأعضائها الكبير والفاعل في تغطية جلسات المؤتمر إعلاميًّا.

- (الشركة الأسمرية) الداعم الوحيد لهذه الدورة من دورات المؤتمر، فحيًّا الله رئيسها وأعضاءها وبيَّاهم وبارك فيهم.

- (مجمع ليبيا للدراسات المتقدمة) لدوره في تقديم المشورة للجنة التنظيمية لهذه الدورة من دورات المؤتمر.

- (جمعية الروضة المنيرة للتراث) لدور مديرها وأعضائها الكبير والمستمر في دعم المركز ودورات مؤتمره السابقة، وفي الدورة الحالية.

- (فرقة غفران للأعمال المسرحية) لدورها الراعي لهذه الدورة.

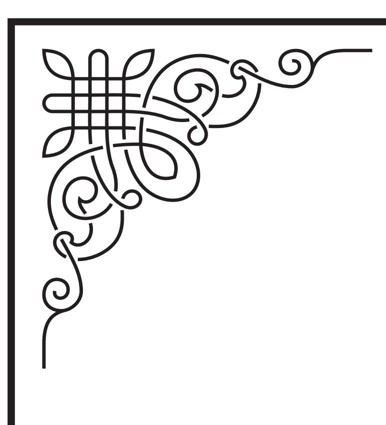
- (زاوية الشيخ أحمد القطعاني العيساوية) شيخًا وإخوانًا لدورهم الراعي لهذه الدورة.

- (زاوية باب السلام العيساوية) شيخًا وإخوانًا لدورهم الراعي لهذه الدورة.

- (زاوية الشيخ الرفاعي العيساوية) التي ترأس شيخها فضيلة الشيخ الرفاعي أحمد القطعاني اللجنة التنظيمية لهذه الدورة رفقة إخوانه الكرام.

وفاتحة الكتاب إليك تسعى	أبا عبد السلام لها منارُ
شعارك في الحياة كتاب ربي	ودرس العلم يا نعم الشعارُ
وطلاب العلوم إليك تسعى	وقراء الكتاب لهم فخارُ
وأرواح الكرام إليك تسعى	وأملاك السماء عليك داروا
صلاة الله يصحبها سلام	إلى خير الأنام هو الخيارُ

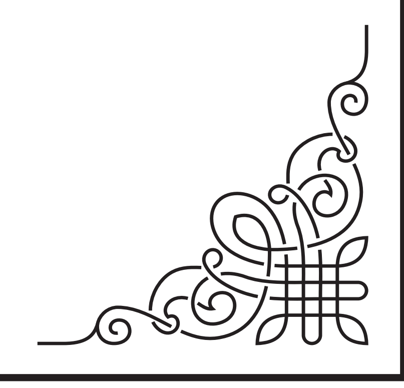
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



كلمةُ زاويةِ الشيخِ عبد السلام الأسمر

ألقاها فضيلة الشَيخ معمر كِنْدِيٍّ

إمام مسجد الشيخ عبد السلام الأسمر






بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على نورِ الحقِّ وسيدِ الخلقِ وآلِهِ وصحبِهِ

السادةُ الباحثون، والأكارمُ الضيوفُ، والعلماءُ والأفاضلُ، واللجنةُ العليا التنظيميةُ للمؤتمر، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في البداية، نبلِّغكم سلامَ علماء ومشايخ وطلاب زاويةِ سيدي عبد السلام الأسمر، الذين يتابعون بعنايةٍ وجدٍّ واهتمامٍ فعاليات هذا المؤتمر عن شيخنا وقدوتنا ومحلِّ اعتقادنا سيدي الإمام عبد السلام الأسمر. ونشيد بجهود اللجنةِ العليا التنظيميةِ للمؤتمرِ التي واصلت الليل بالنهار من أجل تنظيم المؤتمر للوصولِ به إلى هذا المستوى الحضاري اللائق، فجزاكم وجزاكم الله خيرًا جميعًا.

إن اللقاء والاجتماع العلمي حول موائد علمائنا وأسلافنا الكرام مما تحتاجه الأمة الإسلامية اليوم، فمدارسة تاريخهم وسيرهم وعلومهم وتقصي أثرهم يربط الأمة بماضيها، ويجدد فيها الحياة، خاصة تلك الشخصيات التي يدور عليها محور حركة التاريخ في بعض البلدان والأقطار، ومنها بلادنا الليبية التي لا تزال تحمل احترامًا منقطعَ النظيرِ لشيخ مشائخها وإمام أئمتها وأستاذ أساتيذها سيدي الإمامِ عبدِ السلام الأسمر الفيتوري.

لقد دارت الحياة العلمية والاجتماعية والثقافية في ليبيا حول شخصية الأسمر، وأثر فيها أيَّما أثر، حتى أضحت أكثر شخصية التصقت بأذهان الليبيين، وبقيت راسخة في وجدانهم طيلة 500 سنة، ويكفي هذا سببًا لأن تُجرى حوله الدراسات والأبحاث للإفادة من تجربته الخاصة في مشروعه الذي أرساه لإصلاح المجتمع، وأقامه على تعزيز وترسيخ العقيدة والمذهب والسلوك الصوفي.

وإن ما يؤكد أهمية دراسة شخصية الإمام الأسمر، هو أثره الذي تجاوز البلاد

الليبية ليصل صداه إلى كافة أقطار الإسلام، فعلى يديه تعلم وتكون كبار أعلام الأمة في عصره، وفي زاويته تخرج الآلاف من حفظة كتاب الله وحملة العلم الشرعي الشريف.

إننا -أيها الحضورُ الكريمُ- بحاجة اليوم لتحديث أدوات الكتابةِ والبحثِ والخطابِ، لنعرِّف بالإمام سيدي عبد السلام الأسمر وَفْقَ لغة وتفكير اليوم، لا لمجرَّدِ الكتابةِ وتسويدِ الأوراقِ، بل للتعريف بهذا النموذج الفريد الذي لم يتكرر في تاريخ بلادنا، والإفادة من مشروعه واستجلاء قيمه للبناء عليها، فأمة لا ماضي لها لا حاضر ولا مستقبل أيضًا.

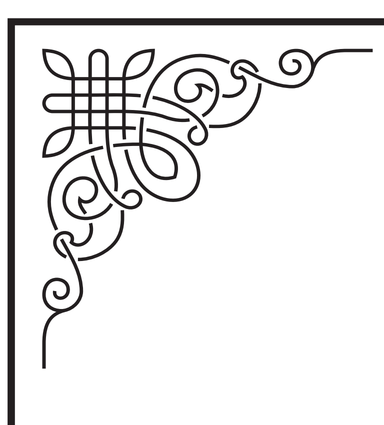
أيها السادةُ الأكارمُ: منذ زمنٍ اخترقت بلادَنا تياراتٌ فكريةٌ متحجرةٌ تحاولُ الفصلَ بيننا وبين ماضينا وإرثِنا الحضاري الكبير، واتهامَنا في عقيدتنا ووصف علاقتنا برموز وطننا بالبدعة، رأينا ما حل بالبلاد ومن انتشار فكر الإرهاب والرعب والكراهية والإقصاء، ولعله درسٌ كافٍ لنتنبه لصحة منهج وفكر ودعوة أسلافنا الكرام من علماء هذه الأمة، ومنهم شيخنا الكبير الإمام الأسمر، الذين بنوا لنا حياة ملؤها الحب والتسامح والتعايش وقبول الآخر، وحفظوا على الأمة عقيدتها ودينها.

نشكر مركز العلامة الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الإسلامية على تخصيص الدورة الخامسة من هذا المؤتمر السنوي عن الشيخ أحمد القطعاني رحمه الله، ليكون موضوعه: الإمام الأسمر (إمام ومصلح ومفكر من أعلام الأمة الإسلامية - نحو إعادة قراءة سيرته وأعلامه)، ونشيد بجهد اللجنة المنظمة من هذا المركز للمؤتمر، بل وندعوه لعقد المزيد من الدورات حول أعلام الأمة الإسلامية.

رضي الله عن شيخنا الإمام الأسمر، ورحم الله الشيخ العلامة أحمد القطعاني.

ووفَّق الله كل الحاضرين والمشاركين في هذا المؤتمر.

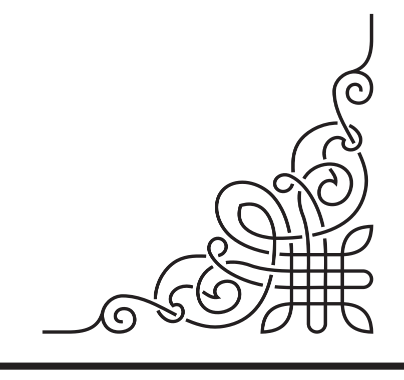
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



كلمة ضيوف المؤتمر والمشاركين فيه

ألقاها صاحب الفضيلة العلامة د. جمال فاروق الدَّقَّاق

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق بالأزهر الشريف






بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه.

السادةُ في اللجنةِ التحضيريةِ للمؤتمرِ.

السادةُ في المركزِ المنظِّمِ للمؤتمرِ.

السادةُ المشاركون في المؤتمرِ.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يعدُّ الإمامُ عبدُ السلامِ الأسمرُ من كبار الشخصيات الإسلامية المُصلحة والمُجددة للدين في القرن العاشر الهجري، ولا يزال أثرُه قائمًا إلى اليوم في ليبيا، وغيرِها من أقطارِ الإسلامِ.

قد بَنَى الإمامُ الأسمرُ دعوتَه على أسس راسخةٍ متينةٍ، طالمَا والى علماء الإسلام تعزيزَها إلى أن استقرَّت وأصبحت منهاجَ حياة للمسلمين، وأهمُّ هذه الأسس التي يجب أن تقوم عليها أي دعوة، هي الجمعُ بين الفقهِ والعقيدةِ والسلوكِ، فكانَ الإمام الأسمرُ جامعًا لهذه الأسس في دعوته، فقد كان مالكيَّ المذهب، أشعريَّ العقيدة، عروسيَّ التصوفِ والسلوكِ.

ينتمي الإمامُ الأسمرُ في نسبه الطِّينيِّ إلى السادة الفواتيرِ الأدارسةِ الحسنيين الأشراف من آل بيت النبي ﷺ، وهم بيتُ علم وصلاحٍ كَثُر فيهم الصالحون والعلماء، ومنهم والده السيد سليمُ الفيتوري، وعمُّه السيدُ أحمدُ الذي تولى تربيتَه بعد وفاة والده، ومن طريقِه انتسب إلى العلم، فبعد أن حفظ القرآن الكريم أخذ الفقهَ والتوحيدَ وعلومَ اللغةِ على عمه السيدِ أحمد الفيتوري.

وزادت نسبتُه العلميةُ وثاقةً وصلابةً بعد أن لزم أستاذه في التصوف والتربية الشيخ عبد الواحد الدوكالي لمدةِ سبعِ سنواتٍ، درس خلالها عليه مطولاتِ كتبِ العقيدة

الأشعرية والمذهبِ المالكيِّ، وسلك على يديه الطريقةَ العروسيةَ حتى تخرج في مدرسته، كما شهد له أزيد من ثمانين عالمًا بالأهليةِ للتدريس والتربية والإرشاد.

وبعد سلسلةٍ من الحواراتِ والمناظراتِ التي اعترضت طريقَه من علماء الظاهر، تمكَّن من إرساء مشروعه الإصلاحي بعد أن دانت له العلماء، واعترفت بتقدُّمِه وعلمه وفضله، فقصده طلَّاب الحقِّ من أغلب المدن والمناطق الليبيةِ، ومن كافة الأقطار الإسلامية، وما زالت وصاياه ورسائله التي حفظتها كتب التاريخ التي اعتنت بسيرته وحياته – دالة وشاهدة على اتساع أثره حول العالم الإسلامي، فمن رسائله ما وجهه إلى أتباعه في تُونُس، ومنها إلى المغرب، وأخرى إلى تِنْبُكْتُو وسط أفريقيا، بالإضافةِ لتلاميذه الذين انتشروا في الأقطار الإسلامية مشرقًا ومغربًا للنيابةِ عنه في إرشادِ الخلق وسَوقِهم إلى حضرة ربِّ العالمين.

قد لا نَفِي حق هذا الأستاذ الكبير والعلم الشهير سيدي عبد السلام الأسمر في هذه الكلمة، ولكن من المهمِّ أن نوجهَ السؤالَ لمن ينتقدون اليوم التصوف وأهله ويدعونهم للبدعة، فلينظروا معنا في سيرة هذا الإمام والدور العظيم الذي أدَّاه لحفظ هذا الدين، بل ولهم أن يتأملوا في زاويته التي بناها في القرن العاشر، وها هي حتى اليوم بعد مرور 500 عام لا تزال تُحفظ القرآن الكريم، في كرامة مشهودة إذ لم ينقطع فيها تحفيظ القرآن طيلة هذه القرون الخمسة.

لقد جمع الإمام الأسمر في منهجه وطريقته أركان الدين، إسلامًا وإيمانًا وإحسانًا، فالإسلام هو قيام البدن بوظائف الأحكام، والإيمان هو قيام القلب بوظائف الاستسلام، والإحسان هو قيام الروح بمشاهدة الملك العلام، فلم تغادر وصايا ورسائل الإمام الأسمر حرفًا من هذه الأركان الثلاث، بل حثَّ عليها وألزم مُريديه بها بعد أن شرحها وفصَّلها أيَّما شرح وتفصيل رضي الله عنه، فكانت طريقته العروسيةُ منهاجًا متكاملًا لمعايشة منهج حضرة النبي ﷺ في جوابه لسؤال سيدنا جبريل حديث جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان.

إذًا لم يكن الصوفيةُ دخلاءَ على الإسلام، بل عملهم ومنهجهم وفكرهم من صميم الدين، بل وعلومهم وأعمالهم وأحوالهم مسندة إلى حضرة النبي ﷺ، فكما أسندوا الظاهر من علوم الدين من فقهٍ وحديثٍ وغيرها، كذلك أعمالهم وأحوالهم مسندة إلى حضرة النبي ﷺ، فكل الطرق الصوفية تنتهي أسانيدها إلى سيدنا علي بن أبي طالب، باب

مدينة علم سيدنا رسول الله ﷺ، كما حقق ذلك العلَّامة الكبير أحمد بن الصديق الغماريُّ في كتابه (البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية سيدنا علي).

وما دامت علومه وأعمالهم وأحوالهم مؤصلة مسندة إلى حضرة النبي ﷺ، فننظر إلى عمق فكرهم وما يتضمنه من معانٍ، وسنجد أن فيها معاني اليوم نحن أشد ما نحتاج إليها، ولعل حديثنا هنا على احتواء التصوف لمضامين استمرار الحياة والدين حسنة من حسنات هذا المؤتمر عن الإمام الأسمر الذي فتح لنا أُفقًا للحديث عن مثل هذه المعاني، فرَحِمَهُ الله تعالى ورَضِيَ عنه.

من تلك المعاني ما تشترك فيه كلُّ البشريةِ، كالحبِّ وحسن الجوار، وهما معنيان يقدِّمُهما التصوفُ حتى أن الثقافات العالمية عرفت المتصوفة من خلالهما، فأينما حل الصوفي في البيئات والأقطار غير المسلمة كان سلوكه قائمًا على حب كل شيء، وتعامله مع الآخر قائمًا على حسن الجوار، وبهذا الأسلوب أسلم الآلاف على أيديهم.

أقول: إذا مددنا أيدينا اليوم إلى العالم كله من خلال هذين المعنيين لقبلنا الآخر، واستمع إلينا، ولا أحد يعترض على هذا، بل حتى الملحد؛ لأنه يجعل المعيار عنده المصلحة، والمصلحة تقوم أساسًا على حُسنِ الجِوارِ، ولن يجد أفضل من يحسن الجوار ويعيشه كالصوفية.

لقد دخل الناس في دين الله أفواجًا في مجاهلِ أفريقيا وأقصى آسيا، والتاريخ يتَّفقُ على أنهم دخلوا في دين الله على يد الصوفيةِ الذين دخلوا تلك الديار وسكنوها مجاورين بالحسنى لأهلها محبين لهم، واليوم نرى ذلك يتكرر في أوروبا وأمريكا وبقية العالم، حيث يقبل الناس على الدخول إلى الإسلام من بوابة التصوف وأهله ممن يحسنون الجوار وخطابهم خطاب الحب والجمال.

ذلك هو منهج الصوفية في الدعوة الذين بنوا خطابه الذي على قيم الحب والجمال المستلهمة من عمق معنى قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبيَاء:107]، ولو نظرنا اليوم إلى مستجدات عصرنا لوجدنا أن العولمة جعلت الأرض قرية واحدة، لكن بطغيان المادة، حتى باتت الإنسانية اختلالًا كبيرًا في منظومة الأخلاق بغياب الروح والمعنى في حياتها، ولو أحسنا عرض حقيقة الدين ببعده الروحي الصوفي، لوجدنا الناس تدخل في دين الله أفواجًا.

لننظر اليوم كيف يَنشد العالم قيم الحب والجمال في فكر أئمة التصوف كالشيخ محيي الدين بن عربي، ومولانا جلال الدين الرومي، وحجة الإسلام الغزالي وغيره من أئمة الهدى الذين حَمَلَ خطابهم خطاب الأخوة والرحمة والتعايش بين الناس مهما اختلفت أديانهم ومللهم، خاصة وأن الصوفية لهم في الكثير من المفاهيم عرضًا وطريقة مغايرة، كمفهوم الأمة الذين يرونه أنه ينقسم إلى أمة الدعوة وأمة الإجابة، وأمة الدعوة هي الإنسانية كافة الذين تربطهم قيم الأخوة والرحمة والحب والتعايش دون إقصاء أو تمييز.

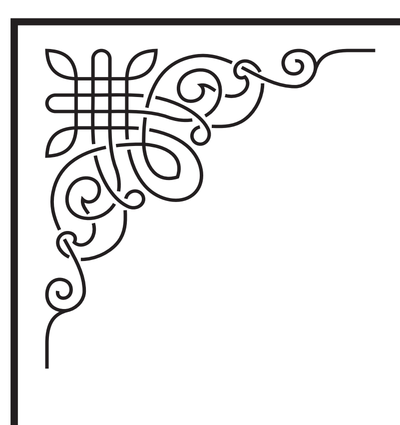
لكل هذا، جاء هذا المؤتمر الكريم؛ ليُعرِّفنا برجلٍ من رجال التصوف سخر عمره المبارك لدعوة كافة الناس للدين الحنيف، ففتح القلوب قبل البلدان، وأثمرت دعوته الصوفية الإنسانية في بناء الإنسان فعمرت الأوطان.

أشد على يد القائمين على هذا المؤتمر الكريم، مؤتمر الإمام الكبير والداعي إلى الله على بصيرة سيدي عبد السلام الأسمر، وأدعوهم إلى عقد المزيد من دورات هذا المؤتمر عن أئمة كرام عظام نَسْتَلْهِمُ من حياة دروسِ الدعوةِ كما أرادها النبي ﷺ وآله.

وأترحَّم على فضيلةِ الشيخ العلامة الصوفيةِ الشيخ أحمد القطعاني، الذي تسمَّى به المركز المنظمُ لهذا المؤتمر، وأرجو الله تعالى أن يسير القائمين على المركز على خطى شيخهم القطعاني رحمه الله، فقد سخر حياته لخدمة الدين والذود عن التصوف ورجاله، وإجلاء صور حيواتهم الكريمة كما عاشوها بعيدًا عن التشويه والتهجم.

رحم الله الإمام سيدي عبد السلام الأسمر، ورحم الله الإمام سيدي أحمد القطعاني.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

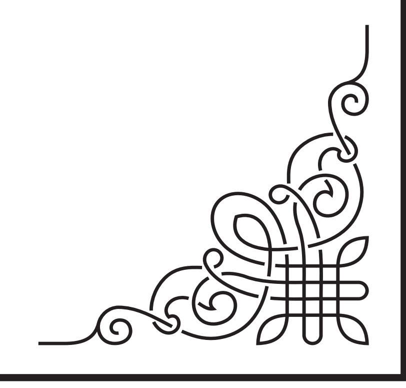


مذكِّرة تعريفية

بالإمام عبد السلام الأسمر

(٨٨٠هـ/ ٩٨١هـ)

إعداد اللجنة العلمية لـ(الدورة الخامسة) للمؤتمر الدولي السنوي عن الشيخ العلامة أحمد القطعاني






الشيخ عبد السلام الأسمر إمام ومصلح ومفكر من أعلام الأمة الإسلامية
(نحو إعادة قراءة سيرته وأعماله)

يُعدُّ الإمام عبد السلام الأسمر الفيتوريُّ من أهم رموز الإصلاح في القرن العاشر الهجري، بامتدادات أثره المحلي والعربي والإسلامي، وبعمقه التاريخي الذي يعود لخمسة قرون.

لقد قضى الإمام الأسمر لياليَ «سمرًا» في طاعة الله يفكر في هموم الأمة، وما أن أشرق نهار ذات يوم بنور وجهه «الأسمر» الوضَّاء الجميل حتى خرج ينقر «الدُّف» بأنامله الشريفة لينساب خلالها فيض حب يتدفق إيمانًا بوحدة الأمة وعزتها وقدرتها على مواصلة السير، ناهضًا بأعباء مشروع إصلاحي متكامل وشامل يبتغي بناء الإنسان والأوطان.

لقد صَدَحَ الإمامُ الأسمرُ بـ«دُفِّه» وجمعَ مِن حوله الناسَ على التفريدِ والتوحيدِ، معلنًا عن مرحلة جديدة من مراحل إحياء أثر النبوة بعد أن امتلك أدوات التجديد، وصاغ محدَّدات ومفردات مشروع تعددت أبعاده في ثراء وتنوع فريد، وتداخلت عناصره في تكامل وشمول، وتجلَّت آثاره في مختلف المجالات والحقول، في المجتمع والسياسة والاقتصاد واللغة والآداب والشعر والفنون، بل واستشراف المستقبل بمهارة تشخيصه لعلل الأمة، وبراعة اقتراحه لعلاجها.

إن الناظر بشمول لأعماله وجهوده وتفاصيل فكره ورؤيته - ليكتشف محدَّدات منهجية يقوم عليها ذلك المشروع الإصلاحي العظيم، وخارطة أساسية توضح مسار تحويل الأفراد إلى صالحين، ونقلهم من ثَمَّ إلى مصلحين، يوائم بين التغيير المتدرج لظرفية وأسباب زمان ومكان «الصالح» في سيره، والتغيير المتعالي عن مؤثرات زمان ومكان «المصلح» بتحميله مسؤوليةَ البناءِ والتوجيهِ والرعايةِ المجتمعيةِ في آفاقِها الإنسانية والكونية، وشتَّان عند الأسمر ومن في طبقته بين «الصالحين» و«المصلحين».

قضايا في ثنايا سيرة الإمام الأسمر وأبعاد في مشروعه الإصلاحي:

- الأمة والعقيدة في الإمام الأسمر:

عاش الإمام في مرحلة مفصليَّة كانت بلاد الإسلام تمر فيها بنكبات وأزمات وتردٍّ حضاري في مختلف مستوياته وصُعُده، والغازي الصليبي يقتطع أجزاء البلاد الإسلامية الواحدة تلو الأخرى. كان الإمام الأسمر يمتلك كل الصفات والإمكانيات لقيادة معارك دموية ضد المستعمر الغازي، لكنه أدرك أن فكر الغازي سبقه، واستقبلته العقول والأذهان، ولذا فالمعركة معركة فكر لا بالعصا والسيف والحجر؛ فاضطلع بمهمة حفظ العقيدة الإسلامية وما يترتب عليها من إنقاذ الإيمان والأخلاق، واستخدم في ذلك وسائل تناسب التغييرَ من القاعدةِ، لا من رأسِ الهرمِ، ووسائلَ تمكنُه من إيصال خطابه لكافةِ فئاتِ مجتمعِهِ، فنظم مئاتِ القصائدِ والأشعارِ بأسلوبٍ سهلِ الحفظ والتداولِ ميسورِ الفهم، وثَّق خلالها آلافًا من أسماء العلماء والمحدثين والفقهاء والأدباء والمؤرخين منذ فجر الإسلام وإلى عصره، وربطها بتفاصيل ما يعايشه من آلام التهجير والنفي والنبذ والإقصاء، ومحيطًا تلك الأسماء والشخصيات بهالة من التبجيل والاحترام، وجعلها محور انعقاد «الحضرة» مصحوبة بذكر الاسم المفرد «الله»؛ ليعززها قيمة أساسية للانتماء وإحياء العقيدة في قلب المريد، وجاهر بها في حِلَقِ «الحَضْرةِ» التي كان يعقِدُها في كل مكان وأينما حل، فتمكن من إشاعتها على كل لسان، ومن ترسيخها ثقافة قائمة في كل ناحية وزاوية وداخل كل بيت.

ولأنه مُجدِّدٌ فهمومه تتعدى القطرية لتشمل هموم الأمة الإسلامية، خصوصًا وأن العقيدةَ وقيمها مُهددةٌ في أكثر من قطر ومكان، فحضرتِ المئاتُ من أسماء الأعلام والشخصيات في قصائده من مصر والحجاز والمغرب والشام والعراق، بل «بمشايخ في الصين والسند والسوداني»، و«رجال المُصامدةِ» وغيرهم بالمئات، ولأن جماعة السامعين من مختلف الشرائح، فلا يكفي لترسيخ كل ذلك الكمِّ من الأسماء بتناول سيرتها ومناقبهم والتعريف بمنتجاتهم الفكرية ومؤلفاتهم، فانفرد عن سائر المصلحين الذين عالجوا قضية العقيدة، بأسلوب وبلغة خطاب خاصة بها يمكن أن يدرك معانيها ومراميها كل من يسمعها، وإن اختلفت طبقاتهم ومستوياتهم التعليمية، وهي لغةُ «الحبِّ»

فلا يمرُّ باسم أو شخصيةٍ في قصائدِهِ إلا ويربطُهَا بعباراتٍ وجُملٍ صوفيةٍ تفيض حبًّا كالغرامِ والهيامِ والسُّكْرِ، فبعضهم «من خمرته سقاني»، وآخرون ذوقوه «طيب الشراب»، ولأنه لا ملجأ للأمة وهي تواجه حربًا على العقيدة فالملجأ والملاذ برموز الفكر الإسلامي، والاحتماء والركون إليهم سبيل يربط حاضر الأمة بماضيها الحصين:

عرفتهم عرفوني، عرَّفوني بالله — من الغرق شالوني الصادقين مع الله

لقد أدرك الإمام الأسمر مقومات وحدة الأمة، ومنها وحدة اللغة التي سعى لتعزيز انتشارها حتى في مجاهل إفريقيا (رسالة الإمام إلى مريديه في تِنْبِكْتُو)، وأيضًا الأمن كعامل مهم للاستقرار واستمرار التواصل الذي لن يتأتى إلا بوحدة العقيدة لا من باب المصادر، بل من باب وعيه الكامل لما تجره اختلافات العقيدة من حروب ونزاعات وفرقة، ووحدة مناهج التفكير لبحث القضايا المتصلة بالتوحيد وفقًا للمنهج الأشعري الأكثر قبولًا وانتشارًا، فركز في دعوته على العالمية بأن أهَّل وأعدَّ كبار تلاميذه في مختلف الأقطار ليكونوا سبيلًا لتطبيق أفكاره الإصلاحية من المغرب (رسالة الإمام لأتباعه في المغرب)، إلى وسط أفريقيا (تنبكتو وأَرْوَانَ) وحتى الحجاز (تلاميذه المباشرين كالشيخ محمد الحطاب)، مرورًا بمصر (تلاميذه المباشرين كالشيخ سالم السنهوري في الأزهر، والشيخ كرين الدين البرموني في طنطا)، وفي كل طبقات المجتمع سواء كانت ثقافية وفكرية أو اجتماعية، أو حتى سياسيةٍ ببناء النماذج المثلى للقيادة (تلميذه المباشر مراد آغا أول الولاة العثمانيين في ليبيا، والشيخ عبد الرحمن المكي أحد أبناء أسرة الشريف الحاكمة في الحجاز).

- نظام الخطاب الأسمري وأدواته:

لقد أدرك الإمام الأسمر أن الخطاب الإسلامي في عصره يعاني أزمة تهدد بنسفه؛ بسبب فقدان النص الديني لروحه نتيجة جمود طائفة العلماء على حرفية النصوص ودوران منتجهم العلمي والثقافي في حلقة مفرغة من معاني ومقاصد وروح الدين من جانب، ومن جانب آخر فصل المعرفة عن الدين لدى أغلب طائفة الصوفية في عصره، وَوَازَى كلَّ ذلك حالةُ التجزئة والانفصال في الخطاب الإسلامي بسبب انبعاث القُطريَّة وظهور الدُّوَيْلَاتِ.

لكل ذلك أطلق الإمام الأسمر خطابًا مبنيًّا على تربية الذوق والحس الجمالي؛ للتنبيه على أبعاد ومقاصد الدين، ويقوم على ثلاث ركائز أساسية، أولها: العودة للأصول

وعلى رأسها القرآن الكريم مُدارسة وحفظًا، وهي المهمة الرئيسة التي اضطلعت بها زاويته في معقل الرئيسي بمدينة زليتن، وثانيها: الذكر بالاسم المفرد (الله) مجاهرة وبشكل جماعي لربط قلب المريد بواسطة علاقة الحب بين الخطاب (النص القرآني) والمُخاطِب (الله)، وثالثها: منظومات شعرية تَغُصُّ بالآلاف من أسماء العارفين من علماء الأمة عنوانًا لـ«الحضرة» كونهم نتاج العلاقة الحقيقة بين المخاطِب والمخاطَب، وربط قلب المريد بهم بعلاقة تفيض محبة، ويزيدها إفراد ذكر الله عشقًا وهُيامًا وبالتالي انتماءً. لقد أعاد الإمام الأسمر ترتيب بناء الهوية الإسلامية، ونبه على أن رباطها الوثيق هو الحب الفياض المفضي لصلابة وقوة الانتماء.

إن حوارات ومناظرات الإمام الأسمر مع مخالفيه ومعارضيه - تكشف بشكل واضح عن تجاوزه الجدلَ الفقهيَّ، وتنبيه محاوريه على أصل الأزمة التي تعانيها المنظومة الفكرية في الأمة وقتها، فما أن حاوره عدد من علماء عصره - ومنهم على سبيل المثال: الشيخ سالم بن طاهر والشيخ سالم الحامدي من ليبيا، والشيخ سعيد التَّطْاوني من تونس، والشيخ محمد الحطَّاب من مكة المكرمة، والشيخ سالم السَّنهوري من مصر، والشيخ العاقب بن أَقِيتَ من تِنْبِكْتُو - حتى أدركوا ما يعنيه ويقصده وانخرطوا في الذكر والحضرة وتركوا كل النصوص الفقهية والفتاوى التي اصطحبوها، وأكثرهم انضم لمشروعه الإصلاحي وأصبح داعية له.

فبالإبداع لا بالدفاع كان يحاور الإمام الأسمر محاوريه، ويقبل النقد من كل مخالف له في الرأي، ويتبنى في ذلك مبدأ أساسيًّا تؤكده نتيجة كل المناظرات التي واجهها وهو مبدأ «التجاوز والاستيعاب»، فلم يمنعه مخالفة مناظريه الشديدة له من قبولهم واستيعابهم، بل وذهب للتأسيس لذلك في المنهج التعليمي في الزاوية؛ إذ فرض دراسة علم «المنطق» إلى جانب علم «النحو»، مؤكدًا على ضرورة اقتران عملية إصلاح اللسان بالأذهان.

- التدوين الأسمري، وقضية الشعر والأدب:

ترك الإمام الأسمر عددًا من المؤلفات لم يَسْلَم منها سوى وصيتيه، «الكبرى» و«الصغرى»، وكتاب «الأنوار السنية» وثّق فيه أسانيده ومروياته، وعددٍ من رسائله التي وجهها لأتباعه داخل ليبيا وخارجها، فهي كل ما نجا من مؤلفاته إثر هجوم كاسح مدمر نفذه مدعي النبوة يحيى بن يحيى السويدي المدعوم من منظمة فرسان القديس يوحنا،

لكن الإمام الأسمر ترك مع مؤلفاته المكتوبة تراثًا شعريًّا هائلًا لا يكاد يجاريه في غزارته أحد، وكأنه أدرك أن المخاطر المحيطة بجهوده قد تهدد تراثه المكتوب، فعمد للتدوين الشفوي لحفظ فكره وآرائه، وهو ما يفسر لنا سبب نظمه لأشعاره بأسلوب عامي الألفاظ يسير الفهم؛ ليتمكن من حفظه في الأذهان والقلوب ويستمر تناقله من بعده لأجيال وأجيال وهذا ما حدث بالفعل.

وتميُّز أسلوب الإمام الأسمر ومفهوم الشعر عنده يدعونا للقول إلى أنه ساهم في دفع الحركة الأدبية نحو المزيد من التطور، لكن الأهم من ذلك هو الانتباه لما حوته نصوصه الشعرية من قضايا وأغراض، فـ«الأنا» الحاضرة بقوة وكثافة في كل أشعاره بتعبير (أنا الشيخ الأسمر) تمثل قضية مهمة من قضايا شعره، فبتتبعها ورصدها في سياقاتها ومواضعها نجد أنه يعلن من خلالها على نموذج معرفي جديد من زاوية الاختلاف، لا من زاوية التجانس المجترِّ الذي لا ينتج إلا نماذج قديمة مكررة، فالإعلان عن «الأنا» إعلان عن جديد مختلف منفتح على الآخر متعدد المشارب والروافد، لكنها «أنا» في ذات الوقت لا تقطع معارفها مع الماضي؛ ولذا فهي «أنا» تقترن دومًا بعشرات الأسماء من أصحاب التجارب السابقة بكل أبعادها الفقهية والحديثية والأصولية والتاريخية والصوفية، ويحمل في طيات استغاثته بهم، وطلبه حضورهم لنصرته استدعاءً لمضامين مشاريعهم ومنتجاتهم الفكرية والمعرفية، وربما يريد بالإعلان عن «الأنا» القول بأنه الجامع لكل تلك المضامين في مشروعه الإصلاحي.

- الإمام الأسمر مؤرخًا بنمط خاص:

وتدفع الملاحظات المتصلة بالأسماء والشخصيات التي ضمنها قصائده ونصوصه الشعرية، للانتباه إلى بُعد آخر في شخصيته يتعلق بكونه مؤرخًا تمكن من نقل المعرفة التاريخية التخصص إلى ثقافة شائعة وسائرة في كل الأوساط والشرائح المجتمعية، من خلال أداة الشعر العامي سهل التناول والفهم، واعيًا بأزمة المنهج والتخصص وقضية احتكار المعرفة في النخبة والصفوة العلمية. وبمزيد من التدقيق يمكنِ التعرف على سَعةِ معارفِهِ التاريخية، التي تدل على أنه قضى وقتًا طويلًا في قراءة مظانِّ التاريخ ومصادره وكتبه وتدقيقِ نصوصها وربطِ القضايا التاريخية بعضها ببعض، ويظهر هذا جليًّا في قدرته على إيراد المناسب منها لحاله وظروفه التي يعيشها، ولنا أن نتأمل مثلًا في قوله في إحدى قصائده:

بعثمـــان وجعفـــر يـــا اللـــه اقبلنـــا أيـن سـيدي أبـو دخيـل ومـن ندهـم يضـوا

لندرك أنها أسماء رصفها في هذا البيت بعناية ودقة ووعي، فإقران اسمي سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا جعفر بن أبي طالب يعكس درايته الواسعة بتاريخ الصدر الأول للإسلام، فقد كانا على رأس الصحابة المهاجرين إلى الحبشة؛ بسبب قسوة المعارضة في مكة المكرمة، وهما مثالان مناسبان لظروف التهجير والنفي التي يواجهها، وهما اسمان مناسبان أيضًا ليترجم ما يعانيه من خلال نموذج آخر عاش ظروف التهجير والنفي أيضًا من العراق إلى الجزائر، وهو سيدي أبو دخيل.

ولا يغفل الإمام الأسمر أهمية الجغرافيا وتوظيفها في منهجه لتناول التاريخ، فكثيرًا ما يحدد سكنى الشخصية أو ناحيته كـ«سيدي القديدي في فزان»، والمشاط «ساكن المدينة»، و«فتح الله السوداني يا ساكن الخرطوم»، والجيلاني «ساكن بغداد»، وتعطينا بعضها صورة أكثر دقة عن درايته الواسعة بالجغرافيا ومسميات المدن والمناطق وتاريخها، كما في قوله:

عـــيـــبـــي عـــلـــى الـــنـــجـــار والـشـاطـبـي ومـشـايـخ الـقـبـلـه

ورجـــــــال جـــبـــل الـــطـــار يـــأتـــونـــي بـخـيـولـهـم عـجـلـه

فالنجار والشاطبي من علماء الأندلس، وينتميان لمناطق قريبة من جبل طارق الذي يعرف عند الإسبانيين بـ«جبل الطار»، أما ربطهما بـ«مشايخ القبلة» في ليبيا، فلوجود جبل يُعرَف باسم «جبل الطار» أيضًا قريبًا من سوكنة في منطقة القبلة بليبيا، وربما تكون هناك روابط أخرى يدركها الإمام على علاقة بميادين المعرفة التي اشتهر بها النجار والشاطبي، كونهما من رجال علم الأصول، بشخصيات لها منتجها في هذا الميدان، وعاشت في منطقة القبلة بليبيا.

والمسح الإحصائي الذي أجراه لأعلام وشخصيات كامل التاريخ الإسلامي والتأريخ لهم ببراعة وعبقرية فريدة - يجعل أشعاره من مصادر التاريخ الهامة جدًّا.

- معجم الإمام الأسمر المصطلحي:

والقارئ لرسائل ونصائح الإمام يظن للوهلة الأولى أنها كغيرها من نصائح الدنيا والدين للتوجيه والتذكير، وإن ضمَّنها اصطلاحات وعبارات الصوفية فهي لا تغادر معانيها الصوفية السائرة في أوساط أسلافه من أهل التصوف، لكن ما أن يشدَّ الهمة

والعزم بالقراءة العميقة حتى يكتشف أنها تحتوي على ثروة مصطلحية كبيرة، يفضي تحديد مفاهيمها إلى إمكانية جمع معجم مصطلحي أسمري.

نعم هي اصطلاحات وألفاظ ذات أصول صوفية في العمق، لكنها أسمرية الذوق والتطبيق، فـ«الحضرة والذكر والوجد والفن والغرام والسُّكْر والفناء والعذول والحب»، وعشرات الاصطلاحات الصوفية الأخرى لها دلالاتها الخاصة في كلامه وشعره، ويوجهها توجيهًا إيجابيًّا بغرض خدمة أهداف مشروعه، ومن أمثلها:

- «الفقر» الذي جعله جزءًا رئيسًا من عنوان أهم وصاياه: (الوصية الكبرى لمن أراد الدخول في طريقتنا مع الفقراء) فرَّغ محتواه السلبيَّ الدَّالَّ على كل ما يتعلق بفقد فرص العيش الكريم والتعليم بل والتمييز الاجتماعي، وملأه بقيم صوفية عالية، فالفقير يحتلُّ مكانة سامية في مجتمع طريقته الصوفية التي توفر له فرص العمل والعيش الكريم والتعليم، بل وتنزع من وجدانه ونفسه كل الرواسب السلبية لدلالة كلمة الفقر، وأصبح الفقير العروسي مثالًا للرفعة وسعة العيش والتعليم والثقافة.
- «الاستغاثة» وكل ما يتصل بها من توسل ولجوء ونداء، يتجاوز بها ضيق الجدل الفقهي إلى مساحة أوسع ضمن قضية لا توقف عند المحلية والقطرية، بل قضية تعني الأمة بأسرها، فربط في قصائده بين المحن وظروف التهجير والنفي التي قاساها بالاستغاثة بشخصيات عربية وإسلامية، وكأنه ينبه على أبعاد العالمية في مشروعه، فقضية العقيدة وما توجهه من تلاشي قضية ليست محلية، بل إسلامية، وأن التمسك بالإرث الذي تركته تلك الشخصيات التي يستغيث بها على تنوعها منتجاتها فقهية وحديثية ولغوية وتاريخية وأدبية هو الحل والطريق الوحيد للحفاظ على وحدة الأمة.

- نظرية المعرفة لدى الإمام الأسمر:

والغوص عميقًا لتحديد المعاني الأسمرية في تلك الاصطلاحات - يدعونا للانتباه إلى تفحص الكثير من العبارات والجمل التي وردت في وصايا ونصائح الإمام، وما تضمنه من معطيات هامة توضح لنا نظرية المعرفة لديه، فالمباحث المتصلة بـ«التوحيد» و«العقيدة» في وصاياه ورسائله ناقش فيها قضية الإيمان بشكل واسع، وهل الإيمان طريق للمعرفة أم المعرفة طريق الإيمان؟ وتصوره لأعمال الحس والعقل والقلب، وأيُّها يصل بالإنسان إلى المعرفة الحقة، وربط قواعد الكلام الأشعري بالمعرفة الصوفية القائمة على

الذوق، ويؤكد بذلك بأن المعرفةَ الإيمانيةَ اليقينيةَ لا يتجاوز معرفةَ الحسِّ والعقلِ، بل يتكاملُ معها.

- الفكر السياسي للإمام الأسمر:

وليس الإمام الأسمر كغيره من الشخصيات التي لا تعي أهمية البعد السياسي في بناء وإنجاح المشاريع الإصلاحية، فما تَضَمَّنَتْهُ نصائحه من التحذير بالاقتراب من السلاطين والحكام، وعمله على تفكيك المفاهيم والاصطلاحات ذات العلاقة بالحكم والسياسة، ففي إطار عمله على تنقية الوسط العلمي والصوفي من تداخل المفاهيم والاصطلاحات والرتب، يُنبِّه على الفرق بين «مشايخ» العلم ومشايخ السلطة كـ«شيخ العرب... وشيخ الرعية» الذي يستخلص من الناس «أموال السلطنة، فهذان يقال فيهما: إنهما من أولي الأمر؛ لأنهما من تحت أعلام الأمير، وما أقاما بتلك المرتبة إلا بإذنه» (الوصية الكبرى).

وتضمَّنَت مواضع أخرى في الوصية الكبرى ترتيبًا لهرم السلطة في عصره، فهم على التوالي: «السلاطين والقواد والوزراء والحكام» ما يعني درايته ومتابعته للشأن السياسي.

ويشدد الإمام على مريديه على عدم الاقتراب أو الوقوف في باب الحكام والسلطة، ورفض ما يصلهم منهم، وهو سعي ولا بد أنه كان يهدف منه لخلق معارضة سلمية مجتمعية تقوم على «الزهد»؛ لموازنة النفوذ السياسي للحكام من جانب، وتأمين مؤسسته وطريقته من نفوذ السلطة من جانب آخر، خصوصًا وأن من يزهد في أموال الحاكم ويمتنع عن الاقتراب من أبوابه لا يمكن استمالته أو شراء ذمته.

ومن صور المعارضة لظلم الحكام والحد من نفوذهم، ما تضمنه أحد أحزب طريقته من المجاهرة بالدعاء والاستعادة من «جور المخازنية وظلم الجبابرة العادية»، وهي معارضة علنية؛ إذ أحزاب الطرق الصوفية لا تقرأ إلا جهرًا، وفي الملأ من الناس.

كل المواقف توجه إلى وجود فكر سياسي للإمام الأسمر، خصوصًا وقد خشيت السلطة من نفوذه السياسي، فأقدمت عديد المرات على الاصطدام به نفيًا من زليتن، وتضييقًا عليه في ساحل الأحامد، ثم نفيًا من طَرابُلس، ثم محاصرته بجيش لَجَبٍ على رأسه قائد السلطة الإسبانية في قلعته في سوف الجين، فمشاركة الإمام الأسمر في الحياة

السياسية تفتح الآفاق والباب أمم استجلاء أسلوبه وطريقته في التعاطي مع القضية السياسية، سواء في الفترتين الإسبانية أو العثمانية.

رسالة الإمام الأسمر الاقتصادية:

أولى الإمام الأسمر الاقتصاد وشؤونه أهمية كبيرة، وفي نصائحه ووصاياه الكثير من ذلك، ومنها عنايته الشديدة بتقويم السلوك الاستهلاكي كناتج من نواتج «الإسراف» الذي شدَّد على النهي عنه بكل صوره المتصلة بحياة الفرد أو الأسرة أو الجماعة، والتحذير من الكسب غير المشروع المعبر عنه بـ«السحت» ومضاره.

وفي مقابل التخلي عن المظاهر السلبية المتصلة بالعملية الاقتصادية، نجد له عناية خاصة بتشجيع وتوطين الأنشطة التجارية والصناعية والفلاحية، حتى أنه خصص أصحابها بـ«أوراد» تميزهم عن غيرهم، بل وحثَّ مريديه على ضرورة العناية برفع مستوياتهم المعيشية، حتى أننا نجده يطلب منهم ارتداء فاخر الثياب غالية الثمن كما في وصيته الكبرى، وكيف يأمر مريديه بشيء ليس في مستطاعهم، فنصائحه ووصاياه كما أسلفنا جاءت في مرحلة أخيرة من عمره المبارك، ما يعني أنه وصل بمريديه لمستوى هم بالفعل قادرون على تلبية أوامر شيخهم.

الإمام الأسمر والعمل المؤسسي:

ويفضي الحديث عن جانب الاقتصاد، ودلائل حضوره القوي في مشروع الإمام الأسمر إلى الحديث عن ملامح عمله على إحلال وإشاعة ثقافة العمل المؤسسي، فتقسيم «أوراد الطريقة» وَفْقًا لشرائح من حوله من المريدين، كوِرد «الطلبة والفقهاء والمشتغلين بتعليم العلم والنَّسيخة والنَّسَّاخين»، وورد «أصحاب الفلاحة والاشتغال»، يشير إلى ذلك، كما أن مجموع هذه الأوراد يكشف لنا عن المجموعات والشرائح التي عمل على تكوينها وبنائها، وهي:

الطلبة، الفقهاء، المعلمون، معلمو مهنة النسخ، النساخون، الفلاحون، أصحاب الاشتغال في الحرف والمهن الأخرى، ويربط كل مجموعة ببعضها لخلق فضاء خاص بهم.

ويلاحظ أنه بدأ بمركزية العلم في مشروعه بعملية تعليمية قائمة على فكرة المؤسسة، أضلاعها الطالب والمعلم والكتاب، وبإدارة شريحة «الفقهاء» الذين ميزهم

عن «المشتغلين بتعليم العلم». ويبدو أن شريحة الفقهاء تمثل إدارة الزاوية، وهي المسؤولة عن رسم سياستها التعليمية والإشراف على تنفيذها.

وبالتوازي مع حركة العملية التعليمية توجد حركة لإحلال وتوطين نشر الكتاب في الزاوية ومحيطها، من خلال شريحة «النسَّاخين»، ولاستمرار حركة النشر فقد ضمَّن العملية التعليمية في الزاوية تعليمَ النسخ، ويدل عليه وجود «المشتغلين بتعليم النَّسِّيخة» ضمن المشتغلين بتعليم العلم. ولإعطاء صورة عن كثافة المشتغلين في مهنة النسخ نجد في سيرة الإمام الأسمر أن له أربعين كاتبًا، منهم سبعة لا يفارقونه قط، عدا المتفرغين لنسخ كتب المكتبة وأرشفتها وجلب مواد النسخ كالورق والمداد وغيرها، وأيضًا في وصيته تشديد على ضرورة تلاوة القرآن لمن لم يحفظه: «فإن لم تحفظوه فاقرأوه من النسخة»، وغني عن البيان أن نسخ القرآن الكريم علم قائم بذاته يتخصص فيه أصحابه بمعرفة رسم القرآن ومواضع علامته وحروفه ونجومه وأجزائه وغيرها، ولكثرة ما تحتاجه الزاوية من نسخ القرآن الكريم وجدت مهنة «تعليم النَّسِّيخة» في الزاوية.

ويلي مركز العلم في مشروع الإمام الأسمر تنظيم العمل وَفْقًا للمهن الأبرز: «النساخين»، و«أصحاب الفلاحة» و«أصحاب الاشتغال»، ويبدو أنه ضم المهن والحِرَف في مجموعة واحدة لعدم وجودها بكثافة وتوسع، وبهدف تشجيعها وتنميتها لقاء توسع مهنة الفلاحة وحركة النشر.

فالناظر في تقسيم الأوراد يدرك أنه أمام نسق مؤسسي متكامل البناء يرتبط بالمركز، وهو الزاوية بشكل يومي، فالأوراد يتلوها المريد يوميًّا، مُطلِقًا بذلك فكرة التعبد بالعمل والأشغال والوظائف، وربط العمل بالعلم، فالطالب والمعلم مرتبطان بأصحاب حركة النشر والطباعة، والفلاح والمشتغل أيضًا في المهن والحِرَف الأخرى، في سعي لإشاعة فكرة المؤسسة وإتقان العمل الوظيفي ضمنها.

الفكر الاجتماعي لدى الإمام:

القضايا والمشكلات الاجتماعية التي عالجها الإمام تكاد تخرج عن الحصر، لكن يُركِّز على بعضها في رسائله ووصاياه، كخطابه الذي وجَّهَه لشريحة الشباب من مريديه ناصحًا لهم بضرورةِ اختيار الزوجة، بل وتحديدِ مواصفاتِ الزوجة، وتكثيفِ نصائحه حول إشاعة ثقافة الأسرة المتوازنة، بل والحثِّ على الاهتمام بشراء المسافر هدية لزوجته حين رجوعه، والرقي بالثقافة الصحية الأسرية حيث نجده يتابع بدقة الأمراض والأوبئة المتفشية في عصره، ويساهم في وضع الحلول لها، وإن كانت في أقطار بعيدة.

وهو واعٍ بشدة لأهمية اختلاف أنماط العيش في الأرياف والمدن، فتحديده وضبطه للعلاقات الاجتماعية في المدن كما يظهر من رسالته التي وجهها لأتباعه في طرابلس حاضرة البلاد، تختلف بشكل كبير عن النصائح في القضايا لأتباعه في مناطق أخرى يغلب عليها الطابع الريفي، كما في رسالته لأهل تونس، فأغلب أتباعه فيها من سكان الأرياف.

وللمرأة حضور كبير في وصاياه ورسائله، ويحدد علاقتها بالمحيط المجتمعي، بل ولها حِلَقها العلمية والصوفية الخاصة بها، فعندما ينهى عن عدم الاختلاط في حلقات الذكر بين الرجال والنساء، فهو ضمنيًّا يشير إلى وجود حلقات خاصة بالنساء.

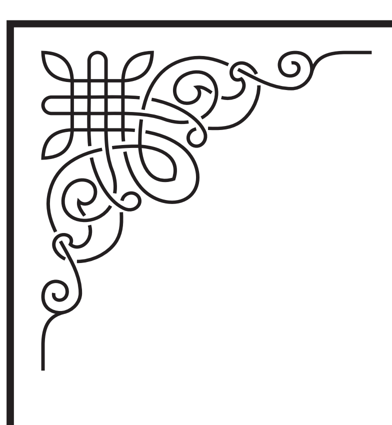
إن نصوص الوصايا والرسائل تتوفر على قدر كبير من جهود الإمام في نشر الوعي الصحيح بالحياة وعمران الأرض، ومنها نهيه عن الإفراط في الحزن على الميت، والكف عن المظاهر الضارة المصاحبة للمآتم، يعني سعيه لإشاعة حب الحياة واستمرارها لمهمة إعمار الأرض، فالحياة لا تتوقف بوفاة أي فرد، ولو كان ذا مكانة بارزة.

وكل القضايا والمشكلات الاجتماعية يلاحظ أنها قضايا ومشكلات عامة، وليست خاصة بزمن أو مكان معين، ما يبرز لنا جانبًا آخر من جوانب المشروع الأسمري الإصلاحي الرامي لِخَلْقِ خطاب إصلاحي لبعث الحياة في الأمة الإسلامية.

ويظهر أثر الإمام في عصره ومن بعده في ثنايا تراجم تلاميذه التي تعكس في جملتها صورًا من المستوى الحضاري الذي عاشه الوسط الأسمري العروسي، ليس في ليبيا فقط، بل في أغلب المناطق التي وصلتها الطريقة العروسية بتجديد الإمام الأسمر، فأهم تلاميذه وهو الشيخ عبد الرحمن المكي الحجازي يقول في مجموع الصغير: «ولو عاش بعد ذلك لاتخذه أهل المشرق والمغرب مذهبًا؛ لعلو ذوقه».

إن وصايا الإمام الأسمر ورسائله خلاصة مشروعه ونتيجة ثمرة جهوده، وهي المصدر الأول المباشر لدراسة حياته وفكره وجهوده، خصوصًا إذا لاحظنا أنه كتبها في أواخر حياته المباركة، وطبعها بطابع الوصايا والنصائح، فالوصايا آخر ما يكتبه الإنسان قبل انتقاله للرفيق الأعلى.

فما أحوجَنا اليوم لإعادة كتابة سيرة الإمام الأسمر بإعادة بناء مصادر سيرته وفكره وحياته، والبحث في ثناياها عن الصورة الصحيحة واللائقة به كمجدِّدٍ من مجدِّدِي الأمة الإسلامية.

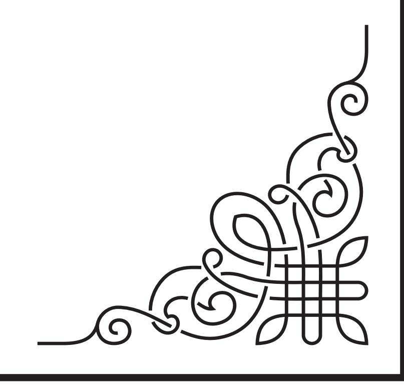


مذكرة تعريفية

بالعلامة الشيخ المصلح أحمد القطعاني

(1965 - 2018)

إعداد اللجنة العلمية للدورة الخامسة للمؤتمر الدولي السنوي عن الشيخ العلامة أحمد القطعاني







الشيخ المصلح أحمد القطعاني
وجهوده في التأريخ للإمام الأسمر

العلَّامة الشيخ أحمد القطعانيِّ المالكيُّ الأشعريُّ، هو عالم ليبي متخصص ومشارك في أغلب العلوم الإسلامية، تجاوزت مؤلفاته الثمانين مؤلَّفًا في شتَّى المعارف، بالإضافة لكونه الشيخَ العامَّ للطريقة العيساوية حول العالم، فهو من أبرز رموز التصوف المعاصرين.

وُلِدَ شيخُنا د. أحمد سالم كريم القطعاني بمدينة دِرْنَةَ/ ليبيا الأحد17 صفر1376هـ، الموافق 23/ 09/ 1956م، وانتظم في سلك المدارس النظامية في بنغازي إلى أن تحصل على إجازة التدريس الخاصة من معهد المعلمين، وليسانس في الشريعة الإسلامية، ثم دكتوراه في التاريخ والفكر الإسلامي.

وتخلل ذلك إيفاده إلى الدراسة في بريطانيا عام 1979م، فدرس اللغة الإنجليزية في معهد باتمان بجامعة أكسفورد، وتحصل منهما على شهائد في إتمام دراسة هذه اللغة، قبل أن ينتقل للدراسة في جامعة غرب إنجلترا، فتحصَّل من كلية العلوم التطبيقية على شهادة في التعليم العالي، تشمل إدارة التعليم واستخدام التقنية في المؤسسات التعليمية وإدارة الموارد البشرية، بالإضافة لشهادة نظام التعليم في إنجلترا.

ومن ذات الكلية تحصَّل على شهادة المستوى الأول في الإنجليزية وفق نظام كامبريدج، بالإضافة لشهادات في المونتاج الفني وما يتصل بها من تحرير الصوت والصورة والفيديو وعمليات الكاميرا وكتابة السيناريوهات.

شيوخه وأساتذته في ليبيا وخارجها

وجمع شيخنا بين التعليم المدني والديني، فقد وفَّر له الانتماء الصوفي لأسرته ظروف الانخراط في حِلَقِ التعليم بزوايا مدينة بَنْغَازِي، فأخذ عن أساتذة وشيوخ أَفْرَدَ

للتعريف بهم مساحات واسعة في كتبه، قال في بعضها: (أما العلوم الإسلامية، فأول ما أخذتها ببنغازي عن أحد رُوَّادِ التعليم ببنغازي العلَّامة الشيخ محمود دريزة في جامع بازامة، ولزمت العارف بالله العلامة الشيخ محمد عبد ربه سليمان المجبري أربعة أعوام متواصلة أخذت عنه فيها التفسير والحديث والفقه المالكي والسيرة والرقائق بمنزله الكائن بحي الصابريِّ، ولزمت العلَّامة الأزهري القاضي الشيخ محمد أحمد بو سنينة عامًا كاملًا أخذت عنه فقه العبادات وَفْقَ المذهب المالكي بمنزله الكائن بحي الصابري، كما أخذت فقه المعاملات عن ولي الله الشيخ مِفْتَاحِ عبد الواحد بن إسماعيل في جامع بازامة أيضًا). كما أخذ عن آخرين في بنغازي كالقاضي الشيخ عبد السلام بوطلاق، والشيخ محمود دهيميش، وولي الله الشيخ فرج حمِّي الأَوْجَلِي، والشيخ منصور حمد العمامي، والعالم المغربي المهاجر الشيخ حمد البِهَالِيِّ السملالي.

وتضم قائمة أساتذته وشيوخه علماء آخرين من مدن ومناطق أخرى، منهم الشيخ محمد مكي حسان من مدينة دِرْنَةَ أخذ عنه التفسير والحديث والسيرة والفقه المالكي والأدب، والشيخ محمد حمد القديري، والشيخ محمود الديباني كليهما أخذ عنهما الفقه المالكي والأدب.

ورغم دراسته للتصوف على يد أغلب أساتذته السابقين، إلا أنه أخذ الطريقة العيساوية بالصحبة والسلوك على يد عمدة أساتيذه علامة عصره الشيخ مختار محمود السباعي بمدينة مصراتة. واهتم شيخنا في وقت مبكر من حياته بالتاريخ الليبي الذي شكل محور كتاباته، وتجاوز اهتمامه بدراسة مصادره ومراجعه إلى البحث عن مصادره الشَّفَهِيَّةِ، فقد روى تاريخ ليبيا غير المكتوب عن عمه الوجيه الحاج إدريس كريم من منطقة البطنان، وولي الله كبير السادة السّنُوسِيَّةِ الشيخ نصيب رسلان الشاعري من الجَغْبُوبِ، ومؤرخ السنوسية الشيخ عبد المالك بن علي الدَّرْسِيِّ المقيم بالحجاز، وذاكرة طرابلس ودائرة معارفها الشيخ محمد صباكة.

وأتاحت له ثقافة الزوايا الصوفية معرفة علوم السماع والموسيقى بتوسع دراية ورواية، وثق منها في كتبه 190 مسموعة من نوبات المألوف والموشحات والإنشادات الصوفية والعروبيات بأوزانها وألحانها وطبوعها ومقاماتها، عن 22 أستاذًا من بنغازي ودرنة ومِصْرَاتَةَ وسَبْهَا وتَاجُورَا وزاوية المحجوب وطرابلس.

الإسناد والرواية والتاريخ الليبي

شكلت تلك المعارف قاعدة صلبة لتخصصه في مختلف العلوم الإسلامية المعروفة، ومنها علوم الإسناد والرواية المتصلة بأغلب العلوم الإسلامية كالحديث الشريف وفنونه، واللغة وآدابها، والعقيدة والفقه والأصول والقراءات، حتى أنه يروي عن 77 عالمًا من ليبيا وتونس والمغرب ومصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة والإمارات والعراق واليمن وسوريا والسودان والأردن وتركيا والهند وأمريكا وجنوب أفريقيا، حتى عُرف بـ«مسند الديار الليبية».

واعتنى بشكلٍ أساسيٍّ بوصل الإسناد الليبي وتوثيقه واستخراج أسانيده في العديد من الأثبات التي كتبها، خاصة ثبَتَهُ الكبير «أوبة المهاجر وأوبة الهاجر» الذي يعد أوسع مدونة ليبية توثق للحركة الثقافية والعلمية الوطنية، يقول في بعض مواضع هذا الثبت: «جمعت أسانيد المحدثين الليبيين الأوائل، ووصلت من أخذ عنا بهم، فحفظت - بفضل الله - بذلك تاريخ مُحَدِّثِي ليبيا وجهدَهم من الضياع، ووثَّقْت اسم ليبيا بين دول الحديث الشريف بعد أن اختفى أو كاد علـم الحديث وإسناده في ربوعها، فصار طلاب الحديث من بقاع مختلفة يقصدونها ويقصدوننا وتلاميذنا وتلاميذهم للأخذ والرواية وطلب الإجازة»، واستخرج المئات من الأسانيد الليبية، ووصل المندثر منها واتصل به وأخرجه للوجود، وفي ذلك يقول: «أوجدت الحديث المسلسل بالليبيين، وأخرجته إلى الوجود، ووصلت أسانيد ليبية توارت وعفى عليها الزمن وكادت تموت كسند علي بن زياد الطرابلسي، وابن زكرون، وعبد السلام بن غالب المِصْرَاتِيِّ، ومحمد الخروبي، وأبي الحسن بن المنمر، ويحيى البرقي، ومحمد بن مساهل، وأحمد المكني، ومحمد الحطاب، وأحمد البهلول، وعبد الرحمن ضوي الغَدَامِسِيِّ، وشامل بن مسعود الطرابلسي، وسالم البلعزي، وعبد القادر الفيتوري، وحسن عويدان الفيتوري».

وفي المجال الصوفي استخرج «سند الشيخ الشعاب، وهو أقدم سند يتصل بعلم ليبي متوفٍّ على تراب ليبيا على الإطلاق، وهو الشيخ عبد الله الشعاب، المتوفَّى سنة 243هـ، 857م».

وفي غير هذه التخصصات شارك شيخنا في أغلب الاهتمامات المعاصرة، حتى أنها شكلت أحد أهم انشغالاته، كقضايا الطفل والمرأة، ومقاومة جهود حملات التنصير والتبشير في أفريقيا وآسيا، وأوضاع الجاليات المسلمة حول العالم والمؤسسات

الدعوية، كما أن له جهودًا مشهودة في الدعوة إلى الإسلام في أكثر من دولة حول العالم، وأسس تلاميذه المباشرون وبإشرافه معاهد مدارس وجامعات لتدريس علوم الإسلام في مانشستر ببريطانيا، وأتلانتا بأمريكا، وجُوهَنْسِبِرْغَ بجنوب أفريقيا، وأُسْلُو بالنرويج.

جهوده وأعماله المؤسسية

ولم تقف جهود شيخنا عند التأليف والدرس، بل نقل وأدار معارفه ورؤاه وأفكاره ونظمها في أعمال مؤسسة، بدأها مطلع الثمانينات بتأسيس «الزاوية الأم» بمدينة درنة التي انبثقت عنها العديد من الزوايا الأخرى داخل البلاد، وتوسعت أعماله لتضم أنشطة خارج البلاد حيث له العديد من عضويات في العديد من المراكز العلمية والبحثية حول العالم، منها عضوية المجلس العلمي العالمي بالقاهرة، وعضوية مؤسس لمعهد الدراسات الإسلامية في جوهانسبرغ بجنوب أفريقيا، وعضوية لجنة إحياء جامع الزيتونة في تونس، كما استضيف للمحاضرة بعدد من دول العالم، في جامعة كامبريدج، وجامعة مونتي كلير، وجامعة كيب تاون، وجامعة القرويين، وجامعة المدينة بأتلانتا.

- مؤسسات تعليمية:

1 - الزوايا، انبثقت من الزوايا الأم بمدينة دِرْنَةَ، قرابة 15 زاوية في مختلف المناطق والمدن الليبية، سارت على المنهج العلمي النظامي الذي أسسه عليه الزاوية الأم، والعشرات من الزوايا الأخرى خارج ليبيا في تونس ومصر والعراق والمدينة المنورة، وماليزيا وأندونيسيا وبريطانيا وجنوب أفريقيا وأمريكا.

2 - معهد الصحابة الديني، تأسس عام 1996م وفقًا لقوانين إنشاء المنارات الشرعية الحكومية في ليبيا، إلا أن أصله «الزاوية الأم» في مدينة درنة بعد أن طورها ونقلها إلى المستوى الأكاديمي.

3 - دار الحديث الشريف، وهي من المدارس التي انبثقت عن «الزاوية الأم» أيضًا، أسسها في طرابلس بجامع أحمد باشا عام 1994م، قبل أن يضطر إلى إيقاف الدروس بسبب عدم تجاوب السلطات مع فكرة الدار بعد الموافقة على إنشائها، ونقل نشاطها إلى منزله، في ضاحية تاجوراء المجاورة لطرابلس، وعقد فيها «مجالس سماع الحديث الشريف ناشرًا علومه دراية ورواية على الآخذين والراغبين داخل ليبيا وخارجها، وكتبتُ الإجازات، وبذلت جهدي للتوسع في ذلك حتى تجاوز عددهم المئات ذكورًا وإناثًا،

آملًا أن تقوم منهم كوكبة مثابة مشكورة بمواصلة هذه الرسالة الخالدة بعدي؛ كي يعم نورها دنيا الله قاطبة».

- مؤسسات ثقافية:

1 - المزار: أطلقه عام 1999م كموسم علمي ثقافي سنوي، وضمنه برامج علمية كثيفة ومتنوعة بين ثقافية وعلمية بروح صوفية لا تخفى، يقوم على التخطيط لها وتنفيذها من خلال كبار مريديه، ومنها محاضرات تثقيفية في شتى المعارف، في الصحة والبيئة والأدب والتاريخ وقضايا المجتمع يدعو لإلقائها كبار المتخصصين والأساتذة من داخل البلاد، وتضمن المزار كذلك إقامة معرض للفنون التشكيلية ومعرض للمقتنيات التاريخية للتعريف بتراث البلاد وتاريخها؛ بهدف ربط الصلة بين الحاضر والماضي تعزيز للانتماء والهوية. وهدف من خلال «المزار» إلى تحديث معاني ومضمون المواسم الصوفية وَفْقَ رسالتها الأساسية، وهي معايشة الواقع والمشاركة في مواجهة تحدياته، وتجاوز محتواها القديم الجامد عند حدود إقامة مراسم فنية في شكل مواكب فولكلورية فقط،، فمُسمَّى «المزار» علمٌ بات محصورًا في المجتمع على الاحتفالات التي تقام في معاقل التصوف لزيارة الأولياء والزوايا. وشكل استمرار انعقاد هذا الموسم السنوي الصيفي ولمدة 12 عامًا تيارًا خلق خطابًا عمليًّا في الأوساط الصوفية، وفتح آفاقًا جديدة للمعنى الصوفي الإصلاحي في عمقه البعيد.

2 - مجلة الأسوة الحسنة، وهي أول مجلة صوفية تصدر في ليبيا، أسسها عام 1998م، وصدرت شهريًّا دون توقف حتى عام 2011م، ومثلت أحد أدوات الخطاب ضمن جهوده في تحديث وتجديد وسائل الإصلاح، وقناة للتواصل مع كافة الشرائح المجتمعية والثقافية والعلمية؛ لنقل فكرته عن التصوف، وطرح تصوراته وحلوله لمشاكل وتحديات عصره، ومن خلال بابه الشهري الثابت فيها نجح في نقل الكثير من القضايا التي كانت إلى وقت قريب تنحصر دراستها ومناقشتها في فئات وشرائح مخصوصة وفي طيات كتبهم إلى فضاء عامة الناس، وركز فيها على القضايا التي قامت على قراءات وفهوم خاطئة لبعض المقولات وإعادة النظر فيها، وهو ما صرح به في قوله أن المجلة: «اعتنت

في صدورها الشهري بالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وإعادة النظر في مسلمات تراثية خلطت بالدين فأثقلته»، فالإسلام يقول، يطرحه «منهج حياة شامل يستوعب كل الإنسان تاريخًا وجغرافية، لذا فما من موضوع في الدنيا إلا وقد حوته نصوص الإسلام، وأوضحت منه موقفها، لذا فقد جعلت شعار هذه المجلة: «رؤية متكاملة لثقافة إسلامية شاملة»».

3 - المكتبات، اهتم بمرفق المكتبات لإشاعة ثقافة الكتاب، فأنشأ في الثمانينات مكتبة عامة في الزاوية الأم تضم الكتب الأساسية التي يحتاجها الطالب في دراسته للعلوم الشرعية في الزاوية وكتبًا تثقيفية أخرى.

وألحق معهد الصحابة الديني بعد افتتاحه عام 1995م مكتبة مدرسة واسعة ضمت العديد من التخصصات المتصلة بالمواد الدراسية المقررة بالمعهد ومختلف التخصصات الثقافية الأخرى لتوسيع مدارك طلاب المعهد.

وفي عام 2001م أسس «مكتبة تيجي الأهلية» أهم مكتبات الجبل الغربي بليبيا، وضمت عند تأسيسها أكثر من خمسة آلاف كتاب ومطبوعة، في مختلف التخصصات الأخرى، ككتب المعارف الخاصة بالطفل والمرأة، والبيئة والاجتماع والاقتصاد، وكتب التخصصات العلمية.

4 - دار بشرى كلثوم، أسسها عام 2015م؛ لتكون بوابة لنشر الكتاب الصوفي، وَفْقَ رؤيته الخاصة بالتصوف الليبي، وبها نشر أغلب كتبه التي دفعها للنشر والطباعة خلال السنوات الثلاثة الأخيرة من عمره المبارك.

5 - مهرجان طرابلس الدولي للمديح النبوي، منشط سنوي يقام في 12 من ربيع الأول، أطلقه عام 2003م ضمن تطوير أعماله الثقافية، هدف من خلاله لتطوير فكرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في شكل مهرجان ثقافي صوفي وفق خطة وجدول منظم ولجنة تحكيم مشكلة من أساتذة متخصصين في كافة المجالات الأدبية واللغوية أولًا، وثانيًا نقل احتفالات المولد الليبي من المحلية إلى المجال الدولي. وضمت دورات المهرجان مشاركة دولية واسعة.

6 - رياض الصالحين، موسم سنوي صيفي، خاص بشريحة لأطفال من أبناء مريديه وطلابه؛ لتنشئتهم وَفْقًا لرؤيته الخاصة بتفعيل التصوف في بناء المجتمع، ويتيح للأطفال العديد من البرامج التربوية والتعليمية والترفيهية والرياضية، ومحاضرات تَهْدُفُ إلى تحصينِ الطفل نفسيًّا وسلوكيًّا وفكريًّا، ومن الأفكار الضارة سيما التطرف والإرهاب، وإشاعةِ قيم الحب والوداد، وتعزيز التوازن النفسي والذَّوْقِيِّ من خلال المناشط الفنية والتربوية الأخرى.

7 - فرقة غفران للأعمال الفنية والمسرحية، أعلن عن تأسيسها بشكل رسمي عام 2004م، وكانت نواتها مجموعة من طلابه أشرف على تدريبهم لعرض أولى النصوص المسرحية التي كتبها، وهي مسرحية «فتح مكة» عام 1997م، وعرضت الفرقة بعد تأسيسها العديد من نصوصه المسرحية التي نبه فيها إلى أصالة العلاقة بين الفنون والمسرح وبين التصوف.

8 - اليوم الوطني للمسرح الليبي، أطلقه يوم 9/ 10/ 2008م بمناسبة مرور قرن على أول عرض مسرحي ليبي حديث موثَّق، منحتُ فيه شهادات تقديرية لغالب فناني البلاد المسرحيين.

9 - المتاحف: أسس في عام 2011م «متحف سِيلِينَ التاريخي الأهلي» في منطقة سِيلِينَ، غرب مدينة الخمس، وافتتحه بشكل رسمي في العام التالي، بعد أن أشرف على جهود جمع محتوياته، سواء بتبرعه بالعديد من القطع الأثرية والتاريخية التي تتوفر في مكتبته الخاصة، أو من خلال حثِّ مريديه وتلاميذه من مختلف المناطق والمدن وأهالي منطقة سيلين على التبرع بما يتوفر في بيوتهم من أدوات وآلات شعبية، ومصنوعات تقليدية قديمة عن طريق الهبة من أصحابها، أو بشرائها منهم بمبالغ يتم الاتفاق عليها، ويمنح أصحابها سندًا مكتوبًا بذلك، حتى وصلت مقتنياته عام 2008م إلى 547 قطعةً أثريَّةً نادرةً. ومن مقاصده وأهدافه من هذه المؤسسة الأهلية: إشاعة ثقافة العمل التاريخي المؤسسي؛ لحفظ الهُويَّة والتاريخ، وربط أذهان ووجدان الناشئة بها، وتقديم التاريخ

الليبي برؤية أخرى عبر الرؤية التي تتبناها الأنظمة الحاكمة عبر المتاحف الحكومية، كما ركَّز على كثافة القطع الأثرية والتاريخية ذات الصلة بالتصوف بثقافة العمل والبناء؛ بهدف تغيير مفاهيم راسخة في الأذهان تصور التصوف على أنه انزاء وابتعاد الانزواء عن ممارسة دوره الفاعل في البناء الحضاري.

وفي عام 2007م أسس «متحف قصر طيبة للفن التشكيلي الليبي»، وجعل بيته مقرًّا له؛ ليشكل جزءًا هامًّا من أجزاء بيته، ويعكس قصرَ عرضه لأعمال الفن التشكيلي الليبي في متحفه استمرارٌ لتركيز اهتماماته بالتراث والماضي والحاضر الليبي في كل أعماله.

مؤلفاته وكتبه

تزيد مؤلفات شيخنا عن الثمانين عملًا بين كتاب ورسالة وتحقيق علمي وشروحات وغيرها، ويمكن تصنيف مجالاتها في الآتي:

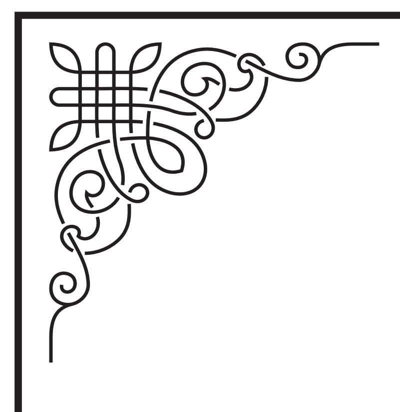
- قراءات القرآن الكريم.
- الحديث الشريف والسيرة النبوية والأثبات.
- الفقه والعقيدة.
- التصوف.
- التاريخ والتراجم الصوفية.
- الأنساب.
- الشعر.
- أدب الرحلات والرسائل.
- المذكرات.
- التحقيقات العلمية.
- المسرح والأوبريت.
- المقالات الصحفية.
- البحوث والدراسات.

كُتبُه ومؤلفاته وبحوثه حول سيرة الإمام سيدي عبد السلام الأسمر وأعماله ومشروعه الإصلاحي

خص شيخنا الإمام الأسمر بعناية فائقة في بحث تاريخه وسيرته وَفْقَ منهج جديد في الكتابة الصوفية، فترجمه في أكثر كتبه، في «حراس العقيدة» وفي «موسوعة القطعاني»، كما اعتنى بتحقيق التراث الأسمري، فحقق «السلسلة الجوهرية» لسيدي عبد السلام الأسمر، ومخطوطة «مختصر البحر الكبير» للشيخ عبد الرحمن المكي، ومخطوطة «فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم» للشيخ عبد السلام بن عثمان.

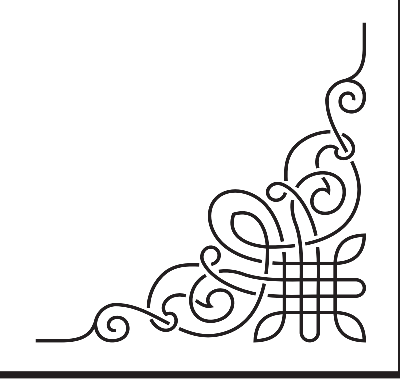
ومن كتبه ومقالاته الأخرى في تاريخ الإمام الأسمر:

- القطب الأنور عبد السلام الأسمر.
- المجتمع الليبي كما رسمته وصية سيدي عبد السلام الأسمر.
- هُويَّتُنا في فكر الشيخ عبد السلام الأسمر.
- الشيخ عبد السلام الأسمر وأثره في علوم الرواية والإسناد.
- لولا الشيخ عبد السلام الأسمر لحل بطرابلس ما حل بالأندلس.
- تحية لك يا محرر طرابلس.
- إمام المالكية الكبير الشيخ عبد السلام الأسمر.
- وانتصر بندير سيدي عبد السلام وقصائده وموسيقاه على ترانيم الكنيسة.



محطات في السيرة العطرة

للإمام الأسمر







الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر
سيرة الإمام ومسيرة الزاوية

أ. عبد الرحمن محمد جولن

كلية أصول الدين بالجامعة الأسمرية - ليبيا

ملخص:

تهدف هذه المقالة إلى تلخيص سيرة حياة الإمام سيدي عبد السلام الأسمر بالتركيز على أبرز المحطات والمراحل واستخلاصها من تفاصيلها التي تغطي قرنًا كاملًا من حياته المباركة، وكذلك مسيرة زاويته التي بدأت مشوارها العلمي والتربوي والاصلاحي الهام منذ أن أسسها في حياته رضوان الله عليه، مرورًا بخمسة قرون وحتى عصرنا الحالي. ولا أزعم أن تلخيص حياة إمام كسيدي عبد السلام الأسمر مهمة سهلة، بل هي في غاية الصعوبة لأهمية كل تفصيلة وجزئية في حياته، كما أن ذلك عمل يتطلب دراسة وتفحص كل المصادر والمراجع التي كُتبت في سيرته، وتحدثت عن حياته، بالإضافة لضرورة الاطلاع على ما توفر من وثائق ومخطوطات لإجلاء صورة حياة وفاعلية وأدوار زاوية على مدى خمسة قرون.

لقد غطى أثر هذا الإمام رقعة واسعة من العالم الإسلامي في حياته المباركة في القرن العاشر الهجري، وازداد هذا الأثر توسعًا على يد أتباعه ومن بعدهم، حتى أنك لا تجد محفظًا أو مدرسًا أو قاضيًا ومؤرخًا وأستاذًا جامعيًّا ومهندسًا، وفاعلًا في كل مجالات الحياة، إلا وقد تخرج في زاوية الإمام الأسمر، أو تخرج على يد من تخرج فيها.

وكان لا بد من توثيق صورة الحياة فيها في الوقت الحالي، خاصة مؤسساتها التعليمية: مدرسة قرآنية بنين - بنات - ومكتبة عامة يوجد بها أكثر من 6000 عنوان مدرجة وفق التطور العلمي للمكتبات العلمية، وجهودها في التكافل الاجتماعي في رفع

المعاناة عن الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وأصحاب الكوارث الطبيعية، وإيوائها للمئات من طلاب العلم وحفاظ القرآن الكريم إيواء مجانيًّا بكل ما يتطلبه من سبل الراحة والأمان، قادمين من كل بقاع وأقطار الدنيا.

وبالمجمل، فهذه المقالة تحاول التأريخ والتوثيق بشيء من الإيجاز لرجل يُعد مجددًا للقرن العاشر الهجري، وزاوية غطت زمنًا زاد عن الخمسة قرون، بهدف تيسير المعلومة على القارئ، فليس كل القراء لديهم القدرة على التفتيش في المصادر والمراجع واستخلاص المعلومة منها حول الإمام وزاويته.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الزاوية، المنشآت، المؤسسات، الطلاب، الأثر والتأثير.

مقدمة:

عرفت ليبيا التصوف بشكل مبكر من حياتها في التاريخ الإسلامي، فأول صوفي في كل القارة الأفريقية عاش في طرابلس وعلى يديه عرف القطر الليبي التصوف، وهو الشيخ عبد الله الشعاب (ت سنة 243هـ/ 857 م)، وعلى يديه تأسست أول زاوية صوفية في كل أفريقيا أيضًا[1]، وتوالت فيها عملية تربية الرجال والنساء من أقطاب التصوف، واستمرت في عطائها ونشرها للتصوف حتى أصبحت قبلة لعلماء وأقطاب المعرفة في كل الأقطار الإسلامية، فالمصادر تخبرنا أن الإمام محرز بن خلف التونسي (413هـ/ 1022 م) مر على زاوية الشعاب وفيها السيدة سمدونة جالسة للتربية والإصلاح والإرشاد، وأخذ عنها وانتفع بها، وعندما رجع من الحج، سُئِلَ عمن رأى من العلماء والصالحين في طريقه إلى الحج، فقال: «رأيت بطرابلس رجلًا وامرأة، أما الرجل فأبو عثمان الحشاني، وأما المرأة فسمدونة»، وهي مقارنة تدل على الشأو العلمي الكبير الذي بلغه التصوف في القطر الليبي، والمكانة الكبيرة التي وصلتها زاوية الشعاب في المحيط الإسلامي وقتها، فالملاحظ أنه كان في طريقه إلى الحج ولا بد وأنه رأي في مصر والحجاز وغيرها علماء

(1) عن أولية معرفة ليبيا للتصوف قبل غيرها من الأقطار الأفريقية، ينظر: موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ 644م إلى سنة 1421هـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج1، ص68.

وصالحين، لكنه لم يذكرهم، بل ذكر أفضل من لقي وهما الحشاني وسمدونة، ولا بد من التنبيه إلى أنهما من علماء زاوية الشعاب.

واستمر انتشار وتوسع التصوف في ليبيا، ففي القرن الثامن الهجري مر على ليبيا الرحالة التجاني، وزار فيها عددًا من العلماء والزوايا التي كانت مزدهرة بالعلم والصلاح والعلماء وطلاب العلم.

ويمكن القول أن التصوف وصل مرحلة قصوى من الازدهار في ليبيا في القرن التاسع الهجري، فقد تأسست فيها مدارس صوفية بلغ تأثيرها أقصى المشرق والمغرب، منها مدرسة أبو جعفر الجنزوري، بجنزور غرب طرابلس، ومدرسة الدوكالي بمسلاتة، شرق طرابلس، ومدرسة زَرُّوق بمصراتة، شرق طرابلس، ومدرسة أبي ماضي بالجبل الغربي.

دون شك فإن هذه المدارس شكلت خلاصة التصوف والبوتقة الجامعة لعلومها وآدابها وطرقها، لكن من المهم أن نلفت الانتباه إلى أن هذه المدارس الثلاث جمع علومها وتراثها ومنجزها شخص واحد، وهو الإمام الأسمر الذي اتصل بها جميعًا، كما يظهر ذلك جليًّا من أسانيده المتصلة برجال هذه المدارس، وبينها وذكرها الإمام الأسمر نفسه في كتابه: «الأنوار السنية والمنن البهية»، فعلاوة على تتلمذه ودراسته في مدرسة الدوكالي على يد أستاذه الشيخ عبد الواحد الدوكالي[1]، فهو يذكر لنا أنه اتصل أيضًا بمدرسة أبي جعفر الجنزوري في جنزور من طريق الشيخ عبد الرحمن بن أبي جعفر[2]، وبمدرسة أبي ماضي من طريق الشيخ عبد النبي بن عبد المولى[3]، أما مدرسة زروق فقد اتصل بها بشكل مباشر من طريق الإمام أحمد زروق الذي كانت تربطه علاقة وطيدة بأسرة الإمام، والتقاه أيضًا عديد المرات عند شيخه الدوكالي الذي كان صديقًا وثيقًا به[4].

إذًا اجتمعت الأصول الصوفية للمدارس الأربعة في الإمام الأسمر، بل اجتمع كل التصوف الليبي فيه، إذ يخبرنا الإمام أنه لما فارق شيخه الدوكالي اتصل بأكثر من ثمانين

(1) الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1964م، ص6.
(2) نفس المصدر، ص13.
(3) نفس المصدر، ص14.
(4) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص71.

شيخًا وعالمًا ليبيًّا[1]، ما يشير إلى أنه قام بعملية مسح شاملة لكل مدارس ورجال التصوف في ليبيا واتصل بجميعها.

من خلال هذه المقدمة العاجلة يتبين لنا أننا نتحدث عن شخصية صوفية مختلفة، فلم يكن مجرد ناسك أو عابد زاهد، بل كان إمامًا مصلحًا ومجددًا اختط لنفسه منذ البداية طريقًا كان يعد له ويجهز لبناء مشروع إصلاحي، عمَّ لاحقًا كل البلاد الليبية والعربية والإسلامية.

الإمام الأسمر، أصوله ونشأته

هو سيدي عبد السلام (الملقب بالأسمر) بن سليم بن محمد بن سالم بن حميدة بن عمران بن محيا بن سليمان بن سالم بن عمران بن أحمد بن خليفة (الملقب بفيتور) بن عبد الله (الشهير بنبيل) بن عمران بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد القادر بن أحمد لقب عبد الرحيم بن محمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ابن سيدنا علي والسيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ. هذا هو نسبه الذي أجمعت عليه كل المصادر والمراجع التي أرخت له، واتفقت أيضًا على سبب تلقيبه بـ«الأسمر» لمبيته الليالي سمرًا في طاعة الله ﷻ[2].

ولد بزليتن يوم الإثنين ليلة الثاني من شهر ربيع الأول سنة 880هـ. ت981هـ، وتوفي والده وهو ابن سنتين وشهرين فتولَّت والدته تربيته وكفالته، وأعانها في ذلك بشكل كبير عمه الشيخ أحمد الفيتوري الذي تزوج بها بعد وفاة أخيه الشيخ سليم، ووفرت له هذه الأسرة الكريمة كل ظروف النشأة العلمية والدينية والصوفية الكريمة، فتعلم شيئًا من القرآن الكريم على يد والدته، قبل أن يأخذه عمه إلى الكتَّاب في السابعة من عمره.

---

(1) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص14.

(2) ورد هذا النسب الشريف، وكذلك التفاصيل التالية حول مولده ووالديه وعمه، ونشأته في أسرته، في أغلب المصادر والمراجع، ومنها:

تنقيح روضة الأزهار، محمد مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م.

القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م.

رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م.

ويخبرنا الإمام نفسه أن عمه كان أول شيوخه، فقد تعلم على يديه الفقه والتوحيد والنحو والمنطق.

في هذه الأسرة الكريمة وربوعها ولد الإمام الأسمر ونشأ وتعلم، وفي هذه الظروف تشكلت شخصيته العلمية في بدايتها، ووفق هذا التدرج في التربية والتعليم انتقل الإمام إلى المرحلة التالية، فلم تكتف أسرته بما تحصل له من معارف وتعليم، بل دفعت به إلى مراحل أخرى جمعت بين العلم والتربية وفق الانتساب الصوفي.

الإمام الأسمر والتعليم العالي الصوفي

يُعد التعلم في الزوايا والمدارس العملية مرحلة متقدمة من التعليم يوازي ما يُعرف اليوم بالتعليم العالي، وفق تدرج سلم التعليم في التاريخ العلمي، لكنها مرحلة تعليمية تمتاز عن التعليم العالي الحالي بالجمع بين التعليم والتربية. وبعد أن تأسس الإمام الأسمر على يد والدته السيدة سليمة وعمه الشيخ أحمد الفيتوري فحفظ القرآن وأخذ مقدمات العلوم، أخذه عمه الشيخ أحمد إلى مدرسة الدوكالي ليتتلمذ على الشيخ عبد الواحد الدوكالي[1]، سبع سنوات أخذ فيها عنه الفقه والعقيدة والنحو وكافة العلوم من كتب المطولات والتخصص كالرسالة ومخصر خليل وكتب العقيدة وغيرها، بالإضافة لسلوكه على يديه الطريقة العروسية[2]. ومن الواضح أن مدرسة الدوكالي كانت مؤسسة علمية قائمة على منهج تعليمي رصين وعال، خاصة وأنها عرفت نظام المحاضرات، إذ يخبرنا الإمام الأسمر أن الشيخ الدوكالي كان يعطي في اليوم سبع دولات[3]، أي محاضرات، ويلاحظ من خلال المواد العلمية التي درسها الإمام على يد أستاذه أن منهجها قائم على التداخل بين العلم والتربية، فبالإضافة لكتب الفقه والتوحيد والحديث والعقيدة التخصصية، درس عليه أيضًا الحكم العطائية الذي يمثل زبدة كتب التصوف والسلوك.

من المهم جدًّا ونحن نتحدث عن هذه المرحلة أن نشير إلى أن في ثنايا سيرة الإمام ما يعكس جانبًا من صورة التعليم العالي الذي تلقاه في مدرسة الدوكالي، فقد أشار الشيخ

(1) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص3 – 4.
(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص378.
(3) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص71.

كريم الدين البرموني إلى أن الإمام كان يحفظ «المدخل» ابن الحاج، و«جامع الأمهات» لابن الحاجب، و«المعيار» للونشريسي[1]، بل وصرح في كتابه «الأنوار السنية»، أنه يحفظ صحيحي البخاري ومسلم ومختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد والمدونة[2]، ما يعطينا صورة عن العملية التعليمية الكثيفة التي تلقاها، والكتب المطولة التي درسها وتمهر فيها إلى درجة حفظها عن ظهر قلب.

لقد مثل تتلمذ الإمام الأسمر على شيخه الدوكالي نقطة تحول كبيرة في حياته، فعلى يديه واصل دراسة العلوم التي تلقى بداياتها على عمه الشيخ أحمد الفيتوري، وفي ذلك يقول الشيخ كريم الدين البرموني: «قرأ على شيخه الدوكالي المختصر والرسالة والحكم والتوحيد والمعقول وغير ذلك من العلوم حتى صار فقيهًا متفننًا»[3]- وتحدد خياره الصوفي من خلال انتسابه وانخراطه في المدرسة العروسية الصوفية التي كانت وقتها في أوج ازدهارها على يد شيوخها الذين انتقل أغلبهم إلى ليبيا، كالشيخين أحمد أبو تليس وفتح الله أبو رأس[4]، بالإضافة لوجود الشيخ الدوكالي في مسلاتة، فعلى الرغم من أن أسرة الإمام الأسمر كانت صوفية بكاملها، فوالده السيد سليم كان موصوفًا بالتصوف والنسك والولاية، ورويت عنه خوارق العادات، وله لقيا بأكثر الصالحين في زمانه، ووالدته السيدة سليمة هي ابنة العالم المغاربي الشيخ عبد الرحمن الدرعي من الأسرة الدرعية الصوفية الشهيرة في المغرب، أما عمه السيد أحمد فالحوار الذي دار بينه وبين الإمام عن ضرورة اتخاذ الشيخ المربي درايته الواضحة بالتصوف وقواعد السلوك فيه[5]، وفوق كل هذا فهو فيتوري من الفواتير الأدارسة الأشراف الذي تسلسل فيهم التصوف والعلم والشرف. لكن دخول الإمام في الطريقة العروسية شكل له إطارًا معرفيًّا بأصول وقواعد راسخة مكنته من بناء مشروعه الإصلاحي كما سنرى، بالإضافة لتكوينه العلمي الرصين، فامتزج مشروعه بالجمع بين العلم والتربية وهو القاعدة الأساسية التي بنى عليها زاويته في زليتن الذي تعد المعقل الأول لكل جهوده وأعماله.

---

(1) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص96.
(2) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص18.
(3) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص93.
(4) ينظر تراجمهما في: الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص74 – 76.
(5) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص91.

الإمام الأسمر يؤسس مشروعه الإصلاحي

بعد سبع سنوات من التعليم والتربية في المدرسة العروسية على يد أستاذه الدوكالي، شهد له أستاذه بالأهلية للتصدر للتربية والإرشاد، وصرح بذلك في قوله: «يا عبد السلام، اذهب لتنتفع بك الناس الشيخ ما يخدم شيخًا»[1]، معلنًا بذلك تخرجه ضرورة اضطلاعه بدوره في نشر الدعوة، لكن الإمام فيما يبدو أراد الاستزادة مما في المدارس العلمية والصوفية في البلاد، فاتصل كما يحدثنا في كتابه «الأنوار السنية» بثمانين شيخًا، أولهم الشيخ عبد الله العبادي وآخرهم الشيخ عبد النبي عبد المولى[2]، وبعد أن شهدوا له بالأهلية والإجازة في العلم والتربية، رجع إلى زليتن وبقي مدة في خدمة والدته السيدة سليمة إلى أن توفيت، فقرر بعدها الخروج في سياحة معرفية طويلة بلغ فيها إلى جبل زغوان بتونس[3]، أحد المعاقل الصوفية المعروفة، وبالقطع مر على العديد من المدارس والمعاقل العلمية والصوفية الأخرى التي تعرف فيها على أوضاع التصوف، واطلع فيها على تجاربها، ليعود بعدها إلى زليتن ويبدأ بتأسيس الزاوية.

ويبدو أن فترة أول إنشاء الزاوية شهدت حوارات علمية كثيفة بين الإمام وعلماء زليتن، فالمصادر تخبرنا أن عددًا منهم قدموا لمناظرته أول رجوعه إلى زليتن، منهم الشيخ سالم الحامدي والشيخ سعيد التطاوني[4]. ويعكس الاعتراض والحوارات العلمية التي دارت بينهم وبين الإمام الأسمر جديدًا إضافة إلى المنهج الصوفي، وأن منهج زاويته قام على غير المألوف في الأوساط العلمية والصوفية وقتها، وإن لم تتبين مسائل الاعتراض والحوارات في غير مسألتي الاجتماع للذكر واستخدام «الدف» بمصاحبة الذكر، إلا أنه كثافة الحوارات تلك من المؤكد أن كانت تناقش مسائل علمية وصوفية أخرى لم تصلنا تفاصيلها، وإن كانت مسألتي الاجتماع للذكر واستخدام «الدف» بمصاحبته قضايا لوحدها قضايا غير معروفة وقتها، وتستدعي إمكانية وجود أهداف أعمق للإمام الأسمر من خلالها. وعلى العموم قرر الإمام الأسمر مغادرة زليتن بعد ما لقيته من تضييق، وبدأ جولة وسياحة جديدة يبدو أن غرضه منها التعريف بمشروعه الصوفي التجديدي في عدد من المناطق التي مر وأقام بها، كمنطقة ساحل الأحامد ثم طرابلس حاضرة البلاد[5].

(1) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص14.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص100.
(4) نفس المصدر، ص96.
(5) نفس المصدر، ص101 – 104.

وفي كلا المنطقتين التف حوله العديد من الأتباع، خاصة وأن كبار علماء زليتن كالشيخ سالم بن طاهر والشيخ سالم الحامدي والشيخ سعيد التطاوني أقروا بصحة الأساس العلمي والفقهي لمنهجه الصوفي بل وانتسبوا لطريقته وصاروا تلاميذ في حضرته بعد أن كانوا علماء في أوساطهم، وهذا التجمهر حوله أينما حل استدعى فيما يبدو حسدًا من قبل القيادات والزعامات، خاصة وأن شكل المعارضة في ساحل الأحامد وطرابلس لم يكن علميًّا بقدر ما كان اعتراضًا على الإقبال الذي لقيه الإمام الأسمر ومنهجه الإصلاحي، ففي ساحل الأحامد قاد المعارضة ضد همام الحامدي ومبارك الحامدي، ويشير الشيخ القطعاني إلى علاقة همام مبارك بالأسبان، إذ حدا الدور الجهادي للإمام بالاستعمار الأسباني «إلى استغلال بعض الشخصيات ذات الصبغة شبه الرسمية والأعيان الذين كانت له صلة اضطرارية بحكم الإقامة بهم، منهم مبارك الحامدي وابن عمه همام الحامدي للتصدي له وإحباط نشاطاته، فاشتدا في عداوته هما وأعوانهما وقتلا ابنه عبد الدايم في ملأ من الناس بقصد إشاعة الخوف وإرهاب الشيخ والقلة الوفية التي بقيت معه من أصحابه، وزرع الذعر في نفوس رجال المقاومة وإرهابهم، وحاولوا اغتياله ﷺ شخصيًّا أكثر من مرة إضافة لشتمه وتسفيهه ورجمه»[1]. وكذلك في طرابلس لم يكن اعتراض قاضي المدينة أبو محمد يحيى الطرابلسي عليه علميًّا، بل يظهر مضمون الخطاب الذي وجهه لوالي طرابلس مخاوفه ورجال الحاشية من الإقبال الذي لقيه الإمام في طرابلس[2]، ما يعني أن مشروعه الإصلاحي كان يلامس في بعض جوانبه الفساد السياسي المستشري في البلاد، خاصة وأن وجود الإمام في طرابلس كان في زمن الاحتلال الأسباني، وبالتالي فموقف القاضي ووالي المدينة كان له علاقة بمخاوف من الأتباع الذين تزايد عددهم حول الإمام في طرابلس، وإمكانية أن يكون التجمع حوله لتشكيل نواة لمقاومة الاحتلال الأسباني. الخلاصة أن السلطة الحاكمة في طرابلس قررت نفي الإمام من المدينة وإخراجه منها، وهو ما تم إذ خرج منها أولًا إلى غريان، غرب طرابلس، ثم إلى بني وليد حيث أقام في منفاه في جبل سوف الجين مدة طويلة، انتهت بعد أن انكسرت حملة عسكرية قوامها جيش شكلته السلطة الحاكمة في طرابلس على رأسها الوالي والقاضي، لمحاصرة الإمام في منفاه[3]، وخرج منها الإمام منصورًا بنصر الله ليبدأ مرحلة جديدة من مراحل إرساء مشروعه الإصلاحي.

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص412.
(2) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص104.
(3) نفس المصدر، ص108 وما بعدها.

الأمام الأسمر يطلق مشروعه الإصلاحي

خرج الإمام الأسمر من منفاه في جبل سوف الجين، وتنقل بين عدة مدن لدراسة المكان المناسب لبناء زاويته، فزار تاورغاء أولًا، ثم مصراتة التي أقام فيها لفترة بدار صديقه وتلميذه الشيخ علي بودبوس، حيث أقبل فيها الناس عليه وأخذ عنه فيها أزيد من 800 مريد[1]، قبل أن يقرر العودة إلى مسقط رأسه بزليتن واستئناف بناء زاويته التي أنشأها قبل خروجه منها. واختلفت العديد من المصادر في تحديد سنة تأسيس الزاوية، بين أن تكون عام 910هـ وعام 912م، بل ويجعل الشيخ عبد السلام بن عثمان تأسيسها عام 971هـ كما في كتابه فتح العليم، لكن المؤكد أن الإمام أنشأ الزاوية قبل خروجه من زليتن، ثم لما عاد إلى زليتن استأنف تطويرها.

وعقد الشيخ القطعاني مبحثًا مطولًا لتحديد سنة تأسيس الزاوية، وبنى عليه ما نتيجته أن إنشاءها كان قريبًا من عام 920هـ، بل ذكر أن الإمام أسس ثلاث زوايا، هي: «الزاوية العليا في الرقيقة، الزاوية السفلى في زدو، الزاوية التي دفن بها، وهي آخرها بناء»[2]، ويقول: «كما يلاحظ أن إقامة الشيخ بأي من هذه الزوايا الثلاث لم تكن مستمرة لما مر بك في سيرته من تنقله من زليتن غربًا وشرقًا وجنوبًا»[3]. وعن التاريخ الذي ذكره الشيخ عبد السلام بن عثمان، قال: «ولعلك بهذا تعرف أنه لا خلاف بين التاريخ الذي حددناه لتأسيس سيدي عبد السلام الأسمر لأول زاوية له وهو سنة 920هـ، وبين ما ذكره الشيخ عبد السلام بن عثمان بقوله في كتاب فتح العليم: كان بناء الشيخ عبد السلام للزاوية سنة 971هـ، إذ إنه يتكلم هنا عن التطور النهائي للزاوية في عهد الشيخ»[4].

وفي هذه الزاوية، القاعدة الحصينة التي زادها شرفًا وألقًا وشهرة انتشار صيت الإمام في كل ربوع العالم الإسلامي، واصل الإمام دعوته الإصلاحية وتجمهرت حوله الوفود بالآلاف من كل ربوع الدنيا، حتى أن أهم تلاميذ الإمام وهو الشيخ عبد الرحمن المكي، الذي شهد أغلب مراحل حياة الإمام، صور مشهد القبول الواسع لدعوة الإمام، بل ومكانته وشأوه العلمي، بالقول: «وقد اتفقت على ولايته وطريقته المشارقة والمغاربة

(1) نفس المصدر، ص111.
(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج4، ص374.
(3) نفس المصدر، ج4، ص374 – 375.
(4) نفس المصدر، ج4، ص375.

وجاءوه واقتدوا به وتركوا معه فى زمانه جميع المشائخ والطرق، ولو عاش بعد ذلك لاتخذه أهل المشرق والمغرب مذهبًا لعلو ذوقه ومراتبه العلية»[1].

لقد أوقف الإمام الأسمر عمره المبارك لربه ﷻ، فكان يومه كله ما بين التجاء لله وتفرغ لتدريس الطلاب وإرشادهم، فكان بعد صلاة الضحى يعطي درسًا في التوحيد إلى صلاة الظهر، وبعد صلاة الظهر يدرس المختصر والرسالة في الفقه المالكي إلى أن يصلي العصر، وبعد ذلك يشرح الحكم العطائية في التزكية والتربية إلى صلاة المغرب، ثم درسًا في النحو والبلاغة إلى توسط العشاء.

ترك تراثًا مكتوبًا من بعده، يمكن إيجازه في قائمة أسماء الكتب والرسائل التي ألفها:

1 – التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية.

2 – الوصية الكبرى المسماة:نصيحة المريدين في سر الأولياء والصالحين.

3 – رسالة في العقائد.

4 – الوصية الوسطى.

5 – أربع نصائح أسماها: نصائح التقريب في حق الفقراء والنقيب.

6 – الوصية الصغرى.

7 – العظمة في التحدث بالنعمة.

8 – الأنوار السنية والمنن البهية في أسانيد الطريقة العروسية.

9. 11 رسالة وجهها إلى أتباعه في ليبيا، وتونس، والمغرب، وتنبكتو.

تلاميذ الإمام الأسمر

لا يمكن حصر تلاميذ الإمام الأسمر الذين اتصلوا به وأخذوا عنه، فقد مر بنا أنه أخذ عنه 800 في مدينة مصراتة لوحدها، هذا عدا من أخذ عنه في غيرها من المدن، والأخبار التي نقلها الشيخ عبد الرحمن المكي في كتبه تعكس صورة الإقبال الكبير من مختلف أقطار العالم الإسلامي، بل حتى من بلدان العجم، حتى أنه لخصها في قوله: «وقد جاءوه من الشام وبغداد ومن السنود والهنود حتى امتلأت بلاد طرابلس والساحل

(1) القطب الأنور، مصدر سابق، ص183.

ومصراتة بالفقراء، وقد جلاهم الأمير إلى بلدانهم وطردهم من جميع طرابلس خوفًا منهم يقتسمون البلاد من كثرتهم وهم نحو العشرة آلاف والأحد عشر ألفًا والله أعلم»[1]. ولكن يمكن ذكر أشهرهم، فمنهم الشيخ المحدث خاتمة الحفاظ أبو النجا سالم بن محمد السنهوري كبير علماء المالكية بالأزهر الشريف، والشيخ المربي عمر بن جحا، والشيخ الفقيه العالم المحدث عبد الرحمن بن علي المكي من الحجاز، والشيخ العاقب بن أقيث قاضي تنبكتو، والشيخ محمد الحطاب الصغير خاتمة مجتهدي المذهب المالكي بالحرمين الشريفين، والشيخ كريم الدين البرموني مفتي طنطا.

الزاوية الأسمرية، المسيرة والتطور

كما أسلفنا فقد أسس الإمام الأسمر زاويته على اختلاف الآراء بين عامي 910هـ و920هـ قبل أن تمر بمراحل تطوير لعدة مرات لتوافق مراحل تطور مشروعه الإصلاحي، خاصة بعد الإقبال الكبير الذي لقيته دعوته من كل أقطار العالم الإسلامي، ومن المؤكد أن أعداد الوافدين من داخل البلاد وخارجها استدعى توسعة الزاوية وزيادة عدد منشآتها ومرافقها في حياة مؤسسها، فقد تحولت على يديه إلى أهم المراكز الإسلامية، وذلك لدورها الكبير والمتميز في نشر تعاليم الإسلام وفق منهج الوسطية والاعتدال، بل وأصبحت مركز وصل بين أهم المراكز الإسلامية في شمال أفريقيا، وتحديد الأزهر الشريف بمصر شرقًا وجامع الزيتونة بتونس غربًا وصولًا بجامع القرويين المغرب، فهي زاوية للذكر والتربية الصوفية على منهج الطريقة العروسية، وكذلك معقلًا لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علومه، وتدريس علوم الإسلام الأخرى كالحديث الشريف، واللغة العربية، والتربية والسلوك، والفقه المالكي، وعقيدة أهل السنة والجماعة، وغير ذلك تحولت إلى محطة هامة لحجاج بيت الله الحرام من البلدان المغاربية والإفريقية، ورعاية عابري السبيل، وعرفت بإنفاقها الواسع روافدها المالية وريع أوقافها الأهلية على كل سبل الخير والنفع، ما جعلها تؤدي دورًا هامًّا من أدوار الحفاظ والاستقرار على العقيدة واستمرار حلقات الحضارة الإسلامية.

لقد تعرضت الزاوية لهزات عنيفة بسبب دورها الأساسي والفاعل في المحيط الليبي والعربي والإسلامي، فبالإضافة للتضييق الذي واجهه مؤسس الزاوية طيلة قرن

(1) القطب الأنور، مصدر سابق، ص183.

كامل من حياته قبل أن يتمكن من إرساء أركانها، فقد تعرضت لأكبر هجوم عسكري حدث في أواخر القرن العاشر الهجري على يحيى السويدي، قائد حركة التمرد في طرابلس وأقاليمها، عام 995هـ[1]، وتعكس الصورة التي نقلتها المصادر عن تفاصيل الهجوم أن للزاوية منشآت متطورة، فلم تكن تؤدي دورًا تعليميًّا ولتحفيظ القرآن الكريم فقط، بل كان فيها مكتبة ضمت 500 مجلد، وهو رقم يدل على الوضع العلمي المتقدم الذي كانت تعيشه الزاوية، فهذا العدد مرتبط بالوسط العلمي الذي يبدو وأنه كان يعج بأعداد كبيرة من العلماء وطلبة العلم، وهو ما تشير إليه المصادر عندما تحدثت عن قتل السويدي لشيخ الزاوية عمران بن الإمام عبد السلام الأسمر رفقة عشرين من علماء الزاوية.

ويشير الشيخ عبد السلام بن عثمان في كتابه «فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم» إلى تعافي الزاوية من ذلك الهجوم بشكل سريع، إذ يتحدث عن دور الشيخ عبد الوهاب أصغر أنجال الإمام في لملمة شتات علماء الزاوية وإعادة الحركة العلمية فيها. ويبرز في الفترات التالية في تاريخ الزاوية شخصيات هامة قادتها وتولت رئاسة العلم فيها، كالشيخ عبد الله أبو راوي الذي يعد من أهم من تولوا مشيخة الزاوية، ويكفي أن نشير إلى أن عبد السلام بن عثمان من تلاميذه، وهو من أكبر وأبرز رجال الطريقة العروسية، وكذلك الشيخ علي الفرجاني الذي بذل جهودًا كبيرة رفقة شيخه أبو راوي في نشر الطريقة وإعادة تعزيز انتشارها في ليبيا وفي تونس[2].

وخلال الفترة التالية تعكس الرحلات المغاربية التي مرت بليبيا حالة الازدهار العلمي والصوفي التي كانت عليها الزاوية، ومنها ما رصده عبد الله العياشي (ت1090هـ/ 1679م) في رحلته، وأحمد بن ناصر الدرعي (ت1128هـ/ 1715م) في رحلته، ثم الحسين الورثلاني (ت1193هـ/ 1779م) في رحلته وغيرهم. وعلى الرغم من أن هؤلاء الرحالة كانوا علماء لهم مكانتهم في أوساط العلم في أوقاتهم، ومرورًا بالعديد

(1) فصلت العديد من المصادر والمراجع في هذا الحدث الكبير الذي ألم بالزاوية، وللتفصيل، ينظر: قفة الصلاح: قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري الإمام سيدي عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، منشورات مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص42 وما بعدها.

(2) للتوسع ينتظر: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص173 – 250 – 257.

من المدن والمناطق الليبية في طريقهم إلى الحج، إلا أن اهتمامهم بوصف الحالة العلمية بالزاوية يدل بشكل واضح على استمرار مركزية دور الزاوية في الوسط العلمي والثقافي والفكري الليبي والمغاربي في الفترات الزمنية التي غطتها تلك الرحلات.

وفي الفترة التي تلت الفترة التي غطتها الرحلات المغاربية، نجد أن الحياة العلمية بالزاوية استمرت دون انقطاع، وأنقل هنا من بعض بحوثي مسردًا للعلماء الذين برزوا بالعلم والصلاح والتربية وتحفيظ القرآن الكريم، بحسب تسلسل تواريخ وفياتهم[1]:

الشيخ أحمد فتح الله الأنصاري توفي عام 1732م.

الشيخ سالم بن عبد الحفيظ بن محسن توفي عام 1826م.

الشيخ أحمد سالم بن محسن توفي عام 1856م.

الشيخ عبد الحفيظ بن محسن توفي عام 1897م.

الشيخ فرج بن عبد السلام الفيتوري توفي عام 1946م.

الشيخ أرحومة الصاري توفي عام 1947م.

الشيخ أحمد المبسوط توفي عام 1965م.

الشيخ منصور أبو زبيدة توفي عام 1967م.

الشيخ عبد الله بن حمودة توفي عام 1969م.

الشيخ محمد سالم بن محسن توفي عام 1972م.

الشيخ مختار جوان توفي عام 1975م.

الشيخ الطيب بن محسن توفي عام 1986م.

الشيخ أحمد شادي توفي عام 1990م.

الشيخ محمد العاتي توفي عام 2005م.

الشيخ البشير بن نجي توفي عام 2007م.

الشيخ سالم بن عيسى توفي عام 2013م.

---

(1) للتوسيع حول تراجم هؤلاء الأعلام، ينظر: الإمام سيدي عبد السلام الأسمر: سيرة الإمام ومسيرة الزاوية، عبد الرحمن جوان، منشورات زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، ط1، 2023م.

ويجلس اليوم بها لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علومه، ثلة من العلماء القدامى، منهم الشيخ محمد بن سليم، والشيخ جبران كندي، والشيخ صالح بن نجي حفظهم الله وبارك فيهم وأمد في أعمارهم.

الزاوية ودورها الحالي وجانب من تفاصيل العمل فيها

ولا بد من الإشارة الى أن الإمام الأسمر أسس زاويته على نظام إداري دقيق، تفرعت عنه عدة إدارات، منها: إدارة التوثيق، وإدارة الأرشفة، وإدارة المال والاستثمار، والإدارة العلمية، وإدارة البحث، وأدت أدوارًا متعددة، تنموية، وعلمية تثقيفية، واستشارية سياسية، وأدوارًا وطنية وعالمية[1].

وإن كان التأريخ لإدارة وطريقة العمل بالزاوية في أول عهدها مهمًّا، فمن المهم أيضًا الحديث عن استمرار دور الزاوية اليوم، فوفقًا لدراسة ميدانية أجريتها داخل الزاوية مع عدد من مسؤوليها[2]، تبين أن عدد الطلبة بالزاوية يقدر (2000) طالب، منهم (170) يقيمون بالقسم داخلي، وعدد المشايخ (70) محفظ، ووقت الدراسة من بعد صلاة الصبح وحتى الساعة 8:30ص، ومن الساعة الثامنة والنصف وحتى الساعة 10:30 ص. هذا بالفترة الصباحية وأما بالنسبة للفترة المسائية فوقت الدراسة من الساعة الثانية والنصف مساء وحتى الخامسة والنصف مساء، وبالفترة الليلية (التلاوة) تبدأ من بعد صلاة المغرب وحتى أذان العشاء عدا يوم الأربعاء فالتلاوة تبدأ من بعد صلاة العشاء وحتى وقت متأخر قبيل أذان الفجر الذي يعرف عند الطلبة والمشايخ (بالتعتيمة). وهناك فترة أخرى تبدأ من الساعة الثالثة صباحًا قبل أذان الفجر وحتى بعد صلاة الفجر، لتعود بعد صلاة الظهر حتى بعد صلاة العصر، وهناك من يجلس ويحفظ الطلاب القرآن الكريم من الساعة السادسة مساء وحتى قبيل صلاة العشاء، فغالب الأوقات تدرس فيها القرآن الكريم في هذه الزاوية من قبيل الفجر وبعده، وهكذا في دورة خلال كامل اليوم لا ينقطع فيها تحفيظ وتلاوة القرآن الكريم.

ومضاف إلى حلقات تحفيظ القرآن الكريم، حلق العلم التي يُدرس فيها ثلة من العلماء كتب الفقه مثل المختصر والرسالة، وكتب الحديث كشروح البخاري ومسلم،

(1) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص80 وما بعدها.

(2) للتوسع في هذه الإحصاءات والبيانات، يُرجع الى كتاب: الإمام سيدي عبد السلام الأسمر: سيرة الإمام ومسيرة الزاوية، مصدر سابق.

وكتب التوحيد كالجوهرة وغيرها، واللغة: النحو والصرف، والأدب والتربية والسلوك كشرح الحكم العطائية وغيرها، ناهيك عما تقوم به الثانوية الشرعية الأسمرية من دور فعال في نشر العلوم الشرعية.

ومن المنشآت التي تضمها الزاوية اليوم:

1 - مسجد يسع 2500 مصلٍّ بالداخل، و1000 مصلٍّ بالخارج، وبالفناء فصل سابع يسع 1000 مصلٍّ وهو ملصق المسجد.

2 - مبنى سكني للطلبة القارئين للقرآن يسع 400 طالب به حجرات سكن (خلوة) بأنواعها فردية وزوجية وثلاثية ورباعية.

3 - مبنى للعمل الإداري يتكون من:

مكتب وقف وشؤون الزاوية، ومكتب المدرسة القرآنية، ومكتب الشؤون الإدارية، ومكتب شؤون الطلبة، ومكتب القسم المالي، ومكتب شؤون الصيانة، ومكتب العقارات الخاصة بوقف الزاوية، ومكتب الإرشاد الديني، ومكتب شؤون الفقراء الذاكرين.

4 - مدرسة لتنظيم حلقات الذكر ومدارسة قواعد السلوك الخلقي حيث يلتحق بها المئات من المريدين.

5 - مباني الفصول الدراسية تتكون من 21 فصلًا دراسيًّا مجهزًا.

6 - عدد الحجرات المستهدفة حاليًا 60 حجرة يقطن بها 170 طالب مقسمين على أربعة أقسام أ- طالب قرآن كريم ب- طالب إعدادي ج- طالب ثانوي د- طالب جامعي.

7 - مطعم يسع 300 طالب مع صالة بها برادات مياه وكراسي وجلسة عربية مجهزة بالتكييف ومكتبة صغيرة وشاشة عرض.

8 - مبنى للضيافة يتكون من حجر عددها 18 حجرة مجهزة بالتكييف ودورات مياه خاصة بها.

9 - مبنى خاص يسمى مدرسة سيدي عبد السلام الأسمر لتحفيظ القرآن الكريم وتدريس علومه (بنين)، عدد الطلبة الدارسين بالزاوية صباحًا ومساء حوالي 2000 طالب يدرسون القرآن الكريم على اللوح تبركًا بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ منهم 170 طالب سكن داخلي يتمتع بوجبات الفطور والغداء والعشاء بالمطعم داخل الزاوية، ومنهم (100 طالب) من بلدان أندونيسيا، وتايلاندا، ونيجيريا، وكمبوديا، وتركيا، وتونس، ومصر وتشادن والسودان، وبريطانيا.

10 - المدرسة الحرة لطلبة القرآن الكريم بالطريقة القديمة (الحلقات العلمية) داخل المسجد لتدريس المواد العلمية على يد ثلة من العلماء الأفاضل، ومن هذه المواد: النحو، الفقه، العقيدة، السيرة النبوية العطرة، الحديث النبوي الشريف، تفسير القرآن الكريم، علوم القرآن الكريم، وعلم المواريث، وعلم المنطق وهي على مدار الأسبوع (نظام دورات علمية).

11 - في شهر رمضان المبارك من كل عام هناك محاضرات علمية كل يوم على مدار الشهر الفضيل داخل المسجد يلقيها علماء أجلاء ممن تخرجوا من هذه الزاوية العريقة وفاءً لها وعرفانًا لفضلها، وهي على فترتين: الفترة الأولى عقب صلاة الظهر، والثانية عقب صلاة العصر لمدة ساعتين.

12 - مبنى خاص يسمى مدرسة سيدي عبد السلام الأسمر لتحفيظ القرآن وتدريس علومه (بنات) به 55 فصل تدْرس فيه 900 طالبة صباحًا ومساء يعمل به 65 معلمة تحفيظ قرآن.

13 - مركز خاص بالوثائق والمخطوطات (مركز الزاوية الأسمرية للوثائق والمخطوطات وحفظ التراث).

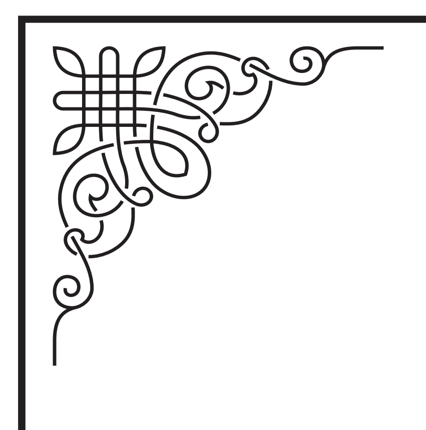
14 - المعهد الديني الأسمري والثانوية الدينية.

15 - معهد القراءات والدراسات الإسلامية.

16 - خلوة الفقراء الذاكرين، يجتمعون يوم الإثنين لحضور الدروس الدينية والمواعظ ويوم الجمعة لحضور الذكر وقراءة القرآن الكريم.

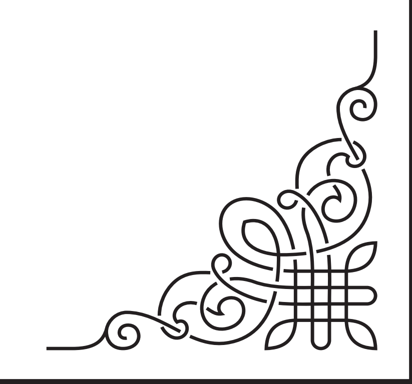
خاتمة:

لحق الإمام الأسمر بالرفيق الأعلى في شهر رمضان عام 981هـ، ودفن بجوار زاويته التي قضى قرنًا من الزمان يصارع أعداء الحق بمنهج أهل الصدق، ويقاوم الظروف وعوادي الزمان بأمداد ربه الرحمن، حتى أرسى معالمها التي لا تزال راسخة رغم مرور خمسة قرون، كان فيها مأوى للصالحين وكعبة للطالبين وملجأ للاجئين، وطلاب العلم والصلاح يتوافدون عليها من كل أقطار وأقطاع الدنيا، ونسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يمد في أعمارنا، ونسهم في استمرار رسالتها، وأن يقبل علمنا هذا خالصًا لوجهه الكريم.



الإمام الأسمى

في فكر العلامة الشيخ أحمد القطعاني







حضور الإمام عبد السلام الأسمر
في كتابات العلامة أحمد القطعاني
دراسة تحليلية ذوقية مقارنة

د. محمد حسن معاز حسن
مدير مركز الإمام أبي الحسن الشاذلي
لإحياء التراث الصوفي – مصر

ملخص:

تتناول هذه المقالة أحد الموضوعات التي تتعدد توجهاتها، حيث تتناول سيرة ومسيرة إمام كبير من أئمة الأمة الإسلامية وأقطابها وهو الإمام عبد السلام الأسمر، من خلال كتابات عالم جليل صاحب قلم مفيد وفكر سديد وهو العلامة أحمد القطعاني، باعتباره علمًا يُترجم له، وباعتباره عالمًا ومؤرخًا، وباعتباره صوفيًّا سلك طريقة الأولياء. لذا ستمهد المقالة لموضوعها بترجمة الإمام الأسمر والعلامة القطعاني، ثم سيرة الإمام الأسمر في كتابات العلامة القطعاني باعتباره عالمًا ومؤرخًا، قبل الولوج الى الحديث عن المنهج الصوفي للإمام الأسمر في كتابات العلامة القطعاني وأثره.

كلمات المفتاحية:

الإمام، الأسمر، القطعاني، حضور، كتابات.

مقدمة:

أنتجت الأمة الإسلامية أئمةً فُضلاء وسادةً أتقياء كان لهم الأثر في الحياة العامة والعالم الإسلامي بأسره، حملوا على عاتقهم نشر الرسالة المحمدية والطريقة النبوية بعد تهذيب نفوسهم وتربيتها بالآداب السُّنيَّة، وكان من هؤلاء المربي العابد والصوفي الزاهد والمصلح والمفكر النابغ الإمام عبد السلام الأسمر أحد رموز الإصلاح في القرن العاشر الهجري، الذي بلغ من المكانة حتى ذاع صيته في الآفاق، وقصَده الناس من الأعماق مريدين له وملتمسين منه حُسن الأخلاق، مما دفع العلماء إلى العناية به في كافة الجنبات، فعُنوا بسيرته وبدراسة فكره وطريقته وإبراز ما اختلجت عليه نفسه من علوم الحقيقة والطريقة والشريعة.

وكان من هؤلاء المعتنين به مسند الديار الليبية ومحدثها ومؤرخها العلامة أحمد القطعاني، صاحب التآليف الجمة الماتعة والكتابات البديعة الرائقة، فقد أولى الإمام الأسمر عناية كبيرة ظهرت في حضوره في كتاباته العديدة؛ فترجم له وكتب سيرته، وبيَّن مكانته العلمية في علوم المنقول والمعقول، وعرَّج على مواقفه الإصلاحية والتاريخية، وتأثر به في كتاباته عن التصوف والصوفية، فجاء الإمام الأسمر حاضرًا حضورًا ظاهرًا في كتاباته، الأمر الذي استدعاني إلى استجلاء هذا الحضور إمامًا وعالمًا وزاهدًا متصوفًا ناشرًا للعلوم والمبادئ والآداب والتصوف، وأوجه التقارب والتشابه بين الشخصيتين، الإمام الأسمر والعلامة القطعاني، وأثرهما في الحياة العلمية المشهور من كثرة تآليفهم المختلفة والمتنوعة، بجانب أثرهما في العالم من حولهم عالمين ومتعلمين.

نبذة عن الإمام عبد السلام الأسمر

هو الإمام أبو محمد عبد السلام الأسمر بن سليم بن محمد بن سالم بن حميد بن عمران الملقب بالخليفة بن محيا بن سليمان الفيتوري، الذي يرتفع نسبه إلى إدريس بن

إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن سيدنا علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله ﷺ[1].

لُقِّب رحمه الله بالأسمر؛ لأنه عندما بلغ أربعين يومًا أُمِرت أُمُّه في منامها بأن تلقبه بالأسمر؛ لمبيته الليالي سمرًا في طاعة الله سبحانه وتعالى[2].

ولد ﷺ ليلة اثنتي عشرة من ربيع الأول سنة 880هـ بمدينة زليتن، وتُوفي أبوه ولم يتجاوز العامين من عمره، فعالَته أمه وعمه الشيخ أحمد الفيتوري الذي تولَّى أمرَه وتربيته، فأدخله الكُتَّاب فحفظ القرآن في مدة يسيرة، ثم حمله إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن محمد الدوكالي الزعفراني لأخذ العلم عنه مدة سبع سنين[3]، كما تعلَّم أيضًا على يد الإمام أحمد زَرُّوق[4]، وغيره حتى بلغ جملة من أخذ عنهم ثمانين شيخًا[5].

وتاليًا ولما أن أسس زاويته بمسقط رأسه بمدينة زليتن، أقبل عليها الطلاب من مختلف أنحاء الدنيا، وأخذوا عنه، وانتشرت دعوته في الآفاق حتى قال عنه تلميذه الشيخ عبد الرحمن المكي في كتابه (مختصر البحر الكبير): «وقد اتفقت على ولايته وطريقته المشارقة والمغاربة، وجاءوه واقتدوا به وتركوا معه في زمانه جميع المشائخ والطرق، ولو عاش بعد ذلك لاتخذه أهل المشرق والمغرب مذهبًا لعلو ذوقه ومراتبه العلية»[6].

وألف الإمام الأسمر العديد من المؤلفات في شتى فروع الشريعة والطريقة والحقيقة، ضاع كثير منها في فتنة هجوم يحيى السويدي المدعوم من منظمة فرسان القديس يوحنا الصليبية المتطرفة على زاوية الإمام الأسمر عام 995هـ، التي أحرقت فيها مكتبة الزاوية وقتل فيها مقتل سيدي عمران نجل الإمام وشيخ الزاوية[7]، وبقي

---

(1) ذكر هذا النسب الكريم بتوسع الكثير من المؤرخين، ينظر على سبيل المثال: تنقيح روضة الأزهار، محمد مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م، ص74 وما بعدها.

(2) نفس المصدر، ص86، 87.

(3) الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1964م، ص2.

(4) نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، محمود مقديش، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م، 2/ 156.

(5) الأنوار السنية والمنن البهية ص11.

(6) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م، ص 183

(7) ذكرت الحادثة العديد من المصادر والمراجع، وللتوسع ينظر: قفة الصلاح، قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري الإمام سيدي عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، =

منها بعضها، كـ(الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية)[1]، والوصيتان الكبرى والصغرى[2].

وتوفي رحمه الله تعالى في مدينة زليتن بعد صلاة العصر يوم الخميس في العشر الأواخر من شهر رمضان سنة 981هـ، ودفن بعد صلاة الجمعة بعدما غُسِّلَ في زاويته المعروفة[3].

نبذة عن الشيخ العلامة أحمد القطعاني[4]

هو أحمد سالم كريم راقي، من فخذة بوسعيدة من قبيلة القطعان، والمشهور بأحمد القطعاني، والمعروف بين أهل العلم بمسند الديار الليبية.

ولد رحمه الله بمدينة درنة في سنة 1376هـ/ 1956م، وتنقلت أسرته في أوليات حياته بين درنة ومدينة بنغازي، فانتظم فيهما بالمدارس النظامية، كما أخذ العلوم الإسلامية في بنغازي على يد ثلة من علمائها أمثال محمد عبد ربه سليمان المجبري، والشيخ محمد أحمد بو سنينة وغيرهما، كما سلك الطريقة العيساوية الشاذلية على يد أستاذه الأكبر الشيخ مختار السباعي، وفي عام 1978م أُوفِد للدراسة في بريطانيا.

وفي سنة 1981م عاد وأسرته إلى درنة، وأخذ عن كثير من علمائها العديد من علوم الشريعة الطريقة والحقيقة، وبها أسس «الزاوية الأم»، التي تعد أولى الزوايا التي أسسها، قبل أن يطورها إلى معهد ديني عرف باسم منارة الصحابة للعلوم الشرعية افتتحه عام 1994م، وظل مديرًا له إلى أن استقال سنة 2003م؛ ليتفرغ لمهامه الدعوية والتعليمية.

وقد نبغ رحمه الله تعالى في علوم عدَّة تدل على سعة اطلاعه ورجاحة إدراكه، منها علوم السنة والرجال والتاريخ والفقه والعقيدة والتصوف، واهتم بقضايا العصر وهمومه، كقضية الدعوة وما يواجهها من تهديد المنصرين، فكان أحد أكبر ثلاثة علماء مسلمين متخصصين على مستوى العالم في علوم التنصير والتبشير.

= منشورات مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص 119 وما بعدها.

(1) وقع عليه الشيخ صالح الجعفري وقام بطبعه في دار الطباعة المحمدية بالأزهر الشريف عام 1964، وألحقه بقصيدتين من نظمه في مدح الإمام الأسمر.

(2) طبعت الوصيتين عديد المرات.

(3) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص 228.

(4) اختصرت هذه النبذة من ترجمته المطولة التي كتبها عن نفسه في: موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ 644م إلى سنة 1421 هـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج4، ص119.

وأطلق العديد من المؤسسات التعليمية والتثقيفية، كمجلة الأسوة الحسنة، والمكتبات والمتاحف والعشرات من الزوايا العيساوية الصوفية داخل ليبيا وخارجها.

وترك رحمه الله تعالى للمكتبة الإسلامية والعربية العديد من المؤلفات النافعة الماتعة التي زادت عن الثمانين مؤلفًا بين كتاب ورسالة، بعضها في عدة أجزاء.

وكان له رحمه الله تعالى عناية كبيرة بأهل الطريقة والتصوف، فألَّف كتبًا في التأريخ للطرق الصوفية التي ظهرت في ليبيا، وذكَر مؤسسيها ومشايخها ووقت ظهورها وزواياها وأسانيدها ومصطلحاتها وتعريفاتها وبحوث علمية حولها، وذلك من خلال موسوعته المسماة: موسوعة القطعاني- الإسلام والمسلمون في ليبيا، هذا غير عنايته واهتمامه بمشايخ الطرق الصوفية ودراسة سيرهم وإبراز أثرهم ومكانتهم، كما فعل مع العارف بالله الشيخ عبد السلام الأسمر رحمه الله تعالى الذي خصه بأكثر من كتاب ومقالة ودراسة.

وتوفي رحمه الله تعالى في تونس يوم السبت (17) نوفمبر سنة (2018م)، الموافق (9) من ربيع الأول لسنة (1440هـ)، عن عمر ناهز (62) عامًا بعد صراع مع المرض، ودفن يوم الإثنين (19) نوفمبر سنة (2018م)، الموافق (11) من ربيع الأول في مقبرة سيدي كريِّم شرقي طبرق.

هذا، وأكتفي بما ذكرته ففيه الغُنية؛ فإننا إن ذهبنا نغوص في بحر الإمام الأسمر والإمام القطعاني لوجدناه بحرًا محيطًا لا ننتهي إلى شواطئه، ولا نشبع من لآلئه، ولكن المقام مقام اقتضاب، لا مقام تطويل وإطناب.

سيرة الإمام الأسمر في كتابات العلامة القطعاني

للإمام عبد السلام الأسمر رحمه الله تعالى حضور ظاهر وبارز في مؤلفات إمامنا القطعاني، ذلك الحضور تعدَّدت صوره وأشكاله، ومن أبرز هذه الصور حضوره رحمة الله عليه باعتباره شخصية إسلامية وعلَمًا من أعلام الأمة المحمدية، يحتاج إلى أن يُبرَّز وتُكتب سيرته ويُعتنَى بترجمته، وهذا ما سأبينه في هذا المبحث من خلال ثلاثة مطالب رئيسة.

1 - كتابات العلامة القطعاني في ترجمة الإمام الأسمر:

عند النظر في كتابات العلامة القطعاني عن الإمام الأسمر تجد أنه رحمه الله حاضرٌ بصورة واضحة وقوية، وقد أشار الإمام نفسه إلى كتاباته التي ذكر فيها الإمام الأسمر،

وذلك في قوله: «كما درست ما بقي من مؤلفاته، وما كُتب عنه أثناء تأليفي لعدة كتب تناولته فيها؛ منها: القطب الأنور عبد السلام الأسمر، ومجالس الفقراء، وحراس العقيدة، والآرس، وموسوعة القطعاني الإسلام والمسلمون في ليبيا، ومواجيد المحبين، ثم تحقيقي لمنظومة الجوهرة المنثورة للشيخ عبد السلام الأسمر، وكتاب فتح العليم للشيخ عبد السلام بن عثمان، وكتاب مختصر البحر الكبير للشيخ عبد الرحمن المكي»[1].

وهذه الكتابات يمكن تقسيمها إلى ضربين من التأليف:

الضرب الأول: إفراد سيرة الإمام الأسمر بمؤلَّف، والتفصيل في ترجمته:

أفرد العلامة القطعاني الإمامَ الأسمر رحمهما الله تعالى بترجمته وذِكر سيرته، وذلك من خلال مُؤلَّف فريد وماتع وهو «القطب الأنور عبد السلام الأسمر»، وهو مطبوع أكثر من مرة ومتداول على نطاق واسع.

وعرَض العلامة القطعاني سيرة الإمام الأسمر بأسلوب وترتيب يدل على حُسن تأليف وبراعة أسلوب وعلو فكر كاتبه رحمة الله عليه؛ فبدأ كتابه بتمهيد تكلم فيه عن التصوف وحقيقته وأهميته وغايته التي هي الوصول إلى حقيقة كلمة (لا إله إلا الله)، وبيَّن فضل السادة الصوفية في حفظ الدين ونشره، ثم تطرق بعده إلى الإشارة إلى أن كتابه يتناول ترجمة الإمام الأسمر، ومنه انطلق إلى الكلام عن التأريخ للتصوف في البيئة الليبية، ثم ذكر كثيرًا من رموز السادة الصوفية فيها، وذكر دورهم في الحياة الليبية على كافة جنباتها؛ فبيَّن جهادهم بالكلمة والسلاح ضد الأعداء، ودورهم العلمي والديني في نشر علوم الشريعة وتعليمها والدفاع عن العقيدة الإسلامية، وبيَّن كذلك دورهم الاجتماعي في المجتمع الليبي، ولم يقتصر عند ذكر بعض أعلام السادة الصوفية في الديار الليبية على الرجال منهم فحسب، بل ذكر رموزهم من النساء الصوفيات الزاهدات العابدات ودورهن[2].

انتقل العلامة القطعاني رحمة الله عليه بعد ذلك إلى عنوان آخر وهو «موضوع الكتاب» وبيَّن تحته الدافع له على تأليف الكتاب[3]، ثم ذكر لنا الفئة المخاطبة بتأليفه هذا،

---

(1) أوبة المهاجر وتوبة الهاجر (الثبت الكبير)، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم بالاشتراك مع مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط1، 2021م، ج2، ص442.

(2) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م، ص 7- 24.

(3) سأذكر هذا الدافع وغيره في المطلب الثاني عند الكلام على أهداف العلامة القطعاني من ترجمة الإمام الأسمر.

فهو لم يؤلِّفه لكل قارئ، وإنما وضعه لأتباع السالكين طريق السادة الصوفية، وقسمهم أربعة أقسام، ثم ذكر بعدها الفئات التي لم يقصدهم بتأليفه، وهم فئتين: الذين يعملون بظواهر النصوص دون التعمق في معانيها وأسرارها ومعرفة كنهها، والفئة الأخرى الذين أسماهم بأشباه المتعلمين الذين عرفوا فتات العلوم الشرقية الملحدة أو الغربية الضالة[1]، وبعدها استأنف الكلام على موضوع الكتاب ووصفه بقوله: «إنه كتاب سيرة لمصلح ديني كبير ظهر في القرن العاشر الهجري، وبه قصة حياته مفصلة قدر الإمكان، وسيرته موضحة حسب ما سهل الله تعالى»[2]. ثم بيَّن بإيجاز أهمية دراسة سير الصالحين، مستشهدًا بكلام النبي ﷺ والإمام الجنيد[3].

انتقل العلامة القطعاني بعد ذلك إلى عنوان جديد في كتابه ليتكلم على الوضع التاريخي في ليبيا في القرن التاسع الهجري، والذي ولد في أواخره الإمام الأسمر[4]، ثم شرع في سرد سيرة والدي الإمام الأسمر، السيدة سليمة الدرعية والسيد سليم الفيتوري[5]، قبل أن يبدأ في سيرة الإمام الأسمر نفسه، بذكر مولده ونشأته في أحضان والدته وعمه السيد أحمد الفيتوري الذي تولى رعايته وتربيته بعد زواجه من والدته، وبيَّن حرص عمه على تعليمه علوم اللغة والشريعة والتصوف[6]، ومن ثم انتقاله لصحبه لشيخه عبد الواحد بن محمد الدوكالي، وفصل في هذه الصحبة فذكر مسألة السماع، والدروس والمواعظ التي ألقاها الشيخ الدوكالي على تلميذه الأسمر[7].

انتقل العلامة القطعاني إلى نقطة مهمة في رحلة الشيخ الأسمر، وهي دروس من سيرته في الصبر على المحن والشدائد بعد عودته إلى زليتن ووفاة والدته بعدما كُفَّ بصرها، ودوره الإصلاحي في كافة الأصعدة السياسية والاجتماعية والإدارية، ودعوته إلى النهوض بالأوطان والمجتمعات، وتنقلاته بين البلدان كتاورغا ومصراتة ثم عودته إلى زليتن وبقاؤه فيها حتى وفاته[8].

---

(1) القطب الأنور، مصدر سابق، ص-25 27.
(2) نفس المصدر، ص28.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(4) نفس المصدر، ص31 وما بعدها
(5) نفس المصدر، ص35 - 36
(6) نفس المصدر، ص43
(7) نفس المصدر، ص-46 55.
(8) نفس المصدر، ص-55 65.

وحرص العلامة القطعاني أن لا يغادر الطابع الصوفي كتابه، فخصص مبحثًا لذكر كرامات الإمام الأسمر[1]، والشعر الصوفي الذي تميز الإمام الأسمر بغزارة إنتاجه، مدللاً على ذلك بإحصائية لقصائده العامية والفصيحة، وأسلوبه ومميزات خصائصه، وموازينه وبحوره[2]، وأوراده وأذكاره التي صدرها بالكلام عن الشيخ المربي وشروطه والمريد وشروطه[3]، قبل أن يختم فصول سيرة الإمام الأسمر بذكر وفاته وأهم الشخصيات التي كانت من حوله، كخليفة الشيخ عمر بن حجا، والشيخ سالم بن طاهر، وجانبًا من جوانب علم الأنساب التي يعد العلامة القطعاني من بين رجاله والمتخصصين فيه[4]، خاصة أصوله من قبيلة الفواتير، وأولاده من صلبه، لينفذ إلى قضية هامة يعانيها الوسط الصوفي وتتعلق باستخلاف الأبناء وذوي القربى في قيادة الطرق الصوفية خلافًا لقواعد السلوك الصوفي، مستشهدًا في ذلك باستخلاف الإمام الأسمر لتلميذه ابن حجا على الرغم من علو كعب أولاده من صحبه سلوكًا وتربية وعلمًا ومقامًا[5].

وفي المباحث الأخرى من الكتاب أصَّل العلامة القطعاني للأصول الصوفية لطريقة الإمام الأسمر، فذكر سلسلة سند طريقته إلى النبي ﷺ، وأشهر تلاميذه ودرر من كلامه وما أثر عنه من عبارات ووصايا ومواعظ نافعة، ثم ذكر مسردًا لمؤلفاته وهي ثمانية كتب، ثم ثبتًا بما أُلِّف عن سيرته وترجمته، وذكر ثمانية عشر كتابًا[6].

وليكون الكتاب توثيقًا لكل ما يتصل بالإمام الأسمر، فقد ضمنه وصيته الصغرى وأحزابه الأربعة، ثم مبحثًا من أهم المباحث التي تفرد بها العلامة القطعاني عن كل من كتب في سيرة الإمام الأسمر، وهو مبحث أثره في العالم الإسلامي وفكره وأسلوبه الدعوي من خلال رسالته التي وجهها إلى أتباعه بتمبكتو[7].

الضرب الثاني: ذكر ترجمة الإمام الأسمر والكلام عليه في أثناء الكتابات والمؤلفات:

(1) نفس المصدر، ص-65 71.
(2) نفس المصدر، ص-71 77.
(3) نفس المصدر، ص-78 89.
(4) نفس المصدر، ص-89 96.
(5) انفس المصدر، ص-96 100.
(6) نفس المصدر، ص-101 122.
(7) نفس المصدر، ص-122 183.

لم يكتفِ العلَّامة القطعاني بإفراد الإمام الأسمر بمؤلَّف يتناول سيرته وحياته، وإنما جعله أحد المباحث التي يوردها في كتب أخرى ألَّفها، ومن هذه المؤلفات التي تناوله فيها ثلاثة مؤلفات، وهي:

أولًا: كتاب (حراس العقيدة): تناول فيه سيرة الإمام الأسمر بإيجاز، وأستطيع القول بأنه اختصر ما فصَّله في كتابه (القطب الأنور)؛ فذكر مولده، وتعلمه، ووصفه، ومحنه، وشاعريته وعدد قصائده ومقطوعاته، وبعضًا من مؤلَّفاته، والإشارة إلى كثرة مريديه من مختلف الأقطار الإسلامية، ووفاته، ودور زاويته بعد وفاته في حفظ القرآن وتعلمه وتعليمه وتدارس العلوم الشرعية[1].

ثانيًا: كتاب (سري للغاية): ألقى فيه الضوء على جانب من جوانب شخصية الإمام الأسمر، وهي دفاعه عن العقيدة والهُوِية الإسلامية في القرن العاشر الهجري؛ حيث ذلك من خلال بيان أن الإمام الأسمر قد حفظ أسماء الأعلام والمتصوفة وذوي الصلاح الليبيين في ذاكرة الأمة، وأثبت أن قصائده وشعره يعد أكبر مرجع تاريخي ليبي[2].

ثالثًا: كتاب (مجالس الفقراء): تناول فيه عناية الإمام الأسمر للجانب الاجتماعي في البيئة الليبية من خلال وصاياه لمريديه، التي وصفها العلامة القطعاني بأنها تربي المريد وتهذب طباعه وتصرفه عما لا خير له فيه دنيا وأخرى، وقد رصدت وصاياه رحمة الله عليه جانبًا مما كان عليه المجتمع الليبي في القرن العاشر الهجري[3].

رابعًا: كتاب (سلسلة أهل الحق): وهو عبارة عن (5) مقالات كتبها في الذكرى السنوية للاعتداء على مقام وزاوية الإمام الأسمر عام 2012م، ألقى الضوء فيها على جوانب مهمة في حياة الإمام، كبيان أثره في علوم الرواية والإسناد[4]، وبيان مذهبه الفقهي وإمامته للمالكية في عصره وتلاميذه[5]، وبيان شعره وأثره في المجتمع[6]، واعتبار سيرته تأريخًا للديار الليبية في القرن العاشر الهجري[7].

(1) حراس العقيدة، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، 2016م، ص-16 18.
(2) سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، 2018م، ص -6 8.
(3) مجالس الفقراء، أحمد القطعاني، طرابلس، سنة 2000م، ص-107 124.
(4) سلسلة مقالات أهل الحق، مقال (الشيخ عبد السلام الأسمر وأثره في علوم الرواية والإسناد)، أحمد القطعاني، منشورات الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن، ص2.
(5) نفس المصدر، ص7.
(6) نفس المصدر، ص8.
(7) نفس المصدر، ص-4 6.

خامسًا: كتاب (أوبة المهاجر وتوبة الهاجر): وهو ثبته الكبير، وقد أورد في هذا الكتاب أسانيده المتصلة في رواية كتبه ووصاياه وأحزابه[1]، مما يعطينا صورة لجزء من حياة الإمام الأسمر، وهي معرفة بعض تلاميذه وشيوخه ومؤلفاته.

سادسًا: كتاب (الآرس في نسب الفواتير من آل بوفارس): ذكر فيه نسب الإمام الأسمر إلى قبيلة الفواتير، وذلك في سياق كلامه على أن الفواتير منهم أولياء، فقال: «لا تخلو قبيلة الفواتير من أولياء موجودين فيهم، وإن كان يكفي ويفيض عن الكفاية أن يكون منهم السيد الأغر الفاضل المشتهر الغوث عبد السلام الأسمر رضي الله عنه وأرضاه»، ثم ذكر اسمه ونسبه[2].

أهداف العلامة القطعاني من ترجمة الإمام الأسمر

عند النظر في جهود العلامة القطعاني في دراسة سيرة الإمام الأسمر في كتاباته، يتضح أنه هدَف إلى تحقيق عدة أهداف رئيسة، تتمثل في الآتي:

الأول: دراسة تاريخ الديار الليبية، من خلال دراسة شخصية ليبية لها أثرها في حقبة من الحقب التاريخية التي تشتمل على كثير من الأحداث التاريخية، والإمام الأسمر كان من أهل القرن العاشر الهجري، الذي كان مليئًا بكثير من الأحداث التاريخية، ويتضح هدفه هذا من خلال إلقاء الضوء في كتابه (القطب الأنور عبد السلام الأسمر) على الوضع التاريخي في ليبيا في القرن التاسع الهجري[3].

وهو هدف يتجلى أيضًا في كتابه (مجالس الفقراء) الذي أرَّخ لصورة المجتمع الليبي في القرن العاشر الهجري من خلال وصاياه لمريديه، فنجده يقول تأكيدًا على ذلك: «طالما وجدت بين سطور وصية سيدي عبد السلام الأسمر رضي الله عنه، وفي ثنايا كلامها وطيات ألفاظها صورة نابضة حية لما كان عليه مجتمعنا الليبي خصوصًا في غربه إبان القرن العاشر؛ إذ فرغ رضي الله عنه من إملائها على ما ذكر كاتبه الشيخ محمد بن إبراهيم بن عطية الملقب ميلاد أواسط شهر رمضان (972هـ)، فأحببت أن أستخلص هذه الصورة عن الوصية وأجلوها للناظرين وأضعها في إطارها المناسب؛ ليرى الخلف من خلالها ما كان

---

(1) أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، مصدر سابق، ج1 ص232، 239، 241، ج2 ص-441 446.
(2) الآرس في نسب الفواتير من آل بوفارس، أحمد القطعاني، طرابلس، ص69.
(3) القطب الأنور، مصدر سابق، ص-31 33.

عليه أسلافهم، ورأيت ألا تخلو مجالس الفقراء من النظر إلى هذه الأبعاد التاريخية في كلام أولياء الله تعالى»[1].

الثاني: التأكيد على الحلول الناجزة التي قدمها السادة الصوفية للتحديات التي كانت تواجه الأمة الإسلامية، وتدل على عمق فكره وتفكيرهم، وهو تذكير أيضًا بأنها حلول مناسبة لتلك التحديات التي تجدد في واقع الأمة اليوم، وأعني بذلك عنايتهم بحفظ العقيدة الإسلامية ونشرها في الأقطار المختلفة، فالسادة الصوفية «هم الذين حفظ الله تعالى بهم دينه ونشره في البقاع وصان بهم الإسلام وأهل الإسلام من كيد اللئام في الداخل والخارج»[2]. وللتأكيد على حضورهم في قلب أزمات الأمة قال: «فما كان رجال التصوف أبدًا من دعاة السلبية والنكوص، ولكنهم كانوا دائمًا حراس العقيدة الأمناء الذين يتوارون برفعة ويستترون بسمو حتى تمس العقيدة ويراد الإسلامي بسوء سواء كان في عقيدته أم في علومه أم في وجوده»[3].

الثالث: إبراز حضارة الديار الليبية التي تتضح من خلال التراجم لأعلامها؛ حيث إن هؤلاء الأعلام يعبرون عن هوية الأمة وعمق مشاعرها تجاه دينها، خاصة إذا كانت الشخصية وثيقة الصلة بالعلوم الشرعية، ويؤكد على ذلك قوله: «إن بلدًا تخلو ذاكرته من أعلام يدون تراجمهم ويعتز بمآثرهم يعاني نقصًا حضاريًّا شديدًا وخللًا في تركيبته الوجودية هامًّا، إن توثيق أعلام الإسلام هوية ودلالة على عمق مشاعرنا الدينية وأصالتنا الإسلامية، إنه قيمة ومفخرة واعتزاز»[4].

الرابع: مكانة الإمام الأسمر وعلو شأنه، وبيان العديد من الجوانب في شخصيته، لذا نجده يقول عن ترجمته للإمام: «وهو محاولة لإيضاح جوانب نراها كانت غامضة من شخصية هذا القطب الكبير وطريقته الصوفية التي أرسى دعائمها وشاد بناءها بلا ملل ولا كلل طوال ما ينيف عن الثمانين عامًا، وحياته وما أحاط به من ظروف دينية واجتماعية وسياسية»[5].

(1) مجالس الفقراء، مصدر سابق، ص109.
(2) القطب الأنور، مصدر سابق، ص9.
(3) نفس المصدر، ص24.
(4) سري للغاية، مصدر سابق، ص6.
(5) القطب الأنور، مصدر سابق، ص25.

الخامس: أن في ترجمة أعلام الأمة الإسلامية انتفاعًا بسيرتهم وأخذ القدوة من حياتهم، لذا نجده يقول: «وسير الصالحين وأهل الدين ينتفع بها أهل القلوب النيرة والنوايا الطيبة الخيرة، قال الأستاذ الجنيد قدس الله سره: الحكايات -يقصد حكايات الصالحين- جند من جنود الله تعالى تقوى بها قلوب المريدين، قيل له: فهل في ذلك شاهد؟ فقال رضي الله عنه: نعم، قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هُود:120]»[1].

-2 منهج العلامة القطعاني في تناول سيرة الإمام الأسمر:

أستطيع بعد النظر في ترجمة العلامة القطعاني للإمام الأسمر استجلاء منهجه الذي من خلاله استطاع أن يبرز شخصية الإمام الأسمر باعتباره علَمًا من أعلام الأمة الإسلامية عامة، ومن أعلام الديار الليبية خاصة، ويتجلى هذا المنهج في الآتي:

أولًا: قدَّم العلامة القطعاني لترجمة الإمام الأسمر بتمهيد بيَّن فيه أمورًا ذا علاقة وثيقة بغرض الترجمة الرئيس[2].

ثانيًا: صدَّر العلامة القطعاني مباحث ترجمة الإمام الأسمر بالكلام على الفكرة العامة للمبحث إذا كان موضوع المبحث يحتاج إلى ذلك؛ فمثلًا عند كلامه عن كرامات الإمام الأسمر نجده يتحدث عن الكرامة ودليلها من الكتاب والسنة وغير ذلك[3].

ثالثًا: اعتنى العلامة القطعاني بإبراز الأحداث التاريخية التي شهدها القرن العاشر الهجري، الذي عاش فيه الإمام الأسمر.

رابعًا: وضَع العلامة القطعاني عناوين فرعية للنقاط التي يتناولها في ترجمة الإمام الأسمر.

خامسًا: رتب العلامة القطعاني أحداث ترجمة الإمام الأسمر ترتيبًا تاريخيًّا؛ بذكر الأقدم فالأقدم، فيبدأ مثلًا بمولده ثم بنشأته، ويؤخر ترجمته.

سادسًا: ركز العلامة القطعاني في ترجمة الإمام الأسمر على نقاط مهمة في حياته، كالجانب الصوفي مثلًا، وعلاقته بمريده، وأثره في العالم الإسلامي.

---

(1) نفس المصدر، ص28.
(2) ذكرت كثيرًا من هذه الأمور في المطلب الأول من هذا المبحث.
(3) القطب الأنور، مصدر سابق، ص65، 66.

سابعًا: جاءت عبارات العلامة القطعاني في غاية السلاسة والوضوح بعيدًا عن الألفاظ الغريبة والعبارات التي يصعب فهمها واستيعابها.

ثامنًا: أتى العلامة القطعاني بالعناصر المشهورة في التراجم وكتابة سير الأعلام، كالمولد والنشأة والشيوخ والتلاميذ والمؤلفات وأثره فيمن حوله، وغير ذلك.

تاسعًا: رجع العلامة القطعاني في ترجمته للإمام الأسمر إلى مصادر ترجمته الرئيسة التي ترجمت له، كـ(فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم)، و(مختصر البحر الكبير) للشيخ عبد الرحمن المكي[1].

عاشرًا: أكثر العلامة القطعاني من الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية في الاستدلال على كثير من القضايا والمسائل التي ناقشها في أثناء ترجمة الإمام الأسمر، وعزا كل آية إلى موضعها في المصحف، وأخرج كل حديث ذكره إلى مصادر السنة التي رجع إليها[2]، كما أنه استشهد بكلام العلماء والأولياء[3].

مما سبق يتضح حضور الإمام الأسمر في كتابات العلامة القطعاني باعتباره علَمًا من أعلام الأمة الإسلامية، وقطبًا من أقطاب التصوف، رأى أن يترجم له ويدرس سيرته، ويبرز أهم الجوانب فيها وأثرها فيمن حوله.

الإمام الأسمر عالمًا ومؤرخًا في كتابات العلامة القطعاني

للإمام عبد السلام الأسمر -رحمه الله تعالى- حضور ظاهر وبارز في مؤلفات إمامنا القطعاني، ذلك الحضور تعدَّدت صوره وأشكاله، ومن أبرز هذه الصور حضوره -رحمة الله عليه- باعتباره عالمًا بعلوم الشريعة والحقيقة والطريقة والتاريخ، يحتاج إلى أن يُبرَّز هذا الجانب واستجلائه من خلال مؤلفات العلامة القطعاني، وهذا ما سأبينه في هذا المبحث من خلال ثلاثة مطالب رئيسة.

1 - عناية العلامة القطعاني بإظهار الشخصية العلمية للإمام الأسمر:

اعتنى العلامة القطعاني في كتاباته بإبراز الجانب العلمي في شخصية الإمام الأسمر، ويتضح ذلك من خلال عدة مظاهر:

(1) كما في القطب الأنور، مصدر سابق، ص46.
(2) كما في القطب الأنور، ص-54 56، 60، 61.
(3) كما في القطب الأنور، ص101.

الأول: إبراز نشأته العلمية تفصيلًا؛ فقد بيَّن العلامة القطعاني تفاصيل نشأة الإمام الأسمر العلمية في صغره، فذكر أن عمه أحمد الفيتوري هو أول مشايخه الذين تعلم على يديه الآجرومية إلى أن مهر فيها، كما أدخله الكتَّاب ليحفظ القرآن الكريم على يد الشيخ عبد الرحمن المسلاتي التونسي، وكان عمه يمشي معه عند حضوره درس الآجرومية وألفية ابن مالك في النحو والمعاني والبيان ولم يفارقه إلى أن تجاوز الاثنتي عشرة سنة، وقبل أن يناهز الحلم في بواكير صباه حمله عمه إلى أحد مشايخ التصوف ليأخذ عنه ما يكمل به نفسه ويصلح باطنه مع علمه بما أولاه الله تعالى من عناية[1].

الثاني: إبراز مشيخته الذين تعلَّم على أيديهم العلوم ومجاهدة النفس، فأطال رحمه الله في الكلام على ملازمة الشيخ الأسمر لشيخه ومريده الشيخ عبد الواحد بن محمد الدوكالي بعد أن أسلمه إليه عمه أحمد الفيتوري، وقد قضى معه ما يزيد على السبع سنوات، بل نقل العلامة القطعاني عن الإمام الأسمر ثناءاته على شيخه ووصفه وأحواله، وذكر رحمه الله أنه أخذ عن شيخه الحكم العطائية والتوحيد والتصوف، كما ألبسه الخرقة وقلنسوته[2]، وبعد إجازة شيخه الدوكالي له أراد أن يستزيد من العلم فطاف على الأولياء والصالحين والعلماء لملازمتهم كالشيخ عبد الله العبادي ومحمد بن عبد الرحمن الحطاب الكبير إلى ثمانين شيخًا[3].

ولم تقف عناية العلامة القطعاني بإبراز مشيخة الإمام الأسمر عند هذا فحسب، بل أفرد عنوانًا في سلسلة مشايخه، فذكر مشايخه الذين أخذ عنهم الطريقة العروسية وسنده في ذلك[4].

الثالث: إبراز تلاميذه الذين أخذوا عنه وكثرتهم، وأشار إلى ذلك في صدر كلامه على تلاميذه، ثم مثل أشهر تلاميذه المريدين له، كالشيخ عمر بن جحا (ت: 999هـ)، ومحمد بن محمد الحطاب الرعيني (ت: 954هـ)، وعبد الرحمن المكي (ت: 899هـ)، وغيرهم[5].

---

(1) القطب الأنور، مصدر سابق، ص43.
(2) أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، مصدر سابق، ج1، ص232، 239، 241.
(3) القطب الأنور، مصدر سابق، ص-46 55.
(4) نفس المصدر، ص-103 110.
(5) نفس المصدر، ص110، 111.

الرابع: إبراز مؤلفاته العلمية؛ فأفرد عنوانًا سرد تحته ثبتًا لمؤلفاته، وصدَّر كلامه بأن مؤلفاته كانت كثيرة قبل إتلافها، ولم يبق منها إلا القليل منها في التصوف والتاريخ والتراجم، وأنه كان له أربعون كاتبًا متجردون لتدوين ما يمليه عليهم، وذكر ثمانية كتب من كتبه، منها وصاياه الثلاثة: الصغرى، والوسطى، والكبرى، وغيرها[1].

الخامس: ذكر بعض النصوص التي ألفها في ملحق بعد ترجمته؛ من وصاياه ووظائفه وأحزابه ورسائله، ولا يخفى أن هذا يُعدُّ إبرازًا لشخصيته العلمية من خلال ما كتبه بنانه[2].

السادس: إبراز تفرده عمَّن سبقه من الصوفية ومن لحقه بغزارة إنتاجه الشعري، وسرَد إحصائية لقصائده ومقطوعاته[3]، وقد اشتمل شعره على الكثير من الأغراض والعلوم المختلفة التي تنم على سعة علمه وعلو شأنه فيه.

السابع: العناية بذكر أسانيده المتصلة في رواية كتبه ومؤلفاته وأشعاره وأحزابه ووظائفه وكلامه[4]، وكذلك رواية سند كتابه (الأنوار السنية والمنن البهية)[5].

الثامن: وصف العلامة القطعاني الإمام الأسمر بقوله: «من أهم أعلام ليبيا العلمية والصوفية»[6]، وبقوله: «الشيخ عبد السلام الأسمر أحد أكبر العلماء الذين أنجبتهم ليبيا على الإطلاق»[7]، فيدل هذا على إبراز الجانب العلمي في شخصية الإمام الأسمر رحمة الله عليه.

التاسع: إبراز فكر الإمام الأسمر من خلال رسائله ووصاياه لتلاميذه، فنجده يقول: «فتراه رضي الله عنه يحض أتباعه على تداول اللغة العربية والتحدث بها وتعلمها مبينًا لفضلها، شارحًا لفوائدها، موضحًا لأثرها في فهم التعاليم الإسلامية، مستدلًّا في سياق ذلك بالأحاديث النبوية الشريفة والمنقولات عن كبار علماء الأمة وأئمة الإسلام، ويزين لهم تعلمها بحكمة وبصيرة»[8]، ولا يصدر ما ذُكر إلا من عالم مبرَّز في العلوم يستطيع على تلقينها وتدريسها.

(1) نفس المصدر، ص 118- 120.
(2) نفس المصدر، ص-125 179.
(3) نفس المصدر، ص71، 72.
(4) أوبة المهاجر، مصدر سابق، ج2، ص441 و445.
(5) نفس المصدر، ج2، ص324 و325.
(6) مجالس الفقراء، مصدر سابق، ص107.
(7) سلسلة مقالات أهل الحق، مصدر سابق، ص2.
(8) القطب الأنور، مصدر سابق، ص173.

2 - العلوم التي نبغ فيها الإمام الأسمر من خلال كتابات العلامة القطعاني:

لم يكتفِ العلامة القطعاني بإظهار الشخصية العلمية للإمام الأسمر، بل كان له حضور بفضل ما كسبه من علوم نبغ فيها وأصبح إمامًا يُنقل عنه ويقصده مريدوه من حدب وصوب، ويمكن استجلاء هذه العلوم التي نبغ فيها إمامنا الأسمر على النحو الآتي:

أولًا: علوم اللغة العربية والمنطق والتوحيد، فقد قال العلامة القطعاني في كلامه عن طلب الإمام الأسمر للعلم: «فدرس عليه -أي على عمه أحمد- الآجرومية في اللغة العربية وشيئًا من المنطق والتوحيد والفقه»[1]، وفي موضع آخر يقول: «وكان عمه يمشي معه في كل وقت، ويحضران الدرس معًا في الآجرومية وألفية ابن مالك في النحو والمعاني والبيان»[2].

ثانيًا: علوم الرواية والإسناد، فقد بيَّن العلامة القطعاني أسانيد الإمام الأسمر في كتابه (أوبة المهاجر) -كما أشرت سلفًا- في كتابه «الأنوار السنية والمنن البهية».

ثالثًا: علم الفقه، ذكرت أن العلامة القطعاني نقل أن الإمام الأسمر أخذ عن عمه الفقه، لكنه في مناسبات لاحقة يؤكد أن الإمام الأسمر كان من أئمة المذهب المالكي، حيث قال: «الشيخ عبد السلام الأسمر إمام أئمة المذهب المالكي قاطبة في عصره، وهي مكانة شريفة عليا منيفة تولاها عن جدارة لغزارة علومه التي أخذها مشيخة مسلسلة عن أساتذة هم أئمة المذهب، وتلقيه عنهم مراجع المذهب الأساسية وكتبه، منهم علامة المالكية الكبير الشيخ أحمد زروق وشيخ الأزهر سيدي عبد الواحد الدوكالي دفين مسلاتة الذي أخذ عنه مختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني»[3].

رابعًا: علوم الطريقة والحقيقة والسلوك والتصوف، ذكرت من قبل أن العلامة القطعاني ذكر أن الإمام الأسمر كان من أتباع الطريقة العروسية ومن كبار شيوخها، فقال: «وقد انتظم الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر ﵁ في سلك الطريقة العروسية المبارك، بل إنها لم تشتهر إلا به، وما انتشرت في كل الشمال الأفريقي خصوصًا والعالم الإسلامي عمومًا إلا على يديه»[4].

(1) حراس العقيدة، مصدر سابق، ص16.
(2) القطب الأنور، مصدر سابق، ص43.
(3) مقالات أهل الحق، مصدر سابق، ص7.
(4) القطب الأنور، مصدر سابق، ص102.

وقد ذكر أيضًا العلامة القطعاني أن عمه أحمد الفيتوري دفع به إلى الشيخ عبد الواحد الدوكالي لملازمته، وليأخذ عنه ما يكمل نفسه ويصلح باطنه، يقول العلامة القطعاني: «وقضى بين يديه مدة سبع سنين كاملة مجدًّا في خدمته ليله ونهاره دارسًا لما يمليه عليه من علوم ومعارف، فقرأ عليه المختصر والرسالة والحكم العطائية والتوحيد»[1]، وقال أيضًا: «فتلقى عنه (أي: الشيخ الدوكالي) العلم الظاهر وعلم إصلاح القلوب المسمى عند القوم بالعلم الباطن، فهو شيخه الذي إليه ينتسب وفق الاصطلاح الصوفي الكريم»[2].

وذكر أن الإمام الأسمر كانت له أوراد وأحزاب ووظائف بهيئاتها واظب عليها في أوقاتها، كما هو تعارف عليه السادة الصوفية[3]، وأورد بعضًا منها في آخر ترجمته[4].

خامسًا: الأدب والشعر، فقد أفرد العلامة القطعاني عنوانًا فرعيًّا تكلم فيه عن الشعر الصوفي عند الإمام الأسمر، وعدد من خلاله الكثير من قصائده ومقطوعاته الشعرية، وقد قدمت تلك الإحصائية، وأورد قصيدته التائية التي وصفها بقوله: «وتعتبر تائيته التي سلك فيها نهج أصحاب التائيات قبله ابتداء من الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ الدسوقي وعمقه الشيخ ابن الفارض رضي الله عنه، وسار عليه الكثير من الصوفية بعدهم من أهم أشعاره على الإطلاق»[5].

ويذكر العلامة القطعاني شعر الإمام الأسمر مثنيًا على تأثيرها في مجال المديح والمواجيد، فيقول: «ويعتبر فضيلة العلامة الشيخ المصلح سيدي عبد السلام الأسمر (880 -981هـ) أكثر كاتب ليبي تأثيرًا في ليبيا وخارجها في هذا المجال على مر تاريخها، وتأتي مواجيده وأزجاله وألحانه أبرز معالم هذا التأثير، فلا يكاد يخلو مجلس أو مجمع منها؛ لعمقها الإنساني، واتصالها الوجداني، وساعد سهولة كلماتها وسلاسة تعابيرها وقوة عاطفتها، على مزيد انتشارها»[6]. ثم ذكر بعض قصائده في مدح النبي ﷺ، منها قصيدة بعنوان: «أنا قلبي مشتاق لزيارة بدر التمام»[7].

(1) نفس المصدر، ص51.
(2) حراس العقيدة، مصدر سابق، ص16.
(3) القطب الأنور، مصدر سابق، ص78.
(4) نفس المصدر، ص125-179.
(5) نفس المصدر، ص71.
(6) مواجيد المحبين وأشواقهم لسيد المرسلين، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، 2017م، ص9.
(7) نفس المصدر، ص68.

3 - كتابات العلامة القطعاني عن الإمام الأسمر مصدرًا للتاريخ الليبي:

تعد كتابات العلامة القطعاني عن الإمام الأسمر أحد المصادر التي أرخت لجزء من تاريخ الديار الليبية في القرن العاشر الهجري، ويتضح ذلك من خلال الآتي:

أولًا: صدَّر العلامة القطعاني الكلام على سيرة الإمام الأسمر بالحديث عن الحقبة التاريخية في الديار الليبية، والتي سبقت ميلاده المبارك في القرن التاسع عشر الهجري الخامس عشر الميلادي، فبيَّن أن هذه الحقبة شهدت اضطرابات وفتنًا في المغرب العربي؛ من نشاط الاستعمار الأسباني، ومحاولة فرض نفوذه وتوسعه في المغرب العربي ومنها ليبيا، وكانت طرابلس والمدن المحيطة بها تابعة في هذه الحقبة لسلطان الدولة الحفصية، ثم تعرضت للاحتلال الأسباني الذين تركوها لفرسان القديس يوحنا الذين أخرجهم العثمانيون، الذين استتب الأمر بالكامل لهم[1].

ثانيًا: عرض العلامة القطعاني في أثناء كلامه على الشخصية الصوفية للإمام الأسمر، لتاريخ التصوف في الديار الليبية، وبين أن الكتابة عن السادة الصوفية في هذه البقعة من البلدان الليبية كتابة عن معظم السكان، وأن الصوفية عبر التاريخ الليبي كان لهم دور في الحياة العامة والتاريخية؛ فهم كانوا حماة للثغور ونشر علوم الدين، وذكر بعضًا من هؤلاء السادة ودورهم في التاريخ الليبي، وفي ذلك يقول: «وإن كان الجهاد بالسيف والرمح من شيم السادة الصوفية، فإن جهاد المستعمر بالقلم والثقافة هو الآخر من علاماتهم التي لا تفارقهم وصفاتهم التي لا تخالفهم»[2].

ثالثًا: قدَّم العلامة القطعاني صورة للمجتمع الليبي في القرن العاشر من خلال سرده لأحد وصايا الإمام الأسمر، والتي عبر عنها بقوله: «طالما وجدت بين سطور وصية سيدي عبد السلام الأسمر رضي الله عنه وفي ثنايا كلامها وطيات ألفاظها صورة نابضة حية لما كان عليه مجتمعنا الليبي خصوصًا في غربه إبان القرن العاشر؛ إذ فرغ رضي الله عنه من إملائها على ما ذكر كاتبه الشيخ محمد بن إبراهيم بن عطية الملقب ميلاد أواسط شهر رمضان (972هـ)، فأحببت أن أستخلص هذه الصورة عن الوصية وأجلوها للناظرين وأضعها في إطارها المناسب ليرى الخلف من خلالها ما كان عليه أسلافهم»[3].

---

(1) القطب الأنور، مصدر سابق، ص-31 33.

(2) نفس المصدر، ص-7 24.

(3) مجالس الفقراء، مصدر سابق، ص109.

وبيَّن ﷺ في هذه الصورة: مصحف المسلم الخاص به، وكان يسمى بالنسخة، والمناخ الثقافي السائد في هذه الحقبة، وانتشار الفرق الإسلامية في المجتمع الليبي حينها كالمعتزلة ودورهم في محاربة الفلاسفة والمتكلمين، والتصدي لحركة التهويد التي بدأت جذورها حينها، وتطرق في وصيته إلى تقديم النصيحة للنساء في المجتمع وقتها من عدم مزاحمة الرجال وغيرها، كذلك وصف الأفراح وظاهرها المميزة في المجتمع الليبي، كما وصف أيضًا المآتم، وذكر طرفًا من الأمراض والأدوية الذائعة في هذه الفترة، كما أنه ذكر الحرف والمهن وأنواعها، ووصف اللباس والطيب وأنواعهما، وتعرض أيضًا إلى مظاهر الفساد في المجتمع من الموبقات العائدة بالضرر الشديد على النفس، وذكر كذلك الخوارق والكرامات، وظاهرة الشعوذة، وذكر الألفاظ الفصيحة والعامية في الوصية[1].

رابعًا: عرض العلامة القطعاني لدور العلماء ومساجدهم وزواياهم في الحفاظ على الهوية العقدية والتاريخية للديار الليبية في الحقبة التي عاش بها الإمام الأسمر؛ حيث إنه ذكر أن الإمام الأسمر لوحده قام بمسح طبوغرافي شامل وثق من خلاله أسماء العلماء والمتصوفين وذوي الصلاح الليبيين، وحفظ هذه الأعلام في ذاكرة الأمة؛ فإن خلو أي تاريخ بلد من سير أعلامها وتراجمهم يُعدُّ نقصًا حضاريًّا شديدًا، فتوثيق أعلام الإسلام هوية ودلالة على عمق المشاعر الدينية والأصالة الإسلامية، والأمام الأسمر حفظ لنا أسماء أعلام ليبيين من خلال شعره، كسيدي محمد حركات (ت: 789هـ)، وسيدي عبد الجليل الحكيمي (ت: 675هـ) وغيرهما، وعليه فإن أشعار الإمام الأسمر تعتبر مرجعًا تاريخيًّا من تاريخ الديار الليبية[2].

وتأكيدًا منه على دور الإمام الأسمر في حفظ الهوية قال: «لقد كان الشيخ عبد السلام الأسمر سبب الحفاظ على الهوية الإسلامية في إقليم طرابلس، وما مثال سبتة ومليلة منكم ببعيد، ومن يقول بغير ذلك هو يغطي عين الشمس بالغربال»[3].

(1) مصدر سابق، ص-107 124.
(2) سري للغاية، مصدر سابق، ص-6 8.
(3) سلسلة مقالات أهل الحق، مصدر سابق، ص 4، 5.

مما سبق يتضح أن الإمام الأسمر كان له حضور ظاهر في كتابات العلامة القطعاني باعتباره عالمًا بعلوم الشريعة والحقيقة والطريقة، وباعتبار أن سيرته جزء من التاريخ الليبي؛ لما شهدته الحقبة التي عاش فيها من أحداث تاريخية كان له فيها بصمته الواضحة.

المنهج الصوفي للإمام الأسمر في كتابات العلامة القطعاني وأثره

للإمام عبد السلام الأسمر رحمه الله تعالى حضور ظاهر وبارز في مؤلفات إمامنا القطعاني، ذلك الحضور تعدَّدت صوره وأشكاله، ومن أبرز هذه الصور حضوره رحمة الله عليه باعتباره قطبًا صوفيًّا ملتزم الطريقة العروسية، يحتاج إلى أن يُبرَّز هذا الجانب في شخصيته ويُلقي الضوء على ملامح ذلك في مؤلفات العلامة القطعاني، وهذا ما سأبينه في هذا المبحث من خلال ثلاثة مطالب رئيسة.

1 - إبراز كتابات العلامة القطعاني المنهج الصوفي للإمام الأسمر:

كان الإمام الأسمر رحمه الله قطبًا من أقطاب التصوف الإسلامي سلك طريق السادة الصوفية حتى علا قدْره وذاع صيته، فأصبح إمامًا عارفًا بالله زاهدًا ورعًا غوثًا، لذا نجد العلامة القطعاني رحمه الله قد اعتنى بهذا الجانب في شخصية الإمام الأسمر، فحرص على الوقوف على صوفية الإمام الأسمر وإظهارها، وكان لهذا الإظهار مظاهره المليئة بها مؤلفاته وكتاباته، من هذه المظاهر الآتي:

أولًا: إبراز نشأته الصوفية على يد شيخه ومريده الإمام عبد الواحد بن محمد الدوكالي الذي قضى معه سبع سنوات[1]، ويتضح ذلك في قوله: «وعلى عادة الطيبين في ذلك الزمان الطيب حمله عمه -أحمد الفيتوري- قبل أن يناهز الحلم في بواكير صباه إلى أحد مشايخ التصوف؛ ليأخذ عنه ما يكمل نفسه ويصلح باطنه، مع علمه بما أولاه الله تعالى من عناية سابقة»[2].

ثم عرض بعدها لصفة المشايخ الذين يتبعهم المريد في سلوك طريقه الصوفي، فبين أن تسليم السالك لشيخه هو تسليم لله تعالى ورسوله ﷺ، وأن أهم ركن في التصوف

(1) القطب الأنور، مصدر سابق، ص47.
(2) نفس المصدر، ص43.

هو أخذه عن شيخ عارف بالله عالم بما يحتاجه المريد قادر على إزالة الشبه التي تعرض للمريد في البداية والتوسط والنهاية، كما أنه بيَّن أن السالكين في الطريق يعرفون المشايخ بالحق لا الحق بالمشايخ[1].

وقد أطال العلامة القطعاني في الكلام على شيخ ومريد الإمام الأسمر: الإمام الدوكالي في كتاباته عنه، وبيَّن كيفية ملازمته وما أخذ عنه في سلوك الطريق الصوفي، بل نقل ثناء الإمام الأسمر نفسه على شيخه وذكر شيء من أحواله[2]، وبيَّن أيضًا أنه ظل معه حتى أجازه الشيخ بقوله له: «يا عبد السلام، ورثت مقامي اذهب لينتفع بك الناس، الشيخ ما يخدم شيخًا»[3].

ثانيًا: إبراز تبركه بآثار الأولياء والصالحين قبله على عادة السادة الصوفية، فذكر أن الإمام الأسمر قد زار جبل زغوان، وعنه يقول: «أنه محل للتبرك بآثار الصالحين الكثيرين الذين فضلوا الابتعاد عن الخلق والإقامة بمغاراته والانقطاع لله وحده من أهل المدن والأمصار المحيطة به أو المارين عليه»[4].

ثالثًا: إبراز كثرة مريديه الذين أخذوا عنه الطريق، فذكر أن في مصراتة وحدها أخذ عنه فيها الثمانمائة مريد[5]، وأبرز أيضًا أنه بنى زاويته في زليتن في أرض قبيلة البراهمة سنة (971هـ)، والتي كثر فيها ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه الكريم، وانتفع به وبطريقته خلائق لا يُحصون كثرة، ولا زال الانتفاع حتى يومنا هذا في أبناء طريقته العروسية المباركة[6].

رابعًا: إبراز شاعريته الصوفية التي بيَّن من خلالها ما فاضت به قريحته الشعرية من شعر صوفي، ومنه قوله: «تفرد الشيخ رضي الله عنه عمن سبقه من الصوفية ومن لحقه بغزارة الإنتاج الشعري»[7]. ووصف أحد قصائده وما تحمله من معان صوفية جاءت على غرار من نظم قبله من أئمة الصوفية وسادتهم، فقال: «وتعتبر تائيته التي سلك فيها نهج أصحاب التائيات قبله ابتداء من الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ الدسوقي وعمقه الشيخ

(1) نفس المصدر، ص45، 46.
(2) نفس المصدر، ص-46 51.
(3) نفس المصدر، ص54.
(4) نفس المصدر، ص57.
(5) نفس المصدر، ص64.
(6) انفس المصدر، نفس الصفحة
(7) نفس المصدر، ص71.

ابن الفارض رضي الله عنه، وسار عليه الكثير من الصوفية بعدهم من أهم أشعاره على الإطلاق... وقد احتوت على النفيس من الكلام والجميل من الإشارات والمعاني»[1].

خامسًا: إبراز ما تبع فيه الإمام الأسمر سَنَن غيره من السادة الصوفية، والتي منها أنه كان له أوراده وأذكاره ومجاهداته، فنجده يصف ورده الذي اعتاده بقوله: «فإذا صلى العشاء الأخيرة يتنفل بمائة ركعة ويختم ورده، وبعد ذلك يذكر سبعين ألف لا إله إلا الله، وسورة الإخلاص سبعين ألفًا، واسم الجلالة خمسمئة، ويختم البردة والمرزوقية وأسماء الله الحسنى»[2].

وكذلك أظهر العلامة القطعاني ما جعله الإمام الأسمر لمريديه من أوراد يتلونها آناء الليل وأطراف النهار، كما هي عادة السادة الأبرار الأطهار من الصوفية، وأورد بعضًا منها[3].

سادسًا: إبراز الجانب الصوفي من خلال وصفه للباسه، حيث يقول: «يلبس المرقعة ذلك اللباس الصوفي الجميل، والشعار النبيل، ويلبس فوقها الثياب البيض، فيلامس جسده خشونة المرقعة ويبسها... ويغطي وجهه الشريف بطرف العمامة ويرخي بقيتها حتى لا يرى منه في غالب أحواله إلا عيناه، وهو تقليد انتهجه بعض السادة الصوفية، كالسيد أحمد البدوي رضي الله عنه؛ حيث يستريح الملثم من ملاحظة الخلق ومعاملتهم عند كل حركة وسكون فلا معاملة له إلا مع الله عز وجل، فكان هذا اللثام خلوة مستمرة»[4].

سابعًا: أبرز العلامة القطعاني الجانب الصوفي للإمام الأسمر كذلك من خلال تقلُّده لتقاليد السادة الصوفية في استخلاف من يخلفهم في الطريقة، وقد خلف الشيخ عبد السلام الشيخ عمر بن جحا من بعده[5].

ثامنًا: أورد العلامة القطعاني كثيرًا من كلام الإمام الأسمر ووصاياه، والتي تحمل بين طياتها كثيرًا من كلامه عن التصوف والصوفية، فنقل عنه أنه كان يوصي السالك في الطريق الصوفي بثلاث وصايا جامعة مانعة، فيقول: «فيلزم الصوفي ثلاثة أشياء؛ الأول: حفظ سره، والثاني: أداء فرضه، والثالث: صيانة فقره»، ونقل عنه تعريفه للتصوف بقوله:

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة

(2) نفس المصدر، ص81.

(3) نفس المصدر، ص83.

(4) نفس المصدر، ص96.

(5) نفس المصدر، ص99.

«إن التصوف هو تصفية القلب من الأدناس الذميمة، واجتناب الغيبة والنميمة ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازعة صفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة والنصح لجميع الأمة وأتباع النبي ﷺ في الشريعة»[1].

تاسعًا: إبراز الجانب الصوفي في شخصية الإمام الأسمر من خلال إيراد العبارات والألفاظ والتعريفات الصوفية في كلامه، فنقل عنه أنه قال في تعريف التواضع: «هو أن ينظر الإنسان إلى غيره من أهل الإيمان بعين الإجلال والتعظيم، وإلى نفسه بعين الاحتقار والاستصغار»، ويعرف الإخلاص بقوله: «هو أن يريد الإنسان بكل خير يعمله وكل شر يتركه وجهَ اللهِ وثوابه»[2].

عاشرًا: إبراز الجانب الصوفي من خلال ذكر مؤلفاته في التصوف، ومنها وصاياه الثلاثة «الكبرى، والوسطى، والصغرى»، وكلها نصائح للمريدين في الأولياء والصالحين[3].

حادي عشر: إبراز أنه روى عن الإمام الأسمر كتبه في التصوف بأسانيده المتصلة إليه، وقد وصفها بقوله: «وأرويها إجازة جميعها عاليًا بسند ليبي مالكي صوفي محض، كلهم من أعلام طريقة الشيخ عبد السلام الأسمر وعلمائها المبرزين»[4].

ثاني عشر: من صور إبراز العلامة القطعاني الشخصية الصوفية للإمام الأسمر كلامه على الطريقة الصوفية التي كان يسلكها، وهي الطريقة العروسية[5].

2 - كتابات العلامة القطعاني في طريقة الإمام الأسمر وسلوكه ومفاهيم التصوف:

اعتنى العلامة القطعاني في كتاباته عن الإمام الأسمر بإبراز الطريقة التي سلكها في تقربه إلى الله ﷻ، وهي الطريقة العروسية، فقال: «وقد انتظم الشيخ سيدي عبد السلام الأسمر رضي الله عنه في سلك الطريقة العروسية المبارك»[6].

(1) نفس المصدر، ص115.
(2) نفس المصدر، ص115، 116.
(3) نفس المصدر، ص119. وكذلك حراس العقيدة، مصدر سابق، ص17.
(4) أوبة المهاجر، مصدر سابق، ج2، ص442.
(5) القطب الأنور، مصدر سابق، ص 102.
(6) نفس المصدر، ص102.

بل بيَّن أن الإمام الأسمر كان له دور كبير في اشتهارها وانتشارها، فقال: «بل إنها لم تشتهر إلا به، وما انتشرت في كل الشمال الإفريقي خصوصًا والعالم الإسلامي عمومًا إلا على يديه، وينتشر أتباعها في المغرب والجزائر وتونس وليبيا والشمال الأفريقي عمومًا، وتقام في مصر حلقات الذكر في مسجد الإمام الحسين ﵁ بالقاهرة، حيث تسمى هناك بالسلامية، ويجتمعون كل يوم خميس لتلاوة أوراد الطريقة وترديد كلام الشيخ عبد السلام ﵁، ويقرأون باقي الأيام كتاب دلائل الخيرات يوميًّا بمسجد الإمام الحسين المذكور، وكذلك يفعلون في سوهاج في الصعيد والعديد من المدن المصرية»[1].

كذلك حرص العلامة القطعاني على ذكر سند الإمام الأسمر في تلقيه الطريقة العروسية، فقال: «وقد تلقى الشيخ عبد السلام الأسمر ﵁ الطريقة عن شيخه عبد الواحد الدوكالي، عن الشيخ فتح الله أبي رأس القيرواني، عن الشيخ أحمد بن عبد الله الرشيد المعروف بأبي تليس، عن الشيخ عبد الله بن علي القلعي المشهور باسم أبي راوي الفحل، عن الشيخ أحمد بن عروس»[2] بسنده المتصل بسيدنا رسول الله ﷺ، بل واعتنى بالترجمة للشيخ أحمد بن عروس مؤسس الطريقة العروسية[3]، بالإضافة لعنايته برصد انتشار زواياها في داخل القطر الليبي وخارجه.

3 - إبراز العلامة القطعاني في كتاباته أثر الإمام الأسمر في غيره:

أبرز العلامة القطعاني في كتاباته المتعددة أثر الإمام الأسمر في الأفراد والجماعات والأمم، ويتضح ذلك الأثر في المظاهر الآتية:

أولًا: بيان أثر الإمام الأسمر في الدعوة الإسلامية؛ فقد نشر رحمة الله عليه الإسلام في قلب أفريقيا، ويبعث أتباعه برسائله ونصائحه القيمة، وكان يركز في دعوته لفهم الإسلام والعمل بما جاء فيه على تعليم اللغة العربية نحوًا وصرفًا وبلاغة وبيانًا والتحدث بها، واستدل على تعليمها بالأحاديث النبوية الشريفة والمنقولات من كبار العلماء والأئمة الأعلام، وأدل دليل على ذلك تأكيده على ذلك في رسالته لأصحابه في تمبكتو بغرب أفريقيا، وحثهم على تعلم العربية وعلومها[4].

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة

(2) نفس المصدر، ص103.

(3) نفس المصدر، ص107، ومجالس الفقراء، مصدر سابق، ص112.

(4) القطب الأنور، مصدر سابق، ص-173 179.

ثانيًا: أفرد العلامة القطعاني للكلام على أثر الإمام الأسمر في العالم الإسلامي عنوانًا خاصًّا في آخر كتابه (القطب الأنور)، وبيَّن أن هذا الأثر يتضح من خلال كثرة الوفود المريدين من كافة أقطار البلدان الإسلامية شرقًا وغربًا؛ لأخذ العلوم والطريقة والتوحيد والفقه والتصوف والأوراد والأحزاب والدرس، وهذا الأثر امتد إلى متابعة العلماء في ديار الإسلام للإمام الأسمر، واعتقادهم فيه وفي كلامه؛ مما يدل بوضوح تام على اتساع تأثير الشيخ وشهرته العلمية والصوفية وأثره متى حل وأينما وجد، ولم يقتصر ذلك الأثر على بلاد العرب فحسب، بل تجاوز إلى بلاد العجم أيضًا، وذلك يدل على أن المشارقة والمغاربة قد اتفقوا على طريقته والاقتداء به دون غيره من العلماء والمشايخ في زمانه، وذكر أيضًا أن من أثره في العالم الإسلامي مواجهته لأهل البغي والفساد والجهلة داخل البلاد، وضربه على أيدي ظلمة الولاة، ونشره للعلوم والمبادئ الإسلامية القويمة ونصحه لأمة المسلمين وإخلاصه على كافة الأصعدة[1].

ثالثًا: بيان أثره في التاريخ الليبي؛ فقد أظهر بجلاء العلامة القطعاني ما لوصايا الإمام الأسمر من أهمية كبيرة في تاريخ الديار الليبية في الحقبة التي عاش فيها الإمام الأسمر، فبين حياة المجتمع الليبي وما كان عليه في زمانه من أمور وعادات وأحداث لم يعد لها وجود إلا في ذاكرة التاريخ التي حفظتها وصايا الإمام الأسمر[2].

رابعًا: بيان أثره في الطريقة العروسية، فقد ذكرت فيما تقدم أن الطريقة العروسية ما اشتهرت إلا بالإمام الأسمر، وما انتشرت في البلدان الإسلامية إلى على يديه[3].

خامسًا: بيان أثره في الحفاظ على الهوية الإسلامية، واتضح ذلك في قول العلامة القطعاني: «لقد كان الشيخ عبد السلام الأسمر هو سبب الحفاظ على الهوية الإسلامية في إقليم طرابلس، وما مثال سبتة ومليلة منكم ببعيد»[4].

كما أنه وصف حفاظه على الهوية بأنها مهمة عظيمة قام بها رجل عظيم في وقت كانت تضيع فيه الهوية، وذلك من خلال لغة دارجة ميسورة في أشعار يفهمها ويحفظها كل أحد لبساطتها وسهولة مأخذها[5].

(1) نفس المصدر، ص-180 183.
(2) مجالس الفقراء، مصدر سابق، ص-107 124.
(3) القطب الأنور، مصدر سابق، ص102.
(4) سلسلة مقالات أهل الحق، مصدر سابق، ص15.
(5) سري للغاية، مصدر سابق، ص8.

سادسًا: بيان أثر زاويته في حياته وبعد مماته، ويتضح ذلك من قول العلامة القطعاني: «ولم ينقطع تعليم القرآن الكريم وتدريس العلوم الإسلامية بالزاوية التي كان يدرس بها، وهي مدفنه الكريم أيضًا منذ ذلك الزمن، وفق نظام الحلقات المعتاد سابقًا، وكم خرجت من فطاحل العلماء وجهابذة القراء إلى اليوم»[1].

يتضح مما سبق حضور الإمام الأسمر في كتابات العلامة القطعاني باعتباره إمامًا من أئمة التصوف الإسلامي، له طريقته التي سلكها والتزمها، كما كان له أثره في العالم من حوله في زمانه.

خاتمة:

بعد أن طوفت في رحاب الإمامين الجليلين الأسمر والقطعاني أستطيع الوصول إلى عدة نتائج وبعض التوصيات، والتي تتمثل في الآتي:

أولًا: النتائج:

1 - أن الإمام الأسمر ﷺ أحد أقطاب الأمة الإسلامية وعلمائها، الذين كان لهم ثقلهم ومكانتهم العليا في التاريخ الإسلامي عامة والليبي خاصة.

2 - أن العلامة القطعاني ﷺ كان واسع الاطلاع كثير الإنتاج الفكري المتنوع في كثير من علوم الشريعة والحقيقة والطريقة.

3 - تأثر العلامة القطعاني بالإمام الأسمر رحمهما الله تعالى باعتباره إمامًا وصوفيًّا وعالمًا، جعله يعتني به وبسيرته وتاريخه.

4 - أن الإمام الأسمر ﷺ حاضر بصورة واضحة وقوية في كتابات إمامنا القطعاني ﷺ باعتباره علمًا من أعلام الأمة الإسلامية ومشاهيرها الكبار، الذين وجب الاعتناء بترجمتهم وبيان سيرتهم.

5 - أن الإمام الأسمر ﷺ حاضر في كتابات العلامة القطعاني ﷺ باعتباره عالمًا من علماء الأمة المحمدية ومؤرخًا ليبيًّا قديرًا.

6 - أن الإمام الأسمر ﷺ حاضر في كتابات العلامة القطعاني ﷺ باعتباره إمامًا من أئمة التصوف الإسلامي يسلك الطريقة العروسية، وله أوراده وأشعاره وأحزابه ووظائفه الصوفية.

(1) حراس العقيدة، مصدر سابق، ص18.

7 - أن الإمام الأسمر ﷺ صاحب أثر كبير في الدعوة الإسلامية والعالم الإسلامية أفرادًا وجماعات، مما ترتب عليه كثرة مريديه من كافة الأقطار والبلدان، وتأثيره في الأحداث السياسية والاجتماعية.

ثانيًا: التوصيات:

1 - إعداد الأبحاث العلمية التي تتناول أثر أئمة التصوف الإسلامي فيمن جاء بعدهم من المريدين والعلماء، وإبراز ذلك من خلال كتاباتهم ومؤلفاتهم وسلوكهم.

2 - جمع أوراد وأحزاب ووصايا ووظائف أئمة التصوف الإسلامي في موسوعة شاملة، ويقدم لكل حزب أو ورد أو حزب أو وصية منسوبة إلى إمام أو شيخ بتعريف به وبسيرته.

3 - إعداد الدراسات العلمية في معاهد العلم وأكاديمياته عن أوراد وأحزاب ووصايا ووظائف أئمة التصوف الإسلامي وكيفية الحفاظ على الهوية الإسلامية، واستنباط الأحداث التاريخية والمجتمعية في الحقب المختلفة التي عاش بها أصحاب هذه الأوراد والأحزاب وغيرهما.

4 - إعداد المؤتمرات العلمية للتوعية بدور علماء الأمة الإسلامية وأوليائها في حل مشكلات المجتمعات الإسلامية، والحفاظ على الأوطان والمجتمعات.

5 - عقد مؤتمر علمي بعنوان الخطاب الصوفي في ليبيا (الأسس والمبادئ والغايات) الإمام عبد السلام الاسمر والإمام القطعاني أنموذجًا.

6 - عمل عدة دراسات من تراث الإمام الاسمر والإمام القطعاني، وذلك للاستفادة منها في جميع المراكز الصوفية، وبالأخص مركز العلامة القطعاني والزاوية الأسمرية، وذلك على النحو التالي:

أ. مادة الفقه الصوفي للأحكام.

ب. مادة الفقه الصوفي للحديث.

ج. مادة فقه الحديث الصوفي.

د. القيم الروحية فى التراث الأدب الصوفي للإمامين الأسمر والقطعاني.

ه. مادة مبادئ التصوف وحقائقه للإمامين الأسمر والقطعاني.

تحديث الكتابة التاريخية الصوفية عند الشيخ العلامة أحمد القطعاني

أعماله عن الإمام الأسمر أنموذجًا

د. أسامة علي بن هامل

رئيس مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني

للثقافة والدراسات الإسلامية - ليبيا

ملخص:

تعنى هذه المقالة بإبراز عناية أستاذنا سيدي الشيخ العلامة أحمد القطعاني بتاريخ وسيرة الإمام عبد السلام الأسمر، وتناول شخصيته بطريقة ومنهج وأسلوب جديد تكشف عن العديد من أبعادها في مختلف انشغالاته واهتماماته ضمن مشروعه الإصلاحي الذي أطلقه في القرن العاشر الهجري. وتحاول هذه الورقة إبراز جانبين مهمين في أعمال الشيخ القطعاني عن الإمام الأسمر، الأول النهج الجديد الذي نهجه شيخنا القطعاني في الكتابة عن الإمام الأسمر، بهدف التأكيد على ضرورة تحديث أساليب الكتابة والتناول لتواريخ الشخصيات الفاعلة في المجتمع، والثاني الأبعاد التي أبرزها الشيخ القطعاني في شخصية الإمام الأسمر، ولعل الثاني يندرج في الأول، لكن التفصيل فيه وإبرازه أمر في غاية الأهمية ونحن بصدد الحديث عن مشروع الإمام الإصلاحي، فتلك الأبعاد تعرفنا على المقومات والإمكانيات والقدرات التي توفرت في شخصيته للقيام بمشروع كمشروعه الإصلاحي الكبير، كما أنها ستنعكس في مجمل أعمالها وتفصيلها ضمن هذا المشروع.

كلمات مفتاحية:

الأمام الأسمر، الشيخ القطعاني، تجديد الكتابة، التاريخ الصوفي.

مقدمة:

لقد اعتنى الشيخ القطعاني بعلم التراجم والسير بدرجة كبيرة، خاصة التراجم والسير الليبية، فأغلب كتبه هي في هذا الفن من فنون الكتابة التاريخية[1]. ولم يكن الشيخ القطعاني في هذا -فن التراجم- مجرد كاتب أسهم في استمراره، بل جدد فيه، وقدم من خلال رؤية خاصة به في قراءة التاريخ، خاصة التاريخ الليبي، فاشتغاله على الترجمة لم يقف عند حدود قالبها الجامد المتعارف عليه في كتب التراجم والطبقات، بل حدثها، وأضاف إليها، وأثراها بالتنوع المفيد في إضافة المزيد من التعريف على شخصياتها توضيح خلفياتهم التي انطلقوا منها وانتماءاتهم الفكرية والثقافية والاجتماعية، موجدًا بذلك مصدرًا هامًّا من مصادر قراءة وكتابة التاريخ المهمل من قبل كتب التاريخ التي أغرقت في تاريخ البلاد والساسة والحكم[2].

لقد نفذ الشيخ القطعاني إلى عمق الفعل التاريخي في المجتمع الليبي على وجه الخصوص من خلال تاريخ الشخصيات، وأظهر من خلالهم عوامل وفواعل في خلفيات حركة تاريخ المجتمع، وبيَّن القواسم المشتركة بين هؤلاء الفاعلين في الميادين

---

(1) من كتبه في فن التراجم والسير:
القطب الأنور عبد السلام الأسمر.
الشيخ الكامل محمد بن عيسى.
الإهابة بمن دفن في البلاد الليبية من الصحابة.
حراس العقيدة.
الداني المدني محمد حسن حمزة ظافر المدني.
الوارث النبوي محمد بن مصطفى العلوي.
تحفة الحبيب الزائر.
دليل الخيرات محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات.
شيخ الشهداء الصوفي عمر المختار.
سالم كريم القطعاني وصفحات في تاريخ الوطن.
تعرف المريد على رجال حزب التوحيد.
أعلام الطريقة العيساوية.
موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي وحتى عام 2000م، في أربعة أجزاء.
أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، في جزئين.

(2) للمزيد حول ذلك، ينظر: موسوعة القطعاني الوجه الآخر للتاريخ الليبي، أسامة بن هامل، ضمن أعمال المؤتمر الدولي السنوي للشيخ العلامة أحمد القطعاني، الدورة الرابعة، منشورات مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط1، 2023م، ص347.

والمجالات والمعارف، في الأدب والاقتصاد والعمران والمؤسسة التعليمية والمكتبات والكتب وغيرها. ولأن لبعض هذه الشخصيات أثر تجاوز المحلي القطري إلى الفضاء العربي الإسلامي خصها بكتب مفردة، وتحدث عنها في أكثر من بحث ورسالة وموضع مبرزًا دورها الواسع، وأهمها وأبرزها شخصية الإمام عبد السلام الأسمر الذي شكل مركزية في اهتماماته وانشغالاته بالتاريخ الليبي.

ويمكن حصر الأعمال التي كتبها الشيخ القطعاني حول تراث وسيرة الإمام الأسمر في الآتي:

- **مؤلفات خاصة**، ككتاب (القطب الأنور عبد السلام الأسمر)[1] الذي سرد فيه الشيخ القطعاني تفاصيل سيرة الإمام الأسمر، من الولادة والنشأة مرورًا بالتعليم والتربية على يد أسرته، ثم أستاذه في الطريق الصوفي الشيخ عبد الواحد الدوكالي، ثم الصعوبات التي واجهها في طريق إرسائه لمشروعه الإصلاحي وتأسيس زاويته بمدينة زليتن، ومسارد كتبه ومؤلفاته وما كتب عنه، ثم توثيق بعض آثاره المكتوبة، لكنه لم يكتفِ في هذا الكتاب السرد، بل قدمه بمبحث عن الإطار السياسي والثقافي والاجتماعي للفترة التاريخية التي عاش فيها الإمام الأسمر، كما أصَّل للكثير من وقائع وأحداث حياته في التصوف والمدرسة العروسية على وجه الخصوص، والظروف السياسية التي شكلت إلى جانب الظروف الأخرى صعوبات جمة لإنجاح الإمام مشروعه الإصلاحي، وهو في ذلك يُجَذِّرُ لخلفيات وأسباب نهضة الإمام الإصلاحية، قبل أن يختم كل ذلك بمبحثين هامين، أولهما قراءة في رسالة دعوية إصلاحية وجهها الإمام إلى أتباعه في تنبكتو كشف من خلالها عن فكره الدعوي، وثانيهما نصوص نقلها من مدونة تاريخية ألفها الشيخ عبد الرحمن المكي في سيرة أستاذه الأسمر كشف من خلالها عن الأثر الدعوي للإمام في العالم الإسلامي.

- **دراسات وأبحاث**: وهي عديدة، فمنها:

- (هويتنا في فكر الشيخ عبد السلام الأسمر)[2].

---

(1) طبع العديد من المرات، وسنعتمد في هذه المقالة على الطبعة الثانية، منشورات دار الكتاب الليبي، بنغازي، 1993م.

(2) نشر ضمن كتاب: سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص6.

- (المجتمع الليبي كما رسمه الشيخ عبد السلام الأسمر في وصيته)[1].
- (الشيخ عبد السلام الأسمر وأثره في علم الرواية والإسناد)[2].
- (لولا الشيخ عبد السلام الأسمر لحل بطرابلس ما حل بالأندلس)[3].
- (تحية لك يا محرر طرابلس)[4].
- (إمام المالكية الكبير الشيخ عبد السلام الأسمر)[5].
- (وانتصر بنذير سيدي عبد السلام الأسمر وقصائده وموسيقاه على ترانيم الكنيسة)[6].

– **تحقيق مخطوطات**: اعتنى بتحقيق مصادر ومراجع سيرة الإمام الأسمر من خلال نصين مخطوطين، هما[7]:

- (مختصر البحر الكبير) للشيخ عبد الرحمن المكي، أحد أبرز تلاميذ الإمام الأسمر.
- (فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم) للشيخ عبد السلام بن عثمان، أحد أبرز علماء ومؤرخي الطريقة العروسية.

– **جمع تراثه الشفهي**: قام بذلك في أكثر من موضع، من بينها عدد من القصائد والأشعار أسندها إلى الإمام الأسمر بالسماع المتواتر، وضمنها في كتابه: (مواجيد المحبين وأشواقهم لسيد المرسلين)، وهو كتاب وثق فيه المئات من المسموعات والقصائد والأشعار الصوفية الليبية، وصرح فيه بأن «فضيلة العلامة الشَّيخ المُصلح سيّدي عبد السلام الأسمر (880 – 981هـ) أكثر كاتبٍ ليبيٍّ تأثيرًا في ليبيا وخارجها، في هذا المجال على مرِّ تاريخها، وتأتي مواجيده وأزجاله وألحانه أبرز معالم هذا التأثير،

(1) نشر ضمن كتاب: مجالس الفقراء، أحمد القطعاني، طرابلس، ط1، 2000م، ص107.
(2) نشر ضمن كتاب: مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، منشورات اللجنة العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن، 2022م، ص2.
(3) نشر ضمن كتاب: مقالات أهل الحق، ص4.
(4) نشر ضمن كتاب: مقالات أهل الحق، ص6.
(5) نشر ضمن كتاب: مقالات أهل الحق، ص7.
(6) نشر ضمن كتاب: مقالات أهل الحق، ص8.
(7) لا يزالان مخطوطين ولم ينشرا.

فلا يكاد يخلو مجلسٌ أو مجمع منها؛ لعُمقها الإنسانيِّ، واتصالها الوجدانيِّ، وساعد سهولة كلماتها وسلاسة تعابيرها وقوَّة عاطفتها، على مزيد انتشارها»[1].

- **استخراج أسانيده ووصلها في التراث الثقافي والفكري الليبي**: وأشهرها أسانيد الإمام الأسمر التي رواها في ثبت شيوخه: (الأنوار السنية والمنن البهية)[2]، وضمن تلك الأسانيد التي استخرجها لتصله بالإمام الأسمر في معجم أثباته الكبير (أوبة المهاجر وتوبة الهاجر)[3].

وفي مجمل هذه الأعمال اشتغل الشيخ القطعاني على إبراز العديد من الجوانب والأبعاد في شخصية الإمام الأسمر من خلال جهوده وتراثه المكتوب والشفهي، ويمكن الحديث عن بعضها بشكل من التفصيل في الآتي:

1. الإمام الأسمر مربيًا وداعية صوفي:

وهو أكثر الجوانب التي اهتم بها الشيخ القطعاني في شخصية الإمام الأسمر، كونه الأساس الذي تفرع منه اهتمامات وأعمال الإمام الأخرى، فتكوينه الصوفي شكل القاعدة الأساسية لأعماله وجهوده الإصلاحية، وعلى أساسها انطلق لدراسة أمراض المجتمع ومشكلاته وأزماته وتصور الحلول لها، وتضمينها في مشروعه الإصلاحي الكبير. خاصة وأن الإصلاح في النظرية الصوفية يبدأ من القاعدة، لا من رأي الهرم، كما هو المتعارف عليه، فيبدأ الإصلاح بالفرد ضمن عملية تربوية سلوكية تخليه من ذميم الصفات وتحليه بديلًا عنها بكريمها، قبل أن يصل إلى المرحلة الأخيرة وهي «التجلي»، بمعنى تجلي حالة الإصلاح فيه، ويتحول إلى فرد ضمن مجموعة كبيرة من الأفراد الذين سلكوا نفس العملية التربوية السلوكية ضمن مدرسة تربوية يقعد المصلح الصوفي قواعدها ويرسي معالمها ومنهجها وتعرف اصطلاحًا بـ«الطريقة»، والإمام الأسمر كذلك، كغيره من المصلحين الصوفيين، اختار المدرسة العروسية وجددها بمنهجه وقواعده وأعرافه الخاصة، حتى أصبحت في بعض البلاد تنسب إليه، فيقال: «السلامية العروسية».

---

(1) مواجيد المحبين وأشواقهم لسيد المرسلين، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2017م، ص9.

(2) طبع كتاب الأنوار السنية بتصحيح الشيخ صالح الجعفري، في دار الطباعة المحمدية بالأزهر، القاهرة، 1964م.

(3) سنعرض لها بشيء من التفصيل فيما بعد.

وفي هذا الجانب كتب الشيخ القطعاني كتابه (القطب الأنور عبد السلام الأسمر) الذي حمل في عنوانه دلالة صوفية واضحة، فـ«القطب» هو المتفرد عن غيره بأمر ما، وهنا الإمام الأسمر انفرد في زمانه بأعمال إصلاحية كبيرة أقامها على رؤيته الخاصة، و«الأنور» بمعنى التنويري الذي يمتلك أدوات النقد والجرأة على النقد، بإثارة الأسئلة واقتراح الأجوبة وصوغ رؤيته وبلورته في مشروع متكامل. أما الكتاب ففيه تفصيل كامل لما اكتنزه عنوانه.

وضمن الكتاب نقل الشيخ القطعاني نص كتاب «الوصية الصغرى»[1] للإمام الأسمر، وهذه الوصية تعد زبدة وخلاصة نصائحه وتوجيهاته، وفيها لخص وبلور مضمون خطاب مشروعه الإصلاحي، وتشكل القاعدة الأساسية التي ترجع لها مجمل أعماله في تفاصيل ذلك المشروع، ويبدو أن تلك الأهمية لهذه الوصية هو ما دفع الشيخ القطعاني لنقل نصها كاملة دون أعماله الأخرى.

وحتى لا تبق جهود وأعمال الإمام الأسمر نظرية، فقد أوضح الشيخ القطعاني أثرها في المجتمع الليبي من خلال ذات الوصية، فخصها ببحث عنونه كما أسلفنا بـ«صورة المجتمع كما رسمته وصية سيدي عبد السلام الأسمر»، وللتدليل على أثر مشروعه في النطاق الإسلامي نقل نصوصًا عن الشيخ عبد الرحمن المكي أحد تلاميذ الإمام المباشرين، بل شهادته الخاصة أثناء تنقلاته بين عواصم الفكر والثقافة الإسلامية، تعكس الأثر الواسع لدعوة الإمام في العالم الإسلامي[2]. وبتفصيل أكثر بيَّن الشيخ القطعاني منهج الإمام الأسمر الخاص في الدعوة من خلال رسالته إلى أتباعه في تنبكتو، وهو اختيار دقيق فهي من أكثر رسائل الإمام وضوحًا في طريقته وأسلوبه الدعوي، بخلاف رسائله الأخرى التي انشغل فيها بعلاج قضايا خاصة بأتباعه في أقطارهم وبلدانهم[3].

---

(1) نشر الشيخ عبد السلام بن عثمان نص الوصية الصغرى لأول مرة في كتابه: «فتح العليم»، ونقلها عنه فيما بعد الشيخ محمد مخلوف في «تنقيح روضة الأزهار»، ثم الشيخ أحمد القطعاني في «القطب الأنور»، ثم حققها صديقنا فضيلة الشيخ علي مختار جوان عام 2007م ونشرت.

(2) ينظر: أثر الشيخ عبد السلام الأسمر في العالم الإسلامي، ضمن كتاب: القطب الأنور، مصدر سابق، ص180 وما بعدها.

(3) ينظر: الدعوة في فكر الشيخ عبد السلام الأسمر، ضمن كتاب: القطب الأنور، مصدر سابق، ص173.

2. الإمام الأسمر، مؤرخًا:

ويندرج هذا الجانب في شخصية الإمام الأسمر، ضمن أعماله الإصلاحية التي تهدف إلى توضيح الأسس التي قامت عليها نهضة الأمة من جانب، ومن جانب آخر للحفاظ على عقيدتها وهويتها الإسلامية، فبين الشيخ القطعاني أن الإمام الأسمر انشغل بقضية التأريخ لأعلام الإسلام في ليبيا وخارجها.

وينبه الشيخ القطعاني على الخلفيات الظرف التاريخي الدقيق الذي اضطلع فيه الإمام الأسمر بهذه المهمة التي تدل على وعيه العميق بالتاريخ والتأريخ، وهي فترة القرن العاشر الهجري الذي كان فيه العالم الإسلامي يعاني وقتها ارتدادات سقوط الأندلس، ويواجه هجمات القوى الصليبية الأسبانية على شواطئه، ومنها ليبيا التي احتلها الأسبان قبل أن يتنازلوا عنها لمنظمة فرسان القديس يوحنا، وكان من الطبيعي أن تكون «المساجد والزوايا وأضرحة الصالحين والمعالم الإسلامية عامة هدف مباشر لكل برنامج تنصيري عادة»، ولذا «فإن المآذن تهدم والقباب تدك وأضرحة الصالحين ومشاهدهم ومزاراتهم تُسوَّى بالأرض»[1].

وفي هذا الظرف الدقيق، يلفت الشيخ القطعاني إلى دور الإمام الأسمر، قائلًا: «في هذه الفترة الحرجة والظروف التي تمس ما هو أهم من حياة الإنسان نفسه، أي: العقيدة، قام هذا الرجل العظيم الشيخ عبد السلام الأسمر لوحده بمسح طبوغرافي شامل يحتاج لجانًا أكاديمية متخصصة ومؤسسات وأطنانًا من المراجع والوثائق وزمنًا وتدوينًا، لقد وثق أسماء العلماء والمتصوفين وذوي الصلاح الليبيين وحفظ هذه الأعلام في ذاكرة الأمة»[2]، وعن فائدة ذلك يجيب الشيخ القطعاني قائلاً: «إن بلدًا تخلو ذاكرته من أعلام يدون تراجمهم ويعتز بمآثرهم يعاني نقصًا حضاريًّا شديدًا وخللًا في تركيبته الوجودية هامًّا، إن توثيق أعلام الإسلام هوية ودلالة على عمق مشاعرنا الدينية وأصالتنا الإسلامية إنه قيمة ومفخرة واعتزازا لذا حظيت كتب التراجم وسير الأعلام بمكانة بارزة في العلوم الإسلامية، واضطلع الشيخ عبد السلام الأسمر في عصره بهذه المهمة الخطيرة في بلادنا»[3].

(1) هويتنا في فكر الشيخ عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، ضمن كتاب سري للغاية، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص6.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

وأودع الإمام الأسمر تلك السجلات التوثيقية التاريخية لأسماء أعلام الأمة الإسلامية في المئات من قصائده وأشعاره بنمط ونظام شعري خاص، انتهج فيه بساطة الأسلوب في التراكيب والألفاظ؛ بغية سهولة حفظها وتناقلها شفاهًا، وهذا مقصده وكان بإمكانه تدوينها في كتبه ووصاياه، لكنه أراد أن تتناقلها الألسن ولتستقر في القلوب والوجدان لتحقيق مقصده من حفظ عقيدة الأمة الإسلامية، يقول الشيخ القطعاني: «مهمة عظيمة قام بها رجل عظيم في وقت كادت تضيع فيه الهوية بلغة دراجة ميسورة في أشعارها يفهمها ويحفظها كل أحد لبساطتها وسهولة مأخذها، وهو مقصد الشيخ منها»[1].

والواقع أن الأسماء التي ذكرها وضمنها الإمام الأسمر في قصائده وأشعاره، تحتاج كما أكد الشيخ القطعاني «لجانًا أكاديمية متخصصة ومؤسسات وأطنانًا من المراجع والوثائق وزمنًا وتدوينًا»، فهي بالآلاف وليست بالمئات، كاشفًا عن قدرة عجيبة في الإحصاء والسرد وترتيب الأسماء بمنهجية قل نظيرها عند كبار المؤرخين المتمرسين، فنجد في الكثير في المواضع أنه يختزل ترجمة العلم الذي يذكره في صفة يقرنها به، وهو أمر ليس باليسير، ويؤكد أن سرده تلك الآلاف من الأسماء لم يكن عشوائيًّا، بل مقصودًا وعن دراية ودراسة لتراجمهم وسيرهم في مظانها، هذا أولًا، وثانيًا وهو ما ينبه عليه الشيخ القطعاني في دراسته لعينات من أبيات قصائده أنها أسماء رتبها الإمام الأسمر في البيت الواحد بقصد واضح، فهي إما أنها شخصيات معاصرة لبعضها زمنًا، أو أنها تنتسب لذات المدرسة الفكرية الصوفية[2].

وغير ذلك فالإمام الأسمر واعٍ بأهمية الجغرافية والأصول الأيكولوجية في التأريخ للشخصيات والأعلام والمدارس في البيئات الفكرية والثقافية، ولذا اعتنى بشكل كبير بتحديد أماكن النشاط العلمي للشخصيات التي يذكرها أو البيئات وعواصم الفكر والثقافة، وأكثر من ذلك فقصائده باتت اليوم المصدر الوحيد للكثير من الشخصيات والبيئات العلمية التي اندرس ذكرها في كتب التاريخ فلم تعد تذكر، أو تراجع الاهتمام بها[3].

---

(1) نفس المصدر، ص8.

(2) نفس المصدر، ص7.

(3) قفة الصلاح: قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري سيدي الإمام عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، منشورات مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص99 وما بعدها.

ومن المهم الإشارة إلى وعي الشيخ القطعاني بالحس التأريخي لدى الإمام الأسمر، فقد خصص بحثًا عن المجتمع الليبي من خلال «الوصية الصغرى» استخرج فيه صورًا من حياة المجتمع الليبي من خلال نصوص الوصية التي تعكس تفاصيل من حياة الناس في مختلف شؤونهم، كالتوثيق لبعض الألفاظ الفصيحة المتداولة في اللسان الليبي، وأهم معالم ملامح الحركة العلمية في الزوايا، والفرق الإسلامية والأقليات ووضع المرأة بالبلاد تلك الفترة، والأوبئة وأنواع الأدوية المتداولة وقتها، والعادات في الأفراح والمآتم، والمهن والحرف والأشغال واللباس والطيب، ومظاهر الفساد، وفي كل هذا يؤكد وينبه الشيخ القطعاني على أهمية التراث المكتوب والشفوي للإمام الأسمر الذي لم يحظ رغم انتشاره وتداوله «بدراسة علمية جديرة بها أو تحقيق علمي حتى اليوم»[1]، ففي «ثنايا كلماتها وطيات ألفاظها صورة نابضة حية لما كان عليه مجتمعنا الليبي خصوصًا غربه إبان القرن العاشر»[2]، مشددًا على ضرورة استجلاء الأبعاد التاريخية في كلام الإمام الأسمر وغيره من أهل الله.

3. الإمام الأسمر، مجاهدًا:

وهو جانب انبثق اهتمام الشيخ القطعاني به من عنايته بقضية وعي الإمام الأسمر بأهمية التأريخ في ترسيخ وتعزيز الهوية الإسلامية في البلاد الليبية وغيرها من أقطار الإسلام. ونحن نجد في ثنايا سيرة الإمام الأسمر ما يؤكد وقوع مواجهات بينه وبين الغزاة الأسبان الذين احتلوا طرابلس في 1510م ومن بعدهم فرسان القديس يوحنا، فعلى الرغم من عدم وضوح أسباب نفيه في طرابلس، إلا أن العديد من المعطيات في الأثناء يمكن الاستئناس بها للقول حول موقف الرافض للغازي الأسباني الصليبي، فهو إمام وفقيه ومجتهد وصوفي وكلها صفات تضعه في موقع المواجهة والرفض للغازي والدخيل على الوطن، بالإضافة لافتراضي وجود علاقة بينه وبين قائد طرابلس وقتها، عبد الله بن شرف، الذي جمعته صداقة متينة بالشيخ عبد الواحد الدوكالي شيخ الإمام الأسمر. كما يمكنني أن أستند بشكل أكبر على صحة موقف الإمام الأسمر الجهادي والرافض للأسبان باختياره غريان مكانًا لإقامته أول نفيه من طرابلس، وغريان كانت أحد قواعد تجمع المجاهدين والمقاومة ضد الأسبان إلى جانب تاجوراء.

(1) المجتمع الليبي كما رسمته وصية سيدي عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، ضمن كتاب مجالس الفقراء، طرابلس، ط1، 2000م، ص108.
(2) نفس المصدر، ص109.

لكن الغرض والهدف الذي يجليه الشيخ القطعاني في أشعار وقصائد الإمام الأسمر والخاص بجهوده الكبيرة في إعادة بناء وتعزيز وترسيخ الهوية الإسلامية، يشير إلى أن الشيخ القطعاني أراد القول أن للإمام الأسمر نظرة أعمق في قضية الجهاد، فليس الجهاد بالسيف فقط، بل الجهاد الأجدى والأنفع في ظروف سيطرة الأسبان وقدرتهم على ضرب المقاومة قد يكون في مستويات أخرى لم ينتبه لها غيره، وهو مستوى الحفاظ على العقيدة التي كانت هدف الاستعمار الأساسي في بعده الصليبي التنصيري. ويجب أن ننتبه إلى حدث آخر في غاية الأهمية ونحن نشير إلى موقف الإمام الأسمر الجهادي ضد الاستعمار الصليبي، ويتعلق بواقعة اتفقت على روايتها كل المصادر التي أرخت لسيرة الإمام الأسمر، وهي أن السلطة الأسبانية سيرت جيشًا قويًا على رأسه القائد الأسباني إلى تخوم بني وليد، والواقعة على مسافة 180كم من طرابلس، لمحاصرة الإمام في منفاه بجبل سوف الجين، فلا يعقل أن تحرك السلطة الأسبانية جيوشها لمحاصرة رجل في منفاه لمجرد أنه يقيم «الحضرة» بمصاحبة «الدفوف»، فمن المؤكد وجود أسباب أخرى لم تذكرها المصادر على علاقة بالموقف الجهادي للإمام الأسمر من الاحتلال الأسباني.

وتؤكد دراسة أخرى للشيخ القطعاني هذا المنزع في الجهاد لدى الإمام الأسمر، فلم تكن «الحضرة» إلا وسيلة من الوسائل الأساسية التي اعتمد الإمام الأسمر عليها لجمع الناس من حوله، وتوعيتهم بأهمية الجهاد وقضيته في عمقه وغوره البعيد الذي يستهدف الدين والعقيدة، سيما في فترة فرسان القديس يوحنا الذين تسلموا طرابلس من الأسبان عام 1535م بعد أن حصنها لهم الأسبان، وضمنوا استمرارهم فيها؛ لتأدية الدور التنصيري الصليبي. ويرصد الشيخ القطعاني صورة تلك الفترة بقوله: «طرابلس في يد الأسبان الذين تنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنا والمساجد والزوايا وأضرحة العلماء تُهدم وتُخرب وتُبذر شعيرًا وتُحصد، والكنائس تثير انتباه الليبيين بترانيمها الموسيقية وأناشيدها التنصيرية وتنجح في استمالة البعض»[1]، ففي هذه الظروف ينفرد الإمام الأسمر بوعي قل نظيره وعمق ودراية بأساليب المنصرين بالرد «بالأسلوب عينه ويصوغ قيم الإسلام وعقائده وشريعته وأخلاقه وأعلامه في قوالب شعرية بعضها بالفصحى ليخاطب الأقلية المثقفة، وغالبها باللسان العامي ليخاطب المجتمع كله في مقطوعات

---

(1) وانتصر بنذير سيدي عبد السلام الأسمر وقصائده وموسيقاه على ترانيم الكنيسة، ضمن كتاب: مقالات أهل الحق، مصدر سابق، ص8.

موسيقية من تأليفه يصحبها إيقاع البندير بالوزن المعروف في موسيقى المغرب العربي باسم: (بطايحي)، وهو إيقاع رائع خلاب أندلسي المنشأ»[1].

أما النتيجة بعد طول جهاد، فيظهرها الشيخ القطعاني في قوله: «وانتصر بندير الشيخ على ترانيم المستعمرين الغزاة، فخرسوا واندثروا ونطق هو وانتشر لتشدو بإبداعاته إلى اليوم القلوب النقية في ليبيا وتونس ومصر والنيجر وتركيا والهند والشام والحرمين الشريفين وغيرها»[2].

ومن المهم الإشارة إلى أن الإمام الأسمر لم يكتفِ بهذا النوع من الجهاد على أهميته، فقد كان على صلة وثيقة ومؤثرة في الأحداث والوقائع الأخرى، سيما فتح الطريق أمام العثمانيين للمساهمة في طرد فرسان القديس يوحنا، ولا أدل على تأثيره وحضوره الخاص في أحداث تلك الفترة من دعمه وقوفه وراء مراد آغا، أول الولاة العثمانيين، فالشيخ القطعاني يؤكد أن «أول خطوة اتخذها مراد هي السفر بجُنده إلى زليتن؛ ليزور شيخه سيدي عبد السلام الأسمر، فيستقبلهم الشيخ في زاويته، ويحضرون معه الدروس والذكر، ويجلس مراد آغا مع شيخه يتربى على يديه ويأخذ عنه ويسمع وصاياه، ويعود مباشرة ليرفع راية الشيخ عبد السلام الأسمر المنصورة على هضبة سيدي الأندلسي بتاجورا، وقد التفت المنطقة بقدرة قادر حولها»[3]. وفي زيارة مراد آغا للإمام الأسمر صحبة هذا العدد الكبير من جيوشه دلالة عسكرية وسياسية على موضوع الزيارة، ولاحقًا أخذ مراد آغا الطريقة العروسية على يد الإمام الأسمر، وصار من مريديه، ولا تخف مكانة الشيخ المربي في التصوف وتأثيرها على قرارات المريد.

ومن الدلائل التي يذكرها الشيخ القطعاني على جهاد الإمام الأسمر للغازي الصليبي: وقوف فرسان القديس يوحنا وراء الحملة والهجوم الذي شنه يحيى السويدي خلال حركة التمرد التي قادها في طرابلس وإقليمها، على زاوية الإمام الأسمر عام 995م بعد وفاة الإمام، انتقامًا من الإمام لدوره الأساسي في إخراجهم من طرابلس من خلال دعمه للعثمانيين. وحول تفاصيل هذا الدعم يقول الشيخ القطعاني: إن السويدي وصلته «معدات حربية وأسلحة وخبراء مع الجنرال هوميدوس من قبل فرسان القديس يوحنا، ثم

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) تحية لك يا محرر طرابلس، ضمن كتاب: مقالات أهل الحق، مصدر سابق، ص6.

أُرسل الفارس كارلو ماركي؛ للاتصال بهذا الشقي وشد أزره وتشجيعه ومعرفة حاجته من السلاح، وأعقبه الكومندتور ستيفانو كيارومنتي مع مجموعة من الخبراء، لتنفيذ مخطط إعادة احتلال طرابلس، ووضعت خطة محكمة لذلك بعناية من قبل هيئة الفرسان، بيد أنها لم تدخل حيز التطبيق، إذ أفشلها الله سبحانه»[1]، ويؤكد ما ذهب إليه الشيخ القطعاني أن المصادر التاريخية اتفقت على أن الوفد الطرابلسي الذي سافر إلى الآستانة للاستعانة بها لوأد فتنة السويدي كان على رأسه الشيخ عبد الله المكني، ومعروف أن الشيخ المكنى من كبار تلاميذ الإمام الأسمر، وورد اسمه في الرسالة التي وجهها الإمام إلى أتباعه في طرابلس[2]. كما أن التفاصيل التي وردت حول هجوم السويدي على زاوية الإمام في زليتن تشير إلى عملية انتقامية، فعلى الرغم من أن الزاوية ليست من مؤسسات الحكم والسياسة، إلا أن عملية تدمير منشآتها وحرق مكتبتها وقتل شيخها، وهو الشيخ عمران نجل الإمام، وتشريد علمائها، تشير إلى عملية انتقامية، وربما تهدف أيضا الى وقف دور الزاوية المتنامي في التأثير في المجتمع الليبي وزيادة وعيه بمخاطر الغزاة.

4. الإمام الأسمر، شاعرًا وأديبًا:

وهو جانب مرتبط بالجانبين السابقين، فالشعر والأدب هو الوعاء الذي وضعه الإمام الأسمر في التأريخ والجهاد وجهوده في حفظ الهوية وترسيخ قيم الانتماء والوطنية، وأول ما أشار إليه الشيخ القطعاني في إبراز هذا الجانب وجود خلفية ومناخ خاص تعرف فيه الإمام الأسمر في وقت مبكر من حياته على الحياة الأدبية، لا في نطاقها الليبي بل العربي والإسلامي، من خلال عمه السيد أحمد الفيتوري الذي تولى تربيته بعد وفاة والده السيد سليم، واعتنى بشكل خاص به، إذ يصف الشيخ القطعاني السيد أحمد الفيتوري بأنه «كان عالمًا بالعربية، ماهرًا في العلوم، يجيد إلى حد كبير قرض الشعر»[3]، وللتأكيد على تأثير هذه الخلفية فيه، يحرص على نقل كلام الإمام الأسمر في عمه في قوله: «حتى وصفه الشيخ عبد السلام الأسمر بقوله: وكأنه كعب بن زهير أو حسان بن

---

(1) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ 644م إلى سنة 1421 هـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج1، ص447.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص213.

(3) القطب الأنور، مصدر سابق، ص43.

ثابت»[1]، وللتأكيد أكثر على أهمية هذه الخلفية يقول: «وكان يعلمه الآجرومية إلى أن مهر فيها»[2]، وهي من أهم متون النحو العربي، بل وليؤكد على حرص السيد أحمد على تكوين وتأسيس ابن أخيه الإمام الأسمر في هذا الاتجاه يشير إلى أنه نقله إلى الزوايا ليتعلم علوم العربية والأدب بشكل أكثر تقدمًا من خلال المتون والكتب التخصصية، وأكثر من ذلك كان حريصًا على مشاركته في حضور تلك الدروس التخصصية، فيقول: «وكان عمه يمشي معه في كل وقت، ويحضران الدرس معًا في الآجرومية وألفية ابن مالك في النحو والمعاني والبيان»[3].

ولا بد أن ذلك التكوين كان له أثر خاص في الإمام الأسمر، واستمر في تأسيس نفسه حتى صار أديبًا وشاعرًا متمكنًا من أدواته، ومطلعًا بشكل واسع على دواوين الأدب العربي وعيون أشعاره، وهو واضح من مقارنته لعمه بكعب وحسان، وهي مقارنة لن تتأتى له إلا بمعرفته الواسعة لأشعارهما وقدرته على النقد والنظر والمقارنة.

وخص الشيخ القطعاني أدب وشعر الإمام الأسمر ببعض الدراسات، وفي بعضها يتحدث عن غزارة الإنتاج الشعري للامام بقوله: «تفرد الشيخ رضي الله عنه عمن سبقه من الصوفية ومن لحقه بغزارة الإنتاج الشعري إلى عدة أنواع، عروضي باللغة العربية، ومقطوعات ملحونة، وأزجال وقصائد باللهجة العامية»[4].

ولم يكن تتبع الشيخ القطعاني للمنتج الشعري للإمام الأسمر مجرد رصد، بل بدراسة وتفحص، فمن بين الآلاف من أشعاره يؤكد حيث يؤكد أن «تائيته التي سلك فيها نهج أصحاب التائيات قبله ابتداء من الشيخ عبد القادر الجيلانى والشيخ الدسوقى وعمَّقه الشيخ ابن الفارض رضى الله عنه، وسار عليه الكثير من الصوفية بعدهم، من أهم أشعاره على الإطلاق، وإن كانت قد وصلت إلينا محرفة قليلًا عن أصلها، ويوجد ببعض أبياتها اختلالٌ عند تقطيعه عروضيًّا نتيجة لطول المدة وبعد المسافة الزمنية التى تفصلنا عن وقت قولها وعدم دقة الرواة»[5]. كما أنه تحدث في أكثر موضع ومكان عن الأسلوبية في شعر الإمام، فليس شعره مجرد سرد ونظم، بل له لسانه وإيقاعه وبلاغته الخاصة

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(4) نفس المصدر، ص71.
(5) نفس المصدر، نفس الصفحة.

وتجلي إبداعي خاصة بمصاحبة إيقاع «البطايحي» الذي اتخذه الإمام نمطًا موسيقيًّا خاصًّا لبنديره.

ويهتم بنشر إحصائية لأشعار الإمام، كررها في أكثر من موضع، ومنه قوله: «على عادة بعض متأخري السادة الصوفية، كان الشيخ عبد السلام الأسمر مكثرًا من الشعر الصوفي، وينسب له 700 قصيدة عروضية باللغة العربية الفصحى، و400 مقطعة باللسان الدارج، و800 على موازين الحسن الششتري، و500 على موازين الجعراني، وعدد لا يعلمه إلا الله من الأشعار الملحونة»، بل باهتمام أكبر يشير إلى أطول قصائده وهي «المقطعة المسماة: «سلسلة الفروع» التي تشتمل على ما يزيد عن 800 بيت من الشعر، تليها السلسلة الجوهرية أو الجوهرة على اختلاف في التسمية التي تبلغ أبياتها:551 بيتًا من الشعر»[1].

وبالإضافة لاهتمامه برصد رقعة انتشار أشعار الإمام، فهي «مشهورة بكثرة في كل شمال ووسط أفريقيا إلى الآن»[2]، اعتنى بتحقيق إحداها وهي «السلسلة الجوهرية»[3]، مقدمًا لها بمقدمة دراسية أوضح فيها خصائص القصيدة وموضوعها وغرضها ومضامينها، ما جعلها من أول الدراسات التي تعتني بشعر الإمام وأدبه، وتفتح أفقًا جديدًا في حقول الدراسات الأدبية الليبية والعربية.

5. الإمام الأسمر، عالمًا وفقيهًا:

ارتبط الفقه بالتصوف في المدرسة الليبية والمغاربية، ولذا كان من الطبيعي أن يكون الإمام الأسمر مشاركًا في الفقه وعلى دراية به، خاصة وأنه كان من العلوم الأساسية التي كونت شخصيته ودرسها في وقت مبكر من حياته على عمه السيد أحمد الفيتوري الذي كان «من أكابر الفقهاء الطرابلسيين متبعًا لظاهر الشرع لا يخرج عنه يمينًا ولا شمالًا»[4] كما يصفه الإمام نفسه، كما أنه درسه بشكل أكثر تخصصًا ودقة على يد أستاذه الشيخ

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص378.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، أحمد القطعاني، منشورات دار بشرى وكلثوم بالاشتراك مع مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط1، 2021م، ج2، ص441.
(4) الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، القاهرة، 1964م، ص17.

عبد الواحد الدوكالي، إذ قرأ عليه المختصر والرسالة والحكم والتوحيد والمعقول وغير ذلك من العلوم حتى صار فقيهًا متفننًا»[1]، كما يقول الشيخ كريم الدين البرموني.

لكن الشيخ القطعاني اهتم بشكل كبير بإبرازه من رموز المذهب المالكي، ووصفه بـ«إمام أئمة المذهب المالكي قاطبة في عصره»، وهي إمامة لا في تضطلعه في المذهب واستيعابه لأصوله وفروعه إلى حد حفظه لمصادره عن ظهر قلب، كما شهدت بذلك مصادر سيرته التي أكدت أنه يحفظ «المدخل» لابن الحاج، و«جامع الأمهات» لابن الحاجب، و«المعيار» للونشريسي، وغيرها[2]، بل إمامة في تصدره لتعزيزه وترسيخه مذهبًا في البلاد واضطلاعه بمهمة نشره في أقطار الإسلام.

يقول الشيخ القطعاني: «تشرفت ليبيا وتألقت وزهت أرجاؤها وتعطرت بأن ظهر فيها سيدي الشيخ عبد السلام الأسمر إمام أئمة المذهب المالكي قاطبة في عصره، وهي مكانة شريفة عليا مُنيفة تولاها عن جدارة لغزارة علومه التي أخذها مُشيَّخة مُسلسلة»، ويسمي أشياخه في الذين درس عليهم كتب المذهب، ويصفهم بـ«أئمة المذهب»، وهم «علامة المالكية الكبير الشيخ أحمد زروق وشيخ الأزهر سيدي عبد الواحد الدوكالي دفين مسلاتة».

ولتعليل وصفه بإمام أئمة المذهب وتفرده بهذه الإمامة، بأن أعلام المالكية من بلاد المسلمين قصدوه لأخذ علوم المذهب، ومنهم «الشيخ سالم السنهوري شيخ المالكية على مستوى العالم الذي قدم إليه من الأزهر إلى زليتن، ولزمه لسنين وتعلم على يديه وأجيز منه ورجع إلى الأزهر ليملأه علومًا، وقاضي تمبكتو عاصمة مالي الشيخ العاقب بن آقيت»، ومن الحجاز «الحطاب الصغير آخر مجتهدي أئمة المالكية بالحرمين الشريفين أحد رموز أسرة الحطاب الليبية الشهيرة»[3].

وعن جهوده في تعزيز وترسيخ المذهب المالكي في ليبيا، فيرسم خارطة لتوزع تلاميذه الذين أخذوا عنه علوم المذهب، قائلًا: «ومنهم من طرابلس: العلامة محمد السملقي حافظ صحيحي البخاري ومسلم ورسالة ابن أبي زيد ومختصر خليل عن ظهر قلب.. ومن مدينة الزاوية: العلامة أحمد بحر السماح المتخصص في الموطأ ورسالة

(1) تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م، ص93.
(2) نفس المصدر، ص98.
(3) إمام المالكية الكبير الشيخ عبد السلام الأسمر، ضمن كتاب: مقالات أهل الحق، مصدر سابق، ص7.

ابن أبي زيد، والعلامة عبد الحميد العوسجي أستاذ القراءات السبع عالم الاثني عشر علمًا، وأخوه العلامة علي العوسجي أستاذ القراءات السبع، والعلامة عبد الحميد القمودي خريج القرويين بفاس والأزهر بمصر. ومن درنة: الوجيه علي الدرناوي. ومن مصراتة: مفتي طنطا العلامة الشيخ كريم الدين البرموني، وغيرهم العشرات ممن يضيق المقام عن حصرهم»[1].

6. الإمام الأسمر، محدثًا ومسندًا:

تدل رسائل الإمام الأسمر ونصائحه على تمهره في علوم الحديث الشريف، فطريقة استشهاده فيها بالحديث الشريف تكشف عن عالم محدث قادر على شرح ألفاظه والاستدلال به في مواضعه، سواء في المسائل الأصولية، أو النحوية اللغوية، أو في التدليل على رأي فقهي وغيرها. كما يكشف تخريج ذلك الكم الهائل من الاستشهادات الحديثية في مظانها عن امتلاكه لمكتبة حديثية ضخمة تتوفر على الصحاح والمسانيد والمعاجم والشروح، بل وكتب علوم الرجال والنقد الحديثي وغيرها[2].

وباعتبار أن كل هذه المعارف في الحديث الشريف من لوازم شخصية الصوفي المربي، فقد اتهم الشيخ القطعاني بإبرازه في مجال الإسناد والرواية بشكل أكبر لقلة المتخصصين في هذا الفن من جانب، ولأهميته كونه الرافد أو الوسيلة لربط البيئة العلمية الليبية بمحيطها العربي والاسلامي أثرًا وتأثيرًا، خاصة وأن «هذا العلم لم يزدهر في ليبيا، وكان رجاله بها دائمًا قديمًا وحديثًا من الندرة بمكان، إلا أننا نقف اليوم بكل احترام وتقدير لأحد رموزه المشرفة في ليبيا، وهو الشيخ عبد السلام الأسمر أحد أكبر العلماء الذين أنجبتهم ليبيا على الإطلاق»[3].

وواضح أن الشيخ القطعاني أجرى دراسات وبحوثًا لتعقب أسانيد الإمام الأسمر في مدوناته المكتوبة الشفهية، وهي مهمة ليست بالسهلة، خاصة في جانب التراث الشفهي وهي القصائد والأشعار التي نظمها الإمام بالمئات، يقول: «وقد جمع الشيخ عبد السلام الأسمر رضي الله عنه قبل وفاته بعامين، وذلك سنة 979هـ الموافق 1571م جملة من أسانيده

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) للتوسع حول مكتبة الإمام الأسمر، ينظر: قفة الصلاح، مصدر سابق، ص121.

(3) الشيخ عبد السلام الأسمر وأثره في علوم الرواية والإسناد، ضمن كتاب: مقالات أهل الحق، مصدر سابق، ص2.

ومروياته المتصلة منه إلى كوكبة من مشايخه الكرام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في منظومة شعرية من 79 بيتًا من الشعر الفصيح أسماها: «السلسلة الذهبية».. وكذلك في كتابه: «الأنوار السنية والمنن البهية»»[1]. وضمن هذه الدراسة تتبع الرواة عن الإمام الأسمر، وذكر منهم «مفتي طنطا الشيخ كريم الدين البرموني في كتابه: «روضة الأزهار»، وشيخ الأزهر الشيخ سالم السنهوري في كتابه: «النور النائر» وعالم الحرم المكي الشريف الشيخ عبد الرحمن المكي في كتابه: «البحر الكبير»، وعلامة ليبيا الكبير الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري في كتابه: «فتح العليم»، ومؤرخ تونس الشيخ محمد بن مخلوف في كتابه: «تنقيح روضة الأزهار» وغيرهم من الأفاضل»[2]، وهذا الرصد للرواة عن الإمام الأسمر لا بد وأنه تم على أساس دراسة كتب هؤلاء الرواة وتفصحها.

وإن أشهر سندٍ استخرجه لرواية السلسلة الذهبية والأنوار السنية من طريق أشياخه من غير الليبيين، إلا أنه في أثباته الخاصة اعتنى باستخراج أسانيد ليبية خالصة للاتصال بالإمام الأسمر، منها سند ليبي لرواية كل «مؤلفات وأشعار وأحزاب ووظائف وكلام سيدي الشيخ عبد السلام الأسمر»[3]، وتشمل هذه الرواية كل تراث الإمام المكتوب والشفهي. ثم استخرج أسانيد ليبية أيضًا لرواية كتب أشهر الرواة عن الإمام من تلاميذه، ومن بعدهم من أعلام الطريقة العروسية، وهي:

1. كتاب «النور النائر» للشيخ سالم السنهوري[4].

2. كتاب «روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب صاحب الطار» الشيخ كريم الدين البرموني[5].

3. كتاب «فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم» للشيخ عبد السلام بن عثمان[6].

وهدف الشيخ القطعاني من رواية كل ما يتعلق بالإمام الأسمر بأسانيد ليبية، أولًا لترسيخ وجوده في المجال الليبي الثقافي والفكري والعلمي وإظهار أثره وتأثيره فيه،

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) أوبة المهاجر توبة الهاجر، مصدر سابق، ج2، ص441.

(4) نفس المصدر، ج2، ص445.

(5) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(6) نفس المصدر، ج2، ص249.

وثانيًا لبناء قاعدة إسنادية ليبية متعددة الاتجاهات والأسماء والاتصالات في إطار جهوده في إبراز وجود مدرسة ليبية حديثة إلى جانب مدارس الحديث الشريف والعلم الإسلامي في الأقطار العربية والإسلامية المجاورة والبعيدة.




إحياء العلَّامة الشيخ أحمد القطعاني لأسانيد الإمام الأسمر ووصلها، ورواية كتب الطريقة العروسية

أ. وداد بن فائد

باحثة في التاريخ الثقافي - ليبيا

ملخص:

اهتمَّ أستاذنا العلامة الشيخ أحمد القطعاني بالأسانيد ورواياتها، خصوصًا الليبية منها، بشكل كبير وواسع، حتى أنه خصص لها أثباتًا وكتبًا تجمعها وتبحثها وتحقِّقُها[1]. ومن بين الأسانيد الليبية التي اعتنى بدراستها ووصلها أسانيد الإمام سيدي عبد السلام الأسمر، كونها أسانيد ليبية أولًا، وثانيًا: لأنها تتعلَّق بشخصية لها مكانتها وأثرها الكبير والأساسي في الحياة العلمية والثقافية الليبية، وهي شخصية الإمام الأسمر الذي خصه بمزيد عناية في العديد من كتبه ومؤلفاته. وهذه المقالة تهدف إلى الكشف عن هذا الجانب من عناية واهتمام شيخنا القطعاني بسيرة وتاريخ الإمام الأسمر.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، القطعاني، أسانيد، مسلسلات، استخراج، العروسية.

(1) لشيخنا القطعاني الثبت الكبير، وهو أكبر أثباته وأهمها، سماه: «أوبة المهاجر وتوبة الهاجر» اعتنى مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الإسلامية بإخراجه، وطبعته دار بشرى وكلثوم في مجلدين عام 2012م.

وله أثبات أخرى، منها: كرائم المسلسلات، وغنائم المسلسلات، ونوار العشية أسانيد في حديث الرحمة المسلسل بالأولية، والأربعون العيساوية، وإجازة في الأربعين القادرية، والإجازات العشر، وثلاثيات البخاري في طرابلس وبنغازي وأوباري.

مقدمة:

ليعذرني السادة القراء، فسوف أتجاوز التعريف التقليدي بالإمام الأسمر؛ حرصًا على الوقت وتركيزًا للفائدة، خصوصًا وأن الكثير من الأوراق في هذا المؤتمر عرَّفت به ومشوار حياته الكريمة رضوان الله عليه، لكني سأتوقف قليلًا عند قائمة مؤلفاته لصلتها بموضوع ورقتي.

اتفقت مراجع ومصادر التاريخ الأسمري، أن للإمام ثمانية كتب، رتبها شيخنا القطعاني «حسب أولوية إملاء الشيخ لها على كتابه»[1]، وهي:

1- التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية، فأملاها الشيخ على بعض كتبته في أول / محرم / 971هـ.

2 – الوصية الكبرى المسماة: نصيحة المريدين في سر الأولياء والصالحين، وقد طُبِعَ مرارًا، أملاها الشيخ في أواسط / رمضان/ 972 هـ.

3 – رسالة في العقائد أملاها الشيخ في ذي الحجة / 972 هـ

4 – الوصية الوسطي، فأملاها الشيخ في 973هـ.

5 – أربع نصائح أسماها: نصائح التقريب في حق الفقراء والنقيب، أملاها في974 هـ.

6 – الوصية الصغرى وقد طبع مرارًا، أملاها الشيخ في أوائل / محرم979 هـ.

7 – العظمة في التحدث بالنعمة.

8 – رسالة تسمى:الأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية.

(1) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ 644م إلى سنة 1421 هـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج1، ص379.

رسالة «الأنوار السَّنيَّة» للإمام الأسمر أول الأثبات الليبية

وإن كانت تواريخ مؤلفات الإمام الأسمر متقاربة، وهذا يعني أن انشغاله بالتأليف كان في فترة متأخرة من عمره المبارك، إلا أن ما يهمنا في هذا المقام أن رسالة «الأنوار السنية» هي آخر مؤلفاته، خاصة وأن موضوعها المختلف يعطيها مكانة خاصة بين مؤلفاته، وتزيد هذه الأهمية إذا عرفنا أن الرسالة هي من بين ثلاثة مؤلفات من مؤلفاته بقيت نصوصها وتداولتها الأيدي، فيما لم يبقَ من غيرها سوى عناوينها وتاريخ تأليفها.

ولقاء معرفة الأوساط الصوفية، في ليبيا أو خارجها للوصيتين الكبرى والصغرى مبكرًا وبشكل واسع، إلا أن رسالة الأنوار السنية لم تشتهر رغم ثبوت نسبتها للإمام الأسمر، ولم يظهر إلا حديثًا، وتحديدًا في عام 1964م على يد العالم الأزهري الشيخ صالح الجعفري الذي كان وقتها في زيارة لزاوية الإمام الأسمر في زليتن، حيث التقى في طرابلس الشيخ امحمد الشريف زغوان، أمين خزانة مكتبة الأوقاف (مكتبة سيدي حمودة)، الذي سلّمه نسخة خطِّيَّة من «الأنوار السنية» فقام بتصحيحها وطبعها، وألحقها بقصيدتين في مدح الإمام الأسمر[1].

وكما يستفاد من البيانات المثبتة آخر الكتاب، فالنسخة الخطية التي نشرها الشيخ الجعفري انتهى من نسخها الشيخ زغوان في الثامن من جمادى الثانية عام 1379هـ (8/ 12/ 1959م)، وهو نسخها من نسخة أقدم منها بخط الشيخ محمد ناجي بن محمد بن عمران الظفيري الفيتوري، انتهى منها في السابع من ربيع الأول 1354هـ (8/ 6 / 1935م).

وتاريخ النسختين حديث كما نرى، فعمر نسخة الشيخ الظفيري، وهي الأقدم، ثمانية وثمانون عامًا فقط، ولا نعرف حتى الآن عمن نقل الشيخ الظفيري الذي يظهر ناسخًا لنصوص المخطوطة أخرى على علاقة بالتراث المكتوب للطريقة العروسية. وقضية ضياع الأصول الخطية للكثير من النصوص القديمة، قضية تعاني منها المكتبة الليبية المخطوطة بشكل عام، لكن ذلك لا يقدح في أهمية هذه النصوص، وفي ذات الوقت يزيد من أهمية البحث عن أصولها القديمة لتحقيقها تحقيقًا علميًّا مفيدًا.

---

(1) طبعة الرسالة، كما يظهر من بيانات نشرها، بدار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة، عام 1384هـ/ 1964م، وهي الطبعة الوحيدة إذ لم يعاد طبعها من بعد.

ويدعوني لهذه الملاحظة حول نص رسالة «الأنوار السنية» كثرة الأخطاء التي تكتنفها، خاصة التصحيف في أسماء أعلام ووسائط الأسانيد إلى تغيير معاني بعض العبارات والغموض في أسماء الوسائط، ولا شك هي من أخطاء النُّساخ، فليس الإمام الأسمر ممن يقع في مثل هذه الأخطاء - حاشاه -، وهو من هو معرفة ودراية وضبطًا وإحاطة بأسماء الأعلام الإسلامية، كما يظهر ذلك بشكل واضح جدًّا في المئات من قصائده ومقطعاته الشعرية المزدحمة بالآلاف من أسماء أعلام الأمة الإسلامية، التي يلاحظ فيها شدة عنايته بضبطها وتحديد مواقع أصحابها ومدنهم وأماكن وفياتهم وتطبيقهم ضمن طبقات عصورهم أو مدارسهم العلمية والصوفية. بل وفي رسالة «الأنوار السنية» نفسها نجد من عنايته في ضبط الأسماء ونسبتها إلى مواقعها وزمنها وأصولها النسبية أمثلة عديدة، ومنها عند حديثه عن الأستاذ فتح الله أبي رأس يقول: «فتح الله بن فتح الله بن سعيد الشهير بأبي رأس، القيرواني مولدًا الساحلي دارًا والبرناوي الجعبري نسبًا»[1]، وعن الشيخ أحمد أبي تليس يقول: «الشيخ أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله الساحلي مولدًا والقيرواني دارًا وقبرًا العبدري نسبًا والشهير بأبي تليس»[2]، وينسب بعض الأعلام لما اشتهروا به من اشتغال ببعض العلوم، كوصفه لعبد الصمد بن عساكر: «الشيخ الإمام المحدث قطب الأئمة بالحرم الشريف»[3].

وفي ظل غياب الأصول الخطية لهذا الكتاب المهم، من الممكن الاستعانة بالمصادر الثانوية، ككتب المسلسلات والأسانيد والأثبات لضبط أسماء وسائط هذه الأسانيد وتحقيق اتصالاتها، خصوصًا وأنها أسماء أعلام شهيرة ومعروفة، وقد نبَّه شيخنا القطعاني على هذا الأمر في العديد من المناسبات بتصحيحه لبعضها، ومنها تعقبه لسند الإمام الأسمر في الطريقة العروسية، فكما جاء في رسالة الأنوار السنية أن الشيخ فتح الله العجمي عن الشيخ ياقوت العرشي عن المرسي عن الشاذلي[4]. وهو أمر مشكل ففي نص الكتاب نقلٌ عن الشيخ فتح الله يفيد بأنه اتصل بالشيخ صدر الدين الناكوري وأخذ عنه «على سبيل الإرادة» بعد وفاة الشيخ ياقوت العرشي[5]، ويبدو أنه نص أدخل

(1) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص6.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، ص13.
(4) نفس المصدر، ص7.
(5) نفس المصدر، ص8.

على يد بعض النُّسَّاخ، فلم يذكر الإمام الأسمر في «الوصية الكبرى» مطلقًا هذا الاتصال بين العجمي وياقوت العرشي، بل ذكر أخذ العجمي عن الناكوري وسابق بقية السند الجشتي المعروف[1]، وكذلك لم يذكر في ترجمته للعجمي هذا الاتصال، بل ترجم بعده مباشرة للشيخ الناكوري[2]. أما عن الاتصال العروسي بالشاذلية فقد ساقه الإمام الأسمر من طريق مؤسس الطريقة العروسية الذي أخذ على سبيل التبرك عن الشيخ المجاهدي بسنده المعروف إلى الإمام الشَّاذليِّ[3]، ثم إنه ميَّز أكثر من مرة بين العروسية والشاذلية عند حثه على ضرورة حفظ سلاسلهما، وعَقَّبَ بقوله: «إخواني: ولم أعرف بمدينة طرابلس وسواحلها وقراها شاذليًّا إلا زَرُّوقَ وتلامذتَه»[4].

وتعقَّبَ شيخُنا القطعانيُّ هذه الرواية، ونقدها مبينًا وجود انقطاع واضح بين وقت ميلاد الشيخ العجمي (بعد عام 767هـ) ووفاة الشيخ ياقوت العرشي (707هـ) ما يستحيل معه لقاؤهما، وتتلمذُ الأولِ عن الثاني، مؤكدًا أن السند أخذُ الشيخ العجمي الصحيح عن الشيخ النَّاكوريِّ بسنده الجشتيِّ[5].

وفي مناسبات أخرى نبه شيخنا القطعاني على سقوط بعض وسائط الأسانيد في «الأنوار السنية» بسبب أخطاء النساخ، ومن ذلك رواية إمام الحرمين أبي المعالي الجويني «أبي طالب المكي، وهو لبسها من أبي القاسم الجنيد، وهو لبسها من خاله سري السقطي، وهو لبسها من معروف الكرخي، وهو لبسها من داود الطائي، وهو لبسها من حبيب العجمي، وهو لبسها من الحسن البصري»[6]، والصحيح أن أبا المعالي عن والده عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ الْجُوَيْنِيِّ، أما أبو طالب المكي فيروي عن أبي بكر الشبلي عن الجنيد[7].

ووجود هذه التصحيفات والأخطاء لا يقدح مطلقًا في أهمية «الأنوار السَّنيَّة» ومكانتها كوثيقة هامة من وثائق التاريخ الثقافي والعلمي والفكري في ليبيا، بل يدفع إلى

(1) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص62.
(2) نفس المصدر، ص86 و87.
(3) نفس المصدر، ص62.
(4) نفس المصدر، ص68.
(5) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1992م، ص103 و104.
(6) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص10.
(7) أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، مصدر سابق، ج1، ص242.

ضرورة تحقيقها لما تحويه من أسماء وأعلام ومدارس مهمة تؤرخ للحياة الفكرية في ليبيا، وتبين ارتباطاتها وصلاتها العلمية والصوفية ورحلة السند في البلاد الإسلامية.

وخلاصة القول: أن رسالة الأنوار السنية، هي أول ثبت إسنادي ليبي، فلم يرصد في التاريخ الليبي ثبت يوثق للأسانيد أقدم منه، وكل الأثبات الليبية الأخرى جاءت متأخرة عن زمن الإمام الأسمر.

أنوار أسانيد الإمام الأسمر في «الأنوار»، وموضوعاتها

يقدم الإمام الأسمر لأسانيده بمقدمة هامة، تكشف عن طريقة التعليم في المدارس الليبية عمومًا، ومدرسة الإمام الأسمر على وجه الخصوص، وتتعلق باشتراط ضرورة تلازم التربية مع التعليم، كما يظهر ذلك واضحًا في النصوص التي سردها في مقدمة الكتاب، حيث تبدأ المرحلة الأولى بحفظ القرآن الكريم وتعلم ما يتصل به من قراءات وغيرها وتلقي مقدمات العلوم، كما يبيِّن ذلك في حفظه للقرآن الكريم وتلقي مقدمات العلوم على يد عمه الشيخ أحمد الفيتوري[1]، ثم المرحلة الثانية التي تقترن فيها عملية مواصلة التعليم بالتربية، إذ لا تقوم المرحلة الثانية إلا على يد أستاذ مربٍّ، وهو منهج معتمد وقار فيما يبدو في المدارس ذلك الوقت، إذ ينقل عن عمه الشيخ الفيتوري ضرورة مواصلة الدراسة على يد شيخ مربٍّ، ودون ذلك لا يبلغ الطالب مرحلة الانتفاع بثمار العلم، وهو ما تم على يد أستاذه عبد الواحد الدوكالي، ولاحقًا يمكن للطالب الاستزادة من العلماء الآخرين بملازمتهم لتوسيع دائرة الاعتراف بأهليَّتِه لتصدر العلم والإقراء والتربية، كما يشير إلى ذلك قول الإمام الأسمر أنه لازم ثمانين شيخًا بعد تخرجه في مدرسة أستاذه الدوكالي.

إذًا فالأسانيد التي يسردُها في ثبته «الأنوار السنية» هي خلاصة تلك الرحلة العلمية الطويلة التي قضاها الإمام الأسمر في مرحلة التكوين العلمي والصوفي، ويجب أن نلاحظ شدة تأثره بأستاذه الدوكالي؛ إذ أغلب أسانيده يرويها عنه.

والأسانيد التي وثَّقها الإمام الأسمر في ثبته، هي:

(1) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص17.

- سند المسلسل بالتلقين:

يرويه الإمام الأسمر عن أستاذه الدوكالي بالسند العروسي المرتفع إلى حضرة النبي صلى الله عليه وآله سلم[1].

سند المسلسل بالمصافحة:

والمصافحة من المسلسلات التي اشتهرت في أوساط المشتغلين بعلوم الحديث، وتعرف عندهم بـ«المصافحة المعمرية»، لكن الإمام الأسمر فيها بسند نفيس لم يشاركه في روايته غيره، بحسب اطلاعي، فهو يرويه عن أستاذه الدوكالي عن أبيه محمد الدوكالي عن إبراهيم يعقوب الواحدي عن الحاج علي بن عامر بن الحارث عن المعمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم[2]، بينما يروي بقية علماء الإسلام هذه المصافحة أحمد بن عبد الغفار بن نوح القُوصيِّ عن أبي العباس المثلم عن المعمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

- سند المسلسل بلبس القلنسوة:

والقلنسوة وهي الطاقية، لبسها الإمام الأسمر على يد أستاذه الدوكالي عن أحمد بن عقبة الحضرمي، عن أبي الحسن علي القَرَافيِّ، عن أحمد بن عروس، عن أبي النور البونيدي، عن عبد العزيز المصري، عَن علي بن حرزهم، عَنِ أبي بكر بن العربي، عن أبي حامد الغزالي، عن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، عن أبيه محمد بن عبد الله الجويني، عن أبي طالب المكي، عن الشبلي، عن الجنيد، عن السري السقطي، عن داود الطائي، عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن سيدنا علي بن أبي طالب، عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[3].

- سند المسلسل بالخرقة والمرقعة:

والخرقة والمرقعة لباس صوفي يحرص مشايخ التربية على إلباسهما لمريدهما، والإمام يرويهما بسندين، فقد لبسها على يد أستاذه الدوكالي عن عبد الدايم بن عساكر، عن الدهريوشي، عن أبي عبد الله المغربي، عن محمد الصفار، عن محمد المقدسي، عن

---

(1) نفس المصدر، ص6 وما بعدها.

(2) نفس المصدر، ص13 و14.

(3) نفس المصدر، ص10.

عبد الرحمن القرشي، عن يوسف العجمي، عن نجم الدين محمود الأصفهاني، عن نور الدين عبد الصمد النظري، عن نجيب الدين علي الشيرازي، وهو الشهاب السهروردي، عن الضياء السهروردي، عن عمه عمر القاضي البكري عن والده النجيب البكري عن والده عبد الله البكري عن أحمد الأسود الدينوري ممشاد الدينوري عن الجنيد بأسانيده[1].

ولبسها الإمام الأسمر أيضًا من الشيخ عبد الرحمن أبي جعفر الجنزوري، عن والده، عن والده عن عبد الصمد بن عساكر، عن تقي الدين بن عمرو بن الصلاح، عن المؤيد بن محمد الطوسي، عن الشيخ هبة الرحمن بن عبد الواحد بن أبي القاسم القشيري، عن جده الشيخ أبي القاسم عبد الكريم القشيري، عن الشيخ أبي علي الدقاق، عن إبراهيم بن محمد بن حمويه النصرآباذي، عن الشبلي، عن الجنيد بأسانيده[2].

استخراج العلامة القطعاني أسانيد ليبية لوصل أسانيد الإمام الأسمر ومسلسلاته

وكنهجه في الاهتمام بكل ما يتصل بالإمام الأسمر من تأريخ وتوثيق وعناية بتراثه وموروثه الصوفي والعلمي، اهتم شيخنا القطعاني بشكل كبير بهذه الأسانيد الأسمرية وكتبه ووصاياه وتعهَّدها بالمتابعة والدراسة، ومن مظاهر هذا الاهتمام والعناية استخراجه أسانيد للاتصال بها وروايتها.

ويجب أن أسجل ملاحظة مهمة، وهي أن كل هذه الأسانيد التي استخرجها شيخنا لإحياء الأسانيد والمسلسلات الأسمرية، وللاتصال برجال الطريقة وأعلامها السابقين، **لم تكن قبله موجودة، وكان له فضل السبق إلى استخراجها.**

استخرج سندًا لرواية ثبت «الأنوار السنية»:

وشيخنا القطعاني أول من أطلق عليه اسم «الثبت» باعتبار أولية في ظهور الأثبات الليبية، وقبله اشتهر الكتاب في الأوساط الصوفية باسم «رسالة الأنوار السنية». والواقع أن الكتاب على أهميته ونفاسة أسانيده لم يحظ بأي اهتمام، فلم ترو بأسانيد منفصلة كما رواها الإمام الأسمر، ولم يُذكر في مدونات التاريخ الثقافي والعلمي الليبي عناية

(1) نفس المصدر، ص11.
(2) نفس المصدر، ص13.

أي من علماء ليبيا السابقين بشروط تسلسلها، حتى أفرد لها شيخنا القطعاني شطرًا كبيرًا من اهتمامه، فاستخرج لها أسانيد خاصة برواية كل مسلسل منها، باستثناء مسلسل رواية التلقين المرتبط بالسلوك العروسي، فشيخنا القطعاني عيساوي السلوك.

وسند شيخنا القطعاني في رواية هذا الثبت، عن الشيخ عبد السلام حمودة عن محمد مفتاح حمودة عن محمد الدوفاني عن عبد الله بن فضل عن يوسف البُوعَزِيِّ عن عبد السلام بن امحمد الأمين عن والده عن محمد بن فتح الله المعروف بالشيباني عن صفوت المناني عن أحمد المعروف بالنعاس عن عمر الفلاح عن عبد السلام الأجل عن والده علي الفرجاني عن عبد الله أبو راوي عن محمد بن عمر بن حجا عن والده عن الشيخ عبد السلام الأسمر[1].

استخرج سندًا لرواية المسلسل بالمصافحة الأسمرية المعمرية:

قال شيخنا القطعاني: «صافحني شيخنا عبد السلام بن حمودة، وقال: صافحني الشيخ مختار جوان، الذي صافحه الشيخ محمد الدوفاني، الذي صافحه الشيخ عبد الله بن فضل الأب (ت1915م)، الذي صافحه الشيخ يوسف البوعزي، الذي صافحه الشيخ عبد السلام بن امحمد الأمين، الذي صافحه والده الشيخ امحمد الأمين، الذي صافحه الشيخ محمد بن فتح الله المعروف بالشيباني، الذي صافحه الشيخ صفوت المناني، الذي صافحه الشيخ أحمد المعروف بالنعاس (دفين تاجورا)، الذي صافحه الشيخ عمر الفلاح، الذي صافحه الشيخ عبد السلام الأجل، الذي صافحه والده الشيخ علي الفرجاني، الذي صافحه الشيخ عبد الله بو راوي، الذي صافحه الشيخ محمد بن جحا، الذي صافحه والده الشيخ عمر بن جحا، الذي صافحه الشيخ عبد السلام الأسمر»[2].

استخرج سندًا لرواية المسلسل الأسمري بالقلنسوة والخرقة:

يرويهما شيخنا القطعاني عن الشيخ محمد سويسي المحجوبي الذي ألبسه الهاشمي المجَرِّي المحجوبي وعمران بن كريم اليعقوبي، كلاهما عن محمد الدوفاني، عن الشيخ حسين بن الأمين والشيخ عبد الله بن فضل الأب، والشيخ عبد الله بن فضل عن يوسف البوعزي بسنده السابق إلى الإمام الأسمر[3].

---

(1) أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، مصدر سابق، ج2، ص325.
(2) نفس المصدر، ج1، ص231 و232.
(3) نفس المصدر، ج1، ص239 و241.

استخرج سندًا لـ «الدف» الأسمري:

وهو من الأسانيد التي استخرجها شيخنا القطعاني، **ولم يكن لها وجود قبله،** ويندرج في المسلسلات التي تشترط المناولة، إذ تناوله من الشيخ محمد سويسي المحجوبي، عن الهاشمي المجري بسنده السابق الى الإمام سيدي عبد السلام الأسمر[1].

لكن هذا السند لا يرفعه شيخنا القطعاني إلى ما بعد الإمام الأسمر، بل وقف عنده قائلًا: «هذا منتهى السند في عالم المادة، أما ما بعده فهو من عالم المعنى، فقد أفاد ولي الله سيدي الشيخ عبد السلام الأسمر في ثبته المُسمى: «الأنوار السنية والمنن البهية» صفحة 18 ما نصه: شيعت بصري إلى السماء، وأنا أقول: سبحان الملك القدوس. وكررتها، وإذ بدف عظيم هابط علي من السماء مرتج موتور فتلقيته وجعلت نضربه لنستريح بسماعه حين هيجان البال وإحراق الوجد، فكان في سماعه دواء واردي ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[2].

استخرج سندًا مسلسلًا بالسبحة الأسمرية:

يقول شيخنا القطعاني: «سبحت كثيرًا في زمن الشباب بسبحة سيدي عبد السلام الأسمر المتوفى سنة 1574م، وكانت معلقة في ضريحه وحباتها بالآلاف»[3]، ولتعلقه بالإمام وتراثه الصوفي استخرج مسلسلًا بمناولة السبحة جمع فيه بين مناولة سبحة ولي الله سيدي علي البكو وسبحة الإمام الأسمر، مناولة عن الشيخ محمد سويسي المحجوبي عن الهاشمي المجري المحجوبي عن ولي الله سيدي علي البكو عن سليمان البانية عن عبد الله بن فضل عن يوسف البوعزي بسنده السابق[4].

استخرج سندًا لرواية كل مؤلفات وأشعار وأحزاب ووظائف وكلام الإمام الأسمر:

وهو سند يتصل به بمؤلفات الإمام الثمانية السابق ذكرها في مقدمة هذا المقال، ووظائفه ووصاياه وأشعاره التي تبلغ 700 قصيدة عروضية باللغة العربية الفصحى،

(1) نفس المصدر، ج1، ص242.
(2) نفس المصدر، ج1، ص242 و243.
(3) نفس المصدر، ج1، ص324.
(4) نفس المصدر، ج1، ص243.

و400 مقطعة باللسان الدارج، و800 على موازين الحسن الششتري، و500 على موازين الجعراني، وعدد لا يعلمه إلا الله من الأشعار الملحونة، بالإضافة لسلسلة «الفروع» من 800 بيت، والسلسلة الجوهرية من 551 بيت[1]، عن «عبد السلام بن حمودة صاحب كتاب: «وظائف وأوراد وأحزاب الطريقة الأسمرية العروسية»، عن الشيخ محمد بن حمودة، عن الشيخ محمد الدوفاني»[2]، بسنده السابق.

استخرج أسانيد للاتصال بأعلام الطريقة العروسية، رواية كتبهم ومؤلفاتهم:

اتصل شيخنا القطعاني برموز وأعلام الطريقة العروسية، خصوصًا تلاميذ الإمام الأسمر، كالشيخ كريم الدين البرموني[3]، والشيخ سالم السنهوري[4]، وأرخ لمختلف رجال الطريقة عبر خمسة قرون من تجديدها على يد الإمام الأسمر[5]. وألحق ذلك باستخراج عشرات الأسانيد للرواية عن أعلام هذه الطريقة، حتى المرحلة الوسطى من عمر الطريقة، كالشيخ محمد النعاس[6]، والشيخ محمد المحجوب[7]، والمعاصرين كالشيخ منصور أبو زبيدة[8]، والشيخ علي الغرياني[9] وغيرهم.

رواية شيخنا القطعاني لكتب الطريقة العروسية

اعتنى شيخنا القطعاني بشكل كبير بتتبع كتب تاريخ الأسمري العروسي، سواء الكتب المصادر التي ألفها تلاميذ الأسمر المباشرون، أو الذي تأخذ صفة المراجع وكُتبت

---

(1) وقد اعتنى شيخنا بالسلسلة الجوهرية فحققها وضبطها وصححها في كتاب خصه بها، ورواها مسندة بسند استخرجه لها، ينظر: أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، ج2، ص441.

(2) نفس المصدر، ج2، ص442 وما بعدها.

(3) تنظر ترجمته: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص20.

(4) تنظر ترجمته: نفس المصدر، ج2، ص52.

(5) تعد موسوعة القطعاني، أوسع مرجع تاريخي يؤرخ للعشرات من أعلام الطريقة العروسية ويوثق لأسانيدهم، ولكثرة من أرخت لهم الموسوعة نكتفي بالإشارة إليها للتوسع والاستزادة، وهو من مظاهر عناية شيخنا القطعاني بالتأريخ والاهتمام بتفاصيل سيرة وطريقة الإمام الأسمر مما يدخل في صلب موضوع هذه الورقة.

(6) أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، مصدر سابق، ج2، ص64.

(7) نفس المصدر، ج2، ص111.

(8) نفس المصدر، ج2، ص146.

(9) نفس المصدر، ج2، ص152.

بعد عصر الأسمر بفترات، بالإضافة للعناية باستخراج أسانيد تصله بمؤلفيها، وهو بذلك حقق الاتصال أيضًا برجال الطريقة العروسية ورواية مؤلفاته ومنتجهم الفكري. ومن تلك الكتب:

4. كتاب «**النور النائر**» في مناقب الإمام الأسمر، لمؤلفه الشيخ سالم السنهوري المصري الأزهري تلميذ الإمام الأسمر، إذ يتصل به رواية عن الشيخ محمد بركان، عن جده عبد الرحمن الشريف السنوسي بركان، عن محمد تاج الدين الحضيري، عن أبيه عثمان، عن أبيه محمد تاج الدين، عن أبيه القاضي أحمد، عن الطاهر بن حسن الحضيري، و الحسن بن فائز بن علي بن فائز، كلاهما عن عم الأول عثمان بن علي الحضيري، عن محمد الصالح بن حامد الحضيري، عن مُحشي وشارح المختصر الشيخ علي بن أبي بكر بن محمد الحضيري عن سالم السنهوري[1].

5. كتاب «**روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب صاحب الطار**» للشيخ كريم الدين البرموني تلميذه الإمام الأسمر، وهو من أهم المصادر التي دونت سيرة الإمام الأسمر وأكثرها شهرة وتداولًا، إذ يتصل به رواية عن الشيخ محمد صباكة، عن علي أمين سيالة، عن محمد الضاوي، عن حمد بن عبد الله البوسيفي المشهور بلقب عيون الغزال، عن أحمد بن محمد النعاس، عن محمد عبد الحفيظ النعاس، عن عبد السلام بن عثمان التاجوري، عن أحمد بن محمد المكني وأحمد الطرابلسي شُهر بالقيرواني، كلاهما عن علي الأجهوري، عن الشيخ كريم الدين البرموني[2].

6. كتاب «**فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم**» للشيخ عبد السلام بن عثمان، مؤرخ الطريقة العروسية وأبرز شيوخها، إذ يتصل به رواية عن الشيخ محمد صباكة بسنده السابق إلى الشيخ محمد بن عبد الحفيظ النعاس عن عبد السلام التاجوري[3].

أهمية وصل العلامة القطعاني لأسانيد ومسلسلات الإمام الأسمر

وتتبين أهمية أعمال شيخنا القطعاني في وصل أسانيد ومسلسلات الإمام الأسمر، إذا عرفنا:

---

(1) نفس المصدر، ج2، ص445.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) نفس المصدر، ج2، ص249.

1 - مكانة رسالة «الأنوار السنية» في المكتبة الليبية، فالإمام الأسمر أول من ألف وكتب في علوم الإسناد والرواية، فكتابه هذا هو أول ثبت ليبي، فلم يسبق لأي عالم ليبي أن جمع أسانيده ومروياته في كتاب مفرد.

2 - أن رسالة «الأنوار السنية» هي آخر ما ألفه الإمام الأسمر، وعادة ما تكون الأثبات هي آخر ما يكتبه الأئمة والعلماء في حيواتهم الكريمة، وهو ما يكشف لنا عن المرحلة التي وصلت إليها زاويته كمؤسسة علمية وفكرية ودعوية متكاملة الأركان، فكان لا بد حتى أن يكون لها من كتاب يبين أسانيدها ومروياتها الخاصة في مختلف شؤون المعرفة، ما يدل على وعي الإمام الأسمر بأهمية هذا الجانب الذي يصل الزاوية ويربطها بمختلف فترات التاريخ الإسلامي عبر حلقات الأسانيد، وبمختلف المدارس والشخصيات الإسلامية عبر الشخصيات التي تمر عليها الأسانيد، فالزاوية بهذا الكتاب أخذت موقعها بين المدارس الإسلامية كافة.

3 - أن رسالة «الأنوار السنية» هي سجل توثيقي لنشاط الإمام الأسمر العلمي والثقافي والفكري وموضوعاته من جانبه، ومن جانب آخر تعد الرسالة وثيقة ليبية هامة تؤرخ للحركة العلمية ورموزها وأعلامها في عهد الإمام الأسمر والطبقات التي سبقته، إن أردنا التأريخ لتتابع زمن الحركة العلمية في ليبيا وكتابة ما اصطلح عليه العلماء المسلمون بعلم الطبقات.

وبتوضيح أكثر فرسالة «الأنوار السنية» أرخت لمدارس علمية ليبية أهملتها مصادر التاريخ، وانفرد الإمام الأسمر بذكرها ورجالها، مثل:

* **مدرسة الإمام زَرُّوق**، وهي أول مدرسة شاذلية في طرابلس الغرب، كما يصرح بذلك الإمام في الوصية الكبرى، بقوله: «إخواني، ولم أعرف بمدينة طرابلس وسواحلها وقراها شاذليًّا إلا زرُّوق وتلامذته»[1]. وقد اتصل الإمام الأسمر بالإمام زرُّوق في العديد من المناسبات، لكن يبدو أن أكثرها كان في مدرسة أستاذه الدوكالي بمسلاته، إذ كان الدوكالي تربطه صلة علمية متينة بزروق، ويصف هذه العلاقة بدقة تبدي وتكشف عن معايشته لتفاصيلها العلمية قائلًا: إن شيخه الدوكالي «يحب الشيخ زروق، وكان مراعيا

(1) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص68.

له، ويتذاكر معه في العلوم، ومن أجلّ أحبابه»[1]، وتاليًا وعند تخرجه من مدرسة أستاذه الدوكالي حرص على الاتصال بالمدرسة الزروقية، وهو ما صرح به قائلًا: «فكان أولهم بعد مفارقتي لأستاذي عبد الواحد المذكور الشيخ عبد الله العبادي»[2]، وهو من أبرز وأكبر تلاميذ الإمام زروق، وصفته بالمصادر بأنه: «من الماهرين بالقرآن الكريم يقرأه بروايتي قالون، وورش، ويجيد الرسم القرآني المعروف برسم الخراز»[3]، وفي ثنايا ما ذُكر عن الشيخ العبادي ما يدل على معرفته المبكرة بمشروع الإمام الأسمر وعزمه بناء زاوية لمشروعه الإصلاحي الكبير، فيقول كلما مر بالموضع الذي بنى فيه الإمام الأسمر زاويته: «تبنى هنا زاوية للقرآن والعلم والذكر على يد شيخ من الأولياء الأكابر»[4].

وبالإضافة الى الاتصال القديم بين العروسية والشاذلية، وتحديدا بين الشيخ ابن عروس والمجاهدي وما نقله الإمام الأسمر نفسه من مقولات شيخيه الدوكالي وأبي رأس التي تشدد على ضرورة لزوم النهج الشاذلي في التصوف، يبدو أن المصدر الزروقي الشاذلي كان الأهم في مصادر تجديد الإمام الأسمر للطريقة العروسية، فقد توسع في النقل عن كتب الإمام زروق بشكل كبير في وصاياه ورسائله.

* **مدرسة أبو جعفر الجنزوري**، وهي من أهم المدارس الليبية التي لم تعتن بها الدراسات الليبية، كونها من أعرق المدارس أولًا، ومن أبرز المدارس الحديثية ثانيًا، ومكانة رجالها وثقلهم العلمي. وهو ما انفرد الإمام الأسمر ببيانه في رسالته «الأنوار السنية»، إذ كشف عن تفرد هذه المدرسة برواية:

أ. «مقدمة ابن الصلاح» والموسومة بـ«معرفة أنواع الحديث»، ويعرف دارسو علم الحديث الشريف أهمية كتاب ابن الصلاح وضرورته ومكانته بالنسبة للمشتغلين في علم الحديث، ومدرسة أبو جعفر الجنزوري انفردت عن كافة المدارس الإسلامية برواية وسند نفيس لا يمكن الاتصال به إلا من طريق الإمام الأسمر، إذ يرويه عن عبد الرحمن بن أبي جعفر الجنزوري عن والده عن جده الذي قدم من مكة المكرمة بحرًا الى طرابلس ليستقر في جنزور غرب طرابلس ويتوفى بها، عن الشيخ المحدث أبي اليمن أمين الدين عبد الصمد بن عبد الله بن عبد الهادي بن أبي البركات ابن عساكر، عن

(1) نفس المصدر، ص71.
(2) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص14.
(3) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص331.
(4) نفس المصدر، ج1، ص332.

الشيخ تقي الدين بن عمرو بن الصلاح، صاحب المقدمة في الحديث الشريف، وسائر كتبه الأخرى: أدب المفتي والمستفتي، والأمالي، وصيانة صحيح مسلم، ووصل بلاغات الموطأ، والمؤتلف والمختلف، وصلة الناسك في صفة المناسك، وغيرها. ولا بد من الانتباه إلى أن هذه الكتب هي من بين الكتب التي ترويها زاوية الإمام الأسمر، وتنفرد في روايتها بسند عال نفيس.

ب. «الرسالة القشيرية» لأبي القاسم عبد الكريم القشيري، أهم كتب التصوف على الإطلاق، إذ يرويها الإمام الأسمر بذات السند الفائت مارًّا على رجال مدرسة أبي جعفر الجنزوري، عن تقي الدين عمرو بن الصلاح عن أبي الحسن المؤيد محمد الطوسي عن أبي الأسعد هبة الرحمن بن عبد الواحد بن القاسم القشيري عن جده أبي القاسم عبد الكريم القشيري، وسائر كتبه الأخرى التي تزيد عن 18 مؤلفًا بين رسالة وكتاب وشرح، منها لطائف الإشارات في التفسير في ست مجلدات، وناسخ الحديث ومنسوخه وغيرها. ولا بد من الانتباه أيضًا إلى أن مؤلفات الإمام القشيري هي من الكتب التي انفرد زاوية الإمام الأسمر بروايتها بسند نفيس عال.

* **مدرسة أبي ماضي**، وإن كان اتصاله بها تم على يد الشيخ عبد النبي الجبالي بمدرسة أبو جعفر الجنزوري في جنزور، إلا أن رجوع الشيخ عبد النبي إلى زاوية جده عبد المولى التي أسسها في ككلة في أعالي الجبل الغربي بليبيا واستقراره فيها إلى أن توفي ودفن بها، يجعل هذه المدرسة من المدارس التي اتصل بها الإمام الأسمر، فلا بد أن المنهج التعليمي والعلوم التي درسها على يد الشيخ عبد النبي هي التي درسها في زاوية أبي ماضي واستقرت عليها، وهي زاوية صار لها شأنها فيما بعد، فقد خرجت كبار علماء البلاد، ولها مكتبة حوت نفيس مخطوطات العلم ومعارفه.

ومن المهم أن ننقل هذا النص عن شيخنا القطعاني، الذي يقول فيه: «وكانت الرحلة في طلب التصوف بعد وفاة الشيخ أحمد زروق تشد من المشرق والمغرب إلى أستاذين جليلين هما أبي جعفر الجنزوري في جنزور، والشيخ الزيتوني في فاس»[1]، ويبدو أن مدرسة أبو جعفر التي اتصل بها الإمام الأسمر بمنهجها الصوفي من طريق عبد الرحمن البشت تلميذ أبي جعفر إذ لبس على يديه الخرقة الصوفية[2]، كان اتصاله بها أقوى من

(1) نفس المصدر، ج1، ص404.

(2) نفس المصدر، ج1، ص339.

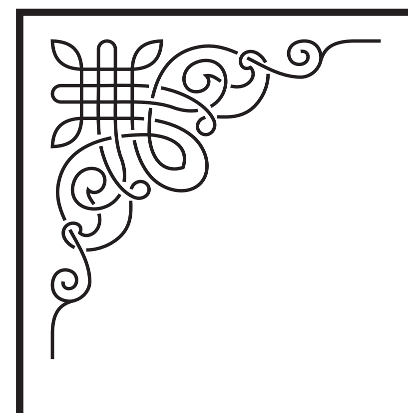
طريق الشيخ عبد النبي كونه أشهر رجال مدرسة أبي جعفر حتى أنه أصبح قبلة للباحثين عن التصوف والراغبين في الاتصال برجاله، فبعد النص السابق يصرح شيخنا القطعاني بأن الشيخ عبد النبي كان علم علماء هذه المدرسة، وأنه من كان يقصد فيها تحديدًا، إذ يقول: «وكانت الرحال تُشدُّ من المشرق والمغرب إلى أستاذين جليلين أحدهما الشيخ الزيتوني هذا ومقر إقامته فاس، والآخر يتخذ من مدينة جنزور سكنًا له وهو الشيخ عبد النبي الجبالي أحد أكبر رجال التربية الصوفية وتهذيب البواطن في عصره»[1]، ما يشير إلى المستوى الكبير الذي وصلته مدرسة أبي ماضي أيضًا التي انتقل إليها الشيخ عبد النبي واستقر فيها من بعد.

ومن المهم التوقف مليًّا عند عبارة أستاذنا القطعاني هذه، لنفهم أن اتصال الإمام الأسمر بالمدارس الثلاث، يعني أنه جمع كل ما فيها في بوتقة واحدة بتجديده الشاذلي للطريقة العروسية، خاصة إذا لاحظنا أن كل هذه الشخصيات ارتبطت بعلاقات متينة بالإمام زروق، كالشيخ الدوكالي، والعبادي تلميذ زروق، والشيخ عبد النبي الذي ذكر شيخنا القطعاني أن بينه وبين زروق صلات علمية ومراسلات متبادلة.

خاتمة:

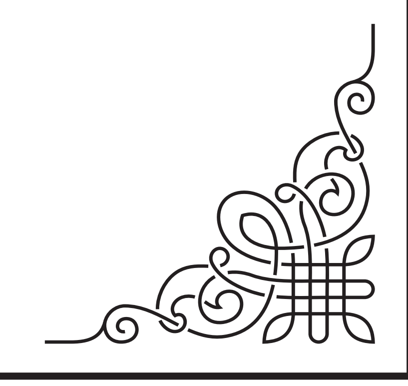
ونخلص من كل ما سبق أن الإمام الأسمر كان دقيقًا في اختياراته لمروِّيَّاته وأسانيده، وأنها لم تكن للرواية فقط، بل ليوثق لمصادر المعرفة والعلم في زاويته من خلال المدارس الثلاث، فقد ربط الوسط الثقافي والعلمي والفكري الليبي بمختلف أقطار العالم الإسلامي، وحفظ لزاويته مكانة خاصة في خارطة المدارس والعلوم الإسلامية.

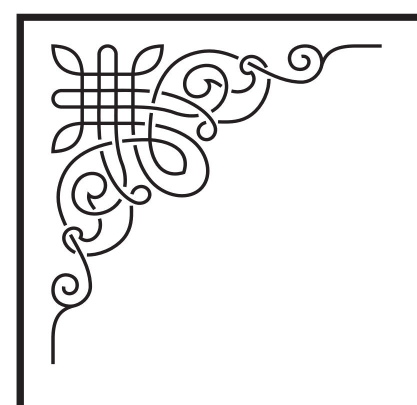
(1) نفس المصدر، ج1، ص349.



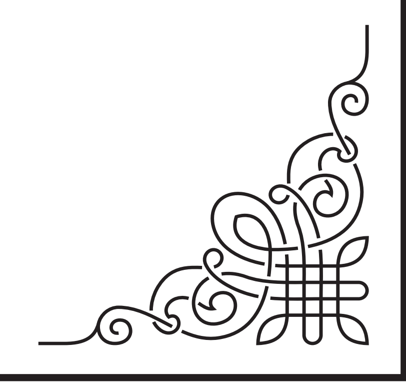
جوانب وأبعاد مشروع الإصلاح

في فكر وأعمال الإمام عبد السلام الأسمر





1 - في التربية والاجتماع






تجلِّيات القيم الإنسانية في رسائل الشيخ عبد السَّلام الأسمر

د. صالح الأحمدي

مستشار عام في التوجه المدرسي والجامعي – تونس

ملخَّص:

أرسل الإمام عبد السَّلام الأمر مجموعة من الرَّسائل إلى مريديه، ضمَّنها أهمَّ أسس مشروعه الإصلاحي، وتوزَّعت هذه الرَّسائل بين أماكن مختلفة من ليبيا ومن خارج ليبيا، وتندرج هذه الرّسائل ضمن نصائحه ووصاياه التي طبعت أغلب كتاباته، ولذلك تميّزت ببعدها الإصلاحي التربوي، إذ كان خطابه توعية وإرشادًا ووصايا إلى مريدين معيَّنين، ليعوا ما يدعوهم إليه ثمّ يبلِّغوا عنه، لا سيَّما وأنَّ مواضيع هذه الرسائل متنوِّعة وشاملة تبدأ بإصلاح العقيدة وتصحيح الإيمان إلى مسائل الفقه والعبادات، والمعاملات والأخلاق والآداب، والعلاقات الاجتماعية. وضمن هذه التنوُّع في محتوى رسائل الإمام الأسمر، تطرح هذه المقالة حضور القيم الإنسانية كإطار عام يُحيط بالمشروع الإصلاحي الذي أسّس له عبر مؤّلفاته وعبر دروسه.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، القيم الإنسانية، الرّسائل والترسُّل.

مقدِّمة:

ما فتئت فكرة الإصلاح والتّنوير تقضُّ مضاجع أهل العلم والصَّلاح والتُّقى، في العالم العربي والإسلامي، لا سيّما لدى أولئك الذي نذروا حياتهم لتتبُّع وتقصِّي الحقائق عبر سبل العلم الإلهامي أو اللَّدني، وعبر ما يُفتح عليهم من فيوضات ربَّانية.

فتنوَّعت عطاءاتهم، وتميَّزت إصلاحاتهم وتوجيهاتهم للنَّاس علمًا وأخلاقًا وتربية ارتقت بهم إلى مراتب الأولياء الصَّالحين، والأئمَّة المفكرين المصلحين، يقصدهم المريدون فينهلون من معارفهم، ويتلقُّون عنهم الآداب والأخلاق والرَّقائق كحزمة متكاملة من القيم والمبادئ التي تحكم سلوك الأفراد، وتشكِّل أساسًا للتعايش المجتمعي الصحيح، والمعتبر في هذه القيم هو أهميتها في تنمية الشخصية وتكوين المجتمعات المزدهرة من جهة، وقدرتها على اختراق أبعاد الإنسان في مستواه الفردي أو الجماعي أو العالمي من جهة أخرى، بمعنى أنَّها قيم إنسانية تمتدُّ إلى كلِّ مشترك إنساني، وتتجذَّر في وحدة النَّشأة، وفي وحدة خطاب ربِّ العالمين للنَّاس أجمعين، ورغم هذا الامتداد إلَّا أنه يمكن الحديث عن مساحة للقيم الإنسانية، طاف العارفون بالله بين أرجائها، وبيَّنوا حدودها، ثمَّ قدَّموها للنَّاس هديًا وتوجيهًا في شكل مشاريع إصلاحية عبر ما تركوه من آثار متنوِّعة ومختلفة باختلاف الزَّمان والمكان. وفي هذا السِّياق تطرح هذه الورقة العلمية تجلِّيات القيم الإنسانية في خطاب الشيخ الإمام الأسمر كمفكِّر ومصلح، وعلم من أعلام الأمَّة الإسلامية، وإذا كانت هذه التجلِّيات مبثوثة بين جميع ثنايا آثاره العلميَّة، فإنَّ إشكالية هذه الورقة تسعى إلى الكشف عن أهمِّ هذه التجلِّيات في خطابه الترسُّلي، على اعتبار أنَّ الترسُّل هو فن من فنون الكتابة النثرية عند العرب، وعند الأمم الأخرى، وهو في التقليد الصوفي نقل العلم والتجربة الروحية من الشيخ إلى المريد. وعلى اعتبار أنَّ الإمام الأسمر اعتمد فنَّ الترسُّل وترك مجموعة رسائل تصل إلى إحدى عشر رسالة[1]، وهي مورد مهمٌّ في معالجة إشكالية هذه الورقة العلمية، وفق منهج الاستقراء والتَّحليل، وعبر محورين أساسيين يمكن أن يحيطا بالمسألة من أهمِّ جوانبها، وهي محور فنِّ الترسُّل في التراث الصُّوفي واعتماده من قبل الإمام الأسمر، ومحور حضور القيم الإنسانية في رسائله. وتندرج هذه الورقة العلمية ضمن المساهمة في المؤتمر الدّولي السَّنوي للعلَّامة الشيخ أحمد القطعاني في دورته الخامسة بليبيا الذي يهتم بموضوع إعادة قراءة سيرة وأعمال الشيخ عبد السلام الأسمر كإمام ومصلح ومفكر من أعلام الأمة الإسلامية.

---

(1) طبعت رسائل الإمام الأسمر عدة مرات، وسأعتمد في مقالتي هذه على المجموعة التي حققها د. مصطفى بن رابعة.

السياق التَّواصلي لمفهوم الترسُّل:

يقتضي بناء العلاقات الاجتماعية تأسيس التَّواصل بين الأفراد والجماعات كآلية حيوية تحفظ هذه العلاقات، ويقتضي التَّواصل وجود قناة تمرُّ عبرها الرِّسالة من الباثِّ / المرسل إلى المتلقِّي / المُرسَل إليه، وهو السِّياق الذي نشأ ضمنه الترسُّل كأدب وفن اعتمده العرب منذ القدم. والترسُّل في المعجم اللّغوي «من الرِّسْل فِي الْأُمُور والمَنطِق: كالتمهُّل والتوقُّر والتثبت»[1]، و«التَّرَسُّل فِي الْكَلَامِ التَّوقُّر والتفهمُ وَالتَّرَفُّقُ مِنْ غَيْرِ أَن يَرْفَعَ صَوْتَهُ شَدِيدًا. والتَّرَسُّل فِي الرُّكُوبِ: أَن يَبْسُطَ رِجْلَيْهِ عَلَى الدَّابَّةِ حَتَّى يُرْخِيَ ثِيَابَهُ عَلَى رِجْلَيْهِ حَتَّى يُغَشِّيَهما، قَالَ: والتَّرَسُّل فِي الْقُعُودِ أَن يتربَّع ويُرْخي ثِيَابَهُ عَلَى رِجْلَيْهِ حَوْلَهُ. والإِرْسَال: التَّوْجِيهُ، وَقَدْ أَرْسَلَ إِليه، وَالِاسْمُ الرِّسَالَة والرَّسَالَة والرَّسُول والرَّسِيل»[2]، أمَّا خارج المعجم اللّغوي «فالترسل من ترسلت ترسلًا، وأنا مترسل، كما يقال: توقفت بهم أتوقف توقفا وأنا متوقف، ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرر فعله في الرسائل، كما لا يقال تكسَّر إلا فيمن تردد عليه اسم الفعل في الكسر. ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة أرسل يرسل إرسالًا وهو مُرسِل، والاسم الرسالة، أو راسل يراسل مراسلة وهو مُراسِل، وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة؛ وأصل الاشتقاق في ذلك أنه كلام يراسل به من بعيد فاشتق له اسم الترسل، والرسالة من ذلك»[3] وينطبق هذا التَّحديد لمصطلح الترسُّل الذي يتَّجه إلى معنى الإكثار من كتابة الرَّسائل، على ما يسمَّى بالرَّسائل الإخوانية، والرَّسائل الدِّيوانية، ويقترن بهذا المصطلح معاني الكتابة، والإنشاء، والمراسلة، والتَّراسل، والرِّسالة وما يتعلَّق بكل هذه المعاني من أطراف أو عناصر بناء التَّواصل. ويبقى مفهوم الرِّسالة من أكثرها شيوعًا واستعمالًا، لا سيَّما وأنَّه مفهوم ممتدٌّ في تاريخ العلاقات التَّواصلية بين النَّاس فالرِّسالة وسيلة تواصل وتفاعل بين طرفين أو أكثر ما فتئت تتطوَّر في خصائصها الشكلية والموضوعية عبر تاريخ العلاقات بين النَّاس. حيث

---

(1) تهذيب اللغة، محمد الهروي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 2001، 12/ 273.
(2) لسان العرب، ابن منظور، بيروت، دار صادر، ط3، 11/ 283.
(3) البرهان في وجوه البيان، إسحاق الكاتب، القاهرة، مكتبة الشباب، 1969، ص152.

استخدم البشر وسائل التواصل المختلفة لنقل الأفكار والمعلومات والقصص من جيل إلى آخر، فقد «مرَّت الرسالة عند العرب بمراحل أبرزها: الشكل الإشاري، ومن ذلك أن العرب في الجاهلية كان أحدهم ينذر قبيلته عن بعد بقدوم غزو نحوها بأن يخلع ثيابه جميعًا حتى يصبح عُريانًا، ثم يلوِّح بها لهم، ولذلك قالوا في أمثالهم: «أنا النذير العُريان». والشكل اللغوي، ويكون على مستويين: الأول شفوي، والثاني تدويني. والشكل الأهم في تاريخ الأدب العربي، هو الشكل اللغوي التدويني؛ لأنه من أصح أشكال الترسل وأدقها وأوثقها... وكان إرسال الرسائل وتلقيها يحتاج إلى نظام عفوي من البريد، كان يتمثل آنذاك في نظام الرُّسُل الذي تطوَّر في خلافة معاوية (41 -60هـ) إلى ديوان للبريد منظم في إدارة خاصة، وله خطوط مواصلات ومحطات ومختصون يجيدون ركوب الخيل والإبل والبغال. وكان الخلفاء يطورون نظام البريد ويحسنونه باستمرار، لأهميته العظيمة والحساسة في إدارة الدولة... وقد ارتقى فن كتابة الرسائل على نحو سريع، حتى باتت الرسائل تنافس القصائد الشعرية في تفنُّن تناولها للموضوعات المختلفة[1].

ولذلك نجد أنَّ مصطلح الترسُّل في الأدب يشير إلى عملية نقل النصوص والأعمال الأدبية من مؤلفها الأصلي إلى القرَّاء أو المستمعين، وكان الترسُّل شفويًّا، حيث تُروى القصص وتُتلَى القصائد على مسمع الأفراد أو الجمهور، ومع تطوُّر وظهور التَّدوين والكتابة، أصبح بإمكان النصوص أن تنتقل عبر الزمن والمكان، وتطورت وسائل الترسُّل في الأدب فتضمَّنت النسخ اليدوية والمخطوطات والنشر والصحف والمجلات والكتب والوسائط المتعددة الحديثة مثل الإنترنت والهواتف الذكية... فأصبح نقل الرَّسائل بمختلف أشكالها وأنواعها: (نصوص، صور، مقاطع فيديو...) أمرًا يسيرًا يختزل الزمان والمكان، بل أصبح تخزين وحفظ هذه الرَّسائل واسترجاعها أمرًا ممكنًا وسهلًا ضمن ما يعيشه العالم اليوم من ثورة رقمية تحوَّل فيها القرطاس والقلم إلى أرقام وبيتات (**Bytes**)، ولوحة مفاتيح وشاشات عرض ونقرات بالزر، وتشكَّلت مواقع ومنصَّات تواصلية ممَّا يجعل الرَّسائل تصل إلى أصحابها في لحظات، وبطريقة تفاعلية، تختلف نتائجها عن نتائج أساليب التراسل الأخرى عبر الزَّمن.

---

(1) الترسُّل في الأدب العربي، محمود المقداد، الموسوعة العربية، تاريخ زيارة الموقع: 15 / 08/ 2023.

كما اقترن مصطلح الترسُّل بمفهوم الأدب، وأصبح من التقاليد السائدة في التَّواصل بين الأوساط الثقافية والمعرفية، ويعرف أدب الترسُّل في الوسط الصُّوفي بأنَّه التواصل المباشر والروحاني بين الشيخ والمريد، حيث يتم نقل العلم والتجربة الروحية من الشيخ إلى المريد. وتمزج في هذه التجربة بين جملة من المعاني والقيم كالإخلاص، إذ يجب أن يكون المريد صادقًا ومخلصًا لله وللشيخ، وأن يكون نيته خالصة في سعيه للوصول إلى الله. والاستعداد الروحي، إذ يجب أن يكون المريد مُستعدًّا لاستقبال التجارب الروحية والتوجيهات من الشيخ من خلال التحلِّي بالتَّواضع، والانفتاح على التعلم والتأمل العميق. والانضباط الروحي، إذ يجب أن يتبع المريد توجيهات الشيخ، وأن يكون مطيعًا للتعاليم الروحية والأخلاقية. والحرص على السرية، إذ يتطلب أدب الترسُّل الاحتفاظ بسرية المعلومات والتجارب الروحية المتبادلة بين الشيخ والمريد. والاحترام والتواضع، إذ يجب على المريد أن يحترم الشيخ، وأن يظهر التواضع في حضوره. وعمومًا تختلف الممارسات والمعتقدات التي يشملها أدب الترسُّل في التصوف من ثقافة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر. وفي هذا السِّياق اعتمد الإمام الأسمر الترسُّل كوسيلة تواصل مع المريدين في أماكن كثيرة، ضمَّنها جملة من المعتقدات والقيم يُوصي بها المريدين؛ ليستقيم حالهم كأفراد ومجموعات، وكأمَّة وكبشر بصفة عامَّة. فمن هو الإمام الأسمر؟ وكيف اعتمد الرَّسائل في تواصله مع المريدين، من جهة البناء/ الشكل والمضمون/ المحتوى؟ وما هي أهم مستويات حضور البعد القيمي في هذه الرَّسائل؟

الإمام الأسمر: سيرة وأثر

يندرج الحديث عن سيرة الشيخ عبد السلام الأسمر وعرض مناقبه في هذا المقام، ضمن النَّظر في مستويات حضور البعد القيمي في مراسلاته إلى مريديه، وقد كتب كثير من الباحثين والمريدين في سيرة الشيخ وفصّلوا في ذلك تفصيلًا، ويعتبر الشيخ العلامة أحمد القطعاني (ت2018م) من أشهر من دوَّنوا في سيرة عبد السلام الأسمر، لا سيَّما وأنَّه كان مشدودًا إليه منذ صباه، إذ يقول: «لطالما شدّتني منذ سنيِّ الصبا الأولى شخصيةُ سيدي الشيخ عبد السلام الأسمر الرائعة، وكلّما ظننت نفسي استوفيت معلوماتي عنه

وأحطت بما عنده خبرًا، فاجأتني جوانب أخرى في شخصيته المتميزة أرجعتني إلى نقطة البداية من جديد، فالرَّجل هامة عملاقة واسعة الأفق، عميقة الأثر والتأثير، راسخة المعالم، لا يستطيع الباحث أن يوفيها حقَّها وإن بذل غاية جهده وكده... أنا لا أتكلم جزافًا عندما أقول: كلُّ هذا عن الشيخ عبد السلام الأسمر، ولا ألقي القول على عواهنه إذ أتشرَّف بأنَّني متخصِّص فيه، درست كلَّ ما هو موجود من مؤلفاته ووصاياه وما كُتِبَ عنه، واتصلت سندًا به وبكلِّ مرويَّاته وأذكاره ووظائفه، وأروي مسلسلات عدة له منها: الحديث المسلسل بالمصافحة المعمرية، والمسلسل بلبس القلنسوة، والمسلسل بلبس الخرقة، ودعاء ليلة النصف من شعبان، وأحزابه ووظائفه وأدعيته كلها أكرمنا الله بأخذها مسلسلة من شيخ إلى شيخ إلى حضرته الشريفة. وانظر هذا مفصلًا بذكر الأسانيد بتمامها وبحوثها في ثبتنا الكبير «أوبة المهاجر وتوبة الهاجر»[1]، وتناولته في الكثير في مؤلفاتي فخصصته بكتاب لا يشاركه فيه غيره تناولت فيه بإسهاب سيرته العطرة وآثاره ومؤلفاته ودراسة موسَّعة عنه أسميته: «القطب الأنور عبد السلام الأسمر»[2]، وخصصت له بابًا في كتابي «مجالس الفقراء»[3] بعنوان المجتمع الليبي كما رسمته وصية سيدي عبد السلام الأسمر، ثم أجملته ضمن من ترجمت لهم في كتابي «حراس العقيدة»[4]، أمَّا كتابي «الآرس»[5] فقد بيَّنت فيه نسبه الشريف المتَّصل إلى جدِّه سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وتفرُّعات ذريَّته الكريمة وترحُّل أسلافه الكرام من المدينة المنورة حتى استقروا أخيرًا في زليتن بليبيا، موثقًا بالنقول والتاريخ والتراجم والسَّرد العلمي حتى إذا أصدرت موسوعتي «موسوعة القطعاني»[6] التي قضَّيت 18 عامًا في تأليفها كان حضرته وأوائل وأعلام مريديه والتأريخ لطريقته الصوفية وسندها وشيوخها وخصائصها وانتشارها ورجالاتها سابقًا ولاحقًا في أبوابها الأساسية... ذكرتُ لك كل هذا كي تتأكد أنني أعني

---

(1) أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، أحمد القطعاني، دار بُشرى وكلثوم للنشر ومركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط1 2021م.

(2) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993

(3) مجالس الفقراء، أحمد القطعاني، طرابلس، ط1، 2000م.

(4) حرّاس العقيدة، أحمد القطعاني، دار بُشرى وكلثوم، طرابلس، ط3، 2012م.

(5) الآرس في نسب الفواتير من آل بوفارس، أحمد القطعاني، ليبيا.

(6) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21 هـ ـ 644 م إلى سنة 1421 هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م.

ما أقول عن هذا الرجل الفذ الذي لو قيل لي اختر شخصيات أثَّرت إيجابًا في ليبيا لكان أحدهم بلا منازع»[1].

ويضيف الشيخ مصطفى بن رابعة قائمة أخرى في الذين ألَّفوا في سيرة الأسمر وتاريخه، وهم: «محمد مخلوف في كتابه تنقيح روضة الأزهار، وإسحاق المليجي في كتابه «على هامش حياة سيدي عبد السلام الأسمر»، وسالم حمودة في كتابه «مختصر تاريخ الشيخ سيدي عبد السَّلام الأسمر»، وأحمد حامد في كتابه «الطبقات العروسية الشَّاذلية»[2]. وبشيء من التفصيل والدِّقة استعرض الشيخ ابن رابعة نسب وسلالة الشيخ الأسمر إلى أن وصل به إلى حلقة آل البيت رضوان اللّه عليهم، معتمدًا كثيرًا من الموارد والمراجع. وأجمع كلُّ الذين أرَّخوا وألَّفوا في حياة الشيخ أنَّه ولد سنة 880هـ في مدينة زليتن بليبيا، وتوفي بها عام 981هـ، وبين ذلك نشأ في بيئة ذات مكانة علمية واجتماعية، كما تلقّى المعارف والعلوم الشرعية والآداب والقيم الإنسانية. وأسَّس زاويته كخطوة أولى في مشروعه الإصلاحي واشتغل بالتَّدريس والتَّوعية مستهدفًا الصغار والكبار، فأصبح له مريدون في ليبيا وخارجها، ما انفكَّ يتواصل معهم ويوصيهم بعدَّة وصايا عبر الرَّسائل المتنوِّعة.

رسائل الإمام الأسمر: البناء والمحتوى

كان الإمام الأسمر يتواصل مع تلامذته ومريديه إمَّا مباشرة عند إلقاء الدُّروس والمواعظ أو عن طريق الرَّسائل، لا سيَّما وأنَّ «الرِّسالة في عصر الأسمر تعتبر أهمَّ وسيلة للاتِّصال والمخاطبة، وذلك عندما يتعذّر الاجتماع واللِّقاء»[3] ومن هذا المنطلق اكتسبت الرَّسائل أهمِّيتها في مشروع الإمام الأسمر، إذ تمكَّن الدَّارسون من حصر مجموعة من إحدى عشر رسالة موزَّعة على فترات معيَّنة من حياته، وعلى أماكن ومريدين مخصوصين وردت أسماؤهم في مطلع الرَّسائل. ويمكن أن تندرج هذه الرَّسائل ضمن الوصايا التي كتب فيها وصيتين: الكبرى والصغرى، فهي جملة من الوصايا الفرعية المنبثقة عنها وتمثَّل، كما يقول الإمام الأسمر نفسه: «نصيحة للفقراء المنتسبين علينا المنعطفة قلوبهم

(1) أحمد القطعاني، تقديم كتاب: نبراس الظلام في شرح وظيفة سيدي عبد السّلام، عبد الرحمن محمد جوان، مجمع ليبيا للدراسات المتقدّمة، ط1، ليبيا، 2021، ص14 – 15.
(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م، ص16.
(3) نفس المصدر، ص66.

إلينا، لطريقتنا وأحزابنا وأورادنا. إخواني فمن عمل بهذه الوصية واتَّبعها خاض في بحر النُّور، ومن نبذها ولم يعمل بما فيها خرج من حزبنا مذمومًا مدحورًا... إخواني فاتَّبعوا هذه الوصية، واعملوا بما نقرِّره لكم فيها فتقبسون الأنوار من أنوارها، وتلبسون الأسرار من أسرارها، واللّه الموفِّق للصواب، وسمَّيتها بنصيحة المريدين للجماعة المتتسبين للعروسي[1].

وتتنوَّع موضوعات الوصايا عند الإمام الأسمر إلى أنواع تدور في جملتها حول فلك القيم بالمعنى العام، لا سيَّما وأنَّه يفتتحها بالدَّعوة إلى معرفة اللّه وفرائض الدِّين، ثمَّ أحكام التَّوبة وشروطها، ومحبَّة النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم ومحبَّة آل بيته رضوان الله عليهم، وآداب العشرة، واعتبار حب الدُّنيا رأس كلِّ خطيئة، والنَّهي عن أكل أموال النَّاس، وتجنُّب الزنا وشرب الخمر، وضرورة التحلِّي بمحاسن الأخلاق والعفو والإحسان، وآداب الأكل، وتعليم الأولاد والزوجات، ومعاملة الجيران، وبرِّ الوالدين، ودخول البيوت والتجسُّس، والصلاة وحكم تاركها، واتِّباع الجنازة والذكر فيها، وتفضيل اللباس الأبيض، وأحكام الأعراس، وآداب المحادثة، ونصيحة للنِّساء، وغض البصر يورث محبَّة اللّه، التعجيل بالتوبة، وفضل الزيارة وآدابها، وحب المساكين، ومحبَّة العلماء واحترامهم، والأدب مع المشايخ، والأدب عند الإنشاد، وشروط دخول الطَّريق، ومقام الشيوخ والمعلِّمين، وتنوُّع الاستغاثات والأحزاب والأدعية. وضمن هذا النَّسق من التنوُّع في الوصايا، تميَّزت مجموعة رسائله بجملة من المواصفات من جهة الشكل والبناء، ومن جهة الموضوع والأسلوب، وهي الجهات التي سنعتمدها في هذا الطرح من أجل بناء رؤية شاملة عن البعد القيمي في هذه الرّسائل.

من جهة الشَّكل أو البناء كانت رسائل الإمام الأسمر منتظمة وفق بناء يراعي مواصفات التراسل، إذ يفتتح رسائله بالبسملة والحمدلة والصَّلاة على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ثم يردف بذكر اسمه كمرسل، وذكر المرسل إليه مريدًا واحدًا، أو مجموعة مريدين، مع الإشارة إلى مكان إقامتهم. واعتمد في عرض المسائل والموضوعات أسلوبًا تعليميًّا يسهل على المريدين تقبُّله واستيعاب معانيه مزج فيه بين البعد التربوي والبعد الوجداني عبر آلية التَّذكير والموعظة، فتنوَّعت محتويات الرَّسائل وتعدَّدت موضوعاتها، لتشمل العقيدة والأحكام الشرعية والمعاملات ضمن نسق من

(1) الوصيّة الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص3.

البناء التراكمي لعلاقة المريد بنفسه وبربِّه وعلاقته بأخيه الإنسان والكون من حوله. وتندرج هذه الموضوعات صنف الوصايا، ويشهد لذلك كثافة انتشار لفظ «أوصيك» ولفظ «النَّصيحة»، ولفظ «الوصية»، ولفظ «اعلموا»، في مواطن كثيرة من رسائله. ففي الرِّسالة الأولى: «أوصيك أيُّها العبد الصَّالح». وفي الرِّسالة الثانية: «سألت أيُّها المحبُّ أن أنصحك». وفي الرِّسالة الثالثة: «أوصيك أيها المريد النَّجيب». وفي الرِّسالة الرَّابعة: «المريد الرَّاغب... طلبت منِّي أن أكتب لك نصيحة». وفي الرِّسالة الخامسة: كنت أيها المحبّ سألتني أن أكتب لك وصية». وفي **الرِّسالة السَّادسة: تكرار كلمة «اعلموا» أكثر من عشر مرَّات مع وجود معاني التَّحذير الصَّريح باستعمال كلمة «إيَّاكم». وفي** الرِّسالة السَّابعة: «هذه نصيحة». وفي **الرسالة الثامنة:** «أوصيكم ونفسي». وفي الرِّسالة التّاسعة: «فهذه نصيحتي منِّي إليكم» وفي الرِّسالة العاشرة: «أوصي نفسي وإياكم». وفي الرِّسالة الحادية عشر: «فهذه نصيحتي».

ويدلُّ انتشار هذه الاستعمالات لمعاني الوصية والنَّصيحة في بناء رسائل الإمام الأسمر إلى مريديه على حضور البعد التربوي الإصلاحي في منهجه، لا سيَّما وأنَّ الموارد التي اعتمدها كانت متوزعة بين آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، ومأثور الصحابة، وأقوال شيوخه ومعلِّميه، كما استخدم في أسلوب بناء الرَّسائل أفعال الطَّلب إمَّا أوامر ونواهٍ صريحة، وإمَّا أفعال نصح وإرشاد.

وقد حاولنا في الجدول الموالي رصد وجرد حضور هذه الأفعال بنسب متفاوتة بين رسائل الإمام الأسمر، ولا يعتبر هذا الرَّصد حصرًا لها وإنَّما هو محاولة إحاطة لكثافتها وتردُّدها من أجل فهم الصورة الشاملة لبناء الرسائل:

رسالة عدد	الأمر (افعل)	النهي (لا تفعل)	أفعال النصح والإرشاد
01	27	17	07
02	20	02	05
03	12	06	09
04	13	05	14
05	29	06	17

رسالة عدد	الأمر (افعل)	النهي (لا تفعل)	أفعال النصح والإرشاد
06	37	11	15
07	12	02	01
08	19	04	04
09	22	13	09
10	09	01	19
11	08	01	17
المجموع	208	68	117

ويتبيَّن من خلال القراءة العمودية لهذا التّوزيع أنّ الأوامر الصريحة في صيغة «افعل» أكثر كثافة، إذ يأمر الإمام الأسمر مريديه عبر رسائله بجملة من الأوامر على اعتباره معلِّمًا لهم يُبيح لنفسه أن يأمرهم بأشياء وينهاهم عن أخرى، ويُرشدهم ويُوجِّههم، مستعملًا الألفاظ والمعاني المناسبة، وعبر هذه الأوامر والنّواهي كان يهدف الى أن تترسَّخ مقاصد وصاياه وتوجيهاته التي أرادها أن تبلغ المريدين «فقد كان ﵀ يدعو أتباعه ومريديه إلى اتباع الكتاب والسنة والزهد في متاع الدنيا، والإكثار من ذكر الله تعالى، والتفكر في آلائه ونعمه، وشكر الله تعالى على غيرها، والصَّلاة والسلام على رسول الله لتطمئن قلوبهم، وتحيى نفوسهم، وتزكو أرواحهم، ويكونوا على نور من ربهم»[1]، وهو ما يؤكِّد عليه تنوُّع موضوعات رسائله واتِّصالها بجملة من القيم الإنسانية في بعدها الفردي والجماعي عبر آلية الدّعوة إلى التَّعلُّم والتعليم، والتخلُّق بأفضل الآداب، والخلق الجميل، مع اللّه ومع الذّات ومع النّاس أجمعين.

ورغم أهميَّة هذا التنوُّع في موضوعات رسائل الإمام الأسمر إلَّا أنَّنا سنتوجَّه في هذه الورقة العلمية إلى موضوع القيم الإنسانية لنتعرَّف إليه بين ثنايا هذه الموضوعات.

حضور القيم الإنسانية في رسائل الإمام الأسمر

يقتضي النَّظر في حضور القيم الإنسانية بين رسائل الإمام الأسمر، توضيح معنى القيم كمشترك إنساني، من جهة، ثمَّ محاولة رصد تجلِّيات وأنواع هذه القيم، من جهة

(1) نبراس الظلام في شرح وظيفة سيدي عبد السّلام، مصدر سابق، ص8.

ثانية، إذ يتحدَّد مفهوم القيم في اللّسان العربي، انطلاقًا من كلمة «القِيمَةُ: وَاحِدَةُ القِيَم، وأَصله الْوَاوُ؛ لأَنه يَقُومُ مَقَامَ الشَّيْءِ. والقِيمة: ثَمَنُ الشَّيْءِ بالتَّقْوِيم. تَقُولُ: تَقَاوَمُوه فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَإِذَا انْقادَ الشَّيْءُ وَاسْتَمَرَّتْ طَرِيقَتُهُ فَقَدِ اسْتَقَامَ لوجه. وَيُقَالُ: كَمْ قَامَتْ ناقتُك أَيْ كَمْ بَلَغَتْ. وَقَدْ قَامَتِ الأَمَةُ مِائَةَ دِينَارٍ، أَيْ: بَلَغَ قِيمَتُهَا مِائَةَ دِينَارٍ، وَكَمْ قَامَتْ أَمَتُك أَيْ بَلَغَتْ. والاسْتِقَامة: التَّقْوِيمُ، لِقَوْلِ أَهْلِ مَكَّةَ اسْتَقَمْتُ الْمَتَاعَ أَيْ قوَّمته[1]. وتتباين الإجابات المباشرة عن «سؤال ما طبيعة القيمة أو ما هو تعريفها بتباين الاتجاهات والنزعات التي تعالج مشكلة القيم، فهناك من ينكر إمكان تعريفها وتحليلها إلى أبسط منها، إلاّ أنّ أغلب الباحثين متّفقون على إمكان تعريفها وتحديد طبيعتها... والتمييز بين القيم من حيث هي وسيلة مفضية إلى غاية، ومن حيث هي غاية تنشد لذاتها، فالأولى قيم خارجية أو وسيلة تختلف باختلاف حاجات النّاس ومطالبهم، والثانية داخلية ذاتية تستقل بنفسها[2]، ويتحدَّد مفهوم المشترك الإنساني وفق منطق وحدة الإنسان دون إغفال مستويات ودرجات الاختلاف بين الأفراد والجماعات، و«لم يفصل كلٌّ من هابرماس وطه عبد الرحمن بين ثلاثية الدِّيني والأخلاقي والتَّواصلي في محاولة كلٍّ منهما بلوغ أفق كوني في البحث عن مشترك إنساني قيمي مثالي روحي بديلًا لإنسان الحداثة المتشيِّئ على الرَّغم من الاختلاف في منطلقات وأدوات كلٍّ منهما»[3] وهما بذلك يضعان مثلَّث الإطار العام للمشترك الإنساني من خلال تفاعل الزَّوايا الثلاث: الزَّاوية الدِّينيَّة، والزَّاوية الأخلاقيَّة، والزَّاوية التَّواصليَّة، ويعتبر «البحث في مفهوم المشترك الإنساني بحثًا في المبادئ والقيم الخلقية المشتركة بين النَّاس على اختلاف الانتماء الحضاري والمذهبي والثقافي والدِّيني، من أجل بناء أسس للتواصل بين الحضارات والثقافات الإنسانية، وفتح أفق للتعاون في القضايا المشتركة، وتدبير هوامش الاختلاف. ولا يمكن تصنيف المشترك الإنساني ضمن خانة هدم الخصوصيات الثقافية للشعوب من منطلق هاجس الهيمنة وعقدة المركزية الحضارية، وإنَّما ينبغي تصنيف المشترك الإنساني ضمن تلك القيم الإنسانية الموجودة في جوهر كلِّ الدِّيانات والحضارات والمدارس الفكرية، وهي

(1) لسان العرب، مصدر سابق، 12/ 500

(2) نظرية القيم في الفكر المعاصر، صلاح الدين قانصوه، بيروت، التنوير للطباعة والنّشر، ط1، 2010، ص49.

(3) في البحث عن مشترك إنساني كوني: أسئلة الدّيني والأخلاقي والتّواصلي بين يورغين هابرماس وطه عبد الرحمن»، حامد رجب عباس، **Journal of Islamic Ethics 5**، الدّوحة، 2012م، ص3.

القيم التي تلبِّي حاجات الإنسان الفطرية التي تتجاوز الخصوصيات الثقافية إلى مستوى حب الخير للغير وحبِّ العدل[1] وتقبُّل الآخرين كما هم ضمن نسق من التعارف والودِّ. ذلك أنَّ نظام القيم لا يمثِّل مجرد خصال حميدة، أو غير حميدة يتصف بها الفرد فتكون خلقًا له، بل هو بالدرجة الأولى معايير للسلوك الاجتماعي والتدبير السياسي ومحددات لرؤية العالم واستشراف المطلق. وينطوي نظام القيم كمعيار أخلاقي على جملة القيم المختلفة والمنتشرة في العالم، فقد عرفت الثقافة العربية عدَّة نظم من القيم وليس نظامًا واحدًا، فالعقل العربي الأخلاقي هو: «عقل متعدِّد في تكوينه، ولكنَّه واحد في بنيته، وهو متعدد في تكوينه؛ لأن الثقافة العربية الإسلامية كانت ولا تزال مسرحًا تلتقي فيه عدة موروثات ثقافية، فمنذ عصر التدوين الذي تلا عصر الفتوحات مباشرة برز الموروث الفارسي والموروث اليوناني والموروث الصوفي علاوة على الموروث العربي الخالص والإسلامي الخالص بمكونات رئيسية وأساسية في الثقافة العربية... فكان لا بد لهذه الثقافات أن يحصل بينها احتكاك وتداخل ومنافسة وصراع، لينتج لنا ما يسميه (الجابري) بالمحصلة التي تبرز كممثل للثقافة العربية الواحدة، وبالتالي كعقل أخلاقي عربي[2].

وإذا تتبعنا مفهوم القيم كما تدعو إليه نصوص القرآن الكريم والسنَّة النبوية الشريفة، سنجد أنَّها تنحو إلى ترسيخ الطّابع الإنساني بصفة عامَّة، إذ تمتزج القيم الإنسانية بقيم الوحي الإلهي، ففي سورة الفاتحة استهلال بالإشارة إلى أنّ اللّه المقصود بالعبادة هو ربُّ العالمين، ثمَّ أنشأ القرآن الكريم خطابه الممتدَّ على 114 سورة وفق هذا الاستهلال الذي يؤسِّس لشبكة من القيم الكونية المشتركة بين جميع النَّاس على اختلاف الزَّمان والمكان.

وتتنوَّع منظومة القيم إلى قيم إنسانية، وقيم سماوية، ويجتمع النَّوعان من القيم ليشكِّلا أصنافًا من القيم الكبرى تدور داخلها تصرفات الإنسان وسلوكياته فهي بمثابة الأصول منها ما هو ممتدٌّ إلى المستوى الرُّوحي ومنها ما هو ممتدٌّ إلى المستوى الجسدي في خطٍّ تكاملي، فالقيم الرُّوحية تعاضد القيم الماديَّة الجسدية، ويتفاعلان من أجل الإنسان في انفراده واجتماعه أُسرًا وشُعوبًا ودُولًا وأممًا. فالقيم الروحية، والقيم الأخلاقية، والقيم الجمالية كلٌّ منها يحقِّق وظائف للإنسان بحسب فهمها وتمثُّلها والوعي بها من أجل تلبية الحاجات الأساسيَّة، فالقيم الروحية: تُشبع الفقرَ الوجودي للإنسان، فتكرِّس كينونتَه،

---

(1) «المنهج القرآني في بناء المشترك الإنساني»، رفيع محماد بن محمد، مجلة الفكر الإسلامي المعاصر (إسلامية المعرفة سابقًا) السنة السابعة عشر، العدد 66، أكتوبر 2011، ص116.

(2) العقل الأخلاقي العربي، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ط1، 2001.

وتلهمه القوة، وتمنح إرادتَه قوَّة وصلابة. من ذلك أنَّ الإيمانَ بوصفه قيمةً روحية، يمتلك تأثيرًا سحريًّا، تتسامى به الأرواحُ، فتُحلِّق في عوالم الملكوت. وكذلك الحُبُّ يمنح الأمنَ والدفءَ والسلامَ، فترتقي بواسطته العلاقات الاجتماعية وتتعزَّز وحدة الإنسان الأخلاقية، بل يمكن أن تتجلَّى كيمياء الحبِّ في الحياة الشخصيَّة والعامَّة في علاقة الإنسان بنفسه وبالعالم من حوله فيعيش حالة من السَّكينة والتّسليم بمعنى الرِّضا والسير في خطِّ الحياة مع ما تقتضيه قوانين الكون، وتعمل القيم الأخلاقية على تأسيس الروابط الاجتماعية وفق علاقات المحبَّة والاحترام وتقبُّل الآخرين. ولذلك ما انفكَّ اهتمام الفلسفات والأبحاث النَّفسية والاجتماعية بالقيم يتطوَّر، فمن أهمِّ المقاربات التي تناولت القيم كمشترك إنساني نشير إلى مقاربة العلوم السِّياسية التي طرحها رونالد إنجلهارت (**Ronald Ingelhart**،1934–2021)، ومقاربة علم النَّفس الاجتماعي وفق ما تناوله كلٌّ من ميلتون روكيتش (**Milton Rokeach** 1918–1988) وشوارتز (**Schwartz**،1936)، إذ تقوم مقاربة العلوم السِّياسيَّة[1] على دراسة الاختلاف في القيم حسب البلدان ومستويات نموِّها وتطوِّرها. وقد «دأب رونالد إنجلهارت وزملائه على جمع البيانات عن معتقدات الناس حول العالم وآرائهم في موضوعات متعددة. وقد ساعد هذا العمل إنجلهارت على شرح نظريته المعروفة عن تطور مجتمع ما بعد التصنيع في المجتمعات المتقدِّمة وبيان تأثير ذلك في السياسة. واعتمد على الاستطلاعات الشاملة التي تناولها مسح القيم العالمي، الذي أجري في ذلك الوقت في أكثر من 40 دولة ما بين عامي1990–1991، حيث قام بنشر كلِّ النَّتائج التي احتواها هذا المسح الكبير، وقد غطّت هذه الاستطلاعات معلومات كثيرة عن السِّياسة والاقتصاد والدِّين والحياة الأسرية، وعكست تلك الاستطلاعات اختلافات في الاستجابة طبقًا للسنِّ والنَّوع والظروف الاقتصادية والتربية[2]. وكلَّما زاد الاهتمام بالقيم اتَّسعت مساحتها وامتدَّت أطرافها لتشمل مجموعة واسعة من المفاهيم والمبادئ تعبِّر عن المعتقدات والأفكار التي تتحكَّم في سلوك الأفراد والمجتمعات، وتوجِّه تفاعلاتهم مع الذّات ومع الآخر. وضمن سياق هذه الأهميَّة، وهذا الاهتمام بالقيم الإنسانية، نشير إلى أنَّ في القرآن الكريم توقيعات كثيرة ومختلفة لمفهوم

---

(1) Ingelhart Ronald، Les transformations culturelles comment les valeurs des individus bouleversent le monde، Presses Universitaires de Grenoble (PUG)،2018

(2) رونالد إنجلهارت: رائد مسح القيم العالمي، سهير صفوت ومحمد رامي، المجلّة المصرية للعلوم الاجتماعية والسلوكية، العدد الرّابع، أكتوبر 2021، ص29.

القيمة، من خلال تذكير المؤمنين بأنَّ الله هو المصدر الحقيقي للقيم، فالله تعالى هو الواحد الكامل في كلِّ شيء، لا يحتاج إلى شيء، ولا يعتريه أي نقص، وهو يحثُّ الإنسان على السعي إلى الكمال والتقدم الروحي والأخلاقي، وذلك عبر تفعيل معاني القيم في واقع الحياة اليومية، ومن أهمّ هذه القيم التي نعرضها ذكرًا لا حصرًا، قيمة الإخلاص، وقيمة العدل والإحسان، وقيمة العلم والتعلُّم، وقيمة المغفرة، وقيمة الصبر، وسنحاول كشف تجلِّياتها وأشكالها في رسائل الإمام الأسمر، فالإخلاص مفهوم يستخدم لوصف حالة أو صفة الصدق والنَّزاهة والانتقاء في الفعل والنيَّة، كما يعني التفاني والتميُّز في العمل أو العبادة أو العلاقات الشخصية. فهو تعبير عن توجيه الاهتمام والتفكير والجهود بشكل حصري نحو هدف معين، والإخلاص في سياق التديُّن، يعبِّر عن جودة مرتبطة بالتفاني في خدمة الله والامتناع عن الشرك أو التضليل في العبادة، ويتم تعزيز الإخلاص كقيمة أخلاقية مرغوبة في مختلف الديانات والتقاليد الروحية، أمَّا في سياق العمل، يعتبر الإخلاص صفة هامة للنجاح والتفوق. فالإخلاص قيمة جوهرية متعلِّقة بالتَّوحيد وإفراد اللهِ تعالى بالعبادة، وهو ما تعتمده المقاربة الصوفية للقيم، وتتفرَّع عنه بقية القيم. وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحدّثت عن الإخلاص في سياقات متنوِّعة لعلَّ من أهمِّها سياق التَّوحيد وإفراد اللّه تعالى بالعبادة، وقد عبَّرت عن ذلك بوضوح سورة الإخلاص. وتتوزَّع صيغ أخرى لكلمة الإخلاص بين كثير من السُّور والآيات[1]، وكلمة التقوى[2] في الأقوال والأفعال والمعاملات ضمن نسق من التَّزكية الرُّوحية والعمل الصَّالح.

قيمة العدل والإحسان: يفيد تتبُّع حضور كلمة حسن التي اشْتُقَّ منها مفهوم الإحسان في القرآن الكريم وجودها في 165 موضعًا من القرآن الكريم بصيغ مختلفة، وتدلُّ هذه الكثافة على أهميَّة الإحسان كقيمة عليا ترتقي بالإنسان نحو مراتب الكمال،

---

(1) وردت كلمة **أخلصوا** في الآية 146 من سورة النّساء، وكلمة أخلصناهم في الآية 46 من سورة ص، وكلمة **أستخلصه، وخلصوا** الآية 54 و 80 من سورة يوسف، وكلمة **مخلصون** في السور التالية: البقرة: 139 - الأعراف: 29 - يونس: -22 يوسف: 24 - الحجر: 40 - مريم:-51 العنكبوت: 65 - لقمان: 32 - الصَّافات: 40، 74، 128، 160، 169 - ص 83 - الزمر: 2، 11، 14 - غافر: 14، 65 - البيّنة: 5.

(2) وردت كلمة «التّقوى» في صيغة معرَّفة أو نكرة في 15 موضعًا في القرآن الكريم في السور التالية: البقرة: 197، -237 المائدة: 2، 8 - الأعراف: -26 التّوبة: 108، -109 طه: 132 - الحج: 32، 37 - الفتح: 26 - الحجرات: 3 - المجادلة: 9 - المدّثر: 56 - العلق: 12. بالإضافة لصيغ أخرى مبثوثة بين السور والآيات.

ويكون الإحسان في كلِّ شيء في النيَّة، وفي القول، وفي العمل، وفي السُّلوك، وتقترن هذه القيمة بقيمة العدل، فكلما ارتفع مستوى حضور العدل مع النَّفس ومع الآخرين ارتفع الإنسان درجة نحو الكمال. والإحسان عند الصوفية مفهوم مقترن بالعبودية والتقرب من الله من خلال الأفعال والسلوك القويم في علاقة الإنسان بنفسه وبمحيطه. وبشيء من التعمُّق والدقَّة تتمثَّل «حقيقة الإحسان في شهود اللّه تعالى، والحضور معه في كلِّ شيء... مشاهدًا لتجلِّيه في كلِّ شيء، حتَّى لو أحبَّ نوعًا من المآكل أو المشارب، أو غير ذلك شهد أنَّ محبَّته في الحقيقة لذلك المتجلِّي الحق الذي تجلَّى في صورة ذلك الشيء، فالأشياء عنده صور التجلِّيات الرَّحمانية على اختلاف أجناس الأشياء وأشخاصها وأنواعها... فمن شروط الإحسان: الاعتقاد الموافق للسنَّة، والعمل الخالي من البدعة، والقول المحفوظ من اللَّغو»[1] فالإحسان مفهوم يؤكد على التوازن بين العبودية والتعامل بإحسان مع الذات والآخرين والعالم من حولنا، ومن خلال هذا التوازن، يُشجع الفرد على السعي للتقرب من الله وتحقيق التحول الروحي.

قيمة العلم والتعلُّم: تنتشر معاني قيمة العلم والتعلم في نصوص القرآن الكريم بصفة ملحوظة وفق تعابير وصيغ مختلفة، واشتق من كلمة علم صيغ كثيرة تواترت 484 مرَّة، بالإضافة إلى معاني المعرفة ومعاني القراءة والتدبُّر والتعقُّل والتأمُّل باعتبارها متعلقة مباشرة بالعلم كقيمة عليا تساهم في درجات الكمال، وهي الصفة التي ارتقى بها الإنسان إلى مقام التكريم. وقد خصَّ اللهُ تعالى الذين أوتوا العلم بالذّكر ورفعهم مقامًا محمودًا في آيات كثيرة من القرآن الكريم، في قوله تعالى:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النَّحل:27].

﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الإسرَاء:107].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج:54].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القَصَص:80].

(1) أسرار الشريعة أو الفتح الرّباني والفيض الرّحماني، عبد الغني النابلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1958، ص56 و58.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العَنكبُوت:49].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الرُّوم:56].

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سَبإ:6].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [مُحمد:16].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المُجادلة:11].

قيمة المغفرة: على اعتبار أنَّها من القيم الإنسانية التي تناولها القرآن الكريم في توقيعات كثيرة وسياقات مختلفة وتواتر ذكرها بصيغ مختلفة، ما يقارب 124 مرَّة ضمن نسق يراوح بين مغفرة اللّه لعباده المستغفرين، ومغفرة الإنسان لأخيه الإنسان، يقول تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البَقَرة:268]، ويقول أيضًا: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عِمران:133]، وأيضًا: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرَّعد:6]، وباعتبار أنّ المغفرة قيمة مطلقة من لدن اللّه تعالى ونسبيَّة من الإنسان نحو أخيه الإنسان، وهي قيمة عليا تساعد الإنسان على التدرُّج نحو الكمال، عبر آلية الاعتراف بالأخطاء والتوبة منها، فاللّه تعالى يعد بالمغفرة لمن يتوبون إليه بصدق ويسعون في إصلاح أخطائهم، وهذا يساعد في بناء الكمال الروحي.

قيمة الصبر والاستقامة في مواجهة التحديات والابتلاءات، والاستقامة على الحق، لا سيَّما وأنَّ الصَّبر آلية أو أداة ذكره القرآن الكريم وفق صيغ وسياقات مختلفة اختبارًا لمستوى الإيمان واليقين، وأمكن حصر تكرار كلمة صبر بجميع صياغتها 69 مرَّة، كلمة الصَّابر بجميع صيغها 16 مرَّة، وبشَّر اللّه تعالى الصابرين، القادرين على التفاعل مع تحديات الحياة وتوجيهها إلى تحقيق الفوز في الدنيا والفلاح في الآخرة، إذ يقول في

التنزيل الحكيم: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البَقَرَة:155-157]. وورد «عن الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَطَاءُ بْنُ يَزِيدَ: أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ أَخْبَرَهُ «أَنَّ أُنَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَسْأَلْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا أَعْطَاهُ، حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ نَفِدَ كُلُّ شَيْءٍ أَنْفَقَ بِيَدَيْهِ: مَا يَكُنْ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ لَا أَدَّخِرُهُ عَنْكُمْ، وَإِنَّهُ مَنْ يَسْتَعِفَّ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَلَنْ تُعْطَوْا عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1]. ويمكن إدراج هذه القيم الخمس ضمن المنظومة القيمية الإنسانية التي تمتدُّ إلى جميع أبعاد الإنسان فتتقاطع مع بقية القيم الأخرى بمختلف تصنيفاتها وفروعها. فالقيم الروحية، والقيم الأخلاقية، والقيم الجمالية كلٌّ منها يحقِّق وظائف للإنسان بحسب فهمه وتمثُّله والوعي بها من أجل تلبية الحاجات الأساسيَّة، فالقيم الروحية: تُشبع الفقرَ الوجودي للإنسان، فتكرِّس كينونتَه، وتلهمه القوة، وتمنح إرادتَه قوَّة وصلابة. من ذلك أنَّ الإيمان بوصفه قيمةً روحية، يمتلك تأثيرًا سحريًّا، تتسامى به الأرواحُ، فتُحلِّق في عوالم الملكوت. وكذلك الحُبُّ يمنح الأمنَ والدفءَ والسلامَ، فترتقي بواسطته العلاقات الاجتماعية، وتتعزَّز وحدة الإنسان الأخلاقية، بل يمكن أن تتجلَّى كيمياء الحبِّ في الحياة الشخصيَّة والعامَّة في علاقة الإنسان بنفسه وبالعالم من حوله، فيعيش حالة من السَّكينة والتَّسليم بمعنى الرِّضا والسير في خطِّ الحياة مع ما تقتضيه قوانين الكون.

وقد حرص الإمام الأسمر في رسائله على التذكير بهذه القيم، وبضرورة الالتزام بها، في علاقة الإنسان باللّه وعلاقته بنفسه وعلاقته بمحيطه، وفي الجداول التّوضيحيّة التالية تفصيل لهذا التّذكير في شكل وصايا ومحاذير موزَّعة بين رسائله.

(1) أخرجه البخاري.

جدول توزيع القيم في الرّسالة الأولى

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
من الوصايا	من المحاذير	من الوصايا	من المحاذير	من الوصايا	من المحاذير
تقوى اللهّ، مراقبة اللهّ، استشعار علمه واطلاعه عليك، معيّته لك إحاطته بك، الصدق مع اللهّ، التواضع، الشكر والصبر، الرضا بالقضاء والقدر.	تعلّق القلب بسوى اللهّ.	إصلاح النية في العبادات إقامة الصلاة بخشوع الحفاظ على الجماعة، قيام اللّيل، التضرّع، قراءة الورد من القرآن يوميا، السرّ في الحضور والتدبّر لا في الإكثار من القراءة، دوام الذكر والتسبيح.	لا تعجب بنفسك، لا تتبع هوى النَّفس.	سعة الصدر، طلاقة الوجه، طيب الكلام، خفض الجناح، لين الجانب مع إخوانك المؤمنين، التودّد، دار من يحتاج إلى المداراة، اشكر المحسن، تجاوز عن المسيء، انصح من يحتاج النّصح، بلطف وشفقة في خلوة، قوّة الاحتمال، دوام العفو.	لا ترتفع على إخوانك، احذر الجفاء والغلظة.

جدول توزيع القيم في الرّسالة الثانية

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
وصايا	محاذير	وصايا	محاذير	وصايا	محاذير
الثقة بالله، إصلاح النية في العلاقة بالله.		التخلّق بمكارم الأخلاق، قيام الليل والمحافظة على الصلوات.		اضمر الخير لجميع المسلمين اصبر على من آذاك،	

جدول توزيع القيم في الرّسالة الثالثة

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
وصايا	محاذير	وصايا	محاذير	وصايا	محاذير
		المحافظة على الصلاة، التواضع، سلامة الصدر من الحقد والبغض والاحتقار والاستهانة.	ترك الكبر.	الإكثار من الصدقة واصطناع المعروف، الجود والسخاء، دوام البشر وطلاقة الوجه ولين الجواب وخفض الجناح لجميع المسلمين وإفشاء السلام وطيب الكلام. حسن الخلق فإنّه أثقل شيء يوضع في الميزان.	

جدول توزيع القيم في الرّسالة الرّابعة:

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
وصايا	محاذير	وصايا	محاذير	وصايا	محاذير
بتصحيح إيمانك الإخلاص والتوكّل على الله حسن اليقين.		الصدق، الصبر، علوّ الهمّة، الشكر.			

جدول توزيع القيم في الرّسالة الخامسة

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
وصايا	محاذير	وصايا	محاذير	وصايا	محاذير
بتقوى الله، إصلاح القلب، الدُّعاء والاستغفار.		تنزيه اللّسان والقلب عن الفتنة وسوء الظنّ.		التّواضع، إضمار الخير لجميع المسلمين، تحب لهم ما تحب لنفسك، وتكره لهم ما تكره لنفسك، طيب الكلام، التخلّق بالشفقة والرّحمة و إفشاء السّلام التزهّد وإيثار الدّون والأقل من أمتعة الدّنيا.	الحذر من مخالطة ومجالسة من يغتاب ويقع في أعراض النّاس، التكبّر والتجبّر في الكلام والملبس والمشي والمجلس، تعميم الوصية على الجميع بما فيهم الموصي المُرسِل (الاسم) وسائر المسلمين.

توزيع القيم في الرّسالة السّادسة

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
وصايا	محاذير	وصايا	محاذير	وصايا	محاذير
تلاوة القرآن، المحافظة على الصلوات.		الاشتغال بالنّفس، الصبر على الدّين، احتمال المكاره الصبر على الأذى.	الوسخ، الأيْمان، كثرة الكلام، مخالفة الظاهر للباطن، ادّعاء العلم، تأخير غسل الجنابة.	العزلة، الابتعاد عن أبواب السلاطين، التراحم، والتصدُّق، موعظة الجليس.	لا تدخلوا بين العبد وربِّه، لا تخلفوا الوعد.

توزيع القيم في الرّسالة السّابعة

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
وصايا	محاذير	وصايا	محاذير	وصايا	محاذير
تذكير بقواعد الإسلام الخمس، وأقسام الإسلام العشر، وفرائض القلب الثلاث، أقسام معرفة التّوحيد الأربعة: الذاتية، والمعنوية، والفعلية، والسلبية تصحيح الإيمان الإكثار من الذِّكر والدُّعاء.		معرفة النّفس ثمّ معرفة الله			

توزيع القيم في الرّسالة الثامنة

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
وصايا	محاذير	وصايا	محاذير	وصايا	محاذير
تقوى اللهّ، تصحيح الإيمان، الاعتكاف في المساجد، الإكثار من الذّكر.		المداومة على الوضوء والطهارة، حفظ المساجد من دخول الصبيان والمجانين والكلاب والخنازير، وكلّ من تقع منه النجاسة في المسجد.		الإحسان إلى الجيران، الصبر على إذايتهم لكم، كتم أسرارهم وستر عوراتهم، العفو عنهم، لين الجانب لكلِّ بار وفاجر، برُّ الوالدين وصلة الرَّحم التّسليم لكلّ بار وفاجر، جاهل ومعاند، جاحد وظالم؛ لأنّ مبنى طريق التصوف كلّها على التسليم والتصديق، حسن الظنّ بالنّاس.	الإشراف على بيوت النّاس، استراق السمع إلى أحاديثهم.

توزيع القيم في الرّسالة التّاسعة

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
وصايا	محاذير	وصايا	محاذير	وصايا	محاذير
تقوى اللهّ، تصحيح حفظ القرآن، والإكثار من تلاوته بتدبّر، قيام الليل.		معرفة ما يصلح من فرائض العين، تعلّم قواعد اللغة العربية والنّحو، الحرص على طلب العلم النّافع، الإخلاص في طلب العلم للهّ تعالى، الزهد.	الغش التمويه، العناد والمجادلة والمنازعة الاستهزاء بكلام الغير إذا قارنه اللحن التعمّق في المنطق.	تعليم الصبيان القرآن، كتم عيوب الجليس وحفظ سرّه، اختيار موضوع الحديث مع الجليس بحسب مجال فهمه وتخصّصه مع حفظ الأدب معهم، حسن اختيار الزوجة	خلطة الأراذل، والفسقة والزنادقة، صحبة الجهلة والفجرة إلا من تاب منهم.

توزيع القيم في الرّسالة العاشرة

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
وصايا	محاذير	وصايا	محاذير	وصايا	محاذير
الإكثار من تلاوة القرآن، تجريد النّية والقصد لحج بيت اللهّ الحرام.	خلط نية الحجّ بطلب نزهة أو رغبة في تجارة.	سلامة الصّدور، سخاوة النّفوس سرعة الرِّضا، بطء الغضب، حفظ القلوب من الخواطر المذمومة، وتنظيفها من الأخلاق القبيحة المشؤومة.		التّواضع، حسن الخلق، لين وسعة الاحتمال وإيثار الصاحب، صحبة الأخيار والتأدُّب بآدابهم.	

توزيع القيم في الرّسالة الحادية عشر

علاقة الإنسان بالله		علاقة الإنسان بنفسه		علاقة الإنسان بمحيطه	
وصايا	محاذير	وصايا	محاذير	وصايا	محاذير
الإخلاص في كلِّ العبادات والطَّاعات تلاوة القرآن.		الزّهد	التعلُّق بالدُّنيا.	الإحسان إلى الجيران والمماليك والأصحاب، التأدّب مع سائر الخلق.	التهاون بشيء من الآداب.

يتبيَّن من خلال هذا التَّوزيع أنّ هناك تنوّع كبير في المواضيع التي أراد الشيخ عبد السلام الأسمر أن يتطرَّق إليها في رسائله إلى المريدين، وقد فصَّل في ذلك تفصيلًا دقيقًا في متون هذه الرَّسائل، وهو يلحُّ على أهمية الالتزام بما جاء في هذه الرَّسائل من وصايا وأهميَّة اتباعها والعمل بها، وتجنُّب المحاذير التي تقوِّضها، لا سيَّما وأنَّها تندرج ضمن

إطار قيمي إنساني يرتقي بالإنسان إلى مراتب التفضيل والتكريم الإلهي، وفق نسق تفاعلي بين أضلع مثلّث علاقة الإنسان بربِّه وعلاقته بنفسه وعلاقته بمحيطه.

خاتمة:

إذا تعمَّقت في تتبُّع رسائل الإمام الأسمر ستطالعك مباحث في العقيدة وأركانها بشيء من الدقَّة والتَّفصيل واعتماد مرجع وأدلّة من القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة يسعى من خلالها إلى بيان حقيقة هذه العقيدة وضرورة فهمها وتبنِّيها. كما تجد مباحث في فقه العبادات مبسَّطة ليفهمها المريد المتعلّم وغير المتعلّم، مؤيّدة بآيات القرآن وأحاديث السنَّة النبويَّة. ومباحث في التربية الأخلاقية وتهذيب النّفس. ومباحث في المحافظة على البناء الاجتماعي والعلاقات بين النّاس في جميع مقاماتهم من الأسرة إلى المجتمع، ضمن نسق يشهد لحضور البعد الإنساني المحاط بمعاني القيم والفضائل. وإن بدا في ذلك شيء من الترف المعرفي فإنَّه ينمُّ عن تنعُّم وترفُّه معرفي لدى الإمام أراد أن يشاركه مع مريديه من منطلق مشروع إصلاحي يبتغي النّهوض بالأمة، وبالإنسان بصفة عامّة. فكانت رسائله فيضًا من الفيوضات التي حباه الله تعالى بها أرسلها إلى أناس معيَّنين يقيمون في أماكن محدَّدة، لينطلقوا في تدبُّرها والعمل بها ثمَّ يفيضون بما فيها من وصايا على النَّاس. ولذلك كانت رسائله إلى مريديه منتظمة وفق قواعد الترسُّل كما عرفه التراث الأدبي والعلمي. ففي مستوى الشّكل تميزت رسائل الإمام الأسمر بانتظام يراعي مواصفات التراسل، من حيث الافتتاح بالبسملة والحمدلة والصَّلاة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، ثمَّ ذكر اسمه كمُرسِل، وذكر المُرسَل إليه، ومكان إقامته. وفي مستوى المضمون اعتمد أسلوبًا تعليميًّا فيه أوامر ونواهٍ وإرشاد وتحفيز، وتنوُّع الموضوعات التي تمتدُّ إلى جميع أبعاد الإنسان الرّوحية والنّفسية والوجدانية والجسدية والعلائقية الاجتماعية، وكان في كلِّ ذلك يذكِّر ويوصي ويؤصِّل ويستدلُّ بالقرآن الكريم وبالسنَّة النبوية الشريفة وبآراء معلِّميه وشيوخه. ورغم أنَّ هذه الرَّسائل موجَّهة إلى مريدين مختلفين من أماكن مختلفة، ويتفاوت عددهم من رسالة إلى أخرى، فإنَّ الجامع بينها أنَّها تعود إلى كتاب «الوصيَّة الكبرى»، وأنَّها تدور في مجملها حول القيم الإنسانية الثابتة، لا سيَّما قيمة الإخلاص، وقيمة العدل والإحسان، وقيمة العلم والتعلُّم، وقيمة المغفرة، وقيمة الصبر، على اعتبار أنَّها ثوابت مشتركة بين النَّاس تتعلَّق بها قيم أخرى تتنوَّع وتختلف باختلاف الزمان والمكان والإنسان.

ورغم محاولة هذه الورقة البحثية النبش بين رسائل الإمام الأسمر عن معاني القيم الإنسانية، وتمكُّنها من رصد بعضها، إلَّا أنَّها لا يمكن أن تدَّعي بأي حال أنَّها أحاطت بهذه القيم، ولذلك يبقى موضوع القيم عند الإمام الأسمر من المواضيع المتاحة لمزيد البحث والتعمُّق ضمن سياقات وأطر علمية رصينة تفي بالغرض.




الأبعاد الإنسانية
في المشروع الإصلاحي للإمام عبد السلام الأسمر
قراءة في مكانة المرأة والشباب كبعد اجتماعي إنساني

أ. العرباوي عمر
جامعة مصطفى إسطنبولي بمعسكر - الجزائر

ملخص:

لقد شكلت تجربة الإمام عبد السلام الأسمر الإصلاحية والتجديدية فضاء خصبًا لتجديد الخطاب الإسلامي امتدت تأثيراته إلى واقع مجتمعاتنا العربية والإسلامية اليوم، فقد تجاوز خطابه البعد المحلي إلى البعد المغربي والعربي والإفريقي، ليشمل العالم الإسلامي ككل، مستفيدًا من الرسالة الإنسانية للفكر والموروث الصوفي الذي تأسس عند الرجل منذ خمسة قرون، حيث ما زال يصلح كمنهج تربوي وتعليمي وتنويري لأفراد مجتمعاتنا المعاصرة اليوم.

لقد عالج الإمام الأسمر القضايا والمشكلات الاجتماعية، ومن ضمنها قضايا الأسرة والشباب ومكانة المرأة وَفْقَ رؤية شاملة، تتجاوز البعد المكاني والزماني بشكل يتخطى الأجيال والفئات والمجتمعات، حيث ركز في رسائله ووصاياه وخطاباته الموجَّهة لشريحة الشباب ناصحًا لهم بضرورة اختيار الزوجة، بل وتحديد مواصفاتها، وتكثيف نصائحه حول إشاعة ثقافة الأسرة المتوازنة، فالأصل هنا هو بناء الأسرة السليمة.

وأحدُ تمظهرات البعد الاجتماعي والإنساني في مشروع الإمام الأسمر - اهتمامه بمكانة المرأة في المجتمع، فهي حاضرة بشكل قوي وكثيف في وصاياه ورسائله، حيث

يحدد علاقتها بالمحيط المجتمعي، وحقها في التعلم والعلم والعمل، مع تعزيز الوعي الأخلاقي في رسائله ووصاياه، حيث نجد الحرص على ترقية وتطوير وتفعيل الثقافة الصحية الأسرية، ونجده يتابع بدقة الأمراض والبيئة المتفشية في عصره، ويساهم في وضع الحلول لها، وإن كانت في أقطار بعيدة فهو في النهاية يؤسس لمعالجة واقع العلاقات الأسرية اليوم.

يتعاطى الإمام الأسمر مع القضايا والمشكلات الاجتماعية باعتبارها قضايا مجتمعية عامة وإنسانية، كل هذا جعل المشروع الأسمري الإصلاحي قادرًا على خلق خطاب إصلاحي تنويري، هدفه بعث الحياة في الأمة الإسلامية ويظهر أثر الإمام في عصره ومن بعده.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الفكر الأسمري، التجربة الصوفية، المرأة، الشباب، الأسرة.

مقدمة:

لقد استطاع الإمام عبد السلام الأسمر (880هـ - 1475م/ 981هـ - 1573م) من خلال تجربته الصوفية الرائدة، خلق مدرسة فقهية دينية دعوية وتربوية ثقافية واجتماعية، تجاوزت القطر الليبي وفضاء الصحراء الضيق إلى رحاب العالم العربي والإسلامي مشرقًا ومغربًا، تمثَّلت في ذلك الكم الضخم من الرسائل والوصايا والتي تشكل المصادر والمؤلفات والتراجم التي خطها بقلمه، إضافة إلى مئات وآلاف التلاميذ والطلبة والمريدين والمتأثرين بفكره وخطابه ومشروعه التنويري.

إن التركيز على المضمون الديني والاجتماعي في مجموعة رسائل الإمام الأسمر ووصاياه التي تركها الإمام - يكشف عن مكانة وجوهرية الأسرة والعائلة والمرأة والشباب في البناء الاجتماعي السليم في المجتمع المسلم؟ وتكون أهمية تناول هذا الجانب في بيان البعد الإنساني في شخصية الإمام الأسمر، كأحد الشخصيات الإسلامية الصوفية

الليبية الرائدة، وكذلك للتنبيه على تراثه الخصب لمقاربات حضارية وتربوية واجتماعية وإنسانية متجددة تثري التراث الفكري العالمي.

سيرة ومسيرة الإمام عبد السلام الأسمر

تؤكد التراجم التي تحدثت عن نسب ومولد الشيخ الإمام الأسمر، انتماءه إلى سلالة شريفة من نسل الإمام الحسن السبط ابن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه، فهو فيتوريٌّ يرتفع نسبه إلى إدريس الأكبر مؤسس الدولة الإدريسية في بلاد المغرب، وهذا أول ملامح عمق الجانب الاجتماعي في حياته وأثره في الدفع به نحو ضرورة التحلِّي والتخلُّق بأخلاق وصفات بيت النُّبوَّة، خاصة وأن تفاصيل سيرة أجداده الفواتير، وقبله الأدارسة، تحمل في طياتها معاناة وظروف التهجير من أجل بناء المشاريع الإصلاحية.

وإذا أضفنا لشرف النسب والأصول، الجانب الصوفي الذي عُرف به أجداده الفواتير، ومن ثم أسرته المكونة من والده السيد سليم الفيتوري، وأمه السيدة سليمة الدرعية وعمه السيد أحمد الفيتوري، تزداد متانة ووثاقة عوامل تشكل شخصيته وبنائها على صفات وسمات المنهج الصوفي الإصلاحي والأصول الاجتماعية الشريفة.

وللنافذ لقراءة شخصيته شابًّا، لا بد من التعريج على شخصية والدته السيدة سليمة، لمعرفة مكانة المرأة في حياته، فعلاقته بها تتجاوز علاقة رعاية أم لولدها، وتبدأ من طريقة اختيارها زوجة لوالده، حيث تشير المصادر إلى أن والدها السيد عبد الرحمن الدرعي المغربي رفض تزويجَها إلا لشريف من الأشراف، كما تروي المصادر أنَّ والده السيد سليم الفيتوري كثيرًا ما كان يُنصح بالزواج، فيجيب: «حتى تولد أم عبد السلام»، وهو نص مهم يفيد بأن لوالده معايير خاصة في زوجته التي أراد أن يقترن بها حتى تنجب له ولده الذي سماه قبل أن يعثر عليها. ودون شك فقد تأسست والدته على أسس متينة على يد والدها الذي يوصف بأنه عالم وصوفي مغربي.

وفي كل الأحوال التقى السيد سليم بالسيد الدرعي، عندما كان الأخير في طريقه إلى الحج مارًّا بليبيا، وخطب بنته وتزوجها، لتنجب له الإمام الأسمر. وباعتبار غياب

والده بشكل مبكر من حياته، إذ توفي والده وكان عمره سنتين وشهرين، فقد تلقى الرعاية الأكبر على يد والدته، لكنها بكل تأكيد كانت رعاية مختلفة، فبالإضافة لحصولها على كم لا بأس به من التعليم على يد والدها، فهي أيضًا «سيدة فاضلة جليلة كيسة تصوم من السنة الأيام الكثيرة وتتلو جزءًا من القرآن»، وهي صفات وسمات لا بد وأنها كانت ذات أثر أساسي في تنشئته نشأة مختلفة تأسست على معرفته للقرآن الكريم بشكل مبكر في حياته، كما أنه ولا بد تدرب على يديها في العبادات كالصوم وقيام الليل.

ويضاف إلى ما سبق أن تلقَّى رعاية خاصة بعد وفاة أبيه من عمه السيد أحمد الفيتوري الذي «كان يحبُّه وينصحه، ويلبسه الثياب الجميلة، ووضعه بالمكتب يتعلم كتاب الله، فحفظه على أحسن حال من ضبط وتجويد بالكيفية التي نص عليها السلف الصالح»، كما أن عمه علمه «النحو والفقه والمنطق والتوحيد». ولنا أن نرسم صورة أولية عن شاب تربى في أحضان زوجة تم اختيارها بعناية، وتتوفر على معايير مختلفة عن بقية الأمهات، ثم تأسس وفقًا لتدرج تعليمي رصين وقوي بدءًا من حفظ القرآن الكريم لدرجة التمهر فيه، ثم الفقه والتوحيد اللازمين كأرضية لتُكوَّن شخصيته، مضاف إليها أهم علمين وهما النحو والمنطق اللازمان في عملية التكوين لصلاح اللغة والتفكير.

طبيعة المشروع الإصلاحي للإمام الأسمر

يتبين من خلال التمعن في تفاصيل سيرة ومشوار حياة الإمام الأسمر، أنه استطاع أن يجعل تجربته الدينية الصوفية الشعبية ثرية وغنية في أشعارها ونصوصها الصوفية، وفي لغتها البسيطة والمباشرة، ما جعلها قريبة من سمع ووعي المتلقي كتلميذ أو كطالب أو كمريد. وكل هذه العوامل كانت سببًا في تعلق العامة والخاصة به، خاصة وأن تلك اللغة والبساطة في الطرح ناسبت مستويات التلقي لا في زمنه فقط، بل في الأزمان والفترات اللاحقة، فشكل ذلك عاملًا لاستمرارية دور وتأثير زاويته العامرة إلى اليوم. ومن المهم أن نبرز جانبًا آخر يتعلق بقدرة خطابات الإمام الأسمر وأفكاره الصوفية الدينية والتربوية والتعليمية والتثقيفية على تقديم فهم حقيقي للقضايا الفقهية والعقائدية الإسلامية، خاصة في تلك الفترة العصيبة من تاريخ الأمة الإسلامية المتسمة بالتقهقر

والانحراف والضعف والصراعات وتغول الشبهات والسلوكيات الضارة بالتصوف، لتسهم تجربته في تقديم علاجات وحلول لمختلف القضايا والمشكلات التي كانت تواجه الفرد المسلم والجماعة المسلمة، إما داخل المجتمع الليبي أو خارجه في المغرب الإسلامي والعالم الإسلامي ككل.

ويتأكد أن التجربة الصوفية الأسمرية فريدة من نوعها ومتميزة، بالشكل الذي جعلها تخرج من المجال الديني العقائدي الصوفي، المحصور في مؤسسة الزاوية الضيق، وفي البيئة الصحراوية المغلقة إلى مجال جغرافي أوسع في ليبيا والمغرب الإسلامي وأفريقيا والعالم العربي والإسلامي.

هذا التفرد والتميز يتضح أكثر عندما نغوص بشكل عميق ومتبصِّر في تلك الآثار التي تركها الشيخ الإمام الأسمر من أوراد وأشعار صوفية ورسائل ووصايا، حيث نجد ذلك الكم الهائل من المعالجات الحكيمة والمتبصرة لأمهات القضايا التي تواجه المجتمع الليبي المحلي والمجتمع الإسلامي في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، فمعالجة الجوانب المجتمعيَّة غير الصحية والمضطربة في المجالات السالفة الذكر في عالمنا الإسلامي كانت جزءًا أصيلًا في المشروع الفكري الإصلاحي الأسمري، ومن بينها في مستوى الإصلاحي الاجتماعي، عنايته بقضايا تربية وتنشئة الطفل وتعليمه، وتعزيز الثقافة الدينية والصوفية عند الشباب المسلم، وهو أمر مرتبط بضرورة بالاهتمام بالمرأة وتعليمها وتعزيز دورها الأسري والديني، والحرص على دورها في بناء الأسرة المسلمة الفاعلة والمؤثرة؛ لذلك حرص على أن يكون الطفل والشباب والمرأة جزءًا أصيلًا في تلك التوجيهات التنويرية والتعليمية والتربوية التي تضمنتها رؤيته في الإصلاح الديني والاجتماعي، والذي يؤدي إلى تخليص عالمنا العربي والإسلامي من حالة الانحطاط والجمود.

الأبعاد الإنسانية في المشروع الإصلاحي للإمام الأسمري

عند الاطلاع على فكر الإمام الأسمر نلمس بعمق المحدَّدات النظريَّة والمنهجيَّة التي يقوم عليها مشروعه الإصلاحي في بعده الاجتماعي، حيث نجده حريصًا على تنشئة

الأفراد الصالحين، ومن ثم نقلهم إلى أفراد مصلحين أي منتجين وفاعلين، يوائم في ذلك بين التغيير المتدرج لظرفية وأسباب وزمان ومكان الصالح في سيره والتغيير المتعالي عن مؤثرات زمان ومكان المصلح، بتحميله مسؤولية البناء والتوجيه والرعاية المجتمعية في آفاقها الإنسانية والكونية، وهنا هو يركز على التربية والأسرة والمرأة.

1 - مكانة الأسرة في بناء المجتمع المتكامل:

لقد جاء في «الوصية الكبرى» للإمام الأسمر ما يشير إلى الحاجة إلى بناء الأسرة المسلمة السليمة، وذلك ببناء العلاقات الزوجية السوية من خلال إعداد المرأة بنتًا وزوجةً وأمًّا، ومنه نصيحته الى النساء في قوله: «وأما النساء العروسيات فبلغوهن مني السلام مع أزواجهن وإخوانهن وآبائهن وأبنائهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ونحوهم، وقولوا لهن: قال لكم الفقير عبد السلام بن سليم الاسمر الفيتوري الحازمي اليزليتني: غضوا أبصاركن عن جميع المحارم، وكفوا أسماعكن عن جميع المآثم، واحفظوا فروجكن ما استطعتن، واجتنبوا جميع الجرائم، وأطيعوا أزواجكم».

كما أكد على بر الوالدين والإحسان لهم قائلًا: «وعليكم ببر الوالدين، وأحسنوا لهم، ولا تنهروا في وجوههم؛ لأن الله ﷻ قرن اسمه باسمهما»، وفي موضع آخر قال: «إخواني، فعليكم ببر الوالدين وقلة العقوق لهم، قال ﷺ: من أصبح وأمسى ووالده راضيان عنه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة، ومن أصبح وأمسى ووالداه ساخطان عليه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار».

لقد حرص الإمام الأسمر على الاهتمام بعلاقات الأخوة، ونظمها داخل العائلة والأسرة في العديد من المواضع في نصائحه ووصاياه، ومنه قوله: «إخواني، فاعرفوا قيمة الأخوة وقيمة المعرفة، ولا تتحايلوا على نفقات عيالكم الأقربين، ولا تتجادلوا بالنفوس القوية، ولا تتعصبوا بالحمية الجاهلية، ولا تستهزئوا على أحد من جميع الخلق».

وفي توجيهاته إلى بناء الفرد الأسرة المتكاملة تظهر بوضوح معالم المصلح الاجتماعي، فتراه بحرص على مبادئ وأخلاقيات زيارة المساكن ودخوله والتجسس على قاطنيها، ولذا شدد في بعض نصائحه إلى مريديه قائلًا: «إخواني، لا يجوز لكم أن تدخلوا بيوت الناس مطلقًا من غير مشورة أهلها إلا أن يأمروكم بالدخول، إخواني، أيها

الطائفة العروسيَّة، لا يحل لأحد أن يدخل بيوتًا من غير إذن ساكنها وأوليائها وأربابها ومواليها، قال المشايخ: إلا دار القاضي ونحوها».

كما أنه أولى أهمية للعلاقة بين الجيران، فأعطاها المكانة التي تستحقها، ذلك من روابط الجيرة القوية والسليمة تعزز الروابط الاجتماعية في الجماعة المسلمة، وتعود بالنفع على المجتمع المسلم في تكاتفه وتآزره واستمراريته، وفي ذلك قال: «إخواني، وعليكم بحفظ الجيران والإحسان إليهم، وإن كان عندهم شيء من الحوائج في الأسواق من بيع أو شراء ونحو ذلك، وخافوا على أنفسهم من الغرباء أو الظَّلَمَة أو الجبابرة فاقضوا حوائجهم... ومن مرض منهم فزوروه، ولا تؤاخذوهم إلا إذا أساءوا معكم الآداب، واسمحوا لهم»٠

2 - مكانة المرأة في فكر الإمام الأسمر:

واهتمامه بالمرأة هو أحد مظاهر البعد الاجتماعي والإنساني في مشروعه، فقد اهتم بتعزيز مكانتها في المجتمع من خلال حضورها القوي والكثيف في وصاياه ورسائله، وأول ما يحثُّه عليه ضرورة كفالة حقها في التعلم والعلم، فيحثُّ مريديه على ضرورة تعليم أزواجهم وبناتهم القرآن الكريم والكتابة ومعرفة تعاليم دينهم، فيقول: «إخواني، وعليكم بتعليم أولادكم ومماليككم القرآن والكتابة وعقائد الإيمان والفرائض والسنن المؤكَّدات والفضائل والمندوبات والأعمال الصالحات، وعلموهم التحذير من المحرمات والمكروهات، فإن لهم عليكم حقًّا»، كما أنه يهتم بشكل كبير بقضايا تفصيلية في حياة النساء خاصة، والأسرة عامة، كقضية النظافة، بل ويؤصلها للتشديد على ضرورتها، فيقول: «إخواني، وعلموا أزواجكم وبناتكم وخدامكم فرائض الغسل وفرائض الوضوء»، وهو أمر يفضي بنا إلى الإشارة إلى عنايته بقضية الثقافة الصحية الأسرية، حيث نجده في رسالته إلى أتباعه في تونس يتابع بدقة الأمراض والبيئة المتفشية في عصره، ويساهم في وضع الحلول لها، وإن كانت في أقطار بعيدة، وهو في النهاية يؤسس لحاجة لمعالجة واقع العلاقات الأسرية اليوم.

ويبدو أن مكانة المرأة لدى الإمام الأسمر بلغت مستوى إلى حد ممارسها للحياة الصوفية، فكما ينبه العلامة الشيخ أحمد القطعاني أن للنساء حلقات صوفية عروسية

خاصة بهن، لكن تلك المكانة منضبطة عند الإمام الأسمر، فحديثه عن حلقات النساء الصوفية، جاء في سياق تحذيره من اختلاط الرجال بهن، فقال: «فخذوا حذركم من النسوان ومخالطتهن، والنظر إليهن والتلذذ بكلامهن، والذكر معهن من أكبر الفتنة».

3 - مكانة الشباب في فكر الإمام عبد السلام الأسمر:

لقد عالج الإمام الأسمر عديد القضايا والمشكلات الاجتماعية وَفْقَ رؤية دعوية إسلامية وسطية أشعرية، تهدف إلى إصلاح الفرد والجماعة، وعلى مستوى الفرد حرص على توجيهه عقائديًّا وروحيًّا واجتماعيًّا بما يوفر له النجاح في علاقته بربه، ويعزز علاقاته الاجتماعية والإنسانية في محيطه الأسري والاجتماعي، فشكلت قضية بناء الفرد المسلم جزءًا أصيلًا من هذه الرؤية، خاصة وأن تربية الأبناء وإعداد الشباب المسلم أمر يتجاوز البعد المكاني والزماني بشكل يتخطى الأجيال والفئات والمجتمعات.

وفي نصوص رسائله ووصاياه وخطاباته الموجهة لشريحة الشباب شدَّدَ على ضرورة التزامهم بالأدب والأخلاق في كل حال، فقال: «وعليكم بالأدب مع الله، ومع رسوله، ومشايخكم، وجميع الخلق من بار وفاجر»، كما ألزم مريديه بالحاجة إلى تثمين علاقة الشباب بالله وتعاليم دينه، فهو يحرص على مسألة التوحيد والتمكين للعقيدة الصحيحة في قلوب وعقول الشباب بقوله: «عليكم بالتوحيد وحفظ العلوم واتباع السنة والقرآن، وعليكم بتعليم أولادكم وأزواجكم ومماليككم عقائد الإيمان، فمن لم يعرف العقائد فليس بعارف».

ومقابل هذا الحثِّ، نبه شريحة الشباب على ما يقابل ذلك من محبطات وسلوكيات محبطة لعملية البناء، فحذَّرهم من المحرمات من زنًا وشرب الخمر والمُسكِرَات وغيرها، لا بل وحذرهم من سلبيات أخرى قد تكون مقدمة لغيرها من السلوكيات المهلكة، فمثلًا قد حرم استهلاك الدخان في قوله: «إخواني، وإياكم وشرب الدخان، ليس منا من شرب الدخان من فم أو أنف، وهو عشبة منتنة الرائحة خسيسة، فلا تقربوها ولا تشربوها ولو أباحها الشرع».

ولا يجب أن نغفل النظر عن الأبعاد الاجتماعية في بناء الشباب، وذلك بتعزيز الملكات الأخلاقية والتربوية والاجتماعية والاتصالية عند الشباب في جانب تعزيز وتثمين الجانب الأخلاقي عندهم، فالتزام الأدب والأخلاق ومعاملة الفقراء والمحتاجين

ومساعدتهم والاهتمام بأمور العشيرة والأهل والجيرة والجيران، والدفاع عن الأرض والعرض والدين - مسؤوليةٌ لا يقدر عليها إلا من خضع للإعداد الديني والروحي والتربوي والاجتماعي السليم.

وبالقدر نفسه يوجه الإمام الأسمر مريديه وخاصة الشباب منهم إلى ضرورة الزواج وبناء الأسرة، من خلال التأكيد على ضمان توفير الشروط التي تعزز العلاقات الزوجية والأسرية وفق الاحترام والمودة والألفة، فكان يقف على بعض الشؤون والممارسات البسيطة والتي لها شأن عظيم ومؤثر في استمرارية الحياة الزوجية والأسرية، فمثلًا حرصه على وجوب إنفاق الرجل على زوجته وأبنائه، أكثر من ذلك فقد أوجب على الزوج أن يهدي زوجته هدية بمناسبة أو بدون مناسبة.

خاتمة:

لقد شكَّلت المحاولات البحثية الأكاديمية في ليبيا والوطن العربي والإسلامي الهادفة إلى إعادة قراءة التراث الفكري للإمام الأسمر، وفق رؤية حداثية معاصرة باعتباره العالم الرباني والمصلح الاجتماعي والمعلم النوراني، الحاجة إلى ضرورة إعادة قراءة مواقف وأفكار ومناقب وآثار هذا الرجل، هذه القراءة الجديدة التي تؤسس لمقاربات نظرية ومنهجية تأخذ في الحسبان إمكانية استثمار هذا التراث الأسمري الغزير في مجالات متعددة تتجاوز حدود التصوف الطرقي المنغلق، ليتحول السلوك الصوفي إلى ممارسة حداثية ضمن الأخلاقيات والسلوكات اليومية للفرد المسلم، وبشكل لا يتعارض مع المسؤوليات والواجبات التي يفرضها واقعنا المتغير والمتأزم اليوم.

لقد كانت تجربة الإمام الأسمر غنية وثرية وفريدة من نوعها، فقد نشأت في حقبة مضطربة من تاريخ الأمة الإسلامية، مَيَّزَهَا تفككُ الدولة والخلافة الإسلامية وبداية ضعف تأثير المسلمين في السياسة والاقتصاد وفي المعرفة والفكر.

وفي هذه الورقة البحثية حاولنا إبراز إسهامات الإمام الأسمر في مجالات نشر العقيدة الأشعرية الإسلامية الصحيحة، وتعزيز السلوك الصوفي الوسطي الحضاري، بحيث يمكن أن يصبح سلوكًا يوميًّا للفرد المسلم يعزز علاقته الروحية بخالقه وعلاقاته الاجتماعية والإنسانية بشكل لا يتعارضان، فوقفنا على إسهاماته وقدرة فكره على الخوض

في فهم وتفسير سبل معالجة وفهم أمهات القضايا الاجتماعية عند الفرد والجماعة، حيث إنه بالتركيز على المشكلات الاجتماعية نجده حرص على بناء الأسرة المسلمة وتأسيسها وَفْقَ تعاليم الدين الإسلامي وتعزيز المحبة بين أفرادها والتأكيد على جوهرية العلاقة بين الأبناء والآباء (بر الوالدين)، كما أولى اهتمامًا بتعزيز العلاقات الاجتماعية بين الجيران في جو من الاحترام بالعفو عند المقدرة وعدم ولوج البيوت إلا بإذن من أهلها وقاطنيها، وهو بذلك يعزز بناء الأسرة والمجتمع.




إستراتيجيات بناء الأسرة المتوازنة عند الشيخ عبد السلام الأسمر من خلال رسائله ووصاياه

د. محمد عويس عبد الرحيم محمود

أستاذ الدراسات الإسلامية

بالجامعة الإسلامية العالمية للدراسات الشرعية - مصر

ملخص:

من يتدبرْ سيرة الشيخ عبد السلام الأسمر ومراحل حياته، يدركْ أنه أمام شخصية إصلاحية متكاملة، استطاع بما آتاه الله من علم وفقه ودراية وخبرة واسعة في الحياة أن يُقدِّم للأمة مشروعًا إصلاحيًّا متكاملًا شمل جميع مناحي الحياة: سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية، برزت أصداؤه ونجاحاته إبَّان عصره وما تلاه من عصور.

كما تُعدُّ جهود الإمام عبد السلام الأسمر في بناء منظومة الأسرة المتوازنة واضحةً جليةً من خلال مشروعه الإصلاحي المستنير، وآرائه الثاقبة في شتي مناحي الحياة: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والعلمية.

وهذه المقالة تحاول إلقاء الضوء على إستراتيجيات بناء الأسرة المتوازنة عند الإمام الأسمر المستلهمة من خلال رسائله ووصاياه المباركة، وقد اخترتُ عينةً من تلك الإستراتيجيات للتركيز عليها في حدود مساحة البحث، وهي: الحثُّ على حسن اختيار الزوجة وبيان مواصفاتها، والحثُّ على التثقيف الأسري، وكذا الاهتمام بالتثقيف الصحي للأسرة والمجتمع، وأخيرًا بثُّ روح الود والبهجة بين الزوجين.

الكلمات المفتاحية:

الإمام الأسمر، إستراتيجيات، بناء، الأسرة، المتوازنة.

مقدمة:

إن المتتبع للإطار العام، السياسي والاجتماعي والديني، في القرن العاشر الهجري، وهو القرن الذي عاش فيه الإمام الأسمر، ليجد أن ليبيا في هذه الفترة لم تنعم بالاستقرار، فقد عاشت فترات من الغزو الصليبي على يد الإسبان وفرسان القديس يوحنا بين عامي 1510م و1551م، ثم لَحِقَتْهَا فترةٌ أخرى كان فيها الحكم بيد العثمانيين، واختلفت أوضاع البلاد باختلاف سياسات تعاملهم معها، فبعضهم عرض بالعدل والحكمة كدَرْغُوث باشا ومُرَاد آغا، وغيرهم انتهج سياسة الظلم والطغيان، ونتج عن تلك الأحوال فترات من التغير وعدم الاستقرار في جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعلمية.

ويهمُّنا في الإطار العام للعصر الذي عاش فيه الإمام الأسمر، الجانب الاجتماعي؛ لارتباطه بموضوع الورقة، والواقع أنه جانب يتأثر سلبًا وإيجابًا بمختلف العوامل السياسية والاقتصادية والثقافية، ففي فترة الاستقرار السياسي التي طبعت الفترة الأخيرة من عهود الحكم الحفصي، عاشت البلاد رواجًا اقتصاديًّا كبيرًا، وازدهرت فيها التجارة، لكن ذلك فيما يبدو كان له تداعياته على وعي أهل البلاد بأهمية بناء قدراتهم الحربية للدفاع عن بلادهم، وهو يصف تقرير التجار الإسبان الذين زاروا طرابلس، وأبلغوا أميرهم فيرديناد بقولهم: «ما رأينا بلدًا أكثر منها مالًا، وأقل سلاحًا وأعجز أهلًا عن مدافعة العدو»، ومثل هذا السبب وغيره من الأسباب هي التي دفعت بالإسبان لغزو البلاد واحتلالها. وبعيدًا عن تحليل تلك الأسباب والإسهاب في الجانب السياسي والاقتصادي، يكفي أن نشير إلى آثار هذا الغزو من خلال الصورة التي نقلتها المصادر، والتي تتحدث عن كثرة القتلى في صفوف أهل المدينة في أولى أيام الغزو الأسباني، إلى حد وصفها بأنه: «لا يوجد موطئ لقدم إلا فوق الجثث، ويقدر عدد القتلى بين العرب بخمسة آلاف، أما الأسرى فهم أكثر من ستة آلاف»، ما اضطر أهل المدينة إلى الهجرة والنزوح منها إلى المناطق المجاورة والبعيدة. ولم يقتصر الأمر على طرابلس حاضرة البلاد، بل طالت الآثار كل المناطق المجاورة والبعيدة؛ بسبب التضييق الاقتصادي والمجتمعي، وكل هذا كان له أثر

على وحدة البناء الاجتماعي، فلحقت بالقبائل والعشائر خلخلة في تركيباتها، وبكل تأكيد كان الأثر الأكبر قد تعرضت له أصغر الوحدات الاجتماعية، ونعني بها الأسرة.

ومن المهم أن نشير إلى أهمية الدين في البناء المجتمعي، في مختلف الأقطار الإسلامية، لكن في ليبيا تحديدًا فالوضع مختلف، فهي من بين الأقطار الإسلامية المعدودة التي لا يوجد بها أقليات تدين بديانات أخرى غير الإسلام، باستثناء أقلية يهودية لا يبدو أن لها نشاطًا دينيًّا يمكن أن يخلخل الوحدة المجتمعية. وفي هذا الجانب يجب أن نشير إلى أن فرسان القديس يوحنا الذين تسلموا طرابلس من الإسبان، هم منظمة صليبية متطرفة، كان التنصير هدفهم، ولذا عمدوا إلى بناء الكنائس ونشرها، ما شكل تهديدًا حقيقيًّا للبناء المجتمعي في البلاد في القرن العاشر الهجري.

ونجد أن الإمام الأسمر، من أبرز الشخصيات التي وعت لأهمية تعزيز العامل الديني في البلاد، وأهمية الحفاظ على العقيدة الإسلامية، ضمن الخطط والإستراتيجيات في مشروعه الإصلاحي، فينبهنا العلامة الشيخ أحمد القطعاني إلى أمر غاية في الأهمية، ويتعلق بوسائل الإمام الأسمر في مقاومة التنصير وإحياء الانتماء للدين الإسلامي وتعزيز الهُويَّة الوطنية، وأهم تلك الوسائل «الحضرة» التي زاوج فيها بين استخدام الأشعار والموسيقى. فبثاقب عقله وفكره تنبه الإمام الأسمر إلى أن أهمية تعزيز العقيدة الإسلامية وإحياء روح الانتماء إليها، فقام «لوحده بمسح طبوغرافي شامل يحتاج لجانًا أكاديمية متخصصة ومؤسسات وأطنانًا من المراجع والوثائق وزمنًا من التدوين، لقد وثق أسماء العلماء والمتصوفين وذوي الصلاح الليبيين وحفظ هذه الأعلام في ذاكرة الأمة»، ويعلل العلامة القطعاني ذلك بقوله: «إن بلدًا تخلو ذاكرته من أعلام يدون تراجمهم ويعتز بمآثرهم يعاني نقصًا حضاريًّا شديدًا وخللًا في تركيبته الوجودية هامًّا»، ولذا «اضطلع الشيخ عبد السلام الأسمر في عصره بهذه المهمة الخطيرة في بلادنا»، فنظم آلاف القصائد الشعرية التي ضمنها مئات الآلاف من أسماء أعلام الأمة الإسلامية بلغة عامية ميسورة الفهم، وينشدها باستخدام «الدف».

والنتيجة، كما يؤكد العلامة القطعاني، «وانتصر بندير سيدي عبد السلام الأسمر وقصائده وموسيقاه على ترانيم الكنيسة»، فقد رد على النشاط التنصيري في بناء الكنائس التي باتت ترانيمها الموسيقية وأناشيدها تثير الانتباه فتستميل البعض «بالأسلوب عينه، فيصوغ قيم الإسلام وعقائده وشريعته وأخلاقه وأعلامه في قوالب شعرية، بعضها

بالفصحى ليخاطب الأقلية المثقفة، وغالبها باللسان العامي ليخاطب المجتمع كله في مقطوعات موسيقية من تأليفه»[1].

كان ذلك ملمحًا من جهود الإمام الأسمر المتصلة بالجانب الاجتماعي، فتعزيز الشعور الديني والانتماء العقائدي من اللبنات الأساسية في البناء الأسري في فكره، وهو ما سنشهده في الأسطر اللاحقة.

الخلفية الاجتماعية للإمام الأسمر

تفصح المدوَّنة التاريخية التي اهتمت ببيان ترجمة وسيرة الإمام الأسمر[2] عن انتمائه للنسب الشريف، فهو ينحدر من عشيرة الفواتير الأدارسة الأشراف من آل بيت النبوة، وبالإضافة إلى ذلك فمن الواضح أن والده السيد سليم الفيتوري، ووالدته السيدة سليمة الدرعية، من الشخصيات الصوفية. وهو بُعدٌ مهم في توضيح الوسط الذي نشأ فيه الإمام الأسمر، إذ اجتمع فيه شرف النسب والتصوف لتتشكل شخصيته في وسط معتدل متوازن.

ويتجلَّى هذا البعد في تشكُّل شخصية الإمام الأسمر في انضمام عمِّه السيد أحمد الفيتوري لأسرته، فبعد وفاة والده السيد سليم، كما تفيد تراجم الإمام، كفله عمه السيد أحمد، وقام بتربيته وتعليمه وتوفير كل فرص وظروف العيش الكريم، وعوَّضه عن غياب والده، وهو ما قام بالإشراف على مواصلة دراسته وتنشئته الصوفية من بعد في زاوية أستاذ الكبير في التصوف، وهو الشيخ عبد الواحد الدوكالي.

ويبدو أنَّ ما مرَّ كافٍ للتعرُّف على المحيط الأسري الذي عاش وتربى فيه الإمام الأسمر، فقد توفر في أسرته كل المقومات الصالحة للتنشئة، من خلفية دينية صوفية، وقبلها نسب شريف كفيل بنقل كل الصفات والأخلاق النبوية عبر أجيال عمود نسبه، ثم قدرة أسرته على التخطيط والتفكير الهادف، لدفعه نحو مراحل تعليمية عليا في زاوية شيخه الدوكالي ما منحه تنوعًا في التجربة الكفيلة بصقل شخصيته وإعداده إعدادًا جيدًا.

وكون التصوف هو ما طبع حياة ومشروع الإمام الأسمر، فلا بد من التنبيه الى أن تصوفه كان قائمًا على مبادئ صوفية أصيلة، يمكن تلخيصها في الآتي:

1. اتباع الشريعة للوصول إلى الحقيقة.
2. التخلق بآداب وأخلاق الأنبياء والصالحين.

3. الإخلاص وترك العلائق والزهد في الدنيا.

4. مجاهدة النفس وترويضها وكبح جماحها.

وهي أمور برز صداها واضحًا في مصنفاته ومشروعه الإصلاحي المستنير، وتؤكِّد عمقَ تجربته الروحية، وسموَّ مقاصده وأهدافه الرامية إلى الإصلاح الاجتماعي المرتكز على مبادئ وقيم راسخة، تدعمها المنطلقات الشرعية للوحيين: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما كان عليه الصحابة والتابعون ومن ساروا على نهجهم.

مشروع الإمام الأسمر الإصلاحي (الأهداف والمقومات)

من يتدبر سيرة الإمام الأسمر ومراحل حياته يدرك أنه أمام شخصية إصلاحية متكاملة، استطاع بما آتاه الله من علم وفقه ودراية وخبرة واسعة في الحياة أن يقدم للأمة مشروعًا إصلاحيًّا متكاملًا شمل جميع مناحي الحياة: سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية، برزت أصداؤه ونجاحاته إبَّان عصره وما تلاه من عصور.

والمتتبع لمحاور هذا المشروع الإصلاحي المستنير يستطيع تلمُّس الأهداف التي كان يرمي إليها، ويبثها في نفوس أتباعه ومريديه، من خلال مصنفاته ورسائله وخطبه، ووصاياه، وحلقات الذكر، والتسبيح.

ويمكننا تلخيص هذه الأهداف من خلال النقاط التالية:

1. تنوير القلوب والعقول بما يبثه في نفوس الأتباع والمريدين من نورانيات وروحانيات وتجليات إيمانية وصوفية من شأنها أن ترتقي بالإنسان، وتسمو بروحه، وتنير قلبه وعقله، وتجعله راقيًا في أخلاقه وسلوكه ومعتقداته بما يحقق العمران البشري.

2. إصلاح الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للأمة؛ فقد كان الإمام الأسمر طامًحا إلى مجتمع إسلامي متكامل، يستمدُّ قوته من داخله.

3. بناء الفرد، وتعميق الوازع الديني والقيمي والأخلاقي بين جنبات المجتمع بما يحفظ سلوك الفرد من الانحراف والزلل.

4. بناء المؤسسات الاجتماعية، ولا سيما الأسرة، فقد كان ﵀ يدرك أن الأسرة هي حجر الزاوية في إقامة مشروعه الإصلاحي، ومن ثَمَّ أفرد لها مساحة كبيرة من مشروعه الإصلاحي المستنير.

ولتحقيق هذه الأهداف التي فطناها وغيرها مما لم تفطن إليه، بنى الإمام الأسمر ﵀ مشروعه الإصلاحي المتكامل المستنير على عدة مقومات، يمكننا رصدها فيما يلي:

1 - القرآن الكريم وعطاؤه الزاخر، فقد كانت لقاءاته بمريديه ورسائله ووصاياه عامرة بترديد الآيات القرآنية، وأضحت معينًا لا ينضب يستمد منه أسس البناء الحضاري والقيمي والأخلاقي لمشروعه الإصلاحي، ومن ثم اكتسب هذا المشروع قبولًا في عصره وما تلاه من عصور، واستطاع التأثير في نفوس الأتباع والمريدين، ولا غرو في ذلك؛ فالقرآن الكريم كتاب لا تنقضي عجائبه، ومن هُدي إليه فقد هُدي إلى الصراط المستقيم.

2 - السنة النبوية المطهرة؛ فلم يترك مقامًا ولا مجلسًا من مجالسه ولا رسالة من رسائله، ولا وصية من وصاياه، إلا وعطَّرها بذكر نصوص السنة النبوية، مستشهدًا بنصوصها وتوجيهاتها على ما يردده على مسامع وقلوب أتباعه ومريديه، ولعل هذا ما جعل العقول والقلوب تتلمَّس خطاه إلى يومنا هذا.

3 - الاقتداء بسير الصحابة والتابعين وأهل التصوف والصلاح ممن سبقه، فقد كان يُذكِّر أتباعه ومريديه بما كان عليه السابقون الأولون عن إيمان بالله وحبٍّ له سبحانه، واقتداءٍ بنبيه ورسوله ﷺ وبيان أحوال الصحابة والتابعين ومن تلاهم من الصالحين المصلحين، وهذا من شأنه أن يربِّيَ جيلًا بالقدوة الحسنة.

4 - الأخذ بآراء الفقهاء والأصوليين والعلماء الربانيين، والعمل بأقوالهم، وتلمُّس توجيهاتهم، للتنبيه أولًا على أن التصوف نتيجة العمل بشرائع الإسلام، وثانيًا لتنبيه الغافلين عن حقيقة عدم وجود صراع بين الفقه والتصوف، فهما متكاملان، فدرَّس المختصر، والرسالة، ومقدمة الإمام الأشعري في علم التوحيد، وغير ذلك من العلوم، بل كان يحفظ مطولات كتب الفقه كجامع الأمهات لابن حاجب ومعيار الونشريسي ومدخل ابن الحاج.

إستراتيجيات بناء الأسرة المتوازنة عند الإمام عبد السلام الأسمر

لقد أدرك الإمام الأسمر قيمة الأسرة وأهميتها في صلاح الفرد والمجتمع، ومن ثم أولاها عناية خاصة في مشروعه الإصلاحي المتكامل المنير، الذي تبناه في رسائله ووصاياه، وخطبه لأنصاره، ومريديه، وأتباعه.

والقارئ لوصاياه ورسائله بفهم وتدقيق، سيدرك أن الأسرة تمثل حجر الزاوية في مشروعه الإصلاحي المستنير، المرتكز على مقومات ثابتة من نصوص الوحيين: القرآن والسنة، وتزكية النفس وتطهيرها بالتربية الروحية، ومجاهدتها وكبح جماحها عن الأهواء والمعاصي. ومن خلال القراءة المتفحصة يمكن أن نقدم أهم الإستراتيجيات التي بنى عليها الإمام الأسمر رؤيته للأسرة المتوازنة، وأثرها في بلورة مشروعه الإصلاحي:

1 - الحث على حسن اختيار الزوجة وبيان مواصفاتها:

لقد تنبه الإمام الأسمر لهذا المقوِّم المهم في بناء الأسرة، فنوه إلى ضرورة حسن اختيار الزوجة كونها نواة للأسرة الصالحة، ولذا وجب البحث والتحري والتدقيق والتحقيق عن صفاتها وطباعها قبل البناء بها. وهو ما بينه في أكثر من موضع، ومنها قوله: «إخواني: اختاروا لأنفسكم وأولادكم الزوجات الطيبات ذوات الحسب والنسب، وإياكم، وتزويج الشهبرة، واللهبرة، والنهبرة، والهيدرة، واللفوتة. أما الشهبرة: فالزرقاء، وأما اللهبرة فالطويلة الهزيلة. وأما النهبرة: فالعجوز المدبرة، وأما الهيدرة: فالقصيرة القبيحة. وأما اللفوتة: فذات الولد من غيرك. وعليكم بذات الأعراق؛ فإنها تلد مثل أبيها وعمها وأخيها. وإياكم وخضراء الدمن، فإنها تلد مثل أصلها. وخضراء الدمن هي امرأة أمها قبيحة الفعل والنسب يعبر عنها أنها: مثل شجرة تنبت في مزبلة».

2 - الحث على التثقيف الأسري:

وحتى يضمن الشيخ عبد السلام السعادة والاستقرار للأسرة، حثَّ أنصاره ومريديه على الثقافة الأسرية السليمة؛ لأنه يؤمن أن صلاح الأسرة واستقرارها صلاح للأمة كلها. فحذر أتباعه من هتك ستر بيوتهم، وإبراز حرماته، فقال: «وإياكم ثم إياكم: أن تذكروا حال الزوجة في فراشها؛ إذ هي أمانة عندكم، ولا يذكر حالها عند ذلك إلا فاسق خسيس لا خير فيه». من أوجه التثقيف الأسري تشديده على ضرورة استمرار انتماء الأسر حديثة

البناء بأصولها، من خلال حثه على فضيلة بر الوالدين والتحذير من عقوقهما، وهو عامل كفيل باستمرار ارتباط الأبناء بوالديهم بعد تأسيسهم لأسرهم الجديدة، ومنه قوله: «إخواني، وعليكم ببر الوالدين، وأحسنوا لهم، ولا تنهروا في وجوههم»، وزاد قائلًا: «إخواني، عليكم ببر الوالدين، وقلة العقوق لهم؛ قال ﷺ: من أصبح وأمسى ووالداه راضيان عنه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة، ومن أصبح وأمسى ووالداه ساخطان عليه أصبح له بابان مفتوحان للناس».

ومن أوجه التثقيف الأسري، حرصه على صيانة حرمة البيوت واستقلاليتها، ومنه قوله: «إخواني، لا يجوز لكم أن تدخلوا بيوت الناس مطلقًا من غير مشورة أهلها إلا أن يأمروكم بالدخول... إخواني، ولا يحل لأحد منكم أن يتجسس على المتكلمين، ولو كانوا من أعدائه قطعًا».

ومن مظاهر عنايته بالتثقيف الأسري: حثُّه لمريديه على عدم دخول بيوتهم إذا قدموا من سفر، إلا بعد شراء هدايا لزوجاتهم وأولادهم، ليرفع بذلك الذوق الأسري، ويلفت الانتباه إلى أهمية الزوجة وإعلاء مكانتها وقدرته، فيقول عن العائد من السفر: «ويهدي إلى أهله شيئًا من الهدايا إذا رجع من سفره».

3 - الاهتمام بالتثقيف الصحي للأسرة والمجتمع

كان الشيخ عبد السلام الأسمر حريصًا على نشر الثقافة الصحية بين أنصاره وأتباعه ومريديه، ولا شك أن هذه العناية نابعة من حرصه على الفرد والأسرة والمجتمع.

ويدخل ضمن هذا ما أشار إليه في الوصية الكبرى محذرًا مريديه من التدخين، قائلًا لهم: «إخواني، وإياكم وشرب الدخان، ليس منا من شرب الدخان من فم أو أنف، وهو عشبة منتنة الرائحة، خسيسة، فلا تقربوها، ولا تشربوها، ولو أباحها الشرع، وكان شيخنا الدكالي ينكرها مطلقًا، ويهجر المدمنين عليها، ويزجرهم، ويغلظ فيها، ويشدد على أهلها».

ويهتم الإمام الأسمر برفع الوعي الصحي داخل الأسر، فجعل قسطًا كبيرًا من رسالته إلى أتباعه في تونس للحديث عن الطواعين والأمراض، وكيفية الوقاية منها وعلاجها.

وبوعيٍ قلَّ نظيرُه، يوجه نصائح أسرية عن فوائد الصوم الصحية وتقليل الطعام، وانعكاس كلٍّ ذلك على اعتدال النفس، فيقول: «واعلموا: أن للصوم فوائد جليلة... منها: مجاهدة الجوع والعطش، وليس شيء عند الله أفضل منهما»، وينقل بعض الحكم في ذلك، ومنها: «وفي حكمة لقمان: يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال ذو النون: من أكل حتى شبع، وشرب حتى روي، عصى الله تعالى شاء أم أبى على رغم أنفه. وقال بعضهم: لا تأكلوا كثيرًا، فتشربوا كثيرًا، فترقدوا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا».

4 - بثُّ روح الود والبهجة بين الزوجين

حرص الإمام الأسمر على بث روح الود والبهجة بين الأزواج؛ فكان يرسل النصائح التي من شأنها أن تدعم هذا الجانب إلى النساء العروسيات مع أزوجهن أو أبنائهن، فقال في الوصية الكبرى: «وأما النساء العروسيات فبلغوهن مني السلام مع أزواجهن وإخوانهن وآبائهن وأبنائهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ونحوهم، وقولوا لهن: قال لكم الفقير عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري الحازمي اليزلتيني: غضوا أبصاركن عن جميع المحارم، وكفوا أسماعكن عن جميع المآثم، واحفظوا فروجكن ما استطعتن، واجتنبوا جميع الجرائم، وأطيعوا أزواجكن، وإذا دعوكن إلى الفراش فلا تصدوهم، ولا تؤذوا جيرانكم».

وهي نصائح هامة لإعادة التوازن الأسري من خلال تذكير الزوجات بواجباتهن نحو أزواجهن وأولادهن، كأساس لبثِّ الوداد والتآلف من خلال تكامل الأدوار داخل الأسرة.

وكما سبق فقد حثَّ الإمام الأسمر مريديه على ضرورة إحضار الهدايا لأهلهم وأزواجهن؛ لإشاعة روح الود والمحبة بين الزوجين؛ فقال في حق العائد من السفر: «ويهدي إلى أهله شيئًا من الهدايا إذا رجع من سفره، يعني: أن السنة أن يحمل لأهل بيته ولأقربائه تحفة من مطعوم أو غيره على قدر إمكاناته، ولو كان حجرًا على ما روى، وقد قالوا: إذا لم يجد المسافر ما يهدي إلى أهله وأقاربه، فليضع في مخلاته حجرًا، وكأن هذا مبالغة في الاستحباب على هذه المكرمة؛ لأن الأعين تمد إلى القادم من السفر، والقلوب تفرح فتتأكد المحبة بها، ويزداد السرور معها. ولا يدخل على أهله ليلًا؛ كي لا يعثر على مكروه أو يطلع على شنيع؛ حتى تتهيأ له المرأة، فتمشط، وتستحدَّ استحدادًا، أي: تزيل شعر عانتها».




العيش المشترك في التجربة الصوفية عند عبد السلام الأسمر

د. بركات عُمار

جامعة مصطفى إسطمبولي - الجزائر

ملخص:

يُعدُّ مفهوم العيش المشترك من المفاهيم الحديثة التي بنيت عليها الفلسفة الحديثة من خلال القبول بالآخر والتعايش معه، خصوصًا في الوقت الحالي المتسم بالاختلاف والصراع. والعيش يمثل الاشتراك في الأمور الأساسية، وفي النزعة الاجتماعية، بينما التعايش يعبر عن أقصى درجات الانسجام والتجانس والتآلف بين الأفراد بآليات مختلفة المجالات، ولهذا أصبح التعايش يضاف إليه صفات كالتعايش السلمي، التعايش المشترك، التعايش الكريم، مما جعله مسألة جوهرية وموضوعًا مهمًّا ضمن مواضيع الأتيقا والفلسفة التطبيقية.

وما نحاول تناوله في هذه المقالة هو محاولة التأسيس لمقولة العيش المشترك عند الإمام عبد السلام الأسمر الفيتوري، باعتبار أن العيش المشترك من الأبعاد الإنسانية للتجربة الصوفية، من خلال آثاره وخصوصًا كتابه «الوصية الكبرى» ومجموعة رسائله إلى مريديه.

وما نريد تناوله يحتاج منا إلى عناصر أهمها: العيش المشترك التقاء واختلاف مع مفاهيم أخرى كالصراع، ثم الحديث عن أبعاد العيش المشترك في التجربة الصوفية الأسمرية من خلال سيرته، ومن خلال رسائله ووصيته فيما يتعلق بجانب الأخلاق عند المسلم، وكذلك علاقة المسلم بالمختلف عنه والآخر كالأديان الأخرى.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، التعايش السلمي، التجانس والتآلف، التصوف.

مقدمة:

يعتبر العيش المشترك من القضايا التي تشكل مفترق طرق في الدراسات البينية في العلوم الاجتماعية، وخصوصًا من الناحية الفلسفية والسوسيولوجية، باعتبار أن المجتمعات العربية الإسلامية لا زالت تعيش حالة تحولات في إطار التثاقف بين التقليدي والحديث. ورغم أن التعايش يعتبر طرحًا جديدًا في التفكير المعاصر إلا أن معانيه يمكن البحث عنها فيما يعرف بالدلالة المشتركة لكلمة العيش المشترك، ولكن هذا البحث صعب فكريًّا، ويحتاج إلى تأويل معانٍ للفكر السابق، خصوصًا اختلاف المشارب واللغات هو الذي يجعل التأويل صعبًا إن لم نقل غير ممكنٍ.

ويزيد هذا التأويل عمقًا حين نتكلم عن التجربة الصوفية، التي لها تاريخ عميق في الحضارة الإسلامية، والتي تعتبر تجربة روحية عميقة جعل الآخرين غير المارين بها يسيئون فهمها، بل مناقضتها.

وسنركز هنا على تجربة للإمام الأسمر، باعتباره من رموز التصوف الإسلامي، منارة فكرية ودينية في تاريخ ليبيا، ولذا فدراسته تعد ذا قيمة معرفية تستفيد منها ثقافة كل المجتمعات العربية الإسلامية.

وتتمحور إشكالية هذه الورقة حول مدى تأسيس الإمام الأسمر لمبدأ العيش المشترك، فهذه الإشكالية تجعلنا نحاول تطبيق المنهج الاستقرائي من خلال استقراء أهم الأفكار التي نتعمق فيها ونستخدم فيها التأويل وربطها مع العيش المشترك، ومع هذا لا ندعي أننا أحطنا بكل الأفكار الأسمرية، ولكن سنحاول أن نربط ما نراه مهمًّا بالعيش المشترك، ونستحضر ما كتبه ونربطه بأفكار العيش المشترك.

وفي البداية لا بد من الحديث على جانب مفاهيمي حول العيش والتصوف والصراع، ثم نتدرج إلى العيش المشترك من خلال محطات السيرة الذاتية للإمام الأسمر، ثم الحديث عن العيش المشترك من خلال ما كتبه في الوصية الكبرى أو في رسائله إلى مريديه.

العيش التعايش التصوف والصراع

جدالات مفاهيمية أم تداخلات منهجية؟

على عكس الجانب الكلاسيكي، وهو تحديد المفاهيم بطريقة تكديسية أو تصنيفية، إن صح التعبير، نود أن نطرح المفاهيم بطريقة تحليلية، تجعلنا مع القارئ نعيد التفكير في حدود المفاهيم، وهو الجانب الذي ينقص في الدراسات الأكاديمية اليوم؛ لأن التصنيف مهم، ولكنه غير كافٍ، نحتاج أكثر لمعرفة التداخل والافتراق بين المفاهيم عبر تحليل بنيتها الفكرية.

فأول ما نبدأ فيه من المفاهيم وهو: العيش، والتعايش؛ فهما مفهومان يشتركان ويتعايشان في دلالة واحدة وهي «قدرة الإنسان على تغيير طبيعته الاجتماعية وتحويلها إلى طبيعة اجتماعية عقلانية وواعية، فالعيش المشترك يبنى على قاعدة التآنس والمحبة، والتآلف والانسجام بين البشر الذي لا يعبر فقط عن عدالة مصحوبة بالحكمة والحب، ولكن أيضًا الوفاق الممكن بين الأشخاص، فهو يعبر عن إنسانية قوامها حق الاختلاف، والاحترام والمحبة، كما يقوم على التآنس والإنسانية، وهو شكل من أشكال المودة والألفة، وهي أروع شكل للكينونة والوجود مع الآخر»[1] وفي هذا التعريف يتم تحديد أبعاد التعايش والعيش ابتداء من اللحظة التي يقرر فيها الفرد أن يغير طبيعته الضيقة في الهوية إلى الانفتاح على الهويات الأخرى سواء في مجتمعه أو في مجتمعات أخرى، والأساس هنا هو المحبة، وهنا يحضرنا الاتجاه الصوفي بما يحمله من رمزيات وأفكار تؤسس للحب.

ورغم هذا التداخل بين العيش والتعايش، إلا أنه من ناحية اللفظ يضاف حرف التاء في كلمة تعايش، فهو ليس إضافة حرفية بقدر ما هو إضافة في المعاني، فالعيش هو اجتماع الأفراد وتشاركهم في ثقافة أو هويات بدافع التجانس، ولكن مع التعايش يضاف إلى العيش قدرة الإنسان وبذله المجهود أو الآليات لتحقيق أقصى درجات الانسجام والتجانس. وبالتالي فالعيش يمثل الاشتراك في الأمور الأساسية، وفي النزعة الاجتماعية، بينما التعايش يعبر عن أقصى درجات الانسجام والتجانس والتآلف بين الأفراد بآليات مختلفة المجالات، ولهذا أصبح التعايش يضاف إليه صفات كالتعايش السلمي، التعايش المشترك، التعايش الكريم، مما جعله مسألة جوهرية وموضوعًا مهمًّا ضمن مواضيع الأتيقا والفلسفة التطبيقية.

ويزيد الأمر جدالًا خصوصًا في علاقة التعايش المشترك بمقولة الصراع؛ لأن الصراع ظاهرة لا يمكن نكرانها سواء في النفس البشرية أو الطبيعة الاجتماعية. نحن نعلم أنه في بداية الفلسفة الحديثة والمعاصرة خصوصًا في العقد الاجتماعي مع توماس هوبز أو استمرارًا مع الفلسفة الماركسية ظهرت قضية الصراع بشكل جلي، حيث في العقد الاجتماعي مع هوبز يظهر الصراع في عدوانية الإنسان لأخيه الإنسان من خلال قوله: «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان»، وكذلك مع ماركس ظهرت مقولة الصراع في المادية التاريخية من خلال الصراع بين الطبقة البرجوازية وبين الطبقة العاملة، ولهذا فالتعايش يبقى مضادًّا للصراع من خلال أن الصراع يصعب من تحقيق التعايش رغم الاختلاف.

ومع الفلسفة الماركسية الجديدة، والتي ارتبطت بالنظرية السوسيولوجية الحديثة، جرى الحديث عن الصراع الذي يؤدي إلى التوازن وإلى التعايش، نظرة تستدعي الوقوف عندها وفهمها بشكل أعمق، فقد ظهرت الماركسية الجديدة عند كل من لويس كوزر، ورالف داهندورف، حيث يري كوزر في مقال له بأن الصراع يؤدي إلى التوازن، حيث يقول: «التمييز بين تغييرات الأنظمة والتغيرات داخل الأنظمة، بالطبع، نسبية. هناك دائمًا نوع من الاستمرارية بين الماضي والحاضر، أو الحاضر والمستقبل الاجتماعي نظام: المجتمعات لا تموت كما تموت الكائنات البيولوجية؛ لأنها كذلك من الصعب تحديد نقاط ميلاد أو وفاة دقيقة للمجتمعات كما نفعل مع الكائنات البيولوجية. قد يدعي المرء أن كل ما يمكن ملاحظته هو تغيير في تنظيم العلاقات الاجتماعية، ولكن من منظور واحد يمكن اعتبار هذا التغيير إعادة تأسيس التوازن، بينما من آخر قد يُنظَر إليه على أنه تشكيل نظام جديد»، إذًا هو يرى أن الصراع الاجتماعي يؤدي إلى تغير اجتماعي وإعادة توازن في المجتمع، مما يؤدي في نهاية المطاف أن الصراع ظاهرة سليمة بالمعنى الدوركايمي، ويؤدي إلى توازنات، ومن ضمن هذه التوازنات هو التعايش.

كذلك رالف داهندورف كان شديد التأصيل للصراع من خلال كتابه في 1957 بعنوان: «**Class and Class Conflict in Industrial Society**» يقسمه إلى قسمين: القسم الأول يتحدث فيه عن أفكار ماركس، بينما القسم الثاني يتجاوز أفكار ماركس، ويتحدث عن علاقة الصراع بالتغير الاجتماعي، حيث يرى أن الصراع ظاهرة طبيعية ينبغي تسييرها بالأمور السلمية خصوصًا الصراع المؤدي للعنف، حيث يقول: «مشكلة تنظيم النزاعات تشكل أهم نتيجة نظرية الصراع من حيث السياسة الاجتماعية. لقد ألمحت فقط إلى هذا

الجانب من المشكلة في المناقشة السابقة، ولا ينبغي اعتبار استنتاجاتها تلقائيًّا تنطبق على المشكلة السياسية لتنظيم الصراع، وبالتالي الصراع العنيف قد يكون في بعض الأحيان مرغوبًا فيه في بعض الجمعيات. بشكل عام، ومع ذلك، يبدو أن مهمة السياسة الاجتماعية هي محاولة تنظيم الصراعات التي لا مفر منها من الحياة الاجتماعية بوسائل أخرى غير الحل أو القمع»، وواضح أنه تأثر كثيرًا بالأفكار والمبادئ التي جاء بها كارل ماركس سواء الاجتماعية منها أو الاقتصادية، وبالخصوص تلك التي تتحدث عن الطبقات والصراع الطبقي، ومع ذلك فتأثره لم يكن كليًّا، وإنما بدرجة نسبية، ويظهر ذلك في عدم اتفاقه معه على أن الصراع ليس محصورًا بين العمال ومالكي وسائل الإنتاج فقط، وإنما هناك أنواع أخرى من الصراع من بينها الذي يحدث بين ذوي البشرة البيضاء والبشرة السوداء) التمييز العنصري(، وأيضًا بين الآباء والأبناء داخل الأسرة، وبين المدرسين والطلاب في المدارس والجامعات وغيرها. وبهذه النظرية والفلسفة الجديدة للصراع يظهر أن الصراع يؤدي إلى التوازن والتعايش، ويؤدي إلى التغير وترتيب التوازنات في المجتمع، وتشكيل مجموعات جديدة، وتضامن مجموعات جديدة فيما بينها، مما يؤدي إلى التعايش رغم الصراع.

ومن خلال هذا السرد الفكري لعلاقة العيش بالصراع، نجد أن التصوف يتجاوز الصراع للتأسيس للعيش المشترك، رغم أن الصوفي يواجه اختلافًا ونقدًا لاذعًا من المختلفين إن لم نقل المعادين له، ولكن يبقى الصوفي بمقاماته الروحية ونفحاته السبوحية يتجاوز كل الصراعات، بل أبعد من ذلك يحتوي كل التناقضات ويراها أمرًا واحدًا ومتكاملًا في الوجود.

العيش المشترك من خلال السيرة الذاتية لعبد السلام الأسمر

من خلال ما نريد التوصل إليه هو تتبع أهم النقاط أو المواقف أو السلوكيات التي أظهرت العيش المشترك في السيرة الذاتية للإمام الأسمر، فليس غرضنا الآن هو سرد السيرة الذاتية كلها، ولكن فقط الاقتصار على ما هو مهم ويصب في العيش المشترك المرتبط بالحياة اليومية التي عاشها الشيخ الجليل.

وأول ما نبدأ به هو تتلمذه على يد أستاذه الشيخ عبد الواحد الدوكالي وترحيبه له عند انتقاله للدراسة، حيث يقول الإمام الأسمر: «بعد انتهائي من حفظ القرآن ومعرفة

ما يصلح بي من أمر ديني، توجه بي عمي أحمد الفيتوري رحمه الله إلى الشيخ الكبير الشهير بالولي الصالح الإمام القدوة أبي محمد عبد الواحد بن محمد الدوكالي الزعفراني دارًا وقبرًا بمسلاتة من عمل طرابلس الغرب، ففرح بي فرحًا عظيمًا وقال: مرحبا بأبي العباس وابن أخي عبد السلام بن سليم، وذكر نسبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أبي وأمي ولقنني الذكر وأذن لي في الصحبة والنسبة إليه».

فرغم التطور العلمي لمدرسة أسرته إلا أن عمه الشيخ أحمد الفيتوري أدخله في مدرسة أخرى، وهذا يدل على الارتباط الأخلاقي الذي كان بين المدارس والتعايش بينها، وهو يظهر أكثر في الصلات الروحية والعلمية التي تأسست عليها مدرسة أسرة الإمام، فوالده وعمه من عشيرة الفواتير بليبيا، والمعروفة بتصوفها وكثرة علمائها، ووالدته هي ابنة الشيخ عبد الرحمن الدرعي، وهو عالم مغربي ومن أبرز رموز المدرسة الدرعية المغربية، التقاه السيد سليم والده الإمام الأسمر، وسريعًا ما تلاقحت أفكارهما وتزوج ابنته السيدة سليمة. كما أن هذه المدرسة التي تأسست بمصدرين: المصدر الفيتوري والمصدر الدرعي، لقيت اهتمامًا من مصدر معرفي آخر وهو الشيخ أحمد زروق، كبير علماء المالكية، الذي طوف العديد من الأقطار بين المشرق والمغرب، وتصوف على يد الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي المصري، حيث تذكر المصادر أنه كان يزور مدرسة أسرة الإمام الأسمر، بل والإمام نفسه صرح في وصيته الكبرى بأنه التقاه في مدرسة أستاذه الدوكالي. وكل هذه الوقائع والأحداث في سيرة الإمام تؤكد رسوخ مبدأ التعايش في محيطه الذي ترعرع فيه.

وبعدما تخرج في مدرسة أستاذه الدوكالي، وشهد له بالمشيخة، التحق الإمام الأسمر بصحبة ثمانين شيخًا، حيث يقول الإمام في كتابه الأنوار السنية: «فلما بلغت مبلغ الرجال قال (يعني: شيخه الدوكالي): يا عبد السلام، اذهب لتنتفع بك الناس، الشيخ ما يخدم شيخًا. وودعني فمشيت من عنده نطلب الاستخدام (يعني الخدمة) عند غيره من المشائخ، فكل من نأتيه منهم بنية الخدمة يمتنع مني إلى أن بلغت إلى ثمانين شيخًا، فكلهم امتنعوا مني وقالوا: الشيخ ما يخدم شيخًا».

وحرصه هذا على طلب العلم لدليل أنه كان يحرص على التعلم أكثر، واعتبار العلم نسبي، ولذا لا بد من تنويع مصادر معرفته وضربه في كل علم بسهم، وهذا ما يفسر لاحقًا أن زاويته كان حين أسسها أشعت بكل أنواع المعارف والعلوم ملمة بها.

وبعد وفاة والدته التي لازمها مدة ذهب في رحلة طويلة بلغت إلى منطقة زغوان في تونس، بعد ما لقاه من العنت والتضييق واتهامه بالعديد من التهم، وعنها يقول: إنه طلب منه الدعاء على من ضيق عليه، قال: «فقلت: أدعو لهم بالتوبة والموت على الإسلام، فقيل لي ثانيًا: ادع عليهم. فقلت كذلك، فقيل لي ثالثًا: ادع عليهم فقلت: يا رب، علمني كيف أقول؟ فقيل لي: ادع عليهم بالشتات إلى ثلاث فرق ثم إهلاكهم وإخلاء بلادهم منهم إلا من اتبع طريقك»، وموقفه هذا يبرز معنى رائعًا للعيش المشترك، وهو رد الشر بالخير، ولعمري هو من الأخلاق الرفيعة التي نحتاجها اليوم في ظل الاختلاف الكبير وانتشار المعلومات عبر الوسائط.

والإمام الأسمر كان حريصًا على إشاعة فكرة العيش، فرغم سمو مكانته العلمية والصوفية، إلا أنه لم يكن يخاطب مريديه بقوله: «أتباعي»، بل كان خطابه تارة: «إخواني» في مقام النصح والإرشاد، وتارة «نعم الأصحاب» عند الترحيب والإخبار، وحتى عند قرب أجله نجده يقول: «مرحبًا بكم يا نعم الأصحاب والأحباب والأولاد، إن الرحيل قد قرب من دار الدنيا إلى الدار الآخرة. وأخذ في الأنين، ولما رآنا تغيرنا واشتدت مصيبتنا استراح وقعد متربعًا ساعة، ثم قال: إخواني، أوصيكم بالتقوى لله، وبالإحسان للحاضر والغائب، واعطوا كل ذي حق حقه، وارحموا الفقراء والمساكين، واجبروا خواطر المحزونين».

ومن ملامح حرصه على مبدأ التعايش في فكره الاجتماعي، أنه شدد أكثر من مرة على أن طريقته الصوفية تنسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ولم يحصرها في مكان معين ولا إثنية معينة، بل هي من تنتقل من شخص لآخر عبر نسب الطريقة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وبالتالي هذا دليل انفتاح الطريقة لكل الناس بلا تحديد لمكان أو شخوص، ومنه أيضًا قوله: «وصح عن سيدي أبي العباس المرسي أنه كان يقول: طريقتنا هذه التي هي الشاذلية لا تنسب للمشارقة ولا للمغاربة، بل هي من واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم» وأكثر من ذلك حتى لباس الطريقة يعود بأصوله إلى العبودية لله، فيقول: «واعلموا يا إخواني في الله تعالى أن أصل لباس الخرقة المعهودة عند المتصوفين الاتصاف بأخلاق العبودية، وجماع ذلك تقوى الله سرًّا وجهرًا والعمل بطاعته أمرًا ونهيًا وترك الشبهات وأخذ النفس بالتوسل في جميع الحالات بانتهاز العمر واغتنام الساعات وحفظ الخرقة من الامتهان باللباس في كل الأيام

والتحرز بلبسها في أوقات المناجاة أو طلب الحاجات المهمات والأعياد والجماعات، وحث الإخوان للذكر والمذاكرات ونحوه من الاجتماعات ابتغاء الفرصة وحلول البركات وبالله التوفيق». وفي كل ذلك يتخلل نصائحه وعباراته لفظ «إخواني» دلالة على العمومية والمساواة، وهذا من قيم التعايش التي سعى الإمام الأسمر إلى إشاعتها من خلال وصاياه ورسائله.

العيش المشترك من خلال رسائل الشيخ الأسمر والوصية الكبرى

إن الأرضية الفكرية التي يتأسس عليها التصوف الإسلامي عموما هو المحبة؛ حيث إنها تؤسس للحوار والتسامح، والرؤية الشاملة للكون وتقبل الآخر بلا عداوة ولا بغض، وقد ظهر ذلك جليًّا في فكر العديد من الصوفية، باعتباره المحبة من دواعي العيش، ومنهم الإمام الأسمر، التي ضمن رسائله ونصائحه لمريديه العديد من الموضوعات والأفكار المنطلقة من مبدأ الحب، في ثراء وغنى ورقي يجعلها هي نفسها متعايشة في إطار فكري صوفي رصين ومتكامل. ويمكننا تحديد أهم النقاط المرتبطة بالعيش المشترك في الآتي:

1. فائدة العلم وآفته:

يرى الإمام الأسمر أن الفائدة الحقيقية للعلم لا تحصل للمرء إلا بتوفر ثلاثة صفات، أولاها: «الإخلاص فيه لله تعالى»، وثانيها: «الأدب مع سائر الخلق بارًّا وفاجرًا»، وثالثها: «نفي الكبر من قلبه». ونلتمس من خلال كلامه معاني جمة فقد ربط الشرط الأول لله تعالى وهو بعد روحي، أما الثاني والثالث ففيه تعامل مع الخليقة، وبالتالي فيه البساطة والتعامل مع الخلق مهما كانوا بارين أم فاجرين، وهذا يدل على الجانب الاجتماعي للفكر الأسمري وهذا ضد العزلة والانغلاق والفردانية المنتشرة اليوم.

2. الدعوة إلى الأدب وحسن الخلق:

وهذا هو أساس كل ما كتبه الإمام الأسمر، ومنه قوله: «وعليكم بالأدب مع الله ورسوله، ومشايخكم وجميع الخلق من بار وفاجر»؛ حيث إن الأدب مع الله بطاعته، ومع رسوله بمحبته واتباع سنته، والأدب مع المشايخ احترامهم وحسن خدمتهم وصدق محبتهم، بل حسن الخلق يفوق عند الإمام الأسمر فضل الصائم.

ومن المواضع التي يشدد الإمام الأسمر على ضرورة لزوم الأدب وحسن الخلق فيها:

أ) أدب الجلوس مع الآخرين:

يفصل الإمام الأسمر في الجانب الشكلي والضمني في الخلق، وهو بمثابة تواجد الإنسان في الفضاء العام، وهذا يفيدنا في العيش المشترك في الفضاء العام، وهو من النظرة الجديدة في مدرسة فرانكفورت عند هابرماس.

ومن أقواله: أن يكون الجالس «حسن المنظر، مستبشر الوجه، لين الكلام»، وأن يكون «ذا عقل، وفهم، ونصح صريح، وود صحيح، وأمانة تامة، إذا صمت زين، وإذا حدث صدق، وإذا أشار برأي أصاب، وإذا سئل أجاب، وإذا اؤتمن فلا يخن، وإذا لفظ أتم وإذا قال أحسن، وأن يكون حسن الاستماع ممن يحادثه، ولا يقول لجليسه: إن هذا قد سمعته ولو كان سمعه، بل يحدث جليسه بحسن استماعه على أنه ما سمعه قط، ولا يسرع بتكذيب المحدث، فإنه سوء أدب».

ويضيف أيضًا ما يجب على الجالس: «ستر عورته، وكتم عيوبه، وحفظ سره، وينبغي للجالس أن يكون خفيف الجلسة، فإذا رأى لطول الجلوس موضعًا فيه ما يقربه لربه، أو ينتفع منه غيره أطال جلوسه وإلا ترك ولا فائدة في جلوسه».

ومما هو جميل في فكر الإمام الأسمر هو تفصيله حتى لأدب الجلوس، حتى مع اختلاف فئات المجتمع، حيث وضع كل موضع سلوكًا خاصًّا يلتزمه الجالس، يقول: «إذا جلستم مع أهل القرآن فحدثوهم بالحذف والإثبات والتدبر والترتيل، وكل مسألة تدل على الألفاظ القرآنية كمخارج الحروف والتفخيم والترقيق وغير ذلك مما هو مشروع عندهم، وإذا جلستم مع أهل الدنيا فحاضروهم برفع الهمة عما في أيديهم مع تعظيم الآخرة، وإذا جلستم مع أهل الآخرة فحاضروهم بسيرة أهل العدل وسياسة العقلاء مع حفظ الأدب معهم، والعفاف عما في أيديهم. وإذا جلستم مع الملوك فحاضروهم بسيرة أهل العدل وسياسة العقلاء مع حفظ الأدب معهم، والعفاف عما في أيديهم. وإذا جلستم مع العلماء فحاضروهم بالروايات الصحيحة والأقوال المشهورة في المذاهب المعلومة بالحق دون الهوى مع الإنصاف لهم في القول والفهم إذا وافق الصواب مع عدم الجدال والمراء الجالب للعلو. وإذا جلستم مع الصوفية فحاضروهم بما يشهد لأحوالهم

الحقانية، ويقيم لهم الحجة على المنكر عليهم مع أدب الباطن قبل الظاهر. وإذا جلستم مع العارفين فحاضروهم بما شئتم، فإن لكل شيء عندهم وجهًا من وجوه المعرفة، لكن بشرط لين الكلام وحفظ الحرمة والأدب».

هنا يبين الإمام الأسمر كل موضع وآدابه، وبلغة حديثة كل فضاء وأخلاقياته، كما جاء في الفلسفة الحديثة ما يعرف بالأتيقا أي: الأخلاقيات التي تخص كل مجال وتميزه عن المجال الآخر، ويشترط فيه الأسمر الأدب ولين الكلام وحفظ الحرمة أو بشكل دقيق حفظ الكرامة، أي قداسة المكان التي تجعلنا نقدره ونحترمه، وهذا تأسيس متين وقوي لأخلاقيات العيش المشترك.

ب) أدب السفر

والسفر أو السياحة من الممارسات الصوفية المعروفة، والإمام الأسمر نفسه له رحلاته وسفرياته، لاستكمال التربية الروحية والمقامات العالية، فإنه حدد آدابًا في السفر، باعتباره حراكًا اجتماعيًّا للفرد، يستوجب منه آدابًا حتى يستطيع أن يتعايش مع المجتمعات المختلفة عنه، منها:

1. أن يكون المسافر حسن المعاشرة والمصاحبة مع رفقاء سفره، ومنه قوله: «وعليكم بحسن المصاحبة والمعاشرة مع من صحبتموه بالسعي في مهماته كسعيكم لأنفسكم، وبالحرص على إدخال السرور على قلبه، وبالنصح له وهدايته إلى ما ينفعه في آخرته ودنياه، ولا يمنعكم الحياء من ذلك، فشر الحياء حياء يمنع العمل بالخير والدعوة إليه»، ويضيف أيضًا: «وعليكم بحسن الخلق مع من يصحبكم وخفض الجناح له، فإن الخير كله في اللين، وسعة الاحتمال وبإيثار الصاحب، وأن يكون المؤمن سريع الرضا بطيء الغضب، بل المؤمن الكامل لا يغضب لنفسه رأسًا، وإنما يغضب لربه، ومهما غضب المؤمن لنفسه منعه إيمانه أن يشفي نفسه وينفذ غضبه وقال رجل: يا رسول الله، أوصني. فقال: «لا تغضب»».

2. أن يحافظ المسافر على الدعاء بأدعية السفر في ذهابه وإيابه، وعند نزوله وركوبه، «وحافظوا على أذكار السفر، وما يقال عند الركوب والنزول، ودخول البلد إلى غير ذلك من أذكاره».

3. أن يحرص على زيارة أخيارها وصالحيها؛ لينال دعواتهم، ويأخذ وصاياهم، ويستفيد من ملاحظاتهم، حيث يقول الإمام الأسمر: «وعليكم بصحبة الأخيار والتأدب بآدابهم، والاستفادة من أعمالهم وأقوالهم. وإنما قلَّ انتفاع أهل الزمان بالصالحين من حيث قلة التعظيم لهم، وضعف حسن الظن بهم، فحرموا بسبب ذلك بركاتهم، ولما يشاهدوا كراماتهم، حتى توهموا أن الزمان خال من الأولياء، وهم والحمد لله كثيرون ظاهرون مخفيون، ولا يعرفهم إلا من نوَّر الله قلبه بأنوار التعظيم وحسن مصاحبتهم».

4. ويحذر أيضًا من دخول المسافر لبلدة فيها اضطراب أو مرض أو وباء، وهذا حفاظًا عليه، من الصراع الذي فيها، مما يؤسس أيضًا لأخلاقيات المحافظة على العيش المشترك بحيث لا ينتشر الصراع والمرض والفتنة من بلدة لأخرى.

5. إذا تيسر للمسافر أن يشتري بعض الهدايا لأهله وجيرانه وأقاربه فليفعل، فإنه كما قال: «الأعين تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تفرح، فتتأكد المحبة بها ويزداد السرور معها».

أما بالنسبة لكتابه «الوصية الكبرى» سنحاول أن نستقرأ فيها أهم ما يدل على العيش المشترك، ومن أهم ما توصلنا إليه منها ما يلي:

1. بر الوالدين:

يقول: «وعليكم بالتواضع للوالدين والأدب معهم غاية الأدب، ولا تعصوهم طرفة عين في شيء من الأشياء ولو كانوا عصاة، إلا أن يأمروكم بمعصية، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكذلك إذا كانوا كفارًا فلا بد من التواضع لهم والإبرار إليهم وكفرهم على أنفسهم».

2. حب المساكين:

يقول: «إخواني؛ ولا تنهروا السائل والمسكين واليتيم والغريب والأعمى والأبرص والأجذم والمريض والأشل والأعرج. إخواني؛ فلا تنهروهم ولا تضربوهم، ولا تنازعوهم، وإذا قصدوكم أو طلبوا منكم شيئًا فلا تطردوهم، وأعطوهم مما عندكم من القليل والكثير».

3. معاملة الجيران:

يقول: «وعليكم بحفظ الجيران والإحسان إليهم، وإن كان عندهم شيء من الحوائج في الأسواق من بيع أو شراء ونحوه، وخافوا على أنفسهم من الغرماء أو الظلمة أو الجبابرة فاقضوا حوائجهم، وإن كان عندهم شيء من الحوائج من مأكول أو مشروب فأعطوهم منه، ولا تمسكوا عليهم شيئًا من الحوائج الدنيوية والأخروية، ومن مرض منهم فزوروه ولا تؤاخذوهم إلا إذا أساءوا معكم الأدب واسمحوا لهم، وكذلك تعاملوا بتلك الخصال مع كل من وقعت لكم معه معاشرة أو مهاجرة في سفر أو حضر».

اكتفيت بهذه الأخلاقيات الثلاث في العيش المشترك، وإنها لعظيمة عظم صاحبها الإمام الأسمر، لأنه يركز فيها وإن اختلفت فضاءاتها من الأسرة إلى الحي إلى أطياف المجتمع، إلا أنه دائمًا يركز على اللين والسماحة والخلق الأحسن والاندماج الاجتماعي.

خاتمة:

ومن خلال هذه الورقة التي ركزنا فيها على معاني العيش المشترك عند الإمام الأسمر، فاقتطفنا ما يمكن اقتطافه من كلامه الرائع والنابع من صوفي بقدر ما عاش في مقامات روحية عالية، بقدر ما كان واقعيًّا حاثًّا على الاندماج الاجتماعي في كل أطياف المجتمع مع المحافظة على العيش المشترك والخلق الحسن والاختلاف الجميل.

فما وجدناه أن تصوف الإمام الأسمر قد تجاوز الصراع في العيش المشترك، وهذه أهم فلسفة حديثة في النظرة الجديدة للصراع، حيث تركز على العيش والتوازن، وكذلك ركز الإمام الأسمر على الاعتراف بالآخر واحتواء كل الأفكار وتقبل الآخر والنقاش بالحجة والعلم والدليل، وهذا ما هو موجود في فلسفة مدرسة فرانكفورت في النقد.

كما ركز ووصى الإمام على الاندماج في كل الفضاءات وضرورة كل فضاء وفيه تعامل خاص، وهذا ما يعرف بأخلاقيات العيش المشترك، فرغم المنبع الصوفي الديني للإمام الأسمر إلا أننا يمكن الاستثمار في أفكاره في الجانب الاجتماعي والفلسفي، وكذلك حتى في المناهج التربوية في التربية الأخلاقية والتعايش مع الآخر.




التكامل المعرفي وأثره في بناء وصقل شخصية المصلحين
الإمام عبد السلام الأسمر أنموذجًا

د. مصطفى أحمد قنبر

وزارة التربية والتعليم والتعليم العالي - دولة قطر

ملخص:

تسعى هذه المقالة إلى بيان أثر التكامل المعرفي في بناء وصقل شخصية المصلحين؛ حيث تخضع شخصياتهم إلى تكوين من نوع خاص يناسب الأدوار التي تنتظرهم في أُمتهم، خاصة إذا كانت الأمة في أَمسِّ الحاجة إلى منْ يجدد لها دينها، ويحفظ لها هويتها، ويأخذ بأيديها نحو النهوض، ومواجهة أعدائها. وهذا ما نجده في سيرة ومسيرة الإمام الشيخ عبد السلام الأسمر (880-981هـ)؛ حيث شهدت إنجازاته على المستوى العلمي والعملي، بشخصية متفردة جمعت بين كثير من علوم عصره، ومازته من غيره في سِيَرِ المصلحين.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الأمة، تجديد الدين، التكامل المعرفي، المصلحون.

مقدمة:

تنماز رسالة المصلحين المجددين في الإسلام من غيرها، بأنها رسالة جامعة مانعة، فعبر تاريخ الحضارات عُرفت ألوانٌ متباينة من دعوات الإصلاح في ميادين

شتى، وبمرجعيات مختلفة، لعل من أبرزها: الإصلاح الديني، والإصلاح الاجتماعي، والإصلاح السياسي، والإصلاح الاقتصادي، والإصلاح الدستوري وغيره، وكانت أنشطة رجالاتها منحصرة في ميدان واحد من الميادين السابقة قلَّما تتعداه إلى غيره. لكنَّ ميدان الإصلاح والتجديد في الحضارة الإسلامية كان عامًّا وشاملًا؛ إذ لم يقتصر على ميدان ويتغاضى عن آخر، عدا الإصلاح الديني الذي لم تعرفه الحضارة الإسلامية، إذ ارتبط بمرجعية مسيحية غربية، ومن ثم كان اصطلاحًا غريبًا عن التربة المصطلحية الإسلامية، فلم تعرف أدبيات الحضارة الإسلامية ما يسمى بـ(رجال الدين)، ولا (الكهنوتية) وما ارتبط بذلك من قريب أو من بعيد.

لذا كان إعداد المصلحين لهذه الأدوار مختلفًا عن إعداد غيرهم من الفاعلين في المجتمع الإسلامي، من قادة وسياسيين ومعلمين وأطباء وغيرهم، إنَّ هذا الإعداد يقوم على أن يتسلح كل من يخضع له بمجموعة من علوم عصره إن لم يكن معظمها، إذ لا يتصور وجود فواصل أو حدود تعطي استقلالية لمعرفة ما، تنأى بنفسها عن الأخذ والعطاء، والتأثير والتأثر؛ ومن ثَمَّ فإن الولوج إلى ساحة علم ما من العلوم في الثقافة العربية الإسلامية يتطلب الإحاطة بما يتصل به من علوم أخرى، إن لم يكن التعمق فيها وسبر أغوارها، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك ما عُدِّد من متطلبات يلزم توافرها في من يُقبل على تفسير القرآن الكريم، أن تكون عُدته الإحاطةُ بخمسة عشر علمًا، هي: اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والمعاني، والبيان، والبديع، والقراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه، وأسباب النزول، والقصص، والناسخ والمنسوخ، والفقه، والأحاديث المبنية لتفسير المجمل والمبهم، وعلم الموهبة، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم.

ولم يكن هذا التصور المنهجي للدرس التفسيري، إلا للثورة الكبرى التي أحدثها القرآن في الفكر العربي والثقافة العربية، إذ وقع أرباب الثقافة العربية على نصٍّ معجز بلسان عربي مبين، سما بتشكله المبهر فوق مستوى صناعة البشر؛ ومن ثَمَّ كان -ولا يزال- النموذج الأسمى للنَّظم العربي، لكل من يريد أن يبدع ويرتقي. وقد أجاد السيوطي حين عبر عن هذه الثورة بقوله: إِنَّ كِتَابَنَا الْقُرْآنَ لَهُوَ مُفَجِّرُ الْعُلُومِ وَمَنْبَعُهَا وَدَائِرَةُ

شَمْسِهَا وَمَطْلَعُهَا، أَوْدَعَ فِيهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِلْمَ كل شيء، وأبان فيه كُلَّ هَدْيٍ وَغَيٍّ، فَتَرَى كُلَّ ذِي فَنٍّ مِنْهُ يَسْتَمِدُّ، وَعَلَيْهِ يَعْتَمِدُ، فَالْفَقِيهُ يَسْتَنْبِطُ مِنْهُ الْأَحْكَامَ، وَيَسْتَخْرِجُ حُكْمَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ. وَالنَّحْوِيُّ يَبْنِي مِنْهُ قَوَاعِدَ إِعْرَابِهِ وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي مَعْرِفَةِ خَطَأِ الْقَوْلِ مِنْ صَوَابِهِ. وَالْبَيَانِيُّ يَهْتَدِي بِهِ إِلَى حُسْنِ النِّظَامِ وَيَعْتَبِرُ مَسَالِكَ الْبَلَاغَةِ فِي صَوْغِ الْكَلَامِ. وَفِيهِ مِنَ الْقَصَصِ وَالْأَخْبَارِ مَا يُذَكِّرُ أُولِي الْأَبْصَارِ. وَمِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْأَمْثَالِ مَا يَزْدَجِرُ بِهِ أُولُو الْفِكْرِ وَالِاعْتِبَارِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عُلُومٍ لَا يُقَدِّرُ قَدْرَهَا إِلَّا مَنْ عَلِمَ حَصْرَهَا، هَذَا مَعَ فَصَاحَةِ لَفْظٍ وَبَلَاغَةِ أُسْلُوبٍ تَبْهَرُ الْعُقُولَ وَتَسْلُبُ الْقُلُوبَ، وَإِعْجَازِ نَظْمٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا عَلَّامُ الْغُيُوبِ.

وقبل السيوطي عرف حَملة مشاعل النور من العرب والمسلمين بعض مفهومات التكامل المعرفي، وأكدوا عليه، وعملوا بمقتضاه، وكانت البدايات الأولى عند الشافعي (ت204هـ) في كتابه: (جماع العلوم)، وبرزت الفكرة كذلك في كتاب: «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي، ولعل من أوضح ما يعبر عن فكرة التكامل المعرفي، وأهميته للمتعلم ما نص عليه الإمام الغزالي (ت 505هـ) في كتابه: «ميزان العمل» بقوله: «للمتعلم أنْ لا يدع فنًّا من فنون العلم، ونوعًا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرًا يطَّلع به على غايته ومقصده وطريقه. ثم إن ساعده العمر وأتته الأسباب طلب التبحر فيه؛ فإن العلوم كلها متعاونة مترابطة بعضها ببعض، ويستفيد منه في الحال حتى لا يكون معاديًا لذلك العلم بسبب جهله به؛ فإن الناس أعداء ما جهلوا. قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١﴾ [الأحقاف:11].

لذا ليس غريبًا أو عجيبًا أن نرى التكامل المعرفي يتجلى في أظهر صوره في التراث التفسيري الضخم، بمدارسه المختلفة، ومذاهبه المتباينة، وكيف كان ساداتنا –رحمهم الله تعالى– ممن أقبل على تفسير القرآن الكريم، على وعي بأهمية وضرورة الجمع بين العلوم المختلفة قراءة وفهمًا وإتقانًا، ثم إبداعًا، ثم إسهامًا في صرح الحضارة الإنسانية، ويكفي أن نعلم أن الواحد منهم لم يكن ليقنع بالتبحر في علم أو علمين تدريسًا وتأليفًا، إذ نجدهم يجمعون بين: التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، والنحو، والنقد، والكلام، والتاريخ وغيرها.

مفهوم التكامل المعرفي

وقد تجلت صور التكامل المعرفي في التراث العربي الإسلامي، كما حفظت كتب التراجم والطبقات، فكانت الشمولية والموسوعية في المعرفة والعلم من أبرز سمات ما ذكر فيها، حتى وإن كان إلمامًا من باب الثقافة العامة، وليس المعرفة المتخصصة، وليس من الغريب أن تتوافر خاصية الموسوعية هذه لدى بعض مفكري وفلاسفة المسلمين؛ حيث نجد أنهم قد كانوا على درجة كبيرة من الإلمام بمجالات وحقول معرفية كثيرة؛ في اللغة، والأدب، والفقه، وعلوم القرآن، وعلوم الحديث والتاريخ، والفلك، والطب، والرياضيات. فالإمام الطبري مثلًا هو مفسرٌ، ومؤرخ، وفقيه، وعالم باللغة، والشعر. وابن خلدون مؤرخ، وقاضٍ، وعالم اجتماع. وابن سينا فيلسوف، وطبيب. وابن رشد فقيه، وأصولي، وطبيب، وفيلسوف. وابن تيمية كتَب في الفقه، والأصول، والسنة، والتصوف، والمنطق وهكذا، ولم يكن وصفهم للعالِم بأنه متضلعٌ في فنٍّ ما، إلا لبلوغه الغاية فيه إلى جانب علوم أخرى؛ بما يجعله من الأئمة المشهود لهم.

وامتدادًا لهذا الإرث العظيم والتليد، فلا غرابة ولا عجبَ أن يُفسر التكامل المعرفي بمعنى التكامل في المناهج التعليمية بين العلوم الطبيعية والإنسانية «الحديثة»، والعلوم «الإسلامية».

وتتسع صور التكامل من نطاق الفرد، لتدخل في دائرتها تكامل جهود الأفراد من العلماء ليس في تخصص واحد، وإنما من تخصصات مختلفة لأجل التطوير العلمي والتكنولوجي المعاصر في مجالات متعددة، كالطب وغزو الفضاء، والطب والعلوم الشرعية، وعلوم الحوسبة واللغة وغيرها. وقد يتعلق أحد الجوانب الأساسية في هذا النوع من التكامل بإدارة المشروع العلمي، وتنظيم أدوار العاملين فيه، لتوفير المعلومة الضرورية لكل خطوة من خطوات المشروع، وفي الوقت المناسب إضافة إلى مواجهة الطوارئ والمستجدات.

ولا يقف مفهوم التكامل المعرفي عند بعده الآنيِّ والتخصصي، ولكنَّه يمتد ليدخل البعد التراكمي أو التاريخي، ليشمل تكامل جهود العلماء في الأجيال المختلفة؛ إذ يبني

كل جيل على خبرة الجيل الذي سبقه، وكذلك الأمر في تكامل جهود الشعوب والأمم؛ إذ ينبئُنا التاريخ أن حضارة أية أمةٍ كانت في الغالب نتيجة التفاعل والاستيعاب الثقافي والحضاري من الأمم الأخرى، المعاصرة لها أو السابقة عليها. لتضيف هذه الجهود التفاعلية أو الاستيعابية منجزات جديدة تشيَّد في صرح الحضارة الإنسانية.

الإمام الأسمر: النسب، والنشأة، والتكوين

الشيخ المُصلح، والإمام المجدد، سيدي عبد السلام بن سليم، ويرتفع نسبه إلى السادة الفواتير أحد الفروع الشريفة المنحدرة من إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن سيدنا علي بن أبي طالب، وسيدتنا فاطمة، بنت رسول الله ﷺ.

أما نسبه الشريف من جهة أمه رضي الله عنه، فيرتفع نسب أمه السيدة سليمة بنت عبد الرحمن الدرعي إلى الولي الصالح المربي سيدي عبد السلام بن مشمش، فنحن أمام شخصية فريدة من نوعها، شخصية تنماز بطيب الأُرُومة، وشرف المَحتد، من جهتي الأب والأم، فماذا عساها أن يناط بها من أدوار؟ وما الذي جعلها مؤهلَةً كي تقوم بما يجب عليها تجاه مجتمعها وأمتها؟ لقد قيَّضَ الله للشيخ مجموعة من العوامل ساهمت في تشكل شخصيته الإصلاحية التجديدية، وهي في جملتها، تكشف عن مظهرٍ للتكامل المعرفي أسهم في تكوين هذه الشخصية وإعدادها؛ كي تؤدي رسالتها الشريفة وهدفها السامي، وقد ظهر ذلك بصورة واضحةٍ في جملة مؤلفاته التي أثرتْ المكتبة العربية الإسلامية، وتُرجمت في سلوكات عملية في معاصري الشيخ من الحكام والمحكومين فضلًا عن تلاميذه.

وُلد الإمام الأسمر في يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام 880 للهجرة بمدينة زليتن التي شرفها الله تعالى بأن تكون محل مولده ووفاته، وقد كُتب عليه أن يذوق مرارة اليتم وآلام الفقد ليكون رحيمًا باليتامى، إذ توفي والده وعمره لم يتجاوز العامين. وقد اعتنت به أمه عناية فائقة، وسهرت على تربيته وتعليمه وتنشئته التنشئة الإسلامية القويمة، وتلقينه مكارم الأخلاق وحميد الصفات.

والأم هنا تعد المعلم الأول الذي هيأ هذا الوليد لتلقي نوعٍ آخر من الإعداد، لا شك أنه سيسهم في تشكيل فريد لشخصيته التي ينتظر منها أن تقومَ بأدوار تختلف به

عن الشخصيات الأخرى، التي عاشت نفس الظروف الزمانيّة، والمكانية، والاجتماعية، والأسرية.

وإلى جانب ما تقوم به الأم داعمًا لها ومكملًا لأدوارها، يأتي دور العم الشيخ أحمد الفيتوري الذي تزوج بوالدته بعد موت أخيه، إذ كان الرجل عالمًا بالعربية ماهرًا في العلوم، جيد إلى حد كبير في الغرض الشعري، حتى وصفه الإمام عبد الأسمر بقوله: كأنه كعب بن زهير أو حسان بن ثابت، وإلى جانب ذلك كانت له دراية بعلوم النحو، والمنطق، والتوحيد، والفقه، وكان يعلمه الآجرومية إلى أنْ مهرَ فيها. حيث أشرف العم على تربية ابن أخيه وتعهده بالرعاية والتعليم، لذا يُعد أول مشايخ الإمام الأسمر.

وهنا يبرز دور الأسرة في تنشئة أبنائها، وغرس حب العلم في نفوسهم، خاصة في المجتمع المسلم، وكيف يمكن للوالدين أن يهيئا التربة الخصبة للتلقي والاستزادة، تمهيدًا للتبحر والتعمق في العلوم، والتفاني في تطبيقاتها لخدمة المجتمع، وذلك بالتوازي مع الإيمان بالرسالة التي سيشرفون بأدائها، والأهداف السامية التي تتصل بالإطار العام لهذه الرسالة، والتضحية بكل غالٍ ونفيس من أجلها، خاصة إذا كانت الأمة تعيش فترات ضعف، وانحطاط.

لقد كانت أسرة الإمام الأسمر بمثابة مدرسة علمية بمستوى متقدم ورفيع، إذ حرصت هذه الأسرة ويترأسها عمه الشيخ أحمد ليس على حفظ القرآن الكريم وشيء من مبادئ العربية، كما تطمح إليه كثير من الأسر في عنايتها الفائقة بأبنائها، بل على إتقان ابنها لقراءات القرآن في وقت لا يزال مبكرًا، وهو ما لا يتوفر إلا في معاهد أو مدارس متقدمة، تتعهد بهذه التخصصات العليا في علوم القرآن.

بدأت مسيرة الإمام الأسمر التحصيلية كما رأينا في أسرته، ثم واصل المسيرة، ليطلب العلم خارج البيت، فكان أن ألحقه العم بالمكتب، حيث يواصل التلقي على يد الشيخ عبد الرحمن المسلاتي التونسي، ليحضرا معًا - الإمام وعمه - الدرس في الآجرومية، وألفية ابن مالك في النحو، والمعاني، والبيان. ولم يفارقه إلى أن تجاوز الاثني عشر سنة، فتجلت عناية الله به إذ أصبح من الماهرين الحافظين في مدة قليلة، وكان على حسن ضبطه وقوة حفظه وجودة استيعابه لا يقرأ القرآن إلا من المصحف امتثالًا للأمر وزيادة في الأجر.

ونلاحظ في هذه المرحلة من مسيرة الإمام الأسمر التحصيلية، كيف حرصت الأسرة بقيادة العم السيد أحمد بن محمد الفيتوري، على ألا تلقي بابنها في أول معهد للعلم خارج البيت وحيدًا، بل كان الحرص من جانب العم على مرافقة الإمام الناشئ في هذه المرحلة من مراحل الطلب؛ حتى يتمكن من أساسيات العلوم الشرعية والعربية، ولا ريب أنَّ تمكن شيخنا الإمام الأسمر من أساسيات هذه العلوم في هذه المرحلة -وقد نجح في ذلك باقتدار- كان أثمن منتج تتوج به مسيرة الشيخ في هذه المرحلة من مراحل التكوين؛ مما سينعكس أثره في مواصلة النجاحات في المراحل التحصيلية المقبلة من عمر مسيرة الإمام المباركة.

أما عن علماء التصوف ومشايخه الذين توجه لهم الإمام الأسمر في أيام الطلب، فكان من أبرزهم الشيخ عبد الواحد محمد الدوكالي، يقول الإمام: «وبعد انتهائي من حفظ القرآن ومعرفة ما يصلح بي من أمر ديني، توجه بي عمي أحمد الفيتوري ﵀ إلى الشيخ الكبير الشهير بالولي الصالح الإمام القدوة أبي محمد عبد الواحد بن محمد الدوكالي»، ويكشف هذا الوصف من الشيخ لأستاذه عن المكانة الرفيعة التي يحظى بها هذا العالم الجليل ليس في دائرة المجتمع التعليمي الصغير، بل في الدائرة الكبرى للمجتمع بكافة فئاته وتنوعاته التي يتشكل منها. لم لا «وهو من العلماء الكبار الذين يمتازون بفصاحة اللسان وحسن الخلق، وكان علماء مصر يعظمونه تعظيمًا طيبًا، وشهدوا له بالعلم، والإجازات، والتعظيم، والتفويض».

وقد تربي الإمام الأسمر على هذا الأستاذ الجليل، وقضى بين يديه سبع سنين كاملة، مجدًّا في ليله ونهاره، دارسًا لما يمليه عليه من معلومات ومعارف، فقرأ عليه المختصر والرسالة والحكمة العطائية والتوحيد. وكان منهج شيخه في تعليم التصوف يقوم على تركيزه على الجانب العملي، إلى جانب الأسلوب المميز في التربية، وقد أورد الشيخ العلامة أحمد القطعاني أمثلة على ذلك في كتابه عن الشيخ الأسمر.

ولا شك أن هذه المرحلة من مراحل مسيرة الإمام الأسمر العلمية، والتي يمكن نعتها بمرحلة التلقي والتربية العملية والتطبيق السلوكي، تُعدُّ مرحلة فاصلة في مراحل التكوين وصقل الشخصية لدى الإمام، فقد دخلها الإمام الناشئ مسلحًا بعلوم عصره النقلية والعقلية وفي قمتها القرآن وعلومه، وهنا تبدأ التربية بشقها النظري التي تمثل العلوم التي درسها على يد شيخه الدوكالي، ثم تعليم التصوف في جانبه العملي

والسلوكي. لقد كان الشيخ ومريده كلاهما على قدر كبير من المسؤولية في اجتياز هذه المرحلة وتحقيق النتائج المستهدفة: **فأما الشيخ** فبما منحه الله من عقلية علمية واسعة محيطة بعلوم عصره، وتمكُّن من أساليب التربية والتكوين والسلوكي. **وأما المريد** بما أودع الله فيه من حب للعلم وتطلُّع إلى أن يكون ذا شخصية علمية تجمع بين المعرفة وتطبيقها على أرض الواقع بما ينفع الناس ويمكث في الأرض، ولا يذهب جفاءً، ويبلِّغ الرسالة، ويجدد للأمة فكرها، الذي لن يكون إلا بتجديد دينها.

وهذا التجديد ينشأ على مرتكزين ثابتين وأصلين قويين، هما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن هذين الرافدين النقيين تؤخذ أسس كل المعارف والعلوم، وتستمد أطرها في جانبيها النظري والسلوكي.

غادر الإمام الأسمر مجلس أستاذه الدوكاليِّ بعد أن أجازه، وقال له بكل فخر واعتزاز: يا عبد السلام، ورثت مقامي، اذهب لينتفع بك الناس. لكن كان تواقًا إلى الاستزادة من تحصيل العلوم؛ فجعل يطوف على مجلس علماء عصره، كالشيخ عبد الله العبادي، وعبد النبي بن عبد المولى، وعلي العوسجي، ومحمد بن عبد الرحمن الخطاب، وعبد النبي بن خليف وغيرهم، وقد أجمعوا على أنه قد استوفى متطلبات الإرشاد والتوجيه، بعد أن انتهي من طور التحصيل العلمي.

لقد آن الأوان لهذا الطالب النجيب وقد حصَّل شتى العلوم من روافد مختلفة، وأجيز من قبل جميع من تردد عليهم، وأخذ منهم من علماء ومشايخ وأشرفوا على التربية السلوكية التي خضع لها الشيخ الناشئ وحقق فيها نجاحًا منقطع النظير، أن يقوم بأداء رسالته السامية في الإصلاح والتجديد، وأن يفيد مجتمعه الصغير ومجتمعه الكبير مما حصله من علوم نظرية لتأخذ طريقها في التطبيق العملي.

المسيرة الإصلاحية للإمام الأسمر

لا شك أن الرحلات التي كانت جزءًا لا يتجزأ من مسيرة الإمام الأسمر، كان لها أثرها، فقد اطلع من خلالها على معاقل وزوايا التصوف في البلاد، وهذا مكنه من عرض رؤاه وأفكاره التي تمثل مشروعه الإصلاحي، ومكنه أيضًا من تطوير أفكاره وتوسيع رؤيته التي استوعبت مشروعه في الإصلاح والتجديد.

وهذا لعمري ما ينتهجه كثير من أصحاب الرؤى والنظريات حين يهتدون بعد طول نظر وتمحيص إلى منهج جديد أو خلاصات ونتائج غير معهودة في معالجة إحدى

الإشكاليات العلمية التي ما زالت محل جدل ونقاش، أو تغيير في إحدى المسلمات العلمية السائدة من زمن، وغالبًا ما يُقابل هذا بعاصفة من الاعتراضات، تنال من الرؤى ومن أصحابها ومن مؤيديها.

بدأت مسيرة الشيخ الإصلاحية، بعد رجوعه إلى زليتن التي أُخرج منها سبع مرات، فخرج أولًا إلى منطقة الساحل ثم إلى طرابلس وقام بها بمسجد الناقة في خلوة به، فما سمع به متعلم أو عابد أو زاهد إلا هرع إليه ينهل من علمه، وكان يعقد مجلسه الشريف السماع أيضًا ليلتي الإثنين والجمعة، لكن الوالي ألزمه بالخروج من طرابلس، بعد أنْ وشى بها علماء السوء، فخرج منطقة غريان، وهناك مكث بغار يسمى «تكيره»، لكنه غادرها مضطرًّا إلى قلعة بمنطقة بني وليد تسمى قلعة «سوف الجين» وأصحابه سكن بها لمدة سبع سنين متتالية ما كان من شغل لهم إلا للعبادة والانقطاع لله تعالى.

انتقل الشيخ إلى مدينة تاورغاء، ثم إلى مصراتة التي تجاوز من أخذ عنه فيها الطريقة الثمانمائة مريد، وما فكر في الإقامة حتى نودي مجددًا بالخروج منها والذهاب إلى زليتن التي كانت، فاستقر بها حتى وافاه الأجل عام 981هـ، فنارت بها كل مدينة زليتن، وكثر فيها ذكر الله وتلاوة كتابه الكريم وانتفع به وبطريقة الخلائق، ولا زال ذلك النور الرباني يشع إلى يومنا هذا.

والناظر في هذه المسيرة الإصلاحية التي باشرها الإمام الأسمر ودأب عليها مذ أجيز من أساتذته وحتى لحاقه بالرفيق الأعلى؛ يلحظ أنها لم تكن مُعَبَّدَةَ السُّبُلِ، بل كانت مليئة بالعقبات محفوفة بالمخاطر، سواء أكانت ممن يجهله، أم ممن يعرفه ويحقد عليه، الأمر الذي جعله يغادر من مكان إلى آخر، لكنه لم يتوانَ يومًا ما في أداء رسالته تجاه أمته، بل زادته قوة وصلابة في التصميم على المبادئ الرسالية السامية التي وهب نفسه لها، واصطنع من أجلها.

الشيخ الأسمر: إنتاج علمي متنوع

انعكست هذه الحياة العلمية الحافلة بتعدد روافدها المعرفية، وتنوع مصادرها الثرية بشتى علوم العصر الذي نشأ فيه الإمام الأسمر، وعمق التجارب التي خاضها إثر الحواضر والبوادي التي وطئتها قدماه؛ إمَّا رغبة في الاستزادة من المعارف، أو نشرًا لها تعليمًا وتطبيقًا يفيد المجتمع ويعمل على تنميته، انعكست على إنتاجه العلمي المتنوع،

وإن لم يصلنا منه إلا أقل القليل، وسبب ذلك المحن والفتن التي تعرضت لها المنطقة في ذلك الوقت، ومنها هجوم دعيٍّ خرج في طرابلس بدعم من فرسان القديس يوحنا، وأثار فيها الفتن والمقاتل والحروب، اسمه يحيى بن يحيى السويدي، على زاوية الإمام فدمر من بين ما دمر مكتبة الزاوية العامرة بالنفائس من كتب ومخطوطات وأشعار بلغت خمسمائة مجلد، فضلًا عن قتل السيد عمران نجل الإمام، وذلك عام 995هـ.

إن هذه المكتبة التي اقتناها الإمام الأسمر بمجلداتها الخمسمائة خير شاهد على التكامل المعرفي الذي انمازت به شخصية الشيخ العلمية من غيرها، والتي ما كانت أن تبرز إلا بانفتاح الإمام على علوم عصره في التنشئة والتكوين على أيدي ثلة من علماء عصره، بداية من البيت مرورًا بالكُتاب، ثم بالعلماء الذين مرَّ بهم ونهل من ينابيع المعرفة الثرية لديهم.

وتفاعل الإمام مع هذا الكم الكبير من الروافد المعرفية التي صبتْ خلاصة ما تحمله من منافع في قلب صاحبها، لكن شخصية مثله لا بد وأن تضيف وتخرج نتاجًا علميًّا يصطبغ برؤيته المعمقة في كثير من حقول المعرفة التي تنفع الناس وتمكث في الأرض.

والواقع، أنه لم يصل من مؤلفات الإمام الأسمر سوى كتب قليلة في التصوف والتاريخ والتراجم، ويكفي أن نعلم أنه كان له أربعون كاتبًا معتنون ومتجردون لتدوين ما يمليه من فنون الدين وعلومه، غير ما كان يكتبه الطلبة، منهم سبعة لا يفارقونه إلا وقت النوم منهم: الشيخ سالم الحامدي، والفقيه معتوق المدني، والفقيه محمد الشوشان، والفقيه سعيد التطواني.

ومن هذه المؤلفات:

1. كتاب الأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية.

2. الوصية الكبرى وهي نصيحة للمريدين في الأولياء والصالحين.

3. الوصية الوسطى: على غرار الكبرى.

4. الوصية الصغرى: على غرار الوصية الكبرى مع اختصار قليل، وتُسمى: الوصية الصغرى لمن أراد الدخول في طريقتنا مع الفقرا.

5. رسائل بها توجيهات وتوصيات ونصائح بعثها الشيخ لأتباعه بتمبكتو بمالي في

غرب أفريقيا، وتونس، وغريان، وطرابلس، والمغرب الأقصى، وبعض الرسائل لخاصة مريديه.

6. التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية.

7. العظمة في التحدث بالنعمة.

8. نصائح التقريب في الأولياء والنقيب.

هذا فضلًا عن براعته في قرض الشعر، إذ ترك الشيخ إنتاجًا شعريًّا ضخمًا متنوعًا يندر أن يتوافر عند أمثاله من رواد الفكر الإصلاحي، فله ينسب (700) قصيدة عروضية باللغة العربية الفصحى، و(400) مقطعة باللسان الدارج، و(800) على موازي الحسن الششتري، و(500) على موازين الجعراني، وعدد لا يعلمه إلا الله من الأشعار الملحونة.

ورغم مرور خمسة قرون على وفاة الإمام إلا أن تأثير مناظيمه الشعرية مستمر، وبشكل متكاثف ومتزايد، ولشدة تأثيرها لا تزال عملية تناقلها بذات الأداء والطبوع الموسيقية، وهي كغيرها من مئات النصوص الشعرية التي لا تزال متوارثة بالرواية الشفهية في المجتمع الليبي، وأيضًا في الأقطار المجاورة، تؤكد على أثر ثقافي خاص قلَّما يلاحظ في سير وتاريخ ومشاريع غيره من الإصلاحيين.

من معالم التكامل المعرفي في مؤلفات الإمام الأسمر

فضلًا عن التنوع في العلوم التي امتلك الإمام الأسمر ناصيتها، والتي أماطت اللثام عنها سيرته النَّدية، وبرهنت عليها شمولية مسيرته الإصلاحية، فإنَّ ما خلفه للأمة من مجموعة مؤلفاته، والتناول الذي انتهجه في أكثر من مؤلف يشهد له بذلك، ناهيك عن تعدد القضايا التي ضمَّنها هذه المؤلفات، وتباين حقولها المعرفية. ويكفي أن نقف فقط عند مجموعة وصاياه التي تناولت كافة الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكل ذلك كان من منظور عقدي وفقهي. هذا فضلًا عن مجموعاته الشعرية التي تعطينا صورة صادقة لملامح البيئة الزمانية والمكانية التي نشأ فيها وعاشها، وكلها تكشف عن بعض صور من هذا التكامل المعرفي عنده، والذي انعكس بوضوح في مشروعه الإصلاحي، وهو يهدف إلى المحافظة على الهوية الإسلامية التي تميز المسلم من غيره، وتدعو الآخر إلى التفكير مليًّا فيها، ومن ثَمَّ الاقتناع بجدواها والتأثر بها. خاصة في كثير من القضايا المثارة الآن على الساحة، والتي يتشدق الغرب بتبنيها والدفاع عنها.

فمن وصيته التي تؤكد على صيانة حقوق المرأة في المجتمع الإسلامي، وهي فرع أصيل من مشروعه الإصلاحي المجتمعي، يقول: «إخواني، فخذوا حذركم من النسوان ومخالطتهن ومكالمتهن، والذكر معهن من أكبر الفتنة والمهلكة»، كما حذر من مزاحمتهن في الطرقات أو الاحتكاك بهن، بل الإفساح لهن في الطريق حتى يمررن في صون وعفاف، يقول ﷺ: «فزاحموا الجمال الجرب المطليات بالقطران، ولا تزاحموا النسوة في الطريق، غضُّوا أبصاركم؛ فإن غض البصر يورث محبة الله ﷻ».

ولا يفهم من كلامه ﷺ إنقاصًا لحق النساء، بل رفعة وصيانة لهن، وحفاظًا على حصانة المجتمع الإسلامي من الاختلاطات التي تعانيها مجتمعات اليوم، بل يجب قراءة كلامه قراءة صحيحة كما القراءة العميقة التي أجراها الشيخ العلامة أحمد القطعاني في الوصية الكبرى، ونبه فيها إلى أن نهي الإمام الأسمر عن الذكر مع النساء له وجه آخر من القراءة، إذ يعني «أنهن كن يقمن بحلقات الذكر الخاصة بهن».

وإذا كانت الوصايا السابقة موجَّهة للرجال في حق النساء، فهناك أخرى خاصة بالنساء وموجهة لهن، وتتعلق بالتزين وأدواته في عصر الإمام، يقول محذرًا إياهن: «وإياكن والضفر المعصوب بالخيوط ونحوها إلا الخيط والخيطان، وإياكن وكثرة القطاطي والدلايل والعقايص والملازين والتمايم... فهذا كله فاتركوه».

ولما كانت النساء هن أعمدة البيوت وعليهن تقوم صروح الاستقرار والنهوض، فقد وجه الإمام لهنَّ مجموعة من النصائح تكشف عن مدى حرصه على استقرار البيت المسلم؛ ليكون بحق بيتًا تعمُّه السكينة والمودة والرحمة، وبيئة صالحة لتنشئة الأجيال التي تحمل مسؤولية الأمة في الإصلاح والنهوض، وجندًا شجاعًا يدافع عن حياض الأمة، وردِّ كيد أعدائها، وجعلها أكمة مهابة الجانب تُخشى ولا تخشى إلا الله، يقول ﷺ ورحمه الله: «غضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم ما استطعتن، واجتنبوا جميع المحارم، وأطيعوا أزواجكم، وإذا دعوكم إلى الفراش فلا تعصوهن، ولا تؤذوا جيرانكم، واحفظوا بيوتكم من الرجال والنساء الفاسقات، ولا يحل لكم أن تُدخِلوا بيوتكم من الرجال ليسوا من محارمكم الذين لا يحل لكم جلوسهم ولا كلامهم، إلا البعل والأب والأخ والخال ونحوهم».

وفي تأصيل وصاياه تلك وغيرها في حق النساء؛ لتكون أوكد في تطبيقها والالتزام بها، يقول الإمام: «إخواني إخواني إخواني: توعَّظوا بهذه الآية الشريفة واعملوا بها وهي

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غَافِر:19].

ومن الحديث الشريف في تأصيل هذه الوصايا الجامعة يذكر الإمام رضي الله عنه أنه جاء: «في الخبر الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة رضي الله عنها: «احفظي بيتك فإن النساء يوم القيامة أكثرهن حطبًا للنار، فقالت: من أي شيء حطبًا للنار؟ قال: لأنهن لا يصبرن في الشدة، ولا يشكرن في الرخاء، الحديث إلى أن قال: يا عائشة، إنَّ الله تبارك وتعالى أوجب حق الرجال على النساء أن يطعْنَهم في جميع أمورهم، يا عائشة، ما من امرأة خرجت من بيتها بغير إذن زوجها إلَّا لعنها كل ملائكة السموات والأرض، وكل شيء تمر عليه حتى ترجع. يا عائشة، ما من امرأة قالت لزوجها: ما رأيت خيرًا قط. إلَّا أحبط الله عملها. وما من امرأة نظرت لزوجها بوجه عبوس إلَّا لعنها كل نجم في السماء. يا عائشة، ما من امرأة كلفت زوجها في أمر نفقة لا يُطيقها، لم تنلها رحمة ربي، وليس لها في شفاعتي نصيب. وما من امرأة قالت لزوجها: أراحني الله منك، لم تشمَّ رائحة الجنة».

ووفقًا للقراءة العميقة التي وضعها العلامة القطعاني من واقع نصوص وصايا الإمام الأسمر، فإن الإمام تصدى لقضايا خطيرة وحذَّر منها، كمحاولة تهويد مدينة زليتن، بتنامي قوة اليهود، ومحاولاتهم السيطرة على المدينة، يقول: «إذ كان في زليتن جالية يهودية كبيرة، ولم يكن من سبيل لوقف زحفها وكبح سعيها للسيطرة على المدينة سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا واستقطاب مصالحها إلى يديها، مستغلة ظروف البلاد وأهلها وإيقاف قدراتهم المتزايدة، إلا بتحذير التائب (أي: المريد) من مغبة الإفراط في مجاملتهم»، وينقل عن الإمام الأسمر في ذلك قوله في إحدى وصاياه: «إخواني: ولا يجوز للتائب أن يعبث مع اليهود أو يضحك معهم أو يبتسم في وجوههم، قال عليه الصلاة والسلام: «من تبسم في وجه ذمي فقد قرضني» ولا يحل لفقير أن يجالسهم إلا لأجل حاجة».

وهذه الوصية واجبة على كل مسلم، كما يظهر من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي استشهد به الإمام، لكنه خصَّ بها المريد؛ لأنها في حقه أوجب إذ هو قدوة لغيره، ونظرا

لأن الضرورات تبيح المحظورات -كما هي القاعدة الفقهية- فقد استثنى من ذلك أن تكون للمسلم حاجة عند هذا اليهودي. وكم نحن الآن في حاجة ماسة إلى الأخذ بهذه الوصية ومقاومة ما يسمى بالتطبيع، التي بدأت وتيرة الدعوات إليه تتصاعد مخاطبة من لهم حاجة ومن ليس لهم حاجة.

ويلفت العلامة القطعاني إلى صدق فراسة الإمام الأسمر ﵁، إذ تنامت قوة يهود زليتن ونفوذهم، إلى أن تمكنوا - بعد ثلاثة قرون تقريبًا من وصية الإمام - من بناء كنيسة يهودية افتتحوها سنة 1867هـ، تحت أنغام موسيقى احتفالات تجوب أحياء المدينة ومظاهر الزينة والأفراح في كل البلاد، لكنها أُحرقت بعد أسبوع من افتتاحها على يد الأخوين منصور وعلى القداري البرهمي.

وفي مقابل ذلك يدعو الإمام إلى السلم المجتمعي، في معاملة الناس كلهم بالحسنى واحترام آدميتهم، وتلك علامة مضيئة في تاريخ التطبيق العملي لإخوة الدين والإنسانية التي حثَّ عليها الإسلام وطبقها الرسول الكريم ﷺ، وخلفاؤه الراشدون، واعترافًا بحقوق الإنسان والمحافظة عليها وصيانتها، وذلك قبل أن يتشدق بها أدعياء الحضارة والمدنية -بعقود- في محافلهم ومنتدياتهم الزائفة، ثم ينحرفون بها عن مسارها الصحيح فيصدِّعوننا بها متى شاءوا، وتخمد أنفاسهم كثيرًا فلا نسمع منهم إلا همسًا من تراكيبَ مبتذلة من الشجب والاستنكار والشعور بالقلق، وربما الإعرابِ الزائفِ عن الإحساس ببعض الألم عندما تعرض عليهم مشاهدُ صارخةُ للتعذيب والتنكيل والتدمير في بلاد المسلمين.

يقول الإمام ﵁: ومن شروط التوبة: ترك سَب المسلم وإهانته وضربه وتخويفه وزجره بغير وجه شرعي، ومن شروط التوبة: ترك سب جميع الناس إلا من يترتب في سبه مصلحة شرعية، أو فاسقًا مجاهرًا بالمعاصي، أو مدمن خمر، أو زانٍ أو متكبر أو تارك الصلوات. ولا يحل للمسلم أن يبغض شيئًا من خلق الله كلهم؛ لأنهم منسوبون إلى الله، وهم عبيد الله وحرمة العبد على قدر حرمة سيده، فعاملوا خلق الله باللين والرقة والشفقة والحنانة والنصيحة لهم، ولا تبغضوا إلا ما أوجب الله بغضهم مثل الكفار وشبههم.

ومن القضايا التي تناولها الإمام في وصاياه ما يتعلق بشؤون القضاء والحكم ويتصل بالسياسة، وهو الرشوة في الحكم وسماه (السحت)، وهذا السلوك من الأمور التي تؤدي إلى طمس الحقائق وأكل أموال الناس بالباطل، ولا شك أن في ذلك -متى فشا

في المجتمع– ضياع لحقوق الناس وانتشار للحقد والبغضاء وتفكك للحمة المجتمعية، وإيذان بالخراب وسقوط الدول والممالك وتسلط الأعداء على البلاد. ناهيك عن ضعف الانتماء الوطني للرعية في الممالك التي يسود فيها هذا النوع من الظلم.

يقول الإمام محذرًا: «إخواني، وإياكم والسحت وهو الرشوة في الحكم، قال عليه الصلاة والسلام: «كل نبت بالسحت فالنار أولى به»، وقال عليه الصلاة والسلام: «لعن الله الراشي والمرتشي» واللعنة في الحقيقة هي البعد من رحمة الله، وإياكم وأخذ البراطيل والشحمة، قال إمامنا الدوكالي ﵁: ليس منا من أخذ البراطيل والشحمة، وأطال في ذلك إلى أن قال: الفرار منه الفرار، وهو في تفسير شيخنا أبي رأس ﵀ أن البراطيل والشحمة هي الإكراه على الشهادة المزورة الباطلة»·

وتحت عنوان آداب المحادثة في كتابة الوصية الكبرى، ما يكشف عن التكامل المعرفي الذي انطبعت به شخصية الإمام، فضلًا عن وعيه بما يجب على المخاطَب تجاه المتلقي ومراعاة أحواله، حيث مخاطبة كل متلقٍّ وفق مرتبته، والتزام الآداب في هذا الاتصال - لا شك - يؤتي أكله، ويحقق الأهداف المرجوة منه، وهذا ما جاءت به كثير من أدبيات نظرية التلقي في العصر الحديث، وإن كانت بعض مبادئها مبثوثة في تراثنا النقدي.

يقول الإمام: «إذا جلستم مع الملوك فحدثوهم بسيرة أهل العدل، وآداب العقلاء وبالعفاف عما في أيدي الرعية، وإذا جلستم مع العلماء فأخبروهم بالروايات الصحيحة في المذاهب المعلومات، وإذا جلستم مع الفقهاء فحدثوهم بالأقوال المشهورة من المختصر والرسالة بالحق دون اللهو، وإذا جلستم مع أهل الحديث فحدثوهم بالأخبار الصحيحة والناسخ والمنسوخ وبالمطلق والمقيد والعام والخاص، وإذا جلستم مع الصوفية فحدثوهم بما يشهد لعلومهم الظاهرة والباطنة، وبما يشهد لأحوالهم وزهدهم، وأخذهم بالأحوط وتورعهم وتركهم المكروه والمختلف فيه. وإذا جلستم مع القراء وأهل الرسوم فحدثوهم بالقرآن ورسمه وبالحذف والإثبات كالمورد والعمدة وابن بري وغيرهم، وحدثوهم بالتجويد والضوابط والروايات كنافع وغيره، وإذا جلستم مع الصالحين فحدثوهم بالكرامة والمناقب وبما يكتبه القوم كاليافعي والمنهاج والشيخ القشيري وغيرهم، وإذا جلستم مع الفقراء أهل الذكر فجاوبوهم بما يشهد لأحوالهم وأفعالهم الحقانية وذكرهم وما يقيم لهم الحجة على المنكر عليهم والمتعرِّض إليهم مع

آداب الباطن قبل الظاهر، وإذا جلستم مع العارفين بالله فحاضروهم بما شئتم؛ فإن لكل شيء عندهم من وجوب المعرفة نصيب، لكن بشرط لين الكلام وحفظ الحرمة والأدب، وإذا جلستم مع الجاهلين فأمروهم بالقراءة والتعليم ما تصح به صلاتهم».

إنَّ هذه الوصية التي وجهها الإمام لتلاميذه ومريديه لا تصدر إلا عن عالم قد انفتح على كل علوم عصره وأجادها وتمكَّن منها، وتحتاج مقاربتها إلى بحث كامل؛ حتى يمكن الكشف عن مدى امتلاكه لأدوات الإبداع الخطابي، وإماطة اللثام عن مجموعة من التقنيات الفنية التي تمَّ توظيفها في الإقناع والتأثير، فضلًا عن استحضار سياق الموقف الذي يوجب توظيف عنصر لغوي ما، ورفضِ آخر.

ولا يخفى على أي محلل للخطاب الدعويّ الأسمري في هذه الوصية -كنموذج- أنَّه سيظفر بمادة ثرية للمقاربة الحجاجية، حيث الوسائل المنطقية بعلاقاتها المتشابكة، والتي يمكن من خلالها الخروج بمعانٍ متعددة تستهدف المتلقي وتفيده ليظفر بخيري الدنيا والآخرة، ثم تأتي الوسائل اللغوية التي طُعِّمت بها جمل هذا الخطاب وفقراته لتجعل منه خطابًا متسقًا ومنسجمًا ليحظى بأسمى درجات المقبولية، ويضحى نموذجًا متميزًا في الإبداع والتأليف.

أما عن مأثورات الإمام الأسمر الشعرية، فهي أيضًا تحتاج إلى بحث، بل بحوث مستقلة، فما دام الشعر ديوان الحياة، فإن مدونته الشعرية المروية تعتبر من أكبر وأهم مصادر التاريخ الليبي، إذ هي حقل كبير وثري من حقول الدراسات الاجتماعية والأنثربولوجية والجغرافية؛ لما توفرت عليه من تأريخ للأعلام والثقافة والأدب الليبي والعربي، وتوثيق لعناصر التغبير والتأثير الاجتماعي، وصورٍ لحياة المجتمع الليبي وصفحات كاملة للحركة العلمية والثقافية والسياسية وغيرها، وقبل كل هذا فهو مصدر هام -إلى جانب مصادر أخرى- من مصادر دراسة شخصية الإمام الأسمر، والتعرف عن قرب على معالم وملامح مشروعه الإصلاحي.

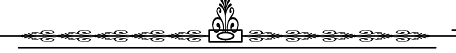
ويأتي التناول النصي والبلاغي والنقدي لهذه المأثورات، ليحاول أصحابه من الباحثين والمتذوقين أن يميطوا اللثام عن مكتنزاتها من اللآلئ الثمينة التي مازت هذه المأثورات من غيرها في جوانبها النصية، وجمالياتها البلاغية، ناهيك عن الأحكام النقدية التي يخرج بها متذوقو هذه المأثورات النادرة.

خاتمة:

وبعد، فلم تكن المهام الملقاة على عاتق المصلحين، والأدوار التي تنتظرهم، سواء أكانت في المجتمع المحلي أم في المجتمعين الإقليمي والدولي، أمرًا سهلًا، يمكن لأي شخصية أن تقوم بها؛ فطريق الإصلاح والتجديد دائمًا غير معبَّد المسير؛ المعيقات تكتنفه، والصعوبات تعتريه، والمتربصة يحيطون به، والمرجفون يتأهبون له، لذا كان أمرًا لازبًا أن يكون الإعداد والتكوين لمن يسير في طريق الإصلاح يرتكز على التسلح بمجموعة من العلوم العقلية والنقلية فضلًا عن الخبرات الحياتية حتى يمكن القيام بالدور الإصلاحي والتجديدي، ومجابهة كل من يحاول أن يثنيه عن أهدافه.

وقد بدا واضحًا أثر التكامل المعرفي في بناء وصقل شخصية المصلحين، مما أهلهم لأن يقوموا بالأدوار الحضارية الجسام على مستوى المجتمع والأمة، ولم تكن تأثيرات هذه الأدوار أو توابعها، مقتصرة على المدى الزمني أو الظرف التاريخي والحيز الجغرافي الذي عاشته شخصية المصلحين ومنهم الإمام الأسمر، بل إن الأمة الآن في أشد الاحتياج لمُدارسة الفكر الاصلاحي لهذا المُجدد من كافة جوانبه الدعوية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكيف يمكن الإفادة من ذلك في مواجهة الأزمات التي تعيشها الأمة، حتى يمكن انتشالها من وهدتها؛ لتقوم بدورها الحضاري الذي أنيط بها وشرُفت به كما جاء في التنزيل الحكيم.

وأحسب أنَّ هذا المؤتمر الذي يجسد التكامل المعرفي في مساءلته لتراث الإمام الأسمر، يمثل نقطة البداية، التي أوصي بأن تتجسد في صورة أكثر شمولية وعملية في تأسيس مخبر أو مركز علمي، يعنى -عن طريق فرق بحثية ذات كفاءة- بالوقوف على سيرة ومسيرة الإمام الإصلاحية والتجديدية، وإعادة قراءتها في كل مراحلها، بما يساعد على تقديم قراءة صحيحة، أو فلنقل قراءة حضارية شاملة لمؤلفات الإمام المتعددة والمتنوعة. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، والحمد لله أولًا وآخرًا.





المضامينُ التربوية
في رسائل الإمام عبد السلام الأسمر ووصاياه

د. عبد الناصر عبد المولى أحمد
باحث في تاريخ التصوف – مصر

ملخص:

تمثل جهود الإمام عبد السلام الأسمر التربوية، إضافة إلى جهود أئمة التصوف، نبعًا طيبًا ومعينًا صافيًا لاستنباط مضامينَ تربوية ذات مرجعية تأصيلية إسلامية تقوم على تجربة روحية نقية، لم تتلبَّس بتغريب الأهداف ولا شذوذ الأفكار وتطرُّفِهَا، ورسائل الإمام الأسمر ووصاياه تزخر بهذه المعاني الأخلاقية التي تستطيع أن تستنهض النسق القيمي والأخلاقي الغائب عن الحاضر الإسلامي في ظل أزماته الحضارية والأخلاقية، وهذه المقالة تحاول إلقاء الضوء على المعاني المستنبطة والأفكار المستلهمة من وصاياه المباركة التي تضمنتها رسائله، وقد اخترتُ عينةً من تلك المضامين للتركيز عليها في حدود مساحة البحث، وهي: صفةُ الصوفي، الشيخ والمريد، بر الوالدين وصلة الأرحام، حب المساكين وذوي الحاجات والعفو والإحسان، التوبة، محبة النبي واتباعه ﷺ، سلامة الصدر والرفق والتوكل على الله.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الزاوية، المضامين التربوية، التصوف، الإصلاح.

مقدمة:

سلك الإمام عبد السلام الأسمر في التربية طريق الذوق الصوفي في تقديم النصيحة، وإظهار القدوة لمريديه تأسيسًا لمراد الإسلام في تكوين شخصية المسلم المتكاملة علمًا وشرعًا وحقيقةً وسلوكًا، فالمتصوفة يسلكون في تأسيس القيم الخلقية والتربوية طرقًا متعددة، وعلى الرغم من أن كلها تنبع من معين واحد وهو الشريعة والحقيقة، غير أن لكل منهم تجربته الخاصة التي تعبر عن مواجيده وفتوحاته، ولهذا عبر الكثير من العلماء، كابن خلدون، عن صعوبة وضع تعريف شامل للتصوف، فقال: «فكل واحد منهم عبَّر عما وجد، وينطق بحسب مقامه».

والأخلاق عند السَّادة الصوفية تُشَكِّل أساسًا للتربية وميثاقًا بين الشيخ والمريد لينتظم ذلك كله في تحقيق الميثاق الرباني في الإيمان والعمل والولاية والمحبة. وتضمنت رسائل ووصايا تأسيسًا لمنهاج تربوي إصلاحي للعلاقة بين الإنسان وخالقه وبين المريد وشيخه وبين العالم والمتعلم، وبين الجار وجيرانه، وغيرها من القيم التي يمكن القول إنها تؤسس لنظرية تربوية متكاملة متكاملة تنظم شتى مناحي الحياة، وتنتظم في نسقٍ قيمي رَشِيد، إلى جوار مثيلاتها في التراث الصوفي كرسالة: (أيها الولد) والإحياء لحُجةِ الإسلام الغزالي، والحكم لابن عطاء الله، وتهذيب الأخلاق لابن مسكويه وغيرها.

وتجربة الإمام الأسمر في حقيقتها هي تأصيل إيماني لمنحى تربويٍّ نابعٍ من تجربة روحية نقية استغرقت كليته وتعلقت بذاته بحيث بلغت قوة ورسوخًا يفوق قوة الأنماط المعرفية الموروثة، ولهذا وقع اختياري لمحور مشروع الإمام الأسمر الإصلاحي؛ ليكون موضوع مشاركتي في هذا المؤتمر الأغرِّ.

وتناقش هذه الورقة قضية إبراز إسهامات الإمام عبد السلام الأسمر التربوية من خلال المعاني المستفادة والدروس المستنبطة من رسائله ووصاياه، من خلال الخلفية العلمية والتاريخية لرسائل الإمام الأسمر ووصاياه، ومفهوم التربية ومضامينها وأثرها في إصلاح الفرد والمجتمع.

وتعددت تعريفات التربية عند المفكرين، فهي عند هربرت سبنسر: «إعداد الفرد ليحيى حياةً كاملةً»، وعند إيميل دُر كايم: «الفعل الذي تمارسه الأجيال الراشدة على الأجيال الصغيرة التي لم تصبح بعد ذلك ناضجة للحياة الاجتماعية، وموضوعها إثارة وتنمية عدد من الاستعدادات الجسدية والفكرية والأخلاقية عند الطفل، والتي يتطلبها المجتمع السياسي في مجمله والوسط الخاص الذي يُوجَّه إليه»، أما علماء التربية الإسلامية فهي: «تلك المفاهيم التي يرتبط بعضها ببعض في إطار فكري واحد يستند إلى المبادئ والقيم التي أتى بها الإسلام، والتي ترسم عددًا من الإجراءات والطرائق العملية يؤدي تنفيذها إلى أن يسلك سالكها سلوكًا يتفق وعقيدة الإسلام».

أما مضامين التربية، فنقصد بها «جُملة المفاهيم والمبادئ والمعايير والأساليب التربوية التي من شأنها أن تكون مقومات أساسية للعملية التربوية التي تستهدف بناء شخصية الإنسان»، وبالتالي تتشكل على أساسها محركات واقع الحركات الاجتماعية الإصلاحية.

وقد سبق ديننا الحنيف نظريات التربية الحديثة إلى الاعتناء بالتربية، وأولى جانب التربية على مستوى الفرد عناية خاصة، سيما وأنه انفرد بالاهتمام بالجانب الروحي حتى تكون العملية التربوية متكاملة متوازنة تصل إلى الهدف المنشود لإصلاح المجتمع.

نبذة من ترجمة الإمام الأسمر

تحتوي المصادر والمراجع في سيرة الإمام الأسمر على مادة تعريفية غنية عن حياته ومراحلها وتفاصيلها، فهو شريف النسب من آل بيت النبوة، من جهة والديه السيد سليم الفيتوري والسيدة سليمة الدرعية، وحظي برعاية خاصة من والديه اللذين يعدان من علماء وأشراف البلاد، وانظم عمه السيد أحمد الفيتوري مبكرًا لرعايته، فقام على تعليمه بعد وفاة أخيه السيد سليم. والتربية الصوفية الخاصة من المعطيات الهامة التي توفرت للإمام الأسمر في سنوات حياته المبكرة، والتي سيكون لها أثر بارز وكبير في حياته في مراحلها اللاحقة، إذ ما روته كتب السيرة التي أرَّخت لحياته عن عبادات ونسك والدته يدل على تصوفها، فوُصفت بالقوامة الصوامة التي لا تفتر عن تلاوة القرآن الكريم، ويبدو مما ذُكر عن طريقة تزويجها من السيد سليم أن والدها كان على درجة كبيرة من التصوف ما يشير إلى تلقيها تربية صوفية على يدي والدها.

وإن لم يعش الإمام الأسمر مع والده سوى عامين وشهرين، إذ توفي السيد سليم في وقت مبكر من حياة الإمام، إلا أن الرعاية التي حظي بها على يد عمه السيد أحمد الفيتوري من المؤكد أنها لم تبتعد به عن أجواء الحياة الصوفية التي لم تكن تعيشها أسرته فقط، بل كامل مدينة زليتن التي تعد معقلًا صوفيًّا بارزًا بعد استقرار عشيرة الفواتير الأدارسة الأشراف فيها.

ويجب أن نتوقف قليلًا عند شخصية عمه السيد أحمد الفيتوري، لمركزيتها وأهميتها في الفترة الأولى من حياته، وكونها كانت الموجه الأساسي لخوضه تجربة تربوية صوفية، فالمعلومات التي ذكرها الإمام الأسمر عن عمه كافية لرسم صورة مهمة عنه، فهو شخصية جمعت بين التصوف والفقه، وهو أمر بالغ الأهمية في التأثير والتوجيه لبناء شخصية الإمام، خاصة وأنه ذكره بشيء من الإجلال والإكبار، وذكر أنه أول معلميه ما يعكس شدة تأثيره فيه. يقول الإمام أن عمه «من أكابر الفقهاء الطرابلسيين متبعًا لظاهر الشرع لا يخرج عنه يمينًا ولا شمالًا»، كما أنه من وجهه لضرورة سلوك التصوف على يد مربٍّ صوفيٍّ، بل واختار له شخصية صوفية ليعيش بصحبته تجربة تربوية صوفية راقية تدل على أن عمه كان عارفًا بشروط ومعايير الشيخ المربي.

ولا يمكننا سرد تفاصيل الوقائع التي عاشها الإمام الأسمر مع شيخه ومربيه الشيخ عبد الواحد الدوكالي، الذي اختاره السيد أحمد الفيتوري لابن أخيه، لكن بنظرة عجلى كفيلة بأن تكشف لنا عمق التجربة الصوفية التي خاضها الإمام الأسمر صحبة أستاذه الدوكالي، تجربة جمعت بين الفقه والتصوف تعكسها الكتب التي درسها على يديه، كمختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وهما كتابان في الفقه، والحكم العطائية، وهي من أهم المدونات الصوفية. تروي لنا المصادر بعض الوقائع التي تكشف عن جانب من المضامين التربوية في العملية السلوكية التي عاشها الإمام على يد أستاذه الدوكالي، ومنها أن أستاذه «قال له في ليلة شاتية ذات برد ومطر كثير: اجلس تحت هذا الميزاب إلى أن آتيك. فامتثل وجلس تحته من بعد صلاة العشاء الأخيرة إلى الصبح، والميزاب يصب على رأسه الماء، ولم يتحول حذرًا من مخالفة شيخه إلى أن أتاه، ومنها أنه بعثه من مسلاتة محل إقامته إلى ساحل حامد ليأتي بحاجة من ابنة الشيخ، وقال له عند بعثه محرضًا على الاستعجال: إياك إياك أن تقعد. فأسرع ولما وصل ألحت عليه ابنة الأستاذ

أن لا يمشى حتى تصنع له طعامًا ولم يرفض تأدبًا معها ولم يقعد على الأرض طوال بقائه عندها امتثالًا»، وفي واقعة أخرى بعثه أستاذه «في ليلة شاتية كثيرة البرد والمطر ليأتي له بالماء من صهريج بعيد عن البلد بنحو الأربعة أميال، فذهب وملأ القربة وجعلها على ظهره، ولما قارب البلدة انفلت وكاؤها وأريق ما فيها، فرجع ثانيًا فلم يزل كذلك من المغرب إلى الصبح ولم يضجر ولم يتأوه، فلما أصبح الصبح ملأها وجعلها على ظهره بدون وكاء فسلمت بإذن الله تعالى». ويستخلص العلامة الأستاذ أحمد القطعاني رحمه الله، معاني رائقة من مضامين التربية في هذه الوقائع بقوله: «وكان أن اجتاز الشيخ عبد السلام الأسمر الامتحان بنجاح، فإن من يقعد تحت ميزاب لا يتحرك هو على قيام الليل في ظروف أفضل أقدر، ومن ذهب إلى مسافة بعيدة ولم يقعد حتى رجع هو عن عدم القعود عن طاعة الله أقدر، ومن أعاد ملء القربة عشرات المرات طوال ليلة كاملة هو على الصبر على إرشاد الناس وتوجيههم وتعليمهم أقدر وأقدر، ومن سلمت له القربة بدون وكاء أيقن أن الأمر بيد مسبب الأسباب».

المضامين التربوية في رسائل الإمام ووصاياه

عند استنباط المعالم والمضامين التربوية من تجربة الإمام الأسمر في وصاياه ورسائله، نجد أنها تحمل ثلاثة جوانب:

- جانب السُّلوك التعبدي.
- والتآلفُ الإنساني.
- والذوقُ العرفاني.

ووصايا الإمام الأسمر ورسائله هي ما تبقى من مصنفاته بعد هَدْمِ زاويته ومسجده في هجوم يحيى السويدي المدعوم من منظمة فرسان القديس يوحنا المتطرفة الصليبية، وهذه الوصايا هي كنزٌ ثمين ومنبعٌ صافٍ لمن أراد أن يستقي، فهي وإن كانت كلماتها قليلة فهي قليلة العبارة واسعة المعاني، وكما قال الإمام النفري صاحب المواقف: «كلما اتسعت الفكرة ضاقت العبارة».

وهذه الوصايا والرسائل تضمنت طريقة الإمام الدعوية وحكمته التربوية، فعلى المسلم أن يتحلى بالآداب والقيم التربوية العالية التي تصعد به في مراقي الكمال الإيماني، ولذا من المهم استقراء المعالم التربوية في هذه الوصايا والرسائل.

1 - صفة الصوفي:

بيَّن الإمام الأسمر صفات الصوفي، فقال: «تفقهوا في الدين وتصوفوا، إخواني: فيلزم الصوفي ثلاثة أشياء: الأول: حفظ سره، والثاني: أداء فرضه، والثالث: صيانة فقره»، وفي شكل أعمق يحدد الإمام مدار عمل التصوف قائلًا: «إخواني إخواني إخواني: التصوف هو تصفية القلب من الأدناس الذميمة، واجتناب العيبة والنميمة، ومُعازفة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة صفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، والنصح لجميع الأمة، واتباع النبي ﷺ في الشريعة».

وبشكل أدق يحدد الإمام الأسمر مبادئ التصوف:

- اتباع الشريعة للوصول إلى الحقيقة:

فالصوفي، في فكر الإمام الأسمر، متبع لسنة النبي ﷺ ولا يحيد عنها، محافظ على الجماعات والفرائض، وفي هذا يقول لأحد مريديه: «فاعلم أيها المريد الراغب في سلوك الطريق الموصل إلى مراتب التحقيق بالتحقيق أن رأس الأمر عند الطائفة ومراد الشأن عندهم على اجتماع القلب على محبة الله والإقبال عليه واتباع سيدنا محمد الطاهر على طاعته ابتغاء الزلفى إليه». وفي موضع آخر يقول: «وأوصيك ألا تدخل في شيء أي شيء حتى تعلم حكم الله فيه، ثم إذا استبان لك أن الذي يحب الله فعله أو تركه، فتحرَّ للفعل أو للترك نية صالحة»، وفي ذلك أثر تربوي بليغٌ؛ لأنه ربط الأدب والسلوك بالتوجيه الإيماني والعقدي الذي يصبغه بصفة القدسية، ويبني داخل ضمير الفرد رقابةً ذاتية وميزانًا وفرقانًا به يرى الحق ويتبعه.

- التخلق بآداب وأخلاق الأنبياء والصالحين:

ينقل الإمام الأسمر عن الشيخ فتح الله أبو رأس، وهو شيخ أستاذه الدوكالي، مقولاته في التصوف فيقول: «بُني التصوف على الأخلاق الثمانية من الأنبياء، الأول: (السخاء) وهو لإبراهيم عليه السلام، الخلق الثاني: (الرضا) وهو لإسحاق عليه السلام، الثالث: (العزلة) وهي ليحيى عليه السلام، الرابع: (الصبر) وهو لأيوب عليه السلام، الخامس: (الإشارة) وهي لزكريا عليه السلام، السادس: لبسُ الصوف وهو لموسى عليه السلام، والسابع: (السياحة) وهي لعيسى عليه السلام، الثامن: (الفقر) وهو لمحمد ﷺ»، فهذه الآداب هي أخلاق الأنبياء وهى مزيج من الآداب العملية

والقلبية التي اختارها الإمام الأسمر من أقوال الشيخ أبو رأس، لتكون نبراسًا للصوفي ويبني بها مقياسه الخلقي في التخلق بخلق الأنبياء والصالحين والتأدب بأدبهم، ويتحقق بها الأثر التربوي في اختيار القدوة والمربي.

- الإخلاص وترك العلائق والزهد في الدنيا:

يرى الإمام الاسمر أنَّ الصوفي الحقيقي هو من يُخلص التوجه إلى الله، ويترك العلائق والعوارض، فلا يعنيه رضى من يرضى، ولا سُخط من يَسخط، وقدَّم تعريفًا للإخلاص قال فيه: «وعليكم بالإخلاص في كل الطاعات والعبادات والإخلاص هو: إفراد الحق سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد»، وقال أيضًا: «إخواني إخواني إخواني، من استوى عنده المدح وذم الخلائق وعداوتهم؛ فهو من الصالحين»، والتنبيه والتشديد على ترسيخ مثل قيمة الإخلاص كفيل بعلاج الكثير من الانحرافات والأمراض التي تعانيها التجارب الأخرى المنغمسة في الدنيا والمرتبطة بها دون إقامة الصلة مع الله على خلوص النية والأعمال لوجهه سبحانه.

2 - بين الشيخ والمريد:

لا شك أن التعلم بالقدوة هو أصل من أصول التربية الاجتماعية المثمرة، وهي أصل من أصول التلقي في الإسلام؛ فحقائق الإيمان يتم تلقيها عن القدوة الأولى والنموذج الأمثل وهو النبي صلى الله عليه وسلم، فهو المعلم الأول لكل مسلم، ثم تتوالى النماذج التعليمية على قدر الاقتباس من النور النبوي الشريف.

وقد عرفت نظريات التربية الحديثة مفهومًا مقاربًا عرفته بمسمى «التعليم بالنمذجة»، كما هو عند ألبرت باندورا، أو التعلم بالملاحظة، لكن المنهاج الصوفي في التربية والتعليم يختلف عما تطرحه تلك النظريات الحديثة، فالتصوف يشترط «الصحبة والملازمة» لشيخ مربٍّ في عملية التعليم والتربية لأستاذ يتفرغ المريد لخدمته، ويتأسى به لمدة طويلة حتى يتلبس بما فيه من صفات شخصية وخلقية وتعبدية وسلوكية، وهو ما يسمونه بسريان حال الشيخ في مريده. وللتأكيد على ضرورة تأسي المريد الكامل بشيخه، يرى الإمام الأسمر أن يكون المريد مع شيخه «على صورة الميت لا حركة فيه ولا كلام، ولا يتحدث بين يديه إلا بإذنه، ولا يعمل شيئًا إلا بإذنه»، ولا يعني هنا سلب العقل والانقياد الأعمى، بل يقصد التسليم الكامل لشيخه بعد التأكد من توفر كل شروط التربية

والمشيخة فيه، وبمعنى أوضح التسليم لذوي الاختصاص والخبرة، ولا يمنع هذا التسليم السؤال والمناقشة، فكما رأينا أن الإمام خضع لعملية تربوية كان من ضمنها دراسة بعض الكتب العلمية، والدراسة تقتضي سؤال المريد لشيخه ومناقشته، وإنما المقصود بالتسليم التطبيق العملي لكل شؤون وتفاصيل أحوال الشيخ الذي توفرت فيه شروط الاختصاص الخبرة في مجاله.

3 - بر الوالدين وصلة الأرحام:

يقول الإمام الأسمر عن بر الوالدين: «إخواني: وعليكم ببر الوالدين، وأحسنوا لهم، ولا تنهروا في وجوههم؛ لأن الله ﷻ قرن اسمه باسمهما، قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:23]. إخواني: فعليكم ببر الوالدين وقلة العقوق لهما، قال عليه السلام: من أصبح وأمسى ووالداه راضيان عنه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة، ومن أصبح وأمسى ووالداه ساخطان عليه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار، وإياكم وعقوق الوالدين فإنه لا يدخل الجنة منَّانٌ ولا عاق».

ويربط الإمام الأسمر بر الوالدين بصلة رحمهما، ما يعني أنه يركز على استمرار الروابط الاجتماعية ومتانتها داخل الأسر ومحيطها، فينقل عن شيخه الأستاذ الدوكالي قوله: «ليس منا منَّان ولسنا منه»، وعن شيخ شيخه الشيخ أبو رأس قوله: «وعليكم بصلة الأرحام وزيارتهم، فإن وصولهم وزيارتهم تزيد في العمر ثوابًا عظيمًا سواء كانوا أحياء أو أمواتًا». ومثل هذا البناء الأسري الاجتماعي من المهم إبرازه في فكر الإمام الأسمر، وريادته فيه، خصوصًا في هذه الأزمان التي يعاني فيها العالم أزمات حضارية طاحنة تفككت فيها الأسر، وصار يُلقَى بالوالدين وذوي الحاجات في مؤسسات خارجية بغير ارتباط أسري ولا وازع إنساني، وهذه الأمراض المجتمعية انتقلت نسبيًّا إلى مجتمعاتنا الإسلامية بسبب ضعف التربية وخاصة التربية على بر الوالدين وصلة الأرحام.

4 - حب المساكين وذوي الحاجات والعفو والإحسان:

يقول الإمام الأسمر: «ولا تنهروا السائل والمسكين والغريب والأعمى، والأبرص والأجزم والمريض والأشل والأعرج، إخواني، فلا تنهروهم ولا تضربوهم

ولا تنازعوهم، وإذا قصدوكم أو طلبوا منكم شيئًا فلا تطردوهم»، في توجيه رشيد يواجه ما تعانيه الأمة اليوم مع انتشار ما يسمى بـ(التنمر)، وهو مفهوم لنوع من العدوان والأذى البدني أو اللفظي، تعمل الأمم الغربية والشرقية على محاربته، ويعرفُ بالاستقواء أو التنمر، ويعرَّفُ على أنه: «شكل من أشكال العدوان الذي يقوم به شخص أو عدة أشخاص لمضايقة آخر مرارًا وتكرارًا في الجانب الجسدي أو النفسي».

5 - التوبة:

وهو من المضامين التربوية الهامة في وصايا الإمام، شدَّد ونبَّه على ضرورته في العديد من المواضع، ففي صيحة تربوية قال: «إخواني، والتوبة واجبة عليكم فتوبوا على الفور... إخواني، اغتنموا التوبة قبل الفوت، واغتنموا الحياة قبل الموت»، وعلاوة على ما في التوبة والمسارعة فيها من جلاء العلاقة مع الله وصفائها، تمتد معانيها الأخرى في الحياة للرجوع عن الأخطاء التي يرتكبها المريد في حياته العملية أو في أشغاله، فالمراجعة والمراقبة تمده بالقدرة على التنبه على خطأه والتنبيه عليه إذا كان تعدى أثره إلى غيره.

كما أن للتوبة معان أخرى تتصل بمراجعة المريد لسلوكياته، ولو اتبع المربون اليوم معاني قبول الله التوبة من عبده، لتمت معالجة الكثير من المشكلات السلوكية مع طلابهم، بدلًا من أسلوب اللوم والقسوة والغلظة وعدم التقبل التي تصنع إنسانًا مشكلًا ومشوهًا معاديًا لمجتمعه، ومبغضًا لنفسهِ ولغيره.

6 - سلامة الصدر والرفق:

وهي من الأخلاقيات والآداب الأساسية التي يحث عليها الإمام في وصاياه، ومنها قوله لأحد مريديه: «كن سليم الصدر على جميع المسلمين، واجتهد ألا يكون في قلبك حقد على أحدهم»، وقوله له: «وعليك بالبشر والبشاشة وطلاقة الوجه ولين الجواب، وخفض الجناح لجميع المسلمين، وترك الخوض فيما لا ينبغي». وفي وصية أخرى لمريد آخر من مريديه نجده يوصيه: «بالرفق في جميع الأحوال، والإخلاص في جميع الأفعال».

ويفيض الإمام في الوصية بهذه الآداب والأخلاق، مفصلًا بقوله: «وعليك: بسعة الصدر، وأوامر البشر، وطلاقة الوجه، وطيب الكلام، وخفض الجناح، ولين الجانب مع

إخوانك المؤمنين، وأحسن التودد إليهم بالتألف لهم، ودارِ من يحتاج إلى المداراة منهم فيما تقدر عليه على نية إصلاحه واستقامة دين، واشكر لمحسنهم، واثن عليهم بالخير من غير إفراط، وتجاوز عن مسيئهم، وانصح من يحتاج إلى النصح منهم بلطف وشفقة في خلوة، وكن كثير الاحتمال دائم العفو والصفح عن عثرات الإخوان، والحذر من الجفاء والغلظة والفضاضة فإنها من أخلاق الجبابرة، ولا تعاتب أحدًا منهم على التقصير في حقك أبدًا إلا إن كان خالصًا صادق المودة مختبرًا، وأما تقصيرهم في حق الله وحقوق عباده فلا تسامحهم فيه، ويكون القيام عليكم على حسب أحوالهم ورغبتهم دخولهم في الدين، فترفق بالمبتدئ والضعيف الرغبة أكثر من غيره، وفي الرفق الخير كله».

ولعمري إنها مقولات تحتاج لدراسة خاصة تكشف وتبين إمامة الأسمر في التربية والتعليم، وتبرزه من بين المفكرين القلائل في مجال التربية، فهو لا يكتفي بالنصح بالرفق وسلامة الصدر، بل يتحدث باستفاضة عن آثارها ونواتجها الإيجابية على نفس ووجدان من يتحلى بها، وما يقابلها ويناقضها من ذميم الصفات وآثارها السلبي على من يتصف بها، بل وما يحاذي الرفق وسلامة الصدر من صفات تنتج عنها في عملية بناء أخلاقية متكاملة كاللين والتودد والتآلف، ويبيِّن العوامل التي تنجح مقاصد من يرغب في الاتصاف بها، كالثناء على المحسن في غير إفراط، والمداراة وعدم معاتبة المسيء إلا اذا قصر في حقوق الله.




التربية والتنشئة الاجتماعية في فكر الإمام عبد السلام الأسمر

أ. فرج الصديق اشميلة
جامعة مصراتة - ليبيا

ملخص:

تبحث هذه المقالة في فكر الإمام الأسمر الاجتماعي، لتستخلص من خلال نصوص وصاياه ورسائله آراءه وأساليبه في التربية والتنشئة الاجتماعية، وكيف بنى أسسها وقواعدها وخصائصها ضمن مشروعه الإصلاحي الصوفي، وأيضًا بيان صور من التنشئة الاجتماعية التي عاشها الإمام نفسه في أحضان أسرته.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، التنشئة الاجتماعية، التربية الصوفية، الفكر الاجتماعي.

مقدمة:

إنّ من نعم الله على أمة النبي صلّى الله عليه وسلّم أن قيض لها من يخدم دينها، ويصلح لها اعوجاجها، ليصل بها إلى رضى الله ورسوله، فتجد كلًّا منهم يهتم بشأن من شؤون الأمة، ومن توفيق الله أنك تجد من يهتم بكل جوانب المجتمع، عقيدة وفقهًا وسلوكًا. ومن هؤلاء الإمام عبد السلام الأسمر الذي كان له دور هام في التنبيه على ضرورة وأهمية التنشئة الاجتماعية، بل وكرّس لها شطرًا كبيرًا من جهوده ضمن مشروعه الإصلاحي الصوفي، وأكثر من ذلك كانت نتائج فكره الاجتماعي واضحة في النشء

الذي ولد في أحضان زاويته وبين تلاميذه وتربى بينهم، فكان منهم القادة والأئمة والدعاة والمصلحين.

لأجل إجلاء هذا الجانب في فكر الإمام الأسمر والتعرف على تجربته، وإظهار دوره في خدمة المجتمع، فدراسة مثل تجاربه لها رجع مهم لمن وفقهم الله إلى تربية النشء.

ولعله من المهم تقديم الكلام على موضوع التنشئة، بالحديث ولو عرضًا واختصارًا على مفهوم التنشئة الاجتماعية وخصائصها وأشكالها وأساليبها، ولعله من المفيد لفت الاهتمام إلى أن التنشئة أخذ مفهومها من عديد من المعاني منها التربية، ومنها الخلق أو التكوين، وغيرها، لكن مدلولها اللغوي يدور في مجمل تلك المعاني على تلك العملية التي يثبت فيها الطفل ويتربى من خلال اندماجه الاجتماعي مع الجماعة أو المجتمع، وتعتبر اللغة أن التنشئة هي عملية تربوية، يتم من خلالها إكساب الطفل وتعليمه وتربيته على قيم ومبادئ تجعل منه فردًا واعيًا منتجًا في المجتمع الذي يعيش فيه.

أما من جهة الاصطلاح، فيرى علماء الاجتماع أن عملية التنشئة هي التربية التي تدل على تنمية القدرات العقلية والفكرية والقيم الأخلاقية للأطفال سواء داخل المدرسة أو الأسرة أو في المؤسسات والمنظمات المخصصة للتربية، حتى أن بعضهم يؤكد أن التربية هي عملية التنشئة الاجتماعية المنظمة للأجيال الصاعدة او الناشئة.

أما التنشئة الاجتماعية فهي عملية الترسيخ التي تستمر طوال حياة الفرد كلها، حيث يتعلم منها القيم والرموز والأهداف الرئيسية للأنساق الاجتماعية التي يشارك فيها، ويكون التعبير عن هذه القيم عن طريق الأدوار التي يؤديها هو والآخرون، ويعرفها آخرون بأنها تلك العملية الأساسية التي من خلالها يصبح الفرد مندمجًا في جماعة اجتماعية فهي عملية ضرورية لتكوين ذات الطفل وتطوير مفهومه عن ذاته كشخص من خلال مكتسباته المقتبسة من سلوكيات الآخرين واتجاهاتهم.

وقد عد علماء الاجتماع والتربية العديد من خصائص التنشئة الاجتماعية، فذكروا أنها:

1 – أنها عملية تعلم اجتماعي تنطلق من الأسرة، وتتوسع لتحقق في المجتمع الأوسع من خلال تفاعل الفرد اجتماعيًّا وقيامه بأدوار اجتماعية تحدد وفق معايير وبما ناسب عمره.

2 – وأنها متوجهة لاكتساب وتعليم الطفل اتجاهات وأنماطًا سلوكية يتقبلها المجتمع مما يعزز السلوك الاجتماعي، أي هي تلك العملية التي تتعلق بتعليم الفرد عادات واتجاهات وأنماطًا سلوكية تتماشى مع قواعد مجتمعه.

3 – وأنها عملية مستمرة متواصلة ودائمة على مدى حياة الفرد من طفولته حتى وفاته عبر مراحل حياته مما يمكن الطفل من مواجهة أية مستجدات أو متطلبات جديدة.

4 – وأنها تتنوع بتنوع المجتمعات وإن كانت تتقارب في ما يستهدفه.

5 – وأنها تتغير التنشئة الاجتماعية وفق معطيات المراحل الحضارية التي يمر بها المجتمع إلى أن كل مرحلة حضارية لها تنشئتها.

نبذة تعريفية بالإمام الأسمر

سوف نتجاوز التعريف التقليدي بالإمام الأسمر، والتفاصيل المبسوطة في الكتب التي أسهبت في الحديث عن سيرته العطرة؛ لنركز على المحطات الهامة التي تعكس موضوع البحث وهو التنشئة والتربية، لنرى كيف عكست حياته صورًا من التنشئة التي حظي بها وآثارها وتجلياتها في حياته.

- العناية باختيار الأم:

وهو أول ما نلاحظه العناية بمبدأ هام في تكوين وتأسيس الأسر، وهو حسن اختيار الأم، وهو ما نجده واضحًا عند والده السيد سليم الفيتوري، الذي حدثتنا المصادر أنه نُصح بالزواج أكثر من مرة، إلا أنه يجيب بقوله: «حتى تولد أم عبد السلام»، وتأخر في الزواج حتى لقي الشيخ عبد الرحمن الدرعي، أحد أكبر علماء المغرب مارًّا بأسرته، في

مدينة الزاوية، غرب طرابلس، في طريقه إلى الحج، فخطبه في ابنته السيدة سليمة التي كانت برفقة أسرتها ووالدها وتزوجها.

وتظهر بشكل جلي وواضح أهمية اختيار الأم في حياة الإمام، فالسيد سليمة كما تخبرنا المصادر أنها كانت حافظة لكتاب الله الكريم ماهرة في قراءاته، صوامة قوامة وغيرها من مناقب الأم المثالية التي كانت من العوامل الأساسية في تكوين شخصية الإمام في مراحل حياته الأولى، إذ توفي والده وعمره سنتان وشهران، وتولت هي تربيته والسهر على تنشئته على القرآن الكريم، ولنا أن نتصور الأجواء التي عاشها الإمام في عمره المبكر في أحضان أم بكل هذه الصفات والمثل كالتي وجدناها في ترجمتها وسيرتها.

- الأسرة:

تزوج الشيخ أحمد الفيتوري عم الإمام الأسمر بوالدته السيدة سليمة بعد وفاة أخيه، ما شكل له حاضنة أسرية قوية، تختلف تمامًا إذا ما تزوج غير عمه بأمه، فقد عوضه عن فقه أبيه، ويبدو أن هذا الأمر كان نصب عيني الأسرة، أمه وعمه، إذ لم ينجبا غيره بعد زواجهما وتفرغا لمهمة تنشئته ورعايته وتربيته، وهو ما نلاحظه في ثناء الإمام عليهما وحديثه عن بعض التفاصيل الدقيقة في طريقة وأسلوب تنشئتهما له.

- الرعاية الصحية:

وهو جانب نتلمسه بشكل واضح، من حديث المصادر عن عناية الشيخ أحمد الفيتوري بابن أخيه، ومن مظاهر هذه العناية أنه كان يحبه ويألف إليه ويحضر له فاخر الثياب والطعام، وتوفير كل هذه الظروف كالألفة والمحبة وإلباسه فاخر الطعام والثياب عوامل مهمة في تنشئته بصحة نفسية تُبعد عنه آثار ظروف اليتم وفقد الأب، وصحة بدنية من خلال توفير أجود أنواع الأطعمة والملبس.

ويبدو أنه من المهم التنبيه على أن توفير فاخر الطعام والثياب دليل على وعي الأسرة أيضًا بأهمية الوفرة المالية والراحة الاقتصادية في عملية التربية والتنشئة.

- الرعاية التعليمية:

حرصت الأسرة من البداية على تأسيسه على قواعد راسخة وثابتة، أولها تحفيظه القرآن الكريم، الذي لا شك أن لوالده دورًا كبيرًا فيه، إذ كانت تحفظ القرآن وتعرف رواياته ورسمه، وتداوم على تلاوته وقيام الليل به، وهو أمر له أثره الكبير في تنشئة ابنها بتوجيهه لحفظ القرآن الكريم، كما أن صحبته لها في ليالي عبادتها وأذكارها أثَّر أيضًا في تشكيل سلوكه التعبدي وحرصه على الخلوة مع القرآن ليلًا حتى اشتهر بلقب «الأسمر».

أما عمه الشيخ أحمد فقد اعتنى بتعليم ابن أخيه متون الفقه واللغة والتوحيد كما يخبرنا الإمام نفسه الذي أكد أن عمه كان أول أساتذته، وأنه كان يصحبه إلى المكتب ويحضر معه دروس العلم، وللدلالة على حدب عمه عليه وعنايته الفائقة به.

وكما انعكست علاقة أمه بالقرآن الكريم في شخصيته فكان محور عمله وسلوكه، وشكل القاعدة الأساسية لمشروعه الإصلاحي حتى أن زاويته التي أسسها في القرن العاشر الهجري لم ينقطع فيها تدريس وتحفيظ القرآن الكريم إلى اليوم، وعلى مدى خمسة قرون حفظ فيها القرآن ودرس علومه أغلب علماء البلاد الليبية، كذلك نجد أثر عمه فيه، فهو يحدثنا عنه بقوله: كان «عالمًا بالعربية ماهرًا في العلوم، يجيد إلى حد كبير قرض الشعر»، بل وله «خبرة في الشعر الجائز وموازينه كأنه كعب بن زهير وحسان بن ثابت»، ولذا كان الإمام الأسمر من أكثر رموز التصوف إنتاجًا للشعر وأجوده.

- الحوار الأسري في التنشئة:

وخلال عملية التنشئة التي عاشها الإمام داخل أسرته تفاصيل لا بد من التوقف عندها للتعرف على أساليب التنشئة لدى أسرته، ومنه أسلوب الحوار الأسري الذي يؤكد الحديث الذي دار بينه وبين عمه الشيخ أحمد الفيتوري عندما حثه على ضرورة مواصلة مراحل العملية التعليمية على يد شيخ مربي بعد أن قطع شوط المرحلة التعليمية التأسيسية داخل الأسرة بلوغه سن العاشرة. ومن المؤكد أنه ليس الحوار الأسري الوحيد، خصوصًا وأن طريقة الحديث وأسلوبه المفعم بالحنان من جانب العم والمناقشة من جانب الامام

التي تكشف عن مستوى علمي عال وصل إليه، كل ذلك وغيره يشير إلى أنه ليس الحوار الوحيد، بل درجت الأسرة على استخدام هذا الأسلوب في التنشئة.

وبالإضافة إلى أن أسلوب الحوار الأسري، من الأساليب المهمة التي تدفع بالفرد إلى بناء رأيه الخاص وحرية التعبير عنه، فالحوار يعزز أيضًا من مسألة هامة تتعلق بضرورة وجود مرجعيات يلجأ إليها الفرد داخل الأسرة، وأن حرية التعبير لا تعني الاستقلال به، كما أن الحوارات تزيد من قوة الأواصر والروابط الأسرية.

- بناء الشخصية:

ما أن بلغ الإمام الأسمر العاشرة من عمره حتى حثه عمه الشيخ أحمد كما أسلفنا إلى ضرورة مواصلة مراحل التعليم والتربية على يد أستاذ صوفي ومربي، وسلمه إلى أستاذه ومربيه الشيخ عبد الواحد الدوكالي في مدرسته الدوكالية العروسية بمدينة مسلاتة، التي تبعد عن زليتن بواقع قرابة 80 كم، وكان يمكن لهذه العملية التعليمية التربوية أن تتم داخل الأسرة، وبالفعل فإن المرحلة الأساسية التي عاشها الإمام في أحضان أسرته كانت مقرونة بالجانب التربوي الصوفي، وعلاوة على أمه وهي ابنة القطب الصوفي الشيخ عبد الرحمن الدرعي وصلاحها وولايتها وتصوفها، فعمه أيضًا كان صوفيًّا مربيًا وهو ما يكشف عنه الحوار الذي دار بينه وبين ابن أخيه ويتضمن معرفة تامة بمهام الشيخ المربي وفوائد التربية، وعلمه بالشيخ المربي وشروطه ومهامه يعني قدرته على ممارسة هذه المهمة، ولكن الأسرة فضلت أن يكون ذلك في مدرسة صوفية في منطقة بعيدة عن أسرته لنقل مراحل التعلم والتربية إلى مستويات أخرى يعايش فيها الإمام ما يتعلمه على يد معلم مربي صوفي، وهو ما حدث، إذ جلس الإمام بين يدي أستاذ الدوكالي لمدة سبع سنوات، قبل أن تظهر فيه ثمار كل مراحل تلك التنشئة الأسرية، وكان من أمره ما كان، إمامًا صوفيًّا وداعية ومفكرًا وقائدًا من كبار رجال الطريقة العروسية بتجديده الأسمري.

التنشئة الاجتماعية في فكر الإمام الأسمر

والتنشئة بمفهومها العام اليوم بالنشء طفلًا وشابًّا، من مهام التربية الصوفية، إذ إنها أساس بناء المريد الصوفي؛ فنجد الإمام الأسمر يحث مريده على تعلم القرآن الكريم تارةً، وعلى اتباع العقيدة الصحيحة تارةً أخرى، وعلى الأخلاق الحميدة واجتناب

الأخلاق الذميمة، وعلى حسن العشرة وعن حسن الجوار، لكن يمكننا تحديد ورصد أهم أسس التنشئة الاجتماعية في فكره رحمه الله.

أولًا: القرآن الكريم:

كما أسلفنا كان حفظ القرآن الكريم من الأسس والقواعد التي نشأ عليها الإمام الأسمر في أحضان أسرته، وكان من آثار هذا الأساس التربوي في تنشئته ما كان، ولمعرفته ودرايته بقوة هذا الأساس حرص على إبرازه في حديثه عن نشأته الأولى على يد أفراد أسرته، أمه وعمه، وجعله أساسًا في عملية التربية الصوفية في طريقته العروسية.

وفي العديد من المواضع والمتفرقات في كلامه، نجد له حثًّا على ضرورة تعلم القرآن الكريم وإتقانه إتقان تخصص ولا حفظًا فقط، ومنه قوله: «وعليكم بإتقان الفاتحة وتجويدها وحفظها ومعرفة آياتها وعدَّتها ومعرفة مواقيتها والتفريق بين الضاد والظاء»، وقوله: «وحفظ السور المفصلات وما تصح به الصلاة».

وليس حفظ القرآن وإتقان قراءاته مقصود الإمام، بل العمل به وتحويله محور الحياة، وهي عملية ناتجة عن الفهم والتدبر ومداومة القراءة، ففي بعض المواضع يحث بعض مريديه بقوله: «واقرأ ما تيسر من القرآن العظيم في كل يوم بترتيل وتدبر وحضور قلب، ويكون على التدريج منة أوله حتى تختمه في الشهر أو في الأربعين مرة، والسر في الحضور والتدبر في الإكثار من القرآن الكريم»، وفي موضوع آخر يقول لمريد آخر من مريديه: «وأوصيك بالإكثار من تلاوة القرآن مع التدبر والترتيل والتفهم لمعانيه، والوقوف عند عجائبه وأوامره ونواهيه وزواجره».

ومثل هذا الأساس له أثره الكبير في بناء شخصية المريد، سواء في مراحل تنشئته أو في مرحل بنائه لأسرته لينشئ أفراد أسرته على مبادئه وأوامره، وبالنسبة للنشء طفلًا وشابًّا فيوقد فيهم الهمة والجد في الحفظ، ويصقل ذاكرتهم وحافظتهم ويقويها، كما أن حلقات التحفيظ في الزاوية توفر وسطًا تربويًّا مهمًّا يخلق الصحبة الصالحة المهمة في عملية التنشئة، بالإضافة لما يمثله حفظ القرآن الكريم مبكرًا من وعاء صالح لتعزيز الكثير من القيم والأخلاق القرآنية التي تخلق شخصية سوية مستقرة محصنة عن الانحرافات والسلوكيات المضرة.

وبالنسبة للرجال القائمين على بناء أسرهم، فالقرآن ومدارسته كفيل بنقل الكثير من التجارب القرآنية التي حكاها الله ﷻ، كتجربة سيدنا إبراهيم وابنيه وزوجتيه، وتجربة سيدنا نوح وابنه، وتجربة السيدة مريم وابنها، وغيرها.

وبالجملة فتشديد الإمام الأسمر على حفظ القرآن الكريم ومدارسته أراد به أن يكون مقومًا وعاملًا أساسيًّا لبناء مجتمع أسمري حصين بحصن القرآن الكريم.

ثانيًا/ بناء العقيدة الإسلامية الصحيحة:

دعا الإمام الأسمر مريديه إلى اتباع القواعد الأساسية لبناء العقيدة الإسلامية الصحيحة، ومن ذلك قوله: «أوصيكم ونفسي بتقوى الله، واتباع سنة رسول الله ﷺ التي هي المحجة البيضاء، وبتصحيح إيمانكم، وبالنظر والاستدلال وذلك أوَّل الواجبات».

وإذا تربى المريد على هذه العقيدة فإنه سينشئ أبناءه عليها، فيستقيم النشء ويتربى على معرفة أهم أصول العقيدة، ولذا نجده في موضع آخر يشدد ويحث على ضرورة تعليم أصول العقيدة داخل الأسر في قوله: «فعليكم بالتوحيد وحفظ العلوم واتباع السنة والقرآن، وعليكم بتعليم أولادكم وأزواجكم ومماليككم عقائد الإيمان»، وتيسيرًا للأمر ولأنها العقيدة فلا بد من تحديد مصادرها ومن أين يأخذها المسلم، ففي رسالته إلى مريديه الشيخ راشد المحجوبي يقول: «اعلم أني أوصيك بتصحيح إيمانك على ما قرره الإمام الأشعري، والقدوة إمامنا السنوسي في عقائده».

ويهتم شديد الاهتمام بتدرج النشء في مراحل حياتهم الأولى، فبعد تعلم أصول وأساسيات العقائد، يؤكد على مبدأ هام في عقيدته يتعلق بضرورة التأمل والتدبر للناشئ البالغ بقوله: «فعليكم بمعرفة الله، وعليكم بالنظر حين البلوغ، فمن لم ينظر ولا يأتِ بدليل ولا برهان ففي إيمانه خلاف وعند جميع الموحدين مقلد، والمقلد ليس بكامل»، وهي مسألة هامة تكشف لنا عن بعد من أبعاد فكر الإمام الأسمر، فدعوة الناشئ البالغ للنظر والاستدلال وترك التقليد فيه ما فيه من دعوة لتحرير الفكر وحث العقل على التأمل والتفكير، وإن كان الأساس والمنطلق التأمل والنظر والاستدلال في العقيدة فمن باب أولى أن تفتح هذه العملية الأبواب للعقل لينظر ويفكر ويعقل ليبني قراراته ومواقفه في الحياة على أسس عقلية سليمة، كما أن حث البالغ على ضرورة التفكير والاستدلال والنظر هو تدريب له وهو في هذه السن المبكرة على التفكير وتحمل مسؤوليات قراراته.

ويجب أن ننبه على أمر هام يتعلق بحثِّ الإمام على تعلم العقيدة الصحيحة وجعلها أساسًا للتربية والتنشئة، ولن نحير جوابًا إذا نظرنا إلى توجيهه لأخذها من أصولها الأشعرية المستقرة في كتب السنوسي وغيرها، فالأشعرية أسلم العقائد؛ لأنها مستمدة من القرآن والسنة المعصومين وأساس التشريع الإسلامي، ولا يغيب عن بالنا أيضًا أهمية العقيدة الأشعرية في تحقيق الوحدة الاجتماعية كونها العقيدة المستقرة في البلاد والتي أجمع علماؤها على استقرارها منذ قرون.

رابعًا: العناية برفع مستوى الوعي داخل الأسرة وتأسيس التنشئة على تعاليم الشريعة الإسلامية:

يهتم الإمام الأسمر اهتمامًا بالغًا بالوسط الأسري ليكون بيئة سليمة للتنشئة، فبحثِّ مريديه على رفع المستوى التعليمي داخل أسرهم، فيقول: «إخواني: وعليكم بتعليم أولادكم القرآن والكتابة وعقائد الإيمان والفرائض والسنن المؤكدات والفضائل والمندوبات والأعمال الصالحات»، كما يهتم برفع المستوى التعليمي للزوجات بشكل أساسي، كون شطر من عملية التنشئة تقوم عليهن، فيقول: «إخواني: وعلموا أزواجكم فرائض الغسل وفرائض والوضوء وفرائض التيمم وكل ما يجب عليهم فعلموهم إياه. حاصله: علموهن كل ما يحتاجونه منكم في أمر دينكم لأن لهم عليكم حقًّا شرعيًّا، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فافهموا وعليكم بسمعة الخلق معهم».

ويهتم بأمر النساء من مريدات الطريقة العروسية، فيرسلن لهن السلام عبر مريديه ورسائله، ونصائحه لتعزيز أخلاق ومبادئ وقيم الأسرة الإسلامية السوية، وضرورة اضطلاعهن بدور الزوجة الأساسي في التنشئة من خلال توفير كل مقومات الأسرة الحصينة البعيدة عن السلوكيات الضارة التي يمكن أن تؤسس لاختراقات هادمة لحصانة الأسرة، وبالتالي تداعياتها غير المحمودة على النشء، فيقول: «وأما النساء العروسيات فبلغوهن منى السلام مع أزواجهن وإخوانهن وآبائهن وأبنائهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ونحوهم، وقولوا لهن: قال لكم الفقير عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتورى الحازمي الزليتني: غضوا أبصاركن عن جميع المحارم، وكفوا أسماعكن عن جميع المآثم، واحفظوا فروجكن ما استطعتن، واجتنبوا جميع الجرائم، وأطيعوا أزواجكم، وإذا دعوكم إلى الفراش فلا تعصوهم، ولا تؤذوا جيرانكم، واحفظوا بيوتكم من الرجال

والنساء الفاسقات، ولا يحل لكم أن يدخل بيوتكم الرجال ليسوا من محارمكم الذين لا يحل لكم جلوسهم ولا كلامهم، إلا البعل والأب والأخ والخال ونحوهم»' بل ويهتم بتفاصيل دقيقة تخص مظهر الزوجة لها انعكاسها الإيجابي في عملية التربية وثقافة أواصر الأسرة، فينهاهن عن الألبسة ذات التأثير السلبي على نفسيات وذهنيات أولادهن، وكذلك نبذ الكثير من السلوكيات الأسرية الضارة كرفع الصوت والصراخ وغيره، وكل ما يقابل ذلك من حسن التبعل والتربية والاعتناء بالأولاد.

وإن كانت مثل هذه المستويات المثالية داخل الأسر هامة بالنسبة لعملية التنشئة، فإنه من المهم الالتفات إلى أن حث المريد على تعليم زوجته وأولاده القرآن والكتابة والعقيدة وفرائض العبادات، هذا يعني أن يكون للعلم وتداوله ونقاش مسائله والحوار حوله جزء من الحياة الأسرية، ومثل هذه العملية لا تقتصر على التعليم، فهي توفر عوامل أخرى في عملية التنشئة منها توزيع المهام والأدوار، وأسلوب الحوار ضمن التعليم، وغيرها من العوامل المهمة.

ويضاف إلى كل هذا أن القيم التي حرص الإمام على الحث عليها وترسيخها كجزء من حياة المريد، كغض البصر عن المحارم وكالحنانة والرأفة والصدق والأمانة وقبول الآخر رأيًا ومعايشة والصبر والعدل، وغيرها من القيم، حري بالمريد أن يغرسها داخل أسرته ويدرب أولاده عليها ليعيشوها تطبيقًا وفعلًا، وفي كل هذا آثار لبناء شخصية الأبناء بشكل سوي ومتوازن.

نماذج من التنشئة الأسرية

ومن الطبيعي أن يتساءل أي قارئ عن آثار هذا الفكر التربوي والخطاب الاجتماعي عند الإمام، وهل من نماذج تطبيقية يمكن الحديث عنها، وبالطبع لا يمكن الحديث تفصيلًا ولا إجمالًا عن نماذج عملية عن نتائج الفكر التربوي لدى الإمام، فالمشروع الأسمري واسع ومتعدد الجوانب والأبعاد والزوايا والمستويات، وطبيعي أيضًا أن تكون مخرجات هذا المشروع مبنية على مدخلاته وأولها التنشئة الصحيحة، ولكن طلبًا للاختصار واستجابة لمثل هذا السؤال، يمكننا الاقتصار على بعض النماذج سيما من أسرة الإمام نفسه، كابنه الشيخ حمد البكر أكبر أولاده' وابنيه الآخرين عمران

وعبد الوهاب، فهما من أهم الشخصيات التي تلته في قيادة الزاوية، وتكفي مطالعة تراجم الثلاث لمعرفة نجاعة أساليب الإمام في التربية والتنشئة وأثرها في بناء الشخصية.

وفي ترجمة الشيخ أحمد البكر ما يفيد في عناية الإمام على تدريبه على عملية الذكر التي كانت محور أعمال وجهود الإمام في بداية انطلاق دعوته، فعاش معه تجاربه الأولى سيما وأنه نجله البكر، فكان من نواتج وآثار تركيز تنشئته على الذكر أن أصبح «صاحب معرفة بالذكر وفنونه ومدارجه»، حتى أن الإمام نفسه أخذها عنه «وأمر المريدين بترك ما اعتادوه في حلق الذكر إلى التجديد الذي جاء به ابنه سيدي حمد البكر».

وإن كانت أسس التنشئة وقواعدها الأساسية واحدة عند الإمام، إلا أن أسلوبه مع أبنائه يبدو أنها تختلف بحسب مواهب كل واحد منهم، ففي تراجم ابنيه الآخرين الشيخ عمران والشيخ عبد الوهاب ما يفيد اشتغاله على تدريبهم على المهام القيادية، فالأول تولى مهام استقبال المريدين وضيوف الزاوية منذ حياة والده ومن بعده أيضًا، والثاني خلف أخيه عمران في ذات المهام، كما أن في كليهما مشتركًا يتعلق بالنجاح في الجانب الاقتصادي والقدرة على إدارة الأموال والمشاريع، فقد كان للشيخ عمران أنعام وتجارة حتى إنه كان يرسل رقيقه إلى الحجاز للتجارة، وللشيخ عبد الوهاب أعمال واسعة وناجحة في التجارة ينفق منها على ضيوف ومريدي الزاوية.

ومن النماذج الصالحة للاستشهاد من خارج أسرة الإمام، بل من خارج البلاد، نموذج الشيخ أحمد بابا التنبكي، العالم وصاحب التصانيف المعروفة في التاريخ والفقه المالكي، بل هو نموذج حي للدلالة على انتشار فكر الإمام في التربية والتنشئة، إذ لم يلق الإمام بل تربى في بيت عروسي، فأبيه هو الشيخ أحمد بن أقيث نقيب العروسيين في تنبكتو الذي خصه الإمام برسالته الوحيدة لأهل تنبكتو، بل المتأمل في تلك الرسالة والتعاليم والنصائح التي وجهها الإمام لتلميذه الشيخ أحمد بن أقيث يجده ترجمها كواقع فعلي في ابنه الشيخ أحمد بابا الذي تركزت جهوده في التأليف في اللغة والنحو، والعلوم بمختلف فروعها كالفقه ونوازله، وهو ما ركزت عليه رسالة الإمام في نصح أهل تنبكتو بتعلم اللغة العربية والعناية بها، والتمهر والتبحر في العلوم، سيما الفقه وفروعه.





التربية الصوفية وتجلياتها التعليمية بين الشيخ والمريد قراءة تحليلية في مفاهيم الفكر التربوي الصوفي عند عبد السلام الأسمر

أ.د ابن طرات جلول

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليابس - الجزائر

ملخص:

يحمل الخطاب التربوي الصوفي تلك الدلالات اللغوية التي استوعبتها منظومة القيم الأخلاقية الحاملة لنموذج التربية الصوفية كنظرية في السلوك والتفكير والاعتقاد، وهو ما تنطوي تحته تلك التجليات التعليمية التي تختزل علاقة الشيخ بالمريد، لا سيما في ممارسة التصوف في بعده التربوي الأخلاقي، أين جاءت لغة الإمام عبد السلام الأسمر الصوفية لتعرِّف بجماليات التربية التعليمية كمجاهدة ورياضة، وخلوة وعزلة واغتراب، وكعرفان وإشراق، وذوق، ومن ثم استوعبت طبيعة الأحوال والمقامات تلك المدارج التربوية في الترقي العرفاني الذي يسلكه المريد على يد شيخه من خلال تهذيب الروح وطبائعها، وهوى النفس ونوازعها عبر التمثُّل السلوكي الخلقي - التربوي، وكل ما ينفرد به منهج التربية الصوفية من سمات روحية تجمع بين قيم الاستقامة والزهد والورع والحب والتوكل والخوف والرجاء، ومن هذا المنظور استهدف المشروع التربوي عند الإمام عبد السلام الأسمر ترسيخ طريق السالكين والعارفين لربِّ العالمين من جهة، وبناء منظومة تربوية تقوم على مبادئ وتعاليم الفكر الصوفي الإسلامي من جهة أخرى، هذه الأهداف والمقاصد التربوية السامية قد عزَّزت المرجعية الصوفية لفكر الإمام الأسمر التربوي التي اشتركت معها أعلى مقامات العبودية التي يتوق إليها المريد في طلبه للعلم،

وفي رحلته الاغترابية قصد تحقق معية قلبه مع الله، وإدراكه لحقيقة نوره العلوي المطلق، وتجلي كل الحجب الغيبية لديه، هكذا جاءت أفكاره التربوية لتحول سؤال الإصلاح والنهضة داخل مشروعه التربوي الإصلاحي إلى نموذج أخلاقي يحتفظ بأصالة التراث الصوفي الإسلامي على مستوى المناهج والبرامج وطرق التدريس لطبيعة هذا الفكر الذي جمع بين الجانب الأخلاقي العملي للتربية الصوفية، وبين طرق وتعاليم وأفكار المتصوفة التي تنتهي عندها كل القيم التربوية والتوجيه والإرشاد، وتكتمل في سلوك العارفين والسالكين للمنهج التربوي الصوفي، وفي هذا الإطار فهم الإمام الأسمر حقيقة العلاقة التربوية – التعليمية بين الشيخ والمريد من خلال تربية النفس البشرية على القيم الصوفية، أين تكون تعاليم الشيخ المربِّي ونوايا المريد الصادق حاضرة لتتحقق أهداف التربية الصوفية، وضمن هذا المعنى سلك الشيخ الإمام الأسمر أثناء رحلته التعبدية مسلكًا تربويًّا يقوم على معرفة الله والتقيد بأوامره ونواهيه، كما اجتهد من خلال تجربته الصوفية على تعليم مريديه كل القيم والأخلاق والفضائل التي تتجلى من ورائها مناهج رياضة النفس ومجاهدتها.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، التربية الصوفية، الشيخ، المريد، الأحوال والمقامات، السالكين والعارفين.

مقدمة:

يشكل مفهوم التصوف في الثقافة العربية الإسلامية حجر الأساس للتراث الروحي، أين صاحبت عناصر ومكونات هذا التراث الكثير من القيم والفضائل التي انطوت تحتها خصوصيات التجربة الصوفية عند أعلام التصوف الإسلامي في طبيعته التاريخية والفلسفية والأدبية والدينية، ومن ثم فقد انفرد هذا النموذج بسماته في فكر الإمام الأسمر، لا سيما طريقته في التصوف عن طريق التربية والتعليم التي حملت ملامح الكشف والمجاهدة والرياضة والحبِّ والخلوة في المناجاة والتقرب بالطاعات، هذه الممارسات التربوية تحمل دلالات المقدس الأخلاقي في تجربته الصوفية التي تستهدف

تحقيق أعلى مقامات العبودية، لا سيما تجلي حضور القلب والعقل لمعرفة النور الإلهي والاتصال به من خلال تلك الأحوال التي ينتقل من خلالها المتصوف من مرتبة المريد إلى مرتبة السالك إلى مرتبة العارف، فتراتبية هذا التدرج قد اختزلت الأنموذج الخالص للتربية الصوفية عند الإمام الأسمر على مستوى التنظير والممارسة. فمن لحظة الإشراق إلى لحظة العرفان يدرك المتصوف هذه الحقيقة النورانية التي جعلت الفكر التربوي في لغة الشيخ يشق طريقه وسط مقصدية الفضيلة الأخلاقية التي تجعل المريد من خلال تعليمية التصوف عند الإمام الأسمر وأساليب تدريسه وتعاليمه في التوجيه والوعظ والإرشاد تعرف إقبالًا على مجالسه، لا سيما منهجه في المخاطبة والتواصل التربوي مع طلابه، وقد كان يرى الشيخ أن كل أسلوب في الإقناع والتواصل يشكل حجر الأساس للممارسة الصوفية التي تبدأ بالمريد وتنتهي إليه، وضمن هذا المعنى جاءت التربية الصوفية في اعتقاده لإحداث الحوار بين ظاهر وباطن النفس. أين يكون هذا الحوار محكومًا بقيم وفضائل الزهد والورع، والخوف والرجاء، والمحبة والتوكل، والاستقامة والإيمان، فكل ما هو مقدس عند المتصوفة في نظره قد تخلق في رحم هذه القيم الأخلاقية التي تنزهت وتسامت فوق كل ما هو مدنَّس، لذلك ارتبط النموذج الصوفي بتعليمية التصوف الذي يربط معنى الصفاء والنقاء الباطني للقلب بخصوصيات وسمات المنهج في التربية والتعليم، على غرار الدور التربوي للشيخ في ترسيخ وتعزيز القيم المجتمعية لطبيعة هذه العملية التربوية التي قد تكتمل أهدافها في تحقيق درجات الكمال الأخلاقي من خلال كرامة الرضوان الإلهي أو تحقيق معية القلب وحضوره أثناء رحلة الاغتراب الصوفي عن الموطن الأصلي، ومن هذا المنظور فإن ارتقاء الصوفي من مستوى الحس إلى مستوى المجرد، ومن المجاهدة والرياضة إلى المحبة، ومن الخلوة في المناجاة والعبودية إلى الحلول والفناء في الذات الإلهية لا يتأتى في نظر الإمام الأسمر إلا بواسطة التربية الصوفية، أين يكون التعليم داخل فضاء الزوايا والمساجد والكتاتيب مناخًا روحيًّا ملائمًا لممارسة التصوف كنظرية في السلوك أكثر منها في المعرفة، فالخطاب التربوي الذي انفردت به اللغة الصوفية يتحرك في حدود تلك القيم التي استوعبها فكر الإمام الأسمر وغيره ممن عايشوا هذه الأحوال والمقامات، لذلك نجد أن تجربته ورحلته التعبدية في هذه العوالم

الروحية لم تكتف بالتأصيل لماهية التصوف على مستوى التنظير، وإنما عزَّزت أساليب الممارسة في ربط سمات المعرفة الذوقية بالمعرفة الحسيَّة التجريبية والعقلية، فالمجال الصوفي لهذه المعرفة قد جعل الفكر التربوي عند الإمام الأسمر يستهدف الانتقال من مستوى الحس إلى مستوى التأمل المجرد، أين يكون لتلك المجاهدات والمكاشفات والتأملات القلبية والوجدانية أثرًا على عملية التعلم، خاصة وأن التربية الصوفية التي تمثلها فكر الشيخ تقوم على إرساء منظومة الفضائل والأخلاق التي يرتقي من خلالها الوجدان إلى بلوغ هذه المقامات، فالسالك والعارف في البرنامج التربوي الصوفي يحيا حياة روحية خاصة، وضمن إشكالية هذا البحث حاولت الوقوف عند طبيعة هذا الإرث التربوي الذي تركه الإمام الأسمر كعلامة لمنهجه في التربية والتعليم، فكيف استوعبت تجربته الصوفية طبيعة هذا الإرث؟ وأين تكمن التجليات التعليمية لحقيقة الأنموذج التربوي من خلال علاقة الشيخ بالمريد؟ وكيف تم اختزال مستقبل هذا الأنموذج في الخطاب التربوي المعاصر؟

التربية الصوفية بين الأحوال والمقامات

ينطلق نموذج اللغة الصوفية في خطاب الإمام الأسمر من طبيعة أحوال المتصوفة وأسرار تجربتهم الروحية التي تستهدف الاتصال بعالم الملكوت، أو النور الإلهي الذي يتجلى للسالكين والعارفين في مناجاتهم لله، فكل ما ينتهي عند حدود هذه الحقيقة التي تربط الأحوال بالمقامات هو ما تستهدفه التربية الصوفية كمفهوم وكممارسة، لا سيما مستويات التجرّد والتأمل، ودرجات الإدراك التي تربط رمزية الكشف والمجاهدة والذوق بيقين العرفان، فقد أشار «ابن عجيبة» إلى ذلك في قوله: «اعلم أن علم الباطن مداره على تصفية الباطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل، فإذا تطهرت من الرذائل وتحلت بالفضائل أشرقت عليها الأنوار، ولاحت عليها الأسرار، فتكاشف بالحقائق العرفانية، والأسرار الربانية، فيكثر صاحبه على معرفة العيان، ونيل مرتبة مقام الإحسان» وضمن هذا المعنى قارب الفكر التربوي الصوفي الإمام الأسمر تلك العلامات التي

تجمع بين المعرفة والسلوك، خاصة علاقة المقام الرباني بالحالة الذوقية التي يعيشها الصوفي، أو تلك التأملات والخواطر التي يعبر عنها أغلب المتصوفة بالمجاهدة والرياضة والكشف، وأحوالهم الوجدانية والعاطفية والانفعالية في الحب والعشق الإلهي المقدس من خلال رمزية لغتهم الشعرية على غرار قصائد «رابعة العدوية» و«الحلاج» و«البسطامي» وغيرهم، التي حملت أحوال ومقامات المشاهدة والتأمل الصوفي الذي يتجه إلى إدراك الأنوار، لا سيما نور العقل، ونور الأرواح والأسرار، فالتجربة الصوفية في بعدها التربوي التعليمي قد حملت الشيخ على اختزال قيم الممارسة التعبدية الخالصة التي تجمع بين هذه الأنوار، «فقد نبَّه «ابن عجيبة» إلى أخطر الوقوف مع تلك الأنوار والركون إليها، كأنوار حلاوة الطاعة، ولذة المناجاة وظهور الكرامات والتلذذ بالمقامات»، وضمن هذا المعنى ينصرف المتصوف إلى ربط تجربته الروحانية بمعرفة الحق ورؤية النور الأصلي، أين يعمل السالك والمريد إلى الولوج إلى هذه الحجب الكونية والوقوف عند طبيعة أسرارها، «فأنوار التوجه والواصلون لهم أنوار المواجهة والانكماش والدهشة، فالأولون للأنوار، وهؤلاء لهم الله لا شيء دونه، وأنوار المواجهة هي أنوار الشهود لأنها تواجه العبد، فيتعرف فيها ويغيب عن رؤية الأغيار» وهكذا نجد أن الطابع التربوي للتصوف في فكر الإمام الأسمر قد يرسخ علاقة الشعور بالحق وكيفية الكشف عن الحقيقة، خاصة وأن منهجه في التربية الصوفية قد اعتبر أحوال ومقامات الكشف الصوفي علامة من علامات الترقي والتطهير والفناء والاستغراق في الذكر الذي يستهدف تلك الأخلاق الرفيعة التي تميز المتصوِّفة عن غيرهم، لذلك نجد أن تجلي الحقيقة الإلهية المطلقة هو المقصد الأسمى لكل ممارسة سلوكية للتصوف باعتباره ثمرة الفكر والتأمل، وبالتالي فطبيعة التربية الصوفية ضمن هذه الأحوال والمقامات قد تهيئ صاحبها إلى التدرج أثناء أطوار التعلم من الانتقال من مرتبة المريد إلى مرتبة السالك والعارف، هذا التدرج تشترك فيه تلك الأحوال ومقامات التعبُّد أثناء الخلوة، لا سيما وأن كل رمز أو إشارة توافق لغة التعبير الذوقي في مفردات الخطاب الصوفي الإمام الأسمر قد استوعبت خصوصيات الأنموذج التربوي الذي يستهدفه الشيخ من خلال برنامجه التربوي، ومنهجه في التعليم وطريقته الصوفية في التدريس، لذلك حرص الشيخ على نقل تلك الأسرار والحقائق

الذوقية التي وهبها الله للصوفية دون غيرهم إلى طلابه وتلاميذه، خاصة لغة التوحيد. «فلغة العبارة محددة للمعنى، ويجب أن تكون كذلك حتى تستجيب لمتطلبات الحياة العملية، فإن لغة الإشارة تظل دومًا «حبلى» بالمعاني والدلالات الروحية التي تستجيب لأكثر من تجربة صوفية، وتحتمل بالتالي أكثر من إشارة، وهكذا يظهر التباين بين المتداول للغة الطبيعية الواقف عند دلالتها المشتركة والموضوعية، وبين الصوفي الذي لا ينظر إلى اللغة أو العبارة باعتبارها إشارة تحيل إلى دلالة أو دلالات، عليه هو كشفها أو التعاطف مع معانيها»، فقد أصبحت للثقافة الصوفية في القرنين الثالث والرابع لغة روحية اختزلت بعض المفاهيم والمصطلحات التربوية قد اتفق عليها الكثير من المتصوفة على غرار الغزالي وابن عربي والأسمر وغيرهم بحيث تساعدهم على تهيئة المريد للتعلم، وقد لا يفهمها غيرهم ممن لم يتذوق قيم التصوف؛ لأن خطابهم التربوي ينطلق من حالة الترقي التي يصاحبها رمزية الإشراق والعرفان، ومن هذا المنظور جاءت آليات التعبير الرمزي عند جل المتصوفة ملازمة لأحوالهم، خاصة جوانب التصوير الجمالي التي تختزل لغة البيان والبلاغة والفصاحة لديهم، فكل الكتابات الصوفية كانت نثرًا أو شعرًا تستهدف البناء الرمزي لفكرة الجلال والجمال والكمال التي تحمل التجليات النورانية للتربية الصوفية في تعليميتها وقيمها وفضائلها، خاصة وأن الإمام الأسمر قد اعتبر كل هذه المراتب والمقامات عند المتصوف تدل على لفظ الظلمة والنور، المناجاة والموج، البحر والغرق، لذلك حاول الشيخ انطلاقًا مما أشار إليه المتصوف أبو الوفا الغنيمي التفتازاني بقوله: «وهذا راجع أساسًا إلى أنهم حاولوا أن ينقلوا تجربة نفسية فائقة إلى الغير في لغة الأشياء المحسوسة، ولذلك كانت كل كلمة عندهم رمزًا استخدم لا لغرضه المألوف، وإنما للتعبير عن حقيقة تفوق الحس، وألفاظ اللغة موضوعة أصلًا للمحسوسات، ومن هنا بدأ كلامهم غريبًا عن السامعين، وهو ما أنكر عليهم ذلك خصومهم»، وفي هذا الإطار أسس الإمام الأسمر خطابه التربوي الصوفي على أساس الممارسة الروحية للسلوك الذي يجمع بين تلك الأسرار الكامنة للتربية، وبين ما يعبر عن كوامن النفس، «ففي الحقيقة عدَّ التصوف من حيث مبدأ ظهوره، من حيث ممثلوه أنه علم حقيقة القلب، علم ما وراء الأشياء، علم الأسرار الكامنة في خبايا الوجود، فالصوفي هو

تلميذ هذا العلم، وفارس ميدانه لبلوغ نهاية هذا الطريق، يسير طوال عمره نحو الأفق المثالي لكل إنسان، ألا وهو الإنسان الكامل، إنه سفر لا نهائي بقصد الوصول إلى اللامتناهي، وسير متواصل بعزم لا ينثني من دون انتظار الجزاء»، وضمن هذا المعنى فإن السالكين لطريق التصوف في اعتقاد الشيخ الإمام الأسمر يستعملون لغة خاصة تقتضي الكشف عن الحجب، وتعبر عن أسمى المقدس الأخلاقي الذي يربط التربية الصوفية بالأحوال والمقامات، فمرحلة الرياضة والمجاهدة والكشف والحب والفناء قد استوعبت منهج المتصوفة في ممارسة أساليب العرفان ضمن تلك الثنائيات الصوفية، على غرار الظلمة والنور، الحلول والفناء، المجاهدة والكشف، المحبة والرياضة، الشطح والذوق، الوجد والسماع، المناجاة والتأمل، هذه الثنائيات قد استهدفت الرؤية التربوية الإمام الأسمر، «فالتصوف كما يراه الصوفية في عمومه هو السير في طريق الزهد، والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها، وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع، والسهر في الصلاة أو تلاوة الأوراد، حتى يضعف في الإنسان الجانب الجسدي، ويقوى فيه الجانب النفسي أو الروحي، فهو إخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم سعيًا لتحقيق الكمال الأخلاقي للنفس كما يقولون، وإلى معرفة الذات الإلهية، وكمالاتها، أو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة» وضمن هذا المعنى فقد أشارت كتب مصادر سيرة الإمام الأسمر أنه لُقِّبَ بـ«الأسمر» لأنه كان يحيي الليالي سمرًا في طاعة الله، لذلك جاءت مناقبه وآثاره في التربية الصوفية لتعكس صلاح أخلاقه، فآثاره العلمية وموروثه الصوفي كله في التربية والتعليم، فقد ترك الكثير من الرسائل والوصايا تحدث عنها كتابه: «الأنوار السنية والمنن الإلهية في طريق أهل الله الصوفية»، ففي الوصية الكبرى أعلن عن اتباعه لأهل السنة ومحاربته لأهل البدع، وهيَّأ لمريديه حقيقة التصوف من خلال عبادة الله بالتربية، وليس بالشطح والضرب على الدف، لذلك جاء فكره التربوي ثريًّا بالمواعظ والإرشادات التي تحث تلاميذه على طلب العلم والمعرفة، فقد كانت طريقته في التصوف تسمى «بالعروسية» نسبة للشيخ العارف بالله أحمد بن عروس دفين مدينة تونس، فقد حملت هذه الطريقة الكثير من الكرامات التي لخصت قصيدته ووصيته الكبرى في التربية التي تميز بين السالك والعارف، والشيخ والمريد، لذلك أنشأ زاويته للتربية والتعليم

والتعبد، فوهب حياته كلها للعلم، خاصة رحلاته وأسفاره واغترابه عن وطنه ومسقط رأسه وهذا قصد مجالسة صفوة الخلق والاحتكاك والسير على آثارهم، ومن هذا المنظور كانت تلك الأحوال والمقامات تعبيرًا حقيقيًّا لتصوف الإمام الأسمر، خاصة منتقديه لمذهبه التربوي في التصوف، إلا أنه لم يتأثر بهذه الانتقادات؛ لأن معاملته التربوية جعلت أغلب مريديه ينجذبون لأفكاره ومجالس علمه، فقد تعلموا عنه كيفية التدرج إلى مقامات الزهد والاستقامة والمحبة عن طريق السير على منهج الصالحين من السلف والتابعين، وهكذا جاء خطابه التربوي ليرسخ هذا المنهج، وما ينطوي تحته من الجماليات التربوية والتعليمية التي تشترك فيها سمات هذه الأحوال والمقامات الصوفية، لذلك جاءت التعابير الصوفية عنده لتعبر عن حالات التجرد والتعبد، وكل أشكال المناجاة الروحانية، والمعرفة الإشراقية لتعزيز طبيعة هذه اللغة ومقاصدها التربوية، خاصة الميل نحو المعرفة الإلهية المطلقة لعالم الأنوار أو عالم الملكوت، «فالمعضلة التي تواجه الصوفي للبوح بما يشعر، ويستبصر من معايشات تعجز اللغة عن البوح عنها، ولا يمكن وصفها لعجز اللغة أمامه، وعندما يتكلم الصوفي فهو يخضع لقواعد ودلالات اللغة التي لا تعبر عن الصورة الحقيقية، فاللغة تجبره بألفاظها ومعاييرها، ولا يستطيع أن يجبرها، أو يعبر عن الحالات الوجدانية التي عايشها، عند ذلك لا يستطيع نقلها إلى الآخرين. فتكيفهم لها خارج المنطق والمعقول، وما نجده من إشارات لدى الصوفية فيما بينهم هو أقرب لفهم تلك الحالات، ولكن بصورة مختلفة، لذا يقف الصوفي عاجزًا عن الوصف لتلك المعايشات لعدم قدرة اللغة على استيعاب ذلك... فالألغاز في الأشعار الصوفية والأقوال ما استطاع ذلك الصوفي أن يفصح أو أن يعبر عنه»·

إن الحديث عن لغة الإمام الأسمر الصوفية لا يخرج عن نطاق تلك الاعتقادات والعبادات التي استوعبت مجال المجاهدة الروحية، والتجارب الذوقية التي تشبعت بتلك الرموز والإشارات التي جمعت بين الجانب التربوي والسلوكي، وتلك الأحوال والمقامات التي استهدفت كل القيم الجمالية التي اختزلت الطابع الفلسفي واللغوي والتربوي للتصوف الإسلامي، ومن ثَمَّ يتقاطع خطاب التعليم الصوفي لدى الإمام الأسمر مع ما ذهب إليه ابن عربي في كتابه فصوص الحكم بقوله: «من أراد العثور على الحكمة فلينزل عن حكم عقله إلى شهوته، ويكون حيوانًا ناطقًا، حتى يكشف ما تكشفه كل دابة

ما عدا الثقلين، عندئذ يعلم أنه تحقق بحيوانيته، وعلامته علامتان، الواحدة هذا الكشف، والعلامة الثانية الخرس، بحيث أنه لو أراد النطق بما رآه لم يقدر»، وفي هذا الإطار فإن المجال التربوي الذي تتحرك داخله قيم التصوف كما أشار إلى ذلك الإمام الأسمر لا ينفصل عن النموذج التربوي الذي تحمله أهداف هذا الفكر، أين عبر «ابن عربي» في موضع آخر عن حقيقة التصوف قائلًا: «... فإنه من الضروري أن نشير إلى أن السالك في اصطلاح الصوفية هو السائر إلى الله، المتوسط بين المريد «المبتدئ» و«المنتهي» الواصل أو العارف، ما دام في السير حيث يرتقي في الأحوال المختلفة والمقامات المتعددة التي يتضمنها الطريق الصوفي»، وبذلك فإن مقاصد السالكين لطريق التصوف لا يمر إلا من بوابة التربية والتعليم، وهو ما أكد عليه ابن عربي أيضًا بقوله: «فإذا فارق الإنسان موطنه ودخل في حدود الربوبية، فاتصف بوصف من أوصاف السيادة على أبناء موطنه الأصلي. وأمثاله من العباد، ولم يجد لذة لذلك، فما وفَّى صفة السيادة حقها، فإن الكامل من العارفين، لذة كماله لا تقارنها لذة أصلًا، فالابتهاج الكمالي لا يشبهه ابتهاج، فلما لم يوفِّ الإنسان هذه الصفة الكمالية حقها، فإن عليه الاغتسال من جنابته المعنوية التي هي غربته عن هذه الصفة السيادية، وهو الاعتراف بما قصَّر به في حق تلك الصفة الإلهية، أما من رأى صفة الكمال التي ينبغي للواجب الوجود بنفسه الاتصاف بها، إذا اتصف بها العبد في غربته عن موطن العبودية، لم يكن لها حكم فيه؛ لأنه ليس بمحل لها، لم يوجب عليه غسلًا من الجنابة المعنوية»، وضمن هذا المعنى جاءت أفكار ابن عربي عن الاغتراب الصوفي لترسِّخَ علاقة المريد والسالك والعارف بأثر التصوف في الارتقاء إلى مقام العبودية، خاصة وأن الحوار التربوي بين ظاهر النفس وباطنها يعبر عن العلاقة الروحانية التي تستهدف تجربة هؤلاء المتصوفة في مناجاتهم ومعرفتهم لله، فتجلي هذا المعنى قد أنتج لنا خطابًا تربويًّا ولغة ذوقية جمالية تربط حضور القلب مع الله، والاتصال العرفاني بعالم الملكوت والأنوار الإلهية، لذلك فإن دلالات هذا الخطاب قد حملت في تلك الألفاظ والمعاني الصوفية عند الإمام الأسمر ذلك الطابع التأملي المجرد لماهية التربية الصوفية في الفكر الصوفي، خاصة لغة الكشف والذوق والإلهام والإشراق والعرفان، وكلٌّ يغذي فكر المريد ويستهدف سلوكه داخل هذه الأحوال والمقامات، «فالصوفية إضاءات وإشراقات موغلة في التدين السامي، بمعنى أنها تحقق – بتعالٍ كبيرٍ – كل القيم والمفاهيم التي صاغها الفكر النصي، وتَلِجُ الدين وتتفاعل معه تفاعل الماء مع

النبات، وهذا يعني أن الصوفية حياة روحية متعالية، حياة تروي ظمأها بترياق كؤوس وأنهار من الماء، حيث تعبر الروح بكل صفاتها عن تلك الجداول المترعة برحيق الحياة العليا»، ومن هذا المنظور فإن الكشف عن أسرار لغة الشيخ وتجربته التربوية الصوفية هو ما سيساعد على معرفة حدود فكره، وجميع الدراسات والأبحاث الفلسفية والتربوية التي عززت هذا المنهج التعليمي، فمن حالة الإشراق إلى حالة العرفان، ومن مقام الكشف والمناجاة إلى مقام الحلول والفناء، ومن درجات الحب والاستقامة والزهد إلى درجات الإحسان تظهر التجليات التربوية لطبيعة الممارسات الصوفية، لذلك ظل «عبد السلام الأسمر» وفيًّا لهذا النهج الذي يحمل كل القيم التي ميَّزت التصوف كفكر عن بقية المذاهب والتيارات الدينية الأخرى، فقد أشار إلى ذلك الشيخ الحافظ أبو نعيم بقوله: «فمباني المتصوفة على أركان أربعة: معرفة الله تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة النفوس وشرورها ودواعيها، ومعرفة وساوس العدو ومكائده ومطالبه، ومعرفة الدنيا وغرورها وتفنيتها وتلوينها وكيفية الاحتراز والتجافي عنها، والمكابدة وحفظ الأوقات واغتنام الطاعات، ومفارقة الراحات والتلذذ بما أيدوا به من المطالعات، وصيانة ما خصوا به من الكرامات، لا عن المعاملات انقطعوا، ولا إلى التأويلات ركنوا، رغبوا عن العلائق، ورفضوا العوائق، وجعلوا الهموم همًّا واحدًا، ومزايلة الأعراض طارفًا وتالدًا، اقتدوا بالمهاجرين والأنصار، وفارقوا العروض والعقار، وآثروا البذل والإيثار، وهربوا بدينهم إلى الجبال والقفار، احترازًا من موامقة الأبصار، فهم الأتقياء الأخفياء، والغرباء النجباء، صحت عقيدتهم فسلمت سريرتهم»[1] وامتدادًا لطبيعة هذه الشهادة تظهر تجليات التربية الصوفية من خلال سلوك المتصوفة الذين تحلوا بهذه الفضائل والأخلاق السامية، هذه القيم التربوية جاءت لتعرف بطريقة تعليم الشيخ للمريد للوصول إلى مرتبة العارف والسالك، أين استهدف الإمام الأسمر طبيعة هذا البناء الروحي لتلك المنظومة الأخلاقية التي عززت كل الأحوال والمقامات، ومن ثم انصرفت الدراسات التربوية المعاصرة إلى البحث في ماهية التصوف ومقاصده داخل إطار تلك القيم التي جسدت النموذج التربوي الذي يُعرَف بمناهج ومبادئ وأهداف التعليم الصوفي، لذلك نجد أغلب الطرق الصوفية في ليبيا قد أَوْلَتْ عناية فائقة لأسلوب التربية ونموذجيته في ترسيخ القيم العقائدية، وكل ما ينفرد به سلوك المتصوف الذي يرتقي من خلاله إلى مقام الصالحين، فمقاصد هذا النموذج قد عكسته أقوال ومآثر وخطب الإمام الأسمر، لذلك نجد أن هذا التراث

الروحي أصبح حاضرًا داخل فضاء الزوايا والنوادي والمدارس وحتى بعض المعاهد والجامعات؛ للوقوف عند حقيقة تصوف الشيخ بين المؤيد والرافض، وجميع الرسائل والوصايا التربوية التعليمية التي تركها لا يخرج في أغلب مضامينها عن مشروعية مجالسة الأولياء وتعليم الأطفال والنساء والشيوخ كل تعاليم الكتاب والسنة، إلا أن هناك بعض الدراسات تتنكر لحقيقة تجربته وتعتبره ملحدًا ودجالًا، وهذا نوع من الافتراء والبهتان على سيرة الإمام الأسمر العطرة، فرغم الاختلاف بين الطرق الصوفية في ليبيا وخارجها، إلا أن سمات الزهد والورع والطاعة قد ميزت حياته وطبعت أخلاقه، وهذا بشهادة من عاصره وكل تلاميذه ومريديه الذين يعترفون بفضله في إنارة وإضاءة المجتمع الليبي، لا سيما تلك المكانة العلمية والدينية التي حظي بها، وجعلته أكبر رموز التاريخ الثقافي في المغرب والمشرق، وبذلك فإن مقام العبودية قد تشرف به داخل مجالس العلم مع مريديه.

تعليمية التصوف بين الشيخ والمريد في الخطاب التربوي عند الإمام الأسمر

يرتكز مفهوم التربية الصوفية وتجلياته التعليمية بين الشيخ والمريد على محاسبة النفس لمخالفتها لقيم الفطرة السليمة، لذلك فإن إصلاح النفس، ومراقبة الله في السر والعلن هو دأب الصالحين مع تجنب مجالس العوام من الناس، لذلك جاءت علاقة الشيخ بالمريد لتتحدث عن أصول التصوف في ليبيا بعيدًا عن الطرقية، «فالطريقة العروسية نسبة للشيخ العارف أبي العباسي أحمد بن عروس بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر، يرجع نسبه إلى قبيلة هوارة، وقيل إلى بني تميم، وتوفي بتونس عام (869)، (...) وقد لاقت الطريقة العروسية انتشارًا واسعًا على يد أكثر أتباعها الشيخ عبد السلام الأسمر الإدريسي الحسني، أحد أكبر متصوفة القرن العاشر (981)، ويذكر أحد تلاميذه أن أتباعه كانوا كثرًا من بلاد المغرب ومصر والحجاز، إذ تقوم طريقته على مجموعة من الأوراد السنية التي يتلوها المريد كل يوم، كالاستغفار والصلاة على الرسول، وقراءة أجزاء من القرآن الكريم، وقيام الليل، (...) فقد عرف المد الصوفي في القرن الثامن والتاسع عشر انتشارًا لطريقة الشيخ العروسية خاصة في غرب ليبيا»' وفي سياق هذه الحركية التاريخية تظهر ملامح تجربة الشيخ الصوفية في مجال التربية والتعليم، وقد ساهمت التربية الصوفية في

ترسيخ الهوية الفقهية، خاصة وأن زاوية الإمام الأسمر قد اهتمت بتعليم طلاب العلوم الشرعية، فقد جاءت كل رسائله لتحثَّ كل المريدين على اتباع مسلك الصالحين، وهذا ما جاء على لسان الشيخ:«ولا تزالون تذكرون حتى تظهر فيها الخمرة وهي السكر، والسكر هو الغيبة عما سوى الله عزَّ وجل، وعلامة ذلك بينة لا تخفى على أحد إلا على أعمى البصيرة، ثم بعد ظهور خمرتها، اضربوا البنادير وقولوا كلامي وتأملوا معناه، ولا تضربوا البنادير إلا بعد أن تظهر الخمرة، ولا تضربوها إلا وأنتم طاهرون، وإياكم ثم إياكم أن تضربوا البنادير لأجل الدنيا، فإن ذلك يضركم مع الله مضرة شديدة، ولا أرضى بذلك، ولا أرضى عمن يفعله، ومن خالف فلا يلومن إلا نفسه»، وضمن هذا المعنى يحاول الإمام الأسمر أن يجعل ضرب الدف مشروعًا إلا عند حالة السكر أو الخمرة، وهي لحظة الاتصال الروحي بين النفس والله، أو حالة من الحلول والفناء التي تحدث عنها الحلاج، أو شكل من أشكال عشق وحب الذات للخالق، وينكر الشيخ على مريديه ضرب الدف لحب الدنيا؛ لأن هذا الطريق يخالف التصوف، ولا يساعد على تحقيق مرتبة العارف الواصل، لذلك على المريد والسالك أن يتعلما تلك الحقيقة الصوفية، خاصة وأن تعليمية التصوف تبدأ من خروج النفس من الظلمة إلى النور، وتستهدف ارتقاء الفكر من الإشراق إلى العرفان، حينها يمكن فهم المقصد التربوي لعلاقة الشيخ بالمريد، وعلى ضوء تلك الكرامات الصوفية فإن رحلة الاغتراب الصوفي التي يسلكها المريد تنكشف تلك الحجب الخفية المتعلقة بعالم الملكوت، وقد أشار الإمام الأسمر عبر الوصية الكبرى إلى أن رغبة المتصوف وميله إلى ممارسة عملية الكشف والمجاهدة والرياضة والتعبد أثناء الخلوة قد يهيئ هذه النفس إلى إدراك مدارج السالكين، خاصة وأن الشيخ قد ركز فيه ممارساته التربوية التعليمية على الجانب النظري والعملي للعقيدة، أين تكون علاقة التربية الصوفية بالفكر والسلوك حجر الأساس لتعليمية التصوف الإسلامي الذي يبدأ بتقديم تلك النماذج الروحية التي تسمو بنفس المريد وتهيؤه لتلك الرؤية والمشاهدة، وكل ما ينطوي على التأمل والمعرفة، خاصة وأن المناهج والبرامج التعليمية داخل الزوايا والمدارس الدينية لا تختزل أهداف التصوف في الطرقية، وإنما في تلك الاستعمالات الصحيحة للطريقة في التعلم، وهذا ما يجعل دلالات الصفاء والأنس من خلال أحوال السالكين، أو أثر مشاهدة جمال الحضرة الإلهية في القلب، وقد يدرك المريد حقيقة هذه القيم الجمالية إذا التزم بتعليم الشيخ وإرشاداته وتوجيهاته التربوية التعليمية، «فإذا تجلى

تعالى في قلب العبد شاهد الجمال، يكون نصيبه في ذلك الأنس، كي يكون أهل الهيبة من جلاله في تعب، وأهل الأنس من جماله في طرب، فهناك فرق بين قلب يحترق من جلاله في نار الحب، وقلب يستنير من جماله بنور المشاهدة، ومن ثم بيَّن طائفة من المشايخ أن الهيبة هي مرتبة العارفين، والأنس مرتبة المريدين»، وضمن هذا المعنى حاول الإمام الأسمر أن تكون مرتبة الهيبة والأنس ثمرة تجربته التربوية التعليمية، خاصة وأن تحقيق المعية القلبية مع الله هو غاية السالك والعارف، أين تتجلى المنظومة القيمية للتصوف وكيفية إدراك هذه الدلالات والمعاني التي اقترنت بالمعرفة الذوقية التي تقتضي الشرب من كأس الخمرة حتى تتجلى حالة السكر نتيجة هذا الشطح والسمع والوجد، «فالأحوال هي المواهب الفائضة على العبد من ربه، إما واردة عليه ميراثًا للعمل الصالح المزكي للنفس المصفي للقلب، وإما نازلة من الحق امتنانًا محضًا»، وضمن هذا المعنى يظهر التصوف كممارسة تربوية وتعليمية يرتقي من خلالها المريد إلى تلك المراتب الروحية ومقامات العبودية، وبلوغ درجة الولاية، وهي أشرف المقامات السرمدية، وهي مقامات القرب من الله، لذلك جاءت هذه الكرامات الصوفية كمنح إلهية لإخلاص هؤلاء في الشكر والخوف والرجاء والتوكل والزهد والورع والإحسان والاستقامة، وهي قيم وأخلاق يتعلمها المريد مع شيخه، وهذا ما جاء على لسان «أبي حسين النوري» في قوله: «الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفاق النفوس، وتحللوا من شهواتهم»، هذا المعنى لا يختلف كثيرًا عما عزَّزه الإمام الأسمر من خلال رؤية بعض الدارسين لطبيعة الفكر الصوفي، «فالصوفي مركب من حروف أربعة: الصاد والواو والفاء والياء، فالصاد صبره وصدقه وصفاؤه، والواو وجده ووِدّه ووفاؤه، والفاء فقده وفقره وفناؤه، والياء ياء النسبة، وإذا اكتمل فيه ذلك أضيف إلى حضرة مولاه»، وهكذا أجمع أغلب المتصوفة على حقيقة التصوف من خلال تلك الألفاظ والمعاني والأوصاف الخلقية الظاهرة والباطنة التي لازمت تجربة الشيخ في حياته، خاصة دوره التربوي والتعليمي الذي يقوم على ربط التربية وتعليمية التصوف بثنائية العزة والذل من خلال الافتقار إلى الله عن طريق التصفية والتربية التي تهيئ هؤلاء المريدين إلى طريق الترقي الأخلاقي، والمحبة الإلهية، والفناء في الحقيقة المطلقة، والعرفان الذوقي والرمزية في التعبير عن أحوالهم أثناء المشاهدة والمجاهدة إلى غاية الانتهاء بمقام التوبة والتوحيد والحلول والفناء، وهذا ما عبر عنه الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين بقوله: «إذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه

الرحمة، وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر، وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغرَّة بلطف الرحمة، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية»، فطبيعة هذه الرؤية تعد مرجعًا للتربية الصوفية التي اهتمت بقيم ومقاصد التعليم الصوفي الذي انتهجه الإمام الأسمر كرياضة روحية ومجاهدة نفسية، وعبادة دينية تحملنا على رؤية عالم الملكوت من خلال المناجاة أثناء الخلوة، لذلك تمثل تلك الأحوال والمقامات الصوفية تعبيرًا صادقًا عن الاستسلام في الطاعة والعبودية والتجرد عن شهوات ولذات الدنيا، فتعليمية التصوف تشكل رحلة روحية قد اختزل معناها المتصوف صدر الدين القونوي في قوله: «اعلم أن التقرب إلى الله تعالى على قسمين: الأول يسمى بطريقة أداء الفرائض، وهو يتعلق بسير المجذوب السالك، ويسمى أيضًا بسير المحبوب المتضمن فناء الذات، وفي هذا السير يكون السائر سمع الحق وبصره، ظهر حكم هذه القضية إلى السالك بعد التحقق والتخلق بأداء الفرائض وقرب النوافل؛ لأن السالك كان محتجبًا لحجب النفس، فإذا تحقق بأدائهما خرج من ظلمة النفس، ودخل في نور فسيح القلب والروح، وشهد أن الحق هو عين الأشياء، بل عين قوى العبد السالك»، وضمن هذا المعنى فإن السالكين لطريق التصوف قد نهلوا من التربية الصوفية قيمًا رسخت لديهم سلوك الأتقياء الأصفياء، لذلك صاغ الإمام الأسمر رؤيته التربوية للتعريف بأفكاره في المجال التعليمي، «فالتصوف بهذا المعنى نموذج في المعرفة وفلسفة أخلاقية في إصلاح النفس، وتهيئة الروح لتسمو باتجاه العوالم العلوية، وتتلقى علوم الأسرار التي هي شرط كمالها الخلقي، وتحقيق سعادتها القصوى التي لا تنفصل عن يقين المعرفة».

يشكل الفكر التربوي عند الإمام الأسمر حجر الأساس لتلك اللغة الروحية التي جسدت تجربة كل صوفي أثناء سياحته وسفره واغترابه عن وطنه، أين جاءت هذه الأحوال والمقامات لتعكس ذلك النموذج التربوي الجامع لخصال المتصوفة، وهذا ما جعله يتفق مع ما ذهب إليه ابن عربي من خلال إظهاره للعلاقة بين المتصوف وطبيعة هذه الرحلات والأسفار بقوله: «إن المتأهب إذا لزم الخلوة والذكر، وفرغ المحل (القلب) من الفكر، وقعد فقيرًا لا شيء عنده باب ربِّه، حينئذ يمنحه الله تعالى ويعطيه من العلم به، الأسرار الإلهية والمعارف الربانية التي أثنى الله سبحانه بها على عبده الخضر، فقال الله تعالى: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف:65]»، هذه الحقيقة التي جاءت على لسان شيخ المتصوفين ابن عربي تحمل أكثر

من دلالة تشترك مع رسالة الإمام الأسمر وجهوده في توجيه مريديه ووعظهم وإرشادهم لما هو خير لهم في بلوغ تلك الكرامات من خلال هذه القيم التربوية الصوفية. لذلك عرض الإمام الأسمر من خلال وصيته الكبرى المبادئ الكبرى لتصوفه وأساليبه التربوية في نشر القيم الأخلاقية، خاصة ما تعلق بمعرفة الله وفرائض الدين، وعن التوبة والابتعاد عن الزندقة والكفر والإلحاد، وقد جاء على لسانه: «إخواني، واحفظوا أنفسكم من الظلم والخيانة والأفعال المذمومة، والأقوال الكفرية والعياذ بالله من ذلك، وإياكم وجحد الأمانة وإنكارها على أهلها، وإياكم والشك في قدرة الله تعالى، والمخالفة لما أمر الله تعالى به، والتغافل عن السنن التي أمر الله بها ورسوله ﷺ، والرياء والتفاخر والبطر، واتباع الهوى والزور والبهتان والغش وخديعة المسلم، والتفريط في الشريعة، والحرص على الدنيا الدنية الجيفة، متاع الكفار والكلاب، أما المؤمن فهي سجنه وهي همه وهي غمه، فإذا خرج منها استراح من علته وسجنه، فلا تجمعوا منها إلا ما يسد الضرورة، وإياكم واتباع الشهوة المهلكة، والعجز والكسل والبخل عما أمر الله به، والشح المطاع والهوى المشبع، والرغبة والزيغ عن الحق والصواب، والقساوة في القلب واللسان، والهزل وطول الأمل، وإياكم والطمع، وإياكم والطمع»[1] هذه الرسالة تحمل كل القيم الأخلاقية التي يجب أن يتعلمها المريد لكي يكون قلبه مع الله، لهذا الغرض سخر الإمام الأسمر مجالس التربية والتعليم لزرع هذا الأنموذج التربوي الصوفي لتزكية النفس وتهذيبها على الفضيلة، فكل ما ينطوي تحت الفكر التربوي الصوفي قد استوعبت رسائله تجلياته في تعزيز الخطاب الصوفي الذي يجمع بين الماهية والمقصد، وضمن هذا المعنى استهدف منهجه التربوي اجتماع تلك المعارف والأنوار والكرامات من خلال ممارسة التصوف في حدود تلك العلاقة التربوية والتعليمية بين الشيخ والمريد، وهذا ما يجعل تجليات التربية الصوفية تحمل أسرار مراتب الكمال الأخلاقي، وأحوال ومقامات العبودية، وكل ما يهيئ المسافر السالك لهذا الطريق إدراك حقيقة التصوف من خلال تعلم قيمه والالتزام بمقاصده وتعاليمه الروحية، وهذا ما دفع بأبي السراج الطوسي إلى التأصيل الإسلامي لطبيعة التصوف قائلًا: «إن سأل سائل: قد نسبت أهل الحديث إلى الحديث، ونسبت الفقهاء إلى الفقه، فلما قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال، ولا إلى علم، ولم تضف إليهم حالًا كما أضفت الزهد إلى الزهاد، والتوكل إلى المتوكلين، والصبر إلى الصابرين، فيقال لهؤلاء: إن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يرتسموا برسم من

الأحوال والمقامات دون رسم، وهم مع الله تعالى في الانتقال من حال إلى حال، فلأجل ذلك ما أضفت إليهم حالًا دون حال، ولا أضفتهم إلى علم دون علم، فلما لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر اللبسة؛ لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام، وشعار الأولياء الصالحين»، وامتدادًا لطبيعة هذا التأصيل لدى الإمام الأسمر بتحويل تلك البرامج والمناهج التعليمية إلى منظومة للقيم الصوفية الخالصة التي تستهدف أخلاق التقشف والزهد ومجاهدة النفس وتربيتها من خلال تعليم المريد كيف يتأمل عالم الملكوت ليدرك الحقيقة العلوية، وكيف يرتقي عبر هذه الأحوال والمقامات أثناء خلوته التعبدية، ورحلته الاغترابية وسفره الروحي من خلال الانقطاع عن الدنيا والإقبال على الآخرة «فقد غلب على العباد والنساك والقراء في هذا الزمن التهاون بالذنوب حتى غرقوا في شهوة بطونهم وفروجهم، وحجبوا عن شهود عيونهم، فهلكوا وهم لا يشعرون، أقبلوا على أكل الحرام، وتركوا طلب الحلال»، ومن هذا المنظور اهتم الكثير من الأكاديميين والباحثين في الحقل التربوي لفلسفة الإمام الأسمر الصوفية أن رسالته التعليمية كانت مشرقة بفضائل العلم والقيم التربوية التي اختزلت النموذج الصوفي للمدرسة التي ترتكز على تعليم المريدين وكل ما له علاقة بالتصوف الإسلامي أولًا، وتعليمهم كيفية تحقيق مرتبة العارف الواصل ثانيًا، خاصة من خلال الانتقال من هذه الأحوال والمقامات، لذلك نجد أن تمظهر هذا الخطاب الصوفي في لغة الإمام الأسمر قد عزَّزت مقصدية رؤيته الإصلاحية والتربوية، ومن ثم انفتاح كل تلاميذه والواقفين عند طبيعة فكره على هذا الموروث التاريخي الذي صاحب تاريخ نشأة وتطور الفكر الصوفي في تلك الفترة، وفي هذا الإطار فإن كل المعايير الأخلاقية التي استوعبت هذا المناخ التربوي والفضاء التعليمي بين الشيخ والمريد - قد جعل المجتمع العربي الإسلامي يعيش لحظة الانفتاح مع فكر الإمام الأسمر وليس الانغلاق، كما استوعبت هذه الدراسات التربوية الحديثة والمعاصرة -كما أشرنا إلى ذلك سابقًا- مآثره وأفكاره، وكل ما حمله مشروعه التربوي الصوفي لطلاب هذا العلم والسالكين لطريق التصوف، ومن ثَمَّ جاءت هذه التجليات التاريخية لتعيد رسم معالم نظرية وتجربة الشيخ الصوفية في بعدها الأخلاقي والتربوي والفلسفي المعاصر.

خاتمة:

إن طبيعة الحضور الأخلاقي للتربية الصوفية في المنهج التعليمي لدى الإمام الأسمر قد استهدف تلك الممارسات الروحية التي اختزلت أحوال النفس، ومقامات التعبد والمناجاة، لذلك لم تكن هذه الأفكار التربوية مجرد تحصيل حاصل في فكر الإمام الأسمر، وإنما طفرة حقيقية غيرت مسار التصوف في ليبيا والعالم الإسلامي، ومن ثَمَّ حمل هذا الفكر في ماهيته ومقاصده نموذجًا اقتفى الكثير ممن عايشوا وعاصروا الإمام الأسمر هذا النموذج؛ لأنه كان نظرية في السلوك، فعلاقة الشيخ بالمريد قد استوعبت سيرورة هذه التعاليم الروحية والآليات التربوية التي انتهت بالسالكين إلى إدراك ومعرفة كل ما هو خفي عن العقل والنفس والوجدان، قد استطاع الإمام الأسمر أن يفحم خصومه ومعارضيه من خلال تلك الرسائل والوصايا التي رسخت قيمًا مجتمعية وأخلاقًا سامية بدأت بتعليم الناس أمور دينهم ومحاربة آفات الجهل بالعقيدة، فدوره التربوي التعليمي لم يقتصر على ذلك فقط، وإنما تعدى هذا الإطار ليشمل تصحيح سلوك المتصوف وإرشاده من خلال تلك المراحل التي يسلكها من المريد إلى السالك إلى العارف إلى الواصل، لذلك ما تحدث عنه من خلال مفهوم الأنس والهيبة في خطاب المتصوفة هو تعبير عن الحالة الذوقية التي تحقق للنفس درجات كمالها أثناء الخلوة التعبدية، وضمن هذا المعنى جاءت رؤيته التربوية لمستقبل الفكر الصوفي ضمن مؤلفاته التي تضمنت هذه المنظومة القيمية لطبيعة هذا الفكر ضمن راهن الحداثة وثقافة الفكر العولمي المعاصر، ومن ثم لا يمكن أن نتنكر لجهود الإمام الأسمر وأدواره في تشكيل المدرسة الصوفية التي يتعلم داخلها كل مريد وسالك لهذا الطريق أن يأخذ بأسلوبه في التعلم والوعظ والتوجيه والإرشاد، وهذا ما حث عليه من خلال ربط تجربته الصوفية بالعقيدة والسلوك الرباني الذي يشمل منهج التعليم الذي يتلاءم مع مجالس الحضرة الإلهية وكل المقامات التي تجعل المريد يستجيب روحيًّا عند سماعه أو حالة سكره. هكذا كان حال الإمام الأسمر على عاتقه مسؤولية تسخير كل طاقاته لنقل طريقته العروسية عبر أفكاره التربوية، لذلك يعتبر صلاح العبادة والتقوى والطاعة ثمرة تعليمه، فالغاية من تكوين الشخصية على نحو المنظومة التربوية الصوفية قد جعلته يربط كراماته بكثرة مجالسته للعلماء واتباع سير الصالحين، لذلك شملت مظاهر العبادة زاويته التي كان يتعبد فيها،

ويعلم كل مريديه تحفيظ القرآن الكريم باعتباره حاملًا لكنوز العلوم جميعًا، لذلك تعلم حقيقة التوحيد والفقه والحديث والمنطق، فذاق هذه العلوم إلى طرق باب التصوف الذي أصبح يشكل نورًا قد وجده من خلال مشاهداته ومجاهداته التي اختزلت أوقات فراغه في العبادة والابتهال إلى الله، وضمن هذا المعنى انتهيت من خلال أطوار هذا البحث عن التربية الصوفية وتجلياتها التعليمية في تجربة وسيرة الإمام الأسمر إلى أن تلك القيم وآداب السلوك الصوفي جوهرها الإرشاد إلى طريق الله، والتحرر من ظلمة النفس، لذلك لما بلغ مرتبة العلم قام بالدعوة إلى طريقته العروسية، وطوافه مع مريديه حول الأولياء والتقرب منهم، فكل مشايخ التربية والتعليم قد أجمعوا أن الطابع الصوفي لطريقته وتفكيره تلائم كثيرًا دأب المتصوفة، خاصة وأن علو مقامه وكعبه بين تلاميذه الذين تأثروا به كثيرًا، لا سيما محبتهم التي اختزلت كل أحوالهم في العبادة، لذلك عكف على تعليم التصوف كطريقة للهداية والمناجاة، ولم يكترث لتلك البدع، واتصاف الكثيرين له بأقبح الأسماء والأوصاف؛ لأنه كان يحب الحق ويكره الباطل، وبالتالي نجد أن تعاليم شيوخه على غرار الشيخ عبد الواحد الدوكالي وقد كانت حاضرة في مجالس تعليمه، ومن ثم تبقى خصاله وأخلاقه شاهدة على أسلوبه في فن التدريس والدعوة إلى الله، وقد اعتبره البعض من أولياء الله الصالحين نتيجة هذا الفن ومقاصده التربوية، وحلقات الذكر الدائمة التي كان يحييها الإمام الأسمر قد رسخت أسلوب الذكر وكل درجات الرضا والإيمان، ومن ثم فقد تحدثوا عن كراماته بعد وفاته؛ لأن مجالسه العلمية بمساجد مدينة زليتن عرفت تواضعه وسماعه لمريديه، ومن هذا المنظور فإن رغم تعنت أهل الجدل واللغو والباطل لطبيعة تصوفه والتشكيك في سيرته الأخلاقية، إلا أن حياته في البحث والمعرفة والممارسة للتصوف جعلت دعوته الإصلاحية شاهدة على ولايته وكراماته وأسلوبه التربوي التعليمي.




الأبعاد التربوية في فكر الإمام عبد السلام الأسمر وآثارها في تكوين الشخصية المسلمة

أ.د عبد المهيمن محمد الأمين

مدير جامعة المغيلي الأهلية الدولية - النيجر

ملخص:

يُعدُّ الإمام الأسمر من أهم الشخصيات الإصلاحية المؤثرة في القرن العاشر الهجري، وهذه المقالة تسعى لكشف وتوضيح الأبعاد التربوية في فكر الإمام الأسمر وآثارها في تكوين الشخصية المسلمة؛ للإفادة منها في المشاريع التربوية الوطنية؛ من أجل تكوين شخصية مسلمة مؤثرة، تسهم في بناء مجتمع سلمي آمن ومترابط.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الأبعاد التربوية، الشخصية المسلمة.

مقدمة:

إن الجانب التربوي في مشروع الإمام الأسمر الإصلاحي، ليكاد يتخلل كل تفاصيل مشروعه، فالتربية أساس العملية الصوفية ومحورها، فلا يمكن لأي ركن من أركان مشاريع التصوف الإصلاحية أن يتكامل مع الآخر إلا والتربية مُحَرِّكُهُ بناء على مخرجات أعمالها. وتمتاز كل طريقة صوفية عن غيرها بنمط أو شكل من الممارسة التربوية وَفْقًا لظرف الزمان والمكان ومنطلق رؤية صاحب المشروع التي يبنيها تجاوبًا

من ظروف ومستجدات آنية أو مستمرة، قريبة أو بعيدة، وإن كانت التربية في قواعدها الأصلية مشتركًا بين كل أصحاب الطرق الصوفية.

وفي مشروع الإمام الأسمر الإصلاحي، خصائص ومميزات في الجانب التربوي، فالتربية كما قلنا تتخلل كل تفاصيل مشرعه، وتقوم عليها كل مستوياته، فدون التربية، في فكر الإمام الأسمر، لا يمكن أن ينجح الإصلاح المعرفي والاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي، وغيرها من صُعُدِ الحياة.

الأبعاد التربوية في مشروع الإمام الأسمر الإصلاحي

أولًا: بعد الوحدة والهُويَّة والإسلامية:

انطلاقًا من فهم للواقع الضعيف الذي يمر به العالم الإسلامي، رأى الإمام الأسمر أن منهج المقاومة الفكرية أسلم من المواجهة العسكرية، فقرر الحفاظ على العقيدة الإسلامية، القائمة على التفريد والتوحيد وإحياء أثر النبوة، وما يترتب عليها من إيمان وأخلاق، مستخدمًا في ذلك وسائل تُناسِبُ التغيير الذي يبدأ من القاعدة لا الهرم، فتوجه بخطابه بشكل مباشر إلى كافة أفراد المجتمع بمختلف مستوياته التعليمية، بواسطة نظم مئات القصائد والأشعار بأسلوب سهل ميسور الفهم، وضمَّنها أسماء الآلاف من العلماء والصالحين والمؤثرين في المجتمع، لربط المجتمع بهم كقدوة، وكل ذلك مصحوبًا في «الحضرة» بذكر الاسم المفرد (الله) ليعززها قيمة أساسية للانتماء وإحياء العقيدة في قلب المريد[1].

ولم تكن دعوته قطرية ليبية، بل توجه في خطابه إلى الأمة الإسلامية كاملة، خاصة وقد أصبحت العقيدة مهددة في أغلب أقطار العالم الإسلامي، وإضافة لأسلوبه السهل الممتنع الذي يفهمه الجميع وإن اختلفت طبقاتهم ومستوياتهم العلمية، فقد استخدم لغة

(1) مقال: «هُويتُنا في فكر الشيخ عبد السلام الأسمر»، ضمن كتاب: سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، 2018م، ص6. وكذلك: مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، ص8.

الحب، اللغة الصوفية الخاصة، فمع كل شخصية يستخدم عبارات وجملًا صوفية، تفيض حبًّا كالغرام والهيام والسكر[1].

لقد أدرك الإمام أهمية الوحدة ومقوِّماتها، ومنها المقوِّمات المشتركة، كمقوِّم اللغة العربية، التي دعا إلى تعلمها والعناية بها، كما في رسالته لمريديه في تِنْبِكْتُو[2]، ومنها المقومات الخاصة في بعض الأقطار الإسلامية كوحدة العقيدة والمذهب، كالأشعرية والمالكية في أقطار المغرب العربي، وهو يريد بذلك وحدة العقيدة وَفْقًا للمذاهب الفقهية في الأقطار الأخرى.

وجمع كل ذلك بإطار وحدة التصوف وضرورته، لكن بعد تنقيته من الانحرافات والسلوكيات الضارة، ورد انتقادات الفقهاء الجامدين للتأكيد على الوحدة والمنطق بين الفقه والتصوف، ولم يكن رد الانتقادات الفقهية على التصوف بالمناظرة فقط، بل من خلال تضمينه لمئات الأسماء من الفقهاء الصوفيين في قصائده للتأكيد على التكامل بين الفقه والتصوف.

والملاحظ في قصائده أيضًا، أنها ضمَّت المئات من أسماء الصوفيين الفاعلين في مختلف شرائح المجتمع، كالمحدثين والمفسرين والفقهاء والأدباء والفاعلين المجتمعيين وغيرهم، وهو ما يؤكد عليه العلامة الشيخ أحمد القطعاني، بقوله: إن التصوف يتكامل إيجابيًّا مع مؤسسات المجتمع؛ لتحقيق الأهداف المشتركة[3].

ثانيًا: البعد المعرفي التعليمي:

وهذا البعد يعد من أهم وأكبر الأبعاد التربوية في فكر الإمام الأسمر؛ ولهذا سيتم تناوله بشكل مفصل، موضحين الأدوات والوسائل التي استخدمها من أجل تحقيق هذا البعد في مسارين، هما:

---

(1) مذكرة تعريفية بالإمام عبد السلام الأسمر، اللجنة التحضيرية للدورة الخامسة للمؤتمر الدولي عن الشيخ أحمد القطعاني، ص2.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م، ص236.

(3) مقال: «التصوف ومؤسسات المجتمع المدني»، أحمد القطعاني، ضمن كتاب: سري للغاية، مصدر سابق، ص43 وما بعدها.

الأول / التأسيس والتأصيل للمعرفة والتعليم:

إذ كان الإمام الأسمر يحس أن الخطاب الديني يعاني من أزمة وفقد روحه، وأصبح يركز على الحرفية والمعرفة المجردة، وأصبح مجزءًا فاقدًا للوحدة العضوية، ولعلاج ذلك الواقع، انطلق التعليم لدى الإمام من مبدأ تربية الذوق والحس الجمالي؛ للتنبيه على أبعاد ومقاصد الدين[1].

والتعليم لديه يقوم على ركائز ثلاثة[2]:

-1 العودة إلى الأصول، وعلى رأسها القرآن الكريم مدارسة وحفظًا.

-2 الذكر بالاسم المفرد (الله) مجاهرة، وبشكل جماعي؛ لربط قلب المريدين بواسطة علاقة الحب بين الخطاب (النص - القرآن) والمخاطب الله.

-3 منظومات شعرية تغص بالآلاف من أسماء العارفين من علماء الأمة للحضرة، كونهم نتاج العلاقة الحقيقية بين المخاطَب والمخاطِب، وربط قلب المريدين بعلاقة تفيض محبة، ويزيدها إفراد ذكر الله عشقًا وهيامًا، وبالتالي انتماء.

لقد أعاد الإمام الأسمر ترتيب بناء الهُويَّة الإسلامية، ونبه على أن رباطها المقدس هو الحب الفياض المفضي لصلابة وقوة الانتماء، وتجاوز في حواراته الجدل الفقهي، مركزًا علاجه على أصل الأزمة التي تعانيها المنظومة الفكرية في الأمة وقتها، فأقنع من حاورهم علماء بلده ومن وفدوا إليه لمناظرته من خارج البلاد، انضموا إلى مشروعه الإصلاحي وأصبحوا دعاة له[3]، بعد أن تركوا خلفهم نصوصهم الفقهية والفتاوى التي اصطحبوها، فالإمام يحاور بالإبداع لا بالدفاع، ويقبل النقد من مخالفيه، متبنيًا مبدأ التجاوز والاستيعاب، ولذا نجده يؤسس في تعليمه بالزاوية لدراسة علم المنطق إلى جانب النحو؛ مؤكدًا على ضرورة اقتران عملية إصلاح اللسان بالأذهان[4].

---

(1) مذكرة تعريفية بالإمام عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص3 بتصرف.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(4) نفس المصدر، ص3 - 4 بتصرف.

الثاني / أدوات ووسائل تحقيق وتنفيذ البعد المعرفي التعليمي:

وتتمثل هذه الأدوات فيما يلي:

أ. الشعر والأدب:

فُقِدَ أغلب ما دونه الإمام الأسمر، ولم يبق منه إلا وصيته الكبرى والصغرى، وكتاب الأنوار السنية، وبعض رسائله لأتباعه في داخل ليبيا وخارجها، لكنه اعتمد على الشعر الملحون بسيط الألفاظ عميق المعاني؛ لنقل منهجه وتعميقه في النفوس، وساعد ذلك على الحفاظ عليه؛ نقلًا من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا[1].

ب. توظيف التاريخ والجغرافيا:

لقد وظف الإمام الأسمر المعارف التاريخية من أعلام وشخصيات وأحداث؛ قَصْدَ توصيل رسالته الإصلاحية إلى كافة شرائح المجتمع، فلخَّص ما تحتويه المئات من كتب السير والتراجم والطبقات من تاريخ الشخصيات في جملة وكلمات ميسورة مختصرة تؤرخ لمئات آلاف من أعلام الأمة وأعمالهم وجهوده وبيان مكانتهم. مستعينًا في ذلك بالجغرافيا التي يبدو أن له حظًّا كبيرًا في الاطلاع عليها ومعرفتها، فقد حدد أماكن عيش الكثير ممن أعلام الإسلام الذين ذكرهم في قصائده ومواقع أعمالهم وزواياهم وأضرحتهم[2]. وهي مهمة ليست بالسهلة يصرح بذلك العلامة القطعاني بقوله: «في هذه الفترة الحرجة والظروف التي تمس ما هو أهم من حياة الإنسان نفسه، أي العقيدة، قام هذا الرجل العظيم الشيخ عبد السلام الأسمر لوحده بمسح طبوغرافي شامل يحتاج لجانًا أكاديمية متخصصة ومؤسسات وأطنانًا من المراجع والوثائق وزمنًا وتدوينًا، لقد وثق أسماء العلماء والمتصوفين وذوي الصلاح الليبيين، وحفظ هذه الأعلام في ذاكرة

---

(1) قفة الصلاح: قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري الإمام عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص78.

(2) نفس المصدر، ص99 وما بعدها.

الأمة. إن بلدًا تخلو ذاكرته من أعلام يدوِّن تراجمَهم ويعتزُّ بمآثِرهم يعاني نقصًا حضاريًّا شديدًا وخللًا في تركيبته الوجودية هامًّا، إن توثيق أعلام الإسلام هُويَّة ودلالة على عمق مشاعرنا الدينية وأصالتنا الإسلامية إنه قيمة ومفخرة واعتزاز، لذا حظيت كتب التراجم وسير الأعلام بمكانة بارزة في العلوم الإسلامية، واضطلع الشيخ عبد السلام الأسمر في عصره بهذه المهمة الخطيرة في بلادنا»[1].

هـ. استثمار المعارف الصوفية:

لقد استخدم الإمام الأسمر ألفاظًا ومصطلحات صوفية، لها مدلولاتها المعروفة عند أهل الذوق؛ لكنه أضاف إليها ذوقه وتطبيقه الخاص، فأصبحت بذلك أبعادها أكثر عمقًا وأكثر دلالة حتى أصبحت ألفاظًا خاصة بهم يمكن أن نسميها بالمصطلح الأسمري، مثل الحضرة والسكر والذكر والوجد والغرام والفناء والعذول والحب[2].

ح. شمولية المعرفة والتعليم:

إن التعليم والمعرفة لدى الإمام الأسمر، تتسم بالشمولية في المنهج؛ ولذلك يمكن أن نلاحظ أن المناهج لديه تشمل العقيدة والتوحيد والفقه والتصوف؛ إضافة إلى أصول العلوم.

* نجده يأمر مريديه وأتباعه بتعلم العقيدة، وعدم التقليد في أصول الدين، معتبرًا هذا التقليد حائلًا دون تحقيق مقام المعرفة، وكان من أبرز المناصرين لمذهب أهل السنة والجماعة، ومنه قوله: «فعليكم بمعرفة الله، وعليكم بالنظر حين البلوغ فمن لم ينظر ولا يأتِ بدليل ولا ببرهان ففي إيمانه خلاف، وعند جميع الموحدين مقلد، والمقلد ليس بعارف»[3]، بل ولحرصه على النظر والاستدلال والتفكير وضع رسالة مختصرة في العقيدة: «تخرجكم من التقليد، ففيها عشرون ورقة لا زيادة عليها، وهي كراسان على النصف لا غير، فإن لم تقدروا على فهمها فعليكم بعقائد الإمام السنوسي»[4]، وهو ربط واضح بين قواعد الكلام الأشعري بالمعرفة الصوفية القائدة القائمة على الذوق، وفيه

(1) هُويتُنا في فكر الشيخ عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص6.
(2) مذكرة تعريفية بالإمام عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص6 بتصرف.
(3) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص4.
(4) نفس المصدر، نفس الصفحة.

تأكيد على أم المعرفة اليقينية لا تقف عند معرفة الحس والعقل، بل تتجاوزها لترتبط بالقلب ومعارفه.

❋ أما الفقه فمذهب الشيخ الأسمر فيه هو المذهب المالكي، ويحرص على اتباعه، لكنه ينبه على ضرورة تكامله مع التصوف؛ حتى لا يُفرغ من محتواه الحقيقي، حيث يربط بين استقامة الأقوال والأفعال، وهذا التكامل ضروري للتصدر للإرشاد كما يقول: «ولا تصلح المشيخة الكاملة؛ إلا لمن كان على قدم رسول الله ﷺ، وهو من كملت أحواله، واستقامت أقواله وأفعاله، وكان متخلقًا بالقرآن العظيم، متحليًا بمعاني أسماء الله الحسنى، وكان ذا علم راسخ، وعقل سليم ونفس طاهرة، وذهب هواه، وانشرح صدره، وتنوَّر قلبه بأنوار المعرفة، فَسَلَمَتْ فطرته وتنوَّرت بصيرته، وترجح رأيه وأخذ من وارث»[1]، ويلاحظ أنه مع تمذهبه بالمذهب المالكي؛ يقيد ذلك بضرورة الاقتداء بالسنة النبوية الكريمة، وهو ما يشير ويؤكد بأنه ليس مقلدًا، بل كان رافضًا للجمود الفقهي، ولذا حث مريديه بالنظر إلى الأشياء باعتبار مآلاتها.

أما التصوف، فالإمام الأسمر يعد من أبرز الممثلين للتوجه الأخلاقي في عصره، حيث اشتهر بجهوده في إخراجه من القالب المتحجر الذي طبع تصوف هذه المرحلة، وأعاده إلى أصالته، وتنقيته مما شابه من شوائب داخلة على أصله، ومن ملامح ذلك تأصيله لمبادئ طريقته من الكتاب والسنة، بمنهج علماء أصول الفقه، ومن ذلك مبدأ أخذ المريد للعهد من الشيخ في قوله: «واعلموا أن أخذ العهد، له أصل في الشرع العزيز، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعرَاف:172]»[2]. ومن جميل أعمال الإمام الأسمر في المشروع المعرفي التعليمي الشامل، عمله على الدعوة لتعليم التوحيد وأحكام الشرع الشريف على كافة أفراد المجتمع، فقد دعا إلى ضرورة تعليم زوجات وبنات وأولاد ومماليك القرآن الكريم والكتابة والأحكام الضرورية من الشرع الشريف، ما يكشف أن جهوده لم تقتصر على طريقته، بل كانت تستهدف كافة أفراد المجتمع.

---

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص315.

(2) نفس المصدر، ص324.

ثالثًا: البعد الاقتصادي:

إن من أهم ما يميز الأبعاد التربوية لدى الإمام الأسمر، عنايته بالجانب الاقتصادي، حيث نجده يتميز بمنهج يخالف المعهود عند الصوفية، ويتميز هذا النهج فيما يلي[1]:

أ. تقويم السلوك الاستهلاكي الناتج عن الإسراف المنهي عنه في كل صوره في حياة الأفراد والأسر والجماعة.

ب. التحذير من الكسب غير المشروع المعبر عنه (بالسحت) ومضاره.

ج. تشجيع وتوطين الأنشطة التجارية والصناعية والفلاحية، حتى خصص لأصحابها أورادًا خاصة «تتمشى مع ظروفهم، وتتلاءم مع تكسبهم واشتغالهم[2]».

د. حث المريدين على ضرورة العناية برفع مستوياتهم المعيشية، حتى نجده يطالب المريدين بارتداء فاخر الثياب عالية الثمن كما في وصيته الكبرى.

ويضع الإمام الأسمر ضابطًا للمهن، التي ينبغي أن يشتغل بها المريد «فلا تأخذوا منها- الدنيا- إلا ما يسد الضرورة، وما يسدكم، ويكفي عيالكم، والسبب فيها من بيع وشراء أو حرث أو حصاد عمارة وتجدويل فلا بأس عليه. ولا تفعلوا ما يفعله الجهال من السروج المرصعات بالذهب والفضة، ومن الركب المغشاة والمموهات»[3].

والخلاصة أنه يحارب البطالة والاتكالية، وضرورة التوجه إلى الاستقلالية المالية والاكتفاء الذاتي، والتميز في هذا السياق بكل ما يمكن من الأدوات المتقنة المتميزة[4].

رابعًا: بعد التربية السياسية:

الذي لا شك فيه أن الإمام الأسمر، كان لديه وعي بالسياسة وإدراك لعمقها، وما ينبغي أن يكون موقف عالم مصلح مربٍّ مجدد مثله تجاهها؛ ونظرًا لوضوح رؤيته في السياسة، وامتلاك منهج مؤثر تجاهها، نجده يتعرض للمضايقات من الحكام، نتيجة الخوف منه ومن أتباعه، وما قد يشكلوه من خطورة عليهم؛ لهذا نجدهم مرة ينفونه من

---

(1) مذكرة تعريفية بالإمام عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص7 بتصرف.

(2) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م، ص83 – 89.

(3) المجتمع الليبي كما رسمته وصية سيدي عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، ضمن كتاب: مجالس الفقراء، طرابلس، ط1 2000م، ص118.

(4) مذكرة تعريفية بالإمام عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص7.

زليتن والساحل وطرابلس، ومرة يضايقونه ويحاصرونه في منفاه في جبل سوف الجين. والتفصيل في تعاطيه في كل هذه المراحل، سواء في فترة الأسبان وفرسان القديس يوحنا، أو فترة العثمانيين، يخرجنا صلب حديثنا، لكن يمكن استخلاص التوجيهات التي حوتها نصائحه في البعد التربوي للتعاطي مع السياسة، في الآتي[1]:

-1 عدم الاقتراب أو الوقوف في باب الحكام والسلطة.

-2 رفض ما يصلهم منه.

-3 المجاهرة بالدعاء والاستعاذة من (جور المخازنية وظلم الجبابرة العادية).

-4 تفكيك المفاهيم والاصطلاحات ذات العلاقة بالحكم والسياسة، ومنع تداخل المفاهيم والاصطلاحات والرتب، فهو يفرق بين مشايخ العلم ومشايخ السلطة (كشيخ العرب... وشيخ الرعية) الذي يستخلص من الناس أموال السلطنة، فهذان يقال فيهما: إنهما من أولي الأمر؛ لأنهما من تحت أعلام الأمير، وما أقاما بتلك المرتبة إلا بإذنه (الوصية الكبرى).

-5 توعية المريدين بترتيب هرم السلطة في عصره، فهم على التوالي: السلاطين والقواد والوزراء والحكام.

وقد حققت هذه التوجيهات للإمام الأسمر واتباعه المكاسب الآتية[2]:

أ- إيجاد معارضة سلمية للحكام، تقوم على مبدأ الزهد، وهو ما يحقق التوازن السياسي والعدل.

ب- تأمين مؤسسته التربوية الدينية المجمعية من السلطة وتحقيق الاستقلال لها.

ج- خلق حصانة نفسية إيمانية لدى المريدين، تحميهم من الضعف أمام المادة، ومن ثَمَّ شراء الذمم وتذبذب المواقف.

إن تلك التوجيهات وآثارها لتكشف لنا عن اشتغاله في النقد للواقع السياسي، مما يكشف لنا عن جانب من رؤيته للتصوف الرامية إلى تحويل التصوف من مجرد سلوك انعزالي إلى سلوك معايشة لكل الظروف والأزمات ومواجهتها، بل والمجاهرة برفضها، كما يظهر في دعائه: «إلهي واطمس على وجوه أعدائي وأعداء فقرائي، اللهم

---

(1) نفس المصدر، ص7 – 8 بتصرف.

(2) نفس المصدر، ص8 بتصرف.

عجل دمارهم حتى لا يستطيعوا مرصدًا، ولا يستطيعوا مسندًا، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء:227][1]، والدعاء طويل بدأه بدلائل التوحيد والفقه والتصوف؛ ليصل إلى الغاية وهو تدمير كل القوى التي تعادي وتحاول الوقوف أمام مشروعه الإصلاحي.

ولقد وصف الإمام الأسمر الواقع في زمانه وعدم رضاه عنه بشكل عام، لا من الناحية السياسية ولا الدينية ولا العلمية، ولعل دعاءه خير ما يدل على ذلك: «يا ربي، يتضرع إليك عبدك، وأقل عبيدك، يشكو إليك من عظمة الأمر، ووساوس الصدر، وظلم الخلق، وكشف الستر، وإشكال الأمر، وقلة النهي، وتبديل الأمور، والنطق بالباطل، وشهادة الزور، وجور المخازنية، وظلم الجبابرة العادية، اللهم احفظنا وقنا منهم واجبرنا يا جابر العظم المكسور»[2].

والإمام الأسمر في تربيته السياسية يحذر أتباعه من بعض الممارسات التي لا تليق بالصوفي العروسي، كالتي تقوم على الاحتيال والتزلف والتقرب من أصحاب السلطة قصد تحقيق أهداف دنيوية، ويقول محذرًا من ذلك: «إخواني، احفظوا أنفسكم ما استطعتم من الدخول في المضرة والتزاويق واللوشان والحيلات والتزاهيق والكفريات والفجور والنطور والبروع والتخريف والتشدق والدنس والنموس وطرح الأشباك وطرح الآلات والقرب إلى أرباب الدولة وإظهار الأصيات غير الحقيقية»[3]. بل ويعتبر عدم اقترابه من الساسة والحكام من نعم الله عليه، إذ يقول في كتاب: (العظمة في التحدث بالنعمة): «ومما أنعم الله به علي لم أمشِ إلى صاحب دنيا ولا متكبِّر، ولم أمشِ إلى حاكم وإلى قائد من القواد، ولا شيخ من شيوخ الرعية، ولا قاض من القضاة، ولا أمير من الأمراء»[4].

والحق أن أسس التربية السياسية لدى الإمام الأسمر؛ تعد مهمة وحكيمة؛ فالسياسة حياة الناس، ولهذا لا يمكن الاعتزال عنها سلبيًّا؛ وإنما الأصلح إيجاد منهج

(1) حزب الطمس للإمام الأسمر، منشور ضمن القطب الأنور، مصدر سابق، ص165.
(2) حزب الخوف للإمام الأسمر، منشور ضمن القطب الأنور، المصدر السابق، ص170.
(3) المجتمع الليبي كما رسمته وصية سيدي عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص120.
(4) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ 644م إلى سنة 1421هـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج1، ص377.

حكيم يتعاطى معها دون خسائر؛ وخاصة في المكتسبات القيمية وثوابت الدين. وبتتبع حياة الإمام الأسمر، ومتابعة الحراك الاجتماعي والعلمي والديني في عصره؛ ندرك كم كان منهجه التربوي السياسي حكيمًا وراشدًا.

خامسًا: البعد الجماعي المؤسسي:

عند دراسة سيرة الإمام الأسمر، وعنايته بالتربية والتعليم، إلى جانب التعليم والتدريب على مهن تحقق الحياة الكريمة والاستقلال الاقتصادي، ومن ثَمَّ استقلال الشخصية وتميزها وتمثلها لأهدافها النبيلة، التي يجسدها الإمام من خلال أوراده وتعاليمه المتنوعة؛ نلاحظ مدى اهتمامه بالعمل الجماعي المؤسسي وتنسيقه وتنظيمه، وتدريب المريدين عليه، ولا أدلَّ على ذلك من الممارسات التربوية التي كشف عنها الدكتور أسامة بن هامل في دراسته الهامة في سيرة الإمام الأسمر، ومنها[1]:

1 - تقسيم أوراد الطريقة وفقًا لشرائح مجتمعية، تحيط بالشيخ؛ فهنالك ورد الطلبة والفقهاء والمشتغلين بتعليم العلم والنَّسَخَة والنَّسَّاخين، وورد أصحاب الفلاحة والاشتغال.

2 - ربط كل مجموعة ببعضها لخلق فضاء خاص بهم.

3 - ربط المجموعات بعضها ببعض، وتعاونها في إنجاز بعض المهام المشتركة.

4 - التركيز في كل الأنشطة على المحور والمرتكز الأساسي، وهو التعليم، ويليه العمل والحرف.

5 - توفير كل ما تحتاجه الزاوية والمحيط الاجتماعي بها، من خلال الفئات المتواجدة فيها، من نساخين ونسخة وفلاحين وعمال.

6 - التعاون على العناية بالقرآن حفظًا وقراءة ونسخًا وكتابة.

وهذه الممارسات كلها جماعية، وتربط بشكل مركزي بالزاوية التي هي خلية النظام والإدارة، التي تسهر على العمل اليومي للأوراد، وبقية الأنشطة الجماعية التي يعود نفعها للزاوية والمجتمع المحيط به[2].

---

(1) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص73 وما بعدها.

(2) نفس المصدر، ص74.

ويتضح أن فكر الإمام الأسمر متقدم، وهو ما تدعو إليه التربية الحديثة وطرق تدريسها من عمل تعاوني وذاتي وعمل المجموعات والمشاريع وحل المشكلات، فهي كلها لتحقيق العمل المؤسسي الذي ظهر في العديد من الإدارات التي كشفت عنها دراسة الدكتور بن هامل:

أ. إدارة التوثيق: إذ كان للإمام الأسمر أربعون كاتبًا، كان وظيفتهم توثيق دروسه ومحاضراته ورسائله ومكاتباته ويومياته وآرائه ونظرياته، وأعماله[1].

ب. إدارة الأرشفة: يدل على ذكر وجود مكتبة بالزاوية، ذكرت المصادر أن بها 500 مجلد، ما يدل على وجود فريق بالمكتبة يعمل على الإحصاء والعدِّ والأرشفة والتبويب[2].

ج. إدارة المال والاستثمار: وتشير إليها العديد من الأخبار والوقائع ذات العلاقة بالاستثمارات في المال والتجارة، وكان أبرز الناشطين فيها الشيخ عمران نجل الإمام الأسمر[3].

د. فريق الإدارة: مؤلف من كبار أصحاب الإمام المقربين منه، كابنه عمران وربيبه سيدي خليفة الشايبي، وخادمه سيدي خليفة الشويشين، وأقدم تلاميذه سيدي عمر بن حجا، وسيدي عبد الرحمن الفيتوري، الذين تشير المصادر إلى صلاحياتهم في اتخاذ القرارات المهمة بالزاوية[4].

هـ. إدارة البحث: تقوم بما يشبه ما تقوم به المراكز البحثية المعاصرة، فالمسائل والعلاجات التي احتوتها رسائل الإمام الأسمر الموجهة إلى أتباعه في عدد من الأقطار داخل وخارج البلاد، لا بد وأنها توفر له خلفياتها وظروفها من خلال البحث والتقصي على يد فريق متخصص[5].

ز. الإدارة العلمية: تتكون من كبار الأساتذة والعلماء من مريدي الإمام ممن تخرج على يديه، يقومون بتنفيذ خططه وبرامجه العملية والصوفية، فمن غير الممكن أن يتفرغ الإمام الأسمر للتعليم والتربية الصوفية لوحده مع تعدد أدواره التي أشرنا إليها.[6]

---

(1) نفس المصدر، ص80.
(2) نفس المصدر، ص81.
(3) نفس المصدر، ص82.
(4) نفس المصدر، ص83.
(5) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(6) نفس المصدر، ص84.

سادسًا: البعد الاجتماعي:

ليس غريبًا على مصلح اجتماعي وديني كالإمام الأسمر، أن يهتم بالمجتمع والأمراض المتفشية فيه، والتي تمنعه من التقدم والتطور، وتحول دون استقراره، وتحرمه من الأمن الاجتماعي؛ ليحل محله الفوضى وانتشار العلل والآفات المختلفة؛ ولذا جاءت نصائحه وتوجيهاته متعددة في هذا المجال، يوجهها للأفراد تارة، وللأسر تارة أخرى وللمجتمعات أيضًا، وكلها نصائح وتوجيهات قيمة، تبرهن على مدى عنايته بالمجتمع والإسهام في حل المشكلات التي تواجهه، وهنا نشير إلى بعض تلك النصائح والتوجيهات[1]:

1 - ضرورة اختيار الزوجة، وتحديد مواصفاتها المطلوبة.

2 - تكثيف النصائح والتوجيهات لإشاعة ثقافة الأسر المتوازنة.

3 - الاهتمام بالأسرة وما يشيع المحبة فيها كالهدايا، ونشر ثقافة الصحة الأسرية.

4 - التعرف على الأوبئة والأمراض الفتاكة في عصره، وتقديم الحلول والعلاج لها.

5 - وضع قواعد وقوانين لضبط الحياة الاجتماعية، مع مراعاة الفوارق بين بيئة المدن المتحضرة والأرياف والبوادي، ويظهر ذلك جليًّا في نصائحه لأهل طرابلس الحاضرة وتونس الأرياف.

6 - العناية بالمرأة وتخصيصها بما يخصها، ومنعها من الاختلاط بالرجال في مختلف الميادين، بما فيها ميدان التصوف والعبادة والأوراد.

7 - نشر الوعي الصحيح عن الحياة وعمران الأرض.

8 - تصحيح المفاهيم الخاطئة، ونقد الممارسات الغالطة في المجتمع، كشدة الحزن على الميت، أو النياح، أو أفعال أخرى تُمارَس في المآتم، وكذا في الأعراس والأفراح.

لقد كان حريصًا على القيام بالإصلاح الاجتماعي، بالقضاء على البدع والسلوكيات المجتمعية الضارة، التي استطارت كما تلوح بذلك عباراته التي ينصح بها مريديه، بالتحذير

---

(1) مذكرة تعريفية بالإمام عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص9 بتصرف.

من الانخراط في سلك الممارسات الاجتماعية، المخلة بالدين وبالحشمة، من قبيل تحذيرهم من أن يفعلوا في العرس «شيئًا من المحرمات، مثل الغناء والزغاريط والصراخ والرقص والمزامير والرباب، والشبابة والزكرة والفحل والطبل؛ فهذا كله لا يجوز في العرس، ولا في غيره»[1]، وشدد على منع الاختلاط في العرس والمناسبات، فقال: «وأما اجتماع الرجال والنساء في العرس، بأن ينظر بعضهم إلى بعض، ويستمع صوت بعضهم بعضًا، فهذا من أكبر فساد الدين»[2].

ومن ذلك تشديد في النهي عن النهي سلوكيات محرمة تحدث في المآتم، يتم فيها إيذاء الجسد والنفس والعقل، ومنه قوله: «ولا يجوز الحلق ولا الدلق ولا السلق ولا الزلق وتقريض الإزار وتكشيح الرمل والرماد، ولبس الهدوم وتشريك الأثواب والسراويل وتقطيع بدود الخيل وحلق الشعر من الرجال والنساء والخيل»[3].

وكذلك نهيه الشديد عن التكسب بإظهار النسك والقيام ببعض الأعمال، التي اشتهرت عن بعض صوفية الزمان، فيقول: «ليس منا من يطلب بالطار، ويرقص في أبواب الديار إلى أن تجتمع عليه النساء والصغار، فمن فعل شيئًا من ذلك، فليس منا، ولا من أهل طريقتنا، والصواب أن يضرب بالعصا ويمزق بنديره، ومزمار القرب المسمى عندنا بالزكرة قديم أيضًا من الملاهي المحرمة»[4].

ولنجاح الإصلاح الاجتماعي، لا بد من وجود تعميم تعليم أمور العقيدة والشريعة، والآداب، ولذا شدد قائلًا: «وعليكم بتعليم أولادكم القرآن، وعقائد الإيمان، والفرائض، والواجبات، والسنن المؤكدات، والفضائل المندوبات. وعلموهم التحذير من المحرمات والمكروهات؛ فإن لهم عليكم حقا، وأكرموهم، وعلموهم الآداب الشرعية، وكل ما يلزمهم مع الله تعالى، وعلموا أزواجكم وبناتكم ومماليككم فرائض الغسل، والوضوء والصلاة والتيمم، وكل ما يجب عليهم وعلموهم الآداب؛ لأن لهم عليكم حقًّا شرعيًّا: (كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته)»[5].

---

(1) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص29.
(2) نفس المصدر، ص30.
(3) نفس المصدر، ص10 – 31
(4) المجتمع الليبي كما رسمته وصية سيدي عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص122.
(5) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص20.

سابعًا: البعد الجمالي:

يقوم هذا البعد الجمالي على استحضار الجمال دون الجلال في حديثه عن التجلي الجمالي للذكر في قلب الذاكر في «الحضرة»، وانعكاس كل ذلك على معاملات الذاكر في سلوكيات التواضع والحياء والمحبة، فيصير الذاكر جماليًّا في كل أحواله، وهي من آثار الذكر بأسماء الله تعالى التي تحمل هذه المعاني[1].

وتحفل وصاياه ونصائحه بالمفردات والاستخدامات الجمالية العديدة، ويركز بشكل أساسي في التعاطي مع شخصية النبي ﷺ بلغة ومضمون جمالي، كونها الشخصية المركزية في العمل والسلوك الصوفي، ومنها قصيدته التي وصف فيها لقاءه به ﷺ[2]:

إنـــي أحدثكــم بمـــا جـــرى يقظـــةً	بعينـــي رأســـي رأيـــت ســـيد الرســـلِ
قـــد حـــل فـــي خلوتـــي يمدنـــي مـــددًا	وفـــي أثنـــاء حضرتـــي يهتـــز بالحلـــلِ
زيـــنٌ جميـــلٌ بهـــيٌّ لا نظيـــر لـــه	كأنـــه البـــدر أو كالشـــمس فـــي الحمـــلِ
يغـــار حســـن النقـــا مـــن حســـن قامتـــه	ويختفـــي البـــدر تحـــت الغيـــم مـــن خجـــلِ
حلـــوُ المراشـــفِ يُشـــفَى العليـــل بـــه	فكـــم شـــفى برحيـــق الثغـــرِ مـــن علـــلِ
اللـــه أكبـــرُ مـــا أحلـــى شـــمائلهُ	قـــد زاد حســـنًا وزينًـــا غايـــةُ الأمـــلِ
بـــدا كبـــدر الدجـــى تجلـــى محاســـنه	يـــا حســـنهُ مـــن مليـــحٍ بالجمـــالِ حلـــى
أنـــا المتيـــم فيمـــن قـــد ســـما وعـــلا	فخـــرًا علـــى ســـائر الأمـــلاكِ والرســـلِ

أثر الأبعاد التربوية لدى الإمام الأسمر في تكوين الشخصية المسلمة

لقد قمنا بتقرير الكثير من الآثار الناتجة عن الأبعاد التربوية في فكر الإمام الأسمر في تكوين الشخصية المسلمة، أثناء الحديث عن الأبعاد. وهنا سنحاول إضافة بعض الآثار المهمة، التي تمخضت عن تطبيق الأبعاد التربوية لدى المستهدَفِين، ومن المهم الإشارة إلى أنه أَثَّرَ على المستوى المحلي والعربي والإسلامي، وبعمقه التاريخي الذي يعود لخمسة قرون.

---

(1) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص189.

(2) تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م، ص150.

والمشروع التربوي لدى الإمام الأسمر مشروع إصلاحي متكامل وشامل، يبتغي بناء الإنسان والأوطان، ولذا فقد هدف فيه لحل مشكلات الأمة وبراعة اختراع لعلاجها، بعد تكوين الشخصية، وجعلها صالحة، ومن ثم مصلحة[1]. وكما يؤكد الدكتور محمد العجيل فإن للزاوية الأسمرية دورًا كبيرًا، سواء في داخل ليبيا أو خارجها، في نشر العلوم الشرعية بأسرها، ومنها علم الحديث، الذي لا يقدمون على تعلمه إلا بعد إتقانهم علوم الآلة المختلفة، وهذا ما يؤكد أن الزوايا الأسمرية مدارس تربية وتزكية، ومراكز جهاد ودفاع عن الدين والوطن والأهل؛ إضافة إلى كونها مجالس أدب ووعظ وذكر وفكر وشكر[2].

ولعل أكبر أثر للمنهج التربوي لدى الإمام الأسمر، يظهر في الأدوار التي قام بها وزاويته، ويمكن الإشارة إليها بتلخيص ما ذكر الدكتور ابن هامل، مثل[3]:

1 - الدور التنموي.

2 - تغيير كبير في اتجاهات الحركة العلمية محليًّا وإقليميًّا وعالميًّا.

3 - الدور الاستشاري السياسي.

4 - الحفاظ على وحدة الأمة، وجمع الكلمة.

خاتمة:

لقد توصلت هذه الورقة إلى نتائج متعددة تقرر في أماكن متعددة منها، ومن خلالها نوصي ونقترح الآتي:

1 - إيجاد اتفاقيات وشراكة بين مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية وزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر؛ والجامعات والمراكز البحثية في مختلف أقطار دول العالم الإسلامي؛ قصد التعاون على نشر المشروع الإصلاحي للإمام، وتطبيقه على أرض الواقع؛ مع مراعات الفوارق والاعتبارات الخاصة بكل بلد وزمن.

2 - تعريف الدول الأفريقية بتجربة الزاوية الأسمرية، ومدى إمكانية الاستفادة منها في بلدانهم، وخاصة في الجوانب التنموية.

---

(1) مذكرة تعريفية بالإمام عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص1.

(2) المنارات الشرعية ودورها في العناية بالسنة النبوية: المنارة الأسمرية نموذجًا، محمد سالم العجيل، مجلة الجامعة الأسمرية، المجلد الحادي عشرة، يونيو 2009م، ص601 - 604 بتصرف.

(3) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص84.

3 - توجيه طلاب وطالبات الدراسات العليا في مختلف الجامعات؛ لإجراء دراسات حول فكر الإمام الأسمر، ومقارنتها بالتوجهات الحديثة في مختلف المجالات.




آداب العشرة والعفو عن الخلق نموذجًا من خلال كتابه: الوصية الكبرى، دراسة تحليلية

د. كامران أورحمان مجيد
كلية العلوم الإسلامية بجامعة السليمانية - العراق

ملخص:

للعلم والعلماء مكانة محمودة في الشريعة الإسلامية، حيث خصت النصوص الشرعية العلم وأهله بالفضائل، ففضَّل الناس مسلك العلم، واحترموا المشتغل به، ولحرصهم وحبهم لهذه الفضيلة لم يخل عصر ولا مصر منذ القرون المفضلة، وإلى يومنا هذا من علماء أجلَّاء ومشايخ مخلصين، حرصوا على بيان الدين، وتوضيح مسائله بكل صدق وإخلاص، فأرشدوا الناس إلى الصواب من التدين والسلوك، وشجعوهم على التحلي بمكارم الأخلاق مع التخلي عن رذائلها، ومن هؤلاء المخلصين الإمام عبد السلام الأسمر الفيتوري، والذي جهوده الثمينة وخدمته الجليلة للإسلام لا تخفى على دارس للعلوم الإسلامية، ومن ولج في روضات كتاباته وتجوَّل بين أروقة حدائقها سيكون مقيمًا عند آثاره، ويترك الأسفار لغير بلاده، وعند التأمل في جمله ومقاطع كلماته يعرف القارئ مدى حرصه وإخلاصه لهذه الأمة ومريديه الفقراء، وقد تصفحت بعضًا من كتبه، وتسلقت من أغصان أشجاره المباركة إلى أن وصلت إلى كتابه القيم: «الوصية الكبرى»، وبعد إنعام النظر فيه، وفي أقسامه وفروعه، انجذبت للكتاب، وصرت مدمنًا على قراءة مسائله ومباحثه، إلى أن قررت تخصيص زاوية منه بدراسة مختصرة، ألا وهي وصاياه في آداب العشرة والعفو عن الخلق، فسأقف فيها مليًّا بغرض استنباط الجواهر واللآلي المكنونة بين أسطر الكتاب ومقاطعه، مع إبراز حاجة الناس إلى هذه الوصايا الذهبية، وسنتعرج في هذا الموضوع المهم، ونركز على قيمته العلمية والعملية وحاجة الناس إليه في هذا العصر.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الوصية الكبرى، آداب العشرة، العفو عن الخلق.

مقدمة:

إن الناظر في تراث الإمام الأسمر، والمتجول بين كتبه، ليتجلى له فكرٌ ينبئ عن مشروع إصلاحي متكامل، يصعب على الباحث استقصاؤه في مداخلة مؤلفة من ورقات، لكن من المهم التركيز عن الكتابة على الأسس والقواعد التي بنى عليها مشروعه، والتفريع عن المسائل الأساسية فيه، ومن ذلك الحديث في أحد تلك الأسس، وهي أخلاقيات وآداب العشرة والعفو عن الخلق في فكره، لما فيها من بعد إنساني وأخلاقي رفيع يستمد أصوله من المنابع الدعوية النبوية الشريفة.

ومن أسباب اختياري لهذا الموضوع أنه مدخل هام للتعريف بفكر الإمام الأسمر في بعض جوانبه وأبعاده، من جانب، ومن جانب آخر لحاجة عصرنا لمثل هذه الآداب والسلوكيات اليومية للمسلم في وقتنا الحالي. وقد استخدمت في إجلاء هذه القضية من واقع «الوصية الكبرى» منهج الاستقراء والتحليل، خصوصًا وأن هذه القضية لم يتطرق لها أي من الباحثين بالدراسة والبحث.

نبذة عن سيرة الإمام الأسمر

من خلال مطالعتي لما كُتِبَ في سيرة الإمام الأسمر، وجدت الكثير من المصادر والمراجع فصلت فيها سردًا لمختلف مراحل حياته، بدءًا من التكوين والنشأة، مرورًا بمراحل التعليم والسلوك، وانتهاء بجهوده العملية في الدعوة ونشر دين الله وتعزيز العقيدة الإسلامية. ولكن ونحن نتحدث عن آداب العشرة والعفو الخلق من المهم استجلاء هذا الجانب في سيرته العطرة.

وأول ما يستوقفنا في سيرته، خاصة في بداية نشأته وتكوينة، الحاضنة والأسرية التي عاش فيها، وتتكون من أمه السيدة سليمة الدرعية وعمه الشيخ أحمد الفيتوري الذي تزوج بأمه بعد وفاة أخيه والد الإمام السيد سليم الفيتوري، وما وفره له عمه من رعاية كاملة على الصعيد المعيشي الخاص، وعلى الصعيد التعليمي، فقيمة الوفاء في العم الشيخ أحمد الفيتوري من أبرز أوجه آداب العشرة لأخيه السيد سليم ولأرملته السيدة سليمة،

وبعدهما ابن أخيه الإمام الأسمر، ومثل هذا الأدب من أهم وأول الدروس التربوية التي تلقاها الإمام الأسمر في آداب العشرة في أحضان أسرته. ونرى انعكاس ذلك واضحًا في حديث الإمام عن والدته وعمه الذي تبرز فيه قيم العشرة وآدابها، فقد أثنى على والدته في العديد من المواضع، كونها من رعته وعلمته القرآن الكريم، وتخبرنا المصادر أنه لما أتم الدراسة والتعلم على شيوخه، ورجع إلى مسقط رأسه بمدينة زليتن، تفرغ لخدمة أمه التي كف بصرها في أواخر حياتها الكريمة، فكان «ودودًا محبًّا لها، عطوفًا عليها، لا يخالف لها أمرًا، ولا يرفض لها طلبًا، سألته في إحدى المرات شيئًا من ماء زمزم لتداوي به ألمًا في عينيها»، فأحضر لها ما طلبت من مكة المكرمة، بواسطة كرامة طي الأرض التي يكرم الله بها أولياؤه، ونحن هنا لسنا بصدد مناقشة الكرامة وأدلتها الشرعية، بل بصدد الحديث عن آداب العشرة ومكارمها التي مثلها الإمام الأسمر وعاشها مع أمه رحمها الله.

وفي ثنايا ما كتبه الإمام الأسمر عن أوليات حياته الكريمة، نجده يثني ثناء كبيرًا على عمه السيد أحمد الفيتوري، فبادله ودادًا بوداد ووفاءً بوفاء، فلم ينس له فضله عليه وحدبه وتربيته له، وقدمه على كل أشياخه ومعلميه مؤكدًا أنه أول أساتذته، بل وأبرز مكانته بين علماء البلاد، فقال عنه أنه: «من أكابر الفقهاء الطرابلسيين»[1]، وفي موضع آخر اعتبره من أفراد أسرته، بل ويبرزه من بينهم حفظًا لكريم وده وعشرته، فقال: «إخواني، ادعوا لوالدي سليم ووالدي وعمي الذي لفني إليه وكفلني ورباني أحسن تربية، ووضعني في المكتب نقرأ إلى أن حفظت القرآن وعلمني التوحيد والفقه»[2].

مثل تلك القيم والآداب التي عاشها الإمام الأسمر، كان لها انعكاسها الكبير في عمله على الحث عليها وتعزيزها ودعوة مريديه للعيش وفقها، سيما وهو المثال الذي يحتذى فيها. وفي الجانب الآخر المتعلق بالتعامل مع الخلق، تحفل سيرة الإمام بكم كبير من التضييق الذي قاساه في سبيل الدعوة من المنكرين عليه، حتى أنه أخرج من زليتن ما يزيد عن السبع مرات، ومن ساحل الأحامد ومن طرابلس[3]، ولما اطمأن له المقام في زليتن، وأسس بها زاويته، قابل من عاداه وعارض مشروعه الإصلاحي بالعفو، حتى أن أغلب مريديه الذين برزوا في نشاطه الدعوي هم أنفسهم ممن عارضوه في بداية أمره،

(1) الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، المطبعة المحمدية، القاهرة، 1964م، ص17.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) القطب الأنور، مصدر سابق، 58.



كالشيخ سالم بن طاهر والشيخ سالم الحامدي والشيخ سعيد التطاوني والشيخ كريم الدين البرموني وغيرهم[1].

وقفة مع كتاب الوصية الكبرى

كتاب «الوصية الكبرى»[2] من أشهر مؤلفات الإمام الأسمر، وقد سماه «نصيحة المريدين للجماعة المنتسبين»، ووجه لإرشاد الناس إلى ما يجب عليهم فعله، وما يجب عليهم تجنبه، وما يتعلق بواجبات العبد تجاه الخالق من القضايا الفكرية والسلوكية: التوحيد، الاعتقاد، والعبادة والإخلاص وما إلى ذلك، وفي العموم فإن من مميزات الكتاب:

1 - أسلوب الإمام في هذه الوصايا مشجون بحب وحرص وإخلاص، حتى ليظن القارئ أنها وصايا الوالد لأولاده والجد لأحفاده.

2 - الوصايا جاءت بعبارات سهلة مبسطة مهذبة بعيدة عن التعقيد اللفظي والألغاز، حيث يفهمها كل من يقرؤها ما دام ملمًّا باللغة العربية ويفهمها.

3 - تكرار بعض المفردات في بداية الوصايا وضمنها مثل: إخواني، وإياكم ثم إياكم وإياكم ثم إياكم، وكالحض على العلم والتعلم، وذلك للتنبيه أكثر وجلب أنظار المخاطب والقارئ بغرض معرفة قيمة الفقرة والوصية.

4 - تكرار المسائل المهمة في الوصايا، لحاجة التنبيه والتذكير بها، كمسألة الصلاة على النبي ﷺ، وأهمية الفصل بينها وبين محبته ﷺ.

5 - الإكثار من الاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة النبوية، للتأكيد على شرعية ما يوصي به، وأن وصاياه مستندة إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

6 - غطت الوصايا أغلب صفحات الكتاب، حتى وإن تخللها حديث عن مشائخه وسلسلتهم يضمن تراجمهم كلامًا من كلامهم يندرج في الوصايا أيضًا، فطابع النصيحة والوصية طغى على الكتاب.

7- يتكون الكتاب كله من مائة وثلاثين صفحة، ويحتوي على اثنين وستين عنوانًا، وهناك عناوين مختصة بحق الخالق ﷻ وفرائضه التي فرض على العباد، بالإضافة لعدد من العناوين الفرعية الأخرى.

---

(1) للاطلاع على مكانة هؤلاء العلماء في زاوية وطريقة الإمام الأسمر بعد معارضتهم له، ينظر: تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص96 و99.

(2) صدرت للكتاب عدة طبعات، لكني سأعتمد على طبعة: مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م.

8 – عرض تراجم مشائخه وسلاسلهم والأحزاب ضمن الوصايا، في رسالة من الإمام أن طريقته ومشائخه قوامها ما تضمنه الكتاب من الوصايا والنصائح، ولا تخرج عنها.

9 – يبرز الكتاب المنهج الدعوي للإمام الأسمر، فقد انتهج الوصية والنصحية للمسلمين، كونها ديدن الصالحين والأنبياء.

10 – أسلوب الإمام في الوصية سهل مميز، ركز فيه على الاختصار والوضوح ليقرب النصيحة للسامع، وتجريدها من الآراء المختلفة، والموضوعية بالتركيز على الموضوع والمسائل الأساسية المهمة.

مصادر الإمام الأسمر في الوصية الكبرى

11 – من خلال نص الوصية يتبين أن الإمام الأسمر اعتمد على عدة مصادر، منها:

12 – القرآن والسنة، واختلاف اعتماده عليهما بحسب السياق والموضع، ففي بعض المواضع أورد نصوصًا من القرآن أو السنة للاستدلال، قبل المقدمة ذكر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النِّسَاء:131]، ويعكس إيراده لهذه الآية في هذا الموضع: براعة الاستهلال، وجواز الوصية، ودعوة للتمسك بالنص.

13 – وفي بعض الأحيان لتوضيح شواهد استدلاله، يشرح الآية كقول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحدِيد:20]، فقال: الغرورهو: الكلب، والمتاع هي: الجيفة، والجيفة هي: الميتة[1]، ولم أجد من فسر المفردات على هذا النحو رغم استقرائي للتفسيرات المتداولة، ويمكن أنه لم يقصد التفسير بل يقصد التشبيه.

14 – أما في استشهاده من السنة، فقد أورد الكثير من الأحاديث والآثار، ووظفها كلّ في موضوعها ومحلها، ومنها آثار وردت في الصحاح والسنن والكتب المشهورة، وبعضها لم نعرف له تخريجًا، ومن أمثلة الأخيرة (من اعتز بشخص ذل على يديه) ذكره في آداب العشرة[2]، و(من تبسم في وجه ذميّ فكأنما قرّضني) ذكرها في موضوع شروط التوبة[3]. ويبدو أن الإمام على طريقة الفقهاء والأصوليين في الاستشهاد وإيراد النصوص

(1) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص15.
(2) نفس المصدر، ص12.
(3) نفس المصدر، ص6.

الحديثية، ففي الغالب لا يخرجون الحديث من مصادره، ولا يذكرون درجته من حيث الصناعة الحديثية، بل أحيانًا يوردون الحديث بالمعنى لا باللفظ.

15 - يستأنس الإمام بكلام المشايخ والعلماء الصوفيين وغيرهم في مواضع كثيرة جدًّا تفوق الحصر، لزيادة التأكيد على عمق نصائحه ووصاياه.

تأملات في آداب العشرة في فكر الإمام الأسمر وآثارها في الحياة

المقصود بآداب العشرة، هو علاقة الفرد بمحيطه وبالآخرين وكيفية التعايش والاحترام والتوادد، وقد شدد الشرع الحنيف على هذه الآداب والقيم، وفي وصية الإمام الأسمر، تنقسم الوصايا في آداب العشرة وحسن الخلق إلى وصايا وجودية وأخرى عدمية.

1 - الوصايا في الجانب الوجودي:

المحبة والاحترام والتوقير جزء أساسي من التشريع الإسلامي، حيث يتبين للمتتبع في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وآثار سلف الصالحين وعلماء الأمة، أمر الشريعة بالمحبة والاحترام لعباد الله تعالى والخلق، لكن بدرجات وتفاوت، فحب النبي ﷺ وتوقير آل بيته واحترامهم مقدم على غيره، وعلى هذا الأساس أوصى الإمام الأسمر بحب واحترام أناس وأماكن منها:

أ. محبة الفواتير وتوقير بلادهم:

قال الإمام الأسمر: «عليكم بالمحبة في الفواتير وتعظيمهم وزيارتهم والتواضع لهم فهم مني وأنا منهم»[1]، كونهم من آل بيت النبوة، كما حث على احترام بلادهم ودخولها بإجلال وتواضع وأدب كون بلادهم معقلًا للعلماء والصالحين، فقال: «إخواني: ولا تدخلوا بلاد الفواتير إلا بذلة وتواضع وأدب وصمت والإمساك عن الكلام الذي يغتارون منه مطلقًا»[2].

(1) نفس المصدر، ص11.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

ونصح الإمام بمحبة الفواتير وبلدهم، له فيه أصول وأسانيد، فقد ذكر القرآن أماكن بالتوقير والاحترام، كالبلد الأمين، بل وأقسم ببعضها كطور سيناء، قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾ [النَّازعَات:15 - 16]، وفي السنة حكت لنا الآثار عن توقير واحترام النبي ﷺ لمكة والمدينة، بل ولبعض أجزائهما كجبل أحد، بل وللدفن في بعض المقابر مزية عن غيرها. وبذلك فالفواتير الأشراف وبلادهم قلعة الإسلام والعلم فيستحقون التوقير والاحترام على جهودهم ومساعيهم.

ب. محبة أصحاب الفقه:

أوصى الإمام الأسمر باحترام العلماء والفقهاء ووجوب التعامل معهم بأدب وإجلال، فقال: «إخواني: عليكم بمحبة أصحاب الفقه، فامدحوهم وعظموهم؛ لأنهم يخلصون من النفس حتى يسلكوا مذهب التصوف رضي الله عن أهله»[1]، وقال أيضًا: «تأدبوا مع مشايخكم غاية الأدب الذين تقرؤون عليهم العلم»[2].

ولسنا بحاجة للتدليل على ضرورة توقير واحترام العلماء، فالآثار في الحث على ذلك وذكر فضائله ومناقبهم كثيرة، بل وقرهم الله تعالى في العديد من المواضع، فكقوله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١١﴾ [المُجَادلة:11]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فَاطِر:28].

ج. النصيحة للذرية:

قال الإمام: «إخواني: عليكم بالنصيحة للذرية، ومن لم يقبل النصيحة، فلا خير فيه، ولا في قربه، ولا في معرفته، وقد يتأكد في حقكم نصيحتهم، وأن تنصحوهم لوجه الله، فإن أولادي كأولادكم، ومن هو معاشر لكم، ويتأكد أيضًا في حقهم نصيحتكم وصحبتكم، ومن لم يتأدب منهم معكم أو مع الفقراء فقد أخطأ طريق الحق والصواب، ولا ينفع في شيء من الأشياء»، ومثل هذه النصيحة تشير إلى حفظه للعشيرة حتى لمن يليه، فالذرية لا تعني أولاد الصلب المباشرين فقط، بل تتسلسل حتى في نسله من بعده، كما أنها نصيحة تعليمية تربي في الإنسان آداب العشرة حتى لذريته من بعده، خاصة وأنها خلق دعا له القرآن الكريم، حيث أُمر النبي ﷺ بدعوة الأقربين منه في قوله: ﴿وَأَنذِرۡ

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) نفس المصدر، ص13.

عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ [الشعراء:214]، وهذا إبراهيم ويعقوب عليهما السلام أوصيا أولادهما: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البَقَرَة:132].

د. الوصية الخاصة بالأخوة الإيمانية والمريدين وعامة المسلمين والذرية:

أوصى الإمام الأسمر إخوانه ومريديه وجميع المسلمين بإخوانهم برعاية حالهم وحسن التعامل معهم؛ وذلك لأن الشريعة الإسلامية اهتمت بعلاقة المسلم بأخيه اهتمامًا بالغًا، حيث جعلت حسن العلاقة مقصدًا شرعيًّا، وأوجبت إزالة كل عرقلة أمام الأخوة الإيمانية كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحُجُرَات:10]، فالأمر أمر إلهي بوجوب الإصلاح في كل صغيرة وكبيرة بين المسلمين؛ لأنه لا يجوز الهجر والإعراض والتباغض وما أشبه ذلك، وعلى ضوء هذا وجه الإمام وصايا إلى مريديه بالتعاون بينهم إخوانًا، فقال: «ارفقوا بجميع إخوانكم وأشفقوا عليهم»، وقال أيضًا: «من رحم أخاه رحمه الله»، بل وأوصى بقوله: «وعليكم بالعفو عمن ظلمكم، اعرفوا قيمة الأخوة والمعرفة»[1].

2 - الوصايا في الجانب العدمي.

تضمنت الوصية الكبرى الكثير من الوصايا العدمية التي حذر منها الشيخ وطلب الاجتناب عنها، لأنها لا تقل أهمية من الوصايا في الجانب الوجودي، فالشريعة الإسلامية جاءت لتأمر وتحث المسلم على جوانب وتنهاه وتحذره من أخرى. ومن أمثلة الوصايا في الجانب العدمي عند الإمام الأسمر:

1 - عدم مجالسة أهل الإنكار والجهل: ومنه قوله: «إخواني: مجالسة أهل الإنكار والجهالة، تذهب الأنوار كما تذهب الشمس الجليد»[2]. والإنكار بابه واسع، كما هو مفهومه، فقد ظهرت نزعة الإنكار في مجموعة من الجزئيات وبعض الكليات، كمثل ما يتعلق بالقضاء والقدر والجبر والاختيار، وأهل الإنكار لا يستقرون على مسائل بعينها، بل أنهم تتغير رؤيتهم حسب العصور، ولذا شدد الإمام الأسمر على تجنب مجالستهم للحفاظ على مكاسب مجالسة أهل اليقين والاعتقاد، ومن تلك المكاسب الأنوار، فهو

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

يقصد المنكرين على طريق أهل التصوف، فميدان التصوف يظهر الإنكار فيه مركبًا، وهو الذي وصفه بـ«الجهالة»، حيث تتناقض المفاهيم عند من لم يجالس أهله الأخيار، وبالتالي لا خير في مجالسة أهل الإنكار.

2 - التحذير من مخالطة عُبّاد الدنيا، والنهي عن الاعتزاز بالدنيا: ومنه قوله: «إياكم وخلطة أهل الدنيا الذين ليس لهم همة إلا هي، ولا يحل لكم أن تتملقوا لهم، وإذا قصدتموهم لأجل حاجة ضرورية قد بانت لكم عندهم ووصلتم إلى أبوابهم فانووا أنكم قاصدون وجه الله الكريم؛ لأنه هو المقصود»، وقال أيضًا فيما تخص الدنيا: «إخواني: ولا تعتزوا بالدنيا فإنها خائنة غدارة، لا تزيد المعتز بها ذلًّا ولا قلًّا[1]، والتحذير هنا لا يعني به الإمام الأسمر استبدار المريد للدنيا بالكلية، وترك معاشه فيها وضرورياته، بل بالتحذير من الإقبال عليها بالكلية واستبدار مكون الأكوان ومسبب الأسباب ﷻ، وهو مضمون القرآن الكريم في ذم الإقبال على الدنيا، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس:7]، ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام:32]، وكذلك في الأثر النبوي ورد هذا الدعاء:(اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا غاية رغبتنا)[2].

3 - الوصية بالتحذير من التعامل مع السلاطين والأمراء: وقد جاء هذا التحذير متوازنًا، بحيث يمنع التعاطي والاختلاط بهم، سيما الظلمة وأهل التجبر منهم، لكنه من جانب آخر يجيزه للضرورة، ففي الاختلاط بالظلمة من السلاطين وإعانتهم قال: «إخواني: لا يحل لكم مخالطة الظلمة والجبابرة، ولا تعينوهم بأموالكم ولا بأنفسكم»، لما في ذلك من ضرر على تشجيعهم على الطغيان على الناس وهضم حقوقهم، أما في جانب الضروري في التعامل من الأمراء والسلاطين، قال: «إخواني: وإياكم وخلطة السلاطين والقياد والوزراء والحكام فلا تخالطوهم، بل ولا تقربوا الجميع، ولا تقفوا عليهم، ولا على منازلهم، ولا على مجالسهم، إلا لضرورة واضحة، ومشقة فادحة، ولا تجدوا غيرهم من يقضي لكم الحاجة منهم، فلا بأس عليكم إذا اجتمعتم بهم، ولم تضروا بأحد من المسلمين»[3].

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(2) أخرجه الترمذي.
(3) الوصية الكبرى، ص12.

وشدد الإمام الأسمر في التحوط في العلاقة بالأمراء إلى حد وصيته بعدم أكل طعامهم، فقال: «وإياكم ثم إياكم وإياكم أن تأكلوا من طعامهم شيئًا إلا لضرورة قوية مثل إنقاذ هالك عندهم مظلوم أو شبه ذلك فكلوا قليلًا، وقيل اشبعوا منه وتصدقوا بمثله»، لما فيه من شبهة الحرام في أموالهم، وحتى لا يُفهم كلامه على أنه قطع العلاقة مع الحكام وذمهم بالمطلق، أوصى باحترام الأمراء إذا لقيهم المريد في الطرق العام أو بين القبائل والعشائر، ويدخل في ذلك بعض المناسبات، ما يدخل ضمن المستثنيات، فقال: «إخواني: وإذا التقيتم بالأمراء في طريق من الطرقات أو في قبيلة من القبائل أو غير ذلك، فسلموا عليهم ولو بتقبيل اليدين، ويكون سلامكم عليهم بأدب وطلاقة وجه، واقرءوا لهم الفاتحة في وجوههم، وادعوا لهم في حضرتهم، وفي غيبتهم بالمغفرة والموت على الإسلام، فإنهم من الأمة المحمدية، وإن علمتم أنهم يقبلون منكم النصيحة فانصحوهم بترك الظلم وبالعفو عن الخلائق المحبوسين في دار الفناء، وإن علمتم وتحققتم أنهم لا يقبلون منكم فاتركوهم يهديهم الله»[1].

4 – منع الهجر بين المريدين بعضهم بعضًا: سبق وأن تحدثنا عن وصية الإمام الأسمر بالمودة والحفاظ على الأخوة والمحبة بين الفقراء أو المسلمين عمومًا، وهذا هو الجانب الوجودي في التعامل المسلم مع أخيه المسلم، لكنه أوصى في الجانب العدمي بمقابل ذلك، ما يعني حرصه على مودة العلاقات بين المسلم وأخيه، ودون شك هو خلق قرآني نبوي في الصميم، فالنبي ﷺ نهى عن أن يهجر المسلم أخاه فوق ثلاث.

5 – الوصية بعدم الدعاء على مسلم: قال الإمام: «إياكم أن تدعوا على أحد من أمة الرسول بالهلاك إلا من فسد في الأرض»، ويدخل في الدعاء اللعن وغيره من المذمومات التي لا تليق بأخلاق التصوف، والدعاء بالمطلق وإن أجازه بعض الفقهاء يمنعه الصوفيون، والإمام الأسمر منهم، إلا باستثناء واحد وهو «من فسد في الأرض»، وفيه معنى راق يشير إلى أن إعمار الأرض من المبادئ التي يقوم عليها التصوف، وفيه معنى آخر يشير إلى ضرورة البحث عن أعذار للمسلم مهما أخطأ لعله ينصلح. ويبدو أن هذه الوصية استقاها الإمام من قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المَائدة:32]، فاستثنى النص فئتين القاتل والفاسد في الأرض، والإمام مشى على المنهج القرآني فأطلق المنع واستثنى الإفساد.

(1) نفس المصدر، ص12 و13.

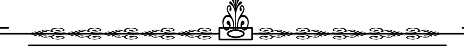
6 - لا تعقروا في أعراض إخوانكم، ولا تحقروا جميع الناس:

ورد في هذه الوصية لفظان يدلان على السليقة اللغوية الإمام الأسمر في استعمال الألفاظ، فقابل العقر بالتحقير، فالعقر هو يأتي بمعاني منها: الجرح، وكأن الإمام يأتي باللفظة بغرض التشبيه فيقال: الكلب العقور[1]، فاستعمل العقر للكلب، والمقصود به هنا الجرح المعنوي وليس الحسي لقرينة ما بعد الكلمة أي: الأعراض، والمعنى أن لا تجرح أيها المريد إخوانك تهينهم ولا تقسو عليهم ولا تغتابهم وتؤذيهم، ويقول: «إخواني، ولا تستكبروا إن الله لا يحب المستكبرين، ولا تتعصبوا بأجمعكم على أحد من المسلمين، فهذا يضركم مع الله ومع رسول الله، فاعفوا عن من نازعكم، وعن من ضربكم ولا تؤذوه، واتركوا الغيظ والنزاع المذموم، فهذا كله ليس من شأننا، ولا من شأن أهل طريقتنا»[2]، الكبر من الأمراض النفسية الخطيرة، ويظهر آثاره على تصرفات الإنسان، فينظر إلى غيره نظرة ازدراء وتحقير، ويولد التصعب في نفس المتكبر لرأيه وفكره وموقفه، بل ويتضمن نص هذه الوصية النهي عن مناقشة المنازعين المستكبرين حتى وإن لحق بالمريد ضررهم، ووجه علاج ذميمة الكبر بالعفو عن المستكبرين والتغاضي عن ضررهم.

---

(1) الصحاح، إسماعيل الجوهري، تحقيق أحمد عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1987م، ج2، ص753.

(2) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص17.







قيم الأسرة في المشروع الأسمري

أ. محمد العجيل أ. مصطفى بن رابعة

مجمع ليبيا للدراسات المتقدمة

مؤسسة إنسان للأعمال الخيرية والتنمية

ملخص:

تندرج هذه المقالة في إطار الدراسات المعنية بتناول الجانب الاجتماعي في التراث الليبي بشكل خاص، والعربي والإسلامي بشكل عام، وتتمحور حول موضوع من موضوعات علم الاجتماع التي تدعي الدراسات الحديثة غيابه في المشروع الفكري العربي والإسلامي وحداثة حضوره فيه، كون هذه المقالة تكشف عن جانب من جوانب المشروع الإصلاحي للإمام عبد السلام الأسمر الفيتوري، أحد كبار رجال التصوف والإصلاح في تاريخ الأمة الإسلامية في القرن العاشر الهجري، وهو الجانب الإصلاحي المجتمعي من خلال الكشف عن منظومة القيم الأسرية التي أرساها بين أبناء طريقته العروسية كنموذج يحتذى لكافة أفراد الأمة الإسلامية ليبنوا على هديها أسرهم.

كما أن المقالة تهدف إلى بيان جانب مهم وبعد أهم من جوانب وأبعاد شخصية الإمام الأسمر التي لا تزال غائبة بين طيات ما كتب وترك من إرث مكتوب ومروي متواتر على مدى خمسة قرون متتابعة، ومن الضروري خدمة لتراث وتاريخ أمتنا إبراز هذه الجوانب في فكر شخصيات علماء أمتنا، ولفت الأنظار في المؤسسات والجامعات والأوساط العلمية إلى أن علماءنا هم رموز الوطن والوطنية، فلا بد من بحث إرثهم وتوضيح فكرهم، واستجلاء معالم وملامح مشاريعهم الإصلاحية، ومنهم وأهم في وطننا الليبي الإمام الأسمر.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، إصلاح مجتمعي، التصوف، القيم، الأسرة.

مقدمة:

يؤسس التصوف عملية التربية والسلوك على إصلاح الفرد في المقام الأول، كطريق للإصلاح المجتمعي بشكل شامل وكامل، إذ لا ينصلح الكل إلا بصلاح الجزء، ولذا تركزت العملية السلوكية في التربية الصوفية على مسارات متتالية عرفت اختصارًا وشهرة بالتخلية والتخلية والتجلية، فالتخلية تطهير النفس من أمراضها وأخلاقها الردية، لتحليها بما يقابلها من أخلاق فاضلة سنية، ومن ثم تجلي تلك النفس بفضائل أخلاقها على محيطها الأسري والمجتمعي بالتلاقي والتظافر مع ما يجاوزها من أنفس فاضلة مرت هي الأخرى بمرحلتي التخلية والتحلية. وقد أرسى رجال التصوف رضوان الله عليهم على قواعد تلك العملية التربوية في السلوك الصوفي مناهج خاصة بكل منهم بناها على تجربته بحسب سلوكه وما تجلى له من معارف، حتى تمايزت تلك المناهج بنظرياتها وتطبيقاتها فيما عرف في التاريخ الصوفي بالطرق الصوفية، فهذه الطريقة القادرية نسبة لرؤية ونظرية ومنهج الإمام عبد القادر الجيلاني، وتلك الطريقة الرفاعية نسبة للإمام أحمد الرفاعي، والشاذلية والنقشبندية والخلوتية وهلم جرًّا إلى ما لا نهاية له من خيرات رجال التصوف ومدارسهم. ومن تلك المدارس الإسلامية العتيدة التي أرخت بظلالها خيرًا ونفعًا وفضلًا على بلادنا الليبية المدرسة العروسية بتجديد قطب المعرفة ورمز الوطن وأستاذ أساتيذه الإمام عبد السلام الأسمر.

ما من شك في أن سرد تفاصيل سيرة هذا الإمام الكبير فيه نفع وخير وتذكار، ولكن وما دامت الكثير من المصادر والمراجع أفردت مساحات فيها للتفصيل في ذكر شمائله ومناقبه وفضائله، بل وأكثرها تخصص في ذلك[1]، فمن المفيد حصر حديثنا حول سيرته

(1) للمزيد حول سيرة الإمام الأسمر، ينظر:
تنقيح روضة الأزهار، محمد مخلوف، المطبعة الثقافية، بيروت، 1966م.
على هامش حياة سيدي عبد السلام الأسمر، إسحاق المليجي، مكتبة النجاح، طرابلس، 1969م.
القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م.
رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.

العطرة المسكية في إجلاء خلفيات وجذور فكرة القيم الأسرية التي تجلت في فكره الاجتماعي، ومن ثم المضي إلى بيان ملامح ومعالم تلك القيم الأسرية كما أرساها في مشروعه الإصلاحي الكبير الذي شهدته بلادنا، بل الأمة الإسلامية، على يديه في القرن العاشر الهجري.

إن من توفر من أخبار عن ذوي الإمام الأسمر وأسرته المكونة من والده السيد سليم وعمه السيد أحمد الفيتوريين، ووالدته السيدة سليمة الدرعية كافٍ لرسم صورة عن الاستقرار الأسري الذي عاش فيه، ومن الأسس المهمة التي وفرت هذا الاستقرار:

- **الموروث القيمي**: اتفقت كل المصادر التي أرخت لحياته، أنه نهل من رافدين معرفيين مهمين في التاريخ المغاربي الإسلامي، فهو فيتوري من جهة والده السيد سليم الفيتوري، ودرعي مشيشي من جهة أمه السيدة سليمة بنت الشيخ عبد الرحمن الدرعي، واجتمع فيه عبر هذين الرافدين كم من الموروث القيمي المتدفق عبر شخصيات عمودي النسب، الفيتوري والدرعي، بكل ما حمله معه من أفكار وممارسات وعادات وأنماط عيش طالما شكلت حصونًا فكرية في البيئات التي عاش فيها أجداد النسبين صد اختراقات الأفكار والتيارات الدخيلة غير المستقرة، وبالتالي شكلت هذه الخلفية أول حصون الأمان لتشكيل شخصية الإمام الأسمر.

وتزداد أهمية هذا الموروث القيمي، إذا علمنا أن الفرعين الفيتوري والدرعي يرتقيان الى الدوحة النبوية الشريفة، فكلاهما ينتهيان إلى السيد إدريس الأزهر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثني بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله ﷺ.

- **الأساس الفكري والعقائدي**: ارتبط والداه السيد سليم والسيدة سليمة بالقرآن الكريم ارتباطًا أساسيًّا، فلم يرو في سيرة والده إلا علاقته بالقرآن الكريم وزوايا تحفيظه حتى أنه حفظ القرآن الكريم سماعًا على الرغم من أنه أمي، ولشدة ارتباطه به كان يرد الطلاب إذا أخطأوا في التلاوة ويصحح لهم. أما والدته فقد كانت تحفظ القرآن الكريم وتقوم به الليل، وفي مثل هذه الأجواء نشأ الإمام عيونه وسمعه في بواكير سنواته الأولى، وعلى الرغم مما روى من أن عمه السيد أحمد الفيتوري أخذه إلى محفظي القرآن الكريم ليحفظه إلا أنه من المؤكد أنه تعلمه على يد والدته التي كانت ماهرة في تلاوته وتعهدته به قبل أن يصل إلى مرحلة كُتَّابِهِ على يد محفظي القرآن فيما بعد. وإضافة إلى ذلك من المهم

الإشارة إلى وحدة العقيدة والفكر لدى أفراد أسرة الإمام، ففقد كانوا مالكي المذهب أشاعرة صوفيين، والأمن الفكري عامل مهم في الأصيل الموروث القيمي المتكافل ببناء حصن يقي الناشئة من الاختراقات الفكرية، ويكفل لها بناءً مستقرًّا سليمًا.

- **الأساس العلمي**: ويظهر توفر هذا الأساس بشكل واضح فيما تكفل به عمه السيد أحمد الفيتوري من تعليمه العلوم الأساسية الأربعة، وهي التوحيد والفقه والنحو والمنطق، وهو أساس علمي مهم لأمرين، الأول: أن وفر الأركان الأربعة الضرورية لبناء أرضية صلبة تقوم عليها أي شخصية علمية متزنة، الأساس العقدي الصحيح والفقه المالكي وصلاح اللسان والتفكير، والثاني: أنها عملية تمت على يد أحد أفراد الأسرة ليستمر وفقها تسلسل مراحل التنشئة داخل الأسرة لا خارجها، لتتصل حلقات ومراحل التنشئة في غير انفصال أو تجزئة.

- **وحدة الأسرة**: لم تتفكك أسرته ﷺ بوفاة والده السيد سليم، الذي تركه في أحضان والدته وعمره عامان وشهران فقط، بل استمرت موحدة بزواج عمه السيد أحمد بوالدته، خاصة وأن عمه وفر له ظروفًا وعناية خاصة جعلته لا يشعر بفقدان أبيه، فقد كان يشتري له فاخر الثياب والطعام، ويحدب عليه حتى أنه كان يرافقه عند دخوله للمكتب لتعليم القرآن ويجلس معه، بل وهو الذي قطع به المراحل التالية في التعليم والتربية.

- **الحوار الأسري**: يتجلى هذا الجانب بشكل كبير في الحوار الذي روته لنا كتب السيرة ودار بين الإمام وعمه السيد أحمد الفيتوري، عندما طلب منه عمه ضرورة استكمال عملية البناء على يد شيخ مربٍّ، فدار بينهما حوار علمي راقٍ نفيس يدل على حرية الفكر والتعبير والاختيار الذي انبنت عليه الأسرة، فمن تفاصيل ومستوى الحوار ندرك أنه ليس الحوار الأول والوحيد، بل تدرب الإمام على الحوارات الأسرية وتبادل الآراء مع حرص الأسرة على ترسيخ أهمية المرجعية فيها، ففي نهاية الحوار تمكن العم من إقناع ابن أخيه بالذهاب إلى مدرسة تربوية صوفية، وهي مدرسة الشيخ عبد الواحد الدوكالي العروسية، ومن طريقة استقبال الشيخ الدوكالي للإمام وعمه ما يشعر بأن الأسرة كانت تعرف هذه المدرسة بشكل دقيق ووثيق، خاصة وأن في سيرة والد الإمام السيد سليم الفيتوري ما يكشف عن وجود علاقة مباشرة بينه وبين سيدي أحمد بن عروس مؤسس الطريقة العروسية الذي استضافه في بيته في تونس واحتفى به، وكل هذا يعكس لنا مدى وعي الأسرة باختيار المدرسة المناسبة لأفرادها للتنشئة والتربية فيها.

بعد اكتمال بناء شخصية الإمام الأسمر، وتأسيسه لمشروعه الإصلاحي وإطلاقه ومرور سنوات على انتشاره في داخل القطر الليبي، وفي كامل أقطار العالم الإسلامي، كان من المهم أن يكون لفكره الاجتماعي حضور ظاهر على مستوى النظر والخطاب والتطبيق والتنفيذ، لكن قبل كل هذا يجب البحث عن الجانب التطبيقي لنظريته في أسرته المكونة من زوجاته وأولاده وبناته، فلا بد وأنه عمل على تحويل فكره ونظريته إلى واقع معاش بين أفراد أسرته، ولن نحار أو نبذل جهودًا مضاعفة للتدليل على ذلك، فأولاده الـ 13 يمكن اتخاذهم عينة دراسة في الجانب الأسري والاجتماعي في مشروعه الإصلاحي من خلال ما حفظته لنا كتب السير والمناقب من أخبارهم، وباعتبار أن دراسة شخصيات أولاده كعينة تتطلب توسعًا وبحثًا مفردًا، يمكن الإشارة إلى بعضهم كأمثلة للكشف عن دور مهم من أدوار رب الأسرة، ونعني به أهمية اكتشاف الوالد مواهب أولاده وتنميتها والدفع بها نحو تعزيزها وإنجاحها:

* **السيد عمران:** وهو من أكثر أولاده حضورًا في حياة والده، وعلى الرغم من أن قدراته في القيادة التي تبديها اضطلاعه بدور إشرافي على الزاوية، خاصة في استقبال وفود العلماء والزوار وطلاب العلم من داخل القطر وخارجه، إلا أن الظرف الخاص الذي ظهر فيه السيد عمران في فترة إنشاء الزاوية يبدو أنه الأساس في بروزه كشخصية قيادية، فقد كانت زاوية الإمام الأسمر في فترة نشأتها تحتاج لدعم الجانب الاقتصادي كرافد مهم من روافد إرسائها، وهو جانب يبدو أن الإمام اكتشفه في نجله عمران، والكثير من الأخبار الخاصة بتولي السيد عمران أعمال استثمار مالي في المراعي والإنفاق على الوفود ومواقف والده منه تدل على رعايته له وإشرافه على صقل شخصيته في هذا الجانب، وهو بالفعل ما تم، إذ استخلفه والده شيخًا للزاوية عند وفاته، رفقة السيد عمر بن حجا شيخ الطريقة، وتخبرنا المصادر أن الزاوية توسعت مرافقها الاقتصادية فيما بعد على يد السيد عمران حتى أنه كان له رقيق يرسلهم إلى الحج للتجارة وتبادل السلع، ويبدو أن تلك المكانة الاقتصادية والعلمية كان لها دواعيها وآثارها المجتمعية التي تجاوزت البلاد إلى غيرها من الأقطار الإسلامية، بل وغير الإسلامية حتى استدعت مخاوف قوى استعمارية كبرى، ويدل على ذلك الهجوم الذي نفذه يحيى السويدي بدعم فرسان القديس يوحنا عام 995هـ، وهي من القوى الكبرى في البحر المتوسط التي كانت

تقف في موقع قوي في خارطة الصراع القوى الكبرى في حوض المتوسط مع العثمانيين والنورمنديين وغيرهم، وكل هذا يشعرنا بالأهمية الكبرى التي بلغتها الزاوية في المحيط العربي والدولي.

* **السيد أحمد البكر**، وهو أكبر أولاد الإمام، وبشأنه تروي كتب السيرة عنه اهتمامًا خاصًّا بالوافدين والزوار القادمين من خارج البلاد وداخلها، حتى أن صاغ ذكرًا خاصًّا باستقبالهم، ولمس فيه والده الإمام براعة وموهبة في ذلك، وللدفع به في هذا الاتجاه طلب وقف الذكر الذي صاغه لاستقبال الوافدين، واعتماد الذكر الذي اختاره السيد أحمد البكر.

* **السيد عبد الوهاب**، وهو أصغر أولاده، ويعد من الشخصيات المهمة التي يجب أن تفرد بدراسة لكثرة ما يتوفر فيه سيرته من تفاصيل مهمة، ومنها أن سيرته وثيقة هامة جدًّا تكشف عن جهود الإمام الأسمر في القضاء على ظاهرة السبي والرق، وهي الظاهرة التي اهتم بضبطها في نصائحه بكثرة الإيصاء على المماليك ورفع مستوى التعامل الاجتماعي والاقتصادي والنفسي معه لمستوى غيرهم من شرائح وأفراد المجتمع، فالسيدة عافية والدة السيد عبد الوهاب كانت رقيقًا أعتقها الإمام وتزوجها، وأولى السيد عبد الوهاب عناية خاصة بتأسيسه على تعلم القرآن الكريم ومقدمات العلوم، وحرص على أن يترعرع بين أخواله كرسالة للمجتمع بأن له حقوقًا مجتمعية كغيره من أبنائه وأبناء مجتمعه.

ويظهر نجاح الإمام في تذويب الفوارق الطبقية في تولي السيد عبد الوهاب مهام قيادة الزاوية بعد فتنة السويدي التي أشرنا إليها سابقًا، فكتب التاريخ تؤكد أن السيد عبد الوهاب نجح في أن يكون شخصية مركزية تدور حولها أحداث لملمة شتات الزاوية وإعادة بناء منشآتها وردها لمستوى زخمها في الأوساط إلى حد تمكنه من فرض كلمة الزاوية وقرارها في الأوساط السياسية والحاكمة فكان لا ترد له شفاعة، ولجأ إليه إخوته من أولاد الإمام، والملاحظة التي نريد تسجيلها أن الوسط المجتمعي والصوفي والسياسي قبل بتصدره للقيادة وتنفيذ قراراته ولم يلتف لكون أمه كانت رقيقًا في السابق، أو أنه كان أسود اللون بسبب والدته، ما يعني دليلًا على نجاح الإمام في وأد ظاهرة الرق والرقيق.

الفكر الاجتماعي للإمام الأسمر

ان ما تركه الإمام الأسمر من موروث متواتر ومكتوب ليكشف لنا استنطاقه عن فكر اجتماعي فريد ومميز، فكلامه في نصائحه ووصاياه لم يكن تنظيريًّا بحثًا ومنفصلًا عن الواقع، بل في الكثير من ثناياه وزواياه ما يكشف عن اشتغاله العميق على دراسة مشكلات وظواهر كان تهدد وحدة ونسيج وأمن المجتمع، فتحدث عن الكثير من الممارسات والسلوكيات التي يبدو أنه لاحظ أنها ترقى لما يعرف اليوم في الدراسات الحديثة بـ«الظاهرة» التي تستوجب المواجهة بالعلاج لوقف تداعياتها، بل نجده يذهب أكثر من ذلك لاجتثاث جذورها وتقديم تصورات في شكل علاجات بديلة لها.

إن ما يطرحه الإمام الأسمر في ثنايا حديثه عن بعض الظواهر الاجتماعية، يدل على أن مشروعه الإصلاحي تضمن فكرًا اجتماعيًّا قام على دراسات برصد وتقصي وبحث وسؤال في عمق تفاصيل ما يعانيه المجتمع من سلوكيات مرضية، ولاحظ من مجموعها أن المنظومة القيمية للمجتمع تعيش اختلالات واهتزازات كبيرة استدعت المسارعة ببحث العلاج التي يمكن أن ترممها وتقوي أواصر تلك المنظومة وتعديها إلى قوتها الأولى.

ولن نتوسع في ضرب الأمثلة لتوضيح انشغاله بالمشكلات الاجتماعية وتحديدها، فيكفي لفت الاهتمام بانشغاله الكبير بقضية «الاختلاط» مثلًا بكل تداعياتها الخطيرة على تماسك المجتمع في شكله العام، والأسرة في وضعها الخاص كنواة أولى ومؤثرة في البناء المجتمعي. ويبدي تشديده الكبير على النهي عن الاختلاط أنها ظاهرة تفشت في المجتمع بشكل كبير، كقوله: «إخواني: وأكبر فساد الدين النظر إلى المحرمات وهو النساء الأجنبيات، ففروا منهن وغضوا أبصاركم من النظر إليهن. إخواني: وإياكم والجلوس في ميعادهن.. فخذوا حذركم من النسوان ومخالطتهن والنظر إليهن والتلذذ بكلامهن. والذكر معهن من أكبر الفتنة»[1].

وبقدرة خاصة لا تكشف إلا عن عمق رؤيته، ذهب لعلاج الظاهرة في مستواه المجتمعي العام من خلال التركيز على المناسبات الاجتماعية التي تشكل براحًا وفضاء مناسبًا لزيادة تعقد هذه الظاهرة، ففصل بشكل كبير في تحديد ضوابط مناسبتي الأفراح

(1) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص5.

والمآتم، ومنه قوله: «وأما اجتماع الرجال والنساء في العرس بأن ينظر بعضهم إلى بعض، ويستمع صوت بعضهم بعضًا، فهذا من أكبر فساد الدين»[1].

وحديثه هنا جاء لتشخيص الظاهرة في إطارها العام، لكن عند تقديمه للحلول فهو يذهب إلى العمق لمعالجتها، لينطلق من الأسرة وضرورة تحصينها، ففي خطابه للنساء شدد عليهن بأن «لا يحل لكم أن يدخل بيوتكم الرجال ليسوا من محارمكم الذين لا يحل لكم جلوسهن ولا كلامهم، إلا البعل والأدب والأخ والخال ونحوهم»[2]. وإن كانت هذه النصيحة موجهة للنساء، فهي من باب أولى موجهة للرجال غير المذكورين في النصيحة، في منحى واتجاه لبناء النسيج الخاص بالأسرة واتصالاتها بالأسر المصاحبة والقريبة لها لضمان أمنها ووحدتها واستقلالها. وفي السياق وللتأكيد على خصوصية واستقلالية الأسر وحصانتها شدد في النهي عن التجسس والدخول من غير استئذان أصحاب البيوت، فقال: «وإياكم أن تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم إلا أن تستأذنوا من أهلها»[3]، وفي موضوع آخر قال: «لا يجوز لكم أن تدخلوا بيوت الناس مطلقًا من غير مشورة أهلها إلا أن يأمروكم بالدخول»[4].

وتختلف نصائحه بحسب واقع المكان والزمان، ففي خطابه لأتباعه في طرابلس نهي شديد على التجسس، ويلاحظ أن طرابلس مجتمع مدني تتلاصق فيه بيوت سكانه، بحيث يمكن للجار الإشراف على بيت جاره وهتك استقلاله وخصوصيته.

ويجب التأكيد على أهمية دراسة وصاياه ورسائله، كونها كتبت في أواخر حياته المباركة رضوان الله عليه، وبالتالي فهي تمثل خلاصة وزبدة وعصارة فكره وتجربته طيلة سنوات عمره المبارك، وتكشف بكل واضح ملامح ومعالم فكره الاجتماعي، وعمق وقدرة على المعالجة في المشكلات والأزمات بتقديم الحلول الجذرية من خلال إرساء منظومة قيمية للأسرة، وهي ملمح هام جدًّا لبناء دراسات أكثر شمولًا لسببين: الأول: أن الإمام نفذ إلى عمق المشكلات، ولاحظ أن الحلول يجب أن تبدأ من القاعدة وفي العمق من خلال إعادة تعزيز وتثبيت القيم، ولم يقدم حلولًا لتلك المشكلات كونها مؤقتة،

---

(1) نفس المصدر، ص19.
(2) نفس المصدر، ص33.
(3) نفس المصدر، ص22.
(4) نفس المصدر، نفس الصفحة.

والثاني: أنه لم يعالجها في مستواها المجتمعي العام بل نفذ الأسرة وركز العلاج فيها كونها النواة التي تبني المجتمع.

ومن بين ما يميز الفكر الاجتماعي للإمام الأسمر، أنه قام على دراسات ورصد وتقصٍّ، كما أسلفنا، ويمكننا الاستشهاد على ذلك لتأكيده بقوله: «هذا الزمان زمان فساد وخيانة ولا خير فيه، وهو أقبح مما مضى من الأزمنة منذ علمنا وأوجدنا الله إلى الآن»[1]، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا الحكم من الإمام إلا بعد تقصي ورصد لزمانه، بل قام بدراسات مقارنة كما يظهر من كلامه للأزمنة التي سبقته، ولهذا يجب أن تولى نصائحه ووصاياه ورسائله أهمية أكبر لاستخلاص أوضح لمساهمته الواضحة في بناء نظرية اجتماعية إسلامية.

منظومة القيم الأسرية في المشروع الأسمري الإصلاحي

أرسى الإمام الأسمر منظومة قيم متكاملة لبناء الأسرة المستقرة السليمة ضمن مشروعه الإصلاحي، مؤسسًا تلك القيم على مجموعة من الأخلاق كالصدق والأمانة والعدل وحقوق الجوار وحسن المعاملة لخلق الله وغيرها، وهي أخلاقيات عامة لكنها أسس متينة يجب أن تشكل مبادئ لقيام أي مشروع، ولذا نجده بثَّها بشكل كثيف في أغلب تفاصيل وثنايا وسطور وصاياه وفي كل رسائله. ومن بين القيم الأسرية التي أرساها:

1 - **قيمة الأمن الفكري**، من القضايا التي حرص الإمام الأسمر على توفرها في الأسر لوقاية أفرادها من الانحرافات والاختراقات العقدية والفكرية وتوفير المناخ الآمن لنشأة مستقرة، ويظهر ذلك من خلال حثه على:

أ. تعلم ضروريات التكاليف والتعاليم الشرعية: فيوجب على أرباب الأسر أزواجهم وأبنائهم التعاليم الشرعية الضرورية كأرضية أساسية لتشكل شخصياتهم بشكل آمن، فيقول: علموهم «القرآن والكتابة وعقائد الإيمان والفرائض والسنن والمؤكدات والفضائل والمندوبات والأعمال الصالحات، وعلموهم التحذير من المحرمات والمكروهات فإن لهم حقًّا عليكم»[2]، وبشكل عام يقول: «حاصله: علموهم كل

(1) نفس المصدر، ص12.
(2) نفس المصدر، ص20 و21.

ما يحتاجونه منكم في أمر دينكم؛ لأن لهم حقًّا شرعيًّا عليكم، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

وفي قوله: «لأن لهم حقًّا شرعيًّا عليكم» تذكير لرب الأسرة بالأصل الشرعي الذي انبنت عليه أسرته، حتى لا يذوب ذلك الحق في أتون الموروث الاجتماعي الذي يجعل بتقادم الزمن الأسرة مفرزًا اجتماعيًّا لاجتماع أفراده فقط.

ولتعزيز هذا الأساس في تكوين الأسر ولاستمراره، فلا بد حضور تعلم «القرآن والكتابة» كقيمة تأسيسية للأسرة، يليها تعلم الفرائض والسنن والمندوبات والمحرمات والمنهيات، وإن كان حديثه فيها عامًّا إلا أنه عند تعلمها يدخل الفرد في الأسرة على يد الوالد في عملية تعليمية مطولة، فمعرفة السنن والمندوبات والفضائل والمكروهات أمر تفصيلي يزيد التفصيل في معرفة الفرائض والمحرمات. وبالعموم فكل هذه الخطوات البانية للقيم المؤسسة للأسرة تحفظ لها استقرارها، فهذه الضروريات في ديننا الحنيف توضح في الأساس واجبات كل فرد وحقوقهم، وتحدد كل دور منهم، كما أن تعلم العقائد بالقطع لا يعني الإمام إلا تعلم المستقر منها في بلد كل أسرة، فيتحقق بذلك الأمن الفكري للفرد من اختراقات الأفكار الدخيلة الضارة، ويحقق التعايش مع مجتمعه الذي يعيش ذات العقيدة المستقرة.

ب. **بناء العقل والتفكير السليم لضمان العمل السليم**، فيوجب البالغ ضرورة «معرفة الله بالنظر»[2]، ويقصد بالنظر التفكير بتوظيف أدوات المعرفة كالعقل والحس، وينهي مقابل ذلك عن التقليد في العقيدة، فيقول: «فمن لم ينظر ولا يأتِ بدليل ولا ببرهان ففي إيمانه خلاف وعند جميع الموحدين مقلد، والمقلد ليس بكامل».

وإذا كان يدعو للنظر والاستدلال في أخطر مسائل الدين، وهي العقيدة، فمن باب أولى ضرورة في العلوم الأخرى، بل وكافة شؤون الحياة، وهو هنا يؤسس الفرد على مبدأ التعقل والتفكير السليم لبناء قراراته على دليل ونظر وبرهان في كل شؤون حياته، وبالتالي يكون قيمًا ومسؤولًا عن قراراته ومواقفه.

وما من شك في أن دعوة الإمام الأسمر هذه، رد على دعاة تجديد الفكر الإسلامي وإصلاح العقل العربي والإسلامي التي تتنادى بها التيارات الحديثة اليوم، وتتهم

(1) نفس المصدر، ص21.
(2) نفس المصدر، ص4.

العقل المسلم بالتردي والجمود والتخلف وتقوقعه على واقعه، ومن المهم التنبيه على هذا الجانب المهم في مشروع الإمام الأسمر ويتعلق بالبناء الفكري والعقلي السليم والصحيح، لا على حرية التفكير والعقل المفرط دون ضوابط، فالحرية مؤطرة بحصن منيع قائم على منهج تفكير استقر بتوالي الزمن، وهو المنهج الأشعري الذي اختارته الأمة الإسلامية في العقيدة الصحيحة الراسخة الثابتة المستقرة، ولذا فهو يدعو لضرورة الاستدلال والنظر والإتيان بالبرهان والدليل، لكن في سياقات المدرسة الأشعرية السنية وداخل أطرها ووفق منهجها الرصين الحصين.

هـ. الحوار الأسري: ويتضح أهمية وحرص الإمام على ضرورة إحلال قيمة الحوار الأسري في العديد من المواضع، وأقربها الاستشهاد السابق بإلزامه مريديه تعليم أزواجهن وأبنائهم، والعملية التعليمية حوار في أكثر خطواتها ومراحلها، وفيها هامش من النقاش البناء، وفيها رد وجواب على سؤال أي فرد فيها في قضايا الفرائض والواجبات والسنن والمندوبات.

ومن المهم لفت النظر إلى مسألة مهمة تتعلق بتدريب الفرد المسلم داخل الأسرة على التفكير السليم وتأسيس العقل على الاستدلال والنظر كما أسلفنا، فالملاحظ أن خطابه جاء موجهًا للبالغ بقوله: «وعليكم بالنظر حين البلوغ»، ويستفاد من هذا الخطاب أن وصاياه موجهة إلى كل شرائح وأفراد المجتمع بما فيهم الأطفال، فمن يخاطبهم هنا، وهم أطفال قبل سن البلوغ، وهو ملمح مهم يدل على عمق فكر الإمام ووعيه بخطورة انزلاق الفكر إلى متاهات التفكير غير المنضبط، ولذا دعا إلى أن يكون التفكير والتأسيس له في مرحلة البلوغ حيث لا يزال الفرد يعيش في أحضان أسرته، ما يعني أن تلك الحرية من التفكير والتأسيس لها ستكون بالتدريب والتوجيه والتعليم على يد والديه وداخل أسرته، وعليه فعملية صقل تفكير الفرد يجب أن تكون ضمن ضوابط تمنعه من أن يجنح وهو في تلك السن الحرجة إلى متاهات العقل غير المنضبط ومزالقه، وكل هذا يعني أن تدريب الفرد في أسرته على التفكير وصقل تفكيره والمسؤولية على اتخاذ قراراته هو من في مهام الأسرة وبناء على قيمها لتضمن له عوامل الأمن الفكري.

2 - **قيم القرابة والجيرة والأهل**: اهتم الإمام الأسمر بعد ضمان تأسيس الأسرة وفقا للقيم الخاصة في مشروعه الأسمري، ببناء العلاقات بين الأسرة لاستمرار ترسيخ تلك القيم وتشابك بعضها ببعض من خلال بناء جسور للتواصل بين الأسر، ولذا حفلت

وصاياه بالحث على أهمية علاقات القربى ومواصلة الأرحام والتزاور بين الجيران. وفي ملمح هام لدراية الإمام الأسمر بقيام العلاقات الاجتماعية بين الأرحام والقرابة من باب الوالدين، فقد اهتم بقضية الوالدين وبرهم وحقوقهم تفصيلًا وأوصلها إلى 15 حقًّا.

3 - **القيم المجتمعية**: وهي المعنية بالمجتمع وألفته وتعاضده وتعاونه وتآلفه، فقد حث الإمام الأسمر على تعزيز قيمها في المجتمع الأسمري العروسي، كترك العُجب، وترك الترفع، وسعة الصدر، والبشر والابتسامة، وطلاقة الوجه، وطيب الكلام، وخفض الجناح، ولين الجانب، والتودد، والمداراة، والاحتمال، والعفو، والصفح، وترك الغلظة والفضاضة، وعدم العتاب، والرفق، وحسن المعاشرة، وكثرة التغافل، وشكر المحسن، والثناء عليه، والتجاوز عن المسيء، والنصيحة بلطف وشفقة في خلوة، والمقابلة بالإحسان، والكلام في المفيد من معاد ومعاش، وترك التجسس على أحوال الناس استماعًا وسؤالًا.

4 - **قيم العمل والإنجاز والاكتفاء الذاتي**: كما اهتم الإمام الأسمر بأهمية العمل والإنجاز، والهمة في ذلك، ومن ذلك قوله: ازهد في الدنيا بقلبك، ولا تقلل منها بجهدك.

5 - **قيم المكاثرة والبناء**: ونشهد هذه القيم من خلال تأملنا في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر:1]، وما ورد فيها من سبب ورود لا يخفى على الباحثين. وعند مطالعة سيرة الإمام الأسمر نجد أنه اهتم بالزواج مبكرًا، كما اهتم بتعدد الزوجات بشكل يظهر منه نوع سياسة وفكرة، واهتم بكثرة الأولاد، وتزويجهم مبكرًا أيضًا، وتعليمهم وتربيتهم وتأديبهم، وصناعة مشاريع اكتفائية لهم، لتحقيق الغنى عن الناس، وولادة مشاريع مختلفة لهم في عدة مدن وقرى في مختلف الأصقاع الليبية، مع وضع الاعتبار الأول نصب الأعين أن الهدف الأول هو رضا الله تعالى، وتحبيبه في خلقه، ونشر معالم السلم والصلح والحب والإخاء في المجتمعات، بحيث كان أبناؤه كثرة متكاثرة، وكانت مكاثرتهم مكاثرة بناءة، مفيدة للفرد والأسرة، معينة للأرامل والعوانس، حافظة للأطفال والأبناء، محققة للمجتمعات والأسرة الاكتفاء الذاتي من كل الاحتياجات، في ظل المغريات الشيطانية المختلفة.

كما أكد على أهمية الحفاظ على الخصوصيات الأسرية، من معلومات، وأخبار، ومشكلات، وتحديات، وأكد على أهمية اختيار الزوجات بناء على قواعد الحسب والنسب، والابتعاد عن ذات المواصفات السيئة، والنظر في أسرة المخطوبة، واختيار

الأكفاء، بناء على أن الزوجة هي قائد البيت ورائده، فمتى صلحت صلح كل البيت، والعكس صحيح أيضًا.

6 - **قيم العمال والخدم**: اهتم الإمام الأسمر بالعمال والخدم وغيرهم ممن يساهم في خدمة الأسرة وبناء المجتمعات، ورأى أن الاهتمام بهم مساهم في حفظ الأسرة والمجتمع نفسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، حيث نصح بالإحسان إليهم، في الطعام واللباس، والعفو عنهم، وعدم التكبر عليهم، وحسن معاشرتهم، وعدم تكليفهم ما لا يطاق، وتعليمهم الأخلاق والآداب والفرائض والعقائد.

خاتمة:

إن ما أرساه الإمام الأسمر من قيم أسرية ضمن مشروعه الإصلاحي الكبير، كفيل لحل مشكلات وأزمات المجتمع حتى اليوم، فهي قيم مستقاة من سنة سيد الأكوان ﷺ، ولنا أن تدقق فيما يحصل في مجتمعاتنا اليوم من شروخ ومشكلات، وكيف أن هذه القيم الأسرية الأسمرية كفيلة برأب التصدعات في المجتمعات والأسر، مُرْتَقية بهم في مراقي السعادتين، كمَرْهَم شافٍ، ودواء ناجع، وغذاء مفيد.

هذه القيم هي رسالة الإمام الأسمر في مشروعه الإصلاحي، بل ورسالة الأنبياء والمصلحين من أمة النبي الأعظم ﷺ، جزاهم الله عنا كل خير.

والحمد لله رب العالمين.




قضايا المرأة في وصايا الإمام الأسمر

أ.حنين سعد عيَّاد

باحثة بمركز البحوث والدراسات الإسلامية - ليبيا

ملخص:

تتناول هذه المقالة التعرُّف على وصايا الإمام الأسمر للمرأة من خلال طرح الأساليب والتوجيهات الحكيمة التي بثَّها في رعاية المرأة عبر مراحل حياتها كلها، وما تحتويه تلك الوصايا من تنوع وتميز جمعًا بين الأدبيات والأخلاقيات والأساليب ذات الفوائد الكبيرة.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الوصايا، المرأة، الأدبيات، الأخلاقيات.

مقدمة:

المطَّلع على جهود الإمام الأسمر، يظهر له قيمة ما قدمه من جهود متميزة ومتنوعة ومفيدة، ومن تلك الجهود الوصايا التي طرحها الإمام الأسمر لقضايا المرأة، وما وضعه لها من نصح وتعليم وتأديب وتربية وأخلاق في السير على خطى صحيحة قويمة في حياتها، رأيتُ من الواجب أن أستخرج كل هذه الوصايا الخاصة بالمرأة؛ للاهتمام والاستفادة من تلك الوصايا المهمة، والحديث عن مدى تأثيرها على المرأة، وما هو دور المرأة اليوم تجاه هذه الوصايا؟

وتهدف هذه الورقة إلى التعرُّف على الأساليب والتوجيهات الحكيمة التي وضعها الإمام الأسمر في رعاية المرأة عبر مراحل حياتها، واعتمدت في ذلك على المنهج الاستقرائي، من خلال تتبع تلك الوصايا وجمعها في مكان واحد، ثم الاستدلال ببعض الآيات القرآنية والحديث النبوي الشريف لبيان صحة ما كانت عليه تلك الوصايا.

الاهتمام بالآداب والأذكار وكل ما يخصُّ ويعمُّ المرأة من تعاليم

سأتحدث في هذا المبحث عن الآداب والأذكار والتوجيهات الأسمرية للمرأة، وأهميتها وفوائدها ودورها.

الاهتمام بالآداب وحلقات الذكر الخاصة للمرأة:

إن الاهتمام بالآداب وحلقات الذكر أمر حثَّ عليه في ديننا؛ إذ إن حلقات الذِّكر سواء كان في تلاوة القرآن الكريم أو في الأذكار والدعوات ورد فيها أحاديث كثيرة منها: قوله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر»[1]، وفي رواية عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله ﷻ إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

كما أن على المرأة أن تتحلى بآداب تلك المجالس قبل دخولها، وذلك من الاهتمام بنظافة الفم وإزالة الرائحة الكريهة منها قبل الخوض في الجلوس في الذكر، فعن النبي ﷺ قال: «من أكل ثومًا أو بصلًا، فليعتزلنا –أو قال: فليعتزل مسجدنا – وليقعد في بيته»[3].

وقد أوصى الإمام الأسمر بأن من أراد القدوم على مجالس الذكر وتلاوة الأذكار أن تكون رائحته طيبة، وألا يتناول ما كانت رائحته غير طيبة[4].

كما يراعى في آداب الحلقات آداب الحديث وعدم الخوض في الجدال المنهي عنه، حيث اهتم الإمام الأسمر بمجالس الأذكار والتربية للنساء، غير أنه نهاهن عن الجلوس مع الرجال لا سيما في مجالس الذكر، وأن ذلك من الفتنة[5].

(1) أخرجه الترمذي.
(2) أخرجه مسلم.
(3) أخرجه البخاري.
(4) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص42 و43. وكذلك: المجتمع الليبي، كما رسمته وصية سيدي عبد السلام الأسمر، مبحث مستدل من كتاب الفقراء، للعلامة أحمد القطعاني، مكتبة مكناس، طرابلس، ط1، 2000م ص119.
(5) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص 35. المجتمع الليبي، مصدر سابق، ص115.

الاهتمام بتعلم الطهارة الخاصة والعامة للمرأة:

إن نساء اليوم يحتجن إلى التعرف على العلوم الدينية الضرورية لها في حياتها اليومية، بما في ذلك الأمور المتعلقة بها في الطهر وغيرها من الأمور الخاصة بها، وقد حدثتني إحدى الأخوات بما شاهدت في الأيام الماضية من حديث امرأة في إحدى الإذاعات المسموعة بأنها لم تكن تعرف الغُسل ولا كيفيته، مع أننا في وقت يجب أن تكون المرأة مدركةً تمامًا تعاليم دينها، وما أُمِرَتْ به من واجبات.

وقد نبه الإمام الأسمر في وصاياه إلى أهمية تعليم الزوجة والبنات الأحكام الشرعية الفقهية المختلفة، كالغسل والوضوء والتيمم وغيرها من الواجبات، مع ضرورة ارتباط ذلك بالآداب والأخلاق الكاملة المهمة، حيث قال في ذلك مشيرًا إلى الزوجة والبنات بشكل خاص وإلى عموم النساء، عليهن: «تعلم فرائض الغسل وفرائض الوضوء وفرائض التيمم، وكل ما يجب عليهم، وعلموهم الآداب؛ لأن لهم عليكم حقًّا شرعيًّا، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فافهموا»[1].

الاهتمام بالنظافة واللباس والزينة للمرأة:

وتعتبر النظافة من الأمور المهمة، حيث إن رسولنا الكريم قد حثنا على نظافة الأبدان، فقال ﷺ: «تخللوا، فإنه نظافة، والنظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة»[2]، وفي رواية للترمذي: «إن الله نظيف يحب النظافة»[3].

وسيرًا على النهج النبوي أوصى الإمام الأسمر بالنظافة والتطيب، مشيرًا إلى وسائل تنظيف الثياب المتاحة في عصره بقوله: «هي أن تغسلوه وتبيضوه وتنظفوه بالجبس أو الغاسول أو الصابون أو الشب الأبيض، ولا بأس ببعض الطيب إن وجد وهو الزبد والمسك وجميع الرائحة الفائحة، وأدخلوها بالروائح الطيبة كالزبد والقماري والمسك والأنواع الفائحة كالياسمين أو ماء الزهر أو ماء الورد»[4].

---

(1) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص20، وكذلك: تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م، ص189.

(2) المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وآخرين، دار الحرمين، القاهرة، ج7، ص215.

(3) أخرجه الترمذي.

(4) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص27، المجتمع الليبي، مصدر سابق، ص119.

كما أوصى الإمام الأسمر بأنواع من اللباس والثياب الخاصة بالنساء، الساترة، والجميلة، مع مراعاة الأعراف، ولا بأس بفاخر الثياب[1]، نبه الإمام الأسمر على الابتعاد عن لباس الألبسة السوداء، للنهي عليها[2].

كما تحدث الإمام الأسمر عن تزين النساء، مشيرًا إلى أنه من المظاهر الإنسانية، غير أنه نبه إلى الاتزان في التزين، مع التحرز من بعض العادات والتقاليد السيئة، التي ينبغي الابتعاد عنها، بحيث لا تخضع النساء لكل أدوات الاستخدام والتسليع المحلية والعالمية[3].

الاهتمام بآداب الحواس والتربية السليمة للمرأة

سأتحدث في هذا المبحث عن الاهتمام بالتربية والآداب في وصايا الإمام الأسمر للمرأة، مع ضرب أمثلة مناسبة.

الاهتمام بالآداب للمرأة في الأماكن العامة:

اهتم الإسلام بصناعة آداب عظيمة في كافة مناحي الحياة، ومنها: احترام المرأة، وإفساح الطريق لها، وغض البصر عنها، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ﴾ [النور:30].

ونتأسف لما نشاهده اليوم من فساد أخلاقي تتعرض له بعض النساء، من الأذية في الطريق والتحرش بها، سواء عند السير على أقدامها، أو أثناء قيادتها للمركبة الآلية.

وقد ورد النهي عن النبي ﷺ بقوله: «إياكم والجلوس فى الطرقات. قالوا: يا رسول الله، ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها. قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه. قالوا: وما حقه؟ قال: غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»[4].

---

(1) ينظر: الوصية الكبرى، ص28/ 29، المجتمع الليبي، ص119.
(2) ينظر: تنقيح روضة الأزهار، ص186، المجتمع الليبي، ص119.
(3) المجتمع الليبي، ص119.
(4) أخرجه البخاري.

واهتم الإمام الأسمر بهذه القضية، موصيًا النساء، مهتمًّا بهن غاية الاهتمام بقوله: «لا يجوز بحال مزاحمة النساء والاحتكاك بهن، بل الواجب إفساح الطريق حتى يمرن في صون وعفاف، فزاحموا الجرب المطليات بالقطران، ولا تزاحموا النسوة في الطريق»[1].

الاهتمام بآداب النظر:

حث الإسلام المرأة على غض البصر وإعطاء الطريق حقه، وقضية النظر بطبيعة الحال تحدث عنها الفقهاء، ففي حال كان النظر عابرًا لا بأس، أما إن كان النظر بشهوة فهو المنهي عنه، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:31]، وقال النبي ﷺ: «يا معشر النساء، إذا سجد الرجال فاغضضن أبصاركن لا ترين عورات الرجال من ضيق الأزر»[2].

ونرى أن الإمام الأسمر يولي المرأة رعاية خاصة، وينصحها ويوصيها بضرورة غض البصر، عن جميع المحارم، وهذا يحتاج إلى تأمل وبحث عن المحرمات البصرية، أنواعها، وما يسببه كل نوع، وما ينتج عن ذلك، قال الإمام الأسمر: «فبلغوهن مني السلام، وقولوا لهن: غضوا أبصاركن عن جميع المحارم، واحفظوا فروجكن ما استطعتن، واجتنبوا جميع الجرائم»[3].

الاهتمام بآداب الأسرة:

سيكون حديثي في هذا المبحث عن اهتمام الإمام الأسمر بآداب الأسرة، لا سيما آداب الصوت والسمع، واستيعاب الزوجات، في فطنة مبكرة وخطوات استباقية لحماية الأسرة من المشكلات المتوقعة.

الاهتمام بآداب السعادة الأسرية:

إنَّ من مقوِّمات السعادة الأسرية هو آداب التعامل بينهما، حيث إنها تكون مبنية على الحب والاحترام والتوافق، وتعمق العلاقة وتقبل الاختلافات بينهما، وهذا هو أساس علاقة الأسرة السعيدة، كما أن لدوام هذه السعادة واستمرارها نصائح مفيدة من أجل استقرار هذه الأسرة وإسعادها طوال الحياة، وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية.

---

(1) المجتمع الليبي، مصدر سابق، ص115.
(2) أخرجه أحمد.
(3) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص33.

وقد أوصى الإمام الأسمر بعض الوصايا المفيدة للنساء من أجل الحفاظ على هذه الأسرة ودوامها، بداية من طاعة الأزواج، وحفظ البيوت من دخول الغرباء، حيث قال: «وأطيعوا أزواجكم، وإذا دعوكم إلى الفراش فلا تعصوهم، واحفظوا بيوتكم من الرجال والنساء الفاسقات، ولا يحل لكم أن يدخل بيوتكم الرجال ليسوا من محارمكم، الذين لا يحل لكم جلوسهم ولا كلامهم إلا البعل والأب والأخ والخال ونحوهم»[1].

الاهتمام بآداب الصوت، والسمع في الأسرة:

إن الاهتمام بآداب صوت المرأة أمر مهم جدًّا في حياتها الأسرية مع زوجها خاصة وأبنائها عامة؛ إذ واجب عليها أن تكون أثناء حوارها مع الزوج ممتلكة أسلوبًا هادئًا ومحترمًا، والعكس صحيح ومطلوب أيضًا، لأن الصوت المرتفع لا يجلب نتيجة، وإنما يورث البغض والمشكلات الأسرية المتعددة، وعندما يكون الحوار بينهما بهدوء وأدب واحترام، واستماع كل منهما للآخر، ستعيش هذه الأسرة في سعادة وهناء واطمئنان، بعيدةً عن المنغصات والمشاكل الحياتية المعقدة، ولعل ما نراه اليوم في مجتمعنا من المشاكل الزوجية التي قد تؤدي إلى الطلاق بسبب الحوارات والنقاشات العشوائية الفارغة، والتي تلحقها الأصوات المرتفعة، وسوء الأدب، وعدم الاحترام، وهنا الإمام الأسمر يعطينا دروسًا أسرية مفيدة لتعيش هذه الأسرة في أمان واستقرار حيث أوصى المرأة أن تراعي بيت زوجها[2]، كما استوصى النساء بالتحلي بالصبر والحكمة في إدارة بيت الزوجية، فقال: «عليكن بالصبر الصبر»[3].

الاهتمام باستيعاب الزوجات وطباعهن:

إن الاهتمام بمراعاة واستيعاب طباع الزوجات من الأمور المهمة، وراعى رسول الله ﷺ طباع زوجاته بالتلطف معهن، وحسن عشرته لهن، ومحاورته لهن رضوان الله عليهن، وعدم التأفف منهن، ومن ذلك استيعابه لطباع عائشة ومراعاته لظروفها، حيث روت السيدة عائشة رضي الله عنها في وصف النبي ﷺ حين يتكئ وينام على حجرها

(1) نفس المصدر، ص33.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، تحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص217.

(3) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص34.

وهي حائض، قائلة: «كان يتكئ في حجري وأنا حائض، ثم يقرأ القرآن»[1]، كما أنه عليه الصلاة والسلام قد راعى صغر سنها، فكان يخصص بعضًا من أوقاته للعب معها، قالت عائشة رضي الله عنها متحدثة عن سفرها مع النبي ﷺ: «فسابقته فسبقته على رجلي، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني فقال: هذه بتلك السبقة»[2].

وقد أوصى الإمام الأسمر بالتلطف بالنساء وحسن التعامل معهن، والصبر على طباعهن وما يحصل لهن في حياتهن من تغيرات مختلفة وأزمات، لصناعة أسرة سعيدة متجانسة متحابة متعاونة، قال الإمام الأسمر: «عليكم بسعة الخلق على أزواجكم وأولادكم، فإن ذلك من مكارم الأخلاق، ويؤثركم محبتهم ويؤثرهم محبتكم، وتنتفعون من بعضكم بعضًا»[3].

الاهتمام بآداب المناسبات وأخلاقياته للمرأة

الاهتمام بآداب الفرح وأخلاقياته

إن الاحتفال بالمناسبات السعيدة أمر مستحب يحث عليه، إلا أن لمثل هذه المناسبات آدابًا يستوجب المرأة أن تتمسك بها، وقد أوصى الإمام الأسمر النساء بعدة أخلاقيات وآداب ينبغي أن تكون عليه المناسبات الاجتماعية، وأهمية أن تكون الطقوس النسوية في الأعراس بعيدة عن الرجال[4].

الاهتمام بآداب المأتم وأخلاقياته.

إن الإسلام وضع آدابًا للمآتم بعدما أبطل ما كانت عليه الجاهلية الأولى من الجهل المنهي عنه، وحيث إن الإمام الأسمر استوصى المرأة بنصائح وآداب المرأة المسلمة، مستبعدًا لها تلك الأمور التي تدل على الجهل، وواصفًا ما يحدث في تلك المآتم بشكل دقيق، ناهيًا عنها لما فيها من عدم الرضا بالقضاء والقدر، ولما فيه من يأس وقنوط، ومظاهر غير مرضية في ظاهرها وفي باطنها، وقسم تلك الأفعال في المآتم إلى أفعال

(1) أخرجه البخاري.
(2) أخرجه أبو داود.
(3) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص189.
(4) المجتمع الليبي، مصدر سابق، ص116.

تتعلق بالعطر، وأخرى باللباس، وأخرى معنوية تتعلق بالحزن، وغيرها تتعلق بأذية الجسد، وغيرها من العادات السيئة المحرمة[1].

كما أورد كلامه بالنصح لهنَّ بالالتزام بما أمر به من اللباس الحسن والتطيب وغيرها في قوله: «وإياكن والصراخ والنواح والنديب والترجيح بالبكاء، والتجعجع بالنداء، وإياكن والحزن على الميت، وترك اللباس الحسنة والطيب والتكحيل بالإثمد، وإياكن وحلق الرأس، وحرقه بالنار إذا مات لَكُنَّ أحد»[2].

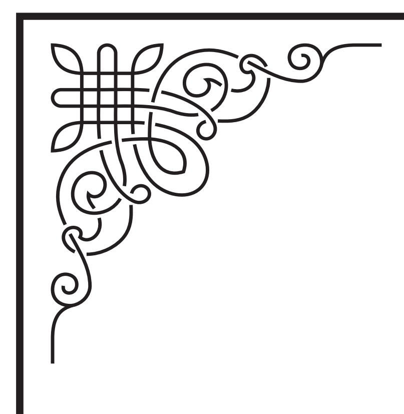
خاتمة:

بعد هذه الجولة المميزة في هذه الوصايا الهادفة والنافعة والمفيدة للمرأة من وصايا الإمام الأسمر رحمه الله تعالى، أصل إلى أهم النتائج وهي كالآتي:

1. تميز الإمام الأسمر في كثرة تنوعه في وصايا للمرأة، فجاءت محتوية على أدبيات وأخلاقيات وأساليب ذات فوائد كبيرة.
2. وصاياهُ للاهتمام بالآداب وحلقات الذكر الخاصة للمرأة.
3. وصاياهُ للاهتمام بتعلم الطهارة الخاصة والعامة للمرأة.
4. وصاياهُ للاهتمام بالنظافة واللباس والزينة للمرأة.
5. وصاياه للاهتمام بالآداب للمرأة في الأماكن العامة.
6. وصاياه للاهتمام بآداب النظر للمرأة.
7. وصاياه للاهتمام بآداب السعادة الأسرية.
8. وصاياه للاهتمام بآداب الصوت، والسمع في الأسرة.
9. وصاياه للاهتمام باستيعاب الزوجات وطباعهن.
10. وصاياه للاهتمام بآداب الفرح وأخلاقياته المتعارف عليها.
11. وصاياهُ للاهتمام بآدب المأتم وأخلاقياته.

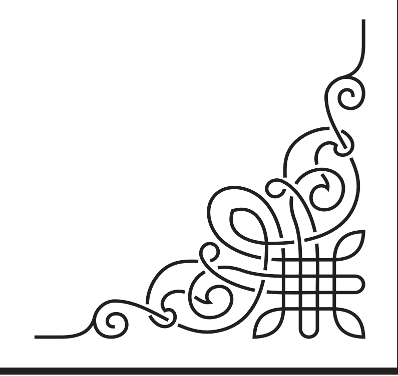
---

(1) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص30 و31، المجتمع الليبي، مصدر سابق، ص116.
(2) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص191، المجتمع الليبي، مصدر سابق، ص117.



2 – في التراث العلمي

المكتوب والمخطوط






الإمام عبد السلام الأسمر وانتقال النصوص: مقاربة فيلولوجية

د. مصطفى الصوبي

أستاذ التعليم العالي بجامعة ابن زهر - المغرب

ملخص:

تمَّ الكلام في هذه المقالة عن الإمام عبد السلام الأسمر، وطريقة الاشتغال العلاقات بين نصوص التراث الأسمري، من خلال علائق النصوص المخطوطة في إطار شجرة المخطوطات التي تستلزم جرد المادة المخطوطة الأسمرية في كل بلدان العالم، مع ما يكتنف هذا المشروع من إكراهات، مع إدراج تلامذته في شجرته، وثنائية المخطوط والمطبوع من خلال ثنائيتي الطبع في ذاته والتحقيق، وتقويم ما تحقق من التراث الأسمري، ومدى حاجته إلى إعادة الطبع بناء على ما يسمى في الفيلولوجيا بالنُّسخية، والنظر في صورة الإمام الأسمر من خلال الكتابات التي أنجزت عنه، على نحو ما كتبه تلاميذه: الشيخ كريم الدين البرموني، والشيخ سالم السنهوري، ومن كتب في تاريخ طريقته: الشيخ محمد بن إسحاق المليجي الإسكندري، والشيخ أحمد القطعاني، والشيخ مصطفى عمران، والشيخ أسامة بن هامل، وغير هذا كثير مما يعز علينا حصره في هذا المقام، بناء على أن استمرارية هذا التراث مرتبطة بالشروح، والتعليقات، والترجمات، وشروح الشروح، ونكت التعليقات، وطرائف الترجمات...

كلمات مفتاحية:

عبد السلام الأسمر، التراث، الفيلولوجيا، علاقات النصوص، الشجرة، النسخية، الطبع، التحقيق، التلقي.

مقدمة:

يُعدُّ سيدي ومولاي الإمام القطب الرباني والعلم الشيخ النوراني عبد السلام الأسمر (880هـ - 981هـ) منارة للعلم والسلوك والتربية يُحتذَى بها، وصورة الشرف والنصيحة والمجد والتزكية يُهتدَى بها، وقد تشرفت أن أَزْبرَ بحثيَ هذا في هذه المدرسة العلمية الربانية، أمطرنا الله ببركتها وخيرها، وهدانا من فضله على هديها، ورزقنا من حلمها ورَوْحها، ثم إنني نظرتُ في الموضوعات الكُثْرِ التي يمكن أن نسلكَها صوبَ هذه المنارة، فبَانَ لي أن القولَ في الفيلولوجيا، وبوجه خاص علاقات النصوص قد يشكل جِدَّةً في حضور المادة التراثية المرتبطة بهذا العَلَم السامق والطود الشاهق. وهكذا يممتُ مسألة انتشار النصوص من خلال تراث الشيخ عبد السلام الأسمر وتلامذته؛ أقصد المخطوط والمحقق، وأنا أريد في واقع الأمر أن أجيب عن أسئلة كثيرة في هذا الباب، من قبيل كيف تناسلَ هذا التراث في المكتبات التراثية العامة والخاصة؟؟ وكيف ضخت المكتبة الأسمرية الدماء في جسم العلم والتصوف في العالم الإسلامي؟؟ وما هي الشجرة النموذجية لإخراج هذا التراث إلى الوجود؟؟. وهو أمر يدعونا إلى النظر في انتشار التراث الأسمري غير المحقق في خزائن العالم، ونوعية علاقات النصوص بين هذا التراث والتراث المتولد عنه، ونوعية الدراسات النقدية الممهدة لإخراج نوادره إلى الوجود، وهلم جرًا. وإنما أردنا هذا الأمر في الاشتغال أن يكون عرفًا لدى الباحثين في الزمن الراهن، وقبل أن نخوضَ في هذه المعطياتِ، من اللائق أن نذكر نزرًا من حياة هذا الشيخ المربي، والعلامة القطب الملبي، بالرغم من أنه أشهر من نار على علم، وإنما أردنا التذكير، واختصار القول فيه قبل التحرير، فقد ذكره كثيرون، فأبانوا عن علمه وطريقته، ومنهم رضا كحالة في معجم المؤلفين قائلًا: «عبد السلام الأسمر صوفي، توفي سنة 981هـ عن نحو مئة سنة، له الأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية»[1]، وآخرون مثل عبد الحي الكتاني وغيرهم، فقد كان رضي الله عنه قد تحوز منحة الشرف والهداية منذ طفولته، بناءً

(1) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ب ت، ج5 ص223.

على نسبه الشريف وسلالته القبلية، وشرف نسبه حسب شجرته يعرفه العلماء ويوضحه الأولياء، ويؤكد د. أسامة بن علي هامل أنه مجدد القرن العاشر، وأنه تيتم منذ ولادته[1].

والإمام الأسمر من أسرة الشرف، وهو ما يؤكده عديد المؤرخين ومنهم الشيخ المؤرخ أحمد القطعاني في موسوعته التاريخية عن ليبيا، وفي كتابه الذي خصصه عنه: «القطب الأنور عبد السلام الأسمر»، إذ يقول وفي تفاصيل بدايات تعليمه يظهر من حديث الإمام الأسمر عن نفسه في كتابه «الأنوار السنية والمنن البهية» أن حفظ القرآن كان عنصرًا أساسيًّا في تكوينه، فقد حفظه وعمره سبع سنوات، فانفتحت شهيته على العلم، وكان عمه الشيخ أحمد الفيتوري فاعلًا كبيرًا في هذا المجد، إذ كانَ يشجعه على حضور المجالس، ويلقنه كيف يصنع بخصوص أدب الحديث مع العلماء والفقهاء، فخاض في علوم كثيرة منها التوحيد، والفقه، والحديث، والمنطق، وكل ذلك في المرحلة التعليمية الأولى من حياته في أحضان أسرته صغره، وفي المرحلة التالية في تعليمه يحدثنا الإمام أنه أخذ الطريقة والتربية عن الشيخ عبد الواحد الدوكالي، ولزمه لسبع سنوات، حتى قال له الدوكالي بأن يتوكل على الله، وينطلق لشق طريقته[2].

وهكذا يظهر لنا أن الأمر يتعلق بأحد أقطاب العالم الإسلامي، الذي أثروا في مسيرة العلم والعلماء، وصنعوا منارة الطريقة في ليبيا، وجددوا الدين في القرن العاشر الهجري حسب ما يؤكده الباحث أسامة بن هامل في كتابه الهام «قفة الصُّلاح»، وبناء على الوجهة التي وليتها في موضوع، أقصد هذا البحث، فلا بد أن أذكر أن مجال علاقات النصوص هو مجال فيلولوجي مثير جدًّا ولافت للنظر، وطريف في التناول، وإن كانت الكتابات فيه ضئيلة[3]، على الرغم من أن تراثنا العربي الإسلامي غاص بهذه الشبكة من العلائق

---

(1) قفة الصلاح قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري اللإمام سيدي عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، منشورات مركز العلامة الشيخ أحمد القطعاني، طرابلس، ط2، 2023م ص12 وما بعدها.

(2) الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية المسماة بالطريقة العروسية الشاذلية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1384هـ-1964-م، ص 3 وما بعدها.

(3) مما كتب باكرًا في هذا المجال كتاب:**La critique des textes** لصاحبه بول كولومب **Paul Collomp** منشورات كلية الآداب جامعة ستراسلورغ 1931م. وكتاب**la transmission des textes anciens du scribe à l'imprimerie L'Epopée du livre** لصاحبه أدلبيرت غوتيي هامان **Adalbert -Gautier Hamman** منشورات بيران **Perrin collection Pour L'histoire، 1985**م.

النصية اللافتة للانتباه، وتظهر النصوص القوية لأقطاب وعلماء كبار، فتأتي على كم هائل من النصوص الأخرى التي تدور في فلكها، وكأننا بإزاء شموس علمية وكواكب وأقمار كثيرة تلتف حولها، وتستنير بنورها، فنجد الشروح وشروح الشروح، والمنظومات، والتحشيات، والتعليقات، والملخصات، والمعارضات، والنكت. وفي هذا الباب يقول كمال عرفات النبهان: «وكان كثير من الكتب في الحضارة العربية الإسلامية يمثل مشروعًا فكريًّا للتطوير وتحسين السلالة، ويعد الكتاب موضع الاهتمام أصلًا قابلًا للتلقي، والإضافة، والتصحيح، والمعارضة، والتكملة، والاستمرار يقوم بذلك مؤلفون في عصره، أو في عصور تالية لتأليفه، ويظل هذا الكتاب المهم مدونة قيد التأليف المتتابع والمتنوع في مدارات موصولة في زمن يطول أو يقصر، ويستمر التأليف المرتبط بالنص حتى تبلغ منظومة المؤلفات الأصل وتوابعه صورة مثالية في ثبوتها الأخير في شكل عائلة النص، وقد يتحول بعض النصوص التابعة بدوره إلى مركز تدور حوله المؤلفات، ليأخذ التأليف شكل الشجرة المتفارعة التي تضم القديم والجديد. وكانت هذه المؤلفات تسعى إلى تحقيق الإحاطة والتمام حول عدد من الكتب الأمهات في مختلف المجالات، وقد حظي صحيح البخاري مثلًا بنحو أربعة وتسعين مؤلفًا يدور حوله، وألفية ابن مالك بنحو اثنين وسبعين مؤلفًا، وكثرت المؤلفات أيضًا على الكشاف للزمخشري، والقانون في الطب لابن سينا، والبردة للبوصيري، وغيرها»[1] وهكذا إذا كان كمال عرفات نبهان يمثل في هذه العلائق النصية بالبخاري، والزمخشري، وابن سينا والبوصيري، فإن هناك نماذجَ أخرى نعد منها ولا نعددها تفرض نفسها في عالمنا الإسلامي، ولعل أبرزها في مجال الفقه والعقيدة والتصوف القطب العلامة مجدد الدين في القرن العاشر الهجري عبد السلام الأسمر، وبعده أقطاب آخرون في طرق مختلفة، فقد كان الإمام الأسمر أمةً في رجل واحد، فانتشرت كتاباته، وملأت الدنيا، وانتشرت كتابات تلامذته وملأت الدنيا أيضًا، فأصبح مثالًا حيًّا لهذه العلائق الحية التي تربط المشرق بالمغرب، وقد جسد هذه العلائق في حياته من خلال انفتاحه على المناظرة والحوار وإقناع الآخرين، وتوجهه بالنصيحة لأتباعه ومريديه في كل أصقاع الدنيا؛ في ليبيا، وتونس، والجزائر، وسوس بالمغرب الأقصى، ومصر، وغيرها كثير.

(1) عبقرية التأليف العربي علاقات النصوص والاتصال العلمي، كمال نبهان، منشورات الوعي الإسلامي، الكويت، ط1، 2015م، ص23 و24.

علاقات النصوص بين التراث الأسمري المخطوط

خلف الإمام الأسمر مؤلفاتٍ كثيرةً سارت بذكرها الركبانُ، ولهجت بسموقها الفرسان، منها:

- عدد من المؤلفات في أعداد المفقودات، منها كتابه: «العظمة في التحدث بالنعمة»، و«التحفة القدسية لمن أراد الدخول في الطريقة العروسية»، و«نصائح التقريب في حق الفقراء والنقيب» و«رسالة في العقيدة»[1].

- 11 رسالة إلى مريديه، جُمعت مؤخرًا وحققت ونشرت في كتاب حمل عنوان: «رسائل الأسمر إلى مريديه».

- الوصايا، الكبرى والوسطى والصغرى، وقد طبعت الأولى والثالثة عديد المرات، بينما الوسطى في عداد المفقود من تراثه.

- الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية المسماة بالطريقة العروسية، طُبعت عام 1964م بتصحيح واعتناء الشيخ صالح الجعفري في القاهرة.

- أشعار صوفية تُعدُّ بالآلاف، جمع بعضها في دواوين من قبل أتباع الطريقة العروسية في مختلف الفترات التالية بعد عصر الإمام، منها سفر صغير يحمل «سفينة البحور» طبعته دار الكتب للطلبة والطالبات بطرابلس عام 1955م، ومؤخرًا حقق د. محمد البسكري بالاشتراك مع د. محمد الحمادي مخطوطًا تونسيًّا عنوانه: «جمع سفينة البحور» يحوي المئات من القصائد الأسمرية، ونشره مركز الموسيقى العربية والمتوسطية بتونس عام 2023م.

- كما طبع أتباع الطريقة العروسية مجاميع تحوي أذكار الإمام الأسمر وأحزابه ووظائفه، وهي متداولة بكثرة.

- ولا يزال الكثير من النصوص على علاقة بالإمام الأسمر مخطوطة موزعة على خزائن التراث في مشارق الأرض ومغاربها، وهكذا نجد نسخة من كتاب «أمداح سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري» مخطوطة بالمكتبة العامة بتونس تحت رقم: 19278 في

---

(1) للتوسع حول مؤلفات الإمام الأسمر ومصيرها وظروف فقدها، ينظر: موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21 هـ ـ 644 م إلى سنة 1421 هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ج1، ص378 وما بعدها.

170 ورقة (مناجاة وابتهالات وأمداح نبوية)، ونسخة من «نصيحة المريدين للجماعة المنتسبين» بالمكتبة الوطنية بتونس، تحت رقم: 9219 بدايتها: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: هذه وصية ونصيحة للقراء المنتسبين المتعطفة قلوبهم إلينا» انتسخت بتاريخ 1290هـ 1873م، وكان قد حبس هذه النسخة محمد الهادي باشا على المكتبة العبدلية بالجامع الأعظم جامع الزيتونة بتونس سنة: 1320 هـ 1902م[1].

تراث الإمام الأسمر المخطوط في مكتبات المغرب والعالم

ولعله شاع عن الكثير من الباحثين وجود هذه النصوص المخطوطة في المكتبة التونسية، لكنني سأضيف هنا جديدًا في تراث الإمام الأسمر المخطوط، وأقصد الموجود بالمكتبات المغربية ومكتبات العالم، وهي عناوين على سبيل المثال لا الحصر، قصد فتح شهية الباحثين للتنقيب أكثر عن نصوصه وتراثه المتواجدة في مكتبات وخزائن العالم:

- المكتبة الوطنية بالرباط:

- «وظيفة الشيخ الأسمر» رقمها بالخزانة المذكورة 45ج، ضمن مجموع.
- تقييد في المغيبات تحت رقم: 2415د، ضمن مجموع من الصفحة 162 إلى الصفحة 167.
- نصيحة المريدين للجماعة العروسيين رقم: 2415د، ضمن مجموع من الصفحة: 100 إلى الصفحة: 161.
- الوصية الصغرى له تحت رقم: 2415د، ضمن مجموع من الصفحة 168 إلى 202.

ويجب أن أذكر أنه رغم غياب اسم عبد الإمام الأسمر عن بعض المكتبات التراثية في العالم بشكل صريح، فإن تراثه حاضر بكثرة في إطار المجهول أحيانًا، وفي نسبة الكتب إلى أعلام آخرين في أحايين أخرى، على نحو دس لفائف ليستْ له في بعض كتبه، ومن ذلك:

(1) ينظر: نصيحة المريدين «الفهرس العام للمخطوطات»، الجزء العاشر القسم الأول، المكتبة الوطنية، منشورات وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس، 2010م.

• نسختين من وصايا عبد السلام الأسمر في الخزانة الحسنية بالرباط باسم مجهول؛ هما الوصية رقم المخطوط: 13541، والوصية رقم: 4266 والوصية رقم: 11325.

• رسالة في العقيدة لمؤلف مجهول بالخزانة نفسها تحت رقم: 12629، يرجح كثيرًا أنها رسالته المختصرة في العقيدة.

• تقييد في التصوف تحت رقم: 1177د، بالخزانة الوطنية بالمملكة المغربية، يرجح أنه له.

• نسخة من جامعة برنستون، صورها مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية موسومة «الوصية» رقمها ضمن مصورات المكتبة الأردنية المذكورة: 1149، يرجح أنها «الوصية الكبرى».

• نسخة من «الأوراد السبعة» بمكتبة مما حيدرة بمالي لشخص اسمه عبد السلام تحت رقم: 2882[1]، يرجح أنه عبد السلام الأسمر.

ولعل هذا الأمر يفرض علينا أن نبوح أنه لا مناص من عمل فيلولوجي لافت للنظر بهذا الخصوص هو البحث عن التراث الأسمري من خلال ما يسمى في الفيلولوجيا بالنقد الداخلي، وهو منهج إجرائي يتخذ فيها الباحث مجموعة من العناصر الداخلية في النص وسيلة لتأكيد نسبة النصوص الأخرى المجهولة المؤلف من مثل: الأسلوب وطريقة الكتابة والوزن والتركيب والمعجم...

ومن مظاهر علاقات النصوص المخطوطة عند الإمام الأسمر تمظهرات توجيهاته وأفكاره لدى طلبته ومريديه، ومن تلامذته الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب الرعيني الذي ملأ الدنيا وشغل الناس بتآليفه في الفقه المالكي، وتوجد نسخ كثيرة مخطوطة من تراثه في خزائن العالم، ومن ذلك ما يوجد بالخزانة العلمية بالمسجد الأعظم بتازة، منها نسخ من «مواهب الجليل..» تحت رقم: 287 ورقم: 380، وما يوجد بالخزانة الحسنية بالرباط، منها نسخ من كتاب: «تحرير الكلام في مسائل الالتزام»، وفيها ثلاث وعشرون نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط، منها النسخة رقم: 1439، والنسخة رقم: 3294، والنسخة رقم: 3337، والنسخة رقم: 3691،

(1) فهرس مخطوطات مكتبة مما حيدرة للمخطوطات والوثائق، ج3، إعداد مما حيدرة، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، 2000م.

والنسخة رقم: 3753، والنسخة رقم: 11698، والنسخة رقم: 13403، والنسخة رقم: 13797، والنسخة رقم: 14145، وكتاب: «تحرير المقالة في شرح رجز ابن غازي في نظائر الرسالة»، وتوجد منه بالخزانة الحسنية بالرباط ثلاث عشرة نسخة منها النسخة 1579، والنسخة رقم: 4274، والنسخة رقم: 5389، والنسخة رقم: 5731، والنسخة رقم: 5818، والنسخة رقم: 12621، والنسخة رقم: 13104، وكتاب: «تفريج القلوب بالخصال المكفرة لما تقدم وما تأخر من الذنوب»، وتوجد منها بالخزانة المذكورة نسختان؛ هي النسخة: 5692، والنسخة 13875، وكتاب: «شرح مناسك خليل»، وتوجد منه النسخة: 1623، وكتاب «عمدة الراوين في بيان أحكام الطواعين»، وتوجد منه ثلاث نسخ هي النسخة 5281، والنسخة 8344، والنسخة 8886، وكتاب: «قرة العينين بشرح ورقات إمام الحرمين» وتوجد منه إحدى عشرة نسخة بالخزانة المذكورة، منها النسخة رقم: 984، والنسخة رقم: 1674، والنسخة رقم: 5100 مكرر، والنسخة: 13314، والنسخة 13452، وكتاب: «مواهب الجليل في شرح مختصر خليل» وتوجد منه ثمانون نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط منها النسخة 945، والنسخة 950، والنسخة 4728، والنسخة 10696، والنسخة 10703، والنسخة 10705، والنسخة 10710، والنسخة 10800، والنسخة 10806، والنسخة 10814، والنسخة 12742، ولا أعتقد أن ثمة خزانة تراثية تخلو من هذا الكتاب، وهو يمثل صورة انتشار التراث الإسلامي بشكل لافت للنظر.

وتمتد العلاقات النصية من الشيخ إلى تلميذه إلى قارئ تلميذه من الأصل إلى الفرع، فنجد «مختصر كتاب الحطاب في أحكام الطاعون» لمؤلف مجهول بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم: 13796، وكتاب: «زبدة الأوطاب وشفاء العليل في اختصار شرح الحطاب» لمختصر خليل لمحمد بن أحمد بن محمد ميارة الفاسي منه النسختان 6917 و 11218 وهذا.. يؤكد كلامنا السابق من تواشج العلائق النصية من الأصول إلى الفروع. واستمرار التراث الأسمري من خلال استمرار تراثه الخاص وتراث طلبته ممن حملوا علمه واعتقاده وتوجهاته ورؤيته.

ومن تلامذته أبوالنجا سالم بن محمد بن محمد السنهوري ت1015هـ، ومن مؤلفاته: «تيسير الملك الجليل لجمع الشروح»، وحواشي خليل توجد منها إحدى عشرة نسخة بالخزانة الحسنية منها النسخة رقم: 8423، والنسخة رقم: 8424، والنسخة رقم:

8432، والنسخة رقم: 11229، والنسخة رقم: 13783، وتنحدر السلسلة أيضًا لتصل إلى قراء تلاميذه في إطار حلقة نصية متماسكة، فنجد مثلًا حاشية على شرحي السنهوري واللقاني على مختصر خليل لأبي يعقوب يوسف القيسي، وتوجد منه إحدى عشرة نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط منها النسخة 4362، والنسخة 5360، والنسخة 13207، والنسخة 13375.

وهكذا يتبين لنا بالملموس أن القطب الكبير الإمام الأسمر ينتشر من خلال تراثه الخاص الموجود في كل خزائن العالم، ويختفي أحيانًا تحت اسم المجهول، وليس بدعًا أن يختفي القطب الكبير والعلامة المجدد النحرير تحت اسم المجهول، إذا علمنا أن كثيرين من الأولياء والصالحين كانوا يخفون أسماءهم من النساخة والتأليف احتسابًا لله تبارك وتعالى، فكان الإمام الأسمر أكبر من أن يعبأ بأمر من أمور الدنيا ووجاهة في الأرض، فكان يغدق بنصائحه لمريديه في مشارق الأرض ومغاربها خالصة لله تعالى، كما ينتشر من خلال تلامذته ومريديه الذين تفردوا وتميزوا في كثير من الحقول العلمية على نحو مجال الفقه الذي تبرز فيه الشيخ الحطاب، وهو أحد تلامذته.

النص الأسمري من المخطوط إلى المطبوع

أقصد كيف انتقل التراث الأسمري من المادة التراثية المخطوطة إلى أعمال مطبوعة بشكل من الأشكال، وهذا الأمر يشكل حلقة مفقودة في تراثنا العربي الإسلامي، وعقدة حقيقية لمن يهتم بتحقيق التراث، ونحن بناء على ملاحظتنا لعينة من الكتب الأسمرية المطبوعة، نسجل بخصوص انتقال النص الأسمري من المخطوط إلى المطبوع ما يلي:

إن أغلب التراث الأسمري قد أخذ طريقه في الطبع مسالكَ وألوانًا؛ فطبعت مجموعة من تراثه الشعري مبكرًا في كتاب حمل اسم «سفينة البحور من كلام عبد السلام الأسمر وأتباعه رضي الله عنهم أجمعين»، جاء في أولها: «الحمد لله المنفرد بالعظمة والجلال، والمعطي لأوليائه درجة الكمال، وبعد عدة قصائد في المديح من كلام سيدي عبد السلام بن الأسمر الفصيح، ومن كلام أتباعه رضي الله عنهم أجمعين، وهي من المسماة بالعرف بالبحور الراقية فجمعها الناسخ اللبيب حفظه الله بحالها»[1]، وطبع كتابه:

(1) سفينة البحور من كلام عبد السلام الأسمر وأتباعه رضي الله عنهم أجمعين، منشورات مطبعة دار الكتب للطلبة والطالبات، طرابلس، 1955م، ص3.

«الوصية الكبرى» سنة 1396هـ 1976، جاء في أولها: «وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، قال الشيخ الفقيه الإمام العالم العلامة المدرس الفهامة، فريد دهره، وشيخ أهل عصره، غوث أهل زمانه وسيد أقرانه ذو الأحوال الربانية الأستاذ الفاضل، التقي العدل، الوفي الكامل، الولي النابه، الفاهم بجميع النوازل، البدر اللايح والزهر الفايح والنور الساطع والسيف القاطع والنجم الثاقب والسهم الصائب، والقمر الزاهر والدر الفاخر، والحبيب الطاهر والغوث الصالح والفرس الناجح، والقدوة المربي الصوفي الرباني البوراوي منهجة وشرعة، المالكي مذهبًا، الأشعري اعتقادًا، العروسي طريقة، صاحب القدر العظيم والصدر السليم سيدي عبد السلام بن سليم بن محمد بن سالم بن محمد بن حميد بن عمران بن محيا بن سليمان بن سالم بن خليفة بن نبيل السعيدي المغربي المخزومي القريشي صاحب السر والأنوار قاطع جيوش الفجار، المشهور بأبي مرزوق الصادق الصدوق مدينة العلم والأحكام النور الأزهر المشهور بالأسمر الفيتوري المتصرف في البر والبحر، اللهم اكسنا أنواره واسقنا خموره»[1]، وطبع كتابه: «الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية المسماة بالطريقة العروسية الشاذلية» على الشيخ صالح الجعفري سنة 1384هـ-1964م، جاء في أولها: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد خاتم النبيين، وبعد: فيقول العبد الفقير لله تعالى عبد السلام بن سليم الفيتوري الطرابلسي ختم الله له بالشهادة، وجعل له السعادة، آمين: نور الله قلبي وقلوبكم أيها المريدين، استخرت الله ﷻ أن أذكر سندي المتصل إلى خير البرية الحالي بالتعلق بالرجال إلى أن ينتهي إلى الهاشمي سيدنا محمد مولى الإكمال والجمال المبعوث بالرسالة ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين والتابعين وتابع التابعين بإحسان إلى يوم الدين. وأن أذكر هنا ما يسر الله جمعه رسالة لطيفة سميتها الأنوار السنية في سندي للطريقة العروسية، وفي التحدث بالنعم التي أنعم الله بها علي. فأقول بعد انتهائي من حفظ القرآن، ومعرفة ما يصلح بي من أمر ديني توجه بي عمي أحمد الفيتوري ﵀ إلى الشيخ الكبير الشهير بالولي الصالح الإمام القدوة أبي محمد عبد الواحد بن محمد الدوكالي الزعفراني دارًا وقبرًا بمسلاتة من عمل طرابلس الغرب ففرح بي فرحًا عظيمًا، وقال مرحبًا بأبي العباس، وابن أخي عبد السلام بن سليم، وذكر

(1) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص3.

نسبي إلى النبي ﷺ من أبي وأمي، ولقنني الذكر، وأذن لي في الصحبة والنسبة إليه، والتزمني حتى قال اعتمادًا على فضل بعد اعتذاره بالتقصير، وكان من الخائفين الله كثيرًا وألبسني الخرقة وقلنسوة من قلنسواته ومرقعة من مرقعاته، وأمرني بالمكث فخدمته فمكثت عنده سبع سنين مجدًّا في خدمته، إلى أن فتح الله علي بمنه وكرمه على يديه، وهو أستاذي ووسيلتي إلى ربي، وعنه أخذت، ومنه انتفعت. والحال أن كل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن كاللقيط لا أب له ولا داع ينتسب إليه، فإن لم يكن له نور فالغالب له غلبة الحال، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه لم ترضه سياسة التأديب والتهذيب، والعجب مما رأيت من بعض الجهلة يزعمون أنهم فقراء، فإذا رأوا أحدًا يريد الانتساب إلى شيخ معين من شيوخ العصر يمنعونه منه، ويقولون له بجهله: أنت يا فلان لا تحتاج إلى شيخ، فنحن نكفل عنه، فإن طريقتنا لا تحتاج إلى شيخ، بل إذا اجتمع ثلاثة منا ولقنوك الذكر اكتفيت لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

وصدرت رسائل الإمام الأسمر بناء على منطلقات مادية مخطوطة تعقبها المحقق د. مصطفى عمران رابعة بكثير من التحري، حيث كانت أرضية الرسالة الأولى الصيغة المخطوطة من روضة الأزهار لكريم الدين البرموني من خلال نسختين: نسخة خاصة من مكتبة آل أبو زبيدة بزليتن، ونسخة مركز دراسة جهاد الليبيين بطرابلس تحت رقم 221[2]، وكانت أرضية الرسالة الثانية الموجهة إلى سعيد بن عبد الحميد الغدامسي نسخة آل أبي زبيدة بزليتن (الأصل)، ونسخة مركز دراسة جهاد الليبيين بطرابلس(النسخة ج)[3]، وكانت أرضية الرسالة الثالثة الموجهة إلى محمد بن عبد الكريم الشاذلي نسخة آل أبي زبيدة بزليتن (الأصل)، ونسخة مركز دراسة جهاد الليبيين بطرابلس (النسخة: ج)، وكان منطلق الرسالة الرابعة الموجهة إلى راشد بن يحيى المحجوبي المقرحي نسخة آل أبي زبيدة بزليتن (الأصل)، ونسخة مركز دراسة جهاد الليبيين بطرابلس(النسخة: ج)[4]، وكانت أرضية الرسالة الخامسة الموجهة إلى عبد الحميد بن علي العوسجي نسخة

(1) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص3 وما بعدها.

(2) رسائل الأسمر عبد السلام بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني إلى مريديه، جمع وتحقيق ودراسة مصطفى عمران رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص125.

(3) نفس المصدر، ص129.

(4) نفس المصدر، ص139.

آل أبو زبيدة بزليتن(الأصل)، ونسخة مركز دراسة جهاد الليبيين بطرابلس(النسخة ج) ونسخة ثالثة مخطوطة بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 19492 (النسخة ت)[1]. وهكذا توالت الإشارة عند المحقق لعدد من المصادر المخطوطة التي شكلت أرضيته على نحو نسخة آل أبي زبيدة بزليتن، ونسخة مركز دراسة جهاد الليبيين بطرابلس، ونسخة مخطوطة بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم: 19492.

وهكذا يظهر لنا أن أغلب المادة الأسمرية المخطوطة قد سلكت طريقها إلى الطبع بطرق مختلفة، وأفاد منها الناس، وهذا أمر إيجابي يؤكد حركية نصوص الإمام الأسمر، إلا أننا نسجل ملاحظتين اثنتين بهذا الخصوص: الملاحظة الأولى: أن هذه الطبعات في أغلبها قديمة، وفي حاجة إلى إعادة الطبع بكميات كبيرة، وفي صورة جيدة تليق بمقام الإمام الأسمر، والملاحظة الثانية: أن أغلب الأعمال صدرت بإشراف هيئة ناشرة بدون تحقيق جيد، ولا تكتمل الطبعات المذكورة آنفًا إلا بتحقيق جيد، ونحن عمليًّا لن نتحدث عن التحقيق إلا بعد إيجاد الأرضية المادية للكتاب، ولا تتشكل الأرضية المادية إلا بعدد من النسخ يتيح لنا أن نصنع الشجرة **Stemma**.

وبناء على ذلك، فإن مسألة تحقيق التراث الأسمري مسألة مثيرة وجديرة بالمعالجة، فنحن في واقع الأمر محتاجون إلى باحثين مقتدرين يمكن أن يخوضوا عباب هذا التراث، وأن يصنعوا له شجرات مناسبة لكل كتاب من كتبه من خلال وعاء مادي من النسخ الكثيرة المنتشرة في مكتبات العالم كلها، ويحققوه انطلاقًا من أقصى عدد من النسخ. وسيكون ذلك عمليًّا وناجعًا إذا حصل من خلال توجهات مؤسسات علمية كبيرة وعلى أيدي علماء كبار.

تلقي النصوص الأسمرية

لم تكن النصوص الأسمرية أرضًا مواتًا، تعاورت عليها رياح الحدثان، فنسجتها رمال النسيان، بل كانت كتاباتٍ مباركةً تلقاها الناس بقبول حسن، فاستوعبوها، وعملوا بها، ونقلوها هم بدورهم إلى طلبتهم ومريديهم، والتلقي ها هنا قسمان: تلقٍّ صامتٌ يظهر لنا من خلال المريدين والأتباع الذين كانوا يتفاعلون بشكل إيجابي مع أفكار الإمام الأسمر، وخاصة في زمن الانتشار، كما عبر عن ذلك د. أسامة بن هامل، ولكن، لسبب أو لآخر، حصروا تفاعلهم في النقل الشفهي أو التعليمي لأتباعهم، وتلقٍّ تدوينيٌّ ناطق،

(1) نفس المصدر، ص149.

ويتعلق الأمر بما فعله صفوةٌ من المريدين أو الأتباع أو المناصرين ممن حملهم إعجابهم وعشقهم للمدرسة الأسمرية وعلمها الإمام الأسمر على التدوين، فكتبوا عنه مؤلفات كثيرة، وتقريظات، وتلخيصات، وأذكر من هذه الأعمال:

- «روضة الأزهار ومنية السادة الأبرار» للشيخ كريم الدين البرموني.
- «النور النائر» للشيخ سالم السنهوري.
- «على هامش حياة سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري» للشيخ محمد بن إسحاق المليجي الإسكندري.
- «القطب الأنور عبد السلام الأسمر» للشيخ أحمد القطعاني.
- «رسائل الأسمر إلى مريديه» للشيخ مصطفى عمران.
- «قُفَّة الصُّلاح قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري الإمام سيدي عبد السلام الأسمر، وشخصيات ليبية أخرى» للشيخ أسامة بن هامل.

وغير هذا كثير مما يعز علينا حصره في هذا المقام، وكتبت بخصوص الشروح، والتعليقات، والترجمات، وشروح الشروح، ونكت التعليقات، وطرائف الترجمات. وهكذا انتشرت الروح الأسمرية في التراث العربي الإسلامي. يقول د. مصطفى رابعة عن تلقيه رسائل الأسمر: «وأما عن النسخ المخطوطة لهذه الرسائل فإن مصدرها الوحيد والفريد هو كتابا البرموني «روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب صاحب الطار سيدي عبد السلام الأسمر» و«الديوان في مناقب نجل سليم بن عمران»، ويُعدُّ هذا من ضمن المؤلفات المفقودة، وعسى الأيام أن تجود به كما جادت بغيره»[1] وتدخل في انتساخ التراث الأسمري نساخ من بلدان مختلفة، إذ يقول د. ابن رابعة عن نسخة آل أبي زبيدة من رسائل الأسمر: إن ناسخها هو: «محمد بن محمد بن علي بن أحمد الحملاوي الجزائري المؤدب بمقام سيدي أبي لبابة»،[2] وناسخ نسخة مركز دراسة جهاد الليبيين بطرابلس هو: «محمد بن عبد السلام بن محمد بن عبد الدائم الإزدوي نسابًا البراهمي دارًا»[3]، ويشير وقف ختمية مخطوط عبد السلام الأسمر إلى أن عملية التحبيس أنجزها رجل اسمه أحمد بن عبيدة تيمور بمصر سنة 1331هـ[4].

---

(1) نفس المصدر، ص5.
(2) نفس المصدر، ص 6.
(3) نفس المصدر، ص 7.
(4) ديوان عبد السلام الأسمر، نسخة دار الكتب القومية، القاهرة، رقم 275 شعر تيمور.

وفيما يخص تلقي المكونات اللغوية والأسلوبية في «الوصية الكبرى» يقول د. أحمد قاسم كسار: «وصل علمه وطريقته في الدعوة إلى أنحاء العالم أجمع وتأثر بفكره الكثيرون من أندونيسيا إلى تركيا وسوريا وصولًا إلى مصر وتونس وغرب أفريقيا خاصة تمبكتو بمالي، وإلى المغرب الأقصى، وله مخطوطات في مختلف الجامعات العالمية وكبرى المكتبات، ومن بينها مكتبة الكونغرس بواشنطن»[1] ويعمق د. كسار النظر في البناء الأسلوبي للغة الوصايا، فيقول: «وقد امتازت وصايا الشيخ بسهولة العبارة، وعمق المعنى، فهي مناجاة أخوية بأسلوب خطابي ووعظي مؤثر جاء في قوالب أسلوبية ذات خصائص يمكن تحديد معالمها بالآتي:

- وضوح الألفاظ.
- قصر الجمل.
- الإقناع بترتيب الأفكار وتفصيلها وبيان أسبابها.
- ائتلاف اللفظ والمعنى، ائتلاف الألفاظ مع بعضها، ائتلاف المعاني.
- التدرج وحسن الانتقال بين الموضوعات.
- استخدام الأوامر والنواهي مع التعليل أحيانًا لكل طلب، ويشبه التعليل أحيانًا بما يسمى بـ(الاحتجاج اللغوي).
- الوصية جامعة مانعة لخيري الدنيا والآخرة»[2].

وبالنسبة للشواهد التي كان يرجع إليها الإمام الأسمر في الوصية الكبرى فهي حسب د. كسار، القرآن الكريم، والسنة النبوية، والشعر العربي، وهي الركائز الأساسية لدى المجتهدين والمفسرين والعلماء المفتين. وعن صوره يقول د. كسار: «لقد اعتمد الشيخ على الإقناع العقلي، لكنه لم يعدم الاستعانة بالصور الخيالية لتلطيف الجو إن صح التعبير، ولتقريب الصور، فمن ذلك ما يأتي:

1 – قوله: إخواني، فمجالسة أهل الإنكار وأهل الجهالة تذهب الأنوار كما تذهب الشمس الجليد. وفيها كما لا يخفى تشبيه، وهو تشبيه بليغ حذف منه وجه الشبه.

---

(1) القضايا اللغوية والأسلوبية في الوصية الكبرى للشيخ عبد السلام الأسمر، أحمد قاسم كسار، مجلة الجامعة الأسمرية المجلد 11 يونيو 2009م ص412.

(2) نفس المصدر، ص438.

2 - في وصيته: «والفقيه العروسي المنسوب إلينا يكون في النظافة مثل الحمام الأبيض» وهذا تشبيه مفصل ذكر فيه وجه الشبه.

3 - حاول توضيح الصورة وتقدير حالة تشبيه في قوله: «والله ثم والله لا يتكبر عليهم أحد إلا وهبط بإذن الله، ولو عبد الله عبادة شيخنا إبراهيم بن أدهم» فالمشبه معروف الصفة والحال معرفة إجمالية في الصلاح والعلم والتقوى.

4 - في مثل قوله: «وغض البصر سفينة، فمن غض بصره ركب السفينة ونجا من الغرق، ومن لم يغض بصره فقد هلك وغرق في بحر لا ساحل له»، وهنا كناية في اللفظ المطلق، وهو السفينة، وأريد به لازم معناه من النجاة أو الغرق وعلاقتهما بالنظر إلى المحرمات.

5 - القراءة الأولية العامة في الوصية تفصح عن استعمال الحقيقة أكثر من المجاز، وهذا لا شك أنه من متطلبات النصيحة والوصية حتى لا تؤول أو يختلف في معانيها ومقاصدها الدلالية»[1].

ويتعقب د.أسامة بن هامل مسيرة المدرسة الأسمرية وصاحبها الإمام الأسمر، فيراها انتقلت خطوة خطوة من التأسيس إلى الانتشار، ويقول: «ورغم ندرة المعلومات عن المرحلة التأسيسية لحياة الإمام، إلا أن في ثنايا النصوص التي كتبها عنه تلاميذه ما يمكننا من رسم صورة عن محيطه العلمي والصوفي الذي عاش فيه خصوصًا الدور العلمي والثقافي الكبير لأسرته الذي ظل غائبًا، فتلك النصوص تكشف لنا عن وجود مدرسة علمية بمستوى متقدم وعال كانت تقوم عليها أسرته ويترأسها عمه الشيخ أحمد»[2] وهكذا يضع د. ابن هامل اليد على أحد أسباب هذه العبقرية المتفردة، فليست العصا إلا من العصية، إذ إن الأسرة لها اليد الطولى في هذا المجد. وتشتعل الجذوة الأسمرية رويدًا رويدًا حتى تطبق الآفاق، وتكتسح الدنيا بأكملها، ثم يتعقب د. ابن هامل هذه المراحل مرحلة مرحلة، يقول: «وبقراءة لمسيرة الإمام في تأسيس مشروعه الإصلاحي يمكن تقسيم مراحلها إلى الآتي: مرحلة التمهيد والتعريف، وهي المرحلة التي بدأت بزليتن»[3]، وهي مرحلة تميزت بالناظرات والحوارات والتجريب، ثم يذكر الباحث مرحلة التأسيس،

(1) نفس المصدر، ص440.
(2) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص7.
(3) نفس المصدر، ص10.

وهي مرحلة سيتحول فيها معارضوه إلى أتباع له[1]: «ونلاحظ في هذه الفترة أيضًا تغير مضمون أشعار الإمام، فبعد أن كانت في الفترات السابقة تعج بالشكوى من المعارضات والعراقيل التي واجهته، خصوصًا آلام النفي وإبعاده عن وطنه، لا نجد لهذه الشكوى وجودًا في أشعاره في فترة التأسيس»[2] ثم تأتي أخيرًا مرحلة الانتشار، التي يقول فيها د. ابن هامل: «في المرحلة الأخيرة من عمر الإمام يلاحظ توافد عدد من أبرز علماء البلاد، بل من أقطار خارجها ما يؤشر على وصول صدى دعوته إلى العالم الإسلامي»[3].

وكان للإمام الأسمر تأثير سياسي وثقافي وعلمي وأثر في العالم الإسلامي، يقول د. ابن هامل: «لا يحتاج الباحث كثير جهد لرصد أثر الإمام في العالم الإسلامي، فرسائله التي لا يعرف عددها إلا ما وثقه البرموني في روضة الأزهار منها - كافية للدلالة على انتشار فكره وبلوغ دعوته إلى الآفاق»[4]. وهكذا يكون د. أسامة بن هامل قد جسد التلقي الإيجابي بالتدوين في أبهى صورته، من خلال إحاطته الشاملة بهذه المدرسة من تأسيسها إلى انتشارها في ربوع العالم، وهو تفاعل تاريخي إيجابي مع القطب عبد السلام الأسمر، مما أفصح عنه القرن الخامس عشر الهجري، ولدينا اليقين أن تاريخ التلقي لم يتوقف البتة عند د. أسامة بن هامل، بل هو مفتوح على مصراعيه لقراء آخرين كثيرين سيظهرون بالتوازي مع حجم الوثائق والمخطوطات والتقاييد مما ستفصح عنه الخزائن الخاصة والعامة في بقاع العالم وخاصة العالم الإسلامي.

خاتمة:

كانت لنا جولة مع القطب الرباني الإمام عبد السلام الأسمر، الذي جدد الطريقة العروسية، فأصبحت تنسب إليه، وأمسك بعقول المريدين فأصبحوا يصيخون إلى رسائله في مشارق الأرض ومغاربها، ويعملون بتوجيهاته في صغائر الأمور وكبائرها، وهو يتوجه مثلًا إلى أهل سوس بالمغرب الأقصى فينصحهم، ويدعوهم إلى العمل بنصائحه، وكانت جولتنا مركزة بالأساس على العلاقات بين نصوص التراث الأسمري، فنظرنا إلى علائق النصوص المخطوطة ما يسمى بشجرة المخطوطات، وأدرجنا نصوص تلامذته في

(1) نفس المصدر، ص13.
(2) نفس المصدر، ص14.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(4) نفس المصدر، ص28.

شجرته بناء على أن طلبته هم سفراء لفكره، ثم تحدثنا عن ثنائية المخطوط والمطبوع في إطار الطبع في ذاته والتحقيق، وانتهينا إلى هيمنة الطبعات الأولى على التراث الأسمري، وحاجة هذا التراث إلى إعادة الطبع، على نحو حاجة هذا التراث إلى تحقيق فعلي ينطلق من مأثور المخطوطات، وهو السند المادي للتحقيق، على أساس أن التحقيق لا يسمى تحقيقًا إلا إذا تجاوز أربع نسخ ضمن قاعدة الأرضية المادية للتحقيق، وانتقلنا أخيرًا إلى النظر في صورة الإمام الأسمر من خلال الكتابات التي أنجزت عنه، فألفينا أن الكتابات عنه كثيرة ومتنوعة من الدراسات الشاملة على نحو «قفة الصلاح» للشيخ أسامة بن هامل، إلى الأبحاث المتخصصة في عمل من أعماله على نحو «رسائل الأسمر» للشيخ مصطفى بن رابعة، وهي في مجملها ترسم تاريخًا عمليًّا لتلقي مدرسة علمية وتربوية سارت بذكرها الركبان.




قراءة في مخطوط سفينة جمع البحور للشيخ القطب عبد السلام الأسمر الفيتوري

د. محمد البسكري
المعهد العالي للموسيقى بسوسة - تونس

ملخص:

يتناول المقال دراسة مخطوط «سفينة جمع البحور» للإمام عبد السلام الأسمر الفيتوري (1475م - 1573م) الصادر عن مركز الموسيقى العربية والمتوسطية بتونس، والذي عملت على تحقيقه بالتعاون مع الدكتور محمد أنيس الحمادي. ويُعتبَر هذا المخطوط مصدرًا أساسيًّا له من الأهميَّة نصيب بالنظر لضخامة المجموع الشعري الذي يحتويه، والذي يشمل أكثر من مائتي قصيدة صوفية من قصائد الأسمر وعدد من محبِّيه وأتباعه. وقد تم تحقيقها ومقارنتها مع عدد من النصوص الشعرية المتعلقة بالطريقة العروسية، والتي احتوتها مجموعة من الإصدارات والمخطوطات المتضمِّنة لأشعار الإمام، إضافة إلى تفسير معظم المصطلحات الصوفية والعامية الواردة فيه، بما يؤهِّله أن يمثِّل مرجعًا ذا قيمة علمية كبيرة، حيث يكشف عن تعاليم روحية وتربوية نابعة من تجربة الإمام الأسمر الصوفية ووصايا موجَّهة إلى محبِّيه وسالكي طريقته وعامة المسلمين، ويوضح الأشكال التعبيرية لتلك التعاليم بأسلوب مُيسَّر بسيط تكفَّلت بإبلاغه لهجة ميسَّرة سهلة المأخذ، وهي اللهجة التونسية الطرابلسية المستخدمة في عصره.

كلمات مفتاحية:

الأسمر، سفينة، البحور، السلامية، تحقيق، مخطوط، لهجة.

مقدمة:

من الضروري التنويه بهذه الصحوة المعرفية والالتفاتة المحسوبة لعدد من الباحثين والدارسين من المختصين في علوم التاريخ والعلوم الإنسانية والأديان المقارنة إلى الأدبيات الطرقيَّة وعلوم التصوُّف، والأدب المنقبي خلال السنوات الأخيرة. ومن الضروري كذلك الإشادة بالمجهودات التي يبذلها عدد من المحققين والدارسين والناشرين في سعيهم إلى إخراج عدد من المؤلَّفات النثريَّة المتعلِّقة بأدبيَّات كبار المتصوِّفة من ثنايا المخطوطات المركونة في أقبية عدد من المكتبات العامة أو الخاصة إلى عالم النور ليقبل عليها المهتمُّون والدارسون من شتَّى الخلفيَّات الثقافية والحضارية المتباينة.

غير أن المتمعِّن في هذا المشهد المتحرِّك تتبادر إلى ذهنه العديد من الملاحظات المبدئيَّة قادحها التساؤل عن سرِّ غياب المادة الشعريَّة وخاصة منها الملحونة باللهجات المحليَّة عن هذا الحراك، إذ إنَّه على الرغم من غزارة الأشعار المكتوبة التي تكتنزها العديد من المخطوطات أو المتداولة مشافهة على ألسنة المريدين والراجعة في أصلها إلى كبار أقطاب التصوُّف وخاصة في بلاد الغرب الإسلامي، فإنَّ نشرها ضمن دواوين ذات قيمة أكاديمية متسمة بالصرامة العلمية على غرار تلك الأدبيَّات النثرية بات محتشمًا[1]. ولعل ذلك مردُّه إحجام الناشرين عن نشر مثل هذه المادة الشعرية التي لم يبادر المهتمُّون إلى تحقيقها وإخراجها في حلَّة نقيَّة خالية من الشوائب قابلة للتناول والإدراك والدرس والفهم، أو سببه صعوبة فهمها بالنظر إلى خصوصيات لهجاتها المحليَّة الضيِّقة. أو أن ذلك يُعْزَى إلى ما أصابها من علل التحريف والإبدال عند تناقلها من محاملها الشفويَّة.

وقد أثَّرت هذه الملاحظات جميعها في إدراكنا، وأثارت انتباهنا إلى فرادة المادة الشعرية والبلاغية والموسيقية المتاحة لنا في تجاويف مخطوط نادر توارثناه عن أسلافنا،

(1) اقتصر هذا المجهود خلال أواسط القرن العشرين على ما قام بها بعض الناشرين العرب للمحافظة على بعض مواد الشعر الطرقي العربي المغنى باللهجات الدارجة من خلال إصدارات ومؤلفات مثل «سفينة البحور السلامية» و«سفينتي أشعار الطريقتين القادرية والعيساوية» و«سفينة الطريقة التيجانيّة» إلا أن هذه المبادرات لا تزال محدودة بالمقارنة مع حجم الشعر الذي تغنَّى به كبار الأولياء والصالحين. كما أنها تعاني من نقص في شروط الصرامة المعرفية في تقديم النصوص الشعرية وفي الإخراج الذي يشجع الدارس والقارئ على استعراضها والاستفادة منها بشكل أدبي وموسيقي.

يضم عددًا كبيرًا من القصائد الشعرية من تأليف الشيخ «عبد السلام الأسمر» وبعض مريديه، وسمه كاتبه بعنوان: «سفينة جمع البحور». وقد دُفنت بين صفحاته مجموعة من الكنوز الشعرية قررنا تحقيقها وفقًا للضوابط العلميَّة. ورأينا أنَّ هذا العمل المتواضع يُمكن أن يمثل إضافة قيِّمة إلى الجهود المبذولة في الحفاظ على تراثنا الموسيقي والشعري الغني بلهجتنا المحلية المشتركة منذ قرون خلت، وكانت منتشرة عبر منطقة شاسعة من مغربنا. كما قد يمثل مساهمة في تقدير هذا التراث وإبراز بدائعه للقرَّاء والمهتمين بهذا النوع من الأشعار. وأن ينتشله من براثن النسيان والاحتكار الخاص.

في إطار بحثنا هذا، سنتجاوز الترجمة للإمام الأسمر وسيرته وأحواله لكثرة المصادر والمراجع والبحوث التي أفاضت في هذا الجانب، وسنركز في حديثنا على مضمون هذا المؤلَّف، بتوضيح منهجنا في تحقيقه ونشره، كما سنُومِئُ إلى أغراض القصائد وأساليبها، مشيرين في الآن ذاته إلى أهميَّته العلمية والثقافية مصدرًا من مصادر أدبيات هذه الطريقة العروسية.

الإمام عبد السلام الأسمر[1]:

الإمام الأسمر، علم صوفي قلما نجد كتابًا في الثقافة الصوفية الليبية لم يعرف به، أو يمر على ذكره، لأثره الواسع في التاريخ الصوفي، وهو شريف النسب إذ يتصل من جهة أبويه بالأرومة النبوية الشريفة، وأجداده هم السادة الفواتير الأشراف المنتشرين بليبيا وخارجها. ولد عام 880هـ وتوفي عام 981هـ، تلقى تعليمه الأولى على يد والدته السيدة سليمة الدرعية وعمه الشيخ أحمد الفيتوري، قبل أن ينتقل للدراسة على يد أستاذه الأكبر الشيخ عبد الواحد الدوكالي الذي لزمه سبع سنوات متصلة، وأخذ عنه مختلف العلوم والتصوف على الطريقة العروسية.

أسس مدرسة في مدينة زليتن الليبية، وأقبل عليه طلاب العلم والسير إلى الله من ليبيا وخارجها، واشتهر في مختلف الأقطار الإسلامية، بل يرى العلامة الشيخ أحمد

(1) للتوسع حول سيرة الإمام الأسمر، ينظر: تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966.
القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1992م.
رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق: محمد بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.

القطعاني أن الطريقة العروسية «لم تشتهر إلا به، وما انتشرت في كامل الشمال الأفريقي خصوصًا والعالم الإسلامي عمومًا إلا على يديه، وينتشر أتباعها بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا والشمال الأفريقي عمومًا، وتُقام بمصر حلقات الذكر في مسجد الإمام الحسين بالقاهرة، وتُسمى هناك بالسلامية، حيث يجتمعون كل خميس لتلاوة أوراد الطريقة، وترديد كلام الشيخ عبد السلام الأسمر»(1).

وترك تراثًا صوفيًّا كبيرًا، بعضه مكتوب في شكل وصايا ورسائل وأحزاب وأوراد وكتب، وأكثره في شعر صوفي اشتهر في معظم البلاد المغاربية، وفي كل الشمال الأفريقي، فـ«على عادة بعض متأخري السادة الصوفية كان الشيخ عبد السلام الأسمر مكثرًا من الشعر الصوفي، وينسب له 700 قصيدة عروضية باللغة العربية الفصحى و400 مقطعة باللسان الدارج و800 على موازين الحسن الششتري، و500 على موازين الجعراني، وعدد لا يعلمه إلا الله من الأشعار الملحونة.

وهي مشهورة بكثرة في كل شمال ووسط أفريقيا إلى الآن، ولعل أطولها المقطعة المسماة: «سلسلة الفروع» التي تشتمل على ما يزيد عن 800 بيت من الشعر، تليها السلسلة الجوهرية أو الجوهرة على اختلاف في التسمية التي تبلغ أبياتها:551 بيتًا من الشعر»(2).

تقديم المخطوط:

1 - مصدر المخطوط:

إن علاقتي بالتراث الشعري الصوفي وخاصة منه المغنَّى، ليس أمرًا جديدًا، بل يمتد إلى عصور سالفة بالنظر إلى انحداري من عائلة تونسيَّة ذات جذور أندلسيَّة عُرفت بشغفها بممارسة الفن الصوفي وفن المديح النبوي، ومحافظتها على إنشاد المدائح الصوفيَّة وخاصة منها مدائح الطريقة العروسية، فعائلتي، عائلة «الزَّعَيِّمْ»، من متساكني مدينة رأس الجبل من ولاية بنزرت التونسية. وهو الأمر الذي يسَّر لي الخوض في غمار هذه التجارب الموسيقية منذ الصغر، وأهَّلني للتخصص في فنون الإنشاد الصوفي. وقد

(1) القطب الأنور، مصدر سابق، ص102.

(2) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ ـ 644م إلى سنة 1421هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ج1، ص 490.

أتاحت لي هذه العلاقة العميقة الفرصة لكشف الحُجب عن الجزء اليسير من كنوز هذا التراث الفني الغنِّي بأشعاره وألحانه، وتعززت هذه الفرصة عند اكتشافي خلال أواخر تسعينيَّات القرن الماضي تحفة فنيَّة فريدة ضمن مخلَّفات جدِّنا للأم «المرحوم أحمد بن عثمان الزعيِّم»[1]، وهي عبارة عن مخطوط منسوخ بخط اليد بمداد بنِّي يُعرف بالصمغ العنبري، يتضمَّن عددًا مهولًا من تلك القصائد التي طالما تغنَّينا ببعضها في حلقات الحضرة الأسمريَّة التي دأبت عائلتنا على تنظيمها أسبوعيًّا. وقد أعلمتنا والدتنا بأن ذلك المخطوط كان قد ورثه والدها المذكور عن والده المرحوم «الشيخ عثمان الزعيِّم» المتوفى خلال ثلاثينيات القرن الماضي، والمعروف بتبحُّره في أداء بحور الطريقة العروسية، حيث إنه كان من كبار أتباع هذه الطريقة، مضيفة وأن هذا المخطوط كان يمثِّل أحد المخطوطات العديدة المحتوية لبحور ومدائح الطريقة السلاميَّة ونوبات العيساويَّة والتيجانية والقادريَّة التي احتوتها مكتبتهم الخاصة، قبل تعرُّضها إلى التلف بعد وفاة والدها.

لم يكن هذا المخطوط الذي نقدِّم له بهذه الكلمات عند حصولنا عليه في حالة جيِّدة، فقد تعرَّض غلافه الجلدي الخارجي إلى التلف، وعانت معظم أوراقه من بعظ التشوُّهات بما أثَّر بعض الشيء على مداده ووضوح أجزاء من مضمونه، إضافة إلى تعرض عدد من أوراقه إلى التلف الكلي والضياع، ممَّا حدا بنا إلى المبادرة بإنقاذه والعمل على إخراج ما احتواه من جواهر النظم أو ما تبقَّى منها إلى عالم النور بالتجائنا إلى مركز الموسيقى العربية والمتوسطية بتونس حتى تتبنى مشروع تحقيقه ونشره.

2 - مواصفات النسخة المعتمدة في التحقيق:

أ- الوصف المادي:

قمنا بالاعتماد على هذه النسخة التي هي على ملكيتنا الخاصة، وتميزت بأبعادها التالية:

قياسات 200 مم في 105 مم، وغلاف مجلد باللون البني، وقد تمت عملية النسخ بالكتابة العربية من اليمين إلى اليسار، ويتضمن المخطوط 279 ورقة مرقمة بانتظام، تم

(1) هو المرحوم أحمد بن عثمان الزعيّم، المتوفى خلال ستينيات القرن العشرين، وأحد مريدي الطريقة العروسية بتونس، من متساكني بلدة «رأس الجبل» من ولاية بنزرت التونسية، وقد روت لنا الوالدة «نعيمة بن أحمد الزعيِّم» أن والدها كان قد ورث ذلك المخطوط عن والده «عثمان الزعيّم»، الذي ينظم حلقات الذكر والإنشاد للحضرة العروسية ليلة كل جمعة، بمسكنه العائلي، إضافة إلى إتقانه أداء بحور الطريقة العروسية.

فيها استخدام الخط المغربي للكتابة، الذي اشتهر باستخدامه في بلدان المغرب العربي. وهذا الخط نشأ مع انتقال الخط الأندلسي إلى المغرب في مرحلة مبكرة، منذ العصر الموحِّدي، وظل يتطور محليًّا[1]، حتى أصبح يعرف بخط المغاربة أو الخط المغربي. ولدى النسَّاخ المغاربة أسلوبهم الخاص في التعامل مع الحروف، حيث لا تتبع كتابة كل حرف قواعد محددة ولا له شكل ثابت، وقد يكتشف القارئ أشكالًا متعددة للحرف الواحد في نفس الصفحة.

ب- كاتب المخطوط وتاريخ كتابته:

لم تتضمن هذه النسخة أية إشارة إلى من تولَّى كتابة محتواه، والأقرب إلى الظن أن هذه المعلومة القيِّمة قد تعرَّضت إلى الضياع من بين الورقات الأولى والأخيرة التي أُتلفت بسبب عوامل الزمن والرطوبة. كما لا تحتوي هذه النُّسخة إشارات واضحة إلى تاريخ كتابتها أيضًا ماعدا ما احتوته الورقة رقم 374 بالمخطوط، والتي تضمَّنت القصيدة التي مطلعها: «يا خالق المخلوقْ اتْلَطَّفْ بِيَّ»[2]، من إشارة إلى ناظمها وهو الشاعر الشعبي التونسي الشيخ «العربي بن أحمد النجَّار»[3]، الذي عاش بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، بما يرجِّح فرضيَّة كتابة هذه النسخة التي نتناولها بالبحث خلال هذه الفترة الزمنية المتقدِّمة.

3 - منهج تحقيق المخطوط:

بناءً على متطلبات علم تحقيق المخطوطات، سعينا جاهدين لفحص المخطوط بدقة وشمولية، بما في ذلك دراسة فيلولوجية للمتن ومضامينه، ودراسة كوديكولوجية

---

(1) الخط العربي، زكي صالح، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983، ص144.

(2) سفينة جمع البحور، تحقيق محمد البسكري ومحمد أنيس الحمادي، تونس، مركز الموسيقى العربية والمتوسطية- النجمة الزهراء، منشورات سوتيميديا، 2023، ط1. ص626.

(3) العربي النجار، هو شاعر تونسي تتفق جميع المراجع التي تناولته بالذكر على أنَّه وُلد سنة 1839م بقرية العالية التابعة لولاية بنزرت، وتوفي سنة 1916م عن عمر ناهز 77 عامًا، ويؤكد الأستاذ رشيد الذوادي بأن العربي النجار كان من مشاهير شعراء الملحون في تونس فيما بين عامي 1870م و1916م، للتوسع ينظر:

مختارات من شعر العربي النجار، محيي الدين خريف، سلسلة أعلام الشعر الشعبي، تونس، الدار التونسية للنشر، 1990، ص7 - 8.

رشيد، الذوادي، أعلام من بنزرت، رشيد الذاودي، تونس، دار المغرب الإسلامي، 1971، ص34 - 42.

للشكل المادي للمخطوط. وكان هدفنا استخراج المعاني الخفية وتوضيح ما كان غامضًا، وفتح الأبواب أمام المفاهيم الضبابية وتفسيرها.

وأثناء هذا العمل، تبنينا مبدأ المحافظة على الكلمات والتراكيب العامية، مع عدم اعتبارها أخطاء، نظرًا لأنها تعكس واقع اللهجة التونسية والطرابلسية في ذلك الزمان. كما ألقينا الضوء على الأخطاء النحوية التي وردت باللغة العربية الفصحى، والتي تؤثر على المعنى العام.

كما كان اهتمامنا منصرفًا أيضًا إلى توضيح المفردات غير الواضحة في النصوص، دون محاولة تغيير العبارات، وأولينا اهتمامًا خاصًّا بشكل النصوص كما تُنطق باللهجة التونسية، باعتمادنا على السمات التي تميز هذه اللهجة، مثل تسكين الحروف الأول والأخير في أغلب الكلمات مع إضافة همزة وصل في البداية.

وفي الختام، قمنا بتوضيح جميع هذه المصطلحات الواردة باللهجة التونسية في الهامش، لتسهيل فهمها لجميع القراء، وكما هو معمول به في أعمال تحقيق النصوص، عمدنا إلى مقارنة ما ورد في نصوص بعض أشعار سفينة جمع البحور بنظيرتها من الأشعار الواردة في المصادر المخطوطة والمراجع المكتوبة.(1)

4 - مصاعب التحقيق:

إن مصاعب تحقيق المخطوطات المكتوبة باللهجة الدارجة تتضمن تحديات متعددة، وتكمن أولى الصعوبات التي واجهناها في الفهم الصحيح للنصوص، حيث تعتمد اللهجة الدارجة على تعبيرات ومفردات محلية غالبًا ما تكون مختلفة عن اللغة العربية الفصحى. وهو ما استدعى منا أن نكون على دراية بهذه الخصوصيَّات الثقافيَّة

---

(1) من تلك المصادر المخطوطة والمطبوعة التي اعتمدنا عليها في تحقيقنا:

مخطوط ديوان سيدي عبد السلام الأسمر الذي كان محفوظًا بالخزانة التيمورية بالقاهرة لصاحبها العلامة المصري أحمد باشا بن إسماعيل بن محمد تيمور، والمحفوظ آنيًّا بدار الكتب والوثائق القومية بمصر تحت رقم ترفيف «275 شعر تيمور»، وسنرمز له في قسم الهوامش بـ تيمور1.

مخطوط ديوان سيدي عبد السلام الأسمر الذي كان بدوره محفوظًا بالخزانة التيمورية بالقاهرة، والمحفوظ حاليًا بدار الكتب والوثائق القومية بمصر تحت رقم ترفيف «901 شعر تيمور»، وسنرمز له في قسم الهوامش بـ تيمور2.

كتاب «سفينة البحور» (طبعة بيروت)، والذي سنرمز له في قسم الهوامش بـ سفينة البحور.

كتاب «الطريقة السلامية في تونس: أشعارها وألحانها» لصاحبه الأستاذ فتحي زغندة، والذي سنرمز له بـ ط. س.

واللهجة المحليَّة لضمان الفهم الدقيق. زد على ذلك وأن هذه اللهجة الدارجة الطرابلسية التي وردت ضمن قصائدنا وعلى الرغم من اشتراكها مع اللهجة التونسية في العديد من المفردات، بقيت مستعصية على فهمنا بسبب انتمائها إلى فترات زمنيّة سابقة لعصرنا كمحققين ممَّا اضطرنا إلى الاستعانة بعدد من أكبر مشايخ الطريقة العروسية بتونس سنًّا[1] ممن عاصروا جيل الثلثين الأخيرين من القرن العشرين لفك رموز ما استشكل من بعض العبارات، وبيان كيفيَّة نطقها وتقريب معانيها.

كما اشتكت هذه النسخة في العديد من أجزائها من رداءة الخط الذي كُتبت به وتعرُّض العديد من جملها وأبياتها إلى التداخل بسبب تدارك الكاتب وإضافة بعض الأبيات أو المفردات، كما تعرَّض عدد من كلماتها وأحرفها إلى الطمس بسبب عوامل الرطوبة، مما اضطرَّنا إلى جهود إضافية للكشف عن كنه ما احتوته.

غير أن هذه الصعوبات التي استدعت منا جهودًا إضافية وصبرًا كبيرًا – لم تُخفِ لذة الإبحار بين أمواج هذه السفينة الفريدة ونحن نغوص في أعماقها غايتنا الكشف عن دفين ما اكتنزته.

5 – أهداف تحقيق المخطوط:

سوف نختصر مجمل الأهداف التي سعينا إلى إدراكها من خلال عمليَّة تحقيقنا لهذا المخطوط ضمن النقاط التالية:

– السعي إلى إظهار طرافته من حيث تميُّزه بغزارة المادة الشعرية وتنوعها وقدرتِها على الكشف عن التجربة الروحيَّة للسالك الصوفي.

– تقريب «المستغرب» من العبارات الصوفية الواردة بالأشعار بما يجعل من النص نصًّا قابلًا للإدراك بعيدًا عن تعقيدات الخطاب الصوفي وتبسيطه.

– فكُّ رموز ما استشكل من لهجات محليَّة.

(1) منذ حصولنا على المخطوط وقبل التقدم به إلى المؤسسة الثقافية المذكورة للحصول على الموافقة على نشره التجأنا إلى عدد من مشايخ الطريقة العروسية في تونس للاستعانة بهم على كشف غوامض عدد من العبارات وكيفيّة نطقها وطرق إنشادها وغنائها، على غرار الشيخ: محمد شقرون شيخ سلاميَّة رأس الجبل بنزرت (مولود سنة 1935م)، وكذلك الشيخ المرحوم: خميس الحسناوي، شيخ سلاميَّة باجة (مولود 1930م)، كذلك الشيخ عْليّة المقدَّم شيخ الطريقة العامريَّة بسيدي عامر ولاية المنستير، وعدد من حفظة بحور الطريقة العروسية ومريدي الطرق الصوفيَّة الأخرى ممن مارسوا هذه الضروب من الفنون واحتكُّوا بشيخ المديح والإنشاد الطرقي الذين برزوا بتونس خلال النصف الأول من القرن العشرين.

- تنزيل النص ضمن سياقه التاريخي والاجتماعي والثقافي، مع الربط بمناسبات القول.

- العمل على تثمين موروثنا الفني «الطُّرُقي» وترسيخه لدى الناشئة والدارسين والمهتمين بمختلف العلوم الإنسانية واللغوية والموسيقية، وتوثيق التراث الصوفي الخاص بالطريقة السلامية، بالإضافة إلى الإسهام في حفظ هذا التراث وتمريره إلى الأجيال القادمة بطرق علمية ومعرفية، تفتح أبواب المبادرات الفرديَّة والجماعيَّة، للكشف عن هذه النفائس من المخطوطات الفريدة التي بقيت في أغلبها ضمن الملكية الخاصة لمتوارثيها.

- السعي إلى أن يُضاف هذا الإصدار إلى قائمة المصادر الأكاديميَّة النثريَّة للطريقة العروسية المُعتمدة كمراجع علميَّة في تدريس سيرة الشيخ عبد السلام الأسمر والأدبيَّات الطرقيَّة والصوفية بصفة أشمل.

قراءة في متن المخطوط وخصائصه اللغوية والأسلوبية:

1 - مضامين الديوان وأغراض قصائده:

احتوى هذا الديوان ما يربو عن المائتي نص شعري[1] اصطلح على تسميته بالقصيدة والبحر، واختلف بين الطول والقصر، فمنه المطوَّلات على غرار القصيدة المسماة «بسلسلة الفزوع» التي فاقت أبياتها الخمسين بعد المائتي بيت شعري، و«فصل بورقيّة» الذي فاق المائة بيت شعري، ومنه بعض القصائد الأخرى التي تجاوزت الأبيات العشرة بقليل ومنه بعض المقطوعات. وتعددت مضامينه وأغراضه بين العشق الإلهي وتمجيد الذات الإلهية وطلب العفو والغفران والتشفع بالرسول الأكرم ومدحه، والتشوق إلى زيارة قبره والبيت الحرام، وإرشاد مريديه وتعليمهم سبل النجاة والطريق القويم

(1) قد تمثل هذه القصائد إضافة للمكتبة العربية والاسلاميّة وللنصوص الشعريّة المنشورة المنتسبة إلى كبار شعراء المتصوِّفة، حيث لم نعثر ضمن الإصدارات التي تناولناها بالبحث على أيِّ مرجع يحمل بين طيَّاته مثل هذا الكم الهائل من أشعار الإمام الأسمر، وكان ما لفت انتباهنا إلى أهميَّة هذا المخطوط، هو غزارة نصوصه الشعريَّة وكثافتها مقارنة بما تضمنته مخطوطات أخرى أمكن لنا الاطلاع عليها من ناحية، ومع ما وقع نشره من قصائد لم تتجاوز مجتمعة ضمن مختلف الإصدارات عدد 214 قصيدة، تطابقت منها 112 قصيدة بين هذه الإصدارات. أي أن مجمل القصائد المنشورة لا يتجاوز عدد 120 قصيدة في أقصى الحالات ضمن جميع الإصدارات مجتمعة، فضلًا على تعرض عدد كبير منها إلى التحريف.

والصبر والجلد وذكر الموت، والشكوى من تسلط أعدائه والدعاء عليهم، والاستغاثة بأكابر الأولياء والصالحين، والتحدث بالنعمة.

وقد تستقل القصيدة أحيانًا بغرض واحد من هذه الأغراض، وقد تحتوي جلَّ تلك الأغراض أو عددًا منها ضمن نص واحد، مع التزام جميعها بالصلاة على الرسول الكريم وطلب شفاعته ضمن خواتيمها مهما تعددت أغراضها.

وإذا أردنا تصنيف هذه القصائد حسب معيار المضمون يمكن إدراج كلِّ مجموعة منها ضمن محاور مستقلة تتحرك في فضاء حقول دلالية مستقلَّة بذاتها أو مشتركة مع غيرها يسندها الغرض الذي قيلت فيه. ويمكننا ضمن نظرة خاطفة الاستشهاد ببعض الأمثلة كما يلي:

ضمن غرض العشق الإلهي والتذلل للذات الإلهية والرضا بأحكام الله، تندرج عدَّة بحور نذكر منها البحر الذي مطلعه «لا حُكْم لِيَّ هذا قْدَرْ عْلِيَّ»[1]. وبحر «يا نْعمَ الرجا جَزْعة يا مَوْلَى الموالِي»[2]، «توسَّلت لله بالعشرة... والأنبياء وأهل الخيرات»، «يا ربِّ يا واحد يا عزِّ يا عالي»[3]، «نسألك يا عالم سريّ... يا عالم بحال العباد»[4].

أما في غرض المدائح النبوية فقد تعددت القصائد في ذكر شمائل الرسول الأكرم وتعداد معجزاته والتشفع به، ومن أمثلة ذلك، بحر «زيدوا الصلاة على سيِّد المخلوق... المصطفى يا سْيادي»[5]، «صلوا على صاحب المعجزات... خير الخلايق شفيع العصاة»[6]، «يا خير الورى... سألتك بالله يا محمد»[7]، «صلُّوا على المختار محمد العربي... يا سعد يا زيَّار من يوصله ويجي»[8].

وفي باب التوسل بالصالحين وتفزيعهم وتحشيدهم وشكوى الظلمة، تتنزل عدَّة بحور على غرار سلسلة الفزوع التي مطلعها: «يا طبيب الأنفاس بالدواء داويني»[9]،

---

(1) سفينة جمع البحور، مصدر سابق، ص322.
(2) نفس المصدر، ص323.
(3) نفس المصدر، ص194.
(4) نفس المصدر، ص200.
(5) نفس المصدر، ص516.
(6) نفس المصدر، ص292.
(7) نفس المصدر، ص510.
(8) نفس المصدر، ص182.
(9) نفس المصدر، ص41.

«يا شاذلي عني لا ترقد... ولا توطِّي عنِّي الراس»[1]، «يا بن عروس علاش اتسالْ... يا بو السراير اتعنَّى»[2]،[3]«أنتم هواكم يبري أنتم هوما ادوايا... أنتم اسبايب طبّي أنتم سبايب دايا»، «قتلني هواكم... من حين كنت رضيع»[4]، «ناديت جمع الأقطاب... أهل التُّقى الأُسُودِ»[5]، «نغرة يا حطَّاب...يا ساكن وسط المدينة»[6]، «يا بن عروس ابّيْ... راني انراجي ما ظهر لي شيْ»[7]، «أنغروا لله نغرة ولا تغيبوا يا الأسياد... افقيركم ميِّت بالقهرة والدمع من عيني بدَّاد»[8].

أما ضمن غرض الشكوى إلى الله من الأعداء والظَّلَمة والدعاء عليهم والشكوى من الزمن، فقليل هي القصائد التي لم تحتو أبيات متضمِّنة لمثل هذه المعاني والمقاصد، وكذلك كانت القصائد والبحور التي انصرفت أغراضها إلى هذه المعاني كثيرة، ونذكر منها بحر «أنا ضعيف الجهدِ... راني من المحان حْزين»[9]، «أنا مجدوب ما نحمل وجيعة... نخش الغيم وأرض الله وسيعة»[10]، «قلبي حاير من أحبابي خلّوني... واجي واتقوَّى وْجايْ»[11]، «ساهر ليلي ونهارْ... في الدجى ما نرقد رمليَّة»[12]، «يا مهوِّن الأمر الحاير... يا مدبِّر أمري»[13]، «باب الله مفتوح... ما لي مع سيدي دْبارة»[14]، «ضاقت خلوقي... كما ضاقت خلوق الناس»[15]، «الحال دوني وهذا الزمان اكدار... غابوا اشقوني شعلت كنيني نار»[16]، «قالولي الاحباب باذكارك مغروم... وعيونك ما بات تكفُّ ادموعها»[17].

---

(1) نفس المصدر، ص79.
(2) نفس المصدر، ص82.
(3) نفس المصدر، ص110.
(4) نفس المصدر، ص115.
(5) نفس المصدر، ص117.
(6) نفس المصدر، ص143.
(7) نفس المصدر، ص148.
(8) نفس المصدر، ص152.
(9) نفس المصدر، ص85.
(10) نفس المصدر، ص90.
(11) نفس المصدر، ص97.
(12) نفس المصدر، ص103.
(13) نفس المصدر، ص114.
(14) نفس المصدر، ص118.
(15) نفس المصدر، ص112.
(16) نفس المصدر، ص114.
(17) نفس المصدر، ص146.

وفي باب التحدث بالنعمة والفخر بمرتبة الولاية وبطريقته العروسية وما وهبه الله **من كرامات** فلم تخلُ أي قصيدة تقريبًا من مثل هذه الإشارات، غير أننا نستشهد في هذا المقام ببعض الأمثلة من البحور التي استوفت القول في هذه المعاني، والتي تتنزل صلبها البحور المعروفة بـ«الشطحات»، ونذكر منها شطحة «نا الشيخ الأسمر بسرِّي ظاهر... أنا أعاطاني بو الأسرار»[1]، «بسم الله الواحد الوحداني... خالق رازق عالم الأسرار»[2]، «نا الشيخ الأسمر فايض بحري... أنا مولى العناية»[3]، «من الغرب للقبلة نشَّاد الوطن وطني نِرزم فيه... سري ظهر في كل بلاد واللي اندهني نا ناتيه»[4]، وبحور على غرار بحر «أوَّل ما نبدا نسمّي بسم الله... بسم الله رب العالمين»[5]، «نَقْطعْ كما السيف المصقول... ماذا انصفِّي مِن مَضْلول»[6]، «نَا شيخ كامل ظاهر بسر عْظِيم... من نسل فاضلٍ نَجلْ الفقير سليم»، «نا اليوم متدرْوِلْ مهمومْ... هايم بْشُرْبِ الكيسانْ»[7].

أما فيما يتعلق بباب النصح والإرشاد والتوجيه: فقد استأثر هذا الغرض بما يقارب نصف القصائد، نستعرض منها بعض الأمثلة على غرار بحر «أولادي ما نخلِّيهم... ولا نتركهم للأعادي»[8]، «يا فقرة بالله واش اغباكم... خنتم عهد الله يا الاخوان»[9]، «يا أولادي عيب عليكم... ما تحاذوشي الأرذال»[10]، «يا فقرة نا دوروا بيَّ... نادوله بالصَّوت عجيبة»[11]، «يا سالم يا سنهوري... بالله سلِّم حالي»[12]، «يا سالم يا بن طاهر... أقصر ملامك عنِّي»[13]، «إيَّاك يا سالم لا تنكر الأذكار... باريك لا تندم أصمت عن الإنكار»[14]،

---

(1) نفس المصدر، ص101.
(2) نفس المصدر، ص87.
(3) نفس المصدر، ص125.
(4) نفس المصدر، ص165.
(5) نفس المصدر، ص173.
(6) نفس المصدر، ص190.
(7) نفس المصدر، ص312.
(8) نفس المصدر، ص124.
(9) نفس المصدر، ص129.
(10) نفس المصدر، ص137.
(11) نفس المصدر، ص526.
(12) نفس المصدر، ص156.
(13) نفس المصدر، ص157.
(14) نفس المصدر، ص161.

«يا راشد يا نجل يحيى يا محجوب... يا صديقي يا حبيب»[1] «يا سيِّد كلِّ سيدْ يا بحر الكمالْ... يا عبد الحمد يا ضيَّ الهلال»[2]، «يا برموني يا مريدي ما تحتار... من فقهة هذا الزمان»[3].

وفيما يتعلَّق بغرض التشوق إلى البيت الحرام «أول ما نبدأ نسمِّي بسم الله... بسم السلطان الكبير»[4]، «يا ماشي للشرق يا ناوي الابعاد... يا مِتعنِّي للسفر»[5]، «والله ولا مركوب... فوق ركاب عجيب»[6]، «بالله يا سادات... قل السلام للشفيع المشفع... هو باهي الصفات»[7]، «والله ولا هجهوج... مطلوق الذرعان عوج عراقيبة... يقفز كما المخلوج»[8]، «بالله يا صلاَّح... بلِّغ سْلامي للتهامي وأصحابه... الكوكب الوضَّاح»[9].

كما اندرجت الكثير من البحور الأخرى ضمن العديد من الأغراض الذي لا يتَّسع مقال القول لتعدادها واستعراضها، على غرار محور الموت الذي تعددت القصائد التي قيلت فيه، ومنها بحر: «إذا استوفيت يا الله ألطف بيَّ»[10]، «شيء إن كتبلي سلطاني يستنّاني»[11]، ومحور الصبر على غرار بحر «الأمر لله الرحمان قولوا لعمران»[12]. وغيرها من البحور التي استعصى حصر أغراضها ضمن غرض محدد بعينه.

وخلاصة القول: تنوعت مواضيع هذه الأشعار ومضامينها، وعالجت في عمقها مفاهيم مثل الاتصال بين الحق والخلق، ومفهوم الوحدة والاتحاد، الربوبية والعبودية، حقيقة الأشياء، الحقيقة المحمدية، والحمد للذات الإلهية. كما حددت بدقة مواصفات المريدين والمحبين وسالكي طريق التصوُّف بصفة عامة، وتضمنت تعاليم متعدِّدة لهذه

(1) نفس المصدر، ص1179.
(2) نفس المصدر، ص191.
(3) نفس المصدر، ص518.
(4) نفس المصدر، ص189.
(5) نفس المصدر، ص510.
(6) نفس المصدر، ص481.
(7) نفس المصدر، ص476.
(8) نفس المصدر، ص479.
(9) نفس المصدر، ص473.
(10) نفس المصدر، ص543.
(11) نفس المصدر، ص629.
(12) نفس المصدر، ص460.

الفئة ولكافة المسلمين في وجود التأدُّب في سلوكهم وسِيَرهم عند خلواتهم مع أنفسهم وفي مجالس المريدين.

2 – بعض الخصائص اللغوية والأسلوبية:

في إطلالة على عدد من المسائل اللغوية والاصطلاحية والأسلوبية التي وردت في قصائد المخطوط، يُلاحظ القارئ أن اللغة المستخدمة لم تكن بالعربية القَحَّة أو العامية الفجَّة المستهجنة، بل كانت لغة متوسطة مازجة بين هاتين الصيغتين. فكانت لغة أشعار الإمام الأسمر حاملة في طيّاتها توجيهات الشيخ بأسلوب مباشر وواضح لنقل وصاياه وتعاليمه الروحية، مع رغبته في تنشئة تلاميذه وأتباعه وتوجيههم على منهجه الصوفي بشكل يناسب قدراتهم العقلية في ذلك الزمان. وكانت هذه اللغة عاكسة بساطة الرسالة التي يريد توجيهها هادفة إلى سهولة الفهم، مما جعلها مقربة ومألوفة للجميع، وخاصة عامة المسلمين والفقراء ومن اتبعوا طريقته العروسية بهدف تسهيل فهم معانيها والاستفادة منها. كما اعتمد الإمام الأسمر في اختيار الألفاظ عنصر البساطة والوضوح والتوجيه المباشر، فحملت هذه القصائد في طياتها ما أراده من ترسيخ وصايا وتعاليم روحية وتربية أخلاقية بشكل يناسب تلاميذه وأتباعه، دون أن يلجأ إلى استخدام العبارات الفلسفية المعقدة.

وكان من مزايا هذه اللهجة المحلية، أن أصبحت تلك الأشعار الصوفية أكثر قربًا من عامة الناس، فاستطاعوا فهمها وعبَّروا عن مشاعرهم بها بكل يسر وسهولة. بما أسهم في تعزيز التواصل بين الشيخ وتلاميذه مهما نأت المسافات الجغرافيَّة والزمنيَّة وبين الصوفيين بشكل عام. فبفضل ذلك التعبير الواضح البسيط، كانت هذه الأشعار قابلة للانتشار بسهولة عبر التراث الشفوي، حيث كانت تنقل من بلد إلى بلد وتنتشر من جيل إلى جيل، مما سهّل نشر هذا النوع من الأدب وضمن استمراريته واستمرار الطريقة الأسمرية في حد ذاتها.

ومن المعلوم أن تلك الأشعار الصوفية المنظومة باللهجة المحلية كانت تتميَّز بقدرتها على استدعاء العواطف والمشاعر بشكل قوي، وكثيرًا ما كانت تعبِّر بشكل مباشر ومؤثِّر عن الحب والولاء والرغبة في التقرب من الله. وكانت أشعارًا قابلة للإنشاد والغناء، بما يسَّر عمليَّة حفظها وانتشارها في الآفاق الرحبة.

ومن المعلوم أيضًا أن الخطاب الشعري المباشر الذي اعتمده الإمام الأسمر يُعَدُّ من الأساليب الأدبية القوية التي تتيح للشاعر التواصل مع القارئ بشكل مباشر وفعَّال ويتميَّز بنقله الأفكار والمشاعر والوصايا والتوجيهات بوضوح وبساطة، دون الحاجة إلى الجمل المعقدة أو الرموز اللفظية المعتادة لدى غيره من غلاة المتصوّفة، مما يتيح للشاعر التعبير عن مشاعره وأفكاره بشكل صريح، ويجعل القارئ مندمجًا مع ذلك الخطاب.

وعموما مثَّلت تلك الأشعار الصوفية المنظومة باللهجة المحلية وسيلة فعالة لنشر التعاليم الأسمرية والوصول إلى قلوب عامة الناس وعقولهم على مستوى واسع، كما ساهمت في تعزيز الوعي الروحي في تلك المجتمعات التي انتشرت فيها طريقتنا في تلك الحقبة الزمنية المتقدِّمة.

على أن أسلوب الإمام الأسمر في قصائده هذه لم يكن خاليًا تمامًا من أساليب الرمز والمجاز لنقل المعاني والمفاهيم بطريقة أعمق، وأظهر في ذلك براعة مزجت بين البساطة اللغوية والعمق الروحي ومنحت قصائده أبعادًا رمزية تتجاوز السطور الظاهرية، فلم تخلُ أشعاره من العبارات والمصطلحات المنبثقة من أعماق الحقول الدلالية الصوفية، ما عكس تشبُّعه بعلوم هذا الفن وتجهيزه بلغة مصطلحية غنية بالمعاني والمفاهيم العميقة. وتظهر وضوحًا تجربته الذوقية الفريدة، التي تحمل في طيَّاتها العديد من الدلالات والأبعاد والرؤى، فتجاوزت لغته الكلمات العادية والدلالات المألوفة نحو مفاهيم وتجريدات عالية. إذ كان بعضها غنيًّا بالمعاني، وبعضها يعمل كرموز وإشارات.

وظهرت هذه الرموز والإشارات في عدد من قصائده بشكل غريب وصادم لأولئك القراء الذين لم يتسلَّحوا بزاد صوفي روحي. كما سيكون لها غموض خاص عندما تنفصل عن قيود السلطة الفقهية البلاغية، وحدود اللغة والدلالة التقليدية، خاصة عند ما ترد ضمن القصائد الموسومة بـ «الشطحات» التي كثيرًا ما أوصى الشيخ الأسمر مريديه بعدم إِسماعها لضعاف العقول وغير المرتوين من مناهل طريقته الربَّانية.

خاتمة:

يعتبر الإمام الأسمر من خلال هذه القراءة أحد أبرز الشعراء الصوفيين الذين تركوا بصمات عميقة في تراث الشعر العربي، فقد تميَّز شعره بأسلوبه الفريد والمفعم بالمعاني الروحية والدينية، مما أهَّله أن يكون مصدرًا مهمًّا لأدبيات الطرق الصوفية. وقد تجسدت

قيمة هذا الشعر في ديوانه الشهير «سفينة جمع البحور»، الذي قد يمثِّل محورًا أساسيًّا لدراسة فلسفته الصوفية وفهم أبعادها ومراميها، وتحملنا هذه السفينة من خلال مضامينها الشعرية التي تجمع بين الجمال اللغوي والمعاني العميقة في رحلة ذوقيَّة روحية عبر عوالم الفكر الصوفي للبحث عن الحقيقة والمعنى الأسمى للحياة، مما يجعل من قراءتها والاطلاع عليها أمرًا ضروريًّا لكل من يسعى لاستكشاف الأبعاد الروحية والدينية لفلسفة الإمام الأسمر خصوصًا والشعر الصوفي عمومًا.

وقد يتيح لنا هذا «الديوان الشعري» بما احتواه من غزارة النصوص فرصة الانفتاح على مباحث أدبيَّة وإنسانيَّة مختلفة. ونحن نسعى أن يمثل هذا العمل مرجعًا هامًّا للباحثين والدارسين في ميدان الأدب الصوفي والتصوف الإسلامي نرجو أن يتم اعتماده كمصدر أكاديمي ضمن المدارس المعتنية بتدريس علوم التصوف.

وختامًا يمكن القول إن مجمل هذه الملاحظات المتعلّقة بمضامين هذه الأشعار وأساليب قولها قد تحيلنا ضرورة إلى الغوص في عديد الإشكاليَّات البحثيَّة، وتفتح لنا آفاقًا أرحب للبحث والتعمُّق قد لا يتَّسع هذا المقام لإيفائها كامل حقوقها، فتثير الكثير من التساؤلات التي من بينها:

- إلى أي مدى ساهمت مضامين هذه الأشعار في معانيها الإنسانية والكونيَّة السَّامية ولغتها السلسة البسيطة في انتشار هذه الطريقة الصوفية في وطننا العربي والأفريقي كاسرة الحدود الجغرافيَّة الضيقة متحدِّية عوامل الاختلاف الثقافي على ما يربو عن القرون الخمس؟ وهل يمكن اعتبار هذه الأشعار ومن ورائها مرجعيَّتها الأصلية وهي الطريقة العروسية عاملًا أساسيًّا من عوامل الترابط الثقافي بين عناصر هذه الثقافات المختلفة؟

- وما هي القيمة العلميَّة والمعرفيَّة التي قد تضيفها مثل هذه السفائن بما تحتويه من مضامين ثريَّة قولًا وأسلوبًا إلى باقي المعارف الإنسانيَّة وإلى أدبيَّات علوم التصوُّف بصفة خاصة؟




عناية المؤرخ التونسي محمد مخلوف بتاريخ الإمام الأسمر وطريقته السلامية العروسية

د. منير بن محمد الطاهر رويس

جامعة الزيتونة - تونس

ملخص:

تُعنى هذه المقالة بدراسة جوانب من سيرة الإمام عبد السلام الأسمر، ووصف كيفية انتشار الزوايا العروسية بالبلاد التونسية في أواسط القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وانعكاس هذا الانتشار على فكر الباحثين في مزيد معرفة هذه الطريقة وأبرز شيوخها، ومن هؤلاء الباحثين المؤرخ التونسي القاضي محمد مخلوف الذي اهتم واعتنى بشكل كبير بالتأريخ لهذه الطريقة الصوفية وأعلامها وأذكارها، علاوة على أنه من شيوخ هذه الطريقة هو نفسه.

كما تبرز المقالة العديد من الشخصيات الصوفية المرتبطة بالطريقة العروسية، من خلال توليهم مشيختها وقيادتها، وتنقلات الطريقة عبر عدة رموز وشخصيات تونسية حتى وصولها إلى الإمام الأسمر وازدهارها على يديه، ومن ثم انتشارها من خلال عشرات الزوايا في مختلف أنحاء البلاد التونسية.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، مخلوف، تونس، ليبيا، العروسية.




الطريقة العروسية وبناء التواصل الثقافي الليبي التونسي

من المهم إبراز جذور العلاقة العريقة التي ربطتها الطريقة العروسية بين القطرين الليبي والتونسي من خلال رجالها، كتقديم لموضوع هذه الورقة، فلم تأت عناية المؤرخ القاضي محمد مخلوف بتاريخ هذه الطريقة من فراغ، بل استنادًا إلى تاريخ طويل بدأ منذ تأسيسها على يد الشيخ أحمد بن عروس في القرن التاسع الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وربما قبل ذلك بفترة وجيزة عندما انتقلت أصول هذه الطريقة من أقصى المشرق الإسلامي إلى تونس على يد الشيخ فتح الله العجمي الخراساني[1]، الذي تتلمذ له فيها العشرات من علمائها، ومنهم تلميذه الأبرز وخليفته الشيخ ابن عروس وأخيه في النسبة الروحية الشيخ علي الطشاني الطرابلسي التاجوري زاوية ومستقرًّا[2].

ويحدثنا الشيخ عمر الجزائري الراشدي تلميذ ابن عروس في كتابه «ابتسام الغروس»[3]، عن استمرار العلاقة بين ابن عروس وتلاميذ الشيخ الطشاني، وتواردت

(1) قال السخاوي: فتح الله العجمي الخراساني نزيل تونس ويسمى أحمد، كان أحد العلماء العارفين، دخل المغرب في سنة تسع عشرة وثمانمائة، فأقام بتونس، وله بها مآثر من زوايا ونحوها بل بجل المغرب، وصارت له جلالة وشهرة حتى مات سنة ثمان وأربعين، ورأيت من أرخه سنة سبع وقد قارب الثمانين، وكان متجملًا كريمًا محلًّا للشارد والوارد، بل ترد عليه الملوك والقضاة وغيرهم مع عدم تردده إليهم، وكثر الآخذون عنه بحيث كانوا طباقًا. بتصرف من: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، محمد السخاوي، دار الجيل، بيروت، 1992م، ج6، ص167. وترجم له الإمام الأسمر باعتباره شيخ الشيخ أحمد بن عروس، فذكر له فضائل كثيرة، ثم قال: «كان يقرأ علم الأصول والفقه والتصوف بمحروسة تونس، وقد تكلم في مسائل من مسائل التوحيد فتعصب عليه علماء أفريقية وأخرجوه من المدينة، فاعتكف عنهم بالجبل، ولا زال به إلى أن مات رضي الله عنه»، ينظر: الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص 86 و87.

(2) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ 644م إلى سنة 1421هـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج1، ص301.

(3) ابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب الشيخ أحمد بن عروس، للشيخ عمر الجزائري الراشدي، يعد من أوائل وأهم المصادر التي كتبت عن ابن عروس وطريقته الصوفية، وطبع عام 1302هـ/ 1885م بمطبعة الدولة التونسية. والراشدي يبدو أنه من كبار رجال الطريقة العروسية، فقد حلّاه الإمام الأسمر بـ«الإمام العلامة»، وأفاد بأن له مؤلفات في عدة علوم غير كتابه «ابتسام الغروس»، =

المراسلات بينهما من تاجوراء بطرابلس إلى تونس، وعلى الأخص الشيخ عبد الكريم النفاتي التاجوري، إذ يشير إلى مكاتبات ومراسلات بينهما[1]، ولأهمية العلاقة ووثاقتها رثى ابن عروس النفاتي عند وفاته بمرثية تبيِّن مكانته[2].

لقد كان ابن عروس بالفعل مؤسس هذه العلاقة الثقافية والفكرية بين القطرين حتى في انتمائه لهما، إذ هو من أسرة تونسية في الصميم ولد في أحضانها ونشأ وتربى ونشط من بعد في نشر طريقته، وهو أيضًا ليبي من جهة أمه السيد سالمة المصراتية، كما يفيدنا الشيخ الراشدي في ابتسام الغروس، أما الإمام الأسمر فيذكر أن اسمها «خميصة ابنة أبي الليث القدسي الطرابلسي»[3] بل ويحتفي بهذه النسبة فيقول عنه: «المعروف بابن الطرابلسية»[4].

وتوالت حلقات التواصل بين البلدين من خلال شخصيات هذه الطريقة، إذ لما تعرض ثالث خلفاء الطريقة الشيخ أحمد أبو تليس القيرواني[5] للتضييق من قبل السلطة

= وكتبه هذه تداولتها الأوساط العلمية في تونس والمغرب، بل وفي ليبيا إذ يفيد بأنه اطلع عليها، فقال: «وعليكم بالاقتداء بالإمام العلامة الجزائري فإنه جيد حنون، وإنه ولي من أولياء الله، وهو من تلامذة شيخنا ابن عروس، وله كتب عديدة في مناقب شيخه، وفي المعقول، وفي علم الحساب، وفي المنطق، وغيرهم رأيناها عند شيخنا أبو رأس ﷺ، وتكررت بين أيدي العلماء، وفيها كلام لم يتكلم به أحد من أهل المشرق ولا من أهل المغرب». ينظر: الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص60. ويبدو أن الراشدي جزائري، ففي تراجم المؤلفين التونسيين أنه دخل تونس عام 757 هـ/ 1356م، وتوفي بها ودفن بزاوية أبو القاسم الزليجي. ينظر: تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1982م، ج2، ص 335.

(1) ابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب الشيخ أحمد بن عروس، عمر الراشدي، مطبعة الدولة التونسية، 1302هـ، ص229.

(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص304.

(3) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص83.

(4) نفس المصدر، ص62.

(5) أحمد عبد الله أبو تليس، ولد بالقيروان في القرن التاسع وبها تفقه على رجال عصره ومصره، وهو ثالث خلفاء الطريقة العروسية، إذ أخذها عن الشيخ أبي راوي الفحل دفين مدينة سوسة بتونس عن الشيخ أحمد بن عروس، ارتحل إلى الأزهر حيث تصدر لتدريس علم الكلام والمنطق والمقالات والفرق، وبعد رجوعه إلى تونس يبدو أن آراءه لم تلق قبولًا من العلماء، فكتبوا فيه شكايات وتهم إلى سلطان تونس الحفصي، فهاجر أبو تليس إلى بني وليد بليبيا، وأقام فيها لمدة سبع سنوات، قبل أن يرجع إلى القيروان ويستقر فيها من جديد إلى أن توفي بها. ويرجع الشيخ القطعاني أنه توفي في حدود سنة 916هـ/ 1510م. وفي بني وليد التقاه الإمام الأسمر، وقد ترك في بني وليد ذرية، كما أقام بها حكمًا توسع ليضم مناطق مجاورة، استمر حكمها في حفدته من بعده، ومنهم علي بو تليس. للمزيد ينظر: الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص76 و77. وموسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، 361 وما بعدها.

الحفصية وعلماء القيروان لجأ الى بني وليد بالقطر الليبي، وأقام بها لمدة سبع سنوات قبل أن يرجع إلى تونس، ولحق به من بعد تلميذه الشيخ فتح الله أبو رأس القيرواني[1].

وحتى في شخصية الشيخ عبد الواحد الدوكالي ما يؤكد التلاقح الفكري والعلمي بين البلدين، إذ إن والده الشيخ محمد الدوكالي وفد من دوكالة بالمغرب على تونس، لكنه «اضطر لتركها إثر نزاع علمي مع الإمام الكبير ابن عرفة على أخذ الأجرة على الصلاة، إذ كان يرى عدم جوازها، ولذا امتنع عن حضور صلاة الجمعة والجماعة، فشنَّع عليه الإمام ابن عرفة»[2]، قبل أن يستقر به المقام في ليبيا ليؤسس فيها مدرسته الدوكالية بمنطقة مسلاتة، وهي المدرسة التي خلفه في مشيختها ابنه الشيخ عبد الواحد، وتخرج فيها الإمام الأسمر[3].

ولاحقًا نرصد عدة محطات رسمت فيها الطريقة العروسية محطات أخرى للتواصل بين القطرين، إذ لما ضُيق على الإمام الأسمر خرج في سياحة طويلة انتهت به إلى جبل زغوان[4]، ذلك الموضع الذي يحمل دلالات روحية وثقافية وصلت البلدين في أكثر من محطة في تاريخ التواصل بينهما.

وفي محطات أخرى نجد أن للإمام الأسمر في فترة ازدهار الطريقة على يديه أتباعًا وتلاميذ في تونس، كما تدل على ذلك الرسالة الشهيرة التي وجهها لهم، وسمى فيها بعضهم، منهم الشيخ محمد بن علي بن رباح، والشيخ سالم بن مبارك، والشيخ ابن عبد الكريم، والشيخ مبارك بن يحيى الحمروني[5]، وإن كنا نعرف للأخير ضريحًا وزاوية في ضواحي قابس، إلا أن لهذه الرسالة الفضل في حفظ أسماء الباقين.

(1) فتح الله بن فتح الله بن المرابط سعيد الجعبري القيرواني، رابع خلفاء الطريقة العروسية، إذ أخذها عن الشيخ أحمد أبو تليس عن الشيخ أبو راوي الفحل عن الشيخ أحمد بن عروس. ولد بالقيروان وبها تفقه قبل أن يرتحل إلى جامع القرويين بفاس لاستكمال تعليمه، وارتحل من ثم إلى الأزهر، ثم رجع إلى القيروان فتولى الإفتاء بها إضافة للتدريس، قبل أن يتعرض لإنكار علماء القيروان، فلحق بشيخه أبو تليس في بني وليد. وفي ليبيا أخذ عنه خامس خلفاء الطريقة العروسية الشيخ عبد الواحد الدوكالي شيخ الإمام الأسمر، وعلى الرغم من علاقته المباشرة بالإمام الأسمر وإفادته منه، إلا أنه ينسب في الطريقة لشيخه الدوكالي. وهاجر أبو رأس في أواخر حياته إلى برنو بالنيجر، وتوفي بها، ويرجح الشيخ القطعاني أن وفاته كانت قبل سنة 970هـ/ 1563م. ينظر: الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص74 وما بعدها. وكذلك موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 364 وما بعدها.

(2) حراس العقيدة، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس/ ط3، 2016م، ص 22

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(4) تنقيح روضة الأزهار، محمد مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م، ص100.

(5) رسائل الإمام الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م، ص253.

ولم تتوقف هذه الاتصالات بين البلدين من خلال الطريقة العروسية، فقد اختار خليفة الإمام الأسمر الشيخ عمر بن حجا قرية الداموس من عمل مدينة المنستير[1] مستقرًّا له، وبها توفي ودفن عام 999هـ[2]، بعد أن تعرضت الزاوية الأسمرية لهجوم على يد يحيى بن يحيى السويدي عام 995هـ/ 1586م[3]، وبعد أقل من مائة عام تجدد التواصل مجددًا على يد الشيخ أبو راوي[4]، أحد أبرز شيوخ الطريقة العروسية من أحفاد الإمام الأسمر، وتلميذه الشيخ علي الفرجاني[5]، إذ نشطا في نشر الطريقة في تونس، فتوفي الأول بجربة عام 1088 هـ/ 1677م وبها ضريحه قائمًا إلى اليوم، وأسس الثاني الزاوية الفرجانية العروسية في قابس التي أصبحت مركز التأثير العروسي لفترة طويلة، وإلى هذه الزاوية ينتسب المؤرخ القاضي ابن مخلوف كما سنبين لاحقًا.

ومثل هذه التنقلات والهجرات والاتصالات لا شك أنها حملت معها أثرًا وتأثيرًا ثقافيًّا وعلميًّا، إذ التصوف من الفواعل الأساسية في التأثير المباشر على المستوى الاجتماعي، بفعل المركزية التي تخلقها أعمال شخصيات التصوف، وتجتذب من حولها الكثير من الأتباع والمريدين، وفي العادة تستدعي تلك الشخصيات مخاوف السلطات كأعمالها البعيدة عن رقابتها ونفوذ سلطتها، كما هو الحال مع الشيخين أبو تليس وتلميذه

(1) الداموس هي منزل النور حاليًا من ولاية المنستير بتونس.

(2) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص248.

(3) ينظر حول واقعة السويدي: تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص232، نقل مخلوف تفاصيل هجوم السويدي على الزاوية من البرموني في «روضة الأزهار» الذي أفاد بأن السويدي دمر الزاوية وقتل علمائها ومنهم شيخ الزاوية عمران نجل الإمام الأسمر، ما اضطر علماء الزاوية إلى الهجرة، ومنهم الشيخ ابن حجا الذي استقر في المنستير وتوفي بها. كما ذكرت حادثة السويدي العديد من المصادر الأخرى. لكن الدراسات الحديثة اختلفت في أسباب وطبيعية ثورة السويدي على العثمانيين، خصوصًا مع مقارنتها مع مآلاتها وممارسات السويدي القمعية ضد الأهالي وحروبه ضدهم. وينقل الباحث أسامة بن هامل نصوص تقارير أجنبية من تقارير لمنظمة فرسان القديس يوحنا تفيد بتقديمها دعمًا للسويدي للثورة على السلطة العثمانية في طرابلس، ويرجح بأن فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يحكمون طرابلس وأخرجوا منها على يد العثمانيين وجدوا في السويدي ضالتهم للرجوع إلى طرابلس، وأن حملته على الزاوية الأسمرية كانت لمكانتها في المجتمع الليبي وأثرها، وأيضًا انتقامًا من دور الزاوية في تعزيز ودعم سلطة العثمانيين أول مجيئهم لطرابلس وطردهم فرسان القديس يوحنا. للتوسع ينظر: قفة الصلاح قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري سيدي عبد السلام الأسمر، وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص42 وما بعدها.

(4) انظر ترجمته في موسوعة القطعاني، نفس المصدر، ج2، ص173.

(5) تنظر ترجمته في نفس المصدر، ج2، 257.

أبو رأس اللذين هاجرا كما أسلفنا من القيروان إلى بني وليد. وإن كانت المصادر لم تفصح عن طبيعة آراء الشيخين التي بسببها هاجرا، إلا الباحث أسامة بن هامل يشير إلى أن أعمالهما في بني وليد تفصح عن مدلول وخلفيات سياسية لتلك الآراء، فقد أنشأ أبو تليس في بني وليد كيانًا سياسيًّا لا تزال معالمه وآثاره قائمة في موقع بالمنطقة يعرف بـ«مدينة ابن تليس»، بالإضافة إلى أن أبو رأس كان على صلة بمشروع سياسي آخر قام في جنوب ليبيا باسم دولة أولاد امحمد الفاسي[1].

وإن كنَّا لا نجد هذا البعد السياسي في قضية الخلاف الذي دار بين الشيخ محمد الدوكالي وابن عرفة، إلا أنه من المهم أن نسجل بأن الدوكالي اختار بعد خروجه من تونس القطر الليبي وتحديدًا في مسلاته القريبة من بني وليد التي استقر فيها أبو تليس وأبو رأس. وفي محطة لاحقة نجد أن الإمام الأسمر اختار جبل سوف الجين المشرف على «مدينة ابن تليس» مكانًا لمنفاه عندما أخرجته السلطة الأسبانية من طرابلس[2].

وفي الاتجاه العكسي لجأ العديد من رموز وقادة الطريقة العروسية بالقطر الليبي إلى تونس، كما حدث مع الشيخ عمر بن حجا الذي جاء إلى المنستير، ولا بد من التذكير إلى ما أشرنا إليه سابقًا من وجود علاقة بين هجوم السويدي على الزاوية الأسمرية الذي كان سببًا في هجرة ابن حجا، ومنظمة فرسان القديس يوحنا التي قدمت دعمًا بالسلاح للسويدي.

ولأسباب سياسية أيضًا لجأ الشيخ علي الفرجاني إلى قابس حيث أنشأ زاويته العروسية، ذات المركزية في الانتشار العروسي في فترات لاحقة من عمر الطريقة، إذ يخبرنا المؤرخ الليبي محمد بن غلبون في كتابه «التذكار» أن الوالي العثماني في طرابلس خليل باشا أخرج الفرجاني من طرابلس وأعمالها بسبب نشاطه وكثرة أتباعه[3].

---

(1) للمزيد من التفاصيل حول مشروعي أبو تليس وأبو رأس السياسي، ينظر: «موسوعة القطعاني: الوجه الآخر للتاريخ الليبي»، أسامة بن هامل، ضمن كتاب الدورة الرابعة للمؤتمر الدولي السنوي للشيخ أحمد القطعاني، منشورات مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، 2022م، 392 وما بعدها.

(2) نفس المصدر، ص 395.

(3) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، محمد بن غلبون، دار المدار الإسلامي، ط1، 2004م، ص253.

الإمام الأسمر وطريقته العروسية

لا بد من المرور ولو بإيجاز بالمحتفى به في مؤتمرنا الدولي هذا، وهو الإمام الأسمر؛ لصلته المباشرة بموضوع الورقة. ورغم الإفاضة التي قدمتها الكثير من المصادر والمراجع والدراسات حول سيرته[1]، إلا أنه من المهم جدًّا الوقوف عند بعض التفاصيل الخاصة بكونه شخصية محورية وأساسية في حياة الطريقة العروسية ومراحلها وفتراتها التاريخية.

ومن بين أهم ما يجب لفت الأنظار إليه، هو توطد العلاقة بين أسرة الإمام الأسمر والطريقة العروسية حتى قبل ولادته، إذ تذكر المصادر أن والده السيد سليم الفيتوري كانت تربطه صداقة بالشيخ ابن عروس، وعندما حل بتونس «أضافه الشيخ ابن عروس في داره بتونس»[2]. ولا بد أن نشير إلى أن زيارة السيد سليم لتونس لم تكن مجرد زيارة وسياحة صوفية، بل اكتنفتها لقاءات وحوارات علمية أيضًا بينه وبين علماء تونس، كما تفيد المصادر[3].

والواقع أننا لم نرصد اتصالات مباشرة بين الإمام الأسمر بالوسط العلمي في تونس، باستثناء أن له رحلة بلغ فيها إلى جبل زغوان وأقام فيه لفترة، غير أن العشرات من

---

(1) مصادر ومراجع تاريخ شخصية الأسمر كثيرة، نذكر البعض منها على سبيل الذكر لا الحصر، وهي:
- الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1964م.
- تنقيح روضة الأزهار، محمد مخلوف، الذي نحن بصدد دراسته.
- على هامش سيرة سيدي عبد السلام الأسمر، إسحاق المليجي، مكتبة النجاح، طرابلس، 1969م.
- القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م.
- مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، منشورات الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، 2021م.
- رسائل الإمام الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.
- الزاوية الأسمرية في سطور، عبد الرحمن جوان، طرابلس، 2022م،
- قفة الصّلاح، قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري الإمام سيدي عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، منشورات مركز العلامة الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023.

(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، جذ، ص306.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

الأسماء والشخصيات العلمية التونسية التي ذكرها في مقطعاته الشعرية تدل على معرفته للوسط العلمي في تونس، إذ استخرج الباحث أسامة بن هامل العديد من الشخصيات العلمية التونسية الفاعلة من قصيدة شعرية للإمام الأسمر تعرف بقصيدة: «الفزوع»، ومن تلك الأسماء الجليزي ومنصور بن جردان وعبد الهادي البسكري[1]، والعالم التونسي محمد الكلاعي صاحب المصنفات الشهيرة[2]، وكلها شخصيات ذات فعل وأثر في تاريخ الفكر التونسي. وأكثر من ذلك أرخ الإمام الأسمر في ذات القصيدة لعدد من البيئات الثقافية والشخصيات التي نشطت فيها، كبلدة «الكاف» عند حديثه عن ضيف الله القصوري وابن حزر الله[3]، ومناطق الوطن القبلي أيضًا كدخلة المعاوين وقليبية[4]، بل ومنطقة القيروان حيث الضواحي النشطة كحي صبرة[5]. وعلى كلٍّ كان الإمام الأسمر متابعًا للحركة العلمية في تونس بشكل عام، ويشير إلى ذلك قوله عند حديثه عن شيخه الدوكالي: «وكانت فتواه تعجب علماء طرابلس وتونس أشد الإعجاب ويعملون بها»[6] وهو قول لا يتأتى له إلا بمتابعة أثر فتوى شيخه في الوسط العلمي التونسي.

ومن أهم الوثائق التي تبرز العلاقة الوطيدة بين القطرين من خلال شخصية الإمام الأسمر، رسالته إلى أتباعه في تونس التي كتبها في شكل نصيحة من نمط النصائح التي درج الصوفيون على إرسالها لأتباعهم[7]، وقد ضَمَّنَهَا عددًا من التوجيهات التي تفيد في الكشف عن الكثير من زوايا العلاقات بين أتباع الطريقة في القطرين. وأول ما تفيده حرص الإمام الأسمر الكبير على متابعة تفاصيل حياة أتباعه في تونس، واستطلاعه لأخبارهم وما يواجهونه من مشكلات ومساهمته في تقديم التصورات والحلول لها.

ومن جانب آخر، فالرسالة تكشف عن مستوى الوعي المتقدم الذي تعيشه مجموعة أتباع الطريقة في تونس، فالقضايا والمسائل المطروحة لم يقدم فيها الإمام نصائحه بشكل مباشر ومبسط، بل قدمها في شكل مسائل علمية ضمنها نقولًا من مصادر وأمهات كتب

(1) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص103.
(2) نفس المصدر، ص106.
(3) نفس المصدر، ص108.
(4) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(5) نفس المصدر، ص109.
(6) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص71.
(7) للاطلاع على الرسالة ينظر: رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص253.

الفكر الإسلامي، كصحيحي البخاري ومسلم وشروحهما كشرح ابن حجر العسقلاني، بل كتبًا متخصصة في علوم الأوبئة والصحة ككتاب «بذل الماعون» لابن حجر وكتاب «القانون» لابن سينا[1]، وسرد أقوالاً فقهية تتجاوز آراء علماء الفقه المالكي المستقر في ليبيا وتونس إلى آراء المذاهب الأخرى، وكل هذا يشعرنا بالمستوى العلمي المتقدم لجماعة المخاطبين من أتباعه، فلم يكونوا مجرد زهاد منقطعين عن الأوساط العلمية، بل لهم القدرة على مناقشة واستيعاب مثل هذه القضايا والمسائل في مظانها من كتب الفكر الإسلامي التي نقل منها الإمام الأسمر.

وإن كنَّا لا نحتاج التأكيد على الشأو العلمي الرفيع للإمام الأسمر التي يؤكدها نص الرسالة من خلال الشروح التي قدمها عن الأوبئة والطواعين وأنواعها وكيفية الوقاية منها ما يعكس معرفته ودرايته بالجانب الصحي والطبي، لكن ما يجب أن ننبه عليه هو حرصه على إشاعة الثقافة الصحية والبيئية وثقافة الغذاء الصحي الواقع من الأمراض.

وتندرج هذه الرسالة كوثيقة هامة من وثائق التاريخ الطبيعي للأوبئة والأمراض، فليس من باب الترف أن يكتب الإمام الأسمر كل هذا الكم من النصائح الطبية، ويعتني بالتشديد على ضرورة الوقاية من الأوبئة والطواعين دون مناسبة، فلا بد وأن مثل هذه الأخطار الصحية كانت تواجه أتباع الطريقة في قطرهم، كما أن وثيقة هامة لسبب آخر يتعلق بما تكشفه لنا عن قيم التسامح والتوادد والتآزر والتكاتف التي يخلقها التصوف بين أتباعه وإن تباعدت أقطارهم ومناطقهم.

كريم الدين البرموني وكتابه «روضة الأزهار»

ويعد الشيخ كريم الدين البرموني من أبرز تلاميذ الإمام الأسمر، وهو عبد الكريم بن محمد ناصر الدين البرموني أصيل مصراتة، ولد سنة 893هـ/ 1487م. تلقى العلوم ببلده وبمصر والحجاز، وبلغ درجة عالية من المعرفة في عدة فنون أهمها الفقه والتصوف. قال عنه المؤرخ أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج ما يلي: «كريم الدين البرموني من شيوخ العصر، أخذ عن ناصر اللقاني وغيره، وله حاشية على مختصر خليل في مجلدين، كان بمكة عام 998هـ»[2]. وقال عنه الشيخ محمد مخلوف في كتابه شجرة النور الزكية

(1) نفس المصدر، ص258.

(2) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، أحمد بابا التنبكتي، تحقيق عبد الحميد الهرامة، دار الكاتب، طرابلس، ط2، 2000م، ص373.

إنه: «الإمام المحدث المسند الراوية الفقيه النبيه صاحب الأحوال السنية وقطب الدائرة العروسية»[1].

لازم البرموني الإمام الأسمر، وأثمرت صحبته له وضع مصنف كتبه بعد وفاته يحمل عنوان: «روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام صاحب الطار»، ويعرف الكتاب أيضًا اختصارًا وشهرة باسم «كتاب البرموني». ويستفاد من نسخه الخطية العديدة أن البرموني فرغ من تأليفه عام 1005هـ، وهو تاريخ متأخر سبع سنوات عن عام وجوده بمكة المكرمة كما ذكر بابا التنبكتي سابقًا، فهل رجع البرموني إلى بلده ليبيا في سنواته الأخيرة وألف فيها كتابه؟

ويشير وجود عدة نسخ خطية من الكتاب موزعة بين ليبيا وتونس والمغرب انتشار الكتاب بين أتباع الطريقة في المغرب العربي[2]، والسؤال الذي يبرز هنا، هو لماذا انتشر هذا الكتاب ولقي القبول دون غيره من كتب مناقب الإمام الأسمر، فالثبت الذي أعده الشيخ أحمد القطعاني عن المؤلفات التي كُتبت في سيرة الإمام الأسمر، يُظهر أن 18 تلميذًا من تلاميذه كتبوا في سيرته، بل منهم من ألف أكثر من كتاب.

ويبدو دمار مكتبة الزاوية الأسمرية في واقعة السويدي التي أشرنا إليها سابقًا كانت أحد أسباب ضياع تلك الأصول من مخطوطات ما كتبه الأمام الأسمر وما كُتب عنه، وهو ما تذكره أيضًا بعض المصادر التاريخية، ولذا بقي واشتهر نص «روضة الأزهار» الذي يبدو من تاريخ فراغ مؤلفه منه أن تصنيفه له جاء بعد حادثة دمار مكتبة الزاوية.

ويضيف الباحث أسامة بن هامل، أسبابًا أخرى زادت من أهمية كتاب «روضة الأزهار»، ومنها أن اعتمد على أصول خطية نجت من حادثة حرق المكتبة «إذ وثق لنا قرابة 11 رسالة وجهها الإمام لأتباعه في مختلف الأقطار»، فاعتبار تأخر البرموني في تأليف كتابه عن حادثة حرق المكتبة فلا بد وأنه اعتمد على نصوصها التي نجت من

---

(1) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد مخلوف، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2003م، ج1، ص406.

(2) يشير محققو رسائل الإمام الأسمر التي استخلصوها من «روضة الأزهار» إلى وجود نسختين بليبيا، الأولى من محفوظات مركز جهاد الليبيين بطرابلس، والثانية من محفوظات أسرة آل أبوزبيدة بزليتن، ولدى مؤسسة الملك عبد العزيز بالدار البيضاء بالمغرب نسخة خطية أخرى. غير أن نسخة مركز جهاد الليبيين هي أقدمها إذ فرغ ناسخها منها عام 1185هـ أي بعد 180 عامًا من انتهاء البرموني من كتابه.

الحرق. وهو تفسير مقبول جدًّا يفسر لنا أيضًا عدم نقله واعتماده على كتب من سبقوه في التأريخ للإمام الأسمر التي قد تكون حادثة حرق المكتبة طاولتها.

وإن اعتمد البرموني بشكل أساسي في كتابه على معلوماته الخاصة عن الإمام الأسمر كونه تلميذه، وعلى الرواية عن قدماء أصحاب الإمام، إلا اللافت أنه نقل في بعض المواضع من كتاب «البحر الكبير» للشيخ عبد الرحمن المكي، وهو أيضًا أحد أقدم أصحاب الإمام الأسمر، وقد يترجح حصوله على كتاب المكي هذا منه بشكل شخصي في مكة المكرمة، إذ عاش المكي أواخر حياته في الحجاز، وتوفي بها ودفن بالمدينة المنورة عام 998هـ[1]، وقد كان البرموني في ذات السنة، وربما قبلها أيضًا، موجودًا بمكة كما يذكر التنبكتي.

ويفيدنا الشيخ القطعاني في ترجمته للشيخ المكي بأن كتاب «الكبير» هذا اسمه الكامل هو «البحر الطمطام في مناقب الشيخ عبد السلام»[2]، وأنه من النصوص المخطوطة المفقودة، «ثم اختصره في كتاب أسماه الكبريت الأحمر في مناقب الشيخ عبد السلام»[3]، وهو الآخر من ضمن المفقودات، «ثم اختصرهما في كتاب أسماه البحر الصغير وهو فقط الموجود منها الآن، وقد حققه»[4]، ويبدو أن تحقيق الشيخ القطعاني لم يطبع. ومن المصادر المخطوطة الأخرى في سيرة الإمام الأسمر كتاب «النور الناير» للشيخ سالم السنهوري، أحد تلاميذ الإمام الأسمر المباشرين، الذي يعكس نصه اعتماده بشكل كلي فيه على النقل من «روضة الأزهار»، خاصة وأن السنهوري من تلاميذ الإمام المتأخرين وتوفي عام 1115هـ.

هذا وقد اعتنى الشيخ محمد مخلوف بكتاب البرموني ولخصه مع إضافات، وسمَّاه: (مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام بن سليم)، مثلما سنرى لاحقًا في باقي أجزاء العمل.

وللشيخ عبد السلام الأسمر تلاميذ آخرون كثيرون، ويمكن العودة إلى المصادر والمراجع المختصة لمعرفتهم، وأهم المراجع موسوعة القطعاني للشيخ أحمد القطعاني التي دونت أغلب ما يتصل بالشيخ وبالأعلام المتصلين به من الشيوخ والتلاميذ.

---

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص19.
(2) نفس المصدر، ج2، ص20.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(4) نفس المصدر، نفس الصفحة.

المؤرخ القاضي محمد بن محمد مخلوف

هو محمد بن محمد بن عمر بن قاسم مخلوف، القاضي والفقيه والمؤرِّخ، العالم بتراجم المالكيَّة[1] وله آثار مكتوبة ذات قيمة تبيِّن قيمته العلميَّة. ولد بالمنستير بالساحل التونسي، وتربَّى في عائلة ميسورة الحال تشتهر بتجارة الزيت، وبدأ تعلُّمه بمسقط رأسه مدينة المنستير حيث حفظ القرآن الكريم، وتعلَّم الحساب والفرائض، ثم انقطع مدَّة أربع سنوات عن الدِّراسة بسبب محنة سياسيَّة أصابت والده، ليرجع بعدها إلى الدِّراسة، حيث انتقل سنة 1291هـ/ 1882م إلى تونس العاصمة لمواصلة التعلم بجامع الزَّيتونة، وفيه أخذ عن مجموعة بارزة منهم محمود بيرم ومحمود بن الخوجة ومحمد بن الخوجة ومحمود بن محمود وأحمد بن مراد وسالم بوحاجب وأحمد بن حسين وغيرهم. وواكب الحركة الإصلاحية الأولى التي شهدتها البلاد التُّونسيَّة ومن أبرز روَّادها الوزير المصلح خير الدِّين باشا وشيخه سالم بوحاجب الذي كان له أثر في تفكيره، زيادة على ما كان يجمع بينهما من ألفة الانتماء إلى منطقة جغرافيَّة واحدة، وهي منطقة السَّاحل التُّونسي.

أنهى محمد مخلوف تعلُّمه بالإحراز على شهادة التطويع سنة 1307هـ/ 1890م، وهي الشهادة الوحيدة التي كانت تختم بها الدِّراسة في ذلك العهد بجامع الزّيتونة، وتخوِّل لصاحبها تولِّي خطَّة عدالة الإشهاد كما تخوِّل له حقَّ التدريس بالجامع الأعظم (أي جامع الزَّيتونة) بصفة متطوِّع.

تولَّى عدَّة وظائف في حياته، فقد درَّس في البداية بجامع الزيتونة، وعلّم كتبًا خاصة بالمرحلة الابتدائية في العقائد والفقه والنَّحو، ثم أسند إليه سنة 1313هـ/ 1896م التدريس بالمنستير، وفي السنة نفسها نقل إلى قابس بالجنوب التونسي، وأسندت إليه الفتوى والقضاء بها. وفي سنة 1319هـ/ 1902م رجع إلى المنستير بعد أن تم تعينه في خطة قضاء المنستير والخطابة بجامعها الكبير، واستمرَّ يقضي بين النَّاس إلى أن أسندت إليه خطة باش مفتي بالمنستير ورئاسة مجلسها سنة 1355هـ/ 1936م، وخطة باش مفتي هي خطَّة سامية تعني رئاسة المفتين. وكانت المحكمة الشَّرعيَّة تتكوَّن

(1) للتوسيع في ترجمته، ينظر: شجرة النّور الزّكية، مصدر سابق، ص446-447. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت 1986، ج6، ص209. تراجم المؤلفين التّونسيين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1405هـ/ 1985م، ج4، ص257 - 262.

وقتها من رئيس المحكمة، أي: القاضي، وباش المفتي، ومعه مفتيون آخرون. وتواصل عمل الشَّيخ مخلوف في نفس الوظيفة إلى أن توفِّي بمسقط رأسه بمدينة المنستير يوم الأحد في 20 جمادى الأولى سنة 1360هـ/ 15جوان 1941م، وخرجت جنازته من قصره الفخم الموجود بحدائق شقانص من أحواز المنستير، ودفن بالقرب من ضريح الإمام المازري[1]، وحضرت جنازته جماعة من الأقارب والقضاة والأصحاب، ونخبة من أعيان السّاحل التّونسي خاصة والبلاد التونسية عامة. رحمه الله تعالى.

للشيخ مخلوف مؤلفات منها المطبوع ومنها المخطوط، وهي:

- **مواهب الرّحيم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم**، وهو باكورة تآليفه، كتَبه وهو في مدينة قابس، اختصر فيه كتاب: (روضة الأزهار ومنية السّادات الأبرار في جمع بعض مناقب صاحب الطار) لمؤلِّفه الشيخ كريم الدِّين البرموني، ولذا اشتهر باسم «مختصر البرموني». ونشير هنا إلى أنه كتاب هام طبع مرَّة أولى في كمية محدودة (2500 نسخة) نفدت سريعًا من السُّوق. وأعيد طبعه بعد وفاته في شهر المحرَّم من سنة 1386هـ/ 1966م بعناية المطبعة اليوسفيَّة بالقاهرة المعزِّيَّة على ذمَّة مكتبة النَّجاح بليبيا.

- **المازرية**، رسالة في فضيلة الطّب والمستشفيات وذكر من اشتهر بالطِّب عند العرب. وقد فرغ مؤلِّفه من جمعه في ثاني ربيع الأنوار سنة 1328هـ/ 13 مارس سنة 1910م. وأشرف على طبعه ونشره عبد الله الزّنَّاد بمدينة صفاقس سنة 1356هـ/ 1937م. ويتكوَّن الكتاب من حوالي مائة صفحة من الحجم المتوسِّط. ألَّفه الشَّيخ مخلوف -وهو باش مفتي المنستير- بمناسبة تأسيس مستشفى مسقط رأسه مدينة المنستير. ونسبه إلى الإمام أبي عبد الله محمد بن علي المازري (ت536هـ/ 1141م) الذي يوجد ضريحه بالمنستير. وهو ضريح متبرَّك به يزار، وجلالة قدره شهيرة في الأقطار «وكان يفزع إليه في الطِّب كما يفزع إليه في الفقه»[2]، تحدث فيه عن فضل العرب في إحداث التكايا (أي دور العجزة والمسنِّين) والمستشفيات، ثم تطرَّق إلى الفوائد الطبِّية ذات الأهمِّية الكبرى والمسائل الصحِّية الصالحة للمريض والطبيب، وانتهى بذكر عدَّة تراجم لبعض الأئمَّة الأعلام المشهورين بالنُّبوغ في فنِّ الطِّب.

---

(1) نجد اليوم شاهد قبر في مقبرة الإمام المازري بالمنستير يدل على مكان دفن الشيخ محمد مخلوف رحمه الله.
(2) **المازرية**، محمد مخلوف، مطبعة شكلونة، صفاقس 1937، ص8.

- **رسالة في ترجمة شيخه سالم بوحاجب**، أرسلها إلى ابنه خليل بوحاجب بيَّن فيها أفكار الشيخ سالم بوحاجب الإصلاحيَّة ودوره في الحياة العلميَّة والثقافيَّة بالبلاد التُّونسيَّة آنذاك. ولا تزال الرِّسالة مخطوطة[1].

- **شرح أربعين حديثًا من ثنائيات الموطأ**: وهو كتاب جمع فيه الشيخ مخلوف أربعين حديثًا نبويًّا من ثنائيات الموطأ للإمام مالك بن أنس، ولا يزال هذا الكتاب مخطوطًا.

- **شجرة النُّور الزكية في طبقات المالكية**: وهو أهم تأليف كتبه مترجمنا، قضى عشرات السِّنين في إعداده، وفرغ من ترتيبه وتهذيبه في شهر محرَّم من سنة 1340هـ/ 1921م[2]. وقد طبع الكتاب لأول مرّة بالمطبعة السّلفيّة بالقاهرة سنة 1349هـ، ووقف على طبعه عميد الأزهر آنذاك الشيخ محمد الخضر حسين. ثم توالى طبع الكتاب مرّات عديدة. والكتاب عبارة عن كتابين منفصلين في مجلد واحد.

ويعد شجرة النور الزكية حلقة في سلسلة فن الطبقات والتراجم، خاصة في تاريخ المذهب المالكي، حيث تعود فكرة جمع تراجم فقهاء المالكيّة وتنظيمها إلى القاضي عياض (ت544هـ/ 1149م) الذي وضع كتاب (ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب مالك)، ثم اقتفى أثره الإمام القاضي ابن فرحون (ت799هـ/ 1397م) الذي وضع كتاب (الدّيباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب)، ثمَّ نزع منزعهما أحمد بابا التّنبكتي (ت963هـ/ 1036م) بوضعه كتاب (نيل الابتهاج بتطريز الدِّيباج) الذي اعتبر ذيلًا لكتاب ابن فرحون أكمل فيه ما نقص، وأضاف إليه تراجم عدد من الفقهاء إلى العصر الذي عاشه. ومثَّل كتاب (شجرة النُّور الزَّكيَّة في طبقات المالكيَّة) تتويجًا للتّآليف المذكورة وجمعًا لها في مؤلّف واحد شامل ودقيق. وبهذا يمكن أن نضمَّ الشيخ محمَّد مخلوف إلى مؤرخي المذهب المالكي، وأيضًا باعتبار جملة كتبه في التاريخ يمكن تصنيفه ضمن جيل المؤرخين التّونسيين الأوائل في العصر الحديث، كالمؤرخ مَحمد بن الخوجة الذي كانت تجمعه بمترجمنا صداقة، والمؤرِّخ حسن حسني عبد الوهَّاب الذي اشتهر بغزارة إنتاجه في التاريخ التُّونسي.

---

(1) الشيخ محمد مخلوف المنستيري، عبد الله الزناد، مجلّة الهداية، العدد 2 - 3، السنة 7، نوفمبر 1979 - فبراير 1980، ص89 - 93.

(2) شجرة النورة الزكية، مصدر سابق، ج1، ص203.

عناية المؤرخ محمد مخلوف بكتاب «روضة الأزهار» للبرموني

ولا بد من الانتباه إلى أن كتاب مخلوف (مواهب الرحيم) الذي اشتهر بمختصر البرموني، من أوائل كتبه في التاريخ، ومرد اهتمامه بتاريخ الطريقة العروسية إلى اعتباره من رجالها، فقد انخرط في سلكها ورواها أثناء إقامته بمدينة قابس، كما يذكر هو في ذات الكتاب، عن «الخير العفيف الثقة الحاج إبراهيم الفرجاني الشنناوي»[1]. وأورد مخلوف سنده في أخذها، فالعروسية يرويها الحاج إبراهيم المذكور عن والده محمد عن والده عمر عن والده علي عن والده عبد السلام عن والده الشيخ علي الفرجاني، والشيخ الفرجاني يروي العروسية عن سيدي أبو راوي عن شيخه محمد بن جحا عن والده الشيخ عمر بن جحا (دفين الداموس بالمنستير) عن سيدي عبد السلام الأسمر. ويتصل سند الشيخ الأسمر بالشيخ عبد الواحد الدوكالي عن فتح الله أبو رأس القيرواني عن أحمد بن عبد الله أبو تليس عن الشيخ بوراوي الفحل (دفين سوسة بالساحل التونسي) عن الشيخ أحمد بن عروس.

وبلغت عنايته بهذه النسبة العروسية حد نظمه أبياتًا وثق فيها هذا السند، قائلًا[2]:

قال ابن مخلوف عبيد ربه	محمد غدى أسير ذنبه
الحمد لله الكريم القادر	مسيّر الأمور نعم الجابر
ثم الصلاة والسلام ربي	على النبي والآل ثم الصحب
وبعد فاستمع أخي لقول	مشايخ الإسناد أهل الفضل
أولهم شيخ أصيل فاضل	الماجد إبراهيم نعم الكامل
فعن محمد أبيه المشتهر	وذلك عن أبيه مشهور عمر
فعن أبيه شيخنا الفخر الجلي	من قد غدى يدعى أبو الحسن علي
فعن أبيه العالم الجليل	عبد السلام الصالح الأصيل
فعن أبيه شيخنا الرباني	فريد عصره علي الفرجاني
فعن أبي راوي إمام دهره	غوث كبير واحد في عصره

(1) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص68.
(2) نفس المصدر، ص69.

عن شيخه قطب الزمان الكامل محمد نجل جحا الواصل
فعن أبيه القدوة الزكي عمر ابن جحا غوث الأنام المعتبر
عن شيخه عبدالسلام الأسمر ابن سليم شيخنا المشتهر
فهذه الأبيات تم عدها مشايخ الأوراد قد بينتها
زدها إلى السلسلة الذهبية وفز بذكرها ترى المزية

ويشيد بهذه النسبة عند التعريف باسمه، ومنه قوله في مفتتح كتابه (مواهب الرحيم) بأنه «محمد بن محمد بن عمر بن سالم مخلوف الشريف، المنستيري دارًا ومولدًا، المالكي مذهبًا، الشاذلي طريقة»، باعتبار رأيه الذي يقول أن الطريقة العروسية فرع من الشاذلية، وروى في ذلك نظمًا اسمه «السلسلة الذهبية»[1] يبين ارتباط حلقات السند العروسي بالطريقة الشاذلية.

إن الاعتزاز بالانتماء إلى الطريقة العروسية والرغبة في كتابة التراجم وجملة من الأوراد والأذكار هي التي دفعت الشيخ محمد مخلوف إلى البحث عن كتاب يتحدث عن هذه الطريقة وشيخها الإمام الأسمر وسيرته وسلوكه، فوجد ضالته في كتاب الشيخ كريم الدين البرموني المعنون بـ: «روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر صاحب الطار»، وبذل جهدًا كبيرًا في تلخيصه وتنقيحه بإضافات إليه، وتولى نشره بين الناس بعنوان: «مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سليم عبد السلام ابن سليم». ولشهرته وتداوله بشكل واسع عرف بـ«مختصر البرموني».

ويشيد مخلوف في بداية ملخصه بكتاب البرموني بقوله: «ألفيته كثير الفوائد غزير الفرائد؛ لأنه إذا عرضت له مسألة جلب لها النقول العديدة والحكايات الحسنة الأكيدة»، ورغم ذلك عمد إلى تلخيصه لتسير فائدته، وبقي في عمله هذا من شعبان 1304هـ إلى أوائل ذي الحجة من نفس السنة. لكن ترتيبه استغرق مدة طويلة، حيث بقي في ترتيبه وتهذيبه إلى 12 ربيع الأول سنة 1332هـ أي طيلة سنوات عديدة.

ورتب مختصره على مقدمة من ثمانية مطالع ومقصد من خمسة وثلاثين بابًا وخاتمة فيها تراجم كثيرة، بخلاف البرموني الذي قسم كتابه إلى: مقدمة وخمسة فصول

(1) نفس المصدر، ص69 – 73.

وخاتمة، فجاء مختصر مخلوف في حوالي ثلث ما بالأصل، لكنه ضمنه بنقول أخرى من غيره، كالمطالب الثمانية التي نقل فيها نصوصًا مطولة من كتب الفقه للتدليل على شرعية بعض القضايا الصوفية في مباحث الكرامة والتوسل والشفاعة وغيرها.

ومن زيادات وإضافات مخلوف على البرموني، نقول في تفاصيل سيرة الإمام الأسمر من كتب جاءت من بعده، ككتاب «النور النابر» للشيخ سالم السنهوري، وكتاب «فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم» للشيخ عبد السلام بن عثمان، كما اعتمد في إضافة بعض التفاصيل على «مختصر البحر الكبير» للشيخ عبد الرحمن المكي، وإن كان البرموني أفاد من «البحر الكبير» للشيخ المكي كما أسلفنا.

ومن زياداته أيضًا، نص «الوصية الصغرى» للإمام الأسمر نقلها كما ذكر بتمامها من كتاب «فتح العليم»، وكذلك أحزاب الإمام الأسمر، وتراجم شيوخه في السلسلة العروسية، نقلها كما ذكر من كتاب «الوصية الكبرى» للإمام الأسمر.

ومما يُعدُّ مخلوف مصدرًا فيه، قائمة الكتب التي ألفها تلاميذ الإمام الأسمر في سيرته، ورغم أنه قال: «وقفت على كتابة تضمنت أسماء الكتب المؤلفة في ترجمة مولانا عبد السلام بن سليم وأسماء مؤلفيها وها أنا أذكرها»[1]، إلا أنه لم يفدنا في ذكر المصدر الذي نقل منه هذه القائمة الهامة، ولم يسبقه إلى ذكرها غيره.

وتأتي أهمية كتاب الشيخ مخلوف أنه يُعدُّ بابًا فتح له الطريق لإنتاجه التأليفي اللاحق الذي عرف به في أوساط المؤرخين، وهو الفن التأليفي الذي طبع جُلَّ أعماله، خاصة في كتابيه: شجرة النور الزكية والمازرية.

لقد اتسم عمل الشيخ مخلوف بالبساطة في عبارته وتيسيره للمعلومة، فرغم شهرة عمل البرموني إلا أنه بقي لقرون ينحصر الاهتمام به في وسط طبقة العلماء لكثافة ما تضمنه من نقول وآراء فقهية تخصصية.

ومن مميزات عمل الشيخ مخلوف أن اختصاره وافق بدء انتشار طباعة الكتب في العصر الحديث، فيسر طباعته انتشاره على نطاق واسع، وتلقته الأوساط المثقفة بالقبول الواسع، حتى أنه لا يوجد على الإطلاق أي بحث أو دراسة أو كتاب لا يعتمد عليه، خاصة مع النقص الحاد في المصادر والمراجع التي تفصح عن سيرة الإمام الأسمر.

(1) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص 261

انتشار الزوايا السلامية بالبلاد التونسية

إن الحديث عن تاريخ انتشار السلامية بالبلاد التونسية يفسر لنا أسباب عناية الشيخ محمد مخلوف بالشيخ عبد السلام الأسمر، وبالطريقة العروسية. ومعرفة تاريخ هذا الانتشار يمكن أخذه من الأرشيف الوطني التونسي ومن كتب التاريخ والمناقب، وكذلك من الدراسات الحديثة في هذا المجال التي نعتمد فيها على ثلاث دراسات جادة اتخذت من الأرشيف الوطني التونسي والمخطوطات منطلقًا لعملها، وسنسعى إلى تقديم الإضافة اللازمة عند توفر المعطيات الجديدة.

تخص الدراسة الأولى الزوايا السلامية بمنطقة الساحل التونسي، وتخص الدراسة الثانية الزوايا السلامية بالوطن القبلي، وتهتم الدراسة الثالثة بالطريقة السلامية بصفاقس.

أ- الزوايا السلامية بمنطقة الساحل التونسي (سوسة والمنستير أساسًا):

الزوايا حسب إحصائيات 1857 و1925:

اهتم الباحث مراد الزبيدي بموضوع الزوايا السلامية بالساحل التونسي معتمدًا على إحصائيات دقيقة استخرجها من الأرشيف الوطني التونسي ومن بعض النصوص المخطوطة النادرة[1]. وقبل الحديث عن هذه الدراسة نقول: إننا عملنا بدورنا على تحقيق الإضافة في الموضوع، وذلك باستغلال ما ورد في مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس أنجزه تلاميذ المدرسة الحربية بباردو رقم 18669. وفي المخطوط المنجز سنة 1857 إحصائيات تخص المدن والقرى التونسية في قيادتي سوسة والمنستير مع وجود رسوم جغرافية لكل مدينة أو قرية[2].

يدل الجدول الموالي على الأماكن التي وجدت فيها الزوايا السلامية والعروسية بالساحل التونسية، ونعرضها مع تحديد أماكنها في البلاد التونسية الحالية ومراعاة التقسيمات الإدارية الجديدة:

جدول الزوايا بالساحل التونسي (سوسة والمنستير) عام 1857م:

(1) الزوايا السلامية بتونس خلال الفترة الحسينية، مراد الزبيدي، مجلة الجامعة الأسمرية، عدد11، 2009م، ص353-402.

(2) نشترك مع الباحث مراد الزبيدي في الرجوع إلى هذا المخطوط والاستفادة منه، لكن كل بطريقته واهتماماته. وقد كان قدم عمله في شكل رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة في التراث بإشراف الأستاذة منيرة شابوتو الرمادي، كلية العلوم الإنسانية، تونس2004.

المدينة أو البلدة	مكانها الحالي	عدد الزوايا السلامية	الإحالة في المخطوط المحقق	الملاحظات
سوسة	(مركز ولاية حاليًا)	01	ص165	
القلعة الصغرى	(ولاية سوسة حاليًا)	01 غير تامة البناء	ص246	
مساكن	(ولاية سوسة حاليًا)	01 (مقام)	ص263	انظر الدراسة أسفله
المنستير	(مركز ولاية حاليًا)	02	ص314	مدينة المؤرخ محمد مخلوف
بنّان	(ولاية المنستير حاليًا)	01 غير تامة البناء	ص371	
صيادة	(ولاية المنستير حاليًا)	01 (مقام)	ص389	
قصر هلال	(ولاية المنستير حاليًا)	01	ص389	يذهب المؤرخون إلى أنها تنسب إلى سيدي عبد السلام المسراطي (ت1248هـ) ويعود تأسيسها إلى القرن18.
المكنين	(ولاية المنستير حاليًا)	01	ص399	هي زاوية ومسجد في الوقت نفسه
قصور الساف	(ولاية المهدية حاليًا)	01	ص455	هي زاوية ومسجد في الوقت نفسه
المهدية	(مركز ولاية حاليًا)	00	ص431	ذكرناها لأهميتها من بين المدن
الجملة:		10 زوايا		

تفيد الإحصائيات أن منطقة الساحل التونسي ضمت في أواسط القرن التاسع عشر 10 زوايا، وهو عدد هام نسبيًّا في منطقة مليئة بالسكان بالمقارنة إلى باقي مناطق البلاد التونسية. وكثرة هذه الزوايا يدل على نشاط طرقي بالمنطقة متمثل في قراءة القرآن وحفظه وقراءة الأذكار وذلك بفضل شيوخ وأتباع ومريدين. وفي هذه المنطقة النشيطة ثقافيًّا وصوفيًّا تربى الشيخ محمد مخلوف وعاش، وقد يكون ذلك سببًا من أسباب إعجابه بالإمام الأسمر وبالطريقة العروسية والتأثر بهما الشيء الذي دفعه إلى الكتابة في تاريخهما وواقعهما فيما بعد.

وتزايد عدد الزوايا العروسية بالساحل التونسي وبغيره من المناطق القريبة منها مثلما تفسره المعطيات المتوفرة بالأرشيف الوطني التونسي، وتتمثل هذه المعطيات في إحصائيات تولى القيام بها الاستعمار الفرنسي لمعرفة أعداد أتباع الطرق الصوفية بالبلاد التونسية لضبط طرق التعامل معها. ويعود تاريخ إجراء الإحصائيات إلى عام 1925، ونورد فيما يلي ما استنتجه الباحث مراد الزبيدي من استنتاجات بعد قراءة معطيات الأرشيف، وتخص انتشار السلامية بالبلاد التونسية سواء أكان ذلك في الساحل أو الوسط أو الجنوب: «فبالنسبة للسواحل بينت الإحصائيات (1925) وجود أتباع لها في مناطق السواحل والجنوب والوسط الغربي التونسي. فبالنسبة للسواحل سجل لها وجود في كل من بنزرت، تونس، قرمبالية، سوسة، جرجيس، صفاقس، قابس وجربة بمجموع 5606 من الأتباع. أما في منطقة الجنوب فقد سجل لها وجود بكل من قفصة وتوزر ومدنين وقبلي وتطاوين بمجموع 3475 من الأتباع، في حين لم يسجل وجود للطريق السلامية في منطقة الوسط والوسط الغربي إلا في مدينتي القيروان وتالة بمجموع 3855 من الأتباع. وهكذا يكون المجموع العام لأتباع الطريقة السلامية في مختلف أنحاء البلاد التونسية حسب إحصاء سلطات الحماية لسنة 1925 قد بلغ 12489، وهو رقم يجعل هذه الطريقة تأتي في المرتبة الخامسة من حيث الأهمية بالنسبة للطرق الأخرى التي تتصدرها الطريقة القادرية بـ117681 من الأتباع تليها الطريقة الرحمانية بـ114761 من الأتباع ثم العيساوية بـ37534 من الأتباع ثم التيجانية بـ16094 من الأتباع».

ويواصل الباحث مراد الزبيدي الحديث بقوله: «ورغم قلة أتباع الطريقة السلامية نسبيًّا مقارنة مع من يتقدمها فقد سجلت مدخولًا سنويًّا مرتفعًا متأتيًا من الزيارات يفوق غيرها من الطرق الأكثر منها أتباعًا، من ذلك مثلًا أنها حققت دخلًا سنويًّا قدره 62445

فرنكًا مقابل 56310 فرنكًا حققته الطريقة العيساوية رغم أن عدد أتباعها يقدر بثلث عدد أتباع الطريقة العيساوية في حين لم يتجاوز دخل الطريقة التيجانية 24000 فرنكًا».

وتجدر الإشارة إلى أن أكثر منطقة تكثف لأتباع الطريقة السلامية على مستوى السواحل التونسية نجدها بمدينة سوسة بعدد من الأتباع قدره 2077، ثم تأتي في المرتبة الثانية مدينة تونس بـ1012 نفرًا ثم مدينة قابس بـ915 نفرًا.

ففي جهة سوسة تحتل الطريقة السلامية المرتبة الثانية في الأهمية بعد الطريقة العيساوية، فإن ذلك يمكن تفسيره بحضور سيدي عمر بن جحا خليفة الإمام الأسمر بالمنطقة واختياره الاستقرار في قرية الداموس (منزل النور بولاية المنستير حاليًا)، ثم تشييد ضريح له بنفس القرية. ويمكن تفسيره أيضًا بوجود زاوية سيدي أبي راوي الفحل بها أحد الشيوخ البارزين للطريقة العروسية.

وبعيدًا عن سوسة والمنستير نحو الجنوب ودائمًا على الشريط الساحلي وجدت زوايا عروسية، ومنها زوايا مدينة قابس التي تولى فيها المؤرخ التونسي محمد بن مخلوف القضاء مدَّة، وهي التي ألف فيها كتابه حول الإمام الأسمر مما يعني تأثره بما كان يجري في المنطقة من نشاط صوفي.

يقول مراد الزبيدي: «بالنسبة لقابس يأتي عدد أتباع الطريقة السلامية في المرتبة الأولى قبل الطريقة القادرية والتيجانية، فهي حينئذ الطريقة المهيمنة في الجهة». «ويمكن تفسير ذلك بالدور الذي لعبته زاوية سيدي علي الفرجاني بشنني في نشر هذه الطريقة».

أما بالنسبة لمدينة تونس فإن الطريقة العروسية تحتل المرتبة الثالثة من حيث أهمية عدد الأتباع بعد الطريقة الرحمانية ثم القادرية، في حين تبقى الطريقة الشاذلية قليلة الأتباع جدًّا مقارنة مع الطرق الأخرى (50 مريدًا).

تميز بلدة مساكن (ولاية سوسة حاليًا):

أردت في هذا المجال أن أبرز بلدة مساكن من بين المدن الأخرى المذكورة بحكم معرفتنا لها؛ لأنها مسقط الرأس، وفيها نشأنا ورأينا تطور وجود الزوايا فيها، فهي مساكن الأشراف كانت تعد حوالي 8 آلاف ساكن في مطلع القرن العشرين، وتعرف بأنها مدينة المساجد والقرآن، وجل سكانها من الأشراف الحسينيين حسب عقود نسب يتوارثونها باعتزاز كبير.

ويذكر المخطوط الذي أعده تلاميذ المدرسة الحربية بباردو، أن هذه البلدة احتوت سنة 1857م على زاوية واحدة لسيدي عبد السلام، وفي مطلع القرن العشرين صارت بالمدينة ثلاث زوايا هي الزاوية العروسية[1] وزاويتان لسيدي عبد السلام الأسمر، وتفصيلها كالآتي:

الزاوية العروسية: قريبة من أقدم جامع بالمدينة وهو الجامع الأوسط، كانت نشيطة حتى تاريخ استقلال البلاد عن الاستعمار الفرنسي، وحتى صدور قرار يحل أحباس هذه الزوايا سنة 1957. وأدى إهمال هذه الزاوية إلى انهيار مكوناتها المعمارية، وهي اليوم خربة وبقيت مكانًا لدفن الأموات.

زاوية سيدي عبد السلام بالسوق[2]: هي من أقدم زوايا الإمام الأسمر بالمدينة، تبعد عشرات الأمتار شمال أقدم جامع بالمدينة وهو الجامع الأوسط. بقيت في نشاطها إلى حصول البلاد على الاستقلال وإيقاف نشاط جميع الزوايا منذ 1957. ومن مريدي هذه الزاوية عائلة سحيب وبلحاج خليفة. وقد تحولت هذه الزاوية بعد الاستقلال إلى نادٍ للأطفال، وهي في الوقت الحاضر مهجورة للضرر الحاصل في بنائها، وهي تستدعي الدراسة ثم التجديد.

زاوية سيدي عبد السلام جنوبي الجامع الأوسط[3]: تقع هذه الزاوية في مكان تنتشر فيه الزوايا ومقامات الأولياء: سيدي الشطي وسيدي علي بن خليفة وسيدي علي بن ستهم وسيدي الحضيري وسيدي المليح وغيرهم. يقول الباحث محمود القزاح: «على الأغلب أسست مع مطلع القرن العشرين، وكان فيما اشتملت عليه الزاوية حجرة كبيرة فسيحة وحجرتان أخريان أصغر منها وساحة واسعة. وكان مريدوها من أولاد الغربي وبوريقة».

نشطت الزاوية منذ 1945، وعُرفت بتحفيظ القرآن الكريم، وقد عمرها المؤدب محمد العذاري ثم المؤدب يوسف الشطي (أوَّل مؤدب حفظنا على يديه نصيبًا من القرآن الكريم في ستينات القرن العشرين). وتحولت هذه الزاوية بعد الاستقلال أواخر

---

(1) يبدو أن تأثير هذه الزاوية كان كبيرًا في المجتمع، فالكثير من مواليد النصف الأول من القرن العشرين بمدينة مساكن حملوا اسم العروسي أو العروسية، وظهر ذلك خاصة في العائلات الماجدة التي تولى أفراد منها الخطط السامية.

(2) **المدخل إلى تاريخ مساكن**، محمود القزاح، دار الثقافة، ص558.

(3) نفس المصدر، ص559. ويحدد مكانها القزاح بأنها في الجبانة القبلية أي على طرف هذه المقبرة غير بعيدة عن الجامع الأوسط.

الخمسينات إلى فضاء شبابي، وهي اليوم مقر منظمة المصائف والجولات بالمدينة. وتحتاج هذه الزاوية إلى الدراسة قبل ترميمها وإظهار ملامحها الأصلية.

ب- الزوايا العروسية بصفاقس:

تحدث الباحث بدر الدين الأزهر الكسراوي عن الطريقة السلامية بصفاقس، وأورد في مقاله إحصائيات تخص الزوايا العروسية بصفاقس وغيرها من مناطق البلاد التونسية[1]. ومن خلال دراسة الكسراوي نقتبس جدولين هامين: الأوَّل يخص عدد الزوايا بالبلاد التونسية سنة 1887م، والجدول الثاني يخص عدد الزوايا العروسية بالبلاد التونسية سنة 1925.

جدول: الزوايا بالبلاد التونسية إلى سنة 1887م

العمالات	عدد الزوايا	عدد شيوخ الأحزاب
تونس	5	4
الأعراض (قابس)	11	10
المنستير	7	7
نابل	6	6
المهدية	16	16
المثاليث	2	2
جمال	5	5
صفاقس	7	7
الجملة	59	57

(1) الطريقة السلامية بصفاقس، بدر الدين الأزهر الكسراوي، **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد47-48، 1987، ص123-135. (بتصرف)

جدول: الزوايا بالبلاد التونسية سنة 1925م

المراقبة المدنية	عدد الزوايا	عدد شيوخ الأحزاب
بنزرت	5	5
تونس	10	9
زغوان	1	1
قرمبالية	9	9
سوسة	10	10
المهدية	17	17
القيروان	6	6
صفاقس	8	8
قفصة	4	4
قابس	15	14
جربة	3	3
جرجيس	4	4
مدنين	1	1
تطاوين	1	1
قبلي	6	6
الجملة	90	98

وهكذا تحول عدد الزوايا من 59 سنة 1887 إلى 90 سنة 1925، مما يدل على انتشار هذه الطريقة بالبلاد التونسية، وإذا توقفنا عند الجدول الثاني وجدنا أن الساحل (سوسة والمهدية) يستأثر بأكبر عدد من هذه المؤسسات بالمقارنة إلى بقية مناطق البلاد

أي 27 زاوية من جملة 90. وتأتي مدينة قابس في المرتبة الثانية بعد منطقة الساحل (سوسة والمهدية) بـ15 زاوية، وهذا ما سيكون له أثر في شخصية الشيخ محمد مخلوف وفي اتجاهاته الفكرية، فقد عاش في منطقة الساحل وعمل بمدينة قابس مدة من الزمن.

ج- الزوايا السلامية بمنطقة الوطن القبلي:

يشير الباحث محمد الشعبوني في مقاله حول الطرق الصوفية بالوطن القبلي من البلاد التونسية[1] إلى وجود 10 زوايا عروسية من جملة 87 موجودة بالبلاد التونسية[2] حسب إحصائيات السلطات الاستعمارية الفرنسية بين 1924 و1925. وتأتي السلامية في المرتبة الثالثة من بين الطرق الصوفية التي لها زوايا كثيرة، ونورد هذه الإحصائيات في الجدول الموالي كما يلي:

جدول: توزيع الطرق وأتباعها بجهة الوطن القبلي سنة 1933 وهي نفس إحصائيات 1925

الطريقة	عدد الزوايا	عدد الشيوخ	العدد الجملي للأتباع	نسبة العدد الجملي لكل طريقة
العيساوية	15 (144)*	12	7895 (37534)*	./.21.03
القادرية	14 (109)*	14	1154 (117681)*	0.98
السلامية	10 (87)*	9	475 (12087)*	3.92
التيجانية	1 (24)*	1	51 (16094)*	0.31

(1) جوانب من واقع الطرق الصوفية والزوايا بالوطن القبلي في أواخر القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين: مثال بني خيار، محمد الشعبوني، ص97. (بتصرف).

(2) أشار الباحث بدر الدين الأزهر الكسراوي إلى أن عدد الزوايا السلامية بالبلاد التونسية 90 زاوية، بينما أشار الباحث محمد الشعبوني إلى أنها 87 زاوية والاختلاف بينهما غير كبير، ولا يمكننا ترجيح رقم على آخر إلا بالرجوع إلى معطيات الأرشيف الوطني التونسي بين 1924 و1925.

العدد الجملي بالبلاد التونسية

يتبين من خلال الجدول كثرة الزوايا بالوطن القبلي، وهو المنطقة المعروفة بانتشار التدين وبإعطاء المكانة اللائقة للأشراف، زد على ذلك أن أول زاوية قادرية أسست بالبلاد التونسية قد أسست في هذه الربوع. كما يتبين من خلال الجدول أن عدد الزوايا السلامية بالوطن القبلي يصل إلى 10، وهو رقم مرتفع نسبيًّا بالمقارنة إلى هذه المنطقة الآهلة بالسكان والقريبة من منطقتي الساحل التونسي والعاصمة تونس.

أسباب انتشار الطريقة السلامية وزواياها بالبلاد التونسية

تقف عدة عوامل وراء انتشار الطريقة العروسية وتعدد زواياها بالبلاد التونسية منذ ظهورها إلى الآتي ذكره:

- معرفة السكان بهذه الطريقة وبشيخها الإمام الأسمر الذي عاش مدة بالبلاد التونسية، وتحديدًا في جبل زغوان القريب من الساحل التونسي والعاصمة، زد على ذلك معرفة السكان بالشيخ عمر بن جحا تلميذ الإمام الأسمر الذي عاش آخر حياته بالبلاد التونسية، وعند وفاته دفن بالداموس من منطقة المنستير كما رأينا سابقًا. ومن غير المستبعد أنه كان يحدث بسيرة شيخه ويمارس البعض من أعماله خاصة منها الأذكار التي يصاحبها ضرب الدف.

- مساهمة المهاجرين الطرابلسية في التعريف بهذه الطريقة، خاصة وأن عددهم قد زاد بالبلاد التونسية بعد الدخول الاستعماري الإيطالي إلى ليبيا سنة 1911.

- طبيعة هذه الطريقة الموصوفة بأنها «مليئة بالحياة»، بحسب الباحث محمود القزاح في كتابه المدخل إلى تاريخ مساكن الذي قال فيه: إنها نجحت في استقطاب الناس وإقبال الجمهور المساكني على هذه الطريقة المتميزة بأتباعها الكثيرين، وهناك من يصفها أنها طريقة مليئة بالحياة لا يملها الناس مهما طالت[1]. ويبدو أن اعتبارها مليئة بالحياة؛ لأنها كانت تحيي الحفلات في المناسبات كالأعراس ومناسبات ختان الأطفال أو سهرات المولد النبوي الشريف وحفلات الذاهبين إلى الحج تشوقًا لزيارة الرسول ﷺ وغير ذلك. وقد تحدث الباحث بدر الدين الأزهر الكسراوي في مقاله عن الحفلات التي كانت تقيمها العروسية في مناسبات الأفراح بصفاقس وما جاورها من المناطق.

(1) **مدخل إلى تاريخ مساكن**، مصدر سابق، ص 558.

- ناحية أخرى هامة في هذه الطريقة، وهي عنايتها بالتعليم حتى أحبها الناس، ففي إحصاء قامت به السلطات الاستعمارية الفرنسية بين 1924 و1925 أثبتت فرنسا أن الزاوية العروسية تأتي في المرتبة الخامسة في عدد التلاميذ الذين يقصدونها للتعلم وذلك بعد العيساوية (2059 تلميذًا) والعامرية (450 تلميذًا) والقادرية (425 تلميذًا) والرحمانية (262 تلميذًا) والسلامية (249 تلميذًا). وذلك من جملة 3556 تلميذًا[1]. وبالرغم أن عدد التلاميذ لا يعدُّ مرتفعًا فهو يدل على اعتناء أصحاب هذه الطريقة بالتعليم خاصة منه تعليم القرآن والفقه وقليل من المعارف الأخرى.

ونختم هذا العنصر بالإشارة إلى أن هذه الطريقة أثرت تأثيرًا بارزًا في كل الطبقات الفقيرة منها والغنية، وأمثلة تأثيرها في الطبقات الغنية كثيرة نذكر منها مثال الأثر البارز في شخصية القاضي محمد بن محمد مخلوف الذي اعتنى بها وكتب عنها مثلما سنرى لاحقًا، وكذلك مثال الرئيس الحبيب بورقيبة الذي تأثر كثيرًا بهذه الطريقة منذ شبابه، وحافظ على ذلك طوال حياته، فقد عاش الحبيب بورقيبة بالمنستير، ورأى أهمية هذه الطريقة وأعجب بها، فهو من نفس بلد الشيخ مخلوف ومشاركة في معرفة مؤثرات العصر. ولعل هذا ما يفسر محافظة الحبيب بورقيبة وهو في الرئاسة على الطريقة العروسية، وعُرف بدعمه لها، الذي تجلى في حضور حفلاتها وتمريرها بوسائل الإعلام الإذاعية والتلفزية، وقد برزت في وقته فرق عروسية، اهتمت بالفن السلامي، نشيطة بالقيروان وتونس ورأس الجبل ومساكن وغيرها، وإننا إلى اليوم نسمي الحضرات (الفرق) الصوفية المدحية كلها بـ «السلامية» بالرغم أن منها القادرية والعامرية وغيرها.

هذه إطلالة على جهود محمد مخلوف في خدمة طريقة العروسية، وفي التعريف بالإمام الأسمر، وما نستنتجه هو تداخل التاريخين الثقافي والعلمي الليبي والتونسي في كل الفترات التاريخية، كما لاحظنا في العديد من محطات عمر هذه الطريقة، بدءًا من مؤسسها الشيخ أحمد بن عروس، مرورًا بشخصيات تالية كالشيخين أبو تليس وأبو رأس، ثم الإمام الأسمر نفسه الذي عاش في تونس لفترة، وخليفته من بعده الشيخ ابن حجا الذي استقر وتوفي بجهة المنستير. وحتى المؤرخ محمد مخلوف تونسي زار ليبيا مرات، واعتنى بهذه الطريقة الصوفية التي ارتبط بها وبشيخها بروابط متينة. وما وجود الزوايا السلامية في كلا البلدين تمارسان نفس النشاط من تعليم للقرآن ونشر الأذكار إلا دلالة واضحة عن تقارب الشعبين.

---

(1) **الإسلام الطرقي**، لطيفة الأخضر، دار سراس للنشر، تونس1993، ص62.





قراءة ببليوغرافيَّة في مؤلَّفات الإمام عبد السَّلام الأسمر بالمكتبة الوطنيَّة التُّونسيَّة: الوصيَّة الكبرى نموذجًا

د. سلمى اللَّافي

المعهد العالي لأصول الدِّين بجامعة الزَّيتونة - تونس

ملخَّص:

تناولنا في هذه المقالة العلميَّة عددًا من مؤلَّفات الإمام عبد السَّلام الأسمر من النُّسخ المخطوطة والمحفوظة في رفوف المكتبة الوطنيَّة التُّونسيَّة، والتي تراوح تأريخها بين القرنين الحادي عشر والثَّالث عشر هجري. كما أنَّ هذا العمل الببليوغرافي ارتكز على قراءة مادِّية لخمس نسخ تراوحت بين الوصيَّتين «الكبرى والصُّغرى» ومخطوط «الرؤية»، حيث استندنا في الجزء الأوَّل من البحث على «الكوديكولوجيا» هذا العلم الحديث المساعد للتَّاريخ. فضلًا عن القراءة الببليوغرافيَّة الموضوعيَّة التي تضمَّنت أبرز ما جاء في مضمون مخطوط «الوصيَّة الكبرى» حول المشروع الإصلاحي الأسمري.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، ببليوغرافيا، مخطوطات، المكتبة الوطنيَّة التُّونسيَّة.

مقدّمة:

تنصبُّ هذه القراءة حول المشروع الفكري الإصلاحي الأسمري القائم على أسلوب خطاب ذي الأصول والمراجع المتعدِّدة والنَّابعة أساسًا من القرآن والسُّنَّة والمدعَّمة بالشَّواهد الشِّعريَّة وأقوال العلماء والصَّالحين، وما يهدف إليه من تركيز على العلاقة الوثيقة بين المعرفة والدِّين ذات البعد العالمي بهدف بعث الحياة في الأمَّة الإسلاميَّة، كلُّ ذلك ضمن أسلوب لفظي جمالي له معانٍ ذات أبعاد تحمل دلالات نبويَّة.

وتشتمل هذه الببليوغرافيا وهي «فنّ أو علم وصف الكُتب»[1] على التَّعريف بنسخ لمؤلَّفات الإمام الأسمر من المحفوظة بالمكتبة الوطنيَّة التُّونسيَّة، والتي تتناول مواضيع في سياقات حياتيَّة مختلفة. كما يطرح هذا المقال في جزئه الأوَّل قراءة ببليوغرافيَّة مادِّيَّة لخمس نسخ مخطوطة، تراوحت بين «الوصيَّة الكبرى» و«الوصيَّة الصُّغرى»، وثلاث نسخ مختلفة من «رؤية الإمام»[2] اعتمدت في تحليلها على علم المخطوط أو ما يعرف بالكوديكولوجيا[3]، هذا العلم الحديث الذي يساعدنا في استخراج معطيات مختلفة ذات أهمِّية وقيمة بارزة من شأنها اكتشاف تأريخ هذا الأثر المادِّي وحتَّى تغيير حقيقته أحيانًا.

مع التَّركيز في الجزء الثَّاني من هذا العمل على القراءة الببليوغرافيَّة الموضوعيَّة لنموذج وحيد منها وهو «الوصيَّة الكبرى»، التي كتبها الإمام الأسمر في أواسط شهر

---

(1) المدخل إلى علم الببليوغرافيا، أبو بكر الهوش، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر، 2001، ص17.

(2) حول مخطوط «رؤية عبد السّلام الأسمر الفيتوري» يراجع مقال أ. د. نللي سلامة العامري (جامعة منّوبة - تونس) التي فصَّلت فيه القول وتناولته من عدَّة جوانب، حيث بيَّنت أنَّ رؤية الإمام الأسمر لها أهداف متعدِّدة: عقائديَّة، أخلاقيَّة، أخرويَّة وشرعيَّة، تشكَّلت في بيئة تهيمن عليها الطَّريقة العروسيَّة، فلم تكن مسيرة الإمام هي الأسهل، إذ لا تعكس هذه الرُّؤية الأخبار والحقائق فقط وإنَّما تمَّ الإعلان فيها عن التَّطوُّرات المجمَّعة مستقبليًّا حول فكرة الطَّريقة المحمَّديَّة..

Nelly (A.), Figures du Prophète et modalités de sa présence dans les récits visionnaires du Maghreb: la Ru'yâ de 'Abd al-Salâm al-Asmar al-Faytûrî (m. 981/1573), Archives de sciences sociales des religions [En ligne], 178 | Avril-juin 2017, mis en ligne le 01 juin 2019, consulté le 15 mars 2021. URL: http://journals.openedition.org/assr/29443 ; DOI: https://doi.org/10.4000/assr.29443

(3) حول مصطلح «الكوديكولوجيا» أو «علم المخطوط»: راجع: لومير (جاك)، مدخل إلى علم المخطوط، ترجمة مصطفى طوبي، المطبعة والوراقة الوطنيَّة، مراكش، المغرب، 2006.

رمضان عام 972 هجري، وبالتَّالي في أواخر عُمُرِهِ ﵀، حيث نبدأ نحن من حيث انتهى هو، إذ إنَّها نتيجة حياة بُذِلت في الدِّراسة والبحث والتَّفقُّه والسَّفر وجَّهها لأمَّة كاملة لا لمجتمع محلِّي فقط صالحة لكلِّ زمان ومكان.

لمحة حول شخصيَّة الإمام عبد السَّلام الأسمر

لن نقوم في هذا العنصر بتكرار ترجمة الإمام الأسمر، التي جاءت على ذكرها جلُّ المصادر والمراجع[1] من حيث مولده وشرف نسبه والسُّلالة التي ينحدر منها ونشأته، والتي نخلص منها إلى سيرة شخص ترعرع في بيت عماده أب اسمه سليم كان أمِّيًّا ولكنَّه نيِّر العقل والقلب، ترك لابنه سيرة رجل عُرف بورعه وتقواه، وأمٌّ اسمها سليمة عُرفت بصلاحها احتضنت ولدها وأحسنت إليه، ثمَّ عمٌّ له اسمه أحمد الفيتوري طيِّب الخلق كثير الإنشاد والذِّكر.

هذا وعند مطالعتي لسيرة هذه الشَّخصيَّة استحضرت تفاصيل سير الكثير من الإصلاحيين والمجددين الصوفيين، فهي تتشابه إلى درجة كبيرة في التكوين الأولي الذي يحدث غالبًا في أسر تجمع بين العلم والتصوف، ثم مرحلة الرحلة لطلب الشيخ المربي والانخراط في طريقة صوفية، قبل أن يمر على عدد من رموز العلم والتصوف الآخرين والشهادة لهم بالتقدم والقدرة على الدعوة والأهلية للتجديد والإصلاح، وهو ما يضطلع به الصوفي في المرحلة الأخيرة من عمره إذ يؤسس مشروعه ويبني له معقلًا يشد انتباه العشرات، بل والمئات من الأتباع والمريدين الذين يشكلون في ذات الوقت قنوات لنقل فكر ومشروع هذه الشخصية الإصلاحية الصوفية أو تلك، وهو ما نراه تمامًا في تفاصيل سيرة الإمام الأسمر، الذي رحل إلى أستاذه الشيخ عبد الواحد الدوكالي ليتلقى على يديه الطريقة العروسية ويستكمل تعليمه، قبل أن يمر على ثمانين شيخًا صوفيًّا آخرين شهدوا له بالأهلية والقدرة على الدعوة، وتاليًا استقر في مسقط رأسه بمدينة زليتن لبناء زاويته الرئيسية التي شكلت قاعدة ومنطلقًا لمشروعه الإصلاحي الذي شمل القطر الليبي

---

(1) من تلك المصادر والمراجع على سبيل المثال:

تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، الدار الثقافية، بيروت، 1966.

القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1992م.

مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، لجنة الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن، 2022م.

رسائل الأسمر إلى مريديه، مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.

وأقطارًا أفريقية، بل وفي العالم الإسلامي أيضًا. وممَّا سبق نستنتج تقاطع وتكامل حياة هؤلاء الصَّالحين العلماء وكأنَّهم يسيرون على نهج وطريق واحد، واضح في تكوينهم وترحالهم وتعلُّمهم وتصوُّفهم، وما تركوه لنا من آثار خالدة، ومنها كتاب «الوصية الكبرى» بالنسبة للإمام الأسمر، الذي يلخص ثمرة حياته ونتاج زرعه طوال سنين في نصائح وُجِّهت لكافَّة الأمَّة الإسلاميَّة.

القراءة الببليوغرافيَّة المادِّيَّة للمخطوط الأسمري

عدد المخطوط	المخطوط عدد 01
اسم المؤلِّف	عبد السَّلام بن سليم بن محمَّد بن سالم بن محمَّد مجيد بن عمران بن محمَّد بن سليمان بن خليفة بن نبيل السّعدي المغربي المخزومي القرشي المشهور بالأسمر الفيتوري.
عنوان المخطوط	«الوصيَّة الكبرى» «نصيحة المريدين لجماعة المنتسبين للعروسيَّة».
مكان الحفظ	المكتبة الوطنيَّة التُّونسيَّة
رقم الحفظ	3614
المسطرة	متوسّط 19 سطر بالصَّفحة
الأوراق	63 صفحة (وجه وظهر)
نوعيَّة الخطِّ	خطٌّ مغربي مبسوط به حروف المجوهر

البسملة والتّصلية

"هذه وصيّة ونصيحة للفقراء المنتسبين إلينا"

"الوصيّة الكبرى نصيحة المريدين لجماعة المنتسبين للعروسيّة"

قراءة مادِّية لصفحات استهلال ومقدِّمة المخطوط

قراءة كوديكولوجيّة في بعض صفحات المخطوط

قراءة كوديكولوجيَّة في بعض صفحات المخطوط

عدد المخطوط	المخطوط عدد 02
اسم المؤلّف	عبد السَّلام بن سليم الحازمي الفيتوري
عنوان المخطوط	الوصيَّة الصُّغرى
النّاسخ	محمَّد أمين
تاريخ النّسخ	خمسة من شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وألف ومائتين (1295 هجري)
مكان النّسخ	جامع الشَّيخ إبراهيم باشا بالإسكندريّة
مكان الحفظ	المكتبة الوطنيَّة التُّونسيَّة
المسطرة	متوسِّط 19 سطر بالصّفحة
الأوراق	129 صفحة (وجه وظهر)
نوعيّة الخطّ	الخطّ النّسخي

البسملة والتصلية

"الوصية الصغرى"

شطب وتصحيح

العنوان كما ورد في مقدّمة المخطوط

لحق

نظام التّرقيم بالتّعقيبة والأعداد

قراءة كوديكولوجيّة في بعض صفحات المخطوط

١٤٩

وجميع الاسنا دخرجوا عن سندي

وانا هو النور ساطع عن فني

يا راعي الجمل عامق في وجدي

انا هو الاصل سري روحاني

انا غوث شهير اعطاني الرحمان

عام ثمان مائة يا اخوان

اعطاني ﷺ جدي النبي العدناني

شاهدتا الاكوان والرب اعطاني

تغاث بين الناس في ارض البصرا

وفي ارض العراق ورجال في الصحرا

حتي شيوخ البحر تبعوني فقرا

الانس مع الجان والشيخ الروحاني

تبعوني اخرين الناس من سوس الاقصا

ومن ارض الهنود وشيوخ في مصر

وفي براسطنبول ولي في الصحرا

ورجال سكنوا قاف من سر الرباني

انا غرس الله ولا لاحد جميل

ولي بعدمني يكون اصيل كبيب

يشطح عن فني يا ولد امرا الخير

يغني

١٤٩

يغني من سري ظاهر بهائي

سلامي على المختار جدنا واحد

اعطاني المختار النبي الاحمدي

نلقاني الانجار كما الذبح الوارد

اعطاني الرحمان الرب الوحداني

نختم بالسلام على النبي المختار

ما هبت الارياح عن كل الاشجار

اعطاني ﷺ جدي والرب الغفار

هذا سر كبير سابق رباني

وهذا من كلام الغوث الهمام

سيدي الشيخ عبد

السلام الاسمر

رضي الله عنه

وارضاه وجعل

الجنة متقلبه

ومثواه

امين

وكان الفراغ من كتابتها يوم الاثنين الموافق خمسة من

شهر ربيع الاخر سنة خمسة وتسعين والف ومايتين

بجامع الشيخ ابراهيم باشا بالاسكندرية على يد كاتب

الاحرف عبده الفقير الراجي عفو ربه القدير محمد امين

غفر الله له ولجميع المسلمين

حرد المتن

وكان الفراغ من كتابتها يوم
الإثنين الموافق خمسة من شهر
ربيع الآخر سنة خمسة وتسعين
وألف ومائتين بجامع الشيخ
إبراهيم باشا بالإسكندريّة
على يد كاتب الأحرف عبده الفقير
الراجي عفو ربّه القدير
محمد أمين
غفر الله له ولجميع المسلمين

حرد متن مخطوط الوصيَّة الصُّغرى

عدد المخطوط	المخطوط عدد 03
اسم المؤلِّف	عبد السَّلام بن سليم الأسمر
عنوان المخطوط	رؤية الشّيخ الأكبر سيدي عبد السّلام الأسمر المازني الفيتوري
اسم النّاسخ	عبد القادر بن الحسين المغربي الشّريف العلمي
تاريخ النّسخ	كان الفراغ منها موافقًا لتاريخ أصلها ليلة الإثنين من شهر ثاني الرّبيعين من مولده صلَّى الله عليه وسلَّم.
مكان الحفظ	المكتبة الوطنيَّة التُّونسيَّة
رقم الحفظ	429
ترتيبه في المجموع	رسالة عدد 05 من مجموع به 06 رسائل
المقاس	22 × 16،5
المسطرة	متوسّط 14 سطر بالصَّفحة
الأوراق	16 صفحة (وجه وظهر)
نوعيَّة الخطّ	خطٌّ تونسي يقابل المجوهر به كلمات خُطَّت بالمشرقي المتمغرب.

البسملة والتّصلية

"رواية الشيخ الأكبر سيدي عبد السّلام الأسمر"

العنوان كما ورد في مقدِّمة المخطوط

٢٠٧ نظام التّرقيم بالأعداد

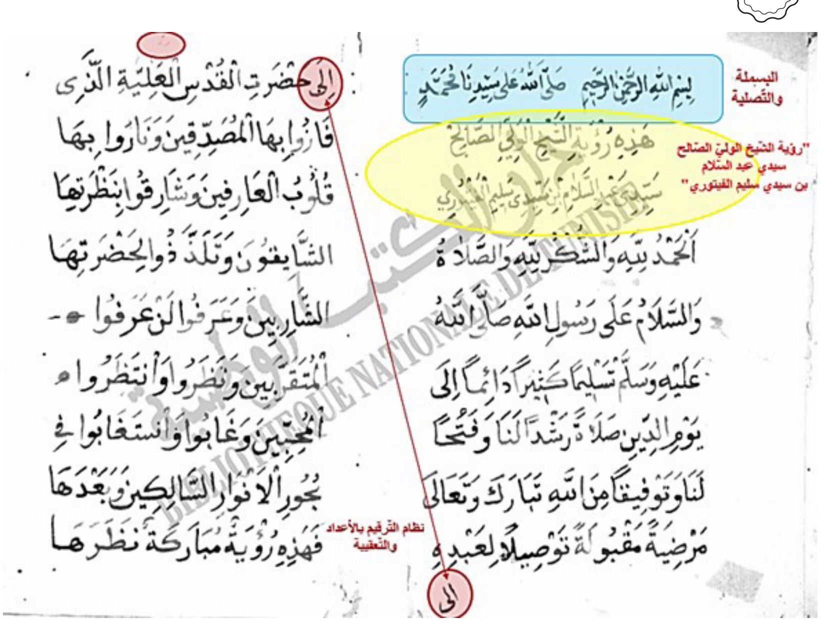
لفظ الانتهاء من النّسخ

حرد المتن

على يد كاتبها... عبد القادر بن الحسين المغربي الشريف العلمي وكان الفراغ منها موافقا لتاريخ أصلها ليلة الاثنين من شهر ثاني الربيعين من مولده صلّى الله عليه وسلّم

حرد متن مخطوط رؤية الشَّيخ

عدد المخطوط	المخطوط عدد 04
اسم المؤلِّف	عبد السَّلام بن سليم الفيتوري
عنوان المخطوط	رؤية الشَّيخ الأكبر سيدي عبد السَّلام الأسمر
مكان الحفظ	المكتبة الوطنيَّة التُّونسيَّة
رقم الحفظ	8719
ترتيبه في المجموع	رسالة عدد 01 من مجموع به 4 رسائل
تاريخ تحبيس المخطوط	عام واحد وتسعين ومائتين وألف (1291 هجري)
صاحب التّحبيس	محمّد الصّادق باشا باي صاحب المملكة التّونسيّة
المحبّس عليه	الجامع الأعظم بتونس (جامع الزَّيتونة المعمور)
المسطرة	متوسّط 09 أسطر بالصَّفحة
الأوراق	43 صفحة (وجه وظهر)
نوعيَّة الخطِّ	الخطُّ النَّسخي



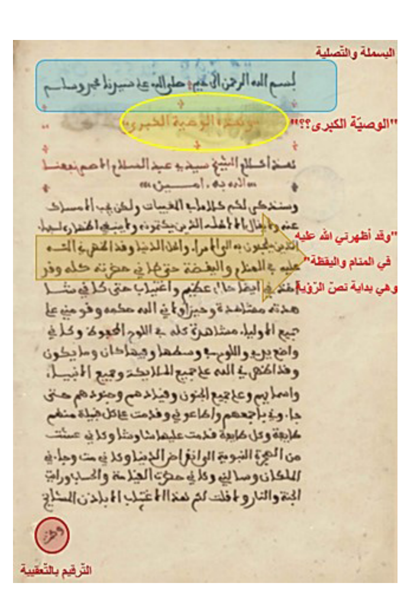
قراءة كوديكولوجيّة في ثاني نسخ رؤية الشّيخ



وثيقة تحبيس المخطوط

حرد متن المخطوط

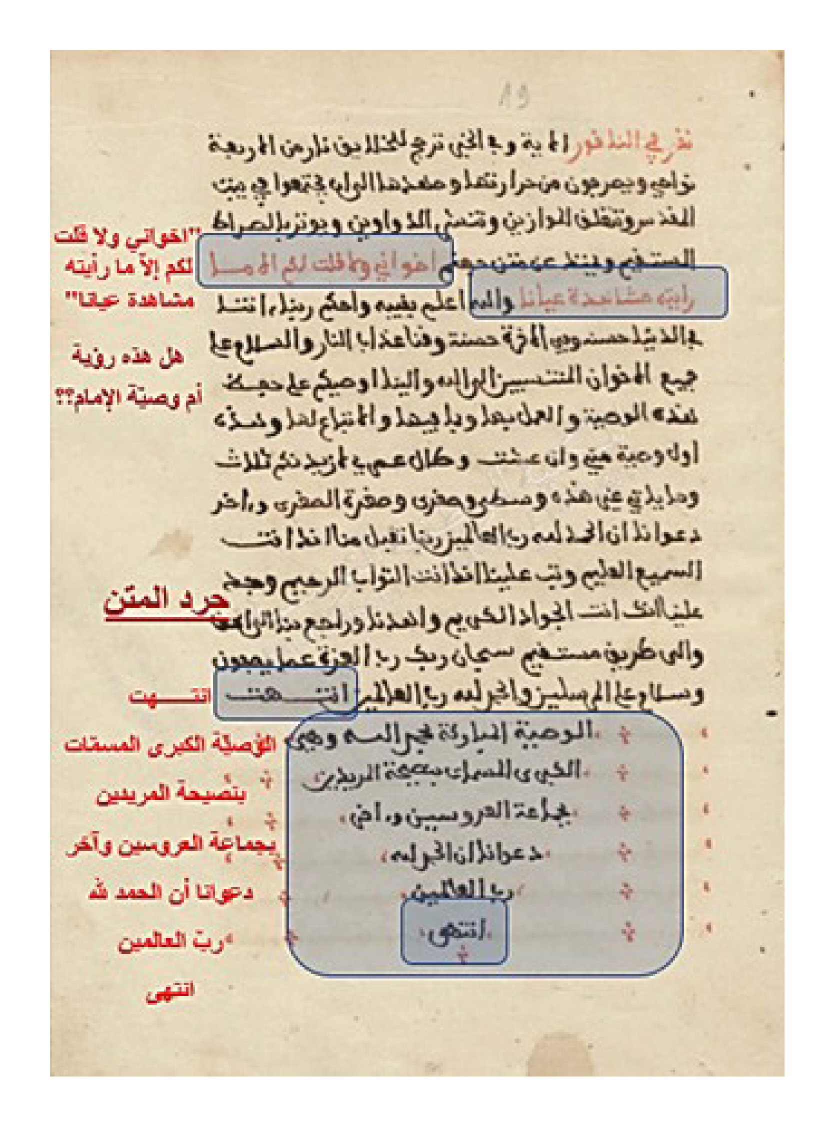
عدد المخطوط	المخطوط عدد 05
اسم المؤلّف	عبد السَّلام الأسمر
عنوان المخطوط	الوصيَّة الكبرى؟؟؟
تاريخ النّسخ	عام 1231 هجري
ترتيبه في المجموع	رسالة عدد 01 من مجموع به ثلاث رسائل
مكان الحفظ	المكتبة الوطنيّة التّونسيّة
رقم الحفظ	793
المقاس	21 × 15،5
المسطرة	متوسِّط 21 سطر بالصَّفحة
الأوراق	36 صفحة (وجه وظهر)
نوعيَّة الخطِّ	الخطُّ النَّسخي



صفحة الاستهلال: بين عنوان المخطوط ومصداقيَّة المتن



قراءة كوديكولوجيَّة في صفحات المخطوط



صفحة تظهر حرد متن المخطوط

أهمُّ استنتاجات القراءة الببليوغرافيَّة المادِّية للمخطوطات

انطلاقًا من القراءة المادِّية وممَّا تمَّ توظيفه في الجداول والصُّور السَّابقة وما تحويه من معلومات توضيحيَّة متنوِّعة حول هذه المخطوطات لا يفوتنا اشتراك مقدِّمات كلِّ المخطوطات في البسملة المتبرَّك بالابتداء بها، أيضًا كتابة الحمدلة والتَّصلية التَّامَّة، يليهما لفظ فصل الخطاب «أمَّا بعد»، ثمَّ الاسم العلمي لهذه الوثائق الأثريَّة. ذلك ونستنتج عدَّة ملاحظات أبرزها ما يخصُّ المخطوط عدد أربعة، حيث تتمحور أهمِّيته في وثيقة التَّحبيس[1] التي تصدَّرت صفحة الاستهلال وما فيها من معطيات نقرأها في قيمة المُحبِّس وهو المُشير «محمَّد الصَّادق باشا باي»[2] صاحب المملكة التُّونسيَّة ومقامه الوظيفي في الدَّولة وما يعكس ذلك من اهتمام أصحاب السُّلطة بهذا النَّوع من المؤلَّفات وما لها من منزلة وأولويَّة عندهم، ثمَّ رمزيَّة المُحبَّسِ عليه وهو الجامع الأعظم بتونس، وبالتَّالي مكتبة «جامع الزَّيتونة المعمور» والتي لا توضع بها الكتب بصفة عشوائيَّة، وإنَّما يتمُّ انتقاؤها حسب أهمِّية مواضيعها ومؤلِّفيها.

أيضًا، من جانب آخر نستنتج انطلاقًا من المخطوط عدد خمسة، ضرورة القراءة المادِّيَّة الببليوغرافيَّة التَّوثيقيَّة للمؤلَّفات وأهمِّيَّة توظيف الجانب الكوديكولوجي على وجه الخصوص، حيث نرى في استهلال المتن وحرده دليل واضح العبارة على أنَّه مخطوط «الوصيَّة الكبرى» فيقول في المقدِّمة: «هذه الوصيَّة الكبرى» وفي الخاتمة «انتهت الوصيَّة» في حين أنَّ المضمون هو نقل لرؤية الإمام الأسمر، وقد عاينَّا ذلك من خلال مقارنتنا لهذه النُّسخة مع بقيَّة النُّسخ المتوفِّرة لدينا.

---

(1) الحُبُس نعني به الوقف، والشَّخص المُحبِّس هو الشَّخص الواقف وهو: «الشَّخص الذي وقف مخطوطًا أو أكثر للفائدة العامَّة». راجع: **معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كوديكولوجي)**، أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي، ط 3، الخزانة الحسنيَّة، الرِّباط، 2005، ص375.

(2) «محمد الصادق باي»: أو محمد الصادق باشا باي أو الصادق باي أو محمد الصادق بن حسين المولود في 7 فيفري 1813 والمتوفى في 29 أكتوبر 1882، هو باي تونس الثاني عشر منذ سنة 1859 إلى حين وفاته. برز خلال حكمه عهد الأمان الذي ينص على تحقيق العدل بين الرعية، ويؤكد على حقوق الأجانب في المملكة التي ستسمح لهم بالتدخل في الحياة السياسية.

قراءة ببليوغرافيَّة موضوعيَّة في مخطوط «الوصيَّة الكبرى»

عُرف العصر الذي عاش فيه الإمام الأسمر بكثرة الغزوات الخارجية وهجمات القراصنة الصَّليبيِّين، وليبيا آنذاك تعرضت للاحتلال الإسباني الذي تنازل عنه طرابلس في 936ه لمنظَّمة فرسان القدِّيس يوحنَّا الصَّليبيَّة المتطرِّفة[1]، كلُّ ذلك كان دافعًا له لإخراج جيل خادم للإسلام والمسلمين، إذ سعى لتأسيس مدرسة قائمة على بناء شخصيَّة إسلاميَّة سليمة. وعليه فإنَّ هدف الإمام الأسمر هو إنشاء فكر سويٍّ نابع من خطٍّ تربوي تعليمي أساسه القرآن، ويحدو فيه نهج السُّنة، وعلى هذا جاءت وصاياه صالحة لجميع الفئات ولكلِّ زمان ومكان. ذلك وتدخل الوصيَّة الكبرى ضمن فنِّ الوصايا في الأدب الإسلامي عامَّة وتصنَّف ضمن الأدب الصُّوفي النَّثري بصفة خاصَّة.

مخطوط «الوصيَّة الكبرى» أو «نصيحة المريدين لجماعة المنتسبين للعروسيَّة»[2] متداول نسبيًّا، إلَّا أنَّ نُسخه لا تزال متفرِّقة في المكتبات الخاصَّة والعامَّة، والوطنيَّة العربيَّة منها والعالميَّة أيضًا، حيث إنَّ عمليَّة جمعِها ومقابلتها وتحقيقها تحقيقًا علميًّا ليست بالمهمَّة السَّهلة. ذلك وتشتمل «الوصيَّة الكبرى» على توجيهات قيِّمة حريًّا بأن تُدرَّس لما احتوته من تعاليم ومواعظ وأحكام مُجدِّدة لما قبله، وهو مخطوط صغير الحجم يحتوي على جلِّ آداب وأركان الطَّريقة، سنحاول استنطاق أهمِّ النُّقاط التي جاء عليها في عدَّة اتِّجاهات كما يلي.

أ. أساس الوصيَّة: العقيدة والفقه

من أهمِّ الأركان التي بُنيت عليها الطَّريقة العروسيَّة والتي دفع بها الإمام الأسمر في وصيَّته الكبرى هي ترسيخ قيم ترابط العقيدة الأشعريَّة حول ما يجب معرفته في حقِّ الله بالتَّوازي مع الفقه المالكي بما هو اتِّباع للسُّنَّة النَّبويَّة القائمة على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ثمَّ التَّصوُّف الجنيدي المتمثِّل في اجتناب ما فيه شبهة شرعيَّة أو ضياع

(1) سرِّي للغاية، أحمد القطعاني دار بُشرى وكلثوم، ليبيا، 2018، ص6.

(2) العروسية: هي أحد الطرق الصوفية الشهيرة في ليبيا وتونس، وبعض البلاد العربية الأخرى، تنسب إلى الشَّيخ أحمد بن عروس (ت869ه)، ووصلت إلى الإمام الأسمر عبر سلسلة سند الشيوخ من أتباع الشيخ ابن عروس وصولًا إلى الشيخ عبد الواحد الدوكالي شيخ الإمام الأسمر، وعلى يد الأمام الأسمر اشتهرت ودخل فيها أعداد كبيرة من الأتباع من مختلف الأقطار العربية والإسلامية. للمزيد عن هذه الطريقة ينظر: موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21 هـ ـ 644م إلى سنة 1421هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ج1، ص 355 وما بعدها.

مصلحة دينيَّة، ممَّا جعل وصاياه قائمة على الجمع العملي بين هذه القواعد الثَّلاث التي نجد لها تنظيرًا في الكثير من كتب التصوف، وتحديدًا في فكر الشيخ أحمد زروق[1]، ونجد هذا الجمع العملي بين القواعد الثلاث لدى الإمام الأسمر واضح وبشكل جلي في محطَّات مختلفة من هذا المخطوط.

استهلَّ الإمام الأسمر في بداية وصيَّته، بأسلوب التَّأكيد على ضرورة تعلُّم مصادر التَّشريع الإسلامي وعلاقتها المباشرة بالمعرفة قائلًا: «فمن لم يعرف العقائد فليس بعارف». كما استخدم أسلوب اللِّين والتَّفهُّم والمعاصرة مبتعدًا عن الغلظة والتَّكبُّر والتَّكرار، الذي نقرأه في مخاطبته: «إخواني، فقد وضعت لكم عقيدة في التَّوحيد فتخرجكم من التَّقليد... فإن لم تقدروا على فهمها فعليكم بعقائد الإمام السُّنوسي» وفي هذا دفع للمريدين على العمل بالابتعاد عن التَّقليد في أصول الدِّين والوصول إلى المعرفة الحقَّة.

بالإضافة إلى حرصه تلقين إخوانه تعاليم إجلال واحترام الفقهاء والأخذ منهم وهو ما نلاحظه في استخدامه المتواصل لأسلوب الأمر الدَّال على الإلزام، في الحثِّ على تبجيلهم وتلقِّي أصول الفقه منهم: «وعليكم بمحبَّة أصحاب الفقه فامدحوهم وعظِّموهم لأنَّهم حملة الشَّريعة العزيزة». كلُّ ذلك بالتَّوازي مع المواظبة على ذكر الله وما فيه من وقع على قلب المريد باعتباره أساس بناء وصقل النَّفس والرُّوح: «وعليكم بذكر الله في كلِّ وقت من الأوقات». وكل ما مر، وغيره في محطات أخرى، أمثلة جلية على الجمع العملي بين القواعد الثلاث، فقهًا وعقيدة وتصوفًا.

ب. عمق الألفاظ الأسمريَّة ذات الأبعاد الإيجابيَّة

لا شكَّ أنَّ القارئ لهذه الوصيَّة لا ينفكُّ لسانه من تكرار لفظ: «**إخواني**» الذي حرص الإمام الأسمر على توظيفه عند مستهلِّ كلِّ نصيحة، ما يجعل الصلة بينه وبين الإمام الأسمر مستمرة، وتحمل مثل هذه الصيغ الخطابية مستويات عديدة، فهي بالإضافة لخطابها الفردي الذي يشعر به كل قارئ، في ذات الوقت لا يزال خطابها الجماعي يحقق الأخوة والربط بين مريدي الطريقة على مختلف أزمنتهم وأمكنتهم، فهم وإن كانوا

(1) للتوسع ينظر: قواعد التصوف، أحمد زَرُّوق تحقيق: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2007م.

في أماكن وأزمنة متباعدة إلا أن الخطاب يرتفع إلى مستوى اللقاء والترابط والتقارب الروحي، ويحقق مقاربة بين هذا المستوى من الخطاب الروحي والمعاني الروحية التي تحتويها تلك النصائح والتوجيهات، ما يعزز الصلة بين المُخاطِب والمُخَاطَب ولغة الخطاب ومحمولها الروحي المساوي بين كل الشرائح المُخَاطَبة دون تمييز، خصوصًا وأنه ينسبهم إليه بقوله: «إخواني».

ومن الصيغ المتداولة في الوصية التي تحقق معاني المساواة وتكتز محمولًا ودلالات في مستوى الإصلاح الصوفي، لفظة «الفقر» التي كرر الإمام الأسمر استخدامها، حتَّى أنَّه وظَّفها في عنوان الوصيَّة: «فهذه وصيَّة ونصيحة للفقراء المنتسبين إلينا»، بل نسب الفقر لنفسه في خطابه إلى النِّساء العروسيَّات قائلًا: «قولوا لهنَّ: قال لكنَّ الفقير عبد السَّلام بن سليم الأسمر الفيتوري الحازمي الزّليتني».

والواقع أن الإمام الأسمر يشارك غيره من الإصلاحيين الصوفيين في تفريغ الألفاظ ذات الدلالات السلبية وشحنها بمعانٍ لها تأثير في تغيير سلوكيات مرتبطة بأوضاع شريحة مجتمعية واسعة في إطار سعيهم للإصلاح في مستواه المجتمعي، فالدلالة الظاهرة للفظة «الفقر» المترسخة في الأذهان من عوز وفقدان مصادر الدخل والجوع وانعدام فرص التعليم والخدمات الإنسانية وما يترتب على كل ذلك من تمييز اجتماعي، يركز الصوفيون في أعمالهم الإصلاحية على تغييره بشحنه بدلالات أخرى، فالفقراء في السلوك الصوفي هم أفراد مجتمع «الإخوان» داخل الطريقة دون تمييز بسبب اختلاف التعليم أو المستوى المادي أو الطبقي الاجتماعي، علاوة على ما يوفره وصف «الفقير» في السلوك الصوفي من دعم نفسي للشرائح التي فقدت فرص العمل والتعليم والدخل الاقتصادي لمحو التمييز. لكن هذا لا يعني أن الصوفيين يرسخون معاني الفقر السلبية في مريديهم ويشجعونهم على العيش في مستوى اقتصادي متدنٍ، بل العكس من ذلك فتجدهم يدفعون مريديهم إلى رفع مستوياتهم الاقتصادية بكل مظاهره، حتى في لباسه كما نرصد في العديد من المحطات في «الوصية الكبرى» لنجد فيها أن الإمام الأسمر يحث مريديه على لبس فاخر الثياب واستخدام أنواع العطور والمنظفات[1].

(1) للتوسع حول تغيير مجددي التصوف لمعاني الألفاظ ذات الدلالات السلبية واستخدامها في السلوك الصوفي بمعاني دعم إيجابية، ينظر: موسوعة القطعاني: قراءة للوجه الآخر للتاريخ الليبي، أسامة بن هامل، ضمن أعمال المؤتمر الدولي السنوي للعلامة الشيخ أحمد القطعاني، الدورة الرابعة عام 2022م، منشورات مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، 2023م،

الوصول إلى المعرفة عن طريق رحلة الإيمان

شدَّد الإمام الأسمر على أولويَّة أن يكون الإنسان واعيًا بما خلقه الله فيه من حسٍّ وعقل، مجتهدًا بالتَّأمُّل في ملكوت الخالق، ويَسْبَحُ في الكون سائلًا مفكِّرًا، حتَّى يقع الإيمان في روحه ويرسخ، فيصل به إلى المعرفة الحقَّة، وهو ما نستنبطه من قوله: «عليكم بالنَّظر حين التَّكليف ومعرفة الدَّليل والبرهان وما يجب في حقِّ الله وما يجوز وما يستحيل»، مضيفًا: «عليكم بمعرفة الله، وعليكم بالنَّظر حين البلوغ، فمن لم ينظر ولا يأتِ بدليل ولا برهان ففي إيمانه خلاف، وعند جميع الموحِّدين مقلِّد».

ثمَّ المعرفة الصُّوفيَّة فقد حرص الإمام على توجيه أتباعه لها، وهي قائمة على الذَّوق ومرتبطة بقواعد الكلام الأشعري: «إخواني تفقَّهوا في الدِّين وتصوَّفوا». أمَّا المعرفة الحسِّيَّة فهي متكاملة مع المعرفة الإيمانيَّة: «ولا شكَّ أنَّ القلب إذا مُنِعَ الذِّكر مات كما أنَّ الإنسان إذا منع الطَّعام والشّراب يموت، ومثل الذي يذكر والذي لا يذكر مثل الحيِّ والميِّت».

ح. الوعي السِّياسي في المشروع الأسمري

يعكس خطاب الإمام الأسمر في هذه الوصيَّة فكرًا سياسيًّا واعيًا ودراية واضحة نابعة من تجربة كبرى واحتكاك فُرِض عليه من قبل الطَّبقة الحاكمة وما لحقه منها وما عايشه، وهو ما يعكس في شخصه دراسة ومتابعة سياسيَّة تظهر في تحذيره للوسط العلمي الصُّوفي من التَّملُّق أو الاقتراب من السَّلاطين وعدم الانزلاق في فخِّ الجاه بما يصلهم من قِبل الحكَّام، قائلًا: «إخواني، احفظوا أنفسكم ما استطعتم من الدُّخول في مضرَّة التّزاويق... والقرب إلى أرباب الدَّولة وإظهار الأصيات بغير حقيقة وحبّ الرِّياسة وطلب العلوِّ والتَّمرُّد والزَّندقة».

ومنه، جاء ذكر الإمام الأسمر للطَّبقة الحاكمة في هذه الوصيَّة مرتَّبًا كما رآه وانطلاقًا ممَّا عاصره، وفي هذا التَّرتيب الغير اعتباطيٍّ، وعي وبُعد نظر وتجربة، فيقول: «إخواني، وإيَّاكم وخلطة السَّلاطين والقيَّاد والوزراء والحكَّام» «فلا تخالطوهم بل ولا تقربوا الجميع ولا تقفوا عليهم ولا على منازلهم ولا على مجالسهم إلاّ لضرورة واضحة ومشقَّة

ص369.

فادحة ولم تجدوا غيرهم من يقضي لكم الحاجة منهم، فلا بأس عليكم إذا اجتمعتم بهم ولم تضرُّوا بأحد من المسلمين».

إلَّا أنَّه رغم كلِّ هذا التَّنبيه والتَّحذير من عظمة السُّلطة والسَّلاطين وضرورة تجنُّبهم، إلَّا أنَّه يُعلِّم أتباعه أدب وأسلوب معاملتهم وواجب احترامهم وخاصَّة عدم اكتساب عداوتهم، كالتَّالي: «وإذا التقيتم بالأمراء في طريق من الطُّرقات أو في قبيلة من القبائل أو غير ذلك فسلِّموا عليهم ولو بتقبيل اليدين، ويكون سلامكم عليهم بأدب وطلاقة وجه، واقرءوا لهم الفاتحة في وجوههم وادعوا لهم في حضرتهم وفي غيبتهم... وإن علمتم أنّهم يقبلون منكم النّصيحة فانصحوهم».

ض. الفكر الاقتصادي الإصلاحي

يبرز لنا الفكر الاقتصادي الإصلاحي في تحذير الإمام الأسمر مرارًا من الإسراف، والحثِّ على الزُّهد والقناعة في الدُّنيا، ذاكرًا: «فالدُّنيا دار رحيل وليست هي دار مقيل... فعليكم بالزُّهد فيها... ولا تأخذوا منها إلَّا ما يسدُّ الضَّرورة». إلَّا أنَّنا نجده في مواضع أخرى يدعو إلى ارتداء أفخم الثِّياب والتَّزيُّن حين قال: «فالبسوا الأجاريد الفاخرة والثِّياب الفائقات والشَّواشي الباهيات والعمائم الحسنات والبشاميق الباهرات... انقلوا الزُّبد والمسك وجميع الرَّائحة الفائحة»، وهذا لا يتناقض مع ما تقدَّم، بل يتماشى مع حديث «إنَّ الله جميل يحبُّ الجمال».

كما أنَّ الطِّيب والعطور سنَّة نبويَّة، وله في حياة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم شأن وأهمِّيَّة، وهو من الأمور التي حبِّبت إليه من أمور الدُّنيا، بما روي عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا ثَلاثٌ: الطِّيبُ، وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ»، كما ذكرت السيدة عائشة ﵂ قالت: «كُنْتُ أُطَيِّبُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِإِحْرَامِهِ حِينَ يُحْرِمُ، وَلِحِلِّهِ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ بِأَطْيَبِ مَا يَجِدُ، حَتَّى أَجِدَ وَبِيصَ الطِّيبِ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ»[1].

من جهة أخرى نستقرأ من الفكر الاقتصادي الإصلاحي للإمام في دعوته إلى الكسب الحلال، وما ينتج عنه من بركة وراحة يعكسها السُّحت المترتِّب عن الكسب غير المشروع والتَّواكل: «وعليكم بطلب الحلال في الجملة بأسره، وترك الحرام كلِّه كثيره

(1) أخرجه البخاري.

وقليله»، مضيفًا: «فلا تقربوا السُّحت ولا تجمعوه في أموالكم ولا تأكلوه فإنَّه يسحت الطَّاعة ويستأصلها» «ولا تكذبوا في بيوعكم وشرائكم ولا تربوا».

وبالتَّالي فقد شجَّع الإمام الأسمر في خطابه الإصلاحي على المثابرة والجهاد في الدُّنيا بالعمل في شتَّى المجالات الحياتيَّة وعدم القنوع والرِّضا بالبطالة وما يعقبها من عواقب وخيمة على الفرد والمجتمع، ومن ذلك قوله: «من بيع أو شراء أو حرث أو عمارة... ففي الفلاحة ألف راحة» وهذا يعكس وظيفة الإنسان الطَّبيعيَّة كخليفة لله في الأرض وما في ذلك من تأكيد على الإعمار الصَّحيح والعيش الواعي في الحياة.

غ. الإمام الأسمر مُربٍّ ومصلح اجتماعي

اهتمَّ الشَّيخ الإمام الأسمر في وصيَّته الكبرى بحلِّ المشاكل والأزمات الاجتماعيَّة، وطرح حلولها في إطار العالمية دون أن تعالجها في إطار قطري، وفي مستوى الاستمرارية لتكون صالحة لكل زمان ومكان وإنسان، بانيًا كل ذلك على مضامين مستوحاة من القرآن الكريم والسنة الشريفة المصدرين الأساسيين لكل تجديد صوفي. ولذا يقترح معالجة القضايا الاجتماعية الكبرى في أسسها وأصولها، كالتنبيه على قيمة الأدب كونها المنطق والأساس للقيم الأخلاقية الجامعة التي رسختها الشريعة الإسلامية، وجعلتها أهم أسس الإصلاح على المستوى الفردي والمجتمعي، بل وفي مستوى الأمة الإسلامية كلها.

ومن بين المعالجات التي قدمها الإمام في وصيته التأكيد على صفات المسلم التي لا بد لها من التزامها لصلاحه وبصلاحه ينصلح المجتمع، كحسن المعاملة للآخر: «فعاملوا خلق الله باللِّين والرِّقَّة والشَّفقة والحنان والنَّصيحة لهم». ويستخدم الإمام الأسمر في جانب الإصلاح الاجتماعي أسلوب التنبيه الخلق السني وما يقابله من خلق دني مرفوض في التعامل مع الآخر، كالتواضع والتكبر مثلًا: «وعليكم بالتَّواضع لجميع النَّاس بارٍّ وفاجر، فإن كان تقيّا فاقتبسوا منه نورًا وبركة، وإن فاجرًا ففجوره على نفسه، وتواضعوا ولا تتكبَّروا فإنَّ التَّواضع طبع الأولياء والتَّكبُّر طبع الشَّيطان الرَّجيم».

ذلك ولا نمرُّ على سطر في هذه الوصيَّة إلَّا وبه نصيحة قد استند فيها الإمام الأسمر على مصادر الشَّريعة، فكانت الحجج والدَّعائم غنيَّة بالآيات والأحاديث، دون الخروج عن شروط الشَّريعة الدَّاعمة لمبدأ «أنَّ كلَّ معروف صدقة» وفي النَّصيحة صدقة.

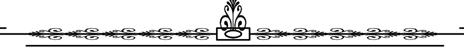
خاتمة

يزخر الموروث المكتوب للإمام الأسمر بالعطاء العلمي والأدبي الدِّيني والدُّنيوي، لخَّص جلَّها في وصيَّته الكبرى التي دلَّت بصورتها المجملة على قدراته العلميَّة الثَّقافيَّة وإمكانيَّاته الأدبيَّة التي تظهر لنا في صياغته للأفكار وفي أسلوبه الرَّاقي الذي نقل من خلاله ما يخالجه من مشاعر وأحاسيس وظَّفها في خدمة فكره ودعوته بأسلوب سهل وخطاب مباشر.

هذا وقد بُني نظام الخطاب الأسمري في «الوصيَّة الكبرى» على مقاصد وأبعاد الشَّريعة، فبرز قائمًا على جماليَّة في الحسِّ والذُّوق بمنهج واضح وبلُغة نابعة من المُحبِّ إلى المحبُوب يدعو فيها لأهمِّية العلاقة بين الدِّين والمعرفة، كلُّ ذلك في رحلة للبحث عن الهويَّة الإسلاميَّة القائمة على قوَّة الإيمان.

هذه الوصيَّة جاءت على كلِّ صغيرة وكبيرة في شتَّى الحقول الدُّنيويَّة المادِّيَّة والمعنويَّة في نظرة سابقة لعصرها، تُعدُّ خلاصة خبرة حياتيَّة ثريَّة، مكمِّلة لبقيَّة مؤلَّفاته، طرحها برقيٍّ يتناسب مع كافَّة الفئات والمستويات، وبناها انطلاقًا من أسس راسخة قائمة على قاعدة هي: «الأمَّة والعقيدة»، ثمَّ جعل خاتمة الوصيَّة تدور حول حقيقة الموت وخاتمة الحياة وما يتعلَّق بهما من نصائح جمَّة.

إذًا، سار الإمام عبد السَّلام الأسمر رحمه الله، على نهج رسولنا الكريم ﷺ، في ترك وصايا ونصائح للأمَّة وهو نهج كلِّ مؤمن قبل الانتقال إلى الرَّفيق الأعلى. وعليه، هذا المصدر الغنيُّ على جميع الأصعدة، يُعدُّ ثمرة جُهدِ عُمُرٍ وعِلمِ سنين ترك فيها الشَّيخ الأسمر بَصْمَتَهُ وطابعه وأسلوبه الخاصَّ.







الجانب الفقهي في حياة الإمام عبد السلام الأسمر

دراسة تأصيلية فقهية

أ. عبد السلام الماعزي

الجامعة الأسمرية - ليبيا

ملخص:

يعدُّ الإمام عبد السلام الأسمر من أهم علماء ودعاة الإسلام في القرن العاشر الهجري، فهو من فقهاء المالكية، وعالم في عقيدة أهل السنة والجماعة، ومن أبرز مشائخ التربية والسلوك على منهج أئمة التصوف، وأحد أهم ركائز الحركة العلمية والدعوية في ليبيا خاصة، في العالم الإسلامي عامة.

وبسبب كثرة أبعاد وجوانب شخصية الإمام، صوفيًّا وفقهيًّا ومحدثًا ولغويًّا ومصلحًا، فإن هذه المقالة تبحث الجانب الفقهي في حياته، بدءًا من تكوين شخصيته وفقه طلبه للعلم وتعلم القرآن الكريم واللغة العربية والمنطق، والفقه في عباداته، وأهم آرائه الفقهية وتأصيلها.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، المذهب المالكي، آراء فقهية، تأصيل.

مقدمة:

إن سيرة الإمام عبد السلام الأسمر لا يمكن الإحاطة بها في بضعة سطور أو اختصارها، فشخصية الإمام وجهوده وأعماله متعددة الجوانب والأبعاد كما يظهر من خلال السرد المتوفر في كل المراجع والمصادر الخاصة بسيرته وطريقته ودعوته[1]، لكن المفيد الوقوف عند محطات في حياته على علاقة بموضوع الورقة، وتحديدًا معرفته ودراسته للفقه في وقت مبكر من حياته، فوالدته السيدة سليمة وصفتها بالمصادر الفقهية العالمة الصوامة القوامة، ولا شك أنه تعلم على يدها شيء من مقدمات الفقه، خصوصًا وأنها ابنة الفقيه المالكي الشيخ عبد الرحمن الدرعي.

وفي تفاصيل سيرته الأخرى تبرز شخصية عمه الشيخ أحمد الفيتوري الذي رعاه بعد وفاة أبيه، ووصفه الإمام نفسه بأنه «من أكابر الفقهاء الطرابلسيين متبعًا لظاهر الشرع لا يخرج عنه يمينًا ولا شمالًا»[2]، وكان من بين أوجه العناية به أنه درسه مقدمات العلوم، ومنها الفقه، إذ يقول الإمام نفسه عنه: «علمني التوحيد والنحو والفقه»[3]، وبهذا ندرك بأن الإمام تأسس في تكوينه الأول تأسيسًا علميًّا متينًا أهله لمراحل التعليم التالية التي كان فيها الفقه مادة أساسية توسع في دراستها وأخذها على يد علمائها دراسة تحقيق وبحث.

كانت العملية السلوكية الصوفية التي قطعها الإمام الأسمر على يد شيخه وأستاذه ومربيه الشيخ عبد الواحد الدوكالي، قد تضمنت دراسة العديد من العلوم الحديثية والأصولية والصوفية والتوحيد وغيرها، وكان الفقه حاضرًا فيها، بل أثناء صحبة الإمام ومن أبرز العلماء الذين درس عليهم الإمام الفقه، وسنلاحظ أن الفقه كان علمًا من

---

(1) للمزيد عن سيرته العطرة، ينتظر على سبيل المثال:
تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، الدار الثقافية، بيروت، 1966.
القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1992م.
مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، لجنة الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن، 2022م.
رسائل الأسمر إلى مريديه، مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.
(2) الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، المطبعة المحمدية، 1964م، ص17.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

العلوم الأساسية في عملية التربية الصوفية من خلال دراسة الكتب المطولة المعتمدة في دراسة الفقه المالكي، إذ يقول في كتابه (العظمة في التحدث بالنعمة): أنه قرأ على شيخه الدوكالي «المختصر والرسالة ومقدمة الإمام الأشعري في علم التوحيد»[1].

وخلاصة هذه الرحلة التعليمية هي أن الإمام تخرج على يد شيخه الدوكالي قد «صار فقيهًا متفننًا»[2]، كما نقل البرموني في روضة الأزهار، وهو ما تشهده له خارطة الجدول التعليمي الذي رسمه لزاويته في مدينة زليتن، إذ اختار الرسالة والمختصر كتابين أساسيين لتدريس الفقه لمريديه وتلاميذه بالزاوية، وعلاوة على معرفته بأهمية الكتابين بالنسبة لطلاب العلم، فتدريسهما يطلب «فقيهًا متفننًا».

الجانب الفقهي في تكوين الشخصية العلمية في فكر الإمام الأسمر

للإمام الأسمر نمطه الخاص به في العلم والتعلم والتعليم والتوجيه والإرشاد لأتباعه خاصة والناس عامة، ويمكن أن نسلط الضوء على النحو التالي:

فقهه في طلب العلم

يرى الإمام الأسمر أن العلم من آكد الوسائل التي من خلالها يتوصل بها إلى معرفة الحق تبارك وتعالى، فهي أمر لا بد منه لكل مسلم، ومن ذلك ما أشار إليه في رسالته: «وأوصيكم بالحرص على طلب العلم النافع قراءة ومطالعة ومذاكرة؛ لأن علم الدين أفضل ما يحوزه العبد من المراتب العلية، وأشرف ما يكتسبه من المناقب السنية»[3].

وقال أيضًا: «تعلم العلم يكون فرض عين وهو: بقدر ما يحتاج إليه لدينه، وفرض كفاية، وهو ما زاد عليه لنفع غيره»[4]، ومنه نفهم أن مكانة العلم لدى الإمام مكانة عظيمة، لا يمكن إهمالها أو التقصير في الاعتناء بها على الوجه المطلوب.

---

(1) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ ـ 644م إلى سنة 1421هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ح1، ص378.

(2) تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م، ص93.

(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص236.

(4) نفس المصدر، ص237.

ثم إن العلوم تتفاوت من حيث شرفها وأهميتها من علم لآخر، فكل ما كان له صلة بالوحي كان له الشرف والأهمية على قدر صلته كالقرآن الكريم والسنة النبوية وعلم التوحيد والفقه. إلخ.

فقه تعلم القرآن الكريم

من المسلمات أن كلام الله ﷻ من أوائل ما يأخذه طالب العلم، فهو أصل الأصول، ومن هنا جاء كلام الإمام الأسمر رحمه الله حول تعلمه بنوع من التوسع الواضح الذي يدل على استغراقه للفكرة وفهم مضمونها فهمًا جيدًا، وقد أشار إلى ذلك في أكثر من موضع، ومنه قوله رضي الله عنه مخاطبًا مريديه: «أوصيكم بحفظ القرآن والإكثار من تلاوته إن أمكنكم حفظه؛ لأنه من السنة الشريفة، ولتكن قراءتكم له مع التدبر والترتيل والتفهم لمعانيه، ومن السنة أن يحفظ العبد بحيث يقرأه على ظهر قلب بدون النظر إلى المصحف، أي يأخذه على شيخ ماهر به، فإذا تمهّر فيه إلى بلغ الغاية القصوى يقرأه كيف يشاء خلافًا لمن قال: قراءة القرآن في النسخة[1] أكثر ثوابًا ممن يقرأه بدون النظر إليها»[2]، وتظهر شخصية الإمام الفقهية في قوله: «خلافًا» فهو يرى لا فرق في الأجر بين من يقرأ القرآن من المصحف وبين من يقرأه من حفظه، مستدلًّا على رأيه بحديث: «**الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ،...**»[3]، فشرح لفظ الماهر: «جودة اللفظ... أو جودة الحفظ، وهو المناسب ههنا، أو أن يراد به كلاهما»[4].

ويحذر من تدبر القرآن بالجهل بقوله: «فإن صعب عليكم التدبر أي فهم معانيه فلا تتدبروه بالجهل، فإن تدبرتموه بالجهل فكأنكم فسرتموه، فالمدبر كالمفسر، ومن قال بتفهمه لنفسه من غير فهم فلا أصل لكلامه، إذ لا يحل لأحد أن يقدم على شيء حتى يعلم حكم الله فيه»[5].

وكمؤشر هام جدًّا على تمهره وتبحره في علوم القرآن الكريم، نجد أنه أجرى إحصائية لعدد سور القرآن والمكي والمدني فيه، وعدد أعشاره وآياته وكلماته وحروفه.

---

(1) يقصد المصحف.
(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص238.
(3) أخرجه مسلم.
(4) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص 238.
(5) نفس المصدر.

مضيفًا فيه برأيه إلى آراء علماء الإسلام. وقد وضعت هذه الإحصائية الأسمرية في الجدول التالي[1]:

عدد سور القرآن	114
المكي منها	90
المدني منها	24
عدد أعشاره	621
عدد كلماته	79439
عدد حروفه	300070

ثم بين أن عدد آيات القرآن هو 6660 آية مفصّلًا إياها على النحو التالي[2]:

1000	أمر
1000	نهي
1000	وعد
1000	وعيد
1000	عبر وأمثال
1000	قصص وأخبار
500	حلال وحرام
100	تسبيح وتقديس
60	ناسخ ومنسوخ

فقهه تعلم اللغة العربية.

وعلم اللغة العربية عند الإمام الأسمر من أشرف العلوم، ويؤصل لضرورة تعلمه بتأصيل شرعي مقدمًا له بقوله: «تعلموا النحو فإنه زين الكلام، وجمال المنطق، وقوام اللسان. وهو علم من أشرف العلوم، ويزيد المرء بعلمه فهمًا وفضلًا، ويكبره عند العلماء، ولا يتم اللفظ أو الشعر إلا به[3]، ويستدل على ذلك بحديث النبي ﷺ: «أَعْرِبُوا الكلامَ كَيْ تُعْرِبُوا القُرْآنَ»[4]، ثم حكى اتفاق العلماء على أن النحو محتاج إليه في كل فن من فنون

(1) نفس المصدر، ص80.

(2) نفس المصدر.

(3) نفس المصدر، ص235.

(4) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير.

العلم[1]. ومثل لبعض العلوم التي لا بد فيها من تعلم النحو بقوله: «أما التفسير فلا يجوز لأحد في كتاب الله تعالى حتى يكون مليًّا بالنحو، فإن القرآن عربي، ولا يعرف مقاصده إلا بمعرفة قواعد العربية. وأما الحديث فقال ابن الصلاح: ينبغي للمحدث ألا يروي حديثه بقراءة لحَّان»[2].

فقهه في تعلم علم المنطق.

ظل علم المنطق تتجاذبه العقلية الإسلامية بين القبول والرد، والتحريم والتحليل، فمن معظم له ومقدر لدوره في عصمة الذهن وحفظه عند التفكير من الخطأ والزلل، إلى مقلل من شأنه مدعيًا بأنه لا يحتاج إليه الذكي، إلى ناقد له مرَّ الانتقاد، مبينًا بأن مبناه على أمور اصطلاحية لا على مبادئ عقلية مقررة، إلى محرِّم له جملًا وتفصيلًا، ثم جاء القرن العاشر الهجري، فكان الإمام السيوطي من حاملي لواء تحريم دراسة علم المنطق. ووسط هذه اللجة من الخلافات برز الإمام الأسمر ليقول بضرورة تعلم المنطق قائلًا: «والمشهور جوازه لمن كمل عقله، وذلك مذهب الجمهور. قال شيخنا[3]: علم المنطق علم شريف يحتاج إليه في كل شيء، فمن لم يتوغل في النحو والمنطق لا ثقة لي بعلمه؛ لأن من لا يدركهما لا يجوز له القدوم على التصانيف وقراءة الأحاديث والتفاسير»[4].

الجانب الفقهي في عبادته وآرائه الفقهية

لقد أظهر الإمام الأسمر رأيًا فقهيًّا في العديد من المسائل، وعضد كلامه فيها بعدد من الأدلة وأقوال العلماء، ومن المهم رصدها وجمعها في إطار حديثنا عن الجانب الفقهي في حياته، ومنها:

المسألة الأولى: حكم التدخين.

قال الإمام الأسمر محذرًا مريديه: «وإياكم وشرب الدخان في الفم والأنف، وهي شجرة قبيحة الرائحة تسمى بالتابغة... فلا تعانقوا شارب الدخان ولا تصافحوه ولا تسلموا عليه، فإنه ليس من الأمة المحمدية»[5]، ويعلق على قول من يقول بجوازها

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص235.
(2) نفس المصدر.
(3) يقصد الشيخ عبد الواحد الدوكالي.
(4) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص235.
(5) نفس المصدر، ص241.

قائلًا: «فإن قيل بجواز شربها عن بعضهم. قلنا: فذلك قول من لا يعتمد قوله ولا كلامه»[1]، ثم استدل بجواب شيخه الدوكالي عندما سئل عن حكم التدخين فقال: «سئل شيخنا عن شرب الدخان هل هو حرام أم لا؟ فأجاب ﷺ بما نصه: شرب الدخان عندي محرَّم؛ لثلاثة أوجه:

الأول: إنه من الخبائث، وقد حرم الله ﷻ في كتابه العزيز الخبائث، فقال جل من قائل: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾[2].

الثاني: فيه إضاعة المال، وقد نهي ﷺ عن إضاعة المال[3].

الثالث: إن فيه أكل جزء من النار وأكل النار حرام. إلى أن قال: ولا يقول بجوازه إلا من يشربه والله أعلم. وسئل عنه أيضًا والد شيخنا سيدي محمد الدوكالي ﷺ، فأجاب: إنه حرام ولو لم يكن للعلماء فيه مقال لكان يكفينا في تحريمه قولهم: لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، وهذا لا نعلم حكم الله فيه فلا يجوز لنا القدوم عليه، والله أعلم[4].

المسألة الثانية: حكم الذكر الجماعي عند تشييع الجنازة.

وهي من بين المسائل المختلف فيها، وتحديدًا حال المشيع للجنازة هل يكون صامتًا أم ذاكرًا؟ والعلماء، ومن بينهم الإمام الأسمر، الذين يرون أن يكون التشييع مصحوبًا بالذكر والتهليل؛ فوجهة نظرهم تتلخص في أن أخلاق الناس وعوائدهم قد تغيرت تغيُّرًا جذريًا، ففي زمن النبي ﷺ ومن بعده الصحابة والتابعون كان المشيِّعون تحفهم السكينة والوقار، وتعلو وجوههم الكآبة والحزن إلى درجة أن أهل الميت لا يُعرفون من غيرهم، أما اليوم فلم يعد الموت واعظًا كما كان، وأصبح المشيُّعون تتعالى أحاديثهم في شؤون الدنيا وفي ما كان عليه أمر الذي يشيعون. وما دام الأمر على هذا النحو فلا بأس، في رأي الإمام الأسمر، إذًا من حمل المشيّعين على ترديد كلمة الشهادة[5] وأن ينووا ثواب ذلك الذكر للميت[6].

---

(1) وفيه إشارة إلى قول الناظم: فليس كل خلاف جاء معتبرًا * إلا خلاف له حظ من النظر.
(2) جزء من الآية رقم (157) من سورة الأعراف.
(3) أخرجه البخاري.
(4) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص241.
(5) نفس المصدر، ص80.
(6) نفس المصدر، ص181.

بل وناقش الإمام الأسمر قول من يقول بإنكار أو كراهة هذا الفعل، فقال: «ولا التفات إلى إنكار منكر في ذلك. فإن قيل: إن الذكر الجماعي كرهه مالك. قلنا: المكروه من قبيل الجائز لا يسمى ضلالة، ولا يدخل صاحبه النار؛ وعلة الكراهة عند مالك لعدم فعل السلف[1]. لا على إطلاقه، وكم من أشياء لم تكن في عهد السلف، وهي واجبة أو مستحبة[2]، ثم ذيل الكلام بقوله: «وقد فعل ذلك بحضرة شيخنا الدوكالي ولم ينكره، وكان يمشي خلف الجنازة ويذكر الله إلى المقبرة مدة حياته»[3].

المسالة الثالثة: النياحة على الميت.

هو فعل فيه إظهار الجزع وعدم الرضا عند سماع خبر وفاة شخص، وما يقوم به في الغالب أهله وذووه، فمنعه الإمام الأسمر وحذَّر من فعله بقوله مخاطبًا مريديه: «وإياكم والصراخ عند موت الميت، والنياحة ونقر الطار الذي هو الطبل في عرف أهل بلدنا، والنديب الذي هو ضرب الخدود وتقطيع الأثواب، ولبس الهدوم، والتحزم بالحبال، وتقطيع الشعر من رأس النساء والخيل، والنداء على الميت الذي ويا كذا ويا كذا سواء كان فيه أو هم بما ليس فيه، فإن ذلك من أفعال الجاهلية، فمن فعل شيئًا مما ذكرنا فقد تبرأ من الله ومنا، وهو محارب لله ورسوله ﷺ، ونعوذ بالله من ذلك، بل إذا بكيتم على ميتكم فاخشعوا لله ﷻ، ولا تقولوا شيئًا مما يكره الشرع[4]، ويسدل على قوله بقول النبي ﷺ: «العين تدمع، والقلب يخشع، ولا أقول إلا ما يرضي الرب»[5].

(1) للقاعدة التي تنص: الترك لا ينتج حكمًا.

(2) وهي أشياء كثيرة مما لم تكن على عهد سلف هذه الأمة، كدوين العلوم وطبع المصاحف وفتح المدراس والكتاتيب.... إلخ.

(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص181.

(4) وهذا الحكم مأخوذ من نصوص كثيرة منها: عن أبي موسى الأشعري أنه قال: «أنا بريءٌ ممن برئ منه رسولُ الله ﷺ، إن رسولَ الله ﷺ بِرِئ من الصالقة (أي: الرَّافعة صوتها بالندب والنياحة)، والحالقة (أي: لرأسِها عند المصيبة)، والشاقَّة (أي: لثَوْبها)»، وفي رواية للنسائي: «أبرَأُ إليكم كما برئ رسولُ الله ﷺ، ليس منا مَن حلَق ولا خرَق ولا صلَق».

وابن حِبَّان والحاكم وصحَّحه: «ثلاثة من الكفر بالله: شقُّ الجَيْب – أي: طَوْق القميص – والنِّياحة، والطعن في النسب».

(5) أخرجه البخاري.

المسألة الرابعة: أحكام متعلقة بالمسجد.

أ. حكم تعليم الصبيان في المسجد.

جرت العادة أن يكون تعليم الصبيان القرآن وشيئًا أمور الدين من أوائل ما يتعلمونه في بداية حياتهم العلمية، وغالبًا ما يكون المكان المخصص لهم الكتَّاب أو الزاوية أو المحضرة على اختلاف المسميات، إلا أن الإمام الأسمر نبَّه إلى أمر ألا وهو تجنب تعليم الصبيان في المسجد، فقال موصيًا بعض مريديه بقوله: «وأوصيكم بأن تبادروا بصبيانكم إلى المكتب؛ ليتعلموا القرآن وليختلط بلحومهم ودمائهم، كما أن قراءة الصغير كالنقش في الحجر، وقراءة الكبير كالنقش في الرمل، ولا يجوز للمؤدب أن يعلم الصبيان في المسجد القرآن، فإن فاعل ذلك يأثم[1]، واستدل بقول النبي ﷺ: «جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ»[2].

ب. ما يجب فعله في المسجد.

نبه الإمام الإسمر رحمه الله على أمور تتعلق بالمساجد، ومنها وجوب تعظيم المسجد؛ لأنه بيت لله، فلا يفعل فيه شيء لا يليق به ولو بالكلام: «يجب تعظيم المساجد، ففي تعظيمها تعظيم الله تعالى؛ لأنها بيوت الله، وإذا جلستم فيها أو اعتكفتم فيها فلا تتكلموا فيها بكلام الدنيا، كزيد باع أو اشترى أو مشى...، فلا يحل لمسلم أن يتكلم بشيء في المسجد من كلام الدنيا». إلى أن تطرق إلى نقاط:

الأولى: حرمة الكلام الفاحش والغيبة والنميمة في المسجد وفي غيره.

الثانية: جواز الذكر في المسجد وتلاوة القرآن من غير صوت عالٍ.

---

(1) إذا كان حكم متعلق بمن أدخل الصبيان لأجل التعلم، فمن باب أولى من أدخلهم لغير ذلك، وفصَّل العلماء القول في هذا على النحو التالي: **الحنفية** قالوا: إذا غلب على الظن أنهم ينجسون المسجد يكره تُحريمًا إدخالهم، وإلا يكره تنزيهًا.

المالكية قالوا: يجوز إدخال الصبي المسجد إذا كان لا يعبث، أو يكف عن العبث إذا نهي عنه، وإلا حرم إدخاله، كما يحرم إدخاله وإدخال المجانين إذا كان يؤدي إلى تنجس المسجد.

الشافعية قالوا: يجوز إدخال الصبي الذي لا يميز والمجانين المسجد إن أمن تلويثه وإلحاق ضرر بمن فيه، وكشف عورته، وأما الصبي المميز فيجوز إدخاله فيه إن لم يتخذه ملعبًا وإلا حرم.

الحنابلة قالوا: يكره دخول الصبي غير المميز المسجد لغير حاجة، فإن كان لحاجة كتعليم الكتابة، فلا يكره إدخال المجانين فيه أيضًا. الفقه على المذاهب الأربعة، للجزيري (1/ 261).

(2) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى.

الثالثة: لا ينشد فيه ضالة خلا مسجد مكة[1].

الرابعة: لا ينازع في مكان، ولا يضيق على إنسان، ولا يؤذي أحدًا.

الخامسة: لا يرفع فيه صوتًا مزعجًا كأصوات الحمير.

السادسة: يمنع منه الصبيان والمجانين والسكارى والكفار.

السابعة: يكره اتخاذه مجلسًا للقضاء، ونقشه واتخاذ الشرفات له، والبيع والشراء فيه وإن قل للمعتكف[2].

ج. حكم إقامة الحدود وتأديب أصحاب الصنائع.

هذه من الأشياء التي ينزه المسجد من أن تفعل فيه، فمتى وقع خصومة بين أشخاص فلا توقع العقوبة على الجاني في المسجد، سواء كانت حدًّا أو تعزيرًا، ولذا أشار لها بقوله: «وكذلك التأديب فيه للصنائع لا يسوغ».

المسألة الخامسة: القصر والجمع في الصلاة.

يقول الإمام الأسمر رحمه الله منبهًا مريديه بقوله: «وإياكم أن تستغلوا القصر والجمع في غير محله، فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[3]، وهذا من لطيف إشاراته حيث إنه يبين أن إتيان الرخص لا يكون أقل من حيث الأداء والإتقان في العمل من إتيان العزيمة، فلا بد من حصول ضوابط وشرائط الأخذ بالرخص قبل الإتيان بها، وهو مقصوده من قوله: «وإياكم أن تستغلوا القصر والجمع في غير محله».

المسألة السادسة: حكم أكل المسمومات.

اختلف العلماء في القول فيما يباح أكله وما يكره وما يحرم كما هو مبين في كتب الفقه، إلا أن الإمام الأسمر اتخذ منهجًا فيما يتعلق بأكل المخلوقات التي من شأنها أن

(1) وهذا القول للشافعية حيث قالوا: يكره فيه إنشاد الضالة إن لم يهوش على المصلين أو النائمين، وإلا حَرُم، وهذا في غير المسجد الحرام، فإنه لا يكره فيه إنشاد الضالة؛ لأنه مجمع الناس، وبهذا يكون الشيخ قد خالف أصل مذهب المالكي الذي يقول بحرمة إنشاد الضالة في المسجد؛ لقوله ﷺ: «إذا رأيتم من ينشد الضالة في المسجد، فقولوا له: لا ردها الله عليك» وهذا الحكم متفق عليه، إلا أن للشافعية فيه تفصيلًا، ينظر: الفقه على المذاهب الأربعة، للجزيري(1، 262).

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص289.

(3) يشير إلى الحديث الذي رواه ابْنُ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ - ﷺ- قَالَ:«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُهُ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ».أخرجه البيهقي في السنن الكبرى.

تحمل السمَّ، إما في فمها وبين أنيابها، أوعلى جلدها، فأشار إلى رأيه في المسألة الذي يعد من اختياراته مع اعتبار الآراء الأخرى، حيث قال: «ولا ينبغي أكل السمومات كالحية المذكية ولو أمن سمها؛ لأن ذكاتها صعبة وسموماتها كثيرة في عظم ومفصل منها، وقد قالوا: ذكاتها صعبة؛ لأن المذكي لها إذا لم يقطع في موضع ذكاتها شيء من رأسها وذنبها في دفعة واحدة لم ينج من سمومتها؛ لأنه إذا بقي شيء منها ولو جلدة لم تؤكل؛ لأن السم يسري فيما بقي منها لو جلدة، وربما يكره أكلها من غير ضرورة كما لابن حبيب»[1][2].

المسألة السابعة: حكم دخول بلاد الوباء.

هذه المسألة من مسائل القديم الجديد، فهي مما يعرف في وقتنا الحاضر بالحجر الصحي، إلا أن الكلام فيها هنا من ناحية شرعية لا طبية، فقال الإمام الأسمر ﵀: ولا تدخلوا بلادًا فيها قتال وأفتان أو وباء أو طاعون، والوباء اسم لكل مرض عام، وأن طاعون وباء، وليس وباء طاعونًا[3]، ثم بين الحكم في الفرار والدخول من أرض الوباء بقوله: وقد يجوز الفرار من ذلك ويكره الدخول عليه وربما يحرم[4]، وبين وجه النهي عن الدخول ناقلًا استنباط الحافظ ابن حجر بقوله: «من أحد الأوجه في النهي عن الدخول إلى بلد الطاعون وهو منع التعرض إلى البلاء، ومن الأدلة الدالة على مشروعية الدواء والتحرُّز في أيام الوباء من أمور أوصى بها حذاق الأطباء».

ثم نقل عن الحنفية ما يفيد جواز الفرار من الطاعون إذا نزل ببلدة. فقال: «إذا تزلزت الأرض وهو في بيته يستحب له بل يجب له الفرار إلى الصحراء؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[5]، وفيه قيل: إن الفرار مما لا يطاق من سنن المرسلين،

(1) قال المالكية: «لا نزاع عندهم في تحريم كل ما يضر، فلا يجوز أكل الحشرات الضارة قولاً واحدًا أما اذا اعتاد قوم أكلها ولم تضرهم وقبلتها أنفسهم فالمشهوم عندهم أنها لا تحرم، فإذا أمكن مثلًا تذكية الثعبان مثلًا بقطع جزء من عند رأسه ومثله من عند ذنبه بحالة لا يبقى معها سم وقبلت النفس أكله من دون أن يلحق منه ضرر حل أكله، ومثله سائر الحشرات». الفقه على المذاهب الأربعة، للجزيري (2/ 7).

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص179.

(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص258

(4) نفس المصدر.

(5) جزء من الآية رقم (195) من سورة البقرة.

معقبًا بقوله والحديث[1] بخلافه[2]، ثم قال: وقولنا: وإذا سمعتم به تقدموا عليه، تحذيرًا منه ونهيًا للتعرض للتلف، إذ لا يجوز إلقاء النفس في التهلكة. وفي قوله: لا تخرجوا فرارًا، لإثبات التوكل والتسليم لقضائه، فإن العذاب لا يدفعه الفرار، وإنما يدفعه الثبوت والاستغفار، فلو خرج لحاجة من غير فرار جاز.

وذكر بعضهم في تأويل الحديث فقال: إذا كان بحال لو دخل وابتلي به وقع عنده أن ابتلي بدخوله، ولو خرج فنجا وقع عنده أنه نجا بخروجه فلا يدخل ولا يخرج صيانة لاعتقاده[3]. وإذا كان يعلم[4] أن كل شيء بقدر الله تعالى، وأنه لا يصير إلا ما كتب الله فلا بأس أن يدخل ويخرج[5].

المسألة الثامنة: تفضيل العلم على العبادة

يقرر الإمام الأسمر هذه المسألة ناقلًا إياها عن شيخه عبد الواحد الدوكالي، حيث يقول: «النظر في كتب الفقه والتصوف خير من قيام وإن بلا سماع[6]، وكذا درس الفقه

---

(1) عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاس: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خَرَجَ إِلَى الشَّأْم، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ، أَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاح وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْم. قَالَ ابْنُ عَبَّاس: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لِي المُهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْم، فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ المُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ رَجُلاَنِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟ نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ - فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ» قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ. أخرجه البخاري.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص259.

(3) لما فيه من الاعتماد على الأسباب دون الاعتماد على المسبب، وهو الله سبحانه وتعالى.

(4) أي: يعتقد.

(5) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص262.

(6) يقصد بالقيام الذكر، وهو قائم.

للمتفقه أفضل من قراءة القرآن، وكذا فضل العالم على العابد إذا نفع العالم لنفسه ولغيره ونفع العابد لنفسه[1][2].

المسألة التاسعة: مواضع يكره فيها الصلاة والسلام على النبي ﷺ.

ومن المعلوم أن الصلاة والسلام على النبي ﷺ من الأمور المطلوبة شرعًا، إلا أن الإمام الأسمر وضح مواضع يكره فيها الإتيان بها:

تكره عند الذبح.

عند العطاس.

عند الجماع.

عند العثر.

عند التعجب.

عند إشهار البيع.

عند قضاء الحاجة.

عند الأكل.

مواضع الأقذار.

وقد نقل كراهة هذه المواضع عن الإمام ابن القاسم[3].

تأصيل المسائل الفقهية عند الشيخ الأسمر

وفي آراء الإمام الأسمر الفقهية تظهر بعض الجوانب الأصولية من خلال الحكم على المسائل، أو الجمع بين المتعارض، أو بيان ما هو الأولى، ويمكن رصد ذلك في عدة مسائل:

---

(1) وهذا التأصيل مأخوذ قول النبي ﷺ الذي يروى عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ، قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلاَنِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ. أخرجه الترمذي.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص237.

(3) نفس المصدر، ص178.

المسألة الأولى: ترك أكل المكروه.

وهذه تقرر قاعدة، وهي مما انفرد بها الصوفيون دون غيرهم، وهي ترك المكروه سواء كان فعلًا أو قولًا أو أكلًا، وهذا من البعد المقاصدي عندهم، فهم ينظرون إلى الآمر لا إلى الأمر.

وأهل التصوف يمتثلون الأمر والنهي تجريدًا، تعبدًا للآمر، فإنهم لأمر اقتضاء واحد هو طلب الفعل، وكذلك النهي وهو الترك، فليس لدى الصوفية فرق بين واجب ومندوب، أو بين حرام ومكروه[1]، وهذا ما نبه عليه الإمام الشاطبي في قوله: «وَهَذَا الِاعْتِبَارُ جَرَى عَلَيْهِ أَرْبَابُ الْأَحْوَالِ مِنَ الصُّوفِيَّةِ، وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ مِمَّنِ اطَّرَحَ مُطَالَبَ الدُّنْيَا جُمْلَةً، وَأَخَذَ بِالْحَزْمِ وَالْعَزْمِ فِي سُلُوكِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ؛ إِذْ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ وَاجِبٍ وَمَنْدُوبٍ فِي الْعَمَلِ بِهِمَا، وَلَا بَيْنَ مَكْرُوهٍ وَمُحَرَّمٍ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ بِهِمَا، بَلْ رُبَّمَا أَطْلَقَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْمَنْدُوبِ أَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَى السَّالِكِ، وَعَلَى الْمَكْرُوهِ أَنَّهُ مُحَرَّمٌ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ عَدُّوا الْمُبَاحَاتِ مِنْ قَبِيلِ الرُّخَصِ كَمَا مَرَّ فِي أَحْكَامِ الرُّخَصِ»[2].

والإمام الأسمر على مذهب الصوفيين، ولذا نجده يقول: «العروسي لا يأكل المكروه ولا المختلف فيه إلا عند الاضطرار كالأسد، والذئب، والفهد، والضبع، والهر مطلقًا، والنمر والكلب مطلقًا؛ لخبر: كل ذي ناب من السباع حرام[3]، وظاهر المذهب الكراهة»[4].

المسألة الثانية: الجمع بين الروايات المتعارضة.

تكلم الإمام الأسمر عن مكانة الروح في الحياة وبعدها، ففي الحياة مقرها القلب، وبعد الممات في البرزخ مختلفة، وله ثلاثة أشياء: حال، وزمان ومكان «فحاله: الأرواح، وزمانه: من حين الموت إلى يوم القيامة، ومكانه: من قبره إلى عليين»، ويزيد قائلًا:

---

(1) الصوفية في البعد المقاصدي «دراسة تحليلة»، رائف محمد النعيم، مجلة الجامعة الأسمرية، المجلد السادس ديسمبر 2006، ص509.

(2) الموافقات، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1997م، ج3، ص536.

(3) أخرج البخاري.

(4) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص 178.

«فأرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الجنة، وأرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها، وأرواح السعداء من المؤمنين قيل بأنها على أفنية القبور»[1].

ثم يوضح رأيه بقوله: «والمعنى عندي أنها تكون على أفنية القبور، لا أنها تدوم ولا تفارق، بل كما قال مالك تسرح حيث شاءت.... وفي ذلك أقوال، وما أخبرتكم به من أن الأرواح على أفنية القبور هو الصحيح»[2]، ثم جمع بين هذه الأقوال بقول الإمام ابن حجر الذي أورده بقوله: «أرواح المؤمنين في عليين، وأرواح الكفار في سجين، ولكل روح بجسدها اتصال معنوي لا يشبه الاتصال في الحياة، بل أشبه به حال النائم، وإن هو أشد من حال النائم اتصالًا»، ثم يعلق على هذا القول: «وبهذا يجمع بين ما رواه صاحب الهداية: إن أرواح الكفار في سجين، وبين ما نقله ابن عبد البر عن الجمهور: أنها عند أفنية قبورها. وإذا نقل من قبر إلى قبر فالاتصال المذكور مستمر، وكذا إذا تفرقت أجزاؤه»[3].

المسألة الثالثة: تخريج الفروع على الأصول.

يعد علم تخريج الفروع على الأصول من العلوم المتأخرة، إلا أنها تحتاج إلى من له الملكة الفقهية الواسعة، ففي هذه المسألة يخرج الإمام الأسمر حكم أخذ العهد في الطريقة، حيث يقول: «واعلموا أن أخذ العهد له أصل في الشرع العزيز؛ لأن الله تعالى أخذه من الأرواح قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[4]، قال: هلموا أعهدكم... وحرضهم على العهد فمن نسي عهد الله تعالى انتقم منه بناره، ومن أوفى بالعهد كان من أهل الجنة، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم

---

(1) نفس المصدر.
(2) نفس المصدر.
(3) نفس المصدر، ص 186.
(4) جزء من الآية رقم (172) من سورة الأعراف.
(5) جزء من الآية رقم (40) من سورة البقرة.

مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةً﴾[1]. والحاصل أن أخذ العهد له أصل في الكتاب والسنة والإجماع»[2].

خاتمة:

وبعد هذه الرحلة مع الإمام الأسمر فقهيًّا، يمكننا أن نخلص إلى الآتي:

1. حثَّ الإمام الأسمر مريديه وأتباعه على ضرورة طلب العلم، خاصة ما كان منه فرض.

2. الوقت الذي يقضى في طلب العلم أفضل مما يقضى في العبادة.

3. يبني الإمام الأسمر الأقوال الفقهية على الأصول المعتبرة: الكتاب والسنة والإجماع.

4. للإمام الأسمر اطلاع واسع ودقيق بالقرآن الكريم وعلومه.

5. للإمام الأسمر اهتمام كبير بعلم العقيدة، ويؤمر مريديه بتعلم العقيدة الأشعرية.

6. ينوِّع الإمام الأسمر في توضيح التقاسيم والأنواع للمواضيع يتناولها بالدرس كأنواع الشرك وأنواع الشكر وأنواع القلب وأنواع الوساوس... إلخ.

7. للإمام الأسمر باع في استخلاص القواعد والحكم من النصوص الشرعية، كقوله: الفاعل لوجوه الناس مردود العمل.

8. للإمام الأسمر اطلاع بشتى العلوم النقلية والعقلية، فهو من العلماء الذين قلَّ نظيرهم في زمنه ومن بعد ذلك.

9. يظهر أثر التأسيس الشرعي والتأصيل الفقهي اللذين قام بهما الإمام الأسمر على مدى حياته العلمية والعملية ظهورًا بينًا في آثاره ومؤلفاته ورسائله.

---

(1) جزء من الآية رقم (13) من سورة المائدة.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص324.




جهود الشيخ عبد السلام الأسمر في نشر الفقه المالكي تدريسًا وإفتاءً وتأليفًا ونشرًا

الشيخ فرج كندي

مركز الكندي للدراسات والبحوث - ليبيا

ملخص:

تتناول هذه المقالة موضوع الجهد العلمي والتوثيقي الذي قام به الإمام عبد السلام الأسمر في حفظ التراث الفقهي لإمام دار الهجرة مالك بن أنس، تعليمًا وتحصيلًا ونشرًا في ليبيا وخارج حدودها المعروفة اليوم.

وهي محاولة لتتبع مراحل تحصيل الإمام الأسمر للعلوم الشرعية عامة والفقه المالكي خاصة، من خلال متابعة تكوينه العلمي على يد الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، سواء في محيطه الأسري أو خارج نطاق مدينة زليتن، وأهم مصادر الفقه المالكي التي أخذها عنهم في حلقات العلم من الشروح لأمهات كتب الفقه المالكي.

وتتقصى المقالة جهود الإمام الأسمر في نشر وتعليم الفقه المالكي بعد أن استكمل تكوينه العلمي، وأصبح أهلًا للجلوس للتعليم، والأدوات والأساليب والوسائل التي استخدمها في نشر الفقه المالكي ابتداءً من زاويته التي أسسها وتنقلاته بين المدن الليبية، والطلاب الذين قصدوه من كل أرجاء المعمورة.

وترصد المقالة المساحة الجغرافية التي وصل إليها انتشار الفقه المالكي على يد الإمام الأسمر، باعتباره مؤشرًا ودليلًا على جهده الكبير والمتواصل الذي بذله في نشر الفقه المالكي وتعزيز مكانته لدى طلابه ومريديه.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الفقه المالكي، تأصيل، تدريس.

مقدمة:

بعد دخول الإسلام إلى ليبيا في فترة مبكرة من مسيرة الفتوحات الإسلامية (سنة 21 هجرية)، بدأت محطات ومراحل الاستقرار تتوالى حتى انصهرت البلاد في الدين الجديد في شكل وحدة مجتمعية وجغرافية ذات طبيعة ولون خاص، وكان من بين أسس هذا التشكل المذهب الفقهي لحاجة الناس له في حياتهم ومعاملاتهم، وكون المذهب المالكي الأكثر انتشارًا في الشمال الأفريقي فقد عرفته ليبيا بشكل مبكر، خاصة على يد الدعاة المتوافدين بهدف نشر الدعوة في المنطقة والعمل على ترسيخ قيم الدين ومبادئ الشريعة بين الداخلين الجدد في الإسلام.

وكان من بين أبرز البعثات التي وصلت للبلاد، بعثة الفقهاء العشرة الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز في أواخر القرن الأول الهجري، فقوي بدروسهم الدين، وعمت معارفه كافة أرجاء القُطر كما قال العلامة محمد الفاضل ابن عاشور: «وأقبل هؤلاء العشرة فأشاعوا الرشد، وبثوا العلم وعلموا الحلال والحرام، وحرصوا على الأمن والتآخي والمؤاساة، وبثوا دعوة الإسلام بين البربر، وضربوا لهم مثل العدل والحق والرحمة والسيرة الصالحة، فكان إسلام البربر نهائيًّا من آثار هذه البعثة الكريمة»[1]، ما أنتج إقبالًا كبيرًا من الليبيين على طلب العلم، فقد «انقدح زناد الفكر في طلبة العلم من أهل طرابلس فازداد شغفهم بالعلم وتحصيله، وتوسعوا في طلبه ونشره إلى أن اتسعت دائرة أهل العلم في وطنهم، ثم اشرأبوا إلى تحقيق الرحلة العلمية إلى المشرق، حيث أخذ بعضهم العلم في مصر والحجاز، وأخذه آخرون في أراضي العراق ودياره فقد عملوا -كما يُحدِّث التاريخ- على توثيق السند العلمي بأعلام أصحاب المذاهب الفقهية الإسلامية، وبخاصة المذهبين الإباضي والمالكي من المذاهب السنية السائدين في طرابلس»[2] وبذلك أخذ المذهب المالكي يتجذر ويتوسع في الغرب الإسلامي بصفة عامة وفي القطر الليبي بصفة خاصة.

---

(1) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، محمد الفاضل ابن عاشور، مكتبة النجاح، تونس، دون ت، ص11.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

وكان من بين أصحاب الإمام مالك وتلاميذه المباشرين جملة من الليبيين الذين برزوا كأعلام وأئمة في المذهب المالكي، كالشيخ علي بن زياد الطرابلسي (183هـ) الذي رحل إلى المشرق وتتلمذ على الإمام مالك بن أنس بشكل مباشر، وروى عنه الموطأ، ويعد هو أول من أدخل الموطأ الى الشمال الأفريقي وليس ليبيا فقط[1]، والشيخ محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي صحب هو الآخر الإمام مالك[2]. ثم توالى الاهتمام بالمذهب المالكي وتدريسه ونشره حتى استقر مذهبًا للبلاد، وخدمه أغلب علماء البلاد كعبد الجبار السرتي وابن غالب المصراتي وأبو إسحاق الأجدابي وابن زكرون وتلميذه ابن المنمر، والامام أحمد زروق وصولًا إلى الإمام الأكبر سيدي عبد السلام الأسمر[3].

حياة الإمام الأسمر

ولد الإمام الأسمر، الذي ينتمي إلى الفواتير أحد فروع الأدارسة الحسنيين، بمدينة زليتن، ونشأ بها في أحضان أسرة تتكون من أمه السيدة سليمة بنت العالم المغربي الكبير الشيخ عبد الرحمن الدرعي، وعمه السيد أحمد الفيتوري الذي تزوج بالسيدة سليمة بعد وفاة أخيه السيد سليم. وفي أحضان هذه الأسرة تلقى رعاية خاصة انعكست فيها أجواء العلم الذي كانت تعيشه، فحفظ القرآن الكريم في وقت مبكر من حياته، قبل أن يهتم عمه الشيخ أحمد بتعليم ابن أخيه مقدمات العلوم.

ويقول الإمام الأسمر عن عمه: «علمني التوحيد والنحو والفقه»[4]، ووصفه بأنه: «من أكابر الفقهاء الطرابلسيين متبعًا لظاهر الشرع لا يخرج عنه يمينًا ولا شمالًا»[5]، ودون شك فإن عمه كان فقيهًا على المذهب المالكي، فهو المذهب المنتشر وقتها في طرابلس

(1) للمزيد ينظر: علي بن زياد الطرابلسي ودوره في نشر المذهب المالكي في القرن الثاني الهجري، محمد مسعود جبران، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 2001. وكذلك: أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم ومركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الإسلامية، طرابلس، ط1، 2021م، ج2، ص185 وما بعدها.

(2) أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، مصدر سابق، ج2، ص14 وما بعدها.

(3) للمزيد عن أعلام المذهب المالكي في ليبيا، ينظر: أعلام من رواد المدرسة المالكية في ليبيا، فرج كندي، مركز الكندي للدراسات والأبحاث، طرابلس، 2023م.

(4) الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، المطبعة المحمدية، القاهرة، 1964م، ص17.

(5) نفس المصدر، نفس الصفحة.

والمناطق المجاورة لها، وبالتالي فالفقه الذي درسه عليه الإمام الأسمر كان فقه المذهب المالكي، وبهذا تكون هذه المحطة من حياة الإمام هي أولى محطات تعرفه ودراسته للمذهب المالكي.

وفي المرحلة اللاحقة في العملية التعليمية في سيرة الإمام، نجد أنه انتقل لدراسة المطولات والكتب المعتمدة في الفقه المالكي على يد أستاذه الشيخ عبد الواحد الدوكالي، فيحدثنا في كتابه: «العظمة في التحدث بالنعمة» أنه درس على يد أستاذه: «ومما أنعم الله به علي لم أفارق حلقة شيخنا الدوكالي منذ عرفته إلى أن مات، وكنت أقرأ عليه المختصر والرسالة ومقدمة الإمام الأشعري في علم التوحيد»[1]، وفي نص آخر نقله لنا الشيخ كريم الدين البرموني قال فيه: «قرأ على شيخه الدوكالي المختصر والرسالة والحكم والتوحيد والمعقول وغير ذلك من العلوم حتى صار فقيهًا متفننًا»[2].

وإن كنا لا نعرف متون أو كتب الفقه المالكي التي درسها الإمام على يد عمه، إلا أنه في تلك السن المبكرة من المرجح أنه درس مقدمات في الفقه المالكي كالمتون المنظومة الميسرة مع شروحها، لا بد من دراستها قبل المرور إلى كتب ومتون المرحلة الثانية في سلم تعليم الفقه المالكي وتحديدًا كتاب رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ثم مختصر خليل في المرحلة الثالثة، والكتابين الأخيرين درسهما على شيخه الدوكالي.

وفي العموم عرفتنا هذه الجولة في المراحل الأولى من حياة الإمام على صلته بالمذهب المالكي والكتب والمصادر التي درسها في فترة تكوينه. وأكثر من ذلك فإن عبارة شيخه الدوكالي عندما خاطبه بقوله: «الشيخ ما يخدم شيخًا» بعد سبع سنوات من الدراسة عليه، تفيد بأنه أجازه فقد «صار فقيهًا متفننًا» كما يخبرنا البرموني الذي أفادنا أيضًا أن الإمام زار ثمانين عالمًا من علماء البلاد، وشهدوا له بالأهلية للتدريس والدعوة، وهي شهادات تفيد بإجازتهم له أيضًا، ومثل هذا القدر من الإجازات لم نقرأ في كتب السير أنه اجتمع لغيره من العلماء رحمهم الله.

وعاد الإمام الأسمر بعد هذه الرحلة العلمية والصوفية إلى «مسقط رأسه وبلده زليتن، وقام بوضع لبناته الأولى في دعوته الإصلاحية فأسس زاويته بها، وابتدأ السير

(1) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ ـ 644م إلى سنة 1421 هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ج1، ص378.

(2) تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م، ص 93.

في دعوته من خلال مخطط مزدوج يستهدف أولهما: شريحة من كان في طور الدراسة والطلب، فإلى جانب تحفيظ القرآن الكريم لصغار السن انتظمت الحلقات الدراسية لكبارهم، لتتناول مباحث العقيدة، والتفسير والحديث والفقه وأصوله وعلوم اللغة العربية وآدابها. أما ثانيهما: فيستهدف الشريحة الأخرى من المجتمع، وهم كبار السن ومن فاته ركب التعليم بسبب مشاغل الحياة ومقتضيات المعيشة، وهم الفئة الأكثر في المجتمع يومها، فانتظمت بهم حلقات العلم والوعظ والإرشاد»[1]، التي كان الأسمر يقوم بها بنفسه أو يشرف عليها من خلال تلاميذه الكبار «فقد ورد عنه أنه كان يجلس لمحاضرته الأولى في علم التوحيد من فترة الضحى إلى صلاة الظهر، ومحاضرته الثانية في علم الفقه وتبتدئ من الظهر إلى العصر، وكان جزؤها الأول في رسالة ابن أبي زيد القيرواني، والجزء الثاني في مختصر خليل»[2].

كتب الفقه التي اعتنى الإمام الأسمر بتدريسها في زاويته

اعتنى الإمام الأسمر بتدريس كتب الفقه المالكي بمختلف مستوياتها المناسبة لمراحل تدريس المذهب المالكي، ما يعكس سعة اطلاعه وتبحره في استيعاب الفقه المالكي من مصادره الموثوقة، ثم جهوده في نشر هذا العلم بين طلابه ومريديه في أرجاء واسعة من المعمورة.

من المؤكد أنه اعتنى بكل مصادر وأصول وكتب المذهب، إلا أننا سنقتصر على ذكر الكتب التي ورد ذكرها في سيرته وبعض كلامه، ففي برنامج المحاضرات والدروس اليومية التي اعتمدها في زاويته، وأسلفنا الحديث عنها، تذكر المصادر أنه درس في الفقه كتابي الرسالة والمختصر، وجاء في ثنايا وتفاصيل بعض حواراته مع علماء عصره كالشيخ سالم الحامدي ذكر المدخل لابن الحاج، وجامع الأمهات لابن الحاجب، والمعيار للونشريسي، وأنه استخلص منها المسائل التي دارت حولها المناقشة، ونقل جواب العلماء منها من حفظه، ما يدل على دراسته لهذه المصادر وتمهره فيها[3].

---

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م، ص31.

(2) عبد السلام الأسمر آراؤه و أفكاره في ميزان الشريعة، محمد عزالدين الغرياني، الشركة العامة للورق والطباعة، سبها، د.ت، د.ط، ص10و11.

(3) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص98.

1 - **كتاب الرسالة:**

للشيخ عبد الله بن أبي زيد القيرواني (310هـ)، وهو من أهم كتب الفقه المالكي، وحظي بالقبول والاهتمام من أئمة المذهب، ويعد المصدر الثالث في المذهب المالكي بعد الموطأ والمدونة، حيث حوى أزيد من أربعة آلاف مسألة، وصغر حجمه يدل على نهج مؤلفه الاختصار والاعتماد على مشهور المذهب ليكون متنًا للمبتدئين، ولذا اعتمده علماء المذهب المالكي متنًا لدراسة المذهب في المرحلة الثانية من سلم التعليم الفقهي في المذهب. وقد شرحه العديد من علماء المذهب.

1 - **المختصر:**

للشيخ خليل بن إسحاق (767هـ)، وكتابه المختصر هذا من الكتب المعتمدة في الفقه المالكي، وأساسي للطلاب في المرحلة الثالثة من دراسة المذهب المالكي، قضى خليل بن إسحاق في تأليفه قرابة العشرين سنة، وضم فيه أزيد من مائة ألف مسألة في اثنين وستين بابًا وثلاث وستين فصلًا، واعتنى بشرحه فقهاء المذهب المالكي منذ عهد مؤلفه وحتى اليوم.

2 - **جامع الأمهات:**

للشيخ عثمان بن الحاجب (646هـ)، ويسمى المختصر الفرعي، واشتهر بين المشتغلين بالفقه المالكي باسم مؤلفه «ابن الحاجب»، وهو كتاب للمتقدمين في دراسة الفقه المالكي لما جمع من مسائل المذهب وفروعها ملخصة من أقوال علماء المذهب وكتبهم المشهورة، نهج فيه نهج ابن أبي زيد القيرواني في النوادر والزيادات، إلا أن علماء المذهب فضلوا ابن الحاجب على نوادر ابن أبي زيد بالنسبة لطلبة العلم؛ لاقتصاره على المشهور والراجح دون توسع في ذكر الأدلة، وبسبب أنه جمع ما جمعته أمهات كتب المذهب. وقد حظي هو الآخر بعناية علماء المذهب فوضعوا عليها العديد من الشروحات.

3 - **المعيار المعرب:**

للشيخ أحمد ين يحيى الونشريسي (914هـ)، واسمه «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب»، وهو كتاب جامع لفتاوى علماء

المذهب واجتهادات الفقهاء، من القيروان، وبجاية، وتلمسان، وقرطبة، وغرناطة، وسبتة، وفاس، ومراكش، وغيرها من عواصم الغرب الإسلامي طوال ثمانية قرون. وبالإضافة لما جمعه وفرادة موضوعه، فإن هذا الكتاب تميز بأن ضم الكثير من النقول عن مصادر مالكية ضاعت، فأصبح المرجع والمصدر للكثير من الآراء والنصوص التي ضاعت أصولها.

4 - كتاب المدخل:

للشيخ محمد العبدي الفاسي المعروف بابن الحاج (737هـ)، واسمه المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة، وعُرِفَ اختصارًا بالمدخل، وابن الحاج، دعا فيه صاحبه الى التمسك بالمباحات واجتناب المحرمات، والتخلي عن العادات التي تتعارض مع الشريعة، ولقي الكتاب قبولًا واسعًا، وأثنت عليه العلماء من المذهب المالكي، وغيرهم من علماء المذاهب الأخرى.

شروح الإمام الأسمر على كتب الفقه المالكي

ويجب أن نتوقف عند مسألة هامة تتعلق بتدريس الإمام لهذه الكتب، فتدريسها بالنسبة للطلبة لا بد وأن يكون بشرحها، وحيث أن المصادر ذكرت لنا أسماء هذه الكتب واعتماد الإمام لبعضها، كالرسالة والمختصر، لتدريسها في زاويته دون أن تذكر لنا كتب الشروحات عليها التي اعتمدها الإمام، فهذا يعني أنه من كان يشرحها لطلابه دون الاعتماد على شروح علماء المذهب، ويدل على ذلك قدرته الفائقة على استيعاب قواعد ومسائل المذهب وتقريرها وشرحها كما ظهر في مناقشته مع الشيخ سالم الحامدي وطلابه لكتب المدخل وابن الحاجب والمعيار. ويبقى السؤال المؤلم: أين هي شروح الإمام على هذه الكتب الهامة في المذهب؟، بكل تأكيد هي شروح تبرز شخصيته الفقهية في أوساط علماء المذهب المالكي.

فقه الإمام الأسمر

ويبدو أن تلك الشروح التي يبدو أنها دُونت، ضاعت ضمن ما ضاع من كتب ونوادر ونفائس في الهجوم الذي نفذه يحيى السويدي بعد وفاة الإمام على الزاوية، وتم خلاله حرق مكتبها وتلف ثروة علمية كبيرة من الكتب والمخطوطات.

ولكن نستعيض عن ضياع شروحه بتتبع فقهه وآرائه من خلال وصاياه ونصائحه ورسائله التي وصلتنا، فقد ضمنها الكثير من آرائه الفقهية على مذهب السادة المالكية، وفي العديد من القضايا والمسائل والنوازل، ومنها:

- مسألة التدخين واستعمال التبغ:

وتعد هذه المسألة من النوازل في عصر الإمام، فانتشار ظاهرة التدخين لم تكن معروفة في المجتمع، ما يجعلها نازلة تحتاج إلى نظر من عالم فقيه قادر على الاجتهاد واستنباط حكم شرعي يبين حكمها، وقد تناولها الإمام الأسمر بأسلوب خاص يقوم على التنفير والتحذير من التدخين، ونقل في ذلك فتاوى التحريم من شيخه عبد الواحد الدوكالي ووالد شيخه محمد الدوكالي[1]، وهما من كبار فقهاء المالكية في عصرهما.

وبالنظر على تاريخ ظهور واكتشاف الدخان، نفهم طريقة تعاطي الإمام الأسمر مع النوازل، فطريقته في التنفير والتحذير من التدخين ونقل أحكام تحريمه مرده ودافعه محاربة هذه الآفة والظاهرة قبل تفشيها، فلم تكن وقتها قد انتشرت على نطاق واسع، كما أننا من خلال موقفه ورأيه نعده من علماء الإسلام الذين حاربوا هذه الظاهرة في وقت مبكر من ظهورها.

- مسألة الذكر الجماعي أثناء تشييع الجنائز:

الإمام الأسمر من العلماء القائلين بضرورة الذكر أثناء تشييع الجنائز، وكونه صوفيًّا فالذكر الجماعي «أصل الصوفية، ومما يجمع قلوبهم على مولاهم»[2]، ورأيه هذا اختيار على رأي الصوفيين العارفين بأصل إنكار أئمة المذهب المالكي للذكر في الجنائز، ولذا يؤكد أنه «لا التفات إلى إنكار منكر في ذلك، فإن قيل أن ذكر الجماعة كرهه مالك قلنا: المكروه من قبل الجائز لا يسمى ضلالة، ولا يدخل صاحبه النار، وعلة الكراهة عند مالك لعدم فعل السلف لا على إطلاقه، وكم من أشياء لم تكن في عهد السلف وهي واجبة أو مستحبة»[3]، فهو لم يتعمد أن يخالف النص بقدر ما هو اجتهاد أداه إلى دعوة مريديه إلى ذلك، فقال: «وإذا نقلتم ميتكم إلى المقبرة فاذكروا الله بكلمة الشهادة، وانووا ثواب

---

(1) للاطلاع على المسألة ينظر: رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص240.
(2) نفس المصدر، ص181.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

ذلك الذكر لميتكم»[1]. ويبدو أن رأي الإمام في هذه المسألة يهدف لحث الناس على ذكر الله في الجنائز وانشغالهم به، ولعدم الالتهاء بشؤون الدنيا وبالتالي غياب واعظ الموت، وهو ما يشير إليه السياق العام لرسالته إلى أتباعه في مدينة الزاوية التي ورد فيها هذا الرأي الفقهي، فقد طغى عليها التنفير من الدنيا والحث على الإقلال من الكلام والإكثار من الذكر والطاعات.

- مسألة المصافحة وتقبيل اليد:

وجاء رأي الإمام في هذه المسألة جوابًا على سؤال، فأخبر أولًا أنها من عادات العرب، وأنهم كانوا إذا وضع أحدهم يده في يد صاحبه لا ينزعها حتى يكون الذي أخذها هو الذي يتركها ويأخذ يده، ويخلص إلى أنها «تجلب المودة وتذهب الوحشة»[2]، ثم يورد آراء العلماء فيها، ومنها قول مالك بن أنس: «تركه أحب إلي»، ويفسر قوله: «أحب» بأنه يقتضي كراهته لا منعه[3]، ولذا فهو يرى بأن «التقبيل إذا كان ليد إمام الدين فلا بأس به لأنه في هذه الحالة طاعة لله وإجلال لمواضع العلم، ولا بأس بها»[4]. وفي إشارة لاطلاعه على آراء علماء المذاهب الأخرى في المسألة بيَّن أن أكثر علماء الأحناف والشافعية يجيزونه، قبل أن يعود لنقل رأي علماء المالكية في المسألة عن ابن بطال في شرحه لجامع البخاري، وهو «لا يكره تقبيل اليد عندنا، وإنما يكره تقبيل يد الظلمة والجبابرة»[5].

- مسألة الزواج والحض عليه:

كان موقف الإمام الأسمر من الزواج بخلاف ما كان غالبًا على بعض رجال التصوف من الزهاد، فإنه «على عكس ذلك تمامًا فهو في حياته العملية قد تزوج مرات ومرات، وأنجب العديد من البنين والبنات»[6]، وهذا استقاه من تبحره في الفقه، بل وأكثر من ذلك أفسح وفصل في توضيح هذه المسألة، إلى حد التأكيد على أهمية اختيار الزوجة، موردًا في ذلك العديد من الآثار النبوية، وأخرى واردة عن السلف الصالح في

---

(1) نفس المصدر، ص180.
(2) نفس المصدر، ص224.
(3) نفس المصدر، ص225 و226.
(4) نفس المصدر، ص225.
(5) نفس المصدر، ص226.
(6) نفس المصدر، ص118

الحث على تخير الزوجة الصالحة، بل ويهتم بما بعد الزواج لصيانة المؤسسة الزوجية، فيقول: «إياكم ثم إياكم أن تذكروا حال الزوجة في فراشها، إذ هي أمانة عندكم، ولا يذكر حالها عند ذلك إلا فاسق خسيس لا خير فيه»[1].

جهود الشيخ الأسمر في نشر الفقه المالكي

لم يدخر الإمام الأسمر وسعًا ببذل الجهد في تعزيز وترسيخ انتشار الفقه المالكي السائد في البلاد من خلال بناء منهج دراسة الفقه في زاويته على معتمد الكتب في المذهب المالكي، وبذلك يمكن القول أن زاويته كانت من أهم المدارس الليبية التي عززت رسوخ المذهب المالكي في البلاد، بل والمهمة الأكبر أنها من حافظت على استمراره، فلم يعرف طيلة خمسة قرون من عمرها المبارك أنها درست مذهبًا آخر من مذاهب المسلمين، وأغلب علماء البلاد الليبية تخرجوا منها طيلة هذه القرون، وانتشروا في مختلف مدنها وقراها لتدريس هذا المذهب لطلابهم وفتوى الناس في شؤون حياتهم وفق قواعده.

وأكثر من ذلك يعد الإمام الأسمر من أبرز علماء المالكية الذين سعوا لنشر المذهب المالكي في مختلف أقطار الإسلام، من خلال الوفود التي كانت تقصد الزاوية للأخذ عنه، فتلميذه الشيخ عبد الرحمن المكي أخبرنا عن قدوم أركاب من المشارقة والمغاربة للأخذ عنه، ودرسوا الفقه فيما درسوا عليه. ومثل هذا الإقبال الكبير للأخذ عليه لم يتأتَّ من فراغ، بل لما تواترت من أخبار فقهه وعلمه في العالم الإسلامي وعلو مكانته العلمية، وهو ما يشهد به قول تلميذه المكي بعد وفاة الإمام: «ولو عاش بعد ذلك لاتخذه أهل المشرق والمغرب مذهبًا لعلو ذوقه ومراتبه العلية»[2].

جغرافية انتشار الفقه المالكي على يد الإمام الأسمر

والحديث عن جهوده في نشر المذهب المالكي، يفضي بنا إلى قضية هامة جديرة بالبحث، وتتعلق بمكانية بناء خارطة لانتشار المذهب على يديه من خلال رصد المواقع والمناطق والمدن التي اشتغل فيها على نشر طريقته وراسل فيها تلاميذه، ومن خلال الشخصيات التي تتلمذت على يديه ورحلت للاستقرار في المدن والأقطار البعيدة والمجاورة.

(1) نفس المصدر، ص245.
(2) القطب الأنور، مصدر سابق، ص183.

وعمومًا يفيدنا نص تلميذه الشيخ عبد الرحمن المكي في رسم صورة عامة عن انتشار دعوته في مختلف أقطار الدنيا، لتتجاوز الأقطار الإسلامية إلى غيرها، فيحدثنا أنه لما قصد الرحلة إلى الإمام الأسمر صحبه من مكة المكرمة «نحو المائتين والخمسين فقيرًا»[1]، وعند وصولهم إلى الإسكندرية صحبه منها «نحو المائة فقير ومن كل بلد طائفة»[2]. وفي العام التالي لتتلمذه على الإمام الأسمر يقول المكي: «اجتمعت عنده ستة أركاب من المشارقة والمغاربة»[3] وهو يقصد أركاب الحج، وفي العام الثالث من أعوام الحج شاع خبر الإمام وريادته العلمية حتى أنه «جاءه خمسة آلاف من الشام ومصر وبغداد ومكة المشرفة والمدينة المنورة، وأخذوا عنه العلوم والطريقة، وجاءه من المغاربة تسعمائة فقير، وأخذوا عنه العلوم كالتوحيد والفقه والتصوف»[4].

ويجب أن نشير ونحن نرصد انتشار المذهب على يديه، إلى رسائله التي كان يرسلها على تلاميذه ومريديه في أصقاع الدنيا، وضمنها الكثير من آرائه الفقهية وآراء علماء المذهب وأقوالهم، ومن خلال استعراضنا لها، نجد أن بعضها توجه لتعزيز وترسيخ المذهب داخل البلاد، ومنها:

– فزان، جنوب ليبيا، كما نرصد ذلك في رسالته إلى مريده الشيخ عبد الرحمن بن عبد المؤمن الفزاني[5].

– غدامس، غرب ليبيا، كما في رسالته إلى مريده الشيخ سعيد بن عبد الحميد الغدامسي[6].

– طرابلس كما في رسالته إلى مريديه في طرابلس، وعد منهم في مطلع الرسالة 19 عالمًا[7].

– الزاوية الغربية بليبيا، كما في رسالته إلى مريديه، الشيخ عبد الحميد العوسجي والشيخ أحمد بحر السماح، والشيخ عبد الحميد الكمودي، والشيخ إبراهيم العوسجي[8].

---

(1) نفس المصدر، ص180.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(4) نفس المصدر، ص180 و181.

(5) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص125.

(6) نفس المصدر، ص129.

(7) نفس المصدر، ص211.

(8) نفس المصدر، ص149 و167.

- صرمان، كما في رسالته إلى مريده الشيخ راشد بن يحيى المحجوبي المقرحي[1].

- غريان، كما في رسالته إلى مريديه، الشيخ عبد الرحمن بن ساعد، والشيخ علي بن محمد أبو سلامة[2].

كما اتجه لنشر المذهب خارج البلاد من خلال المراسلات، ونرصد منها:

- سوس الأقصى جنوب غرب مراكش في المغرب، كما في رسالته التي وجهها إلى مريديه هناك، وهم ثلاثة من علماء سوس: الشيخ سعيد بن محمد السوسي، والشيخ محمد بن علي، والشيخ أبوعزة بن عزالدين[3].

- تونس، كما في رسالته الموجهة إلى مريديه في تونس، وذكر منهم أربعة علماء، هم الشيخ محمد بن علي بن رباح، والشيخ سالم بن مبارك، والشيخ ابن عبد الكريم، والشيخ مبارك بن يحيى الحمروني[4].

- تنبكتو، عاصمة العلم في وسط أفريقيا، كما في رسالته الموجهة إلى أتباعه هناك، ونقيبهم الشيخ أحمد بن أقيث[5].

وهي مراسلات متنوعة الأبواب، في العقائد والرقائق والتصوف والتربية والأخلاق، وشرح فيها الكثير من المسائل الفقهية التي تتعلق بكل موضوع من المواضيع التي تناولها. لكن ما يجب أن ننبه عليه أن الإمام بنى جهوده في نشر المذهب على إستراتيجية بناء مريديه وتلاميذه، ومن ثم إرسالهم دعاة لطريقته، وهو ما تكشف عنه هذه الرسائل.

ومن تفاصيل خطته الخاصة بنشر المذهب إعداد تلاميذه وبناؤهم بناء متماسكًا قويًّا قبل إرسالهم للدعوة، وذلك الإعداد المتين يظهر في شخصيات تلاميذه الذين برزوا في عواصم العلم الكبرى كأهم علماء المذهب المالكي، بل واعتمدت كتبهم من ضمن كتب المذهب، ومنهم على سبيل المثال:

- الشيخ سالم السنهوري، الذي رحل إلى الإمام الأسمر وتتلمذ عليه قبل أن يصبح شيخ المالكية في الأزهر الشريف، وله شرح على مختصر خليل[6].

(1) نفس المصدر، ص139.

(2) نفس المصدر، ص187.

(3) نفس المصدر، ص283.

(4) نفس المصدر، ص253.

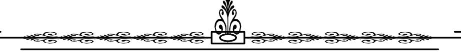
(5) نفس المصدر، ص231.

(6) تنظر ترجمته في: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص51.

- الشيخ محمد الحطاب الطرابلسي، الذي عاش في مكة ووفد على الإمام وتتلمذ على يديه، قبل أن يرجع للحجاز ويبرز فيها ويشتهر كأحد أهم أعلام المالكية في تاريخ المذهب، وله العشرات من الكتب لعلها أشهرها مواهب الجليل الذي تلقته الأمة بالقبول، واعتبرته أهم شروح خليل[1].

- الشيخ كريم الدين البرموني، أخص تلاميذ الإمام وصاحب أهم كتاب في مناقبه، وهو كتاب «روضة الأزهار»، تكون على يد الإمام وبعد وفاته رحل إلى مصر، وأصبح مفتيًا على المذهب المالكي في طنطا، وله شرح على مختصر خليل[2].

(1) نفس المصدر، ج1، ص543.
(2) نفس المصدر، ج1، ص20.







توظيف النص القرآني في الخطاب الدعوي
قراءة في رسائل الإمام عبد السلام الأسمر

إعداد: أ. محمد الصادق حسن

مركز البحوث والدراسات الإسلامية - ليبيا

ملخص:

يكون للنص القرآني أثر في كتابة الرسائل والوصايا، فهو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ومن هنا يذكر الإمام عبد السلام الأسمر في رسائله جملة من الآيات القرآنية، فتارة يذكرها في معرض حديثه عن جانب العقيدة، والأحكام الشرعية، وفي جانب التربية والسلوك، وفي جانب الترغيب والترهيب. وفي هذه الورقة أقدِّم نماذج توضيحية لمنهج الإمام الأسمر في هذا الجانب، وتظهر مدى عنايته بكتاب الله، وأثر النص القرآني في السياق الذي اختاره في رسائله؛ لنعلم أنه لم يكن معلمًا للقرآن فقط، بل كان داعيًا ومربيًا، والقرآن الكريم أساس قويم من أسس دعوته إلى الله ﷻ.

كلمات مفتاحية:

القرآن الكريم، الإمام الأسمر، توظيف، الرسائل.





أهمية توظيف النص القرآني في الرسائل

قد اعتمد النبي ﷺ في رسائله إلى الملوك والأمراء على استدعاء النصوص القرآنية وتوظيفها، فكان للآيات القرآنية حضور بارز في مراسلاته، وقد برز ذلك التوظيف في عدة صور، كتوظيف لنص الآيات بلفظها ومعناها، وتوظيف للمعنى دون استدعاء نص الآيات أو ألفاظها.

واعتمد خطاب النبي على استدعاء آيات القرآن الكريم للتعبير عن مراده ونقل معانيه للمتلقي أو المخاطب، وقد كان توظيف النص بلفظه ومعناه غالبًا على رسائله إلى الملوك والأمراء، فاستدعى بعض الآيات بكامل نصها، ومن نماذج ذلك ما جاء في رسالته إلى قيصر ملك الروم، التي قال فيها: «من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عِمران:64].

والإمام الأسمر سار على نهج جده سيدنا محمد ﷺ في الاستدلال والتوظيف للنص القرآني، فقد حافظ في منهجه الدعوي على ذات البناء في رسائل جده ﷺ، وهذا دليل عظيم على علو قدم الإمام في الدراية بأساليب الدعوة إلى الله.

ومما يشار إليه أن النص القرآني في رسائل الأسمر تنوَّع إيراده، فعندما يكون السياق في الحديث عن العقيدة يذكر الإمام النص القرآني المناسب، ويوضح معناه، ويشرحه موافقًا لأقوال أهل السنة والجماعة من المفسرين، فلم يخالف ظاهر العبارة، ولم تكن له شطحات مخالفة لأصول الاعتقاد، وهذا دليل على اهتمامه بضوابط التفسير وأصوله.

توظيف النص القرآني في جانب العقيدة

أخذت العقيدة وقضايا ومسائل التوحيد حيزًا كبيرًا في كلام الإمام الأسمر في وصاياه ورسائله ونصائحه إلى مريديه، فهي من الضروريات وأول الواجبات على المكلف معرفتها بالنظر والاستدلال، فقال بعد ذكر الخلاف: «فمن قال: إن النظر والاستدلال أول الواجبات استدل بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يُونس:101][1]، وهذا التوظيف على ما فيه من دلالة ظاهرة، فقد ساق الإمام الآية الكريمة فيه؛ لأنه من القائلين بأن «الإيمان بالله هو أول الواجبات»[2].

والواقع أن الإمام لم يتوقف نصحه وحثه على ضرورة النظر والاستدلال وأولية وجوبه على المكلف العاقل، بل حرص على تضمين دقائق العقيدة في السلوك الصوفي، فلم يترك موضعًا يمكنه أن يذكر فيه بأصول الاعتقاد إلا وبادر إليه مستندا في ذلك بنصوص القرآن الكريم، ومنها أنه صدَّر وصيته إلى تلميذه للشيخ عبد الحميد العوسجي بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البَقَرَة:32]، ويلاحظ أنه توظيف من الإمام لكلام الله ﷻ في مقام التبرئ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، حيث حاكى الملائكة في نفي العلم عنها وإثباته لها بعلمه. قال الإمام الراغب الأصفهاني في تفسير هذه الآية: «إن قيل: ما وجه قوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآ﴾ وهو عالم بما علمهم وعالم بأن لا علم لهم إلا ما علمهم؟ قيل: القصد بذلك إظهار أن ليس سؤالهم على وجه الاعتراض، بل على سبيل الاستفادة وإظهار العجز، وأنه قد بدا لهم ما كان خفي عليهم من فضيلة الإنسان وإظهار الشكر لنعمته وتعظيم منته بما عرفهم، وفيه تنبيه على استعمال [حسن] الأدب عند سؤال المعلم بتفويض العلم إليه وتنبيه على أعظم التواضع»[3].

---

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص190.

(2) نفس المصدر، ص191.

(3) تفسير الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الأصفهاني، تحقيق محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب، طنطا، 1999م، ج1، ص147.

كما استشهد في ذات الوصية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٥﴾ [يُونس:25]، وبقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝١٠٥﴾ [البَقَرَة:105]، للدلالة على أنَّ الهداية والرحمة بيده سبحانه خصَّ بهما بعض عباده بمشيئته الأزلية. وفي هذا يقول الإمام الطبري: «والله يختص من يشاء بنبوته ورسالته، فيرسله إلى من يشاء من خلقه، فيتفضل بالإيمان على من أحب فيهديه له. و«اختصاصه» إياهم بها، إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه. وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه، وهدايته من هدى من عباده، رحمة منه له ليصيره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة، واستحقاقه بها ثناءه. وكل ذلك رحمة من الله له»[1].

ولتحقيق مقام التوكل، وهو مقام سلوكي تربوي صوفي، وظَّف الإمام قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النَّحل:99-100][2]، لتحقق إيمان المريد بالله وتوكله عليه في تحصين نفسه من الشيطان وتزويره وتلبيسه.

وفي العديد من قضايا ومسائل ومدارج السلوك يوظف الإمام النصوص القرآنية لتأصليها وبيان معناها العميق، سيما وأن قصد السلوك الصوفي الوصول إلى تحقيق العبودية الخالصة لله ﷻ.

توظيف النص القرآني في جانب الأحكام الشرعية

وأكثر توظيف الإمام الآيات القرآنية في جانب الأحكام الشرعية من السور المدنية، حيث ركزت السور المكية على بيان أصول العقيدة من توحيد ودلائل على أن الله هو الخالق، والرد على المشركين بالحجج والبراهين، بينما بينت السور المدنية الأحكام الشرعية من معاملات والحدود والحقوق. والإمام في توظيف النص القرآني توظيف عالم وخبير بطرق وأصول الاستدلال وضوابط التنزيل، فالفرق جلي في توظيفه للنص القطعي عنه في النص الظني. وعمومًا من أمثلة التوظيف في الأحكام الشرعية،

---

(1) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ج1، ص471.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص146.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:23][1]، في وجوب بر الوالدين، وأنه يتأكد في حقهما؛ لأن الله تعالى قرن اسمه باسمهما، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النِّسَاء:36][2]، في وجوب الإحسان والصبر على الجيران والرفيق بالطريق والغريب والمملوك.

وفي موضع آخر ناقش فيه باستفاضة قضية الحوائج، وما يستدعي الخروج من البلد، أورد رأي بعض العلماء الأحناف في جوب الفرار إلى الصحراء إذا تزلزلت الأرض لمن كان في بيته ووافقهم في الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٩٥﴾ [البَقَرَة:195]، قال عقب ذلك: إن الفرار مما لا يطاق من سنة المرسلين[3].

توظيف النص القرآني في جانب التربية والسلوك

وأغلب نصائح ووصايا الإمام الأسمر تكثر في الاستشهادات بالنصوص القرآنية وتوظيفها في جانب السلوك والتربية، كما أسلفنا، لتأصيل قضاياها وقواعدها أولًا، وثانيًا لفتح أفق للمريد السالك على القرآن الكريم وربطه به من خلال ما ينازله من مدارج في السلوك الصوفي، فقيم الإخلاص وضدها الرياء، والتواضع وضدها الكبر، والصدق وضدها الكذب، والمراقبة والتوكل والرضا والتسليم وأضدادها كثيرًا ما وظف لها الإمام آيات قرآنية في سياق حديثها عنها وشرحها وتوضيحها.

ويبني الإمام الأسمر كل ما مر على أن الإنسان من صنع الله، وليس هناك من هو أعلم من الله بمفاتيح فطرة عبده ودوائه وعلاجه؛ لأن كل صانع أدرى بصنيعته. ومن استشهاداته من القرآن الكريم في جانب التربية والسلوك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٨٢﴾ [البَقَرَة:282][4]، في أن علم الوراثة مشروط بإحكام مقام التقوى فيصلح بها ويتأهل لأن يكون من أهل العلم.

---

(1) نفس المصدر، ص218.

(2) نفس المصدر، ص214.

(3) نفس المصدر، ص259.

(4) نفس المصدر، ص152.

توظيف النص القرآني في جانب المجرَّبات

حثَّ الإمام الأسمر على ضرورة لزوم السالك أذكارًا قرآنية، يلجأ إليها عند الكرب والشدة، ومنه قوله لأحد مريديه في مراسلة راسله بها، حثه فيها على ملازمة كلمة ذي النون عليه الصلاة والسلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾، وطلب منه المداومة عليها بعد صلاة الوتر أربعين مرة، ودون شك فإن الإمام أخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء:87].

توظيف النص القرآني في جانب الترغيب والترهيب

والترغيب والترهيب من أساليب الدعوة، ونستفيد من توظيفه للنص القرآني فيهما أنه انتهجهما معًا في الدعوة إلى الله، ولم يقتصر على أي منهما. والاستشهادات والتوظيف في ذلك عند الإمام كثير، لكن في جانب الترغيب نشير إلى توظيف من نوع آخر للقرآن الكريم، وهو توظيف السور وليس الآيات فقط، مثلًا حثه على قراءة سورة الواقعة وسورة التين وغيرها من السور لتيسير الرزق والسعة فيه، وهو حث جاء في سياق الترغيب في رحمة وفضل الله الواسع.

لكن في المقابل يوازن الإمام الأسمر حالة السالك والمريد في علاقته مع الله، فلقاء حديثه في الترغيب في الجنة ونعيمها، يذكر بجزاء الكفار في النار، موظفًا في ذلك العديد من النصوص القرآنية، ومنها قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾، في ثنايا التذكير بأهوال الآخرة، وأن العاقبة صعبة والملقى صعيب وأيام الآخرة وسنينها طوال[1].

خاتمة:

وظف الإمام الأسمر النص القرآني للتأصيل للعديد من القضايا الصوفية، لكنه كان حريصًا على حضور القرآن الكريم في ثنايا وصاياه ونصائحه لمريديه وللأمة الإسلامية، وبطريقة تبين قدرته على توظيفه بما يحتاجه المريد في وقته وظرفه. والملاحظ أن الإمام الأسمر كان في رسائله منضبطًا بأصول التفسير وقواعده، فلم نجد نصًّا قرآنيًّا قد خرج عن

(1) نفس المصدر، ص170.

معناه بتفسير أو نقل فيه زلل، بل كان على علم تام بقواعد التفسير وعلوم القرآن. ويمكن تلخيص نتائج هذا المقال في الآتي:

1. اعتمد توظيف الآيات القرآنية عند الإمام الأسمر على اقتباس الآيات القرآنية وتوظيفها في البناء اللغوي لتؤدي وظيفة دلالية من ناحية، وإيحاءات نفسية ومعنوية في نفس المريد من ناحية أخرى.

2. أدى التوظيف في أغلب رسائل الإمام الأسمر الهدف منه، فلم يكن الاقتباس القرآني بهدف تزيين النص وتجميل الخطاب.

3. استطاع الإمام الأسمر أن يوظف النص القرآني في السياق المناسب له، فلم يكن التوظيف غامضًا أو غريبًا، بل كان مناسبًا، فأدَّى هذا إلى وضوح المعاني وعمقها وتحديد الأفكار وإحكامها.







الإمام عبد السلام الأسمر محدثًا
نماذج حديثية من رسائله إلى مريديه

د. عبد الله أبو سنينة

كلية أصول الدين بالجامعة الأسمرية - ليبيا

ملخص:

يُعدُّ الإمام عبد السلام الأسمر الفيتوري من علماء الأمة المعدودين الذين مثلوا التصوف كما يجب، فجمعوا فنون وعلوم الإسلام، فهو فقيه وأصولي ومفسر ولغوي ومؤرخ، وأيضًا محدث ومسند له شأنه ودرايته الواسعة بعلم الحديث الشريف بمختلف فروعه، تشهد بذلك رسائله التي أرسلها إلى مريديه في أقطار العالم الإسلامي، كما يشهد لذلك تتلمذ محدثين ومسندين بارزين في عصره على يديه، ومنه الشيخ سالم السنهوري الأزهري المصري، والشيخ أحمد بن أقيث التنبكتي، والشيخ محمد الحطاب الصغير الحجازي، الطرابلسي الأصل. وغيرهم.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، التصوف، الحديث، السنة، التخريج.

مقدمة:

درجت الكثير من الدراسات حول الشخصيات الصوفية على اعتبار التصوف شيء منفصل عن علوم الإسلام، وحتى التي أولت هذا الجانب بعض الاهتمام، لم تزد عن الإشارة إلى علاقة التصوف بالفقه وأصوله والتوحيد، وحتى الصوفية المحدثون والمسندون عندما تهتم الدراسات ببحث آثارهم ومؤلفاته وحياتهم لا تبرز التصوف في حياتهم إلا من جانب الاتصال ببعض المتصوفة للتبرك، أو الإشارة إلى تصوفهم بمعنى زهدهم في الدنيا وملاذها وانقطاعهم للعلم. والواقع غير ذلك، فالصوفية نبهوا وشددوا في العديد من المناسبات أن مبنى التصوف على الأصلين: كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وكيف يدرك ويفهم الصوفي سنة النبي ﷺ وهو لا يعرف الحديث الشريف وعلومه وفنونه، بل وكيف بنى الصوفي الكثير من أصول الطريقة الدقيقة جدًّا إلا بالقراءة الواعية للحديث الشريف، كقضايا التبرك والتوسل والشفاعة التي لا يزال الجدل قائمًا حوله، ورغم إنكار المنكرين لشرعية هذه الأصول، إلا أن أيًّا منهم لم يستطع رد حجة الصوفية الحديثية التي استندوا إليها في شرعية هذه الأصول.

لكل ذلك جاءت هذه الورقة، لتتحدث عن شخصية الإمام عبد السلام الأسمر محدثًا، وهو الجانب العلمي في حياته الذي لم يلقَ حقَّه في البحث والتدقيق، أولًا: لتقديم جديد في سيرة الإمام الأسمر، وثانيًا: لتبرز معلمًا من معالم مدرسة الحديث الشريف في ليبيا، وثالثًا: لتبرز وثاقة الصلة بين التصوف والحديث الشريف.

الجانب الحديثي في شخصية الأسمر العلمية

لا ينكر أحد أن للإمام الأسمر وزاويته دور كبير في نشر العلوم الشرعية بأسرها، ومنها علوم الحديث الشريف، ويكفي لتأكيد ذلك تفحص كتب تراجم الأعلام الليبيين ليكتشف أن أعلام الحديث الشريف منتشرون في كل الأنحاء البلاد الليبية، يُدرِّسُون ويعلِّمون ويلقِّنون في المساجد والزوايا، وقد بلغ عددُهم خمسين عالمًا، هم ممن تخرجوا في زاوية الإمام الأسمر، أو درسوا على يد من تخرجوا فيها. ورغم ذلك لا تزال

شخصية الإمام الأسمر الحديثية غائبة عن اهتمام الدراسات والبحوث التي اعتنت بسيرته وحياته وأعماله.

والمُطّلِع على رسائل الإمام الأسمر يجدها في مجملها تحث على التمسك بالسُّنة النبوية المطهرة، فقد قال: «واجعل الكتاب والسنة حاكمين عليك وقائدين لك»[1]، وقال: «اعلم أيها المريد الراغب في سلوك الطريق المُوصِلِ إلى مراتب التحقيق بالتحقيق، أن رأس الأمر عند الطائفة ومدار الشأن عندهم على اجتماع القلب على محبة الله والإقبال عليه،.. ثم وصية رسول الله ﷺ لأصحابه وأمته؛ وهي معرفة الله تعالى، والتمسك بالكتاب والسنة»[2].

ومن كلامه في هذا الباب أيضًا موجهًا حديثه إلى أحد مريديه: «سألت منِّي أيها المحب أن أنصحك، وخير الوصايا وأنفعها وصايا الله التي أوصى بها عباده في كتابه، ووصايا رسول الله ﷺ فعليك بِقَبُولِها والأخذ بها تَسعد وتَرشد، وتَفلح وتَنجح»[3]، وقال: «واعلموا رحمكم الله: أن أحق شيء بالتقديم في النصيحة الوصية بتقوى الله واتباع سنة رسول الله ﷺ»[4].

بل وجعل المعرفة بالسنة شرطًا من شروط الشيخ المربي الصوفي: «لا يصلح للمشيخة إلا من تخلق بأخلاق الرسول ﷺ، ولا تصلح المشيخة الكاملة إلا لمن كان على قدم رسول الله ﷺ وهو من كملت أحواله، واستقامت أقواله وأفعاله»[5].

وهكذا تنوع التزام الإمام الأسمر الكامل بالسنة النبوية المطهرة في حركاته وسكناته، وفي وصاياه ونصائحه، وفي كلماته ورسائله، ولا شك أن ذلك دأب العلماء والصالحين المقتدين بسنة سيد المرسلين ﷺ، وشيخنا الفاضل رضي الله عنه منهم، فقد انتقى أذكاره من سنة النبي ﷺ، فمنها ما هو دبر كل صلاة، ومنها ما يكون في اليوم مرة واحدة. وأما الأوراد اليومية فهي الاستغفار، والصلاة على النبي ﷺ، والتهليل، وكل ذلك وارد

---

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م، ص126.

(2) نفس المصدر، ص140.

(3) نفس المصدر، ص130.

(4) نفس المصدر، ص232.

(5) نفس المصدر، ص314 و315.

فضله، وممدوح فاعله من الله ورسوله ﷺ، ومذموم المعرِض عنه في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ومن خلال تتبع مواضيع رسائله إلى مريديه، نجد أنه اعتنى ببيان الكثير من القضايا ومعالجتها، كالدعوة إلى العلم والتعلم، والدعوة إلى الأدب وحسن الخلق، وبيان التصوف وأركانه وشروطه، وكذلك قضايا المجتمع ومشكلاته، والوضع الصحي وغيرها من القضايا. لكن الملاحظ أنه في كل هذه القضايا أقام معالجته على الاستدلال والاعتماد على النصوص والنقول والآثار، للاستشهاد بها للإثبات والإقناع، سواء من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو أقوال الصحابة والتابعين والسلف عمومًا.

وخلال عملية رصد وتقصٍّ لتلك الرسائل، تمكنت من إحصاء الأحاديث المرفوعة، وكتب الحديث التي صرح بذكرها، والمحدثين الذين صرح بأسمائهم، فكانت نتيجة البحث والسبر كالآتي:

1) عدد الأحاديث المرفوعة في رسائله إلى مريديه: 250 حديثًا مرفوعًا تقريبًا سواءً ذكرها بالنص، أو جزءًا منها، أو بالمعنى تقريبًا.

2) عدد الآثار 66 أثرًا عن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين تقريبًا.

3) كتب الحديث التي صرح بذكر أسمائها: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، شرح ابن بطال للبخاري، جامع الترمذي، الأذكار للنووي، المعجم الكبير للطبراني، حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، تاريخ دمشق لابن عساكر، الاستذكار والتمهيد لابن عبد البر.

4) المحدِّثون المُصنِّفون الذين صرَّح بذكرهم: الإمام مالك، الحافظ جلال الدين السيوطي، شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني، ابن بطال، ابن شبرمة، ابن عساكر، الخطيب البغدادي، ابن عبد البر، أبو حازم، النووي، سفيان الثوري، أحمد بن حنبل، ابن السني، ابن الصلاح، الشافعي، عطاء، القاضي عياض، وابن العربي، سفيان بن عيينة، عبد الله بن طاووس بن كيسان، أبو نعيم، حذيفة المرعشي، أبو جعفر الباقر، المسعودي، أبو إسحاق، عبد الله بن عتبة، الأصمعي.

5) الرواة الذين صرَّح بذكرهم، ومن أشهرهم: أبو هريرة، عمر بن الخطاب، وأبو بكر الصديق، وابنته أسماء، وأبو عمر بن العلاء، وعائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ،

وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأنس بن مالك، وأسامة بن زيد، وكعب بن مالك، وعبد الله بن مسعود، وشعبة بن الحجاج، أبو الأسود الدؤلي، ابن عمر، أبو أيوب الأنصاري، ومجاهد، والليث بن أبي سليم، عبد الله بن طاووس، عبد الله بن عباس، ومحمد بن إبراهيم عن أبيه، وعطية بن قيس، وزيد بن ثابت، وغيرهم.

6) كان التي علق عليها: مثلًا قوله أحيانًا: «رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن»[1]، تعليقًا على حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: «عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ: قَامَ لَيْلَةً بِمَكَّةَ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ثَلَاثَ مِرَارٍ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَكَانَ أَوَّاهًا، فَقَالَ: اللهُمَّ نَعَمْ، فَحَرِصْتَ، وَجَهِدْتَ، وَنَصَحْتَ اللهُمَّ نَعَمْ، فَحَرِصْتَ وَجَهِدْتَ وَنَصَحْتَ، فَأَصْبَحَ، فَقَالَ: لَيَظْهَرَنَّ الْإِيمَانُ حَتَّى يَرُدَّ الْكُفْرَ إِلَى مَوَاطِنِهِ وَلَيُخَاضُ الْبِحَارُ بِالْإِسْلَامِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ فِيهِ الْقُرْآنَ فَيُعَلِّمُونَهُ وَيَقْرَءُونَهُ، ثُمَّ يَقُولُونَ: قَدْ قَرَأْنَا وَعَلَّمْنَا فَمَنَ ذَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَّا؟ فَهَلْ فِي أُولَئِكَ مِنْ خَيْرٍ؟، قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللهِ. وَمَنْ أُولَئِكَ؟ قَالَ: أُولَئِكَ مِنْكُمْ، وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ»[2].

7) وكان أحيانًا يذكر سند الحديث، ويذكر الكتاب الذي ذكره، ومثاله قوله: «وعن مجاهد وعن ابن عمر لا أعلمه إلا عن النبي ﷺ: «من قال: أنا عالم. فهو جاهل»، رواه الطبراني عن الليث هو ابن أبي سليم»[3].

منهج الشيخ في تعامله مع الحديث

جمع الإمام الأسمر في دعوته بين ثلاثة أركان هي أسس كل دعوة إسلامية أصيلة:

أولًا/ التربية: وهي سلوك صوفي ينهل من معين الشجرة المباركة، شجرة التلقي بالسند الروحي عن النبي ﷺ.

ثانيًا/ العلم: لأنه شرط في السلوك لا يستقيم شيء من دونه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ثالثًا/ الجهاد: فهو تجسيد واقعي وعملي للتغيير والرفض لكل انحراف أو ظلم، جاء الاسلام لرده ونقضه.

(1) نفس المصدر، ص171.
(2) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (12-250)، برقم (13019)، من حديث أم الفضل وابن عباس رضي الله عنه.
(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص172.

ولأنه لا بد من العلم قبل الشروع في العمل، وعلى وضوح الرؤية وتكاملها يتوقف نجاح كل مشروع، سيما إن كان مشروع تغيير أمة أو جماعة من تخلف حضاري أو فكري أو خلقي إلى قوة وتماسك، ولذا كان الإمام الأسمر يؤكد على أهمية العلم في كل نجاح دنيوي أو أخروي، ومن ذلك قوله: «وأوصيك بالحرص على طلب العلم النافع قراءة، ومطالعة، ومذاكرة، وتحصيلًا، ولا يحملنك على تركه الكسل والملالة، ولا مخافة ولاية فإن ذلك ضرب من الجهالة». والقرآن الكريم أول ما ينبغي العناية به في طريق العلم، حفظًا ومدارسة وتعهدًا بالتكرار والنظر، ثم بقية العلوم بعد علم التقوى والتزكية، كالفقه والحديث واللغة، وغيرها.

وعلم الحديث من العلوم التي أولاها الإمام مكانة خاصة لديه، حتى أنه كان يحفظ «البخاري ومسلم ومخصر خليل والرسالة والمدونة»[1]، ولا تخفى الإشارة هنا في تقديمه للبخاري ومسلم على كتب الفقه، ومن مظاهر عنايته بالحديث الشريف أن هذه الورقة استقصت وبحثت ونقبت في رسائله، فوجدنا أن ما تزيد نسبته عن تسعين بالمائة من هذه الأحاديث مما هو وارد بالكتاب والسنة، وفي هذا دلالة واضحة جلية على أنه لم يكن يبحث عن الشاذات، ولم تكون علومه مؤسسة على غير الكتاب والسنة، ولم يكن مجرد صوفي، بل كان عالمًا محيطًا بالعلوم، حريصًا على متابعة السنة، حتى أنه تتبع صيغ الأذكار الواردة في كتب السنة، وكتب الأذكار النبوية، فاعتمدها أورادًا أساسية لأتباعه، وحثهم على ملازمتها حتى تصح لهم المتابعة الكاملة للنبي ﷺ.

وقد تنوعت كيفية ذكر الحديث عند الإمام الأسمر، فتارةً يورده كاملًا، وتارة جزءًا منه، وتارة بالمعنى، كما تنوعت كيفية ذكره لراوي الحديث ومصدره، فتارة يذكره، وتارة لا يذكره، وفيما يلي نضرب بعض الأمثلة التفصيلية من واقع رسائله:

أولًا: ما تم ذكره بالمعنى:

من ذلك ما ذكره في بعض رسائله[2] في معرض وصيته بالإكثار من الفكر في أمور الآخرة من الموت وما بعده، وترك الاغترار بزخارف الدنيا، فإنها: «أي الدنيا متاع قليل حقير، لو وزنت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء». هذا الكلام إشارة إلى

(1) الأنوار المنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، المطبعة المحمدية، القاهرة، 1964م، ص18.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص133.

حديث النبي ﷺ الذي رواه سهل بن سعد رضي الله عنه بقوله: كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحليفة فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها، فقال: أترون هذه هينة على صاحبها فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها قطرة أبدًا[1].

ومن أمثلته أيضًا ما ذكر في معرض وصيته بحب أهل البيت وتعظيمهم، فقال: «عليك بحب أهل البيت النبوي وتعظيمهم جدًّا فقلَّ ما تظاهر بذلك أحد عن صدق باطن إلا ووفقه الله وأجلَّهُ حتى يصير بين الناس وكأنه من أهل البيت والمرء مع من أحب»[2]. وهو يشير إلى حديث النبي ﷺ الذي رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع من أحب»[3].

ومن أمثلته أيضًا، ما ذكره في معرض وصيته عن تنبيه المرء عن مخالطة أهل الشر والباطل والاحتراز من مجالستهم، مع ضرورة تذكيرهم ونصيحتهم، فقال: «ومن رأيته ترك معروفًا فأمره به، أو فعل منكرًا فانهه عنه، ولا تستح فإن الله لا يستحي من الحق»[4]. في إشارة إلى حديث النبي ﷺ الذي ترويه عنه أم سلمة رضي الله عنها قالت: إن أم سليم قالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، هل على المرأة غسل إذا احتلمت؟ قال: «نعم، إذا رأت الماء»، فضحكت أم سلمة، فقالت: أتحتلم المرأة؟ فقال النبي ﷺ: «فبم شبه الولد؟»[5].

---

(1) أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل، برقم (2320)، (4-560).

وأخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، برقم (4110)، (2-1376)، كلاهما من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص128.

(3) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل، برقم (6169)، (8-39). وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، برقم (2640)، (4-2034)، كلاهما من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(4) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص136.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب التبسم والضحك، (8-24)، برقم (6091)، باب ما لا يستحيا من الحق للتفقه في الدين، (8-29)، برقم (6121)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها، (1-251)، برقم (313)، كلاهما من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

ثانيًا: ما تم ذكره نصًا كاملًا:

ومثاله ما ذكره في معرض وصيته بالإحسان إلى جميع المسلمين، فقال: «وكن محسنًا إلى الأقارب والجيران والأصحاب خاصة، وإلى المسلمين عامة ما استطعت، وذلك بالدعاء لهم والشفقة عليهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»»[1]. وهذا إشارة إلى حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

وفي مثال آخر ذكر في معرض وصيته بالصدق والأمانة مع الناس: «ومن جالسكم فعظوه، ومن سارركم فاصدقوه، ومن وعدكم فلا تخالفوه، فإن المؤمن صدوق، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده»[3]. وهذا إشارة إلى حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه ابن جريج رضي الله عنه قال: أنه سمع أبا الزبير، يقول: سمعت جابرًا، يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[4].

وفي معرض وصيته ونهيه عن ضفر الشارب، فقال: (وأما ضفر شعر الشارب لا ينبغي، ثم قال: قال النبي ﷺ: احفوا الشوارب واعفوا عن اللحى)[5]. وهذا إشارة إلى حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه ابن عمر رضي الله عنه قال: عن النبي ﷺ قال: «أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى»[6].

---

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص137.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، (1-12)، برقم (13). ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير، (1-67)، برقم (45)، وزاد بعد حتى يحب لأخيه: (أو قال لجاره)، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص170.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، (1-65)، برقم (41).

(5) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص178.

(6) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب تقليم الأظافر، (7-160)، برقم (5892)، وباب إعفاء اللحى، (7-160)، برقم (5893). ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، (1-222)، برقم (259)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى)، واللفظ لمسلم.

ومن أمثلته أيضًا ما ذكره في معرض وصيته في معرفة ما يصلح بكم في تصحيح إيمانكم ومسائل من فرض العين، فقال: «اعلموا رحمكم الله أن قواعد الإسلام خمسة كما قال رسول الله ﷺ: بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام»[1]. وهذا إشارة إلى حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»[2].

ثالثًا: ما تم ذكر جزء من الحديث منه:

ومنه وصيته للإمام، بقوله: «فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته»، وقد صدَّر كلامه بقوله: «وفي الصحيحين: ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[3]. وهو جزء من حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه ابن عمر رضي الله عنه قال: عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»[4].

ومثاله أيضًا ما قاله في معرض وصيته عن حفظ المساجد من دخول الصبيان والمجانين: «لا تتكلموا فيها بفحش ولغو، ولا ينشد فيها ضالة، ولا ينازع في مكان ولا يُضيِّق ولا يؤذي أحدًا»، ثم قال: «فقد قال ﷺ: إنما بُنِيت لذكر الله والصلاة»[5]. وذلك جزء من حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص188.
(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس)، (1-11)، برقم (8). ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس)، (1-45)، برقم (16).
(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص217.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي، (3-150)، برقم (2554). ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، (3-1458)، برقم (1829)، كلاهما من حديث ابن عمر.
(5) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص229.

في المسجد مع رسول الله ﷺ. إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه، دعوه» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر إنما هي لذكر الله ﷻ، والصلاة وقراءة القرآن»، أو كما قال رسول الله ﷺ قال: فأمر رجلًا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه[1].

ومن الأمثلة الأخرى ما قاله في معرض وصيته بحفظ القرآن والإكثار من تلاوته: «أوصيكم بحفظ القرآن والإكثار من تلاوته إن أمكنكم حفظه؛ لأنه من السنة الشريفة، ولتكن قراءتكم له مع التدبر والترتيل والتفهم لمعانيه، ففي الحديث: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»، والمراد بالمهارة جودة اللفظ وإخراج كل حرف من مخرجه، أو جودة الحفظ وهو المناسب هنا، ومن قرأه وهو عليه شاق فله أجران أجر لقراءته وأجر لمشقته، وبسط الحديث هكذا: «والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران»»[2]. وهو جزء من حديث النبي ﷺ الذي ترويه عنه السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق، له أجران»[3].

رابعًا: ما تم ذكر موضوع باب الحديث فقط:

قال في معرض وصيته وحديثه عن اجتناب الكبائر: «وقد ذكر النبي ﷺ في الكبائر: العقوق»[4]. وذلك إشارة إلى حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (الإشراك بالله، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئًا فقال - ألا وقول الزور)، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[5].

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء، من غير حاجة إلى حفرها، (1-236)، برقم (285)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص238.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر في القرآن، والذي يتتعتع فيه، (1-549)، برقم (798)، من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

(4) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص221.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، (3-172)، برقم =

ومن قوله قال في وصيته في معرض كلامه عن تحريم الدخان، فقال: «شرب الدخان عندي محرَّمٌ لثلاثة أوجه: وهي: الأول: إنه من الخبائث، والثاني: فيه إضاعة المال، وقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال، والثالث إن فيه أكل جزء من النار، وأكل النار حرام»[1]. وهو إشارة إلى حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»[2].

خامسًا: أحيانًا كان يذكر الكتاب الذي أخرج الحديث:

فمثلًا قوله: «ما رواه البخاري في صحيحه قال: أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال ذلك الشيطان»[3]. في إشارة إلى حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته، وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج، وعلي عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: (يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟)، قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة، وعيالًا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: (أما إنه قد كذبك، وسيعود)، فعرفت أنه سيعود؛ لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال، لا أعود، فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: (يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك؟)، قلت: يا رسول الله،

= (2654)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، (1-91)، برقم (87)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص241.

(2) أخرجه الإمام مالك بن أنس في الموطأ، كتاب الكلام، باب ما جاء في إضاعة المال وذي الوجهين، (2-990)، برقم (1796)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يكره من قيل وقال، (8-100)، برقم (6473)، من حديث المغيرة بن شعبة، أن معاوية كتب إلى المغيرة: أن اكتب إلي بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فكتب إليه المغيرة: إني سمعته يقول عند انصرافه من الصلاة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير) ثلاث مرات، قال: وكان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات، ووأد البنات.

(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص338.

شكا حاجة شديدة، وعيالًا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: (أما إنه قد كذبك وسيعود)، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات، أنك تزعم لا تعود، ثم تعود قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة:255]، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ: (ما فعل أسيرك البارحة؟)، قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: «ما هي؟»، قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البَقَرَة:255]، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: (أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟)، قال: لا، قال: (ذاك شيطان)[1].

ومثلًا قوله: «وقال الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: يؤتى بصاحب القرآن يوم القيامة فيقول: يا رب، حملته في قلبي فألبسني حلة الكرامة...»[2].
وهو يشير إلى حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه قال: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (يَجِيءُ القُرْآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تَاجَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَرْضَى عَنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَ، وَيُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً)[3].

سادسًا: وأحيانًا الكتاب الذي أخرج الحديث والراوي الأعلى للحديث:

ومنه قوله: «روى نحوه الترمذي في جامعه أيضًا عن أبي أيوب الأنصاري»[4].
وذلك إشارة إلى حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: أنه كانت

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً، فترك الوكيل شيئًا فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، (3-101)، برقم (2311)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص335.
(3) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، باب منه، (5-178)، برقم (2915)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(4) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص338.

له سهوة فيها تمر، فكانت تجيء الغول فتأخذ منه قال: فشكا ذلك إلى النبي ﷺ قال: فاذهب فإذا رأيتها فقل: بسم الله أجيبي رسول الله ﷺ قال: فأخذها فحلفت أن لا تعود فأرسلها، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ قال: حلفت أن لا تعود: فقال: كذبت، وهي معاودة للكذب، قال: فأخذها مرة أخرى فحلفت أن لا تعود فأرسلها، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ قال: حلفت أن لا تعود. فقال: كذبت وهي معاودة للكذب، فأخذها. فقال: ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى النبي ﷺ: فقالت: إني ذاكرة لك شيئًا آية الكرسي اقرأها في بيتك فلا يقربك شيطان ولا غيره، قال: فجاء إلى النبي ﷺ فقال: ما فعل أسيرك؟ قال: فأخبره بما قالت، قال: صدقت وهي كذوب. وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب[1].

ومثاله أيضًا، قوله: «روى ابن السني عن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال: وجهنا رسول الله في سَرِيَّةٍ، وأمرنا أن نقرأ إذا أمسينا وإذا أصبحنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ الآية، فقرأنا فغنمنا وسلمنا»[2]. وهو يشير إلى حديث النبي ﷺ الذي يرويه عنه محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه رضي الله عنه قال: وَجَّهَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ، فَأَمَرَنَا أَنْ نَقْرَأَ إِذَا أَمْسَيْنَا وَإِذَا أَصْبَحْنَا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ الْآيَةَ، فَقَرَأْنَا؛ فَغَنِمْنَا وَسَلِمْنَا[3].

خاتمة:

إن المتأمل في سيرة الإمام الأسمر وكتبه ومؤلفاته ليجد نفسه أمام شخصية علمية حديثية ثرية بغزارة علمه، وأصالة فكره، وتعدد أوجه اجتهاداته واهتماماته؛ لذا فإن أية مقاربة علمية جادة لدراسة فكره ينبغي أن تأخذ في الحسبان تلك الاعتبارات والمتغيرات. ومن أهم ما خلصت إليه هذه الورقة:

أ- أن الإمام الأسمر عالم بحديث النبي ﷺ.

---

(1) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل سورة البقرة، وآية الكرسي، (5-8)، برقم (2880) من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص340.

(3) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا أصبح، (71)، برقم (77)، قال: حَدَّثَنَا أَبُو يَحْيَى السَّاجِيُّ، أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ يُوسُفَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ يَزِيدَ، حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ نِزَارٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه.

ب- أن الإمام الأسمر كان ممن يحافظ على السنة النبوية ويحث على الأخذ بها.

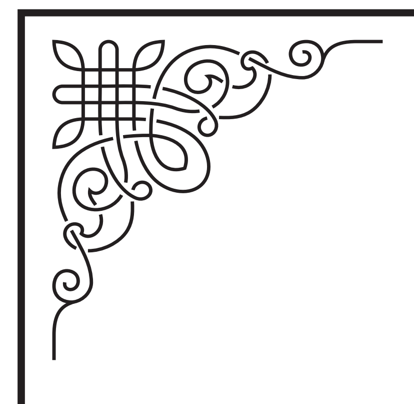
ج- أن الإمام الأسمر كان من العلماء الذين تصدوا للدفاع عن النبي ﷺ، والتعريف به، ونصرته خاصة، والإسلام بعلومه عامة.

د- حفظ الإمام الأسمر صحيح البخاري ومسلم، وكان مداومًا على مدارستهما وتدريسهما.

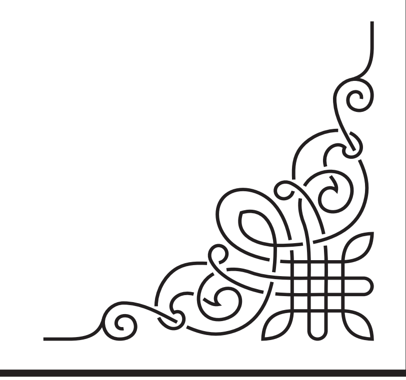
هـ- قمت بتخريج أحاديث الأذكار والرسائل والوصايا التي ألفها الشيخ الأسمر، فوجدتها جميعًا ما يقارب 320 حديثًا، معظمها من الصحيح والحسن.

و- شخصية الإمام الأسمر حديثية يدلُّ على ذلك ما يؤكد أنه صاحب صنعة حديثية، فكان أحيانًا يورد الحديث بالمعنى، وأحيانًا بالنص الكامل، وأحيانًا جزء من لفظ الحديث.

ز- كان الإمام الأسمر يذكر الراوي الأعلى للحديث في مواضع، وتارة يذكر الكتاب الذي أخرج الحديث، ومؤلفه، وكان كثيرًا ما يذكر المحدثون المصنفون في علم الحديث.



3 – في الصحة والبيئة







المساهمة الفكرية للإمام عبد السلام الأسمر في بلورة مفهوم الصحة النفسية

د. فقيه العيد

جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان - الجزائر

ملخص:

تتناول هذه المقالة المساهمة الفكرية للإمام عبد السلام الأسمر في بلورة مفهوم الصحة النفسية، عرضًا وتحليلًا ومناقشةً، حيث سنوضح أبرز الأفكار والمواقف التي قالها أو دعا إلى التحلي بها على المستوى السلوكي كالأمن والطمأنينة والسكينة التي ينشدها كل إنسان ويتطلع للوصول إليها، وهو ميل نفسي وقيمة حياتية تترك الإنسان بوصفه إنسانًا يبحث عن القيم ويقدرها ويعترف بتأثيرها، ذلك أن حياة الإنسان تمثل عدة عقبات لا بد له من تجاوزها، وعدة أعباء لا بد له من تحملها، وإحباطات وقلق وصراعات لا بد له من تفادي آثارها المدمرة لكيانه النفسي، وأن قدرة الفرد على التكيف والتوافق معها ليس مرهونًا ببعض الظروف الخارجية، بل بمدى توفر القيم الروحية والأخلاقية لديه، أي القدرة على تنشيط طاقاته الروحية والجسدية في تناغم تام، وبما يحفظ توازن شخصيته واعتدالها، وبالتالي تحقيق صحته النفسية. ولعل أهم الاستنتاجات التي تم تأكيدها في هذه الورقة هي الاستفادة من التراث الفكري للإمام الأسمر التي تنظر للإنسان نظرة شمولية، تأخذ بعين الاعتبار التفاعل القائم بين الفرد ومحيطه البيئي وعالمه الروحي. فلا يمكن أن نتصور فردًا صحيحًا نفسيًّا بدون وجود درجة مناسبة من الاتصال بينه وبين خالقه، وبينه وبين البيئة التي يعيش فيها، وبينه وبين المجتمع الذي ينتمي إليه.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، التصوف الإسلامي، الصحة النفسية، السلوك.

مقدمة:

لقد كان من المأمول أن تكون الزوايا مدرسة فكرية رائدة في مجالات شتى من العلوم، وامتداد فكري على مدى العصور، إلا أن واقع الحال للزوايا في وطننا العربي لا زال راكدًا متقوقعًا على ذاته، ولا يمثل تلك الاستمرارية الفكرية كمدرسة عريقة، وفي هذا الصدد يستوقفني ذلك التوصيف الذي ذكره الشيخ العلامة أحمد القطعاني، رحمه الله، حينما يقول: «يحزنني كثيرًا ذلك المنظر الكئيب لزاوية يجتمع فيها مريدون على شيخهم، يقرءون الحزب، ويضربون الدفوف لسنين، وما زاد أحدهم علمًا أو عملًا على يوم انتسابه للزاوية خطوة واحدة»[1].

التجربة الصوفية تربي الفرد تربية ذوقية وجدانية تمس القلب والروح قبل الجوارح والأعضاء، فالفكر الصوفي منح المفاهيم الفقهية والنشاطات السلوكية روحًا، تجمع بين مقولات الشريعة الإسلامية وأعمال القلوب كالتصديق، والإيمان، والصدق، والإخلاص، والمعرفة، والتوكل، والإرادة، والمحبة، والبصيرة، والطمأنينة، والشوق، والوجد، وغيرها من الأحوال والأعمال الصحيحة. يرى العلامة القطعاني «أن التصوف حياة سعيدة متوازنة، وآفاق فكرية وثقافية واسعة، وعلم ومعرفة وعمل بأوامر الشرع ونواهيه وزيادة وسمو»[2]، والبصيرة هي مركز الشخصية، فالإنسان كائن يتميز بوعي عميق، يعرف نقائصه وأسباب سلوكه المذموم والمحمود، ويدرك أهدافه التي يسعى إلى بلوغها، ويهتم بأفعاله ويتفطن إلى معناها في طريقه لتحقيق ذاته، فالشخصية المسلمة بوعيها الروحي تتمكن من حل مشكلة ماهية الإنسان وتحديد جوهره، عندما يردم الهوَّة بين العالمين المادي والروحي بفضل الاستبطان الداخلي العميق، والرحلة الطويلة والعميقة نحو العالم الروحي التي تتم على مستوى الإرادة والوعي والوجدان. وفي هذا الصدد يعرف الإمام الأسمر التصوف قائلًا: «اعلموا رحمكم الله، فالتصوف هو تصفية القلب من الأدناس الذميمة واجتناب الغيبة والنميمة، ومعازفة أخلاق الطبيعة، وإخماد

(1) سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018، ص16.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة صفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، النصح لجميع الأمة، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم في الشريعة»[1].

إذا كان العمل على تحقيق الأمن النفسي لدى الإنسان، من الأهداف الأساسية التي يطمح علم الصحة النفسية إلى تحقيقه، بحكم أن الأمن النفسي يحافظ على تماسك الفرد وقوته. فإلى أي مدى ساهم الإمام الأسمر فكريًا في بلورة مفهوم الصحة النفسية؟ وما هي دلائل الأمن النفسي ومظاهره للتحرر من المشكلات والأزمات، وتحمل ضغوط الحياة حسب ما نستنبطه من نصائحه ووصاياه؟

للإجابة على هذين التساؤلين سنوضح المرجعية الفكرية الصوفية للإمام الأسمر، ثم سنقف على أبرز الأفكار والمواقف والنصائح التي قالها الإمام الأسمر، أو دعا إلى التحلي بها على المستوى السلوكي ولها علاقة بالصحة النفسية.

المرجعية الفكرية للإمام الأسمر

يستند الفكر الإسلامي للإمام الأسمر إلى القرآن الكريم والسنة النبوية كمصدرين أساسيين، باعتبارهما العقيدة والشريعة للدين الإسلامي، وقد كان لكلام الله أثره في دفع الشخصية المسلمة إلى التقرُّب من الله بالعبادة والمجاهدة والاستقامة، ابتغاء وجه الله ومرضاته.

وبما أن الأخلاق الإسلامية تمثل السمات التي تطبع سلوكيات الفرد، فإن تهذيب الحاجات الإنسانية الروحية والمادية، وإفراغها في قالب المثالية الواقعية، تمثل الطريقة والمنهج الحياتي التي تقوم عليه. وفي هذا الصدد يدعو الإمام الأسمر قائلًا: «وعليكم بتعليم أولادكم ومماليككم القرآن والكتابة، وعقائد الإيمان، والفرائض والسنن والمؤكدات، والفضائل والمندوبات والأعمال الصالحات، وعلموهم التحذير من المحرمات والمكروهات، فإن لهم عليكم حقًّا»[2]، ويقول: «وعلموا أزواجكم، وبناتكم، وخدامكم، فرائض الغسل وفرائض الوضوء وفرائض التيمم وكل ما يجب عليهم فعلموهم إياه. حاصله علموهم كل ما يحتاجونه منكم في أمر دينكم؛ لأن لهم عليكم حقًّا شرعيًّا»[3].

(1) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص37.
(2) نفس المصدر، ص19 و20.
(3) نفس المصدر، ص20.

الصحة النفسية من المنظور الإسلامي

الصحة النفسية من المنظور الإسلامي، تقوم على الأسس الأخلاقية، وبما أن الإسلام أرسى قاعدة الكليات الأخلاقية، الذي تنطلق منه الأفكار والممارسات السلوكية كالإيمان والتوحيد والتقوى والإحسان وغيرها، فإن المسلم حاول أن يعيشها ويتذوقها ويتمتع بفوائدها، من خلال التجربة الصوفية التي تقتضي البلوغ، والحرية، والنيَّة. يستند التصوف الإسلامي في تحقيق أهدافه على التربية كممارسة فعلية للمجاهدة، والرياضة النفسية، والتدريب، والتعليم. وهكذا تصبح الشخصية الصوفية تتميز بسمات وخصائص روحية وفكرية وأخلاقية تعبر عن قيم عملية تتجلى في مختلف المقامات.

إن التصوف الإسلامي لا يركز فقط في تعاليمه على تنظيم السلوك الظاهري للفرد، وإنما ينفذ إلى أعماق الإنسان الروحية؛ ليوازن بين المحتوى الداخلي للنفس البشرية، وما يرسمه من سلوك خارجي ينسجم ويتوافق مع مكونات الإنسان. ويمكن تعريف الصحة النفسية من المنظور الصوفي الإسلامي كما يلي: «أنها حالة من التكامل بين الطاقات الروحية والجسدية، والاتزان الوظيفي الداخلي والخارجي، بما يؤدي إلى التطهير النفسي واستقامة الفرد، فيكون قادرًا على الضبط النفسي وتحقيق ذاته واستغلال قدرته وتمتعه بالرضا والطمأنينة والإحسان»[1].

المنهج الصوفي لدى الإمام الأسمر

لقد تناول التصوف الإسلامي النفس البشرية بنظرة شمولية واضحة، تعترف بالواقع الإنساني كما هو، من حيث القوى التي تتجاذبه، فهو يؤيد ويقرر التلاحم الضروري بين الحياة والموت. والمنهج الصوفي عند الإمام الأسمر يقوم أولًا على التفقه في الدين، ثم البحث عن الحقيقة، حيث يصرح قائلًا: «إخواني، تفقهوا في الدين وتصوفوا». وقوله: «إخواني، فليزم الصوفي ثلاثة أشياء: الأول حفظ سره، والثاني أداء فرضه، والثالث صيانة فقره».

إن التصوف الإسلامي يطرح معادلة قيِّمة للتوفيق بين الحقيقة والشريعة، حينما يزاوج بين الظاهر والباطن، ودعوته للفرد بإصلاح جوارحه أولًا ثم إصلاح نفسه ثانيًا.

(1) التجربة الصوفية كمصدر لبناء مفهوم الصحة النفسية، فقيه العيد، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران، 2005.

فالسلوك السوي هو ذلك السلوك الذي يحقق الانسجام الكامل بين الظاهر والباطن؛ ذلك لأن السلوك السوي على المستوى الخارجي من الشخصية لا يعكس بالضرورة سلوكًا سويًّا على المستوى الداخلي. حيث يختفي الوجه الحقيقي للإنسان وراء ستار الشعائر والمجاملات والاحترام والاعتبار، وحيث يتقنع الفرد بالنزعة الاجتماعية المصطنعة، والرقابة الذاتية المتكلفة.

الإجراءات العملية حسب الإمام الأسمر التي تحقق للفرد السلامة النفسية

تقوم نصائح الإمام الأسمر على فكرة التوازن والانسجام والاعتدال بين المطالب الروحية والجسمية. يتجسد هذا التوازن من خلال اتباع قواعد يخضع فيها الجسم إلى رياضات وتمارين كوسيلة للتحكم في الحياة النفسية للفرد، محررة بذلك قيود حياته النفسية ومعاناتها، ورفعه إلى مستوى أعلى من الوعي النفسي والوجودي، أي أنها عملية ترمي عبر تدريب الإرادة إلى السيطرة على الجسد بأقصى ما يمكن من الإعلاء والتسامي، بدء بالطهارة الحسية حينما يقول: «وعليكم بمداومة الطهارة والنظافة من الأوساخ والنجاسات، فإن الشيطان لعنه الله تابع للنجاسات حيث كانت»[1].

إن أهم جانب في الشخصية هو الجانب الباطني العميق الذي يدل على الأساس الروحي السليم للكائن البشري، ومنبع الطاقة التي توجه الوظائف العقلية والنفسية إلى ما فيه خير الفرد وصحته النفسية والبدنية التي تلزمه بالمبادئ الخلقية العالية. إنه موطن دوافع تحقيق الذات، دوافع خالية من التشويه والزيف. عندما توظف الشخصية هذه الدوافع توظيفًا سليمًا، يغدو الفرد كائنًا متطورًا، وصحيحًا بصورة منسجمة، محبًّا للعمل، وقادرًا على الحب البشري الحقيقي المخلص، ولا يتم ذلك إلا من خلال الذكر والصلاة على النبي المختار ﷺ، حيث يصرح الإمام الأسمر قائلًا: «وعليكم بكثرة الصلاة عليه ﷺ بشوق وانزعاج، وصلوا عليه من صميم قلوبكم، فهو سامع لكل من يصلي عليه، فاستحيوا منه قبل أن تصلوا عليه باللسان دون القلب وهو سامع لكم ﷺ»[2].

---

(1) الوصية الصغرى، عبد السلام الأسمر، تحقيق علي جوان، د.ن، 2007، ص31.
(2) نفس المصدر، ص29.

إن اهتزاز القيم الخلقية، أو انهيارها يساهم في اختلال التوازن النفسي لدى الفرد، ويحل محله الشعور باليأس والغضب والسخط على الآخر، وعلى نفسه في بعض الأحيان، مما يدفع به ذلك إلى الانسحاب والشعور بالعزلة وعدم الثقة في الآخرين، ولا يرتاح أثناء معاملتهم، فيعيش في ريبة وتوجس دائمين، فالشخصية المنهارة من الداخل لا تستطيع أن تنعم بمكونات الحياة.

إن مظاهر سوء التوافق التي تعيق توازن واعتدال الفرد أثناء القيام بمختلف السلوكيات، تندرج في فئة السلوك غير السوي كالجنوح والإدمان والعدوانية ومختلف الاضطرابات النفسية الأخرى. وفيما يلي أبرز مظاهر الشخصية السليمة حسب الإمام الأسمر رصي الله عنه:

- القدرة على تنظيم الرغبات والحاجات

إن سلامة الشخصية وصلاحها لا يرتبط بإرضاء الرغبات والغرائز في كل الأوقات، فليست الصحة النفسية مرادفة لتحقيق اللذة والشهوة؛ لأن ملذات الحياة أمور شخصية، وقد تتعلق بأمور لا نفع فيها ولا جدوى، بل فيها الضرر الكبير، وأنها خاضعة لمجرد الرغبة من غير تقدير عقلي. حيث يدعو الإمام الأسمر قائلًا: «فعليكم بالزهد فيها ما دمتم أحياء، والرزق يطلبكم فلا تتعِبوا أنفسكم إلا من كان له عيال، فيكون تكسبه بعد الكفاية الأكل والشرب واللباس، فعليكم بالتوبة عند كل ذنب ومعصية صغيرة أو كبيرة، واغتنموا التوبة قبل الموت، واغتنموا العمل قبل الفوت»[1].

الرغبات الحسية في أكثر أحوالها تدفع إلى اضطراب الشخصية إذا سيطرت على نفسية الإنسان، وأصبحت همه وهاجسه الوحيد. وإذا كان إرضاء الرغبات والغرائز في موقع الرفض من المنظور الصوفي الإسلامي، فإنما ذلك يكون إذا تحكمت في العقول، وسيطرت على النفس. أما إذا وُجهت هذه الغرائز نحو تلبية حاجات النفس، وخاضعة لمنطق العقل وليست هدفًا وغاية ينشدها الإنسان في هذه الحياة، ساهمت مساهمة فعالة في توازن الشخصية، وزادت من قوتها. حيث يقول الإمام الأسمر: «وإياكم واتباع الهوى والدنيا الجيفة، ولا منجى أنجى لكم من سنة رسول الله ﷺ»[2]. إن التصوف الإسلامي

(1) نفس المصدر، ص19.
(2) نفس المصدر، ص26.

لم يمنع إرضاء الرغبات، وتلبية الحاجات، بل قام بتنظيمها وفقًا لمبادئ الشرع والعقل معًا، وما يوجبه ضبط النفس. ولذلك قال الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»، أي تكون منظمة وفقًا لأحكام العقل أو الضمير الإنساني، أي تتفق مع قوى الإرادة الإنسانية. هذا الحديث يقودنا إلى احترام الشخصية الإنسانية بحكم أن الصحة النفسية لا تكون إلا مع الحرية والضبط الذاتي.

وفي هذا الصدد يصرح الإمام الأسمر: «طرد الخواطر كلها حتى لا يبقى في القلب إلا الله تعالى»[1]، فالشخصية التي لديها القدرة على التحكم في الذات وضبط النفس تتميز بالصبر، والتنظيم المحكم للنزوات، والرغبة في المعرفة والفهم والتعلم، والشعور بالمسؤولية، وضبط انفعالات الخوف والغضب والعدوان والحزن. أما الأفراد الذين يفتقرون لهذا المظهر من المتوقع أنهم مستهترون يعانون من عدم القدرة على تحمل المشكلات اليومية، والأنانية المفرطة، وعدم القدرة على مسايرة القيم الخلقية، والإفراط في الحاجة إلى انتباه الآخرين، والحساسية الزائدة والتعبير عنها بسلوك شاذ، وكلها دلائل تعبر عن الجنوح والانحراف والاضطراب النفسي.

- القدرة على الجمع بين العلم والعمل

الصحة النفسية بمعناها الواسع تشمل السعادة في الدين والدنيا، ومدرسة التصوف الإسلامي ترى أن النمو بمعناه الشامل يتضمن النمو الديني والأخلاقي، وعلى هذا الأساس فالإنسان السوي مطالب بأن لا يعزل تأثير المفاهيم الدينية والعلمية عن التطبيق العملي الإجرائي والتفاعل الاجتماعي؛ ذلك لأن الالتزام بقوانين الخالق يستدعي الإيمان به، والإيمان جوهر الإسلام، به تطمئن النفوس وتخشع خشوعًا يكبح جماح غرور الفرد، ويذكره على مرور الأوقات بأن الله هو الأعظم جل وعلا، وعلى هذا الأساس يقترن العمل الصالح بالإيمان كما يؤكد الإمام الأسمر ذلك قائلًا: «وعليكم بتعلم العلم الواجب عليكم الذي يقربكم من ربكم مثل التوحيد والآداب الشرعية، وما تصححون عبادتكم به من الطهارة والصلاة والصوم الزكاة والحج وعلوم الأحكام لمن احتاج إليه منكم، ولا تفعلوا فعلًا حتى تعلموا حكم الله فيه، فإن لم تعرفوا فاسألوا العلماء التابعين لسنة النبي ﷺ، وهم العاملون بعلمهم، وإياكم أن تسألوا الجهال أو تقتدوا بهم فتكونوا

(1) نفس المصدر، ص58.

مثلهم، وعليكم بمحبة أهل العلم ومزاحمتهم والمشي معهم وزيارتهم والصدقة عليهم واعتقاد الخير فيهم»[1].

التصوف الإسلامي ينظر إلى حرية الإنسان من خلال تطوير معارفه، فهو يسير دومًا نحو التحرر من غرائزه وأهوائه من جهة، ومن الآخر من جهة أخرى، وكلما كانت درجة التحرر أكبر حصل على معارف أكثر. وفي المقابل فإن تقهقر الذات يورثها الاغتراب، يفقد الإنسان ذاته نتيجة نشوء عدة تناقضات لا يمكنه التخلص منها، فكلما يبذل مجهودات ضخمة بهدف توسيع مجال حريته، يقع في الوقت نفسه تحت عبئها، فيكتشف الإنسان أنه محاط بعدة آلهة جديدة، فتصبح مسايرتها تزيد عن القدرات، مما يؤدي إلى الشعور بالفوضى والتشتت والغرابة في نشاطاته وفي نظرته للآخرين وحتى في نفسه.

-القدرة على المحبة والتواضع:

القدرة على الحب بشكل عام سواء تجاه الله أو الخلق تشكل القيمة الأساسية للإنسان، وتساهم في إذابة الجليد بين الناس، وتسهل عملية التواصل فيما بينهم، وعندها يعود الانسجام إلى العالم، ويتغلب الإنسان على ازدواجية وجوده. وفي هذا الصدد يؤكد الإمام الأسمر قائلًا: «وعليكم بالحياء والمحبة القوية، ومن لا محبة له ولا عقيدة له في شيخه وإخوانه فهو بعيد من الله تعالى، ولا تؤثر محبة فوق محبة الله ﷻ، فهو الفاعل بكم جميع الإحسان»[2]، ومن دلائل المحبة التسامح والتآلف والتعاون، فالأشخاص الذين لديهم القدرة على المحبة يتميزون بالألفة، يحبون الآخرين ويحترمونهم، يقيمون علاقات اجتماعية سليمة تقوم على أساس التسامح والتعاون، وتحمل المسؤوليات الفردية والجماعية، ويضيف الإمام الأسمر قائلًا: «وعليكم بالمحبة والبشاشة والهشاشة وتليين القول كله والزيارة»[3]، أما الذين يفتقرون لهذه القدرة من المتوقع أنهم يعانون من مشاعر اللاأمن، والملل والانسحاب والخوف من الاتصال الاجتماعي والركون إلى التقوقع حول الذات والخوف من المستقبل وتوقع الأذى من الغير، ويجدون صعوبة بالغة في الانتماء والقيام بالدور الاجتماعي المناسب أو خدمة الآخرين والتعاون معهم، الحزن يخيم عليهم سواء كانوا لوحدهم أو مع أسرهم أو جماعتهم، وكل هذه الصفات

(1) نفس المصدر، ص53 و54.
(2) نفس المصدر، ص28.
(3) نفس المصدر، ص37.

دلائل عن سوء التوافق الاجتماعي، وعليه يحث الإمام الأسمر أتباعه قائلًا: «وعليكم بالزيارة وعليكم بالزيارة، والزائر مثل من يفتش ضالة لا يدري أين توجد»[1].

الاتسام بالتواضع، صفة محبوبة عند جميع المتصوفة، ومن مظاهره الهدوء والحلم والتسامح والعفة، وتقبل الآخرين والعمل على تلبية حاجاتهم ومساندتهم أثناء المواقف الحرجة، ولذلك تجد الإمام الأسمر دائمًا يحث مريديه بأن يتسموا بالتواضع حينما يقول: «وعليكم بالتواضع لجميع الخلق بر وفاجر، إن كان برًّا تقتبسون منه نورًا وبركة، وإن كان فاجرًا ففجره على نفسه، وتواضعوا ولا تتكبروا فإن التواضع طبع الأولياء، والتكبر طبع الشياطين»[2]، وفي موضع آخر يصرح قائلاً: «فعاملوا خلق الله باللين والرفقة والشفقة والحنان والنصيحة لهم، ولا تبغضوا من الخلق إلا ما أوجب الله بغضهم مثل الكفار وشبههم»[3]، فالشخص المتواضع أكثر مثابرة وأكثر تمسكًا بالمعايير الدينية والاجتماعية وأكثر اتزانًا انفعاليًّا، حيث يصرح قائلًا: «التواضع وتليين الجانب لمن يليك من الإخوان، والاعتقاد في كل من يذكر معك أنه أفضل منك، وإلا فلا تنال منها شيئًا»[4].

أما الذين يفتقرون إلى هذه السمة تجدهم يتميزون بالعدائية والتمرد، وعدم القدرة على توادد والتآلف، يعانون من سوء التوافق الشخصي والبيئي والاجتماعي، وعليه ينصح الشيخ الإمام الأسمر أتباعه قائلًا: «إخواني، ولا تحقروا أحدًا من خلق الله، ولا تظلموا رجلًا من عباد الله ومن جميع الخلائق كلهم ولو كان يهوديًّا أو نصرانيًّا».

-القدرة على الاعتراف والتوبة والعزلة

الاعتراف بالذنب يعزز مفهوم الذات الخاص، خاصة عندما يكشف الفرد عن أخطائه بسبب إصلاحها، كما يفضي الاعتراف إلى تفريغ ما بنفسية الفرد من انفعالات ومشاعر الإثم المهددة لكيانه، مما يؤدي إلى التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل. أما التوبة، تؤكد الذات وتجعل الفرد يتقبل ذاته بعد أن كان يرفضها. وعلى هذا الأساس يؤكد الإمام الأسمر: «وعليكم بالبكاء والتيقظ للعيوب النفسانية، فحاسبوا قبل أن تحاسبوا»[5].

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(2) نفس المصدر، ص26.
(3) نفس المصدر، ص21.
(4) نفس المصدر، ص58.
(5) نفس المصدر، ص35.

التمسك بالعبادة والمراقبة يستوجب العزلة الإيجابية التي تورث الشخصية مقدرة فائقة على تحمل الأذى ومواجهة الإحباط وضغوط الحياة اليومية، وتقبل واحترام الآخرين وإن اختلفت الآراء والديانات، بالإضافة إلى شعورهم المتزايد بالتحرر من كل عائق أو أي ارتباط مادي يمنعهم من الوصول إلى أهدافهم. وعلى هذا الأساس يؤكد ذلك الإمام الأسمر قائلًا: «وعليكم بترك الناس جانبًا والعزلة عنهم إلا عند ضرورة فلا بد من الصمت عن الخوض في الكلام معهم إلا لحاجة ضرورية»[1]، ويضيف قائلاً: «وإياكم وصحبة الأراذل والفساق ومن لا يوافقكم في طريقتكم، فإنكم لا تنالون منه إلا العلة والعطلة وفساد القلب، ومجالستهم تذهب الأنوار كما تذهب الشمس الجليد»[2].

- الإخلاص والوفاء والتوكل

الإخلاص والتوكل مرتبطان ارتباطًا وظيفيًّا في الفكر الصوفي الإسلامي، وأن الفصل بينهما يؤدي حتمًا إلى السلوك غير السوي، سلوك انفصامي يتجلى في ذلك التناقض الصريح بين القول والفعل، وعلى هذا الأساس يصرح الإمام الأسمر قائلًا: «وعليكم بالإخلاص في كل فعل من الأفعال، ولا تعرفوا أحدًا إلا لله تعالى، وعليكم بالخضوع واليقين والمعرفة والهداية والورع والتقوى والتسليم والرضا بكل ما يقع من الله تعالى»[3].

ولتجاوز هذا الانفصام لا بد من الرفق والإخلاص والتوكل والعبودية لله وبالله ومن الله وإلى الله ومع الله، إنه سلوك يصدر من المحبة الإلهية التي تطهر النفوس من الشذوذ. هذا النهج السلوكي ينبع من إحكام العلاقة بين الإنسان وربه، وبين الإنسان ومجتمعه وبيئته، يقول الإمام الأسمر: «وأوصيك بالرفق في جميع الأحوال، والإخلاص في جميع الأفعال، وبترك كل ما يشغل عن الله من أهل ومال، وعليك بالإقبال على ما ينفع في المال، والرجوع إلى الله، والتوكل على الله في جميع الأحوال، وبمتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في الأخلاق والأقوال والأفعال»[4].

---

(1) نفس المصدر.
(2) نفس المصدر، ص37.
(3) نفس المصدر، ص35.
(4) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م، ص158.

التمسك بالعهود والإيفاء بها من السمات المحببة، تجعل الشخصية تشارك إيجابيًّا في الحياة، ولديها تقييم واقعي وموضوعي لقدراتها، تتقبل نواحي قصورها، وتبذل جهودًا معتبرة في العمل، وعلى هذا الأساس ينصح الإمام الأسمر أتباعه بالتمسك بالعهود حينما يقول: «وعليكم بالوفاء لكل من له عليكم حق، فأوفوه به قبل أن يدرككم الموت، وعليكم بترك الجفاء، وعليكم بالوفاء بالعهود والرجوع إلى الله تعالى في كل فعل من الأفعال، لأنه خالق للأفعال كلها سواء كانت مليحة أو قبيحة»(1).

التمسك بالعبادة والتوكل يورث الشخصية مقدرة فائقة على تحمل الأذى ومواجهة الإحباط وضغوط الحياة اليومية، وتقبل واحترام الآخرين وإن اختلفت الآراء والديانات، بالإضافة إلى الشعور المتزايد بالتحرر من كل عائق أو أي ارتباط مادي يمنع تحقيق الأهداف المرجوة. وعليه ينصح الإمام أتباعه بالتوكل على الله قائلًا: «وعليكم بالتوكل على الله في جميع الأمور كلها؛ لأنه كافٍ من توكل عليه ﷻ، ولا تؤثروا قدرة مع قدرة الله تعالى؛ لأن التأثير مع الله لا مع شيء سواه»(2).

- السخاء والقناعة والشكر

الأشخاص الذين يتسمون بالكرم والقناعة والشكر يتميزون ببصيرة قوية، متحررون من كل المآزم النفسية، قادرون على الإقناع والممارسة الوجدانية، يستطيعون أن يتخذوا أهدافًا واقعية في الحياة وقدرة عالية على الصمود والعمل والمحبة والسعادة، وكلها دلائل على حسن الصحة النفسية. ولهذا ينصح الإمام الأسمر أتباعه بالتمسك بالسخاء والقناعة والشكر قائلًا: «وعليكم بالسخاء مما في أيديكم، ومن لم يكن سخيًّا فلا يصلح للطريقة العروسية»(3)، وفي موضع آخر يقول: «وعليكم بالقناعة بالموجود، والشكر عليه، والإجابة لمن ناداكم بأدب ورقة، واجتناب كل فعل قبيح»(4).

- الاعتدال بين الأحوال المتضادة

لقد أخذت الأحوال في التصوف الإسلامي شكل أزواج متضادة، فالأحوال عبارة عن مشاعر وأحاسيس تنتاب الشخصية، تتغير وتتلون حسب الظروف التي تمر بها. وأهل

(1) الوصية الصغرى، مصدر سابق، ص33.
(2) نفس المصدر، ص32.
(3) نفس المصدر، ص27.
(4) نفس المصدر، ص35.

التصوف يميزون بين الحال والمقام، وكما يقول الإمام القشيري: «فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب».

ومن خلال هذا التميز نلاحظ أن المقام رتبة يصل إليها الصوفي، بينما الأحوال مشاعر غير ثابتة، يعرفها الجنيد قائلًا: «الحال نازلة تنزل بالعبد في الحين، ولا تلبث به على الدوام»[1]، وتتحقق الطمأنينة النفسية عند رعاية الاعتدال بين الخوف والرجاء، والقبض والبسط، الغيبة والحضور، وترتبط جميعها بعملية الذكر، حيث يوضح ذلك الإمام الأسمر بوضوح أثناء عملية الذكر قائلًا: «الذاكر الواعي الصاحي، وأما السكران مسلوب العقل فهو وما يَرِدُ عليه من الله تعالى، فاتركوه بينه وبين ربه سواء نطق بالذكر بلحن أو نطق به كما ينبغي بلا لحن... وعلامته أن يكون بعد الوارد ساكنًا ساكتًا لا يخالف الشريعة إن صحى، وهذه الآداب لا تلزم إلا الذاكر باللسان، وأما الذاكر بالقلب فلا يلزمه منها شيء، والتفكر بالقلب والعقل في مصنوعات الله تعالى هو سراج القلب، فإذا سكن القلب عنه بقى مظلمًا، وساعة من التذكر تعادل عبادة سنة، وهو هداية من الله تعالى»[2].

إن الصراع الذي يعيشه الصوفي والذي يتجلى على شكل ثنائية الأحوال يفضي في نهاية المطاف إلى إفناء الأوصاف المذمومة وإبقاء الأوصاف المحمودة، أي تزكية النفس وتطهيرها. إن عملية ضبط الدوافع والتحكم فيها لا يتحقق إلا من خلال رعاية الاعتدال بين الأحوال المتضادة. إن مبدأ التوازن الذي يدعو إليه التصوف الإسلامي، يمثل الدعامة الأساسية التي تستند إليها الشخصية.

- الابتعاد عن الصفات المذمومة كالطمع والجشع والحسد والزندقة

الأشخاص الذين يتسمون بالطمع والجشع تجدهم في الغالب مستهترين يعانون من عدم القدرة على تحمل المشكلات اليومية، والأنانية المفرطة، وعدم القدرة على مسايرة القيم الخلقية، والإفراط في الحاجة إلى انتباه الآخرين، والحساسية الزائدة والتعبير عنها بسلوك شاذ، وكلها دلائل تعبر عن الجنوح والانحراف والاضطراب النفسي، فيشدد الإمام الأسمر بالابتعاد عن هذه الصفات المذمومة مكررًا صفة الطمع ثلاث مرات قائلًا: «إياكم والطمع، وإياكم والطمع، وإياكم والطمع»[3]، ثم ينقل عن شيخه الدوكالي كلامًا

(1) اللمع، أبو نصر الطوسي، تحقيق عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور، القاهرة، 1960، ص57.
(2) الوصية الصغرى، ص57.
(3) نفس المصدر، ص23.

عن الطمع: «قال شيخنا رحمه الله تعالى: الطمع اسمه أبو فاضح في الدنيا والآخرة، وإياكم والكسل عن الصلوات المفروضة في أول وقتها في الجماعة والنوافل والذكر والأوراد وجميع أفعال الخير»[1]..

يعاني الأشخاص الذين يسيطر عليهم الحسد والحقد والمكر من التوتر الشديد الذي يقود إلى القلق والحصر، فهم أشخاص متقلبو المزاج وعرضة لمختلف الاضطرابات النفسية، يفتقرون إلى الأمن والسلام النفسي، للتحصين من هذه السلوكيات يشدد الإمام الأسمر على الابتعاد عن هذه الصفات المذمومة قائلًا: «والحسد هو المهلك، وأخاف منه على ذريتي بعدي، فمن كان منهم من الحاسدين فهو بريء مني وأنا بريء منه ما دام يحسد الناس على ما أعطاهم الله تعالى»[2]، وفي موضع آخر يوصي بالابتعاد عن التجبر والمكر والحقد والوسوسة قائلًا: «وإياكم والتجبر والعجب والغفلة والمكر والحقد والوسوسة في القلب، والمخالفة لما أمر الله ورسوله ﷺ، والغفلة عن الذكر باللسان والقلب، وتجب منها التوبة على الفور»[3].

أما الأشخاص الذين يميلون إلى الزندقة، في الغالب تغزوهم الأوهام والوساوس والحيرة والارتباك والشكوك والقلق والكآبة. وعليه يوصي بالابتعاد عن مخالطة هؤلاء الأشخاص قائلًا: «وإياكم والزندقة وهي تزويق الظاهر وفساد الباطن فيما بين العبد وربه»[4].

خاتمة:

يعتبر التمسك بروح الدين من أدب وخلق، جوهر الأمن والطمأنينة والسكينة التي ينشدها كلَّ إنسانٍ الإمامُ الأسمرُ، كما يؤكد ذلك الشيخ مصطفى بن رابعة حينما يقول: «إن الدعوة إلى الأدب وحسن الخلق يمثلان لب رسائل الأسمر ومحورها الذي تدور عليه (وعليكم بالأدب مع الله ومع رسوله ومشايخكم وجميع الخلق من بار وفاجر)»[5]، فعندما نراجع الفكر الصوفي حول النفس البشرية والسلوك العملي للإمام الأسمر، نجده

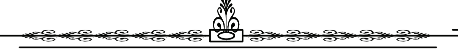
(1) نفس المصدر، ص24.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، ص24 و25.
(4) نفس المصدر، ص24.
(5) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص84.

يتسم بالشمولية والاستيعاب ما يمنح الإنسان معرفة صائبة عن صحته النفسية والوقاية من أمراضها دون أن ينال ذلك من وحدة الكيان الإنساني. ذلك أن الحياة الصوفية، حياة مع النفس الإنسانية في علاقاتها المختلفة، وأن استقامة هذه النفس مرهون بمدى تمسكها بالأخلاق الحميدة التي ارتضاها الله لعباده وسنها رسوله الكريم ﷺ في حياته، ولذلك اهتم كل المتصوفة، ومن بينهم الإمام الأسمر، بتبيين السلوك السوي، وكيفية التمتع بالصحة النفسية والجسمية. ولعل ما ذكره الشيخ ابن رابعة عن شخصية الإمام الأسمر خير دليل على مدى استقامته واعتدال شخصيته حينما يقول: «لقد كانت شخصيته تمثل الشخصية الإسلامية المعتدلة التي ترى في نفسها أنها مأمورة بتعليم الناس، وإرشادهم إلى طريق الحق والخير»[1].

وفي الختام تُعْتَبَرُ المحبةُ بين العبد وربه وبين العبد وسائر المخلوقات تجاوزًا للنزوات ومنتهى الطاعات، بها تتم عملية التخلي عن السلوك المذموم والتحلي بالسلوك المحمود، وبالمحبة تتبدد المخاوف وينحصر الاكتئاب وينخفض التوتر ويقل الغضب وتتلاشى الحساسية، وبها يتم إيقاظ الهمم وتحريك الإرادة. فيتحول خوف الفرد من العباد إلى رب العباد وطلب المعونة منه، وبث حزنه وشكواه إليه، حينها يجد سعادته وطمأنينته وسكينته من خلال لجوئه إلى ربه، فيشعر بأن كل ما في الكون من موجودات تشاركه التسبيح لله ﷻ، فيحقق بذلك الانسجام والاتساق بين عالمه الذاتي وعالمه الموضوعي، فيزداد رضا الفرد عن نفسه، ومودة بينه وبين الكون من حوله، فتصبح لغة التخاطب بين الفرد والموجودات واحدة هي التسبيح والشكر والشعور بحب الله ورضاه.

---

(1) نفس المصدر، ص38.







الصحة والغذاء في فكر الإمام عبد السلام الأسمر

د. عبد السلام الحبتي

طبيب، وباحث في التاريخ الثقافي - ليبيا

ملخص:

تهدف هذه المقالة إلى إبراز اهتمام وعناية الإمام سيدي عبد السلام الأسمر بالغذاء وأثره على صحة الإنسان، وحرصه على تعزيز ثقافة الغذاء الصحي في الأوساط العروسية الأسمرية خاصة، وأوساط المسلمين عامة، وكيف عالج القضايا الخاصة بالغذاء وتقنينها وضبطها وتوجيه اللازم منها في حياة الإنسان. وكل هذا ليصب في اتجاه التنبيه على الأبعاد التي تحملها شخصية الإمام الأسمر ضمن مشروعه الإصلاحي متعدد الجوانب والأهداف، ولدفع شبه ترسخت في الأذهان مفادها أن التصوف انعزال وبعد عن الحياة والمشاركة فيها.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الغذاء، الصحة، التصوف.

مقدمة:

من نافل القول: إن الغذاء والطعام يعطي جسم الإنسان الطاقة والحيوية، ويمده بما يلزمه من العناصر الغذائية والطاقة التي تساعده على قيام الجسم بكل وظائفه الحيوية، ومقاومته للأمراض والجراثيم التي تهاجم الجسم، مسببة له الأمراض والعلل، وأيضًا

يدخل الطعام في مساعدة الجسم على ترميم نفسه وإصلاحها، عندما يصاب الجسم بمرض أو خلل معين، لذلك يجب أن تتم عملية تنظيم التغذية بشكل منظم وصحي، واختيار الطعام المناسب والمحتوي على كل العناصر الغذائية، وكذلك اختيار طريقة وكمية الطعام، فهي مهمة جدًّا، فالإكثار من أكل الطعام يصبح إسرافًا، ويصاب الجسم بالخلل في القيام بوظائفه الحيوية، ويعود على الجسم بالمرض والسمنة والكسل والخمول، وهذا قد تحدث فيه العلماء منذ قديم الزمان بضرورة التقليل من الطعام، وعندما تكثر الأمراض في الجسم وكذلك زيادة الوزن تقلل من عمر الإنسان.

لعل كل هذا من نافل القول، وأصبح من بديهيات الثقافة الصحية الشائعة بين الناس في عصرنا الحالي، لكن عندما نجد هذا الوعي العالي سلوكًا عاشته شخصية في القرن العاشر الهجري، بل وكان جزءًا لا يتجزأ من فكرها وعملها على ترسيخه وإشاعته، فالأمر يختلف ويحتاج منا تسليط الضوء عليها والحديث ولو عرضًا عن هذه الشخصية.

والشخصية التي أعنيها في مقالتي هذه هي شخصية الإمام الأسمر المولود عام 880هـ والمتوفى عام 981هـ بمدينة زليتن في ليبيا، تلك الشخصية الكريمة التي لم تغادر أذهان ووجدان الليبيين، بل في كامل الأقطار الإسلامية، رغم مرور كل هذه المدة الطويلة[1]، إنها لجديرة بالدراسات والبحوث المتكاثرة الكثيفة للتعرف عليها بالشكل الصحيح والإفادة من حياته وفكره وأعماله وجهوده. وفي مقالتي هذه سأنفذ إلى جديد في شخصية الإمام، ندر وأن تحدثت عنه الدراسات والبحوث التي اعتنت بسرد تفاصيل حياته وجهوده وعلومه في الجانب النظري، سأتحدث عن جانب تطبيقي وعملي في حياته نتعرف فيه على ثقافة الغذاء والصحة والغذاء في حياته، وكيف أدارها ونظمها، وكيف وجه الأنظار إلى ضرورتها.

---

(1) للمزيد عن سيرته العطرة، ينظر على سبيل المثال:
تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، الدار الثقافية، بيروت، 1966.
القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1992م.
مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، لجنة الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن، 2022م.
رسائل الأسمر إلى مريديه، مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.

جوانب من حياة الإمام الأسمر الصحية

أول ما لفت انتباهي في حياة الإمام الأسمر وفتح أفقًا للتفكير والسؤال أمامي، هو أن الإمام من المعمرين فقد عاش مائة عام وعام، حيث ولد كما أسلفنا عام 880هـ وتوفي عام 981هـ، ولم يحنِ له ظهر أو تتقاصر قدرته على المشي والقيام، حتى أنه كان في كامل صحته البدنية حتى أواخر حياته، وهو ما نستفيده من قوله: «سميت بالأسمر لمبيتي الليالي سمرًا في طاعة الله» في كتابه: (العظمة في التحدث بالنعمة) عند تعليله لتلقيبه بـ«الأسمر»، وإذا عرفنا أن هذا الكتاب كان آخر كتاب ألفه في حياته، فهمنا أنه كان مستمرًّا في عادته الخاصة بإحياء لياليه بكامل قوته البدنية حتى أواخر حياته[1].

قد لا تكون المعلومات التي أدلت بها مصادر ومراجع سيرة الإمام الأسمر عن حياته الخاصة كافية للكشف عن العادات الغذائية والجوانب الصحية بشكل عام في حياته، لكن من الممكن أن نلجأ لجميع الكثير من المعطيات لبلورة صورة ولو بشكل نسبي تعكس لنا مدى وعي الإمام بأهمية هذا الجانب.

ولاستجلاء الجانب الغذائي في حياته، يمكن اللجوء إلى المقارنة بينه وبين أستاذه الشيخ الدوكالي الذي «عاش مائة كاملة وثلاثين عامًا» كما يفيدنا عنه الإمام[2]، فعن نظامه الغذائي قال: «وكان رضي الله عنه لا يأكل من الطعام إلا قدر دحية الدجاجة الصغرى، ويشرب أوقية من الماء، ويقول: أكثر من هذا فساد»[3]، ونتيجة هذا النظام «لم يحن ظهره ولم تسقط له أسنانه إلى أن مات رحمة الله عليه»[4]. وبالقطع فإن الإمام لا يقصد أن أستاذه لا يأكل إلا هذا القدر القليل في كامل يومه، وإنما قصده بـ«لا يأكل من الطعام» أي من كل صنف من الأصناف في طبقه «إلا قدر دحية الدجاجة»، أي ما يعادل لقمة من كل صنف.

---

(1) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي وحتى عام 2000، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2012م، ج1، ص491.

(2) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص73.

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(4) نفس المصدر، نفس الصفحة.

وإن كنا لا نعرف تلك الأصناف الغذائية وعددها، إلا أن هذا الوصف كاف للدلالة على الوعي الصحي الكامل بمخاطر الإكثار من الأطعمة واختلاط أصنافها، وربما الصنفان الوحيدان اللذان يمكن التأكيد على حضوره في طبق الإمام الدوكالي هما البيض ولحوم الدجاج، باعتبار تشبيه صغر لقم الطعام بـ«دحية الدجاجة الصغرى».

ويمكن القول أن الإمام الأسمر يعكس فيه حديثه معنى يتعلق بما يعرف باليوم بـ«التقييد الغذائي» لتقييد السعرات الحرارية الذي يعد من أهم العوامل المضية لحياة صحية أليق بالجسم، وتساعد على إبعاد عوامل أمراض الشيخوخة بشكل كبير، فمثلًا معروف أن البيض من الأطعمة منخفضة السعرات، وكلما قل حجم البيضة قل عدد سعراتها، وقد يشير وجود البيض على طبق الشيخ الدوكالي إلى وفرة الكالسيوم اللازم في العظام الكافي لحياة الخلايا واستمرار نشاطها وأداء وظائفها حتى هذه السن المتقدمة في العمر، ومما يستفاد من الإشارات الخاصة بعدم انحناء الظهر سلامة الصدر والقلب ووظائف الجهاز الهضمي.

إن مثل هذه الإشارات التي يبديها حديث الإمام الأسمر عن أستاذه مهمة للغاية، فهي أولًا تدل على البيئة التي عاش فيها الإمام، وأعني مدرسة أستاذه الدوكالي وتأثير مثل هذه العادات الغذائية في حياة أستاذه، وما ينتج عنها من استمرار النشاط والقدرة على الأداء بشكل مضاعف وكبير، وهو ما يعكسه إشارته إلى أن كان ينتفل بمائة ركعة بعد العشاء، وفي النهار يعطي سبع دولات، أي: حصص، وكلها قدرات يجب أن يتوفر له جسم صحيح غال من العلل.

وما أعنيه مما سبق إمكانية عقد مقارنة عمر الأستاذ الدوكالي وتلميذه الإمام الأسمر، وإمكانية تقارب العادات والنظام الغذائي بينهما، خاصة وأن الإمام عندما تحدث عن غذاء وصحة أستاذه تحدث عنها في سياق المدح والثناء.

وإن كان النظام الغذائي الذي أوضحه الإمام، والخاص بالقليل من الأطعمة، لم يبين أصناف تلك الأطعمة، إلا أن نواتجه على صحة أستاذه يشير إلى وجود تنوع غذائي يوفر ما يحتاجه الإنسان من الكربوهيدرات والبروتينات الحيوانية والنباتية وكذلك الدهون والخضروات والفواكه، ومن المهم الانتباه لكلمة الشيخ الدوكالي: «أكثر من

ذلك فساد» ففيها إشارة إلى بناء ذلك النظام الغذائي إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ [الأعراف:31].

الإمام الأسمر ونشر الثقافة الصحية والغذائية

وللتأكيد على انتهاج الإمام نظامًا غذائيًّا قائمًا على التقليل من الأطعمة، يمكن الاستشهاد بنصائحه إلى مريديه، ففي إحدى رسائله التي وجهها لأتباعه في المغرب يشدد على أن القليل من تناول الأطعمة «يفيد الصحة، فمن قل أكله قل مرضه، وكثرة الأخلاط سبب للأمراض»(1)، ينقل مطولات من كتب الحديث الشريف نصوصًا عن النبي ﷺ تحث على الإقلال من الطعام، كما يسرد كلام الكثير من العلماء في ذلك، وعبارته هذه تفيد بدرايته الواضحة الواعية للعلوم، خاصة ما يتعلق بالغذاء، خاصة تأكيده على أن «الأخلاط سبب للأمراض»، وبمفهوم المخالفة فهو يحث مريديه على ضرورة تصنيف الأطعمة على المائدة.

ومن كل ما سبق نفهم أن الإمام الأسمر كان على قدر كبير من الوعي بثقافة الغذاء وأنواعها وآثارها، فالنقول التي سردها نقلًا عن العلماء حول أهمية التقليل من الطعام تدل على توفر مكتبه الخاصة على كتب خاصة بالطب وثقافة الغذاء واطلاعه الواسع عليها، هذا من جانب، ومن جانب آخر يؤكد حديثه هذا على حرصه على إشاعة ثقافة الغذاء الصحي وسعيه إلى ذلك. والأهم التعرف على أحد أسباب طول عمر الإمام حتى بلغ 101 عامًا من عمره المبارك، دون أن يعاني أعراضًا صحية.

وحتى لا تخرج عملية التقليل من الطعام وتنظيمه، سيما وأن الإمام استخدم في وصفها عبارة الجوع، لذا كان حديثه في رسالته إلى أتباعه في المغرب عن هذه المسألة ضمن تشديده على لزوم فضيلة الصيام الذي يمكن الإنسان من تنظيم طعامه، باعتبار تحديد وقت الفطر ووقت الإمساك، وغني عن البيان أن الصيام يأتي من ضمن الوسائل الخاصة بتقليل تناول الأطعمة، علاوة على فوائده ومردوده الروحي والعقلي الذي يكسب الإنسان الصلابة وقوة الإرادة في اتخاذ القرارات.

---

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص287.

وقد نقل عن الأسمر أنه كان دائم الصيام بشكل منتظم، وهذا ما جعل فوائد الصيام البدنية تنعكس على صحة بدنه وقدرته على العبادة.

ويعمل الصوم على زيادة قوة الخلايا في التحمل والمقاومة، كما أن الجوع يمنع حدوث الالتهابات المختلفة في جسم الإنسان، وتنظيم الهرمونات الموجودة في جسم الإنسان حتى يستطيع الشعور بالجوع الحقيقي، إذ يعاني الأفراد المصابون بالسمنة المفرطة عدم قدرتهم على تلقي الإشارات الصحيحة التي تدل على الشبع، نتيجة عاداتهم في الإفراط بتناول الطعام يوميًّا.

كما يمنح الصيام الجهاز الهضمي بعضًا من الراحة الأمر الذي قد يساهم بدوره في تنشيط عملية التمثيل الغذائي لحرق السعرات الحرارية بكفاءة أكبر، وتنظيم عملية الهضم، ويعزز وظيفة الأمعاء الصحية، وبالتالي يحسن من وظيفة التمثيل الغذائي، لذا فإن الصيام المتقطع يمكِّن الجسم من البقاء أصغر سنًّا، ويساعد على تمديد العمر وتحسين الصحة بشكل عام.

ومن المهم العودة إلى حديث الإمام عن صحة أستاذه الدوكالي التي بلغت إلى حد وفاته دون أن تسقط أسنانه وهو في سنه 130 عامًا، وبالإضافة إلى النظام الغذائي الدقيق الذي اتبعه الشيخ الدوكالي، فربما يكون بين موطنه الذي عاش فيه وبين صحته، خاصة أسنانه علاقة ما، فالبلدة التي سكنها ودفن بها الشيخ الدوكالي بمسلاتة، تسمى «زعفران»[1] لكثرة انتشار هذا النبات فيها، وربما كان أهل البلدة على معرفة بفوائد هذا النبات وأثره في صحة الأسنان، فالمعروف أنه مطهر طبيعي للفم، له قدرة فائقة على مكافحة الالتهابات وطرد الميكروبات.

ولكن هناك عامل آخر قد يكون وراء صحة أسنان الشيخين، الشيخ الدوكالي والإمام الأسمر، كما تروي المصادر، ويتعلق بإسباغ الوضوء الذي شدد الإمام في نصائحه على موالاة إسباغه ولو على طهارة لنيل فضائله وثوابه. المعروف أن مضمضمة الفم ثلاث مرات متوالية خلال خمس مرات في اليوم يبقى طاهرًا ويقلل من وجود فضلات الطعام التي تحول الفم إلى وسط حامضي تنشط فيه البكتيريا المسببة لمشاكل التسوس، فيقل معدل تسوس الأسنان وأمراض الفم واللثة بدوام وتوالي الوضوء.

(1) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص73.

وكلما تناول الإنسان طعامًا تتعرض أسنانه وفمه في غضون أقل من ساعة للتغير الحمضي؛ لأن البكتيريا التي تتراكم على الطبقة الخارجية للأسنان تنشط في الوسط الحامضي منتجة مواد ضارة وتسبب التآكل للأسنان، لذلك يفضل التقليل من تناول الطعام مع شرب كمية كافية من الماء، وهو ما يظهر جليًا في قول الإمام عند حديثه عن شيخه الدوكالي «وكان ﷺ لا يأكل من الطعام إلا قدر دحية الدجاجة الصغرى. ويشرب أوقية من الماء»، فهذه الكمية من الماء كافية لتطهير الفم من بقايا الطعام ولتوازن المعادلة الحامضية فيه. ولا بد من الإشارة إلى ارتباط صحة الفم والأسنان بباقي أجزاء الجسم، خاصة المتعلقة بوظائف الجهاز الهضمي والتنفسي، فكلما زادت طهارة الفهم زادت حيوية أداء وظائف هذه الأجهزة المهمة في حياة الإنسان.

ثقافة التوازن الروحي والنفسي في فكر الإمام الأسمر

ويبدو أنه من المهم الإشارة إلى عوامل أخرى كان لها دورها في صحة البدن في حياة الإمام الأسمر، ويتعلق الأمر هنا بالتوازن الروحي والنفسي، فمن بين أهم من التصق بحياة الإمام علاقته بالفنون والموسيقى، وكذلك ما روي عنه من كثرة السفر والرحلات.

اعتنى الامام الأسمر بقضية الفنون والموسيقى التي تركب منها برنامج «الحضرة» التي تُعَدُّ من أهم أعمال الطريقة العروسية على يديه، فحلقة «الحضرة» مكونة في الأساس من إيقاف موسيقي على آلة «الدف» وأناشيد مصوغة في شكل قصائد ومدائح وأذكار تمتزج موضوعها لمخاطبة الجانب الروحي، ما يبعث استقرار وراحة وتوازنًا نفسيًّا كبيرًا على شخصية السامع.

وفي العصر الحديث تنصح الكثير من المراكز الصحية والتقارير الطبية بالاهتمام بالموسيقى والفنون لإعادة تأهيل الإنسان، ويبدو أن أحد أهداف الإمام من البرنامج الأسبوعي لـ«الحضرة» الأسبوعي في مشروع الإمام الإصلاحي يتعلق بإعادة تأهيل المنخرطين في طريقته نفسيًّا وذهنيًّا وبدنيًّا.

وما يدل على معرفة الإمام الأسمر بأهمية الموسيقي وتغذية الجانب الروحي المهم للتوازن النفسي على صحة الإنسان، أن الدراسات الحديثة أكدت على قدرة الموسيقى والأذكار والأناشيد على تحسين الذاكرة، ولذا نجد الإمام الأسمر اعتمد في نقل علومه وفكره على أذهان الناس وذاكرتهم التي تصفو بشكل كبير وتتحسن ويتعزز

استيعابها الايجابي أثناء استماعها للموسيقى، فنظم علومه وفكره في قصائد وأشعار كان يؤديها في «الحضرة».

خاتمة:

بعد هذه الرحلة، يبدو من المهم أن نختم حديثنا عن حياة الإمام الصحية، بما بدأناه عن الحديث عن لقبه «الأسمر»، فلا بد الإقرار بأن تجارب العلم الحديث في الغذاء والصحة لا تزال تواجه التغير والتبدل، سيما وأنها قائمة على التجربة المتراكمة المستمرة، ومن المهم الاطلاع على التجارب السابقة، فمثلًا ما يقال عن تأثير السهر على صحة الإنسان وضرورة أن ينام الإنسان ثمان ساعات يوميًّا ليكون نومه صحيًّا، قد تجبرنا حياة الإمام على مراجعته، فرغم أنه «الأسمر» الذي يقضي أغلب ليله في طاعة الله إلا أنه عاش أكثر من مائة عام.

ومن المهم الإشارة إلى أنه لُقب بـ«الأسمر» وليس السهران، والسمر لا يعني السهر، بل سمرًا في طاعة الله، كما يقول الإمام نفسه، في المناجاة والانشغال بالله، ربما بالعلم أو التأمل، فالعبادات بابها مفتوح ولا يقتصر على القيام للصلاة.

باعتقادي أن النظريات الحديثة ستصل إلى نتيجة مفادها أن النوم الصحي مقياسه ومعياره بالكيف لا بالكم، فالراحة والاسترخاء والهدوء النفسي والجسدي بعد الاستيقاظ من النوم هو معيار النوم الصحي من عدمه لا بعدد ساعاته، والنشاط الذي يحس به الإنسان بعد النوم هو المحدد الرئيسي للنوم الصحي.

وبالجملة، وما يجب أن نؤكد عليه أن حياة الإمام الأسمر ثرية بالجوانب التي يجب أن تخضع للدراسات، وكذلك يجب الانتباه إلى ما يحتويه مشروعه الإصلاحي من أبعاد على علاقة بالصحة والغذاء وسعيه إلى نشرها وتعزيزها ثقافة عالمية.




العناية الطبية والبيئية في مشروع الإمام عبد السلام الأسمر

د. رمضان ساطي

ملخص:

تضمنت رسائل ووصايا الإمام عبد السلام الأسمر نصوصًا تدل بشكل واضح على عناية صاحبها بالجوانب الطبية والبيئية في مشروعه الإصلاحي الكبير، ورأينا أن نسلط عليها الضوء من خلفية اختصاصي في الصحة والبيئة؛ لبيان شمولية المشاريع الصوفية الإصلاحية لكل ما يتصل بحياة الإنسان والدفع بها نحو النماء والارتقاء بالوعي والحس الحضاري قل نظيره في مشاريع غيرهم.

ورأينا أن نلفت الانتباه في هذه المقالة إلى عناية واهتمام الإمام الأسمر بصحة الإنسان والمحافظة عليها، وترك الأعمال الضارة بها، وما يستوجب عليه فعله في حال جوائح الأوبئة والأمراض، وأهمية المحافظة على البيئة والتوازن البيئي، والحث على العيش الكريم والحياة الخالية من الأمراض. لقد سبق الإمام الأسمر علماء العصر الحديث في الحديث عن شتى العلوم الطبية والبيئية؛ ولذا كان من المهم أن نتحدث في هذا الجانب من فكره الإصلاحي لنفتح المجال للباحثين في زيادة البحث وتطويره لبناء صورة متكاملة الجوانب عن مشروعه الإصلاحي.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الصحة، البيئة، التوازن، الأوبئة.

مقدمة:

من المهم التأكيد على الارتباط الكبير بين التصوف وقضايا الصحة والبيئة، فالمتصوفة جعلوا الطبيعة والبيئة ميدان بحث عن الخالق سبحانه، إذ هي محل تجلي آثار أسمائه وصفاته، كالمبدع والصانع والكريم والرحيم والباسط والخالق وغيرها من أسمائه وصفاته، وبالتالي لا تنفك العلاقة بين التصوف والبيئة، بل نجد في تراثهم من يعزز القول بأنهم من رسموا وقعدوا ما يمكنني أن أسميه بالأخلاق البيئة في التعامل مع محيطهم، ونظرة الجمال المحض في تأملاتهم وأذكارهم، بل وأحوالهم أيضًا تتصل بالبيئة ومحيطهم والطبيعة، فمفاهيم الوجود الفناء والبقاء لا تنفصل عن الطبيعة والبيئة؛ لأنها تعبير عن العلاقة بين المكون ﷻ والأكوان بكل ما فيها من جبال وأنهار ونباتات وحيوانات وكل المخطوطات الجامدة والحية من المفردات المكونة للبيئة.

وحتى أشهر المعاني التي التصقت بالتصوف، وهو الزهد اعترته تفسيرات خاطئة تحمل معاني الإهمال والابتعاد عن الحياة، لكن في الحقيقة أن المعنى العميق للزهد هو العناية والاهتمام بكل ما يتصل بالحياة، فالزهد يكون في الحياة لا الزهد بالحياة، بمعنى ليس أن لا تملك شيء، بل بمعنى أن لا يملكك شيء في هذه الدنيا. وغني عن البيان أنه المعنى العميق للحرية بأن لا يملكك شيء، والحر هو القادر على التعامل بتوازن مع كل ما يتصل بالحياة، صحة وبيئة.

والإمام الأسمر من هؤلاء السادة الصوفية، كان له نظرة متوازنة للبيئة، وتشديد كبير على صحة البدن والقلوب، دعا للزهد في الدنيا، وحرص على تحرير أتباعه من أن تملكهم الدنيا، ولو تأمل ملمح من ملامح بناء الشخصية المتوازنة في صحتها وفي محيطها الذي تعيش فيه.

الوقاية الصحية والحماية البيئية في المشروع الأسمري

رصد الإمام الأسمر العديد من المشكلات والأزمات التي تواجه البيئة والصحة في عصره، ووازن خطابه فيها بين التحذير منها وإصلاح الواقع المتصل بها بالدعوة لاتقائها. ولاتساع مجال حديثه في هذا الجانب، يمكن أن نضرب أمثلة على ذلك:

1. نهيه وتشديده الكبيران على حرمة الزنا، ومنه قوله: «ولا تزنوا ولا تزنوا ولا تقربوا مواضع الزنا، فإنها حرام في مذاهب أهل العلم كتابًا وسنة وإجماعًا، وإن الزاني لا حاجة له عندنا»[1]، وعلى الرغم من أن حرمة الزنا لا تحتاج تأكيدًا، فهي من المحرمات المعروفة التي أقام لها الشرع حدًّا، إلا أنه يذكر بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ٣٢﴾ [الإسرَاء:32].

وإن كانت دعوته للتحذير من مخاطر الزنا جاءت بخطاب ديني، إلا أنه أعطى لتحذيره بعدًا وقائيًّا يتعلق بتأثير البيئة على الأذهان والنفسيات وإمكانية أن تكون أوكار الزنا وأماكنه وسيلة للجذب إلى هذه الرذيلة، وهو ما يعرف اليوم في الدراسات الحديثة ببيئات الانحراف، فألحق تحذيره بقوله: «ولا تقربوا مواضع الزنا»، ما يشير إلى وعيه العميق بالسلامة النفسية وضرورات العلاج الوقائي النفسي؛ للحد من تسرب الأفراد وانخراطه في بيئات الانحراف.

ويجب التنبيه على الارتباط بين رذيلة الزنا والأمراض التناسلية التي باتت تنتشر اليوم بشكل أكثر فتكًا، كالأيدز وبعض أنواع الوباء الكبدي ومرض السيلان، بالإضافة لتداعياته ومخاطره المجتمعية كاختلاط الأنساب والتفكيك الأسري مثلاً.

وإذا كان الإمام الأسمر شديدًا في النهي عن الزنا والتذكير بحرمته، فهو من باب أولى يشدد في النهي على كل ما يتصل بهذه الرذيلة كالسلوكيات الجنسية والشاذة الأخرى التي تحمل أضرارًا صحية أيضًا.

2. تحذيره ونهيه الشديدان من شرب الخمر، ومنه قوله: «أخواتي إخواني إخواني إياكم وشرب الخمر؛ فإنها ذريعة للبهتان وداعية الهوى والفسق والشيطان»[2]. لقد كرر النهي والتحذير ثلاثة وشدد عليه؛ لما فيه من أضرار، فبالإضافة لتنبيهه على آثار شرب

(1) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص23.
(2) نفس المصدر، ص24.

الخمر كالبعد عن الدين وتبذير الأموال، فهو أيضًا هلاك الصحة، إذ يتلف الكبد والكلى، ويذهب العقل ويحول الإنسان إلى كائن غير فاعل في محيطه، وغير قادر على اتخاذ قرارات بناءة في حياته.

وفي شرح واعٍ لقوله: «ذريعة للبهتان»، ألحق بقوله: «إخواني، فمن شرب الخمر تعدى وسرق وزنى وتصدى واعتدى وقتل النفس ومات على غير الهدى»[1]، وهو هنا يتحدث عن أضرار الخمر التي تتعدى شاربها لتصيب غيره، ولذا فهو يقدم العلاج من الأساس لكل هذه الآثار وهو شرب الخمر.

وقد يعكس لنا شكل تحذيره من الزنا والخمر صورة عن واقع هذه الأزمة في عصره، فالمفترض أن يقدم التحذير من الخمر على الزنا باعتبارها أم الموبقات، لكن تعاطي الخمور يبدو أنه كان على المستوى الفردي في ذلك الوقت، بينما كان الزنا ظاهرة، بل يبدو أنها مؤطرة من سلطة ذلك الزمان ولها أماكنها ومواقعها التي عبر عنها بـ«مواقع الزنا»، وشدد على النهي في الاقتراب منها. وهي صورة مهمة للدراسات الخاصة برصد أوضاع المجتمع سيما الجوانب المتعلقة بالظواهر المرضية والسلبية التي قد تكون سببًا في تفشي الأمراض الناتجة عنها.

3. من بين الظواهر السلبية التي حذر الإمام الأسمر منها: «آفة التدخين»، ويبدو أنها آفة حديثة النشأة والظهور في وقته، ولذا ارتقى تحذيره منها إلى حد التحريم[2].

وعلاوة على ما فيه موقفه هذا من «آفة التدخين» من تأكيد على متابعته لكل ما يواجه المجتمع من تحديات وأخطار، وسعيه لمواجهتها، فهو دقيق في تحديد ورصد هذه الظاهرة إلى حد تقديم نوع من أنجح الوقايات منها، إذ يحذر من «شرب الدخان في الفم والأنف»[3]، وهو هنا يعني بشربه من الأنف ما يعرف اليوم في الدراسات الحديثة بـ«التدخين السلبي» الذي قد تكون أضراره أكبر من التدخين. واليوم يضع العلم الحديث التدخين على قائمة الأمراض المسرطنة، كسرطان الرئة والبروستاتا، ناهيك على التأثير السلبي النفسي للتدخين على مستهلكه، إذ يلجأ له عند التفكير والهروب من المشاكل والأزمات وغيرها.

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص241.

(3) نفس المصدر، ص240

4. الأوبئة والأمراض المعدية والوقاية منها عند الإمام الأسمر:

لقد تحدث الإمام الأسمر في رسائله عن العديد من الأوبئة والأمراض المعدية، كالطاعون والجدري والنمنم ومرض النار والحمى الصفراء. ومما يلفت الانتباه ويدل على دراية الإمام الأسمر بعلوم الطب والصحة وقراءاته الواسعة فيه ورصده في الواقع، أنه ركز حديثه على الطاعون في الكثير من رسائله؛ لشدة خطورة هذا الوباء وهو ما أكدت عليه منظمة الصحة العالمية في الوقت الحاضر، إذ جعلت الطاعون أحد أهم ثلاث أمراض وبائية يجب التبليغ عنها فورًا، وهي: (الطاعون - الكوليرا- الحمى الصفراء)، وقد عرَّفت منظمة الصحة العالمية الوباء بأنه زيادة غير متوقعة وغالبًا ما تكون مفاجئة في معدلات الإصابة بمرض معين داخل مجتمع محلي ومنطقة ما، وقد يتحول إلى جائحة فيتفشى في جميع أنحاء العالم، فعلى سبيل المثال حصد الطاعون في القرن الرابع عشر أكثر من 50 مليون شخص في أوروبا.

ولنأخذ مثالًا للتعرف على كيفية تعامل الإمام الأسمر مع وباء الطاعون، في رسالته التي وجهها إلى أتباعه في تونس[1]، وقبل تحليلها يجب أن نتوقف لنسجل بعض النقاط، المتعلقة بأن تركيزه الشديد في هذه الرسالة على وباء الطاعون:

أ. تفيد هذه الرسالة بأن هذا الوباء انتشر في بعض الدول والمدن والمناطق في القرن العاشر الهجري، وهذه ملاحظة تفيد في علم تاريخ الأمراض والأوبئة، فالرسالة إذًا وثيقة مهمة في هذا الشأن يمكن الاستدلال بها، والاستناد عليها لدراسة واقع أزمة ذلك الوباء في ذلك الزمن.

ب. لا تفيد الرسالة في انتشار الطاعون في تونس، باعتبار الرسالة موجهة لأتباعه في تونس، بل تفيد في تحذيرهم من هذا الإصابة بالوباء عند تنقلاتهم خارج مناطقهم، إذ حديثه جاء مباشرة بعد كلامه عن السفر وآدابه وكل ما يتصل به، ويبدو أن أتباعه في تونس كانوا كثيري السفر والتنقل؛ ولذا حذرهم من خطر وباء كانت منتشرًا وقتها في عديد من البلدان والمدن.

هـ. تعكس الملاحظة السابقة عناية الإمام الأسمر بقضية الوقاية من الأوبئة، فقد ركز بشكل كبير على كيفية تعريف الناس بهذا الوباء، فأكثر من الحديث عن أعراضه التي تظهر على المصابين به، وهو من سبل الوقاية منه، ومن بين الوقايات الأخرى التي شدد

(1) نفس المصدر، ص 258

عليها كأهم إجراء احترازي وهو عدم الذهاب إلى المناطق التي تفشى فيها الوباء، وعدم مخالطة المصابين به.

و. تحذير أتباعه من الطاعون الذي يبدو أنه كان متفشيًا في عصره، يدل على مراقبته وعنايته برصد الوضع الوبائي في العالم، ومتابعته الدقيقة لتنقلاته، خاصة وأن تحذيره منه جاء في إطار حديثه عن آداب السفر وما يجب فيه، ما يعني أنه كان على دراية بأن المناطق الموبوءة بالطاعون كانت قريبة من أتباعه في تونس، وهو ما يفضي للحديث بأن الإمام الأسمر قد يكون بنى ما يعرف اليوم بمراكز البحث والرصد والتقصي[1].

ز. من المهم الانتباه إلى كم الكتب المعنية بالطب والأوبئة التي نقل منها الإمام نصوصًا تتعلق بالأوبئة وكيفية الوقاية منها وعلاجها، كقوله مثلًا: «إخراج الرطوبة الفضلية وتقليل الغذاء وترك الرياضة والمكث في الحمام وملازمة السكون، وأن لا يكثر من استنشاق الهواء الذي عفن» وهو رأي طبي استخلصه من العديد من الآراء التي احتوتها الكتب التي أشار إليها، ومنها كتاب «بذل الماعون» لابن حجر العسقلاني، وهو كتاب مهم يجمع بين أخبار وتاريخ الوباء وعلاجاته، وينقل عن ابن سينا من كتابه القانون في الطب، ونقل أيضًا عن ابن النفيس في كتابه «الموجز في الطب»، بأن الوباء اسم لكل مرض عام، وأن كل طاعون وباء وليس كل وباء طاعونًا، وهو بهذا النقل يختار لنفسه موقعًا في الخلاف الذي كان قائمًا وقتها بين العلماء حول تعريف الوباء، هل هو الطاعون نفسه أم أنه شيء آخر، واختياره لرأي ابن النفيس يدل على اطلاعه الواسع في علوم الطب، وقدرته على الاختيار والترجيح فيها، ويبدو أن هذه المسألة استمرت محل جدل، ففي موضع آخر نجده يؤكد بقوله: «والطاعون أخص من الوباء... والوباء مرض عام»[2]، ويجب أن نلفت الانتباه إلى أن هذا التعريف الذي اختاره هو ما استقر عليه العلم الحديث.

ح. وللصحة النفسية مكانتها في خطاب الإمام الأسمر ومشروعه، خاصة وأن السلوك الصوفي بكل ما فيه من أوراد وأذكار ومناجاة وغيرها يهدف إلى خلق التوازن

(1) للتوسيع حول المؤسسات والإدارات التي بناها الإمام في زاويته، ينظر: قفة الصلاح- قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري سيدي الإمام عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، منشورات مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص80.

(2) رسائل الأسمر الى مريديه، مصدر سابق، ص 268

الروحي، وبالتالي فلا غرو أن يعمل على خلق بيئة صحية نفسية في حياة المريد، حتى في لباسه الذي اهتم به الإمام بتحديده بشكل كبير، فيشدد على الابتعاد عن لبس الأسود واستحباب لبس الأبيض أو ما قاربه من ألوان لها انعكاسها الإيجابي على نفسية لابسها، عكس اللون الأسود ودلالاته وانعكاساته في خلق اختلال نفسي في الأذهان، بل وفي وعي قل نظيره نجده يشير إلى إمكانية أن يخلق اللون الأسود آثارًا نفسية سلبية، فيقول: «فمن لبس منكم الأسود وأصابه شيء من الهموم والغموم والأحزان وشبهها فلا يلوم إلا نفسه» الوصية 27.

جهود المدرسة الأسمرية في تعزيز وترسيخ التوازن البيئي

يعتبر الإمام الأسمر أن نظافة البيئة ونقاءها من أهم أسباب الوقاية من الأمراض، وضدها سبب مباشر للأوبئة، وللنظر مثالًا على ذلك بالتعريف الذي اختاره للوباء، وهو تعريف ابن النفيس، إذ يقول: «أما الوباء فهو: فساد يعرض بجوهر الهواء لأسباب سماوية أو أرضية كالماء الآسن، والجيف الكثيرة والرديئة الكثيرة العفن، أو بسبب أرياح ساقت أدخنة رديئة من مواضيع نابية، فإذا وصل ذلك الهواء الرديء الكيفية إلى القلب، فيفسد مزاج الروح الذي فيه، ويعفن ما يحويه من الرطوبة»[1]. وكدليل على معرفته بأهمية منتجات البيئة المستقرة في علاجات الأمراض والأوبئة، يصف أنواعًا من البقوليات والحوامض والعديد من الفواكه والخضار علاجًا لبعض الطواعين، ومعروف أن منتجات البيئة المستقرة من الخضار والفواكه والنباتات هو قوام علوم الطب البديل اليوم.

إن الوعي بالبيئة وأهمية توازنها قضية تناولها الإمام الأسمر بطريقة سبق بها عصره والعصور التالية عليه، إلى حد اعتباري لكلامه فيها من قبيل كرامة أهل الله، فقبل أن يظهر اصطلاح «أصدقاء البيئة» في الدراسات والنظريات والمشاريع الحديثة المعنية بالبيئة تفطن الإمام لأهمية مصادقة البيئة والتعايش معها، وكان بذلك أول من صاغ هذا الاصطلاح في علوم البيئة، فقال عند نهيه عن قتل حيواني الورل والأبية: «فإنهما من الأصدقاء لقتلهما الثعابين المؤذية»[2].

وعلاوة لسبقه في استخدام هذا الاصطلاح وتأسيسه له، يجب التنبه إلى أن هذا النهي يشير إلى عنايته بإنشاء ما يعرف اليوم بالمحميات الطبيعية، فقد نهى أيضًا عن أكل

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص261.
(2) نفس المصدر، ص178 – 179.

الجران والوزغ والزلاليم والأسد والفهد والذئب والضبع والثعلب والفيل والغربان والقرود، والنهي عن أكلها يعني نعي عن اصطيادها. فالنقص في هذه العناصر المكونة للنظام البيئي كفيل باختلالها.

ومن اللافت المهم في التأكيد على عمق الوعي بالتوازن البيئي في فكر الإمام الأسمر، أنه جمع بين أمرين هامين هنا: الأول ما يتعلق بصحة الإنسان عند تناوله لحوم بعض الحيوانات التي تحوي في مكوناتها على عناصر سامة، قد تؤدي إلى الموت، والثاني أهمية التوازن في البيئة الذي يوفره الحد من الصيد الجائر في هذه المكونات البيئية، إذ النهي عن أكلها يعني منع صيدها، فلو لاحظنا أنه جمع بوعي قل نظيره في نهيه بين الحيوانات العشبية واللاحمة، ولو اقتصر نهيه على أي منهما دون الآخر كان الخلل في المنظومة البيئية كبيرًا، فكلا النوعين يوازن وجود الثاني.

ومن المهم التأكيد على أن حديث الإمام الأسمر لم يكن في مستوى التنظير فقط، بمعنى النصيحة والوصية، بل بالفعل كانت عنايته بالبيئة وصحة الإنسان مكونًا رئيسيًّا في مشروعه الإصلاحي الكثير، ولنا أن نؤكد على ذلك من خلال وجوده واقعًا معاشًا طبقه تلاميذه ومريدوه، بل واستمر من بعده، ولنأخذ في ذلك شخصية سيدي مفتاح سواق الحجل، أحد أبرز تلاميذه وخلفائه، الذي ولد وعاش بمدينة زليتن[1].

والشيخ سواق الحجل من أبرز الشخصيات في مشروع الإمام الأسمر الإصلاحي التي اعتنت بالجانب البيئي والتوازن البيئي والعمل على إيجاد المحميات للحفاظ على الحياة البرية، كما أن في سيرته أخبارًا تفيد بأنه واجه وباء الطاعون بالفكر البيئي، أو ما يعرف في الدراسات الحديثة بالعلاج البيولوجي[2].

لقد اقترن اسم سيدي مفتاح باسم أحد أهم مكونات بيئته، وهو طائر الحجل، في كرامة من الكرامات التي يجريها الله على يد عباده الصالحين اشتهر بها، فعُرف بسيدي: (مفتاح سواق الحجل)، ولا ريب أن لهذه النسبة والكرامة علاقة ما بالمحيط الأيكولوجي الذي عاش فيه.

(1) للتوسع في ترجمته، ينظر: موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ 644م إلى سنة 1421هـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج2، ص89.

(2) للتوسع أكثر حول دور الشيخ مفتاح سواق الحجل في البيئة والصحة، ينظر: سيدي مفتاح سواق الحجل الإصلاحي الليبي رائد حماية البيئة، ضمن: قفة الصلاح، مصدر سابق، ص241.

ومما يفهم في تفاصيل سيرته أنه كان يحمي طائر الحجل ويمنع الناس من اصطياده، ويسوق منه أعدادًا كبيرة أمامه أينما توجه، وإذا ما أقبل الناس على اصطياده منعهم، وبالنظر إلى الفترة الزمنية التي عاش فيها هذا الرجل الصالح نجد أنها فترة تفشى فيها وباء الطاعون بشكل كبير في البلاد، وبالتالي نفهم أهمية عنايته ببناء محميات لهذا الطائر الذي تشكل القوارض الناقلة لمرض الطاعون وجبته الأساسية، ما يسهم في القضاء عليها للحد من تفشي الوباء وارتفاع مؤشراته الخطرة.

وفي جوانب أخرى من حياته نجد أخبارًا تشير إلى قيامه بذبح أغنام في بعض المراعي بمنطقته، وفي تفاصيل هذه الواقعة ما يشير إلى غضبه مما يعرف اليوم بالإسراف في التوسيع في المراعي المؤدية للقضاء على الكثير من الأنواع النباتية المخل نقصها بالنظام البيئي المستقر المتوازن.

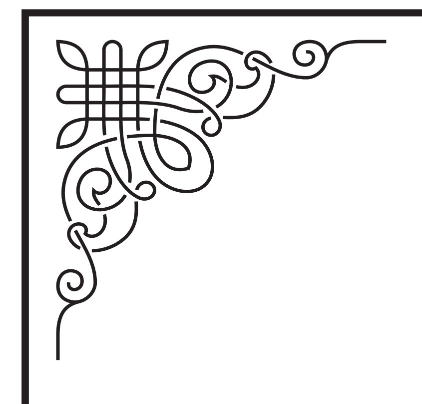
إن مثل تلك الأخبار تفيد بعناية المشروع الأسمري الإصلاحي في العناية بالبيئة والسعي في الحفاظ على عناصرها وتوازنها للاستقرار في المجال الأيكولوجي، خاصة وأننا نجد عناية كبيرة من جانب الإمام في تشجيع أنوع من المهن ذات الصلة بالبيئة، كالفلاحة مثلًا حتى أنه خصص لمن يعمل فيها أورادًا خاصة بهم، سعيًا منهم لتمييزهم في محيطهم وأوساطهم وتشجيعًا لهم، بل وينقل عن شيخه الدوكالي بأن في الفلاحة ألف راحة[1].

خاتمة:

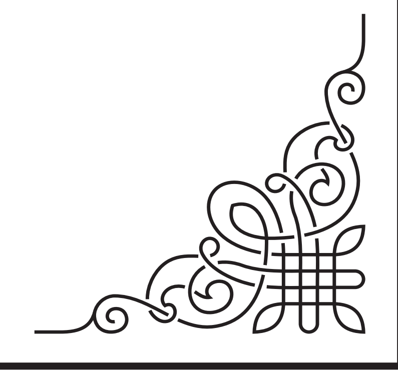
إذًا عند التحليل والبحث لسياقات المفاهيم والقضايا لمشروع الإمام الأسمر، نجد أن صحة الإنسان وسلامة بيئته مكون رئيس في هذا المشروع، بل وكان للإمام فضل كبير في التأسيس لبعض اصطلاحاته كـ«أصدقاء» البيئة، وهو ليس اصطلاحًا نقف عند صياغته وشكله، فلا بد وأن له خلفياته ومقدماته، فالإصلاحات العلمية تنشأ أفكارًا ثم مفاهيم ثم اصطلاحات وتنتهي بقواعد تعرف بالمنهج، وهو ما يدعونا لإفراد المزيد من الدراسات لتتبع وتقصي مثل هذه الاصطلاحات والتوصيفات والاستعمالات في حديثه لبناء معجم مصطلحي علمي متكامل يشكل كاشفًا على مشروعه الإصلاحي العظيم.

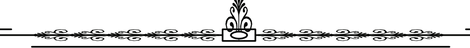
(1) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص16.

ومن التوصيات المهمة التي تنتج عن هذه المقالة، اقتراح جمع رسالة أو كتاب مستقل في الصحة والفكر البيئي عند الإمام الأسمر، يتضمن العلاجات التي ذكرها في رسائله لبعض الأمراض، إذ إنه يندرج اليوم فيما يعرف بالطب البديل بواسطة العلاج بالأعشاب والمواد الطبيعية، وسيكون هذا الكتاب مفيدًا جدًّا في تاريخ الأوبئة والأمراض أيضًا، من خلال الأمراض التي ذكرها الإمام وقدم لها حلول العلاج أو الوقاية، ومنها يمكن التعرف على أنواع الأمراض السارية أو المتوطنة في تاريخ بلادنا.



4 – في الأدب والشعر









العلائقية النصية في خطاب الإمام عبد السلام الأسمر

د. حياة بوشليف

جامعة محمد الصِّديق بن يحيى جيجل - الجزائر

ملخص:

يُعَدُّ الخطاب الصُّوفي جزءًا من تراثنا الإسلامي، وهو من أرقى أشكال الكتابة والإبداع رغم قلَّته، مقابل الأنواع الأخرى من الخطابات الرَّسمية، وهو امتداد وتفاعل لسياقات مختلفة، يحتاج إلى دراسة وتحليل سواء كانت هذه الدراسة نقدية أو لسانية.

على هذا الأساس يمكن أن نعتبر خطاب الإمام عبد السلام الأسمر متعددًا صوفيًّا، أو تفاعلًا لنصوص متنوعة المشارب؛ إذ استطاع الإمام استحضارها ودمجها في رسائله وشعره.

نحاول من هنا أن نقرأ خطاب الإمام الأسمر في علاقته بالنص القرآني والحديث النبوي، وبالثقافة العربية الإسلامية، محاولين الكشف عن طبيعة العلاقة المسؤولة عن منح الخطاب الصوفي الشرعية الأدبية، مستندين في ذلك على إحدى نظريات النقد الغربية المعروفة بـ«العلائقية النَّصية»، أو«التّناص».

كلمات مفتاحية:

العلائقية النَّصية، الخطاب الصُّوفي، الإمام عبد السلام الأسمر.

مقدمة:

تعدُّ قراءة الخطاب الصوفي قراءة تتجدَّد بها علاقتنا بما هو أصيل، وتعود فيها تصوَّراتنا إلى منابعها الجوهرية؛ للتحرُّر من الجمود، وخوض غمار التَّجربة، والتي أُسِّس في ضوئها مفاهيم جديدة، تحاول فك مغاليق هذا الخطاب.

ومن بين هذه المفاهيم الجديدة التي قُرِئ بها الخطاب الصوفي ما يُعرف بـ(العلائقية النَّصية)؛ والتي تعدُّ من المسائل التي ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بهيمنة النَّص على الدِّراسة النَّقدية، فهو نتاج النَّص ذاته، ولذلك ما عاد بالإمكان تجاهله عند دراسة النَّص الأدبي، وخاصة أنَّ وجوده في النَّصِّ الحديث صار أمرًا حتميًّا في ظلِّ التَّلاحم الثقافي العالمي، على الناقد تحليله وتقبُّله.

ونظرًا لصعوبة الإلمام بجل الخطابات الصوفية، ركّزنا على خطاب الإمام الأسمر بعدِّهِ واحدًا من العلماء والمفكِّرين البارزين، الذين يملكون خطابًا صوفيًّا، يكفينا لتحديد الهوية الخطابية له، في علاقته بالدِّين الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية؛ وذلك إحياء للأعمال الأدبية الصوفية، وتحديد معناها وقيمتها عبر التاريخ، وعبر السياق الثقافي، عن طريق قراءتها قراءة معاصرة.

فما المقصود بالعلائقية النَّصية؟ وكيف تحقَّقت في خطاب الإمام الأسمر؟

العلائقية النّصية (**Intertextualite**) أو المتعاليات النَّصية، أو التَّناص، أو النَّص الغائب مصطلحات عديدة لمفهوم واحد، ظهر وانتشر عند الغربيين أولًا؛ إذ «ولد على يد «جوليا كريستيفا» عام 1969م التي استنبطته من «باختين» في دراسته لدستويفسكي، حيث وضع تعدّدية الأصوات (البوليفونية)، والحوارية (الديالوج) دون أن يستخدم مصطلح «التَّناص». ثمّ احتضنته البنيوية الفرنسية، وما بعدها من اتَّجاهات سيميائية[1]،

(1) ومن ذلك «كورتيس» و«قريماس»، إذ تناولا التَّناص على أساس أنّه من مفاهيم السِّيميائية، وذلك انطلاقًا من تمثُّل «جوليا كريستيفا» نفسها له، لكنهما لم يضيفا شيئًا يذكر ما عدا الزَّعم أنَّ «ميخائيل باختين» هو الذي أنشأ هذا المصطلح على عكس النقَّاد الفرنسيين الآخرين، الذين كانوا يرون أنَّ «جوليا كريستيفا» هي التي أنشأته. ينظر: نظريَّة النَّص الأدبي، عبد الملك مرتاض، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2010م، ص286.

وتفكيكية[1] في كتابات «كريستيفا»، و«رولان بارت»، و«تودوروف»، وغيرهم من روَّاد الحداثة النَّقدية، وقد شاع هذا المصطلح في الأبحاث الأدبية والدِّراسات النَّقدية، وهاجر في بداية السَّبعينات إلى أمريكا. وفي عام 1976م أصدرت مجلة (بويطيقا) عددًا خاصًّا عن (التَّناص). وفي عام 1979أقيمت ندوة عالمية عن (التناص) في جامعة كولومبيا تحت إشراف ريفاتير، ونشرت أعمالها في مجلة (الأدب) عام 1981م»[2].

وقد أعطت النَّاقدة تعريفًا خاصًّا بالتَّناص؛ إذ ترى بأنَّه «لا يعني أبدًا الحادثة التي عن طريقها نص ما يعيد إنتاج نص آخر، وذلك عن طريق تحريفه، بل هو سيرورة غير محدَّدة، فعاليَّة نصِّية»[3].

أمَّا «جيرارجنيت» فتعريفه للتَّناص مختلف عن تعريف «جوليا كريستيفا» له؛ إذ يحدِّده بعلاقة حضور مشترك بين نصَّين أو أكثر، أي عن طريق الحضور الفعلي لنص ضمن نص آخر، بالشكل الأكثر وضوحًا والأكثر حرفية. إنَّه علاقة نصِّية متعالية من بين علاقات أخرى[4].

أمّا «ميخائيل ريفاتير» (**Michael Riffaterre**) فيرى بأنَّ التَّناص هو التَّلقِّي عن طريق القارئ للعلاقة بين عمل وأعمال أخرى، التي سبقته أو تلته[5].

وقد جاء في المعجم الموسوعي لعلوم اللُّغة لديكرو وتودوروف: «إنَّ كل نصٍّ هو امتصاص وتحويل لكثير من نصوص أخرى. فالنصُّ الجديد هو إعادة إنتاج لنصوص وأشلاء نصوص معروفة، سابقة أو معاصرة، قابعة في الوعي واللاوعي، الفردي والجماعي»[6]، فالتَّناصُّ إذن هو «تشكيل نصٍّ جديد من نصوص سابقة أو معاصرة،

(1) ومن روَّادها «جاك ديريدا»(**Jack Dirida**) الذي أنكر وجود البنية أصلاً وقال: إن الكتابة ليست بناء؛ لأن البناء يقوم على الائتلاف، في حين أنَّ الكتابة لا تقوم إلَّا على الاختلاف. ففي كل خطاب يكتب، وفي كل نصٍّ يُنسج، ثمة فسيفساء يتم جمعها من نصوص أخرى أصبحت مفرداتها متداولة بين الكتاب. فالكاتب يعبِّر عن نفسه بلغة صاغها الآخرون. فمفهوم التَّناص إذاً يتَّصل بالتفكيكية التي ظهرت على يد «جاك دريدا» عام 1969م. ينظر: في نظرية الأدب وعلم النص، إبراهيم خليل، حوث وقراءات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010م، ص107.

(2) النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، محمد عزام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001م، ص ص28-30.

(3) مدخل إلى التَّناصِّ، ناتالي بيفي -غروس، ترجمة عبد الحميد بورايو، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سورية، دمشق، 2012م، ص14.

(4) نفس المصدر، ص18.

(5) نفس المصدر، ص21.

(6) النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، مصدر سابق، ص29.

بحيث يغدو النَّص المتناصُّ خلاصة لعدد من النصوص السابقة سوى مادتها. وغاب (الأصل) فلا يدركه إلا ذوو الخبرة والمران»[1].

ويتَّخذ «التَّناص» أشكالًا متنوعة؛ منها ما هو ظاهر؛ مثلما نجده في الاستشهادات أو الاقتباس، ومنها ما يكون متخفيًا؛ إذ يكتسي «التّناص» شكلًا أكثر خفاء في النص الحديث، ومن ثمَّة يتحوَّل إلى مصدر للغموض الفنِّي وانفتاح على النُّصوص الأخرى[2].

إنَّ نظرية «التَّناص» أو العلائقية النَّصية التي ظهرت عند الغربيين «ليست وحيًا نزل من السَّماء على أهل الغرب، وإنَّما هي فكرة طائرة، موضوعها الهواء، وغايتها إثبات شيء غير موجود، وغير مُقَرٍّ به أصلًا، وذلك ما حاوله بعض النقَّاد العرب الأقدمون حين عدُّوا الأفكار مشتركة بين الشُّعراء جميعًا فيتنازعونها(...) وأنَّها لا تعدو أن تكون مطروحة في الطَّريق، وأنَّ الألفاظ منتقلة متداولة بين الأدباء، وأنَّ الكتابة تأتي بعد نسيان النُّصوص الأدبية المحفوظة، وهلمَّ جرًّا ممَّا يشكِّل الأسس الكبرى لنظرية التَّناصِّ الغربية»[3].

ومن النقَّاد العرب وكبار كتَّاب العربية الأقدمين الذين تحدَّثوا عن «التَّناصِّ» بمعناه الحداثي، أو بمعنى قريب منه «أبي عثمان الجاحظ» المتوفى سنة 255 للهجرة، و«أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة» المتوفى سنة 276 للهجرة، و«أبي الحسن محمد ابن طباطبا العلويِّ» المتوفَّى سنة 322 للهجرة، و«أبي عبيد الله محمد المرزباني» المتوفَّى سنة 384 للهجرة، و«علي بن عبد العزيز الجرجاني» المتوفَّى سنة 392 للهجرة...إلخ[4] لا يسعنا المقام هنا للحديث عنهم جميعًا.

والجدير بالذِّكر أنَّ نقَّادنا العرب القدماء قد عالجوا مفهوم «التناص» أو «التداخل النّصي» بتسميات أخرى من مثل: «الموازنة»، «المفاضلة»، «الوساطة»، «التضمين»، «الاقتباس»، «الاستشهاد»، «السرقات»[5] «المعارضات»، والنّقائض... إلخ، وهذا

---

(1) نفس المصدر، ص29.

(2) نظرية النص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، حسين خمري، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007م، ص260.

(3) نظرية النص الأدبي، مصدر سابق، ص196.

(4) نفس المصدر، ص220.

(5) تجدر بنا الإشارة إلى أنَّ أصحاب نظرية السرقات الأدبية العربية كانوا لا يزالون يُرهقون أنفسهم باللِّهاث وراء أبيات يستقصون أفكارها وألفاظها، فيلتمسون الشبه الموجود بينها ليدينوا الآخذ، في حين أنَّ نظرية التَّناصِّ بالمفهوم المعاصر، لا تعنت نفسها في التماس ذلك، بل إنَّها تفترض أنَّ كلَّ كاتب هو صدى لكتَّاب آخرين ولا حرج عليه. ينظر: نظرية النص الأدبي، مصدر سابق، ص217.)

ما يزيد من قيمة تراثنا الشِّعري والنَّقدي؛ إذ يعطيه دفعة جديدة من الحياة، عندما يفسِّره على ضوء مفهومات نقدية معاصرة، فيمنحه الخلود[1].

أمَّا في النَّقد العربي المعاصر فقد كان لهذه الظَّاهرة النَّقدية حضور، ولكن بمسميات مختلفة؛ فـ«صبري حافظ» كان من أوائل النُّقَّاد العرب الذين اصطنعوا هذا المصطلح بما هو جار عليه الآن، ثم «محمد مفتاح»، و«بشير القمري» و«سامي السويدان»[2]، أمَّا «عبد الله الغدامي» فقد عالج هذه الظَّاهرة باسم آخر هو «تداخل النصوص»[3] و«محمد بنيس»[4] تحت عنوان «النص الغائب».

فكيف كان حضور العلائقية النَّصية في خطاب الإمام الأسمر؟

إنَّ الموروث الديني يعدُّ من المصادر الأساسية للتّناص؛ إذ يستحضر الكاتب من خلاله بعض المعاني والقصص والرموز الدينية المعروفة في الثقافة العربية الإسلامية، فيضمنها في سياق نصِّه الأدبي؛ إثراءً وتعزيزًا للموضوع الذي يتناوله. وهذا ما وجدناه من خلال اطلاعنا على بعض كتابات الإمام الأسمر؛ سواء في رسائله، أو في شعره، أو حتى وصاياه؛ إذ وجدنا منه ما هو ظاهر كالاستشهاد من القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف، ومنه ما هو متخفي استنبطناه من السياق.

1. التناص مع القرآن الكريم:

يُعَدُّ القرآن الكريم دستور حياة وميزانًا للأخلاق الراقية للأمة الإسلامية؛ وذلك لما يحمل بين دفتيه من تشريعات صالحة لكل الأمم في كل زمان ومكان، وهذا ما جعل الشعراء والكتاب يتأثرون به منذ بداية العصر الإسلامي، والعصور الموالية له بطرق مختلفة في بناء النَّص الجديد.

والإمام الأسمر يعدُّ واحدًا من أولئك الكتَّاب الذين اقتنوا الألفاظ والمعاني القرآنية المركَّزة من أجل التَّعبير عن مقاصده في أبلغ صورة؛ إذ تجلى هذا الحضور من خلال الرسائل التي كان يرسلها إلى مريديه في مختلف البلدان، من خلال نصحهم،

---

(1) النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، مصدر سابق، ص12.

(2) نظرية النص الأدبي، مصدر سابق، ص255، 256.

(3) ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية، عبد الله محمد الغدامي، دار سعاد الصباح، الكويت، ط2، 1993م، ص119.

(4) ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقاربة بنيوية تكوينية، محمد بنيس، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1985م، ص253.

وإرشادهم إلى طريق الهداية، سواء في علاقتهم مع الله، أو مع النَّاس؛ وقد اتّضح ذلك منذ الرسالة الأولى، التي أرسلها إلى «عبد الرحمن بن عبد المؤمن الفزاني»؛ إذ لمسنا في مقدمة الرسالة حضور النَّص القرآني بشكل مضمر؛ من خلال ما يعرف بـ(التحويل) (**transformation**)؛ كما يذهب إليه (جيرار جنيت) بعدِّه «العملية التي تنتج عنها ظاهرة التعلُّق النَّصي (**Hypertextualite**)، سواء في مستواه البسيط أو المعقد»[1] وهو «كل علاقة جامعة لنص بـ(نص لاحق **hypertexte**) بنص سابق أ (**hypotexte**)، حيث يرتبط به بطريقة تخالف طريقة التّعليق، ولا يتحدّث النَصُّ ب عن النص أ، ولكن وجوده على حالته المعروفة مرهون بالنَّص، بمعنى ينتج عنه بواسطة عملية التحويل**transformation** دون أن يذكره أو يصرِّح به بالضرورة»[2]؛ وهذا ما لمسناه في مقدمة الرسالة؛ حيث يقول: «الحمد لله والأمر لله، ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله وأتوب إليه من الذنوب كلّها، وأصلّي وأسلّم على عبد الله ورسوله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، الذي أنزل عليهم السكينة وألزمهم كلمة التَّقوى وكانوا أحق بها وأهلها. وبعد.»[3] فالملاحظ على هذا القول أنّه لم يذكر الآية القرآنية أو يصرِّح بها؛ بل اكتفى بتحويلها إلى ما يصبو إليه؛ فنصُّه إذن تحويل لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٢٦﴾ [الفتح:26].

كما وجدنا في رسالته إلى «راشد بن يحيى المحجوبي المقرحي» [4] تأثرًا واضحًا بالقرآن الكريم؛ إذ ابتدأ رسالته بنصيحة وجيزة ملائمة لحال المرسول إليه، وقد ضمَّن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء:131]، وفي الرسالة ذاتها نجده يستعين بقوله تعالى عند نصح صديقه؛ إذ يدعوه إلى قول هذه الآيات القرآنية إذا أحس بضيق، قال الله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبيَاء:87]. فالإمام هنا استعان بالتناص الظاهر؛ أي بالنص القرآني مباشرة دون تحويل.

والجدير بالذكر أن الإمام الأسمر قد استعان بالقرآن الكريم في خاتمة الرسالة أيضًا، ناصحًا صديقه بضرورة التَّوجُّه إلى الله، من خلال الإقبال على الله بالأعمال

---

(1) تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، آمنة بلعلى، 285.

(2) G.Genette: Palimpsestes،Seuil، Paris،1982، p13.

(3) رسائل عبد السلام بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني إلى مريديه، مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص126.

(4) نفس المصدر، ص140 و148.

والأقوال، المقرَّبة إليه، إذ ضمَّن قوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾ [غَافِر:3]، وكذا قوله أيضًا: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال:40]. وقوله أيضًا: ﴿هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرَّعد:30].

كما نجد حضور العلائقية النَّصية مع القرآن الكريم في الرسالة الخامسة[1]، التي أرسلها إلى «عبد الحميد بن علي العوسجي»، إذ نجد الإمام الأسمر في مقدمة الرسالة يتناصُّ مع النص القرآني بشكل مباشر، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢﴾ [البَقَرَة:32]. وقوله أيضًا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء:131].

وقد استعان الإمام الأسمر بالقرآن الكريم في متن الرسالة كذلك، عند نصح صديقه بضرورة التقوى، إذ ضمَّن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البَقَرَة:282]، وفي ختام الوصية كذلك استعان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝١٩﴾ [الحشر:18-19].

وحتى في خاتمة الرسالة وجدناه متأثرًا بالقرآن الكريم أيضًا، إذ ضمَّن الإمام خاتمة رسالته قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:43]، وكذا قوله أيضًا: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فَاطِر:2].

وقد وجدنا أيضًا حضور العلائقية النَّصية مع القرآن الكريم في الرسالة السادسة[2]، التي أرسلها الإمام إلى أصحابه بالزاوية الغربية، وبالتَّحديد في متن الرسالة؛ إذ ضمَّن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾ [القَمَر:54-55].

كما نجد الإمام الأسمر يستنجد بالقرآن الكريم أيضًا في التَّدليل على صحَّة ما يدعو إليه أصحابه، وكان ذلك في الرسالة السابعة التي أرسلها إلى «عبد الرحمن بن ساعد

(1) نفس المصدر، ص149 و166.

(2) نفس المصدر، ص169 و186.

وعلي بن محمد أبو سلامة بمدينة غريان»[1]؛ إذ اقتبس آيات من القرآن الكريم تضميناً مباشرًا نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البَقَرَة:177]، وقوله أيضًا: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النِّسَاء:136]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩﴾ [الغَاشِية:17 – 19].

أمَّا رسالة الإمام إلى أصحابه بمدينة طرابلس الغرب[2]؛ ففيها أيضًا تأثُّر واضح بالقرآن الكريم؛ إذ وجدناه يضمِّنه تضميناً مباشرًا في عدَّة مواقع؛ نذكر منها عند حثِّه لأصدقائه بضرورة الإحسان للجيران، استدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النِّسَاء:36]، وكذا عند نصحهم بضرورة صلة الرحم؛ حيث ضمَّن قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسرَاء:23-24]، وقد استشهد أيضًا بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لُقمَان:14].

كما يمكننا الإشارة إلى الإمام الأسمر قد استشهد أيضًا بالقرآن في رسالته التاسعة «إلى أصحابه بتمبكتو بمالي غرب أفريقيا»[3] عند نصحهم بحفظ القرآن الكريم استدلَّ بقوله تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عَبَس:15 – 16]، كما توسَّل التَّناص المباشر أيضًا عند نهي أصدقائه عن شرب الدخان؛ إذ يرى بأنَّه من الخبائث، واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعرَاف:157].

إنَّ الملاحظ على رسائل الإمام الأسمر أنَّها لا تكاد تخلو من التناص القرآني، وخاصة التناص المباشر، والذي ساهم في تقوية رسائله ووضوحها وزيادة قيمتها عند مريديه وأتباعه.

---

(1) نفس المصدر، ص188 و209.

(2) نفس المصدر.

(3) نفس المصدر، ص232.

2. التَّناص مع الحديث النبوي الشريف:

يأتي الحديث النبوي الشريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، من حيث إشراق العبارة، وبلاغة القول، وفصاحة اللفظ، وقد أدرك الكتَّاب والشعراء أهمية الحديث النبوي الشريف فنيًّا وفكريًّا وجماليًّا، فراحوا يستحضرونه في نصوصهم، وينهلون منه حسب ما يتماشى مع تجاربهم؛ لتصوير معاناتهم والتّعبير عن قضاياهم. وكتابات الإمام الأسمر لا تخرج عن هذا النِّطاق؛ إذ إنَّ المطَّلع على رسائله سيلاحظ بأنَّها تتعالق وتترابط مع الحديث النبوي الشريف، فمن خلال نصحه لأصدقائه كان يتناص مع الحديث النَّبوي الشَّريف، ومن أمثلة ذلك ما ذكره في الرسالة الثالثة التي أرسلها إلى «محمد بن عبد الكريم الشاذلي»؛ حيث قال: «وأوصيك بالإكثار من الفكر في أمور الآخرة (...) وترك الاغترار بزخارف الدنيا [فإنها] أي الدنيا متاع قليل حقير لو وزنت عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[1] ففي هذا القول لمسنا حضور الحديث النبوي الشريف الذي رواه سهل بن سعد بقوله: «كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بذي الحلفة، فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها فقال: أترون هذه هيّنة على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده، للدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها قطرة أبدًا»[2].

كما وجدنا الإمام في الرسالة ذاتها يتعالق مع الحديث النبوي الشريف؛ حيث قال: «والله والله في حسن الخلق فإنّه أثقل شيء يوضع في الميزان، وبه يدرك الإنسان درجة الصائم القائم كما ورد»[3] فهذا القول إشارة إلى ما أخرجه أبو داود في سننه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق». كما أخرج أيضًا عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»[4]. فالإمام هنا يستمد معانيه من الحديث النبوي الشريف من أجل التأثير أكثر في أتباعه.

وكذلك وجدنا في الرسالة الخامسة للإمام حضورًا للحديث النبوي الشريف في قوله: «أوصيك: بإضمار الخير لجميع المسلمين، وأن تحب لهم ما تحب لنفسك،

(1) نفس المصدر، ص135.
(2) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، ج2، ص1377.
(3) رسائل عبد السلام بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني إلى مريديه، مصدر سابق، ص137.
(4) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، ج4، ص252، 253

وتكره لهم ما تكره لنفسك في الدنيا والآخرة»[1] فهذا القول يتعالق مع قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

وفي الرسالة السادسة أيضًا، وجدنا حضورًا للحديث النبوي الشريف: «احفوا الشوارب واعفوا عن اللحى»[3] فهذا تناص ظاهر مع الحديث النبوي الشريف، وقد وظَّفه الكاتب بغية تأكيد ما يصبو إليه.

وكذلك في قوله في الرسالة السابعة: «وشرائع الدين أربعة وهي: من تكلَّم فصدق، ومن اؤتمن فلم يخن، ومن عاهد فأوفى، ومن على معصية فكف. وعلامات النفاق أربعة وهي: من إذا حدث كذب، وإذا وعد خلف، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر»[4] يعدُّ تضمينًا لما أخرجه البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ قال: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النِّفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»[5].

وقد وجدنا الإمام في الرسالة العاشرة أيضًا متأثرًا بالحديث النبوي الشريف، إذ استخدم معاني الحديث النبوي الشريف، ومن أمثلة ذلك قوله: «إن فائدة العلم العمل به. وإياكم: والجلوس مع ثمانية أصناف من غير ضرورة وهم: كذاب، وقتاب، وتارك الصلاة، ومدمن خمر وزان ولوَّاط، وعائق والديه، ومتكبر. وربما يجب هجرانهم؛ لأن الطبع يسري كما في الحديث»[6] فهذا القول يبيِّن مدى تأثر الإمام بقول الرسول ﷺ: «من جلس مع ثمانية أصناف زاده الله ثمانية أشياء: فمن جلس مع الأمراء زاده الله الكبر وقساوة القلب، ومن جلس مع الأغنياء زاده الله الحرص في الدنيا، ومن جلس مع الفقراء زاده الله الشكر والرضى بما قسم له. والعزلة أحسن. ومن جلس مع الصبيان زاده الله لهوًا ولعبًا، ومن جلس مع النساء زاده الله شهوة وجهلًا، ومن جلس مع الصالحين زاده الله رغبة في الطاعة، ومن جلس مع العلماء زاده الله العلم والورع، ومن جلس مع الفساق زاده الله الذنب والتسويف»[7].

---

(1) رسائل عبد السلام بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني إلى مريديه، مصدر سابق، ص154.
(2) أخرجه أنس بن مالك.
(3) رسائل عبد السلام بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني إلى مريديه، مصدر سابق، ص178.
(4) مصدر سابق، ص188.
(5) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، ج1، 13.
(6) رسائل عبد السلام بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني إلى مريديه. ص250.
(7) أورده السمرفندي في تنبيه الغافلين، ص 228.

وتجدر الإشارة إلى أن نص الوصية الصغرى للإمام الأسمر فيه حضور مضمر للحديث النبوي الشريف؛ فمن أمثلة ذلك قوله: «(وعليكم بالنصيحة) لكل مسلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1] فهذا القول تحويل لقوله ﷺ في حديث أبي سعد الخدري: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2] وقوله أيضًا في الوصية ذاتها: «وأما النبي ﷺ فلا تحبوا أحدًا من الخلق مثل محبته، ولا يكمل إيمانكم حتى يكون النبي ﷺ أحب إليكم من أنفسكم وأهليكم وآبائكم وأمهاتكم وأولادكم وأزواجكم وأصحابكم وجيرانكم والناس أجمعين»[3] فهذا القول يتداخل ويتعالق مع قول رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[4].

إنَّ رسائل الشيخ الإمام الأسمر ووصيَّته الصغرى من النُّصوص الإبداعية، التي انفتحت على الأحاديث النبوية الشريفة، سواء بشكل ظاهر أو خفي، وذلك إثراء للدلالة وتعميقا لنصِّه الجديد.

3. التناص مع الثقافة العربية الإسلامية:

تعدُّ الثقافة العربية الإسلامية بمصادرها الشرعية والمعرفية مصدرًا مهمًّا، يستقي منه الشعراء والكتَّاب مادَّتهم الخام، للتعبير عن مواقفهم وقضاياهم، سنركِّز في هذا العنصر على المصادر المعرفية؛ كوننا تحدَّثنا عن المصادر الشرعية من قرآن وحديث في النِّقاط السابقة.

من الجدير بالذكر أنَّ كتابات الإمام الأسمر قد تداخلت مع أقوال الصحابة والتابعين لهم من علماء ورواة، ومن أمثلة ذلك ما وجدناه في رسائله؛ إذ استدعى قول علي رضي الله عنه استدعاء مباشرًا دون تحويل، أو تحوير حيث قال: «ست خصال من عمل بها لم يترك للجنة مطلبًا ولا عن النار مهربًا. أولها: من عرف الله فأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة

(1) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م، ص130.
(2) رواه مسلم في صحيحه.
(3) القطب الأنور، مصدر سابق، ص130.
(4) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حب رسول الله من الإيمان، حديث 15.

فطلبها»[1]. فالإمام هنا ضمَّن هذا القول رسالته من أجل تقوية وتعضيد حجته في إقناع أصدقائه لما يصبو إليه.

كما استدعى الإمام أيضًا قول «محمد بن كعب» الذي يقول فيه: «ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان، من إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له»[2]، إضافة إلى قول «ابن العباس» رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النَّبَإِ:23]: «الحقب الواحد فيه سبعون ألف سنة من سنين الآخرة، وفي السنة الواحدة أربعة آلاف ساعة، وفي بعضها عنه -رضي الله عنه- في شأن المضلة وكم يقيمون في جهنم قال: يقيمون فيها ثلاثة أحقاب، في كل حقب سبعون ألف سنة من سنين الدنيا»[3] فقد ضمَّن الإمام خطابه هذا شرح «ابن العباس» رضي الله عنه تضمينًا مباشرًا.

وفي موضع آخر نجد الإمام قد استدعى أيضًا قول أبي جعفر، وهو قاض حنفي ومقدم الأشعرية في وقته: «من جعل النَّظر والاستدلال أول الواجبات فقل له: متى يجب على العبد الإيمان بالله؟ وليلقن العبد، وإن كان في المهد ينشأ عليه ويضمن به نفسه، فإن مات هذا العبد قبل البلوغ مات عبدًا مسلمًا، وإن بلغ حد التكلف فحينئذ يلزمه النظر والاستدلال والبحث عن معبوده»[4]

ولمسنا حضورًا مباشرًا لقول ابن القاسم تلميذ الإمام مالك: «الإيمان لا يزيد ولا ينقص، والإسلام يزيد بزيادة الأعمال، وينقص بنقص الأعمال، والإيمان من أعمال القلب والإسلام من عمل الجوارح، والإيمان بالباطن والإسلام بالظاهر، والإيمان ليس بقول ولا فعل وإنما هو اعتقاد بالقلب...»[5].

والجدير بالذكر أنَّ حضور التَّناص مع الثقافة الإسلامية موجود في شعره أيضًا؛ فقد استحضر الإمام قصص الأنبياء بشكل واضح في تائيته المشهورة، منذ قصة سيدنا إسماعيل حتى قصة سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام؛ حيث يقول:

أنـا الحـق فـي العليـاء، وكل مكانـة — وأفديـت إسـماعيل يـوم الذبيحـة

(1) رسائل عبد السلام بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني إلى مريديه، مصدر سابق، ص161و 162.
(2) نفس المصدر، ص162.
(3) نفس المصدر، ص170.
(4) نفس المصدر، ص190و191.
(5) نفس المصدر، ص192.

أبـــوه أبو إســـحاق أطفيـــت نـــاره ... وعـــادت بـــه بـــردًا ســـلامًا بنفحتـــي
واليوشـــع بن نـــون حقًّـــا نصرتـــه ... وأنقـــذت يوســـف الجميـــل بدعوتـــي
أخـــذت يـــدي إدريـــس يـــوم صعـــوده ... إلـــى جنـــة الفـــردوس دار العليـــة
وأنطقـــت عيســـى بالجـــواب مخاطبًـــا ... وكلمهـــم فـــي المهـــد مـــن غيـــر ريبـــة
وأشـــفيت أيـــوب الصبـــور مـــن الأذى ... وأنجيـــت دانيًـــا لا مـــن ليـــث بســـطوتي
وعلمـــت داود الرســـول صناعـــة ... وطوعـــت لابنـــه الريـــاح بحكمتـــي
وكنـــت مـــع نـــوح فـــي حـــال ركوبـــه ... وســـيرته فـــي البحربكـــف قدرتـــي[1]

فالإمام الأسمر في هذه الأبيات استدعى شخصيات الأنبياء ووظيفتهم؛ فشخصية إسماعيل عليه السلام تفضي إلى تداعيات تاريخية مرتبطة به، وبسيرته، وكذا شخصية كل من سيدنا يوسف، إدريس، عيسى، أيوب، داود، نوح... رضي الله عنهم أجمعين؛ فكل اسم من هذه الشخصيات الإسلامية لها وظيفتها، والشيخ قد استدعاهما معًا.

وانطلاقًا مما سبق نصل إلى أن الثقافة العربية الإسلامية تعدُّ مادة أولية في كتابات الإمام الأسمر؛ إذ وظَّف شخصيات القصص القرآني وبعض أقوال الصحابة والتابعين لهم في رسائله؛ لاستنباط المعاني الحقيقية، وتقوية حججه للتَّعبير عن أفكاره، وقضاياه.

خاتمة:

من خلال دراستنا لظاهرة العلائقية النّصية في خطاب الإمام الأسمر توصلنا إلى مجموعة من النتائج يمكن إجمالها فيما يلي:

* تعدُّ ظاهرة العلائقية النَّصية من الظواهر الحديثة التي ساعدت على الكشف عن هذا الجزء من تراثنا الأدبي.

* لا تكاد تخلو كتابات الإمام الأسمر، وبالأخص رسائله ووصاياه من التناص القرآني، بنوعيه الظاهر والخفي؛ مساهمة منه في تقوية رسائله، ووضوحها للتابعين.

* يعدُّ الحديث النبوي الشريف المادة الأولية في كتابات الإمام الأسمر؛ حيث استدعاها بشكل مباشر وغير مباشر.

(1) القطب الأنور، مصدر سابق، ص76.

* شكّلت الثقافة العربية الإسلامية بمصادرها المعرفية مصدرًا استقى منه الإمام الأسمر مادته المعرفية، وقد اتَّضحت أكثر في استدعائه لبعض أقوال الصحابة والتابعين، وكذا توظيفه لشخصيات القرآن الكريم ووظائفهم.




عنوان البحث: الأنا والآخر في المنجز الأدبي الأسمري الوصية الكبرى اختيارًا

أ. د. كاظم حمد محراث

جامعة واسط - العراق

ملخص:

في هذه المقالة سنذهب إلى تحليل منجز الإمام عبد السلام الأسمر الأدبي في كتابه الشهير: «الوصية الكبرى»(1)، وسنعمد إلى تشخيص «الأنا الأسمرية»، وموازنتها مع نظرته للآخر، سواء أكانت هذه النظرة معادلة «لأناه» أم أنها متفوقة، لنكتشف أن مقاصده كانت عديدة، كالتنبه والوعظ والتذكير، وللتحدث بنعمة الله عليه، ولتكون في أحيان أخرى دالة ما اجتمع فيه من علوم ومعارف من سبقه، فكأنه يتحدث باسمهم، وبالجملة فأناه في قصائده مختلفة تمامًا ومتفردة عن استخدامات غيره لها.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الأشعار، الأنا، المنجز الأدبي.

مقدمة:

يُعدُّ الإمام عبد السلام الأسمر رضي الله عنه، واحدًا من أهم المثقفين المنتمين في المؤسسة الدينية الإسلامية تجديدًا، وأهمهم في توظيف الخطاب الأدبي لصالح الدين؛ زهدًا

---

(1) الوصية الكبرى، هي إحدى المدونات المكتوبة للإمام الأسمر، وشاعت وانتشرت كأهم أهم كتب الطريقة العروسية التي يعد الإمام الأسمر أهم أعلامها، وطبعت الوصية أكثر من مرة، أقدمها طبعة مكتبة النجاح بطرابلس عام 1976م، وهي الطبعة التي سنعتمد عليها.

أو توجيهًا، أو في تنفير المتلقين من زلات السلوك الفردي اليومي أو الجماعي الممتد أفقيًّا في الأوطان وعموديًّا في الأزمان.

انماز أدب الإمام الأسمر بأسلوب السهل الممتنع، حاكى فيه ثقافة الخاصة من الناس وعامتهم، حتى إنه شمل في التفهيم عموم العرب في مشرق أرضهم ومغربها، وإنك وإن وجدت في شعره ألفاظًا بدت لك كأنها في لهجة أهل ليبيا وحدهم، فإنك لو أمعنت الاستماع في لهجة أهل تونس والجزائر ومراكش، ستجد تلك الألفاظ شائعة مفهومة مستعملة في نطق الناس وفي تعاملهم اليومي.

في «الأنا» الأسمرية تشييد ذاتي لشخصيته، حتى كأنه ﷺ يعلن عن نفسه، ويبشر بمشروعه الإصلاحي على مستويات تسير في خطوط تلتقي أخيرًا في رغبته في التنبيه إلى مواطن الخلل في السلوك العام، والتحذير من الزلل الذي يفاقم تراجع التزام الآخر في جانبين مهمين من جوانب الحياة: الالتزام الديني القائم على المعرفة بحدوده، والوعي بمخاطر أي انزلاق يصيبه، والالتزام بالقيم الاجتماعية الحسنة التي توارثها الناس عن السلف الصالح.

وحفلت سيرته الذاتية بالعديد من المراحل المزدحمة بالتفاصيل والأحداث، لتكشف عن طبيعة تكوينه ونشأته التي من الواضح أنها تختلف عن نشأة وتكوين غيرهم من بني جيله، فهو ابن أسرة مثقفة بدءًا من أمه السيدة سليمة الدرعية العالمة بالقرآن الكريم الصوامة القوامة، ومرورًا بوالده السيد سليم الفيتوري الذي تتحدث عنه الصفحات القليلة عن حياته بأنه كان أيضًا عالمًا بالقرآن الكريم، فالأسرة مدرسة علمية متقدمة[1]، وانتهاء بعمه الشيخ أحمد الفيتوري الذي يبدو أنه أكثر الشخصيات الأسرية تأثيرًا فيه. والواقع أن علاقته بعمه يجب أن نركز عليها قليلًا؛ لصلة ما فيها بموضوع الورقة، فهو علاوة على أنه من أسسه علميًّا فدرَّسه الفقه والتوحيد والنحو والمنطق، كان كذلك «له خبرة في الشعر

(1) للتوسع عن هذه المدرسة، والمحيط الأسري العلمي الذي عاش فيه الإمام الأسمر، ينظر: قفة الصلاح: قراءات جديدة في سيرة الإمام عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، منشورات مركز العلامة الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص12 وما بعدها.

الجائز وموازيته»[1]، ويصف جودة شعره عمه بقوله: «كأنه كعب بن زهير أو حسان بن ثابت»[2]، ويجب أن نغفل كلام الإمام الأسمر عنه، فلا بد وأن عمه كان عالمًا مبرزًا في علوم أخرى، لكن تركيز الإمام كلامه عن عمه في جانب الأدب والشعر دون غيره من الجوانب العلمية لا بد وأنه يريد من خلاله الإشارة إلى أن تكوينه الأدبي والشعري تم في الأساس على يد عمه هذا.

وإن كانت هذه العلاقة بين الإمام وعمه تحتاج المزيد من التفاصيل التي لا تسعفنا بها المصادر والمراجع في سيرته، إلا أنه في العموم صار أديبًا وشاعرًا مبرَزًا وفذًّا، لديه المكنة والقدرة على قرض الشعر واستثماره وتوظيفه في خدمة مشروعه الإصلاحي، بل كان من الصوفيين المكثرين من الشعر، فانتشرت قصائده على ألسنة الناس في معظم الأقطار، حتى أن العلامة الشيخ أحمد القطعاني يشهد بأنه «قلما تجد من لا يعرف منها واحدة أو أكثر؛ وذلك لسهولتها وبساطتها وقربها من أفئدة وعقول من قيلت لهم، وهذا هو مقصد الشيخ ﵁ إذ سهولة إدراكها والعمل بما بها من نصائح وتوجيهات متوقف على تداولها وانتشارها»[3]، الأمر الذي جعل الكثيرين نساءً ورجالاً يحفظون كلامه ويرددونه، وهو من الكثرة بمكان. ويذكر العلامة القطعاني أنه يُنسب للإمام الأسمر «700 قصيدة عروضية باللغة العربية الفصحى، و400 مقطعة باللسان الدارج، و800 على موازين الحسن الششتري، و500 على موازين الجعراني، وعدد لا يعلمه إلا الله من الأشعار الملحونة. وهي مشهورة بكثرة في كل شمال ووسط أفريقيا إلى الآن، ولعل أطولها المقطعة المسماة: «سلسلة الفروع» التي تشتمل على ما يزيد عن 800 بيت من الشعر، تليها السلسلة الجوهرية أو الجوهرة على اختلاف في التسمية التي تبلغ أبياتها:551 بيتًا من الشعر»[4].

(1) الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية المسماة بالطريقة العروسية الشاذلية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1964م، ص17.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، 1992م، ص72.
(4) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21 هـ ـ 644 م إلى سنة 1421هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ج1، ص378.

ومن المهم أن نحدد الأنا في مستواها الفلسفي، والنفسي، وما يقابلها في الآخر؛ لتسهيل الفهم والولوج لمقاصد «الأنا» عند الإمام الأسمر:

الأنا في التحديد الفلسفي:

كلمة تطلق على الذات المفكرة الواعية والعارفة لنفسها، والتي يأتي في مقابلها الموضوعات الأخرى التي تتميز عنها[1].

الأنا في التحديد النفسي:

كما وصفها علماء النفس هي شخصية المرء في أكثر حالاتها اعتدالًا بين الهو والأنا العليا، حيث تَقبَل بعض التصرفات من هذا وذاك، وتربطها بقيم المجتمع وقواعده، والممكن للأنا أن تقوم بإشباع ما يطلبه الهو، ولكن في صورة متحضرة يتقبلها المجتمع، ولا ترفضها الأنا العليا[2].

ما هو الآخر في الفلسفة؟

في مجال الظاهراتية يشير مصطلح الآخَر إلى الإنسان الآخر من حيث كونه غير الذات، بوصفه عاملًا تأسيسيًّا مشكِّلًا للصورة الذاتية للشخص، أي بوصفه إقرارًا من المرء بواقعيته، وهو من ثَم شيء آخر غير الذات الفردية، والآخر هو شخص (أو شخصية اعتبارية) قد تختلف معه أو تتفق.

«الآخر» في فكر الإمام الأسمر

والآخر في فكر الإمام الأسمر وعقله وثقافته أخوه، فكل إنسان في هذا الوجود هو أخوه، وكأنه يتمثل المقولة الموروثة عن سلفنا الإسلامي: «الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»[3]، ففي وصاياه وتوجيهاته كلها لم يظهر مظهر المتعالي، بل يوجه الناس وكأنه معلم حاذق في إيصال أفكاره ومعلوماته.

---

(1) معجم المصطلحات الفلسفية، معجم المصطلحات الفلسفية: فرنسي - عربي، عبده الحلو. الناشر، بيروت المركز التربوي للبحوث والإنماء، ١٩٩٤م. ص74.

(2) معجم المصطلحات النفسية، محمد مصطفى زيدان، المملكة العربية السعودية، 1979م. ص285.

(3) نهج البلاغة، الشريف الرضي، شرح محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ج3، ص84.

ونجد في نصوص الإمام الأسمر، أنه بعد البسملة والحمدلة والثناء سارع إلى الخطاب المباشر العَلنيِّ: «إخواني»، في الكثير من الصيغ كـ«أوصيكم أيها الإخوان»، و«إخواني» ليكررها عدة مرات في الورقة الواحدة، لتكون في النهاية عشرات المرات في كتابه الوصية الكبرى، وتلك ملاحظة مهمة في خطاباته ينبغي التريث لتحليل أسلوب من أساليبه.

فللتكرار قيمة بلاغية لا ينكر فضلها العلماء، حتى إنه عُرِفَ فنًّا من فنون البلاغة وحسن الكلام، يذهب به المتكلم إلى غايات ومقاصد عدة، قال ابن الجوزي: «أما إعادة الكلمة لتفهم فلا تعدو ثلاثة أشياء: إما ليفهم معنى اللفظ بإعادته، أو ليتضح اللفظ فينقطع عنه المحتملات، أو لتحفظ فيكون المراد بالفهم الحفظ»[1]. وفي هذا ما يجعل التكرار أسلوبًا من أساليب دفع الشك عن قصد المتكلم، ولترسيخ الفكرة التي يود المتكلم إيصالها إلى المتلقِّن.

وورد في القرآن الكريم تكرار متعدد لغايات متعددة، أفصح عنها العلماء والمفسرون، فقد يكون التكرار لفظًا واحدًا، وقد تتكرر عبارة بأكملها، وربما يتكرر المعنى بأكثر من تعبير وبأكثر من صياغة، ولم ينظر إلى هذا التكرار على أنه عيب، يقول ابن قتيبة: «وأما تكرار الأنباء والقصص فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجومًا في ثلاث وعشرين سنة، بفرض بعد فرض؛ تيسيرًا منه على العباد، وتدريجًا لهم إلى كمال دينه، ووعظ بعد وعظ؛ تنبيهًا لهم من سنة الغفلة، وشحذًا لقلوبهم بمتجدِّد الموعظة»[2].

ففي التكرار قصد بيِّن واضح؛ إزالة الشك والإبهام الذي قد يساور المتلقي القارئ أو السامع، والقرآن الكريم نفسه لم يكن خلوًا من التكرار، ولا سيما في التركيز على وحدانية الله تعالى، حتى لا يبقى شك في هذا الوصف، ويتجلى ذلك في الآيات: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:1 – 4]، وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:255]، وقوله ﷻ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:22].

(1) كشف المشكل من حديث الصحيحين، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3، ص297.

(2) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينَوَري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث، 1973م. ص232.

كما أن النبي الأكرم ﷺ كان يكرر القول لفظًا أو معنى بأسلوب بلاغي مرصوص، لا تشوبه شائبة التكرار المُملِّ أو الإعادة الركيكة، فعن أبي شريح أن النبي ﷺ قال: «**والله، لا يؤمن، والله، لا يؤمن، والله، لا يؤمن**»، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يأمن جاره بوائقه**»[1].

ولقد قرر كثير من العلماء بأن تَكرار الشيء سبيل من سبل الإقناع به، فإن كتاب الله تعالى جاء بهذا الأسلوب قبلهم، فنجد أن كل أدلة القرآن الكريم من قصص وأمثال ونعم وأدلة كونية وعقلية وردت في القرآن مكررة بصيغ مختلفة، وهذا هو التكرار المفيد غير المُملِّ، وقصص القرآن التي وردت مكررة كانت في كل موضع تأتي بجديد، أو تركز على غرض مهم من أغراض القصص القرآني.

وفي هذا يوزِّع الإمام الأسمر النصائح والتعليمات والتوجيهات، ليس لتلامذته حسب، بل للناس أجمعين، حتى ليبدو أنه يقوم بمهام متعددة؛ فهو:

المعلم:

«إخواني، أوصيكم أيها الإخوان، عليكم بالتوحيد وحفظ العلوم واتباع السنة والقرآن، وعليكم بتعليم أولادكم وأزواجكم ومماليككم: عقائد الإيمان، فمن لم يعرف العقائد فليس بعارف»[2].

«إخواني، ومن شروط التوبة: الندم على ما فات، وينوي التائب ألا يعود إلى ذنبه»[3].

يتكفل الإمام الأسمر - في هذين النصين وفي غيرهما - بالحث على الالتزام بالدين، وعدم الخروج على شروطه، وينبه على الأركان الأساسية للإسلام، ويعطي منزلة تعليمية دينية للعارف في مصلحة الدين، وهو بهذا الخطاب يظهر كأنه مكلف بحمل رسالة تكليفًا، وليست مهمته مهمة عابرة أو كمالية، وهذا التكليف نابع من إيمان راسخ بأنه وريث دوحة النبوة وحامل إرث الإسلام، والمدافع المثقف عن الدين.

---

(1) أخرجه البخاري.
(2) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص4.
(3) نفس المصدر، ص5.

المصلح الاجتماعي:

«إخواني: فلا يوجد شيء أكبر من الكبر، فلا تحبوا أنفسكم، فإن محبة النفس تورث الكبر»[1].

«إخواني: لا تصاحبوا إلا من كان خيرًا منكم وأجل منكم وأفضل منكم وأعلم منكم وأجود منكم»[2].

«إخواني: أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لا ينفعه، وقبل مدح من لا يعرفه»[3].

وأمام هذه المهام التربوية والاجتماعية والدينية الكبيرة لا ينسى الإمام الأسمر في التذكير أن للآخر القريب حقًّا: «وعليكم بحفظ الجيران والإحسان إليهم... واقضوا حوائجهم»، ويحثُّ على بر الوالدين: «إخواني: عليكم بر الوالدين، وأحسنوا لهم، ولا تنهروا في وجوههم؛ لأن الله ﷻ قرن اسمه باسمهم»[4]، في دلالة واضحة على حرصه على التماسك الاجتماعي وضرورة استمرار التواصل.

وللمرأة خطابها أيضًا، إذ يتوجه إلى مريداته في الطريقة العروسية حاثًّا إياهنَّ على ضرورة الحفاظ على خصوصية وقوة بيوتهن وأُسَرِهِنَّ، قائلًا: «وأما النساء العروسيات فبلغوهن مني السلام مع أزواجهن وإخوانهن وآبائهن وأبنائهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن ونحوهم، وقولوا لهن: قال لكم الفقير عبد السلام بن سليم الأسمر الفيتوري الحازمي اليزليتني: غضوا أبصاركن عن جميع المحارم، وكفوا أسماعكن عن جميع المآثم، واحفظوا فروجكن ما استطعتن، واجتنبوا جميع الجرائم، وأطيعوا أزواجكم»[5].

وهو في هذه النصائح وغيرها مرشد ومصلح اجتماعي للآخَرِ وتوجيهه توجيهًا اجتماعيًّا لائقًا، فالآخر في نظره إنسان يستحق المنزلة الاجتماعية المحمودة، لذلك نجد في الخطاب اهتمامه بصنع شخصية الفرد، وحثه على اتباع السلوك المستقيم، فالشخصية السوية تعيش: دون تكبر، ودون غرور، لا تظلم الآخر، ولا تصاحب الرذيل. هذه خلاصة تعليمات الإمام الأسمر للآخرين، ويترك لهم حرية الأخذ بها أو تركها.

---

(1) نفس المصدر، ص57.
(2) نفس المصدر، ص59.
(3) نفس المصدر، ص60.
(4) نفس المصدر، ص22.
(5) نفس المصدر، ص33.

المربي الصوفي:

وفي سياق هدف الإمام الأسمر لصناعة الإنسان دينيًّا واجتماعيًّا يلتفت إلى المعالجة النفسية للآخر، فيخاطبه: «إخواني: جمال العلم إكرام النفس»[(1)]، وهو في هذا الخطاب الموجز القريب من النفس، يتقدم على ثقافة عصره، حتى كأنه يعيش بيننا اليوم ويفهم الحاجة العصرية للعلم والمعرفة، بما يعني أن أفق الأسمر كان يعبر عصره ومكانه، وهذا واحد من أسباب خلود الرجل في ذاكرة الأجيال.

ويبذل في وصاياه جهدًا لتربية الأخ الآخر تربية الحكيم الحريص على أبناء جلدته في ليبيا، وأبناء أمته في العروبة، وإخوته في الدين: «إخواني، واحفظوا أنفسكم من الظلم والخيانة والأعمال المذمومة... وإياكم وجحد الأمانة وإنكارها على أهلها»[(2)].

ولأن حب النبي ﷺ أساس الإيمان والتربية الصوفية، شدد على ضرورة حبه أكثر من غيره، لكن يستوقفنا تحليل خطابه في ذلك، بقوله: «وأما النبي فلا تحبوا أحدًا من الخلق مثل محبته، ولا يَكْمُلُ إيمانكم حتى يكون النبي ﷺ أحب إليكم من أنفسكم وأهليكم وإخوانكم وآبائكم وأزواجكم وأصحابكم وجيرانكم والناس أجمعين»(28)، فربما لم تأتِ الوصية هنا بحب النبي ﷺ بجديد في الثقافة الإسلامية، لكن فاعليتها في التذكير تنفع، لا سيما حين يصدر التذكير من رجل ذي شأن عظيم مثله، ولهذا يلتفت دارسو سيرة الإمام الأسمر ومحللو أدبه إلى هذه القضية؛ وربما ظنوا أن الخوض فيها والتذكير بها يعد نافلة لا جدوى منها، لكن من المهم التأكيد على أن أسلوب الإمام الأسمر التوجيهي قائم على التكرار والإعادة لغايات ثقافية وإنسانية يدرك أهميتها.

والأمر بعينه ينطبق على تشديد الإمام الأسمر على التذكير بحب آل الرسول: أولاده وأحفاده، وزوجاته، وينصح الآخر بعدم التركيز على الخلافات القديمة التي وقعت بين الصحابة وآل البيت لأسباب يجب التريث في قبولها أو رفضها، فينصح الآخر: «إخواني، وعليكم أيضا بمحبة أولاده وأصحابه وأزواجه رضي الله عنهم أجمعين وجميع من انتسب إليهم، وامسكوا عما وقع بينهم من الخلاف والمشاجرة وغيرهما»(29)، فلا فرق

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

في فكر الإمام الأسمر بين صحابي من صحابة النبي ﷺ وآخر، كما لا يوجد فرق في فكره بين أحد من آل بيت النبوة وآخر، لهذا جرى خطابه للآخرين على وفق ما يؤمن به.

الناقد السياسي:

ويطمح أن يكون الآخر مثالًا في حسن الأخلاق وجمال التربية، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وكانت له إشارة فيها وتوجيه، ولم يكن في هذا الأمر خائفًا من سلطان أو حاكم، بل ولا تأخذه في قول الحق لومة لائم: «إخواني: ولا يحل لكم مخالطة الظلمة والجبابرة، ولا تعينوهم بأموالكم، ولا بأنفسكم»[1]. وهو تحريض على عدم الاستكانة للظلم وللظالمين من جانب، ومن جانب نقد للواقع السياسي المنحرف، ففي هذا الخطاب تثوير الآخر وإنهاض همته حين يقع عليه ظلم أو جور أو تعرض للاستهتار والحيف، فهو هنا يضطلع بواجبات القائد، المستشرف على آفاق المستقبل، ولا يأتي هذا كله إلا من دراسة واطلاع كبير.

في وصاياه للآخر، لم يستثنِ الإمام الأسمر قريبًا أو بعيدًا، حاضرًا أو غائبًا، في زمنه أو في الزمن القادم، في بلده أو في بلاد أخرى، جاء خطابه شاملًا ناصعًا واضحًا بأسلوب بسيط، تفهم مضامينه علية الناس وعامتهم، والبلاغة في الخطاب العام يجب أن تكون بمستوى فهم أدنى الطبقات تعليمًا واطلاعًا وإدراكًا. ونحن نعي تمامًا أن معنى المعنى المضمر في بعض خطاباته التوجيهية للآخر يبعد كثيرًا عن المعنى الطافي فوق سطح الكلمات، منها مثلًا: «إخواني: ولا يحق لأحدكم التجسس على الآخرين، ولو كانوا من أعدائه قطعًا»[2]، المعنى الظاهر للخطاب يشمل كل كسب للمعلومة بما فيها المعلومة المتعلقة بالعدو، أي عدو كان، والحقيقة أن المقصود هو الخصم القريب من الإخوان أو الجيران أو أبناء الوطن الواحد، أما التجسس على بلد عدو أو على قوم أعداء فالأمر متاح، ولنا في تاريخ الإسلام تجارب واقعية تدلل على تعقب قادة المسلمين أخبار الأعداء بدءًا من مدة وقوف اليهود وقريش والمشركين بوجه الإسلام مرورًا بأخبار الفتوحات الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها. أما التجسس الذي يحذر منه الأسمر فالمقصود النميمة، والنفاق بين الناس.

---

(1) نفس الصفحة، نفس المصدر.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

«الأنا» في فكر الإمام الأسمر

أما «الأنا» في خطب الإمام الأسمر ووصاياه فقد شغلت مساحة ضيقة في كتابه، وقد يجد البعض غلوًّا ومبالغة في الإشادة بنفسه وبمنزلته، لكن «الأنا» عنده تختلف تمامًا، فمن نافل القول أن هدف التصوف الأساسي تربية النفس ومحو صفاتها، فما بالنا بنفس الإمام الأسمر وهو المربي الكبير.

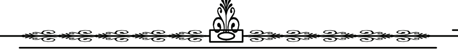
وبحسب رأيي فإن «الأنا» الأسمرية، تتعدد معانيها بحسب وجهة ومستوى الخطاب، فهي أحيانا كما هي عند إخوانه من أقطاب التصوف، ترمي إلى التحدث بنعم الله امتثالًا لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضُّحى:11]، وباعتباره خطابًا قرآنيًّا للنبي ﷺ، فيجب أن نذكر بأن العلماء ورثة الأنبياء، كما جاء في الحديث الشريف.

وفي مستويات أخرى من الخطاب وجهته، نجد لها معاني أخرى، ففي قوله: «إخواني، أنا عبد السلام الأسمر، ومدفعي مُعَمَّر، قوسي مُوتَرٌ، وغريمي مُكَسَّرٌ، أنا مع كل من عثر جواده من أصحابي وفقرائي وأحبابي وتلامذتي وتلامذة تلامذتي إلى يوم القيامة، سيفي مسلول، وعدوي مقتول، ورمحي مصقول، وسيفي يطول، وقتيلي مشغول، وغزلي مغزول، وغريمي مخذول، وأنا لجام لكل مضلول على الله وعلى رجال الله والرسول»(31) ما يشير على موقف من مواقف الدفاع عن الدين وضرورة إظهار قوته وعزته، فهو أحد أئمة هذه الأمة الإسلامية، ومن شواهدي على ذلك قوله في موضع آخر: «وأنا لجام لكل مضلول على الله وعلى رجال الله والرسول»، فمدفعه معمر، وقوسه موتر، وغريمه مكسر، وسيفه مسلول، وعدوه مقتول، ورمحه مصقول، كل هذا ضد من يقف ضد الدين، وينكر فضل الإسلام والصحابة، والتابعين، فـ«الأنا» هنا تظهر صلبة وقوية حين يتعلق الأمر بحافة من حواف الدين والشريعة وبركن من أركان الإسلام.

وعليه لا تعدو «الأنا» الظاهرة في نصائح الإمام الأسمر وخطبه ووصاياه إلا أن تكون حاملة لمعنى من معاني النفرة ضد الواقفين بوجه الدين والخارجين على أوامره ونواهيه، حتى إنه في وصية من وصاياه ربط فوز الآخر في دار القرار باتباع منهجه ومنهج مدرسته، ومنهج شيوخ طريقته، ومنها قوله في نصيحة تعبر عن أناه الفاعلة: «إخواني: من لا يصدر من موردنا وطريقتنا ومشايخنا وأهل أحزابنا وحضرتنا وأذكارنا وطيراننا وأشعارنا وطرائقنا لم يرو ولو شرب من ماء غير آسن وهو أحد أنهار الجنة»(32).

ولعله من المفيد هنا أن ننقل نصًّا من المذكرة التعريفية بالإمام الأسمر المرفقة بالإعلان عن هذه الدورة، إذ ورد فيها أن «الأنا الحاضرة بقوة وكثافة في كل أشعاره بتعبير: (أنا الشيخ الأسمر) تمثل قضية مهمة من قضايا شعره، فبتتبعها ورصدها في سياقاتها ومواضعها نجد أنه يعلن من خلالها على نموذج معرفي جديد من زاوية الاختلاف، لا من زاوية التجانس المجترِّ الذي لا ينتج إلا نماذج قديمة مكررة، فالإعلان عن «الأنا» إعلان عن جديد مختلف منفتح على الآخر متعدِّد المشارب والروافد، لكنها «أنا» في ذات الوقت لا تقطع معارفها مع الماضي؛ ولذا فهي «أنا» تقترن دومًا بعشرات الأسماء من أصحاب التجارب السابقة بكل أبعادها الفقهية والحديثية والأصولية والتاريخية والصوفية، ويحمل في طيات استغاثته بهم، وطلبه حضورهم لنصرته استدعاء لمضامين مشاريعهم ومنتجاتهم الفكرية والمعرفية، وربما يريد بالإعلان عن «الأنا» القول بأنه الجامع لكل تلك المضامين في مشروعه الإصلاحي»[1]، وهو ما يراه أيضًا دكتور أسامة بن هامل في كتابه «قُفة الصُّلَّاح» من أن الإمام الأسمر «حمَّل «أناه» معنى «قصد به القول بأنه المثال الجامع لكل ما حوته معارف وقدرات أولئك الصالحين الذين استغاث بهم»[2].

(1) اللجنة التحضيرية للدورة الخامسة للمؤتمر الدولي السنوي للشيخ أحمد القطعاني، مذكرة تعريفية بالإمام عبد السلام الأسمر، ص4.
(2) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص186.







شعرية نصروصية سيدي عبد السلام الأسمر وأثره على نفسية المتلقي

د. نواصر السعيد
جامعة أحمد درايعية أدرار - الجزائر

ملخص:

تُبرز هذه المقالة جانبًا من جوانب الإبداع في أسلوب وخطاب الإمام عبد السلام الأسمر، من واقع نص «الوصية الكبرى» الذي يكشف لنا عن لغة فكرية وتربوية خاصة، ذات معاني وأذواق ضمنها في العديد من الألفاظ والتعابير بانزياحات بلاغية وأسلوبية تكشف عن لغة أسمرية ملؤها التأمل الصوفي العميق، والثروة الواسعة من قواميس ودواوين الأدب العربي والصوفي.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، أسلوب، نص، انزياح، البلاغة، التصوف.

مقدمة:

النص شهادة ميلاد أو وفاة يحمل بين كلماته وسطوره اقتباسات قيمية أو تناصات فنية تتداعى فيها الملكات الفردية والجماليات الذوقية، يؤثر على أحاسيس المتلقي بمستويات مختلفة تتجلى ملامحها الشعرية أو الأسلوبية في قوة العلاقة بين اللفظ والمعنى، أو بين المعنى ومعنى المعنى، ليفرض حضوره ويحقق وجوده. مما يتبادر إلى

الأذهان مجموعة من الإشكالات: كيف حققت هذه النصوص قابليتها عند القراء والنقاد؟ لماذا تُولَدُ بعض النصوص وتستمر فنيتها رغم موت أصحابها؛ بينما بعضها يولد ميتًا؟ هل هي الشعرية أو الإبداعية أو الخصوصية الإنسانية في أبعادها الكمالية الظاهرة والباطنة؟ وأخيرًا ألا يمكن التحكم في مستويات الكتابة بتحديد قوانين تحكم النص الأدبي؟

والواقع أن الكتابة الصوفية لون آخر من ألوان النصوص، تميزت بتجربة ذاتية ومعانٍ دينية، وحرية الفكرية، ورمزية للفظية، قوامها الهمم الربانية، روح الإخلاص والتفاني وسعة القلب الرباني، وبنفس الكمال الإنساني المتشبع بالوجود الإلهي الباقي والمنقطع عن الوجود الكوني الفاني، بتذلل وخشوع وطمع في فضل الله ورحمته. مما ألبس كتاباتهم حلة الغيبية وحلة الحقيقة الربانية، التي رسمها رب العالمين في كتابه المسطور وفي كونه المنظور، وبالتالي فالشعرية الصوفية في كلامهم أسمى في معانيها وألفاظها عن غيرها من الشعريات الأخرى، فلها خصوصيتها عن باقي الأذواق، فنصوصهم تطلق من القلب لتسبح في ملكوت الرب مكبلة بخمرة الشوق ولحظات الشهود والتجلي دون مغالاة مُبْعِدَةٍ عن طريق الحق، فهم الصوفية إحسانًا وافتقارًا إلى الله حسًّا ومعنًى، وعلى نَهْجِهِمْ تَرَبَّى الإمامُ العارف بالله سيدي عبد السلام الأسمر رحمه الله.

والشِّعرية نظرية نقدية تقوم على البنية النصية أو النسيج النصي، نثرًا أو شعرًا، وقد تعدَّدت مصطلحاتها بين الشعرية أو الشاعرية أو الشعورية أو الأدبية، وتطورت من ظهور اللغة إلى الشعر إلى الجنس الأدبي، جاعلةً من النصوص الأدبية حقلًا لتجاربها الرَّامية إلى البحث في الأسس العامة التي تفك شفرات التناغم بين اللفظ والمعنى.

وعليه دومًا ما تثير قضية شعرية النصوص سؤالًا عن آلياتها للتمييز بين مستويات المعنى في النصوص الأدبية، فالأدب منطلق يتفرع منه أجناس أدبية أخرى تحكمها ميزة الفنية والجمالية والأسلوبية، وتجسِّد علاقات بلاغية أو نحوية أو دلالية، وتبين حجم التحكم وسمة الملكة الحاضرة، فالعلاقات النصية تتقارب في جوانب وتتباعد في جوانب أخرى ما يسمح بظهور بعض الاختلافات والعلاقات التي تعطي أسلوبًا بطابع مناسب يوظف الجوانب النفسية والاجتماعية والتاريخية.

نبذة عن الإمام سيدي عبد السلام الأسمر

إنَّ ما يميز كبار الصوفية هو قوة الشخصية والمواجهة وانتصارهم للحق، ولذا تصدروا منابر النصح والتوجه والإصلاح، فصححوا الكثير من المفاهيم، وسخروا أقلامهم للكتابة بأساليب أبدعوها لنصرة قضاياهم حتى تعرضوا للانتقاد والظلم. وهذا ما يشعر به القارئ عند الوقوف عند محطات من حياة الإمام الأسمر، فمن هو؟[1].

سنتجاوز التعريف التقليدي لنبحث عن عوامل النجاح والتأثير في حياة الإمام، التي صنعت منه مصلحًا ورجل جهاد وتقوى، وأولها بدايات تأسيس وتشكل شخصيته على يد أسرة تملك رصيدًا قويًّا في التعليم والتربية، فأول ما وجهته إليه حفظ القرآن الكريم، وتلقيه رعاية تامة على والدته السيدة سليمة الدرعية، وعمه الشيخ أحمد الفيتوري الذي كان له دور في دفع ابن أخيه للمراحل المهمة المكملة لشخصية الداعية المصلح، فوجهه للاتصال بأستاذ مربٍّ كامل على النهج الصوفي، وهو الشيخ عبد الواحد الدوكالي، فكانت عوامل الاستقرار الاجتماعي في أحضان أسرته، والاستقرار العقلي بتأسيسه العلمي على حفظ القرآن الكريم، وتلقي العلم على يد عمه، والاستقرار العقدي والروحي على يد شيخه الدوكالي على نهج الطريقة العروسية، كلها اجتمعت لترسم له الوجهة المحددة وهي السلوك إلى الله ومن ثم دلالة الخلق عليه وإرشادهم إليه.

ومن عوامل نجاحه ونبوغه: العناية الربانية التي رافقته وامتلاكه ذاكرة قوية للحفظ، فالمصادر أنه حفظ القرآن الكريم، وحفظ في الفقه الرسالة ومختصر خليل والمدونة، وفي التصوف الحكم العطائية والتنوير، بل وتفنن في كل العلوم.

---

(1) للمزيد عن سيرته العطرة، ينظر على سبيل المثال:
تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، الدار الثقافية، بيروت، 1966.
القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1992م.
مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، لجنة الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن، 2022م.
رسائل الأسمر إلى مريديه، مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.

ومن مقدمات التأسيس القوي لشخصيته لزومه لطريقة صوفية تجمع بين مدرستي الصبر والشكر، فالأولى تقوم على الصبر على الرياضات والخلوات والأذكار المطولة، والثانية على ملاحظة آثار الجمال وكثرة حمد المنعم سبحانه، فكان أن نهل من منبع المدرستين، الصبر وَفْقًا لمنهج الإمامين الجيلاني والغزالي، والشكر وفقا لمنهج الإمام الشاذلي، فتعددت مصادر معرفته.

ومن آثار تلك التركيبة من العوامل التي تفصح عن قوة الشخصية، صبره على الدعوة مع قوة حجته العلمية ونفاذها، فكثيرًا ما عبر في أشعاره وقصائده على تحمله وصبر على أذى معارضيه وسعيه لكسبهم سالكين في طريق الله بدلًا من معارضتهم بالحجة، فلم يكن هدفهم إلجامهم والانتصار عليهم، بل دلالاتهم على طريق الانتصار على النفس وتهذيبها، وهو أسلوب تربوي تعليمي رائع ابتكره لتوعية الناس وترسيخ تعاليم دينهم والمعاني المصلحة للنفس وللمجتمع.

شعرية الانزياحات البلاغية والأسلوبية في «الوصية الكبرى»

الكتابة الصوفية تأخذك إلى أعلى المستويات الذوقية والفنية، وتسبح بك في كون الله بمصطلحات متميزة ورمزية فنية ذات دلالات عميقة. تأخذ من القلب والوجدان والأحاسيس فضاءً لها بعيدًا عن الموضوعية وبحثًا عن الحقيقة الكاملة. هذه الكتابة تختلف من صوفي لآخر، حيث تكتشف تميزها وتنوعها عند القراءة أو الاستماع، مما يجعلك تستغرب وقد تصل إلى حوار نفسي: ما معنى هذه الكلمة؟ ما الغرض منها؟ لماذا تحتاج إلى توضيح؟

«الوصايا» جنس أدبي تربوي، ينقل تجارب، ويعطي آراء، ويصحح مسارًا، وقد كتب في هذا الفن العديد من الصوفيين، أمثال الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، والشيخ زروق صاحب النصيحة الكافية، وجمعت الكثير من الوصايا لأقطاب التصوف كوصايا الجنيد وذي النون المصري وغيرهم، ولكل فيها لغته الخاصة. والإمام الأسمر من أقطاب التصوف الذين ألفوا في الوصايا والنصائح، ومنها «الوصية الصغرى» و«الوصية

الكبرى»، نصائح كلها تنبض بروح الدعوة إلى الله، وتصحيح المفاهيم في طريق السلوك إلى الله، وتنير العقول والقلوب وترتقي بالأرواح وتعالج النفوس.

والانزياح هو ظهور معانٍ جديدة في الألفاظ والتراكيب عن المعاني المألوفة، وبهذا تتجلى العلاقات الجديدة في التراكيب، وبما أن «الوصية الكبرى» نص صوفي فهو يشهد خصوصية لفظية غير المألوفة ورمزية خاصة. ويمكن رصد هذه الخصوصية من خلال تتبع الانزياح الأسلوبي فيها، فقد استخدمه الإمام الأسمر لتبسيط المعاني الصوفية التربوية مع التأصل الفقهي والديني للنصائح المقدمة. فالانزياح يظهر بوضوح في تصحيح الأساليب الحياتية والمفاهيم الصوفية والتأصيل لها. والبداية مع دعوته لالتزام العقيدة السنوسية الأشعرية المستمدة من الكتاب والسنة فيقول: «إخواني: قد وضعت لكم عقيدة في التوحيد فتخرجكم من التقليد، ففيها عشرون ورقة لا زيادة عليها، وهي كراسان على النصف لا غير، فإن لم تقدروا على فهمها فعليكم بعقائد الإمام السنوسي»[1]. عقيدة ملخصة في ما «يجب لمولانا ﷻ عشرون صفة وهي الوجود، والقدم، والبقاء...»، ثم يقول: «إخواني، فاذكروا بالنية مع خضور القلب»[2] يركز على عمق الذكر بعد ذكر اللسان، دون أن يذكر لنا ذكر اللسان حتى نصل إلى ذكر النية بحضور القلب؟ فأساس طريق القوم ملازمة الذكر والإكثار منه والبداية مع الأوراد. ومن المعاني المُصححة للذوق والفهم الحقيقي للدين، عند كلامه على محبة السادة الشرفاء آل البيت التي هي من محبة النبي ﷺ: «وتأدبوا معهم غاية الأدب، ولا تنهروا في وجوههم، وكلموهم بكلام خفي مع الأدب، وتواضعوا لهم كل التواضع؛ لأنا بمنزلة المماليك، وهم رضي الله عنهم بمنزلة الأسياد»، ولا شك فإن هذا الذوق الراقي في الفهم الصحيح للمحبة لا يكاد يتأتى إلا لأهل النوايا والقلوب المحشونة بمحبة النبي ﷺ، وهو معنى رباني مستمد من قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشُّوري:23]، إنه المعنى المستمد من الاصطفاء لآل البيت، فهم آل النبي ﷺ، وكأن الأمام الأسمر يريد أن يشير إلى نهاية الأمر من خلال السؤال الوجيه الذي يجب أن يسأله كل من يدرك حقيقة

---

(1) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص4.
(2) نفس المصدر، ص7.

الوِجْهَةِ، وهي الوقوف على الحوض والوقوف بين يدي الله، فكيف بك إذا جئت على حوض النبي وأنت خصيم أهله؟.

إن «الوصية الكبرى» مليئة بالمعاني السمحة الجليلة التي يجب أن نتعلمها ونتربى عليها، والتي صارت غامضة وغير مألوفة في زماننا هذا، والسبب هو طغيان الماديات وغياب الروحيات، وطغيان التربية المبنية على النظرة الدنيوية وغياب التربية المبنية على القيم الإسلامية الإيمانية الإحسانية، وقد خرق الإمام الأسمر بوصيته الواقع والمعاني المتداولة، واستطاع أن يدافع عن منهج تربوي صوفي تحتاجه الأمة الإسلامية أكثر من ذي قبل، ولكن من ينظر إلى مثل هذه الكتابات سيشعر بالغربة عن المنهج الأصيل، أو يشعر وكأنها غربة الدين التي تكلم عنها النبي ﷺ.

ويتجلى الانزياح اللغوي البلاغي في معناه الدلالي مبينًا قوة اللغة الشعرية الحاضرة في «الوصية الكبرى» من خلال التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز. وفي معناه التركيبي النحوي والمعجمي من خلال التحكم في أساسيات اللغة العربية، رغم وجود بعض المصطلحات التي لها خصوصية العامة ولها معجمها الخاص، ومن أمثلة الانزياح الدلالي قوله:

- «إن قست عليك قلوب إخوانك الفقراء ونستك فربك رحيم، وإن اشتد عليك الخطوب والطلوب فربك يرحمك وهو بك عليم، وإن أغلقت دونك الأبواب ونستك الأحباب فقد فتح لك باب الكريم، وإن انقطعت بك الأسباب وجفتك الأصحاب فمولاك ذو الفضل العظيم»[1]، وهو نص مليء بالمجاز والاستعارات، حيث شبَّه القلب بشيء يقسو ويتصلب، وحذف المشبه به، وترك ما يدل عليه وهو القساوة على سبيل الاستعارة المكنية، وكذلك مع اشتداد الخطوب، وانقطاع الأسباب.

وهي عبارات مجازية أعطت سعة في المعنى وزادته جمالية وقوة ووضوحًا، وبالمقابل أكمل تركيبة الجملة بمعنى ثابت ومستقر وهو اللجوء والتعلق بالله سبحانه وتعالى، فلا ملجأ إلا إلى الله، وهذا تصحيح لمفاهيم سببت لنا تعبًا في الحياة إلى مفاهيم تحقق لنا السعادة في الدنيا والآخرة.

- «إخواني: ولا يحل لأحد منكم أن يعتمد سماع الباطل، كالملاهي المحرمة»، وهنا انزاح بهذا التشبيه إلى الغرض المنشود ليحدد المعنى المنشود.

---

(1) نفس المصدر، ص 14.

- «إخواني إخواني إخواني: وإياكم أن تتركوا فرض الكفاية، كصلاة الجنائز» كذلك شرح من المعنى المراد بدقة.

- «وبالصلاة على النبي ونحوها كقصائد البوصيري» ليخرج بك إلى المعاني الصوفية الواسعة التي تحقق غرض الصلاة على النبي، كما يشير إلى مكانة قصائد مدح النبي ﷺ، وفي ذلك تعبير عن عمق المحبة والتعلق بالنبي ﷺ.

- «أنوار الإيمان كالإيمان بالله» فالمعنى أكمل وأوسع مرتبط بالله نور السماوات والأرض ومن أنوار القرآن والأنبياء والنبي -صلى الله عليه وسلم- وقوله: «وما أنتم إلا كمصباح تتعاقب عليه عواصف الأرياح» ليزيد الثقة في نفسية أتباعه، ويحثهم على الصبر والتحمل لعواصف الرياح التي منها الانتقادات والبلايا؛ لأن الآدميين يمتحنون بالبلايا كما يمتحن الذهب والفضة بالنار.

- «وزار من كان بركته كالشمس ظاهرة» حتى يسهل عليك عناء الفهم يلامس الشمس بهذا التشبيه، ومعلوم ما للشمس من قيمة وفائدة ودلالة كونية.

- «لأنه كفتاش الضالة» من التفتيش وهو البحث والضالة المقصد، وهو الذي يفتش على مقصده وضالته ضرب به المثال ليتضح المقال.

وبهذه التشبيهات وغيرها حاول أن يوضح أفكاره ويسهل على مريديه وأتباعه بعض المعاني، حتى يصلوا إلى الحقيقة وهي القرب من الله، فشكل انزياحًا مقصودًا لمعانٍ مقصودة تقود السالك والمريد إلى الله ﷻ، وبسط المعاني أكثر من خلال استعمال التشبيه البليغ التي تمثل قمة الإيجاز والاختصار في اللفظ والمعاني، ويقول في بعض التشبيهات البليغة: «المحارم بحر» فشبه المحارم أو المحرمات بالبحر الواسع العميق ليبين مدى خطورة التعلق بالملذات والمحارم، وقد جرد التشبيه من الأداة ليؤكده، ومن وجه الشبه ليوسع دلالاته، فيترك الحرية في فهم خطورة انتهاك محارم الله، لذلك يعتبر التشبيه البليغ من أوجز العبارت ومن أجمل الانزياحات البلاغية.

وفي بعض المواضع يقول الإمام الأسمر ناصحًا في تشبيه بليغ آخر ابتعد به عن المألوف من التشبيهات حاملًا بين طيات معانيه جدة وقوة في اللفظ والمعنى: «غض البصر سفينة» حمل اللفظ صورتين فنيتين جميلتين، الأولى صورة الحياة وكيف تجول ببصرك فيها، ليقابلها بصورة السفينة وهي تجول في البحر، والمعنى النصي القريب غض

بصرك لتسلم في الحياة كما أن ركوبك في السفينة ينجيك في البحر، وهو معنى عميق وسحر دفين بين طيات هذا التعبير البلاغي الموجز.

وهكذا يقدم الإمام الأسمر وصيته بين اللفظ الحقيقي الواضح لتوصيل الرسالة وبين اللفظ المجازي البليغ، لتثمين الرسالة وتعميق دلالاتها، فمن الانزياحات البلاغية الكنيات الصوفية:

- كقوله: «كسر النفس»، وإن كان هو مصطلحًا مجازيًّا صوفيًّا ذوقيًّا، إلا أنه كناية عن صفة إذلال النفس واحتقارها وسجنها وعدم الاكتراث بنصحها، فمعظم الشرور منطلقها النفس المظلمة من الإنسان، وقد حذر الصوفية جميعهم من أضرار النفس ومتاعبها.

- ومن الكنايات التي تحمل مدلولًا صوفيًّا مصطلح «المريد» وهي كناية عن موصوف، وهو المتبع للأشياخ ولأهل الطريق، أخذ معناه من الورد الذي يؤخذ عن المربي أو شيخ الطريقة.

- ومن الكنايات التي شكلت انزياحات جوهرية عند الصوفية بعيدًا عن المعنى المتداول عند عامة الناس «الفقراء»، فمن هم الفقراء؟ هل هم من لا يملكون مالًا أو حالتهم مزرية؟ بالطبع هذا معنى سطحي، ولكنّ المعنى المقصود للفقراء: هم الفقراء إلى الله، إلى مرضاة الله، إلى ما عند الله، هم الأولياء، هم العلماء، هم الصالحون الذي همهم السعي لنيل ما عند الله سبحانه تعالى.

- ومن الكنايات كذلك قوله: «علم الحقيقة وعلم الشريعة» فعلم الحقيقة كناية عن موصوف وهو علم الباطن أو علم المقامات أو علم إصلاح القلوب، أما علم الشريعة فكناية عن موصوف علم الظاهر أو أركان الإسلام.

والمتبع لـ«الوصية الكبرى» يدرك على العموم قوة الانزياح اللفظي والدلالي الذي يجذبك إلى التصوف بكل ما يحمل من معانٍ ظاهرة وباطنة في قوالب نصحية تجلت فيها الأسرار والفيوضات والإمدادات، والذي يجذبك إلى تصحيح الكثير من المفاهيم المرتبطة بالشريعة قبل الحقيقة، وهو منهج النبي ﷺ الداعي إلى ترك الدنيا والتعلق بالآخرة، وهو منهج الصحابة ومنهم الصحابي سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه عندما رأى الناس منشغلين عن العلم بالدنيا، فدعاهم إلى ميراث النبي ﷺ وهو العلم، وهو منهج التابعين ومنهم الحسن الإمام الحسن البصري الذي دعا إلى الزهد عن ملذات الدنيا بعدما رأى الناس متعلقة بها، وهو منهج العلماء الربانيون ومنهم سيدي ابن عطاء الله السكندري،

الذي أحل تجربته الصوفية في حِكَمٍ حركت خواطر العامة وأذواق العلماء، وصححت الكثير من المفاهيم، موجهًا مريديه إلى السر الأعظم، وهو الاعتماد على الله في كل الأمور ظاهرًا وباطنًا، وهذا المعنى يشير إليه الإمام الأسمر في «وصيته الكبرى» بقوله: «إخواني: ولا تفرحوا بمكاشفة، ولا بمحاضرة، ولا بمشاهدة، ولا بوجد، ولا بتواجد، ولا بخمر، ولا بسكر، ولا بطيران في الهواء، ولا بخرق العادة كلِّه، ولكن يكون فرحكم بالذي خلقكم من العدم، وخلق لكم الحال الواقع بكم، ومن فرح بشيء سوى الله تعالى من هذه الدرجات وشبهها فإنه جاهل بالله تعالى؛ لأنه فارح بغير الله ﷻ، ومن أحب شيئًا وفرح به فإنه عبد له»[1]. إن كلام الإمام الأسمر مرجعه ومقصديته مرضاة الله والوصول إلى الحضرة الإلهية، وهنا يدفعنا الأمر الحديث عن فيوضاته الروحية وأثرها على المتلقين. لنقف عند الانزياحات الحقيقة في وصيته الكبرى.

الجماليات المتفردة فيضًا من المُلْقِي نحو المُتَلَقِّي

من جماليات الشعرية الصوفية الفيض الذوقي أو الفيوضات، الحاصل عن السكر، والمشاهدة، لكنها عند السادة الصوفية لا بد لها من أن تتوافق وميزان الشرع، وتتوافق وميزان الربوبية والعبودية.

أ فيوضات الإمام الأسمر الروحية:

عندما نقف مع «الوصية الكبرى» ندرك فيوضات ذوقية تضفي سحرًا وجمالية عليها، وتعطي توجيهات ربانية يحتاجها السالك إلى الله ﷻ، ومن ذلك يقول في آداب العشرة: «إخواني، فمجالسة أهل الإنكار وأهل الجهالة تذهب الأنوار كما تذهب الشمس الجليد، وعليكم بالمحبة في الفواتير وتعظيمهم وزيارتهم والتواضع لهم فهم مني وأنا منهم»، فهنا يحذر الإمام الأسمر من مجالسة المنكرين على التصوف والمتصوفين من غير دراية ولا بحث، ومن جهة أخرى يعطي ثقة لأهله من قبيلة الفواتير ما داموا على طريق القوم فهم أهل صلاح وفضل زيارتهم وتعظيمهم من تعظيم الأولياء والعلماء والصالحين، وتعظيمهم من تعظيم شيخهم، كما يبين دور الفواتير في مساندته والوقوف إلى جانبه فهم المريدون المخلصون، فهو ينصح مريديه بالنهل من فيوض مجالسة أهل الصلاح والفضل، ويحذر من مجالسة أهل الإنكار.

(1) نفس المصدر، ص 52.

وفي شروط الحضرة يقول: «إخواني، والحضرة شروط وأعذار وحقائق وفضائل وآداب وتداول، فمن شروطها الزيادة في الإيمان، ومن شروطها أن تكون خالية من النسوان، ومن شروطها ترك الغيبة والنميمة قبلها وبعدها، ومن شروطها أن تكون في موضع طاهر من النجاسة، والصواب أن تكون في مسجد ونحوه، ومن شروطها ألا يكون فيها رقص ولا تصفيق ولا صراخ، ولا تمزيق للأزرار ولا إساءة أدب»[1]، فالحضرة الصوفية هي من أساسيات الجلسات الصوفية التي تصنع لحمة روحية وقلبية وذوقية، تختلف من طريقة صوفية إلى أخرى، وما يميز الحضرة عند الإمام الأسمر الفيتوري بأنها من واجبات الطريقة العروسية، فيجب الحضور والتأدب فيها، حتى أنها تقام في المساجد. والغرض هو تربية السماع الذوقي ولمُّ الشَّمل على ذكر الله، وهذا الجانب من الإحساس يجهله الكثير، لذلك يغلب المنكرون على أهل السماع وعلى الحضرة. وسبب تعلقه بالحضرة راجع لسببين: الأول ما حصل من الفتح والجذب عند سماع «الدف» فصارت له حضرته وخصوصيته في السماع؛ والثاني: هو إيصال المعاني الدينية بأسلوب الحضرة لعامة الناس. فتشبثه بالحضرة فيض من الفيوضات التي لا تدرك إلا بكمال الذوق وحسن السماع.

ومن فيوضات الإمام الأسمر قوله في المغيبات: «وأقول: فقد تقوم الساعة عند تمام الخمسة عشر قرنًا من الهجرة النبوية، وأخبرني بها رسول الله ﷺ عند الهيام والاغتياب والحال، وشاهدتها في اللوح المحفوظ بعين القلب»[2]، وقد مر بنا قوله عند الهيام وهو التعلق والعشق للمحبوب وهو النبي ﷺ، والاغتياب أي الغيبة العقلية عن الحضور وهو معنى السكر الناجم عن خمر العشق، والشهود: أي شهود الحق وهو الله في آياته ودلائل صنعه، وأخيرًا الأحوال: التي يرتقي فيها السالك ليصل إلى درجات الكمال ظاهريًّا وباطنيًّا، وهذا الفيض يقودنا إلى فهم سليم، وهو التلميح على اشتداد قرب علامات الساعة المنذرة بقرب قيام الساعة، فعند التأمل أكثر في العبارة ندرك أن الإمام الأسمر عالم بعلوم الآلة عندما يقول: فقد تقوم الساعة عند تمام الخمسة عشر، و«قد» حرف تقليل لأنها داخلة على الفعل المضارع من غير تحقيق، فالفيوضات سليمة تتماشى وشعرية المعاني المستمد من الدراية العميقة بتعاليم الدين.

---

(1) نفس المصدر، ص42.

(2) نفس المصدر، ص 105.

وبهذا فقد أضفت هذه الفيوضات خصوصيات الشخصية الفيتورية النابعة من تربيته الصالحة، ووفائه لشيوخه وما تعلمه، فسعة المعاني الصوفية وخصوصيات المصطلح الصوفي من شعريات النص الصوفي، وبالجملة فالوصية الكبرى انزياحات وفيوضات ومعانٍ جديدة تؤصل لعمق الفهم الديني الذي نفتقده اليوم.

ب) التراسل الخطابي روحيًّا:

عناصر الخطاب المرسل والمرسل إليه والرسالة، فالمرسل هو المتكلم أو الكاتب بتوجيهاته وتجربته الفنية يصنع واجهة ذات مقاصد وأبعاد تنبعث من الخطاب، وتكبر تدريجيًّا لتبقى دليلًا عن الزمان والمكان والتاريخ، وهنا تتداعى المسؤولية الخطابية المجسدة للشفوية أو النصية أو العلاقات التواصلية ظاهريًّا وباطنيًّا في الرسالة ومحتوياتها بسمة الإبداع الذي يختلف من عنصر لآخر ومن بنية لأخرى، وبعد كل هذا يأتي المرسل إليه ليتلقى الأمر، فتكون ردة الفعل الأولية أو ما يسمى بالعملية النقدية السطحية أو العميقة. وبالأحرى نكاد نسميها القراءة والتلقي بكل جوانبها واستنتاجاتها، وبما تتركه أحكام معيارية تخلد النص وصاحبه أو تمج النص وصاحبه. وهذا يعود بنا إلى المصطلح الأول في المقال: النص شهادة ميلاد أو شهادة وفاة في التاريخ.

والواقع أن النص الجوهري والثمين «الوصية الكبرى» ثورة روحية، وهو من النصوص التي كَتَبَ الله لها القبول؛ لأنها تحمل بين طياتها طابع التوجيه والنصح وخدمة الآخر والتفكير فيه، بمقصديات لا تنتهي، دينية وإصلاحية واجتماعية وتوعوية وتربوية وصوفية. وهذه النقطة الآخرة تعطي جماليات وأبعادًا أخرى للنص منها: الخصوصية والرمزية والجمالية التناصية التواصلية، جعلت منه تعبيرًا عن حقيقة علم التصوف، كتجربة تغيُّرِ النفس والقلب والعقل والجسم. فتسير النفس إلى الله آمنة مطمئنة، لأن كلام المتصوفة لا يخرج عن هذا النطاق يقول الأصفهاني[1]: كلام المتصوفة على ثلاث أنواع: فأولها إشارات في التوحيد، وكلام في المراد والمراتب، وكلام في المريد وأحواله. وأول أصولهم العرفان ثم إحكام الخدمة، وأركانهم أربعة: معرفة الله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، ومعرفة وساوس العدو ومكائده، ومعرفة الدنيا وغرورها وكيفية الاحتراز منها، ثم ألزموا أنفسهم دوام المجاهدة وشدة المكابدة وحفظ الأوقات

(1) ينظر: حلية الأولياء، أبو نعيم الأصفهاني، ص23-24.

واغتنام الطاعات. وهذا ما تلامسه وأنت تستمع إلى الإمام الأسمر يخاطبك من خلال كتبه، وخاصة كتابه «الوصية الكبرى»، فهو نص صوفي متشبع بالثورة الروحية التي هي من خصائص الشعرية النصية، فالنص من خلال لغته وخطابه متشبع بالإيمان بالله ﷻ، لأن لغة النص لا تحمل أسرار المتخيل وحده، وإنما تحمل أسرار الذات التي تقوم على الإيمان الذي نصل إليه بالقلب أو الحدس أو الإشراق أو الرؤيا، فصارت ذات عارفة تزيد ارتباطًا بتجربة خاصة خارج العقل والنقل، والحقيقة ليست دائمًا ما يقال، وهي دائمًا ما لا يقال[1].

والخطاب الصوفي جامع ومتسلسل ينقله جيل عن جيل، بأدب واعتراف بالفضل، وهو ميزة واضحة للتواصل الروحي الممتد عبر السلسلة الصوفية، وبالخصوص ما جاء في «الوصية الكبرى» يعبر عن عمق العلاقة بين الإمام الأسمر وشيوخه، ومن جهة أخرى بينه وبين ومريديه، بخطاب مشحون بالحضور الروحي الواثق والذي يتوارثه السادة الصوفية.

ويلاحظ وجود التراسل الخطابي بين الإمام الأسمر وشيوخه، من خلال نقله لوصاياهم والإشادة بمكانتهم والتشبث بهم، ومنه قوله: «إخواني: فإن أردتم التوبة والورد فعليكم بالمشايخ العروسية أو الشاذلية، فمن لم يتعرس أو يتشذل فأحواله تتبدل»[2] ويقول عن شيخ شيوخه الشيخ أحمد بن عروس: «وكان شيخنا ابن عروس مشاركًا للطريقتين، وهما العروسية والشاذلية، فالعروسية أخذها للإرادة والشاذلية أخذها للتبرك، فأما طريق الإرادة فقد أخذها عن العجمي من شيخ إلى شيخ إلى رسول الله ﷺ، وأما طريق التبرك فقد أخذها عن الشيخ الفقيه الإمام العالم العلامة القطب الزاهد أبو عبد الله سيدي محمد المجاهدي»[3]. فهو متمسك بالطريقة العروسية الصوفية على نهج التربية الروحية والارتباط الروحي، من خلال ضوابطها وأورادها، ومن جهة التبرك يؤكد انتماءه للطريقة الشاذلية المنسوبة لأبي الحسن الشاذلي والتي لها أورادها وأحزابها. ويزيد تأكيده لوفائه لشيوخ الطريقة العروسية، بقوله: «قال شيخنا الدينوري: قد أوصاني شيخي على حفظ مشايخ الطريقة، وقد كتبهم لي بماء الفضة وبماء الذهب تعظيمًا لقدرهم وتكريمًا»[4].

(1) الصوفية والسريالية، علي أحمد سعيد، دار الساقي، 2010م، ص191.
(2) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص61.
(3) نفس المصدر، ص63.
(4) نفس المصدر، ص65.

ويوصي وصية جامعة لمعرفة قدر المشايخ والعلماء وعدم نكران فضلهم، عندما يقول: «إخواني: فاتبعوا مشايخكم واشكروا فضلهم لأنهم هم أقطاب الدنيا وعمادها وأوتادها، فمن استغاث بهم أغاثه الله، ومن توسل بهم عصمه الله، ومن تحصن بهم حفظه الله، ومن زارهم أعطاه ما اشتهاه، لأنهم هم العروة الوثقى التي لا انفصام لها»[1]، وفي هذا توجيه جامع للرعية لمعرفة فضل المشايخ؛ لأن برهم واجب إلى جانب بر الوالدين. وفي هذا السياق يبين لطافة وحنان العلاقة بينه وبين شيخ شيخه الشيخ فتح الله أبو رأس، معبرًا على القرب والمحبة التي كانت تجمعهما بقوله: «وكان يحبني كثيرًا ويقول لي: يا ولدي، وكنت أنا أقول له: يا جدي أبو رأس»[2]، ويوسع دائرة اتصاله وإخلاصه لطريق القوم بقوله: «قال شيخنا الدوكالي: فمحي الدين بن العربي والإمام البوصيري والإمام الجزائري، والإمام زروق ركن من أركاننا، فإن أردتم أن تلبسوا الأنوار فزوروهم ولو مرة في أعماركم». ومن هذا ندرك صدقه وإخلاصه والتزامه. فكان خير رسول وخير سفير لمعاني القوم. وأما العلاقة التراسلية الخطابية بين الإمام الأسمر ومريديه، فتتجلى بكثرة في عديد المواضع من «الوصية الكبرى» عندما يناديهم: «إخواني»، ثم يعطيهم الضمان بمناداته عند الشدة: «وإذا نزلت بكم مصيبة مثل اللصوص والسوارق أو ظالم غشوم فاتجهوا إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ وتوجهوا لناحيتي وقولوا: يا الله ويا رسول الله ونادوني يا عبد السلام ويا عباد الله الصالحين فإن الله تعالى يهوِّن ما نزل بكم»[3]، وفي هذا دلالات روحية منها الأمان لأتباعه بحضوره روحيًّا عند النجدة. كما تعبر النصائح التي يقدمها لمريديه ولعامة العامة على سلامة أفكاره وأهميتها رغم ما تحمله من شطحات تخص القوم وأهل الأسرار.

أما عمق التراسل الروحي وامتداده في الأتباع من بعده، فيتجلى في استمرار الطريقة العروسية، التي أضاف لها سر الحضرة وسحرها الذي يمتد إلى الأتباع. والأوراد والأحزاب: وهي أربعة الحزب الكبير، وحزب الطمس، وحزب الخوف، وحزب الفلاح. وهي أحزاب تشتمل على أذكار وأدعية وآيات الغرض منها تربية الروحية وعدم الخروج عن الطريق[4].

(1) نفس المصدر، ص69.
(2) نفس المصدر، ص75.
(3) نفس المصدر، ص55.
(4) نفس المصدر، ص (88 – 96)

يمتلك الإمام الأسمر من خلال كتابه «الوصية الكبرى» تواصلية خطابية قوية ممتدة من مشايخه إلى مريديه، جعلت منه شخصية لها وزنها وصيتها وبعدها الصوفي، وأجمل ما في خطاباته ونصائحه هو معالجة الروح في طريق الوصول بها إلى معرفة رب العالمين ذكرًا وملازمة وتقوى وصلاح، وهي الهمة العالية التي يفتر كبار الصوفية يدافعون ويموتون من أجلها جهادًا للنفوس وإصلاحًا للطبائع وتغييرًا للواقع المريض.

تستمر جماليات الشعرية الصوفية في «الوصية الكبرى» استمرار الحياة بسبب قوة النص وعلاقاته الروحية والقلبية والعقلية، المشحونة بالمصطلحات الصوفية والرمزية الصوفية، والثورة الروحية الصوفية، والتأصيل الدين، والتي تحتاج إلى مزيد من القراءة والتمعن والتدقيق والتفكيك وحسن تلقي. لأن الكتابة الصوفية لها خصوصية الزمان والمكان والتاريخ والحالة السلوكية، فالشعرية الصوفية «تشكلت دينيًّا، تاريخيًّا، اجتماعيًّا بمصطلحات خاصة، وجمالية أدبية عامة، تفجرت منها الرمزية والثورة الروحية، فكانت شعرية مختلفة بحسب الحالات والأذواق. من مظاهرها اللغة الصوفية، الذوقية، والإشارية، المتشبعة بمعاني القرآن والأحاديث النبوية، والتجربة الذاتية، والرؤيا الفلسفية»[1]. ويبقى نص «الوصية الكبرى» دفين بالأسرار وبحاجة إلى مزيد من القراءة والاستنطاق. تطبيقًا للمناهج السياقية أو النسقية أو نظرية القراءة والتلقي، فالاقتباس والتناص حاضران بقوة في «الوصية الكبرى» وبهما تظهر الملكة الأدبية عند الإمام الأسمر.

خاتمة:

لقد حقق الإمام الأسمر في نصه النصحي الصوفي الجميل «الوصية الكبرى» قاعدة تجديدية عروسية دعمت الفكر الصوفي التربوي المستمد من القرآن والسنة والسلف الصالح، كما أسس مدرسة روحية يتوارثها المريدون والأجيال بعده في بناء ذواتهم وتحقيق كمالهم ظاهريًّا وباطنيًّا. فبهذا قدم خدمة لعلم التصوف من طريق النهوض في طريق الهمة العالية الموصلة إلى الله. إذا علمنا أن نظريات التصوف بكل أنواعها بنيت على مقاصد منها: القصد السامي توحيد الله ومعرفته، أو القصد اللغوي التأويل (الظاهر

---

(1) شعرية النص الصوفي في الحكم العطائية، محمد بوزيزاوي، الجزائر، مذكرة تخرج لنيل شهادة الدكتوراه. ص 154.

والباطن). فتغلغل التصوف في الحياة الإنسانية والحياة الاجتماعية متشكلًا تدريجيًّا في حضن التاريخ والدين والحرية الفكرية، معطيًا نزعة صوفية إيجابية ساهمت في ميلاد الوعي الاجتماعي، وتغيير الواقع الاجتماعي[1]، فهل غيَّر الإمام الأسمر بتصوفه حياة مجتمعه ونظرته؟.

بعد اطلاعنا على جوانب من حياة الإمام الأسمر وقراءة كتابه «الوصية الكبرى» التمسنا الإخلاص والصدق وحب الخير للناس يفيض من نصاحه، وهو ولي من أولياء الله، وسر من الأسرار الكونية، فكيف لا يفيض سره على مريديه وأتباعه. وبهذا نخلص إلى بعض النتائج المستوفاة من هذه الرحلة الروحية الربانية، ومنها:

- النصوص الأدبية ملكة فردية وجماليات ذوقية تؤثر على المتلقي شعريًّا أو أسلوبيًّا بعلاقات يحددها اللفظ والمعنى، أو المعنى ومعنى المعنى ليفرض حضوره ويحقق وجوده. وقد تجلت نصوص كثيرة على مر التاريخ والأزمنة تاركة بصمتها وحضورها، لم يستطع أحد نكران فضلها وفنيَّتها، لها مستويات الكتابة الصوفية الفكرية، وبعضها له مستويات الكتابة الصوفية التربوية، وبعضها له مستويات التجربة الذاتية والمعاني الدينية والحرية الفكرية والرمزية اللفظية والهمم الربانية. وبعضها له مستويات الشهود والغيبية والسكر والحال والمقام، وهنا تبدو الشعرية النصية النابعة من الذوق الإنساني أو الذوق الفني، المصقولة بالقراءة والتأملات والمحققة للنظرة الثاقبة والأهداف المنشودة، والقيم المتنوعة.

- الإمام الأسمر من كبار الصوفية ذو شخصية دينية قوية انتصرت للحق وتصدرت للنصح والتوجيه والإصلاح، وصححت الكثير من المفاهيم في طريق السلوك إلى الله كتابةً وتنويعًا في الأساليب، خاصة في أشعاره وحضرته التي تعتبر أسلوبًا تربويًّا تعليميًّا رائعًا ابتكره لتوعية الناس وترسيخ تعاليم دينهم والمعاني المصلحة للنفس وللمجتمع.

- «الوصية الكبرى» كتاب حمل بين طياته معالم الطريقة العروسية، بأسلوب نصحي وقالب صوفي وفكر تربوي واضح، مع التأصيل للمعاني الدينية الحاملة للعاطفة الدينية السمحة المنبعثة من صفاء القلب وسعة الفكر وطيبة النفس وحب الخير للمسلمين.

- الانزياح الأسلوبي ظاهر في الغموض الغالب على كتاب «الوصية الكبرى»، فهي مليئة بالمعاني السمحة الجليلة التي يجب أن نتعلمها ونتربى عليها، والتي صارت

(1) تراثنا كيف نعرفه، حسين مروة، مؤسسة الأبحاث العربية، ص351 و378.

غامضة وغير مألوفة في زماننا هذا، والسبب هو طغيان الماديات وغياب الروحيات، طغيان التربية المبنية على النظرة الدنيوية وغياب التربية المبنية على القيم الإسلامية الإيمانية الإحسانية. وسبب الغموض في بعض الجزئيات أن الكاتب دافع عن منهجه التربوي الصوفي، والسبب الآخر في الغموض هو النظرة التشاؤمية عن الصوفية وكتاباتهم، حتى صار من ينظر إلى مثل هذه الكتابات يشعر بالغربة. أما الانزياح البلاغي فهو اللغة الشعرية الحاضرة في «الوصية الكبرى» في التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز. وفي المعنى التركيبي النحوي والمصطلح الصوفي الذي يجسد جماليات اللغة الشعرية.

- إن شدة تعلق الإمام الأسمر بالله وتمسكه بطريق القوم مع حرصه على اتباع الكتاب والسنة، جعلته يفرض وجوده، ويفيض بمعاني القوم، واتخاذه من الحضرة أسلوبًا للتربية والتعليم، وواجبًا من واجبات الطريقة العروسية، والغرض منها هو تربية السماع الذوقي ولمُّ الشَّمل على ذكر الله وقيام الساعة وغيرها، فهي فيوضات سليمة تتماشى وشعرية المعاني المستمد من الدراية العميقة بتعاليم الدين، إلا أنَّ لها خصوصيات الشخصية الفيتورية النابعة من التربية الصالحة والوفاء.

- أجمل ما في خطابات الإمام الأسمر هو النصيحة لله ورسوله، مع ملازمة التقوى والصلاح، والتمسك بالطريق العروسية. وهذا ما جعله شخصية مؤثرة إضافة وتغييرًا يستمر ذكرها استمرار الليل والنهار، نفعنا الله به.




المعاني والمغاني في أناشيد الطريقة السلامية في تونس

د. فتحي زغندة
خبير وباحث في الموسيقى
لدى العديد من المعاهد العربية والأجنبية – تونس

ملخص:

تبحث هذه المقالة جذور الفن السلامي في تونس، ونشأته ومراحل تطوره، وواقع انتشاره، والأنماط الموسيقية للفن السلامي العروسي كجانب من جوانب التراث الروحي الموسيقي الذي عرفت البلاد التونسية، وازدهر فيها. ويبين كذلك طريقًا من طرق التواصل الثقافي والوجداني بين الشعوب ووصلة بين أقطارها، خاصة بين تونس ليبيا، إذ نشأت الطريقة العروسية في تونس على يد الشيخ أحمد بن عروس نهاية القرن التاسع الهجري، وانتشرت واشتهرت على يد الإمام عبد السلام الأسمر في ليبيا، وساهمت تونس من بعد على رواد الفن السلامي في ازدهاره وتطويره.

كلمات مفتاحية:

الأناشيد، الموسيقى، السلامية، الفن، البحور.

مقدمة:

تكوَّن في البلاد التونسية على مدى العصور رصيد هامٌّ من الأناشيد والأذكار ذات الصِّلة بالطُّرق الصُّوفية المختلفة، وأصبحت تشكِّل جانبًا ممَّا يُسمَّى «مالوف الجدِّ»،

ويقابله «مالوف الهزل»، وتنطق أيضًا «هلس»، بالنسبة إلى التراث المتّصلة مضامينه بالأغراض الدنيوية. وقد درس عدد من الباحثين التونسيين والأجانب هذه الطرق من حيث ظروف نشأتها وانتشارها واتّجاهاتها الفكرية والعقائدية والفلسفية، ومن هؤلاء يمكن ذكر محمد البهلي النيال مؤلِّف «الحقيقة التاريخية للتصوُّف الإسلامي»[1]، والصادق الرزقي صاحب كتاب «الأغاني التونسية»[2]، وحسن حسني عبد الوهاب الذي خصَّص فصولًا للموسيقى بصفة عامَّة في كتابه «ورقات»[3]، ولم يعتن أغلب الباحثين بالجوانب المتعلِّقة بالموسيقى وتقنيَّات الإنشاد وغيرها من الجوانب الفنيّة الصرفة.

وتهدف هذه المداخلة إلى التذكير بجانب من سيرة الإمام سيدي عبد السلام الأسمر، بحسب ما توفَّر من مراجع في المجال، وبأهم توجُّهاته الإصلاحية من خلال ما تضمَّنته أشعاره المجمَّعة من قبل الباحثين، ومن آخر ما صدر في هذا المجال «سفينة جمع البحور للشيخ القطب عبد السلام الأسمر الفيتوري» بتحقيق د. محمد البسكري ود. ومحمد أنيس الحمادي[4]، كما سنعرِّف بالطريقة السلامية العروسية وظروف انتشارها، وأقسام الإنشاد فيها وخصائصه الفنية استنادًا إلى التسجيلات التي جمعناها بأداء نخبة من أشهر المنشدين من التونسيين، وممَّا نشر في الموضوع، ونطرح السؤال حول إن كان الرصيد المتوارث من تلك الأناشيد عرضة للتغيُّر نتيجة لتطوُّر وسائل الاتصال والتواصل الاجتماعي.

التصوف والفن

لن نُفَصِّلَ في الأصول التاريخية واللغوية للتصوف ومعاني مفرداته واصطلاحاته وأعلامه، فهذا شأن انشغلت به العديد من الدراسات، وانتهت فيه إلى نتائج مختلفة، لكن الواقع يؤكد الأثر العميق للتصوف في مختلف مناحي الفكر العربي والإسلامي، كما

(1) نشرته مكتبة النجاح للنشر والتوزيع، تونس، 1965م.

(2) نشرته الدار التونسية للنشر عام 1967م.

(3) ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية، حسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار، تونس، 1972م.

(4) صدر عن معهد الموسيقي العربية والمتوسطية، تونس، 2023م.

تشهد بذلك العديد من الدراسات المعنية بتاريخ الحضارة الإسلامية، كما أن المنتج الغزير للتصوف في الأدب والفكر والاجتماع والدين وغيره يشهد بذلك. وما يهمنا هو ما يتصل بموضوع هذه المقالة، وأعني الجانب الفني والروحي في التصوف، وقد لا نحتاج الكثير من المقاربات بين التصوف والفن، فلكليهما علاقة وطيدة بالذوق الذي يشكل علاقة الربط بينهما في الأساس، ولذا أفاد كل منهما الآخر.

وبصرف النظر عن الآراء المتعدِّدة والمتضاربة المتعلِّقة بموقف فقهاء المسلمين من الغناء بين محلِّل ومحرِّم، فإنه يمكن القول أن التصوف وظف الفنون في إطار لم يخرج فيه عن تعالم الشريعة الإسلامية، فالتصوف بالأساس، بحسب بعض الآراء، تكون كرد فعل على حالة الترف والمجون التي صاحبت حياة الناس في بعض فترات التاريخ، وعليه ابتعد المتصوف بشكل كبير عن ممارسة الفنون الماجنة أو المخلة بالآداب، فجاء منتجهم الفني بصوره وموضوعاته غاية في الانضباط والذوق الإنساني، وللمحافظة على هذا الانضباط نجد أنهم ألفوا كتبًا ورسائل بيَّنوا فيها قواعد السماع، ومنها ما كتبه أبو حامد الغزالي في (إحياء علوم الدين) في فصل خاص سماه «آداب السَّماع والوجد».

يقر مؤرخو الحضارة الإسلامية وتاريخها أن المتصوفة قدموا الكثير للفن، كما أن الفن تأثر بشكل كبير بمنازع الصوفيين الذوقية، وبخلاف ما يعتقد الكثير من أن الصوفيين كانوا نساكًا منقطعين عن دنياهم، إلا أننا منتج بعضهم غاية في الذوق والجمال، كشعر الحاج وابن الفارض في الحب الإلهي الذي شكلوا به إضافة هامة في الشعر والأدب الإسلامي، وكذلك في الموسيقى كموسيقي جلال الدين الرومي الذي نجد أنه على الرغم من بساطته إلا أن نفاذه إلى العمق ساعد في انتشاره في الطبقات الدنيا من جمهور الناس، ولعل هذا العامل كان السبب أيضًا في انتشار أشعار وموسيقى الإمام عبد السلام الأسمر في أوساط عامة الناس.

انتشار الطرق الصوفيَّة في تونس

عرفت تونس التصوف مع بدايات ظهوره في المشرق الإسلامي، لكنه لم يتبلور على مستوى إنتاج الشخصيات الصوفية البارزة إلا في القرنين الرابع والخامس الهجريين،

حيث نشطت شخصيات هامة لا تزال تلقى اهتمامًا واحترامًا كالشيخ محرز بن خلف (ت413هـ/ 1022م) وغيره. وتاليًا اجتذبت الحاضنة العلمية الكبيرة في تونس العديد من الرموز والشخصيات الصوفية العربية والإسلامية، كأبي مدين الغوث (ت594هـ/ 1198م) التي مر بها وأقام فيها لفترة، والشيخ الأكبر محيي بن عربي (ت638هـ/ 1240م) الذي صحب فيها أحد أكبر صوفييها وهو الشيخ عبد العزيز المهدوي (ت621هـ/ 1224م)، وعبد الحق بن سبعين (ت669هـ/ 1269م). وفي هذه الفترة نشطت حركة التصوف، وبدأت تظهر فيها طرق صوفية، ولعل أهمها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي (1196-1258م) والتي تعد أهم الطرق الصوفية في تونس إذ لعب دورا كبيرا في ترسيخ التصوّف فيها، وكذلك ظهرت الطريقة العروسية الذي أخذها الشيخ أحمد بن عروس (ت868هـ/ 1463م) أحد أكبر أقطاب المعرفة الصوفية في تونس، والطريقة الشابية التي أسسها الشيخ أحمد بن مخلوف (ت897هـ/ 1492م)، وغيرها من الطرق.

وتقوم هذه الطرق في مجملها على أسس تربوية وفقًا لنظريات مؤسسيها، ولكل طريقة منهاجها الخاص الذي يحوي أحزابًا وأذكارًا واجتماعات خاصة وعامة. وعلى سبيل المثال فلأبي الحسن الشاذلي أربعة عشر حزبًا، أكثرها تداولًا بين أتباع طريقته حزب البرِّ، ويسمَّى أيضًا حزب الدعوات، والحزب الصغير ويسمَّى حزب البحر، وحزب الحمد، ويسمَّى حزب النور، وحزب الفتح، ويسمَّى حزب الأسرار، وحزب التوسُّل جمعت كلها في كتب، منها كتاب «المفاخر العلية في المآثر الشاذلية» للشيخ أحمد بن محمد بن عياد الشافعي[1]، وتتضمَّن هذه الأحزاب معاني التوسُّل وطلب اللطف والاستغفار والتجلِّي وما إليها من المعاني الصوفيَّة، ولكلِّ حزب من هذه الأحزاب ذيل يسمَّى «وظيفة» وهو جملة من الأدعية والابتهالات تختم بها قراءة الأحزاب.

(1) نشر في المطابع الموحدة، تونس، 1986م.

الطريقة العروسية والإمام الأسمر

أسسها في تونس الشيخ أحمد بن عروس في القرن التاسع الهجري[1]، وتسلسل عبر رجال السند العروسي، فقد خلفه فيها تلميذه الشيخ أبو راوي الفحل دفين سوسة، والفحل جاء من بعده الشيخ أحمد أبو تليس القيرواني[2]، وأبو تليس جاء من بعده الشيخ فتح الله أبو رأس القيرواني[3]، وأبو رأس جاء من بعده الشيخ عبد الواحد الدوكالي في مسلاتة بليبيا[4]، والدوكالي جاء من بعده الإمام عبد السلام الأسمر أشهر أقطاب هذه الطريقة. وقد شكلت الشخصيات الثلاث الأخيرة امتزاجًا ثقافيًّا فكريًّا صوفيًّا كبيرًا بين تونس وليبيا، إذ تذكر مصادر التاريخ أن أبو تليس وأبو رأس هاجرا من القيروان إلى منطقة بني وليد في ليبيا، وأقاما فيها، وهناك التقى الدوكالي شيخه أبو رأس، وسلك على يديه الطريقة العروسية، كما أن الإمام الأسمر التقى هؤلاء الثلاث واستفاد منهم على الرغم من أن سلوكه للطريقة كان على يد الشيخ الدوكالي.

وبالعموم فالعروسية اشتهرت على يد أكبر أقطابها الإمام الأسمر المولود سنة 880هـ/ 1475 بمدينة زليتن بليبيا، والمتوفى بها سنة 981هـ/ 1573م، وبحسب مصادر ترجمته وسيرته[5] فنسبه يرتفع إلى الأدارسة الحسنيين الأشراف، وكذلك من جهة أمه السيدة سليمة الدرعية.

ووفقًا لذات المصادر المعنية بسيرته فقد تعلم على يد عمه السيد أحمد الفيتوري الذي احتضنه بعد وفاة والده، وبعد أن حفظ على يديه القرآن الكريم وأخذ بدايات العلوم، انتسب إلى مدرسة أستاذه الشيخ الدوكالي الذي فتح له باب الانتساب إلى التصوف

(1) تنظر ترجمته في: موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ 644م إلى سنة 1421هـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، ج1، ص357.

(2) تنظر ترجمته في: نفس المصدر، ج1، ص361.

(3) تنظر ترجمته في: نفس المصدر، ج1، ص364.

(4) تنظر ترجمته في: نفس المصدر، ج1، ص369.

(5) للمزيد عن سيرته، ينتظر على سبيل المثال:

تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، الدار الثقافية، بيروت، 1966.

القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1992م.

مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، لجنة الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن، 2022م.

رسائل الأسمر إلى مريديه، مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.

والانخراط فيه، إذ لازمه لمدة سبع سنوات، وتخرج في مدرسته، ليبدأ مشواره الدعوي الصوفي من خلال زاويته التي أسسها في مسقط رأسه بمدينة زليتن إلى أن توفي ودفن بها.

ومن الضروري أن نلفت الانتباه إلى أن التراث الشعري والأدبي الضخم الذي تركه الإمام الأسمر، قد توفر على الكثير من التفاصيل في حياته، فعلى سبيل المثال جاء في بعضها ذكرًا للكتب المعتمدة لديه في تدريس بعض العلوم، يقول وهو يوجه نصيحته لبعض من خالفوه ليعرفهم بالمنهج العلمي لديه:

صحِّح إيمانك واقرا في النحو وكذا الألفية

واحفظ موازين الشعرا وعلم العروض الكليَّة

ومختصر خليل وشراحه والتحفة واللاميَّة

وهو يشير في هذه الأبيات إلى «ألفية ابن مالك في النحو» لمحمد بن عبد الله الطائي الأندلسي المتوفى 1274م، وإلى «مختصر سيدي خليل» في الفقه المالكي لخليل بن إسحاق المصري (ت1364م)، والأرجح أن المقصود باللامية «لامية الأفعال» في الصرف لابن مالك الأندلسي وهي أرجوزة تتضمَّن قواعد تصريف الأفعال، أما «التحفة» فهي في الغالب «تحفة الحكام نكت العقود والأحكام» للقاضي محمد بن عاصم (ت876م).

وفي قصائد أخرى يتحدث عن رحلته إلى تونس وإقامته في جبل زغوان بتونس، وإن لم يذكر المدة التي قضاها فيه، إلا أن مصادر سيرته تفصح عن ذهابه إلى جبل زغوان ضمن رحلة سياحة صوفية أقام فيها بالجبل للتعبد بعد أن أكمل دراسته على شيخه الدوكالي، وفيها يقول:

أنا تركي جبل زغوان مرقب ومشوّف وعالي

وأنا نظير وادي مليان إذا احتمل في الليالي

وبعد تلك السياحة، كما تذكر المصادر، عاد إلى مسقط رأسه بزليتن قبل أن يبدأ رحلة تنقل جديدة بين عدة مناطق، منها طرابلس التي أخرج منها بعد أن صار له فيها أتباع يتلقون حول «الحضرة» التي كان يقيمها مؤسسة على الأناشيد والقصائد والمواعظ، ما جلب له الحسد فرمي بالزندقة، وشكاه الفقهاء إلى والي طرابلس، فأمر بنفيه وإخراجه ليقيم فترة في جبل آخر، وهو جبل سوف الجين بمنطقة بني وليد، شرق طرابلس، ويصور لنا في قصائده ظروف إخراجه من طرابلس، قائلا:

إذا ظلم الأمير وكاتباه وعمّ الحسد في كلّ البلاد
وقاضي الحكم بات في هواه وأظهر بالفجور وبالعناد
فويل ثمّ ويل ثمّ ويل لكلّ فقير من قاضي البلاد
أقول أقول يا وحشتاه لا يخلو فقير من النكاد
من البلقاء يا أخي خرجنا وكلّ مقيم يرحل باعتياد

ومن المهم أن نذكر أنه كان من أكثر الصوفيين إنتاجًا للشعر بمختلف أنواعه وأغراضه، كالمديح والشكوى والاستغاثة وتصوير ظروف محنه التي يمر بها. وقد نقل لنا الشيخ العلامة أحمد القطعاني، وهو المعني بالتاريخ الصوفي في ليبيا، إحصائية لأشعار الإمام الأسمر، فقال: «كان الشيخ عبد السلام الأسمر مكثرًا من الشعر الصوفي، وينسب له 700 قصيدة عروضية باللغة العربية الفصحى، و400 مقطعة باللسان الدارج، و800 على موازين الحسن الششتري، و500 على موازين الجعراني، وعدد لا يعلمه إلا الله من الأشعار الملحونة»[1]، وعن بعضها يقول: «ولعل أطولها المقطعة المسماة:«سلسلة الفروع» التي تشتمل على ما يزيد عن 800 بيت من الشعر، تليها السلسلة الجوهرية أو الجوهرة على اختلاف في التسمية التي تبلغ أبياتها:551 بيتًا من الشعر»[2]. ويلفت إلى بعض خصائص اشعار وقصائد الإمام الأسمر قائلًا: «قلما تجد من لا يعرف منها واحدة أو أكثر؛ وذلك لسهولتها وبساطتها وقربها من أفئدة وعقول من قيلت لهم، وهذا هو مقصد الشيخ رضى اللّه عنه، إذ سهولة إدراكها والعمل بما بها من نصائح وتوجيهات متوقف على تداولها وانتشارها»[3].

إذًا ترك الإمام الأسمر تراثًا أدبيًا وشعريًا ضخمًا فصيحا ودارجًا، حافلًا اختلفت أشكاله وأساليب نظمه بمعاني الصلح مع الله تعالى، وتضمَّنت تضرُّعات بها تحيا القلوب، ومدائح لسادة من الرجال الأتقياء ولسيدات صالحات ينال باقتدائهم المريدون الخير في الدنيا والآخرة. وكتبت أغلب الأشعار باللهجة العامية ولا تخضع وجوبًا للبحور الخليلية المضبوطة في علم العروض، ويذهب المريدون إلى اعتبارها خاضعة لأوزان القلوب العامرة بالتقوى والمشاعر النقيَّة.

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، 378.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص72.

الحضرة السلامية العروسية في تونس

وتتضمَّن الطريقة العروسية، إضافة إلى البحور، «أحزابًا» للأسمر، ضمَّنها أهمَّ توجُّهاته لإصلاح ما فسد من الدين الإسلامي الحنيف، معتبرًا إياها سلاحًا لإصلاح المجتمع الإسلامي في أبعاده السياسية والروحية والاجتماعية.

وتتكوَّن أعمال الطريقة، كما تؤدَّى في حلقات الذكر في تونس، من الأقسام التالية:

1- قسم يبدأ بتلاوة سورة الفاتحة من القرآن الكريم، تليه قراءة أحد «أحزاب» الإمام الأسمر، كالحزب الكبير وحزب الخوف وحزب الطمس وحزب الفلاح، وهي أحزاب صوفية تشبه غيرها من أحزاب الطرق الأخرى. ويختم هذا القسم بقراءة «وظيفة» الإمام الأسمر.

2- قسم ثانٍ يؤدَّى إنشادًا ويكون مرافقًا أو غير مرافق بالآلات وخاصَّة منها «البندير»، ويتضمَّن هذا القسم على التوالي:

أ- إنشاد جانب من «السلسلة الذهبية» للإمام الأسمر، وهي أرجوزة (من بحر الرجز) تعدُّ تسعًا وسبعين بيتًا، تضمنت ذكر عدد هامٍّ من شيوخ ناظمها ومن المتصوِّفين، وكأنَّها سلسلة إسناد، طالعها:

يقول راجي العفو والغفران ... عبد السلام ابن سليم الفاني

الحمد لله الذي هدانا ... إلى طريق الخير واجتبانا

ب- إنشاد جانب من «سلسلة الفزوع» وهي قصيدة مطوَّلة باللهجة الدارجة بها ما يناهز الثمانمائة بيتًا كما أسلفنا في نقلنا عن الشيخ القطعاني، على أنَّه لم ينشر منها أكثر من مائتين وستين بيتًا عند الشيخ محمد مخلوف في «تنقيح روضة الأزهار»[1]. وتعني كلمة «فزوع» الاستغاثة، وجاء بالسلسلة ذكر لعدد كبير من الأولياء والصالحين الذين يستنجد بهم للتغلُّب على ما يواجهه من صعوبات في طريقه، واستهلَّت «السلسلة» بالبيتين التاليين:

يا طبيب الأنفاس ... بالدواء داويني

يا مثبّت الأغراس ... ثبتني على ديني

(1) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص143.

ج- إنشاد القسم الأخير من «سلسلة الفزوع».

د- إنشاد «الصلاة على النبي» ومعناها ترديد: «اللهم صلِّ على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه»، يرفق بقصيدة في مدح الرسول ﷺ على لحن في إيقاع سريع، ثمَّ تتلى الفاتحة. وإثر ذلك يأخذ كلُّ منشد آلة «البندير» لأداء القسم الموالي، ويتكوَّن من:

أ-إنشاد مجموعة من «البحور» (مفردها «بحر») وهو مصطلح خاص بالطريقة السلامية يطلق على أشعارها باللهجة الدارجة تدور معانيها حول الوعظ والتحقير من ملذَّات الحياة ومدح الرسول ﷺ وشيوخ الطريقة وغيرها من المعاني ذات البعد الديني والتعبُّدي.

ويشتمل تراث السلامية على عدد وافر من «البحور» جمع أغلبها في «سفاين» (مفردها «سفينة») وهي مخطوطات يحتفظ بها عادة شيوخ الطريقة، وتشكِّل «البحور» القسم الرئيسي في تراث السلامية.

ب - «الشطحة»: وهي مقطوعة في شكل «البحر» من الناحية الشعرية تبنى على إيقاعات تفوق في سرعتها الإيقاعات المستعملة في إنشاد «البحور».

ج- «الختم»: لا يختلف هذا القسم عن سابقيه إلا بارتفاع نسقه، حيث يكون في إيقاع أسرع ممَّا سبق.

د- «التهليلة»: اشتقَّت هذه التسمية من اسم «الله» جلَّ جلاله، وتصاغ في شكل جملة موسيقية بسيطة في إيقاع تبلغ فيه سرعة النسق ذروتها، وتكرَّر عديد المرات، وتختم بها وصلة الإنشاد للسلامية في جوّ مشحون يصل فيه المنشدون إلى ذروة الطرب والوجد.

العناصر الموسيقية في الإنشاد

وضع لحن «السلسلة الذهبية» الشيخ محمَّد بن سليمان (1875-1949)، وكان شاهد عدل وخطيبًا بجامع بإحدى الضواحي الجنوبية لمدينة تونس، واشتهر بجمال صوته وحسن أدائه المركَّز وبشغفه بالمدائح السلامية. وجاء لحن «السلسلة الذهبية» في «طبوع» «المالوف» مثل الحسين والرمل ورصد الذيل والعراق، وذلك بحسب الروايات التي تناقلها بالتواتر شيوخ الطريقة، والتي يفوق الإنشاد فيها العشرين بيتًا، ومن بين من أنشدها الشيخ احميدة عجاج (توفِّي في سبعينات القرن 20).

وينبني لحن «سلسلة الفزوع» على فنِّ الارتجال، فالجمل الموسيقية وليدة قدرة المنشد على التصرُّف في الألحان حسب ما تجود به قريحته وقدرته على التعبير، وتصاغ الارتجالات في «الطبوع» المستعملة في الموسيقى التقليدية الدنيوية (المالوف الهزل).

وتبرز «الطبوع» التونسية وكذلك المقامات الشرقية في الألحان التي يرتجلها شيخ المنشدين على أبيات بالفصحى، وهكذا يمكن التأكيد على أنَّ القسم المشتمل على «السلسلة الذهبية» أو «سلسلة الفزوع» بأختامها وارتجال أبيات بالفصحى يعتمد على الخصائص المقاميَّة للموسيقى التقليديَّة ذات الأغراض الدنيويَّة، إلَّا أنَّه يختلف عنها من حيث عدم الاعتماد على آلات مصوِّتة كالعود ونحوه، بما يجعل الإنشاد غير مرتبط بطبقة صوتيَّة معيَّنة، بل يترك للمنشد حريَّة اختيار الطبقة التي تتلاءم مع إمكانيَّاته الصوتيَّة، ويلاحظ أنَّ جلَّ المنشدين يؤدُّون الألحان في طبقات مرتفعة، ولا يحترمون في الغالب تسلسل «الطبوع» أو المقامات عندما ينتقلون من أحدها إلى الآخر، فيخرجون عن الطريقة التي أقرَّتها التقاليد في الموسيقى الدنيوية.

وتتداخل في الأقسام الموالية المتضمِّنة الإنشاد «الطبوع» والإيقاعات التي تميِّز الموسيقى الشعبية المنتشرة في المناطق الحضرية، أي في المدن والأحياء المحيطة بها، حيث تبنى «البحور» و«الشَّطحات» و«الأختام» و«التهليلات» على ألحان في «الطبوع» التالية: حسين ورصد الذيل وأصبعين وسيكاه (وتكتب أيضًا «صيكا»)، وهي من الطبوع المنتمية إلى الرصيد التقليدي (المالوف)، إلى جانب العرضاوي ومحيّر السيكاه ومحيّر العراق، وهي من الطبوع كثيرة الاستعمال في الموسيقى الشعبية الحضرية.

أمَّا الإيقاعات فهي تارة «بطايحي» و«دخول براول» و«برول» و«ختم» من التراث التقليدي، وطورًا «سعداوي» و«مربع تونسي» و«مدوّر حوزي» وثلاثتها كثيرة الاستعمال في الموسيقى الشعبية الحضرية، ويشترك رصيد الأناشيد التراثيَّة للطريقة السلاميَّة مع التراث التقليدي الدنيوي في تدرُّج سرعة النسق من مقطوعة إلى أخرى، حيث ينطلق الإنشاد في نسق بطيء وينتهي إلى السريع (بطايحي أو مربع تونسي فبرول أو مدوَّر حوزي فختم). وتجدر الملاحظة أنّ تسميات بعض الإيقاعات المتداولة لدى شيوخ السلاميَّة غير متطابقة مع ما هو متداول لدى شيوخ «المالوف» الدنيوي (الهزل)، فـ «البرول» في السلامية مثلًا يقابله «الختم» في المالوف الدنيوي.

نماذج من المقطوعات السلامية

«السلسلة الذهبية» حسب رواية الهادي بن عائشة شيخ السلامية ببني خيار لحنت في الذيل والحسين ورمل الماية والرمل ورصد الذيل والعراق، وكلُّها من الطبوع المستعملة في «مالوف الهزل».

ومن «البحور»: «يا سيدي شادي» طبع حسين وإيقاع مدوَّر تونسي، و«يا بن مراد» طبع عرضاوي وإيقاع سعداوي، و«يا بن عروس ماك مولى المزية» طبع محير عراق وإيقاع سعداوي، و«باسم الكريم عظيم الشان» في طبع الحسين وإيقاع السعداوي، و«صلى عليك ربي» في طبع المحير عراق وإيقاع السعداوي، ومن «الشطحات» «أنا ماني في آش» في طبع الحسين وإيقاع البرول، و«يا من يرافقنا» طبع حسين وإيقاع السعداوي سريع، و«ننصح في المريد» في طبع الحسين وإيقاع البرول، و«يا من هو عاشق مشوق» طبع الحسين وإيقاع السعداوي سريع، وختم «يا بن عروس» طبع الحسين وإيقاع البرول سريع، و«الذكر يشرح لي صدري» طبع الحسين وإيقاع البرول سريع، ثم الصلاة على النبي ﷺ كما في «النبي المصطفى» تؤدَّى على درجة واحدة مع إمكانية التدرُّج في اللحن إلى درجات أعلى وعلى إيقاع الفزاني كثير التداول في الموسيقى الشعبية.

من منشدي التراث السلامي في تونس

ومن أشهر منشدي تراث السلامية في القرن العشرين: حسن بن عمران (1880 -1924)، ولد بتونس العاصمة من أمٍّ تونسية وأب أصيل طرابلس ليبيا، حفظ وهو طفل نصيبًا من القرآن الكريم بأحد الكتاتيب، ثمَّ تابع دراسته الابتدائية وجانبًا من التعليم الثانوي بالمدرسة «الصادقية»، بدأ الإنشاد في إحدى فرق السلامية، متَّبعا خطى أبيه، سليل الوليِّ المذكور، وسرعان ما ذاع صيته لما وهب من صوت جميل وأداء بديع.

كما أصبح يتفنَّن في إدخال ألحان خفيفة على «بحور» الطريقة السلامية وأذكارها والقصائد التي كان يحفظها مجيدًا التنقُّل بين مختلف «طبوع» الموسيقى التقليدية التونسية و«المقامات» المشرقية، فأقبل الناس على حفلاته التي كان يقيمها بصفة منتظمة بزاوية «سيدي شيحة» بالحلفاوين (بالقرب من حي باب سويقة بمدينة تونس)، ويحضرها بالخصوص من أعيان العاصمة الشيخ محمد محسن إمام التراويح بجامع الزيتونة آنذاك.

تأثّر خميس ترنان بأداء حسن عمران، وقد حضر أحد عروضه ببنزرت سنة 1910، كما تتلمذ على يديه عمر يدعس أحد أهم شيوخ إنشاد مدائح السلامية بمدينة قربة (الوطن القبلي) في النصف الأول من القرن العشرين. سجَّل حسن عمران عديد «البحور» والقصائد على أسطوانات الحاكي.

ومن شيوخ الإنشاد خلال النصف الأول من القرن العشرين محمد بن محمود وأبناؤه وخاصة منهم محمود المشهور باسم فنِّي محمود عزيز، وأحميدة عجاج، ومحمد سريح، والهادي النعات، ومحمد الشحيمي، والهادي النعات، أطال الله في عمره، وهؤلاء جميعًا من أعلام التراث السلامي في تونس العاصمة، ويوجد في القيروان علي البراق وابنه ومحمد وعبد المجيد بن سعد، ومحمد شقرون في رأس الجبل، وعمر يدعس في منطقة قربة، والهادي بن عائشة في بين خيار، ومحمد الحسناوي في باجة، وعمارة بشير في المنستير، ومحمد القلي غيرهم من سوسة. وكلُّهم مدارس في الإنشاد الصوفي الخاصّ بالسلامية، علمًا أن عددًا من المنشدين من الجيل الذي ظهر في التسعينات إلى اليوم هامٌّ، ورأيت تفادي ذكرهم لكثرتهم، وحتى يأخذوا من الوقت ما يكفي لتحتفظ بهم الذاكرة الجمعية.

أناشيد السلامية ووسائل الاتصال والتواصل الحديثة

شكَّل عرضُ «الحضرة» الذي أشرف على إنجازه سنة 1992 كل من الفاضل الجزيري، رجل المسرح، والموسيقي سمير العقربي، حدثًا فنيًّا بارزًا، حيث جمع نخبة من أهم شيوخ الإنشاد الصوفي في تونس أدَّوا أناشيد مختارة من طرق وأساليب متعدِّدة، زادها الإخراج المسرحي جمالًا حتى دخلت في سجل الأعمال الفنية الرائدة.

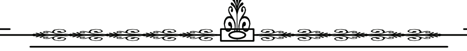
وتلته خلال العقد الماضي عروض مماثلة حملت تسميات عديدة اعتمد أغلبها على تراث الطرق الصوفية، إلا أن عديد الفرق الخاصة انصرفت إلى أداء هذا التراث بإدخال تغييرات جوهرية على مكوِّناته، من ذلك استعمال ألحان أشهر الأغاني الرائجة بوسائل الإعلام العامة والخاصة وبشبكات الاتصال والتواصل الاجتماعي، وخاصة منها الأغاني ذات الإيقاعات الشعبية، ووضعها على كلمات جديدة، من صياغة من يشرفون على تلك الفرق أو من غيرهم تدور محاورها حول الأولياء وغيرها من المعاني ذات الأغراض المتصلة بالدين.

وأدخلت أغلب مجموعات الإنشاد الصوفي آلات جديدة كالبيانو الكهربائي والكمنجة وآلات الإيقاع المستعملة في الموسيقى الوترية والشعبية؛ مما أفقدها جوانبها الروحية وأصبحت فرصة للمرح والتهريج المجاني.

خاتمة:

ترتكز طريقة سيدي الإمام الأسمر على مبادئ مأخوذة من جوهر الدين الإسلامي الحنيف، فهي تدعو إلى اتباع تعاليمه السمحة، وأخذت من الأشعار والمدائح نهجًا لإصلاح المجتمع في ليبيا، حيث ظهرت ثم انتشرت عبر أقطار أخرى منها، ويتبيَّن من خلال استعراض أبرز أقسام تراث الطريقة السلامية في تونس أنَّ الأدعية والمدائح والأناشيد مستمدَّة من الخصوصيات الفنيَّة التي تتميَّز بها الموسيقى التونسية بقسميها التقليدي والشعبي، وقد لعبت الزوايا دورًا محوريًّا في الحفاظ عليه من التلف والضياع، وساهمت بالتالي في بقاء الخصائص اللحنية والإيقاعية لقسمه من الموسيقى التونسية، وانتشر هذا التراث انتشارًا واسعًا في أغلب المدن التونسية، ويتواصل تداوله بين أتباع الطريقة وحتّى من قبل غير المنتسبين إليها وإنشاده في المناسبات الدينية وغيرها من الاحتفالات والمهرجانات الشعبية، وتتناقله الأجيال جيلًا بعد جيل.

ويشهد الإنشاد بعض المخاطر من بينها اعتماده على نصوص معدَّلة من حيث مضامينها تستمد ألحانها من الأغاني الشعبية التونسية واستعمالها لآلات غير آلاتها الأصلية، وهو ما يستحق مقالًا منفصلًا.





الرؤية الصوفية في مدح خير البرية عند الإمام الأسمر

د. بثينة قسم السيد عمر
جامعة البحر الأحمر - السودان

ملخص:

تناقش هذه المقالة الجانب الأدبي في حياة الإمام عبد السلام الأسمر من خلال أشعاره في المديح النبوي، وبيان رؤيته الصوفية في مدح النبي ﷺ، من حيث إنها رؤية مَنْ شاهد وتذوق من فيوضات ذلك المقام الجليل، وكذلك لبيان تناوله الخاص للرمزية في الشعر الصوفي.

وللوصول إلى ذلك، ولدراسة ذاك الجانب المهم في حياة الإمام الأسمر، نهجت المقالة المنهج الوصفي التحليلي في عرض المعلومات من الوثائق وبعض المصادر والمراجع، ومن ثم تحليلها وللوصول إلى نتائج وتوصيات، والمهم في هذه المقالة أنها فتحت أفقًا جديدًا في الدراسات المعنية بالإمام الأسمر، خاصة حول تجربته الأدبية والشعرية التي تكشف عن وعي وحس مرهف، انبثق من رحم التأمل في الوجود والكون والأشياء كلها.

كلمات مفتاحية:

المدح النبوي، الإمام الأسمر، الرمز، التصوف، العشق.

مقدمة:

إن الحديث في شأن مدح النبي الكريم المصطفى ﷺ دون شك - أمر جد عسير؛ وذلك لأنه بحر عميق كلَّت فيه العقول، بل عجزت تمامًا، فمهما وصفه الواصفون ردَّهم خطاب الرحمن تعالى، وذلك حين مدحه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم:4]، فهو بحر وقف المادحون بساحله، واعترفوا بعجزهم، بل احتاروا في نسق هذه النفس التي أدبها ربها فأحسن تأديبها، كما قال وخير القول قوله بل أبلغُه ﷺ: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**». وحديث السيدة عائشة رضي الله عنها، عندما سُئلت عن أخلاقه فأجابتهم: «كان خلقه القرآن» بمعنى كل قيمة ذُكرَت في القرآن الكريم جَسَّدَها في الدم واللحم.

ورغم صعوبة الشُّقة في مدحه ﷺ، إلا أن المكانة الخاصة لحضرته في القلوب والعقول والمهج استدعت أن تتحرك الأفئدة فتفيض بما فيها من حبه وشوقه وعشقه، وإن كان كل هذا هو تجلي كريم لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشَّرح:4]، حتى أصبح فن المديح النبوي فنًّا ومدرسة قائمة بذاتها.

يقول العلامة الشيخ أحمد القطعاني: إن «المديح النبوي غرض معلوم مقتنٍ، قائم من الشعر العربي، له أصوله وضوابطه وقوالبه، وهو فن أدبي رفيع يُعبِّر فيه أهلُ القلوب صادقة الإيمان، عن أنبل النوازع الروحية والعواطف الدينية، والشعر العربي حافل، فصيحًا كان أم عاميًّا، به، ويختلف في سماته العامة عن أي مديح آخر حيث لا هدف دنيوي منه، ولا غاية آنية ترتجى فيه؛ إلا محض طلب حبِّ الله سبحانه ورضاه، ثم حب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ورضاه»[1]، ويشير إلى أن هذا الفن تأسس وازدهر على يد آل بيت النبي ﷺ «كأعمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيدنا أبي طالب، وسيدنا العباس، وسيدتنا عاتكة، أبناء عبد المطلب بن هاشم»، وعلى يد الصحابة الكرام «أمثال: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، ولبيد بن ربيعة، والأسود بن مسعود الثقفي،

(1) مواجيد المحبين وأشواقهم لسيد المرسلين، تحقيق أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2017م، ص3.

والعباس بن مرداس، وعبد الله بن الزبعرى، وغيرهم، حتى كست المدائح النبوية ومئات آلافِ مُنشديها ديار الإسلام، بربيع جميل خلاب زاهٍ دائم من الرائعة اليانعة»[1].

أما تاريخ فن المديح وولادته الرسمية، فيقول الشيخ القطعاني: إنه «يوم أنشد الصحابي سيِّدنا كعب بن زهير، قصيدته المباركة: بانت سعاد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجده، وصحابته جُلُوسٌ يسمعون، وكوفئ بأن خلع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بردته الشريفة من على جسده الشريف وكساه إياها.. ومن الصحابي سيّدنا كعب بن زهير أخذ السادة الصوفية أشهر تورية شعريَّة في الأدب الإسلامي كليلى ولبنى وسلمى ولبنى ومي، وسواها من خطاب المؤنث في أدبياتهم»[2].

وبردة كعب بن زهير، هي التي تسمت بها أشهر قصائد المديح النبوي، أعني قصيدة «البردة» التي نظمها الإمام البوصيري، وسارت بذكرها الركبان. بل ألف السادة الصوفية الدواوين الخاصة في المديح النبوي، وأشهرها «القصائد الوترية» للشيخ محمد بن أبي بكر البغدادي، و«الدر الأصفى والزبرجد المصفى في مدح المصطفى» للشيخ أحمد البهلول، و«شفاء القلوب والغرام في مدح من أضحى للأنبياء ختام» للشيخ هاشم بن الختم محمد عثمان الميرغني، و«ديوان أبو شريعة» للشيخ أحمد محمد نور. ومن المكثرين في شعر المديح النبوي الشيخ عبد الرحيم البرعي السوداني، صاحب قصيدة «بوريك طبك» ومليون بيت في شعر مدح النبي ﷺ، ومن بين من أكثروا من شعر المديح النبوي الإمام عبد السلام الأسمر.

الإمام عبد السلام الأسمر وتكوينه الأدبي

اتفق مؤرخو سيرة الأمام الأسمر أن أرومته شريفة وترتفع من جهة أبويه إلى النبي ﷺ، وُلِدَ بمدينة زليتن بليبيا عام 880هـ، تربى ودرس وتعلم على يد أفراد أسرته قبل أن ينخرط في سلك التصوف على يد أستاذة الشيخ عبد الواحد الدوكالي الذي تخرج في مدرسته بمدينة مسلاتة.

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) نفس المصدر، ص3 و4.

وأسس بمسقط رأسه في مدينة زليتن زاويته التي اتخذها مركزًا لنشر دعوته وطريقته العروسية الصوفية، وفيها كتب المؤلفات والكتب التي حوت فكره وشرحت مشروعه الإصلاحي الإسلامي حتى توفي رضوان الله عليه عام 981هـ[1].

لقد اجتمعت في الإمام الأسمر العديد من الأسباب التي جعلت من المديح النبوي موضوعًا أساسيًّا وبارزًا في شعره، ومنها نسبه الشريف الذي يرتفع إلى حضرة النبي ﷺ، فهو فيتوري إدريسي حسني شريف من جهة أبيه، وينتهي نسبه من جهة أمه إلى الإمام عبد السلام بن مشيش الإدريسي الحسني الشريف. وبالإضافة لشرف النسب، فهو أيضًا صوفي تتصل أسانيد طريقته الصوفية بالنبي ﷺ، ومعروف عناية التصوف ورجاله «فقد اهتم مؤسسو الطرق الصوفية الأول رضوان الله عليهم بغرس حب رسول الله ﷺ في قلوب المجتمعات والمريدين ومن يحيط بهم، ولهم في ذلك أقوال ومدائح مشهورة، فلا تخلو سيرة فاضل منهم من مقطعات شعرية قد تصل المئات في هذا الموضوع»[2]، وعلى هذا نشأ الإمام الأسمر في أحضان أسرته الفيتورية الشريفة الصوفية، وازداد ذلك تمكنًا في قلوبه ووجدانه بسلوكه لطريق التصوف العروسي على يد شيخه الأستاذ عبد الواحد الدوكالي.

وإن كنا لا نجد في سيرة شيخ الإمام الأسمر الشيخ الدوكالي ما يشير إلى مشاركته في قريض الشعر، إلا أننا نجد أن عمه الشيخ أحمد الفيتوري، الذي تولى تربيه بعد وفاة والده الشيخ سليم الفيتوري، كان شاعرًا مجيدًا، إذ يقول عنه الإمام أن «له خبرة في الشعر الجائز وموازيته كأنه كعب بن زهير أو حسان بن ثابت»[3]، ويجب ألا تفوتنا هذه المقارنة التي يعقدها الإمام بين عمه وبين كعب بن زهير وحسان بن ثابت دون غيرهما من شعراء العرب، فاعتبارهما أول من أسس لفن المديح النبوي، فلا شك أن شعر عمه كان في هذا الفن، وهذا يعني أنه تعرف على هذا الفن وتدرب فيه وتمهر على يد عمه في وقت مبكر من حياته.

---

(1) لمن أراد الاطلاع والتوسع في سيرة الإمام الأسمر، ينظر:
تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م.
القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م.
رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.

(2) ديوان البهلول، تحقيق أحمد القطعاني، مكتبة النجاح، طرابلس، ط 22، 2016م، ص12.

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

وعلى العموم، فالإمام اشتهر لاحقًا كأحد أكثر الصوفية من قريض الشعر، وله مدرسته الخاصة به، فالأنماط الشعرية التي أوجدها سواء الرباعيات، أو نمط تقفية صدر البيت وعجزه واختلافها في الوزن، جعلت لشعره ذوقًا خاصًّا يجعلنا نسميه بـ«الشعر الأسمري»، خاصة في سهولة حفظه وتناوله وفهمه، وهو مقصده كما يلفت الشيخ القطعاني لينتشر وتتناقله الأذهان والألسن حتى أنك «قلما تجد من لا يعرف منها واحدة أو أكثر؛ وذلك لسهولتها وبساطتها وقربها من أفئدة وعقول من قيلت لهم، وهذا هو مقصد الشيخ ﷺ إذ سهولة إدراكها والعمل بما بها من نصائح وتوجيهات متوقف على تداولها وانتشارها»[1].

وندرك من خلال الإحصاء الذي يذكره الشيخ القطعاني لشعر الإمام الأسمر، أنه كان مكثرًا من قرض الشعر، فما ينسب له هو «700 قصيدة عروضية باللغة العربية الفصحى، و400 مقطعة باللسان الدارج، و800 على موازين الحسن الششتري، و500 على موازين الجعراني، وعدد لا يعلمه إلا الله من الأشعار الملحونة. وهي مشهورة بكثرة في كل شمال ووسط أفريقيا إلى الآن، ولعل أطولها المقطعة المسماة: «سلسلة الفروع» التي تشتمل على ما يزيد عن 800 بيت من الشعر، تليها السلسلة الجوهرية أو الجوهرة على اختلاف في التسمية التي تبلغ أبياتها: 551 بيتًا من الشعر»[2].

رؤية الإمام الأسمر في المديح النبوي

يعد الجمال المحمدي في الرؤيا الصوفية منبع ومصدر الجمالات كلها، فهو الباب الموصل للجمال الحقيقي ومفتاح الدخول للحضرة، إذ منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار، لذا كان التغني والانتشاء بالجمال المحمدي أصلًا أصيلًا في الكتابات الصوفية.

لقد أجمع أهل المغارب والمشارق على التوله والهيمان بالجمال المحمدي؛ باعتباره إفاضة نور من الجمال الإلهي، فنظموا القوافي وألفوا كتب الشمائل من أجل تعداد محاسنه الخلقية والخلقية التي لا تنقضي، تعبيرًا عن محبتهم وتعلقهم بأذيال فضله العظيم، وإبرازًا لجماله الباهر الذي يسبي العقول ويدهش الألباب، فكان لهذه النصوص

---

(1) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، 1992م، ص 72.

(2) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21 هـ - 644 م إلى سنة 1421 هـ - 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ج1، ص 378.

أهمية بالغة في الأوساط الإسلامية وبين محبي رسول الله صل الله عليه وسلم، واكتسبت قيمتها وشرفها من شرف ممدوحها، حيث حظيت بكثير من الشروحات، بل أصبح يتغنى بها في حلقات الذكر والسماع في الأعياد والمواسم، وكذا في الأفراح والأتراح، بتلاحين وتنغيمات متعددة، وكل ذلك التذاذًا وانتشاءً بجماله ﷺ الذي فاق كل حسن وجمال.

ورؤية الإمام الأسمر رؤية مَن شاهد وتذوق ذلك المقام الجليل الذي قال عنه صاحبه: (لي ساعة مع ربي لا يسعني فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل)، ساعة قارب في التعبير عنها سلطان العاشقين ابن الفارض في قوله:

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرق من النسيم إذا سرى

والحبيب عندهم هو الذات المحمدية، يسعدون برؤيته في منامهم ويقظتهم، فلا يستغربن أحد ذلك، فقد قال الصادق المصدوق: «**من رآني في المنام فقد رآني في اليقظة فإن الشيطان لا يتمثل بي**»، وفي رواية: «**من رآني في المنام فسيراني يقظة**»، ذلك بأنه حاضر ونحن الغائبون، فيخص من رآه نومًا أو يقظة بواردات ومعارف تزن الدنيا وما فيها، ومعارف كلما اغترف منها الغارفون زاد نبعها؛ لأنها من بحر لا تنفد كلماته ولو جئنا بمثله مددًا، معارف لا ينالها إلا من أنفق أعز ما لديه، وهي نفسه؛ لأنه كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عِمران:92]. فرؤية الصوفية أن أحب الأمور إلينا هي نفسنا لا المال ولا غيره من متاع الدنيا، ولا يتسنى ذلك لأحد إلا إذا ضحى في سبيل ذلك العشق بنفسه.

والإمام الأسمر من هؤلاء القوم الذين أبصروا تنزلات الذات المحمدية واستغرقتهم، فنثروا دُرَّ النظم، وتفننوا وأبدعوا في تصوير تلك المعاني تصويرًا بديعًا، ومنه قوله في إحدى قصائده يصف فيها مشاهدته اليقضوية للنبي ﷺ(1):

يا رب صل على محمد وعلى آله الفضلا وأصحابه الكمل

يقول عبد السلام بن الولي الفاصل أعني سليم نجل السادات الكمل

أني أحدثكم بما جرى يقظة بعين رأسي رأيت سيد الرسل

قد حل في خلوتي يمدني مددًا وفي أثناء حضرتي يهتز بالحلل

فهذه الرؤيا وهذا المدد الذي لا يتأتى إلا بالمجاهدة، ولذا ذكر أنه ﷺ حل في خلوته، والخلوة أم العبادة ومجاهدة النفس وبذلها ليحل أثناءها المدد ليكشف البصيرة

(1) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص150.

والبصر والوعي عن الحقيقة النورانية لسيد الخلق أجمعين، فتنكشف لهم أسرار النور للذات المحمدية الفائض والساري في سائر الجمالات.

ويواصل الإمام الأسمر في الإفاضة في ذكر محاسنه ﷺ، قائلًا[1]:

زين بهي لا نظير له ... كأنه البدر أو كالشمس في الحمل

يغار حسن النقا من حسن قامته ... ويختفي البدر تحت الغيم من خجل

حلو المراشف يشفى العليل به ... فكم شفى برحيق الثغر من علل

الله أكبر ما أحلى شمائله ... قد زاد حسنًا وزينًا غاية الأمل

بدا كبدر الدجى تجلى محاسنه ... يا حسنه من مليح بالجمال حلي

أنا المتيم فيمن سما وعلا ... فخرًا على سائر الأملاك والرسل

هو النبي الذي ما مثله أحد ... وهو المبرأ من نقص ومن زلل

وهو الشفيع غدًا من حر نار لظى ... والناس كلهم منها على وجل

صلى عليه إله العرش ما طلعت ... شمس وحل قمري على طلل

فوقف بالتأكيد والتفصيل والإقرار لإيمانه ويقينه بحقيقة وأصل جمال الذات المحمدية، الذي ليس في الحقيقة إلا إفاضة نور من جمال الحق، وهي الحقيقة المحمدية، ومجملها أنه كان له ﷺ وجود قبل وجود الخلق، وقبل وجوده الزماني الهيكلي في صورة النبي المرسل، فإن هذا الوجود قديم غير حادث، وعبروا عنه بالنور المحمدي، فهي الذات مع التعين الأول، الذي قامت به بقية التعينات الأخر[2].

وحتى صحابته ﷺ لم يجدوا تشبيهًا لجمال نور وجهه إلا بالقمر، فعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة إضحيان (أي: مضيئة) وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو عندي أحسن من القمر[3]، وليس هذا الوصف إلا انعكاسًا لحقيقة النور المحمدي، وفي حديث جابر بن عبد الله ما يؤصل هذه الحقيقة النورانية، عندما قال له النبي ﷺ: «**أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر**».

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) معجم اصطلاحات الصوفية، عبد الرزاق الكاشاني، تحقيق عبد العال شاهين، دار المنار القاهرة، ط1، 1978م، ص95.

(3) أخرجه الترمذي.

ولعل أئمة الصوفية لمحوا هذا السبق للذات المحمدية، بل تيقنوا أن كل ما في الكون من مخلوقات لأجله ﷺ، بل لولاه لما كان الحج ومناسك العبادات، وهو ما عبر عنه الإمام الأسمر في قوله[1]:

ألفين صلاة على الحبيب رسول الله	سيد الإسلام الرسول
والله يا لولاه لا صارت قبلة	ولا صار الحج ولا الوصول
ولا صارت الأركاب تعزم بالجملة	ولا صار الوجد والقبول

وقال الإمام الأسمر معبرًا عن ولهه بذات النبي ﷺ[2]:

قلب العشيق احتار	في كبدي نيران مشتعلة
من شوق أبو الأسرار	دمعي يصيب من مقلتي همله
الهاشمي المختار من	عرق خلق الأنبياء جمله
العبد ما له خيار	ولا يدري ما يريد الله
أنا ما لي جار غريب	حالي مستعان بالله
جليت من الأوكار	وفرقة صغاري زادني عله

فهم في شوق وولهه لرؤيته، فإذا انحجبت منهم رؤية الذات المحمدية تضيق نفوسهم، ويتهمونها بالتقصير في العبادة، فيندبون حظهم وحالهم، وفي ذلك يقول الإمام الأسمر[3]:

يا قمرة الليل حالي مكدر	من أجل فعلي خايف مدردر
نفسي قبيحة لا بات تصبر	ولا بات تأخذ بيا الثنية

خصائص شعر الإمام الأسمر في المديح النبوي

انماز شعر الإمام الأسمر بالعديد من الخصائص، فبالإضافة لِلُغَتِهِ وأسلوبه وذوقه الخاص الذي ميزه عن أشعار غيره من السادات الصوفية، يمكن تسجيل الخصائص والمميزات التالية:

(1) سفينة جمع البحور، تحقيق محمد البسكري ومحمد الحمادي، منشورات مركز الموسيقى العربية والمتوسطية، تونس، 2023م، ص240.

(2) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص152.

(3) نفس المصدر، ص163.

1 - ختمه لكل قصائده في أي غرض من أغراض شعره، بالصلاة على النبي ﷺ، فلا توجد قصيدة واحدة لم يختمها بذلك، وفي الكثير منها يفتتحها أيضًا بالصلاة على النبي ﷺ.

2- يقرن الصلاة عليه ﷺ في ختام قصائده عادة بذكر آل بيته، وأكثرهم ذكرًا بناته رضوان الله عليهن، كالسيدة رقية والسيدة فاطمة، وأحيانًا سبطيه السيدين الحسن والحسين أو كليهما.

3- لا تخلو قصيدة من قصائده من ذكره ﷺ بالعديد من الأساليب، إما بالاستغاثة به، أو بذكر وصفه من أوصاف خلقته الشريفة كـ«ضاوي الجبين» التي كررها في أكثر من قصيدة، أو حسن اللباس والعمامة، وغيرها، ومنه[1]:

قولوا له يا لباس التاج فقيرك عطشان ضامي

وقوله[2]:

الرسول الهادي المفضل
صادق في المقالة
يا كحيل الحاجب
والعين يا ضامن الغزالة

4 - يكثر من إقران اسم النبي ﷺ بأنواره، كما في قوله[3]:

وجهه كما البدر ليلة كماله.. شارق الأنوار يضوي الظلام

5 - التصريح بانتسابه إلى بيت النبوة، والإكثار بأنه ﷺ جده، كما في قوله[4]:

سقاني جدي من الكوثر أرويت وعطاني الجبار
أنا شريف ونسلي طاهر جدي النبي سيد الأبرار

6 - اقتران ذكره بأشهر معجزاته، كقوله[5]:

يا حبيبي يا محمد يا ضامن الغزالة

(1) سفينة جمع البحور، مصدر سابق، ص427.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، ص443.
(4) نفس المصدر، ص102.
(5) نفس المصدر، ص236.

وقوله[1]:

من كلمه الضب وكذا البعير   نجاه من قيد كيد الأنام

استخدام الإمام الأسمر للرمزيات الصوفية

استخدم الإمام الأسمر العديد من الرمزيات الصوفية في أشعاره، كالخمر والسكر وغيرها، بمعانٍ لا تغادر المعاني التي استخدمها غيره من الصوفيين، ومنها رمز الخمر التي استخدموها للدلالة على خمر المعاني، كما يفصح في ذلك قول ابن الفارض[2]:

خمرنا خمر المعاني   عتقت من قبل آدم

ولا بد عند التعرض لهذا المعنى من رفع مدلولها الحسي واللفظي، فهي عندهم أعمق بكثير من ذلك، فمن سكر بخمر التوحيد نضحت منه له المعارف والمعاني كما ينضح الماء النمير من العين الثرة؛ لأن بخمرة التوحيد تطهرت نفسه من أوضارها ورينها.

فخمر الصوفية هي المعرفة الإلهية الناتجة عن خمرة التوحيد، التي عبر عنها كثير من العارفين، كقول ابن الفارض[3]:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة   سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وكقوله في وصف من عاقرها:

تهذب أخلاق الندامى فيهتدي بها   لطريق العزم من لا له عزم

فيكرم من لم يعرف الجود كفه   ويحلم عند الغيظ من لا له حلم

إذن هي تهذب أخلاق شاربها وتغسله وتطهره من أدران ورعونات موروثة ومكتسبة، فيُلهم بأسرار الجلالة، وفي ذلك يقول الإمام الأسمر[4]:

شربت شراب العز من خمرة الصفا   سقانيه محبوبي بسر العناية

وبانت لي الأنوار وانكشف الغطا   وألهمت أسرارًا بسر الجلالة

إلى أن رأيت ما لا يمكن وصفه   من حلول في مكان وجهتي

(1) نفس المصدر، ص445.
(2) شرح ديوان ابن الفارض، مصطفى رجب، دار الإيمان للنشر والتوزيع، ط1، ص113.
(3) نفس المصدر، ص117.
(4) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص139.

وخمرتهم تعني أيضًا الحضرة مع الله بلا غفلة، فنضرت وجوههم بالنظر إلى ربها الذي استغرقها، ومنه قول الإمام أبو الحسن الشاذلي:

شربنا كأس من نهوى جهارًا ... فصرنا بعد رؤيته حبارى

مشعشعة لها نور عظيم ... ولا للقلب عنها اصطبارا

فإن متنا فلا عار علينا ... ولا في شرعنا للقتل عارا

فخمرة لا إله إلا الله تجلي غشاوة القلوب وصدأها، وعندما ينجلي عنها غشاؤها ترى بعين ربها، كما في الحديث القدسي: «**وما زال العبد يتقرب لي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به**». ومن لطائف المعرفة عند هؤلاء العارفين أن العبد لا يرضى تمام الرضا إلا أن يجد كل ما يريد وإن تطهر بخمرة لا إله إلا الله، هؤلاء هم القوم سكرهم معرفة بالحي الذي لا يموت، علموا أسرار المعرفة الإلهية لو أباحوا بها لاتهمهم الجاهل بالجنون، وفي معنى الرؤية يقول الإمام الأسمر[1]:

وشاهدت ما في اللوح معنى وصورة ... وما هو منسوخ وما هو مثبت

فلو ألقي شيء من أسرار برنا ... على الشامخات الراسيات لدكت

أنا العز أنا الكنز والحق قال لي ... تمنى علي يا حبيبي وصفوتي

فقلت له إلهي إني متيم ... وحبك يا رحمن قصدي ومنيتي

فجاوبني إني أفعل ما تشاء ... لأجلك يا من زج في بحر هيبتي

تقرب إلينا مرحبا بولينا ... وأهلًا وسهلًا بالحبيب المثبت

فعدت بألطاف الإله مؤيدًا ... علي من الأنوار أفخر حلتي

وكوشفت بنور التقرب والرضا ... وذقت أسرار الوصال بحضرتي

وإني إمام الكل في حال مدحهم ... ولم يشربوا شربًا بدون خمرتي

وكنت أنا الساقي إليهم مبسملًا ... أحوم إليهم طرًّا من سر هيبتي

وأنا القطب أنا الغوث في كل حالة ... وأن رسول الله جدي وقدوتي

وهو لعمري هذا هو السر الذي إذا أباحوا به استبيحت دماؤهم، كما قال السهروري: (بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائحين تباح)، ولكن ألم يقل المعصوم ﷺ:

---

(1) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص139 و140.

«**إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله، وإذا تحدثوا لا ينكره إلا أهل العزة بالله**»، جعلنا الله وإياكم من أهل المعرفة بالله.

نخلص من ذلك أن التصوف لمن تبصره كله معارف، على أن لا نعجل بجهلنا فيه، فقد قال النابلسي في معنى ذلك:

ولا تعجل بجهلك في كلامي ... فدعه لمن يوحد يا مثني

وبالتوحيد يعرف كل شيء ... ويجهل كل شيء بالتثني

والتثني هو من يرى الأمور بكدر نفسه والظن السيء فتحجب عنه الرؤيا بقتام نفسه وظلامها، فلا يرى إلا ظلامه هو.

وبالرغم ما نالوه من المجاهدة في تطهير ذواتهم وأوانيهم من الكدر يحذرون من مكر النفوس؛ لأنهم علموا من مرشدهم وسيدهم النبي ﷺ أنه قال: «**أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**»، فقالوا: «احذر من الأمن فهو مهلكة، والله يمكر فأحسب أنه مكرا». فالعُجب بالعمل أو الفكر أو النظم والقول قاطع ومهلك للسالك، ففي ذلك قال ﷺ: «**لا يزال الرجل يعلم حتى يظن أنه قد عَلِم، فإذا عَلم أنه قد عَلِم فقد جهل**».

لقد عرف السادة الصوفية أن السير في مدح الذات المحمدية هو سير في وادٍ مقدس تُخلع فيه النعلان، وتواصل فيه التلبية، والنعلان عندهم هما النفس والعقل الذي عرف قدر نفسه إزاء هذا الجناب العظيم، ليسوق نفسه دون تلفت منها، نفسه التي تأدبت بأدب الحقيقة، وذلك لترشف وترتوي بعد طول ظمأ وسقم، لتتدفق منها المعرفة فتحي مواتها وتغسل رينها.

خاتمة:

توصلت الورقة إلى عدد من النتائج أهمها:

1 - أن للإمام الأسمر باعًا في فن المديح النبوي، وله لونه وأسلوبه الخاصة وتعابيره التي تميز شعره.

2 - أن الإمام الأسمر من الشعراء الصوفية المكثرين في مدح النبي ﷺ، وله سلفه في أسرته الفواتير في هذا الفن، كعمه الشيخ أحمد الفيتوري.

3 - استخدام التعابير والرمزيات الصوفية، في ذات المعاني التي استخدمها سلفه من الصوفيين كوعاء لتوصيل المعاني الذوقية الصوفية التي تضيق عنها العبارة.

وعليه، نوصي بضرورة إجراء الدراسات المتسعة في تراث الإمام الأسمر الأدبي والشعري؛ لأنه علم يستحق العناية لتظهر أسراره وجمالياته وبيان قيمته الثقافية والتربوية والدينية. فيستوجب الجمع والشرح خدمة للأجيال القادمة.




التَّعابيرُ الجماليَّة في القَصائدِ الأسمَريَّة

د. أسامة الجروشي

باحث في الأدب الصوفي - ليبيا

ملخص:

لقد سرى حبُّ الشِّعر إلى وجدان الأستاذ المربِّي الإمام سيِّدي عبد السَّلام الأسمر ﵁ فملأت القصائد قلبه وتحرَّك بها لسانُه، حتَّى أنها ظلَّت خطًّا أساسيًّا وتصويريًّا لمسارات طَريقته الصُّوفيَّة، وعكست الكثير من منهجه وأصول طريقته كالصِّدق والوفاء بالعهد، وما إلى ذلك مِمَّا لا يسع السالك لطريقته جهلُه.

والشِّعر عند الإمام الأسمر من الأدوات التَّعريفيَّة للتَّصوُّف بالسُّنَّة والكتاب وحفظ نشوته، حتَّى مثَّل بقصائده شخصيَّةَ العالِم العابِد الذي يَزِنُ تصوُّفَه بموازين الشَّرع، ويلجم الطّريقَ بالنَّصِّ، ويهذِّب الأشواقَ بالحُكم كي لا يشوبها شائبٌ، فتخرج عن مسار الطَّريق المراد من فقه السُّلوك، وهذا وغيره مما سنرصده ونراه خلال هذه المقالة.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الأدب، الشعر، التصوف، التعابير الجمالية، البلاغة.

مقدمة:

لقد كانت علوم اللغة والأدب من العلوم التي تلقاها الإمام الأسمر على يد أغلب أساتذته، كما تذكر المصادر التي أرَّخت لسيرته العطرة، بل عاش منذ بداياته في وسط

أدبي رفيع، فعمه الشيخ أحمد الفيتوري الذي تولى تربيته بعد وفاة والده الشيخ سليم الفيتوري، كان أديبًا وشاعرًا، ويهمُّنا أن نستقي هذه المعلومة حوله عن الإمام الأسمر نفسه الذي يقوله عنه أن: «له خبرة في الشعر الجائز وموازينه»[1]، ويصف جودة شعر عمه بقوله: «كأنه كعب بن زهير أو حسان بن ثابت»[2].

ويجب أن نتوقف مليًّا عند هذا الكلام من الإمام الأسمر عن عمه الشيخ أحمد، لنسجل هذه الوقفات للدلالة على خلفيته الكبيرة، وإلمامه الواسع بالأدب وفنونه:

1 – مقارنة الإمام عمه بكعب وحسان، تدل بشكل واضح على اطلاعه على الآدب في مصادرها ومعرفته برموز الشعر العربي وعيونه، سيما شعر كعب وحسان، حتى استطاع أن يضع عمه في مقارنة معهما.

2 – هذه المقارنة تستوجب اقتناء الامام الأسمر لكتب الأدب ودواوينه، لقراءتها ودراستها دراسة واعية متخصصة، ويفيد هذا على الأقل في التعرف على كتابين من كتب مكتبة الإمام، وهما ديوانا كعب وحسان، أو على الأقل كتب الأدب التخصصية التي حوت أشعارهما.

3 – قول الإمام أن عمه خبير في الشعر «الجائز وموازينه» يشير إلى معرفته الدقيقة بأغراض الشعر من جانب، وحكم الشرع في أنواعها وأغراضها الجائز منها وغير الجائز، وأكثر من ذلك معرفته بعلم العروض الذي عناه بقوله «وموازينه» وهو علم مهم لمعرفة صحيح الشعر وتفعيلاته وبحوره.

إذًا كانت وراء شخصية الإمام الأسمر الشعرية والأدبية، عوامل دفعت لتشكلها، ومنها تأثره بشعر عمه الشيخ أحمد الفيتوري ودراسته بالأدب، وربما كان اطلاعه على كتب الأدب كان من مكتبة عمه.

والتحليل السابق مهم أيضًا للكشف عن قضية هامة، وتتعلق بأسلوب الإمام المبسط في صياغة شعره والألفاظ والتعابير الميسورة التي استخدمها، فلا خلاف أن قصده منها

(1) الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية المسماة بالطريقة العروسية الشاذلية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1384هـ – 1964م، ص17.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

سهولة فهم كلامه ويسر حفظه وتداوله، لكن هذا لا يعني عدم قدرته على نظم وقرض الشعر الفصيح، بل يدل على براعةٍ قلَّ نظيرُها خصوصًا إذا عرفنا أن معاني التصوف ذوقية أكثر منها حسية، ويمكن استيعاب معانيها ومراميها في قوالب اللغة الفصيحة، ما بالنا وقد لخصها وأوضحها وشرحها بلهجة عامة الناس.

والإمام الأسمر من أئمة التصوف القلائل الذين أكثروا من نظم الشعر، فما ينسب له كم كبير من الأشعار تتجاوز 700 قصيدة عروضية فصيحة، و400 مقطعة باللسان الدارج، و800 على موازين الحسن الششتري، و500 على موازين الجعراني، بالإضافة لعدد كبير جدًّا من الأشعار الأخرى التي تجمع بين العامي والفصيح، كما تفيد المصادر التي أرخت له، لكن أغلب هذا الكم من الأشعار اندثر وضاع إلا ما وصلنا بطريق التواتر الشفهي الذي يعد من أعلى مصادر التلقي وثاقة وصحة.

وقبل أن ألج موضوع ورقتي، أحب أن أنوه إلى أن قضية ميل الإمام الأسمر قرض شعره باستخدام ألفاظ وتعابير تقرب للعامية ونظمه وفقًا لموازين غير الموازين المعتادة، يبدو أنها قديمة وتعرض بسببها الإمام للإنكار وعدم درايته النحو والعروض والبيان وغيرها من علوم العربية المتصلة بالأدب وفنونه، كما يشير إلى ذلك في قصائده العديدة، ومنها قوله في قصيدة من غر قصائده وأهمها، وهي قصيدة: «سيدي أبو راوي فحل ما ينساني»:

ننده ابن سالم والفقيه ابن توزر ... والقطب العالم شيخنا المشهر

نقسم على الظالم اللي علينا تكبر ... أمره ديناوي مفضوح اللساني

وابن سالم وابن توزر من كبار علماء الأدب واللغة، فابن سالم هو سالم بن أحمد بن سالم التَّمِيمي، المعروف بالمنتخب النحوي، صاحب «كتاب العروض» و«كتاب القوافي» و«كتاب صناعة الشعر»، والتوزري المعروف بابن النحوي وشهرته بقصيدته «المنفرجة» تغني عن التعريف به. أما ربطهما بشيخه الشيخ عبد الواحد الدوكالي «المشهر» في كل العلوم ومنها النحو والعروض والأدب، يبدو أن الإمام الأسمر أراد بذلك تضلُّعِه في علوم العربية ابتداءً من أستاذه الدوكالي، وانتهاء بأقطاب هذه العلوم وهما: ابن سالم المنتخب والتوزري، وببراعة كبيرة ذكر أول سنده في هذه العلوم وآخره، ونفهم من هنا أن الإمام

يروي علوم العربية عن شيخه متصلًا بالشيخين ابن سالم والتوزري. وهو بهذا التضلع وهذا السند يضرب به الإمام حجة كل «متكبر» بعلمه يتهمه بعدم معرفة النحو والعربية وآدابها.

وكون الإمام الأسمر ضليعًا في علوم الأدب المُسندة إلى رموز وأعلام النحو والأدب، فيمكنه فضح عدم دراية مخالفيه بـ«اللسان العربي» ببيان وجوه من فصيح الألفاظ المتداولة والموصوفة بالعامية في أشعاره، ولذا يصف خصمه بـ«مفضوح اللسان» رغم تكبره بعلمه عليه.

والواقع أن تأكيد الإمام على تضلعه في العربية وتمهره في آدابها، نلاحظه في أكثر من موضع في قصائده، كقوله:

فيتوري مشهر جدي من نسبه عال — في النحو معبر في علم البيان

ما يؤشر إلى أن استعماله للفظ العامي بكثرة في قصائده واستخدامه لموازين شعر غير مألوفة كان مثار جدل كبير في الأوساط العلمية، وهي قضية يجب أن تُدرس في إطار عمليات التحديث والتجديد التي كان يعمل عليها الإمام في كل الحقول المعرفية، ومنها الشعر والأدب، والأمر يحتاج لدراسات متخصصة لتتبع العبارات والألفاظ التي استعملها بشكل واسع في أشعاره، فلا بد وأن لها وجوهًا في العربية تثبت أصالتها، أما موازينه الشعرية فلا بد من دراستها وتسجيلها كأحد إبداعاته الأدبية في مجال الشعر للتجديد والتحديث في السائد الذي حَجَّر الإبداعات وحول بحور الشعر المتعارف عليها قوالب تسجن الإبداع وتحاصره[1].

ويمكن القول أن قصائد الإمام، رضي الله عنه، كانت على ثلاثة أنواعٍ وهي كالتّالي:

- **النّوع الأول**: قصائد فصيحة يحكمها الوزن العَروضي والقافية، ومن هذا القبيل قصيدته في مدح النّبي ﷺ وهي من البسيط وذات مطلع:

يقول عبد السَّلام ابن الولي الفاضل — أعني سليمًا ونجلَ السَّادة الكمَّل[2]

(1) قفة الصلاح: قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر سيدي عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، منشورات مركز العلامة الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص201.

(2) تنقيح روضة الأزهار ومنية السَّادات الأبرار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثَّقافيَّة، بيروت، ط1، 1966م، ص150.

- **النَّوع الثَّاني**: قصائد تشبه النّثر بفواصل السّجع، ومن هذا القبيل قصيدته التي خاطب بها الحُجّاج يوصيهم بجملة من الآداب ومطلعها:

يا قاصدَ الحجِّ نلت السَّعادة

طـــريـــق الـــعـــبـــادة

سلِّم على الهاشمي في بلاده[1]

- **النَّوع الثَّالث**: وهو ما كان أرفع من النَّثر واللهجة العاميَّة ودُونَ الفصيح، وهذا النَّوع له مقامُه أيضًا من موسيقى الشِّعر، وهو كذلك قريبٌ من الأوزان العَروضيَّة وله صدرٌ وعجزٌ، ولكنَّه لا يخضع للأوزان الخليليَّة، ومن هذا قوله:

صلُّوا على المبعوث بالسَّيف الماحي والدِّين المبثوث في كلِّ نواحي[2]

وهنا ملحوظةٌ مهمّةٌ وهي أنَّ الحضور البلاغيَّ لا يقتصر على الشِّعر الفصيح القائم على الأوزان الخليليَّة السِّتَّة عشر، وأنَّ العاميَّة في اللغة لا تستلزم خُلوَّها من البلاغة؛ لأنَّ البلاغة غير الفصاحة[3]، وقد خطَّأَ ابنُ خلدون الذين ينكرون أن يكون للعاميَّة بلاغة لعدم خضوعها للإعراب وقانون النُّحاة فقال: «وهذا إنَّما يأتي من فقدان الملكة في لغتهم، فلو حصلت له ملكةٌ من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إنْ كان سليمًا من الآفات في فطرته ونظره، وإلَّا فالإعراب لا مدخل له في البلاغة، إنَّما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرَّفع دالًّا على الفاعل، والنّصب دالًّا على المفعول، أو بالعكس، وإنَّما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو في لغتهم هذه»[4].

---

(1) سفينة البحور من كلام سيدي عبد السَّلام الأسمر وأتباعه، دار الكتب، طرابلس، ص8.

(2) نفس المصدر، ص51.

(3) البلاغة: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال. ينظر: كتاب التَّعريفات، الشريف الجرجاني، تحقيق جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م، ص 46. والفصاحة معناها: الإبانة والظهور وهي في المفرد: خُلُوصُه من تنافر الحروف، والغرابة مخالفة القياس، وفي الكلام هي خُلُوصُه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات. ينظر: التَّعريفات، ص167.

(4) مقدِّمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق عبد الله الدرويش، دار البلخي، دمشق، سوريا، ط1، 2004م، ج2، ص416.

ومن ناحية أخرى فإنَّ أغلب قصائد الإمام الأسمر تعتمد على نظامٍ تركيبيٍّ ينظّم سلسلةً من النّصائح والإرشادات والأمر والنّهي، ومن هذا النوع قوله:

لا تتبعوا فعل الشَّيطان اللي أفعاله مغِرَّه[1]

وأمّا عن عدد قصائد الإمام الأسمر فإنّه يقرب من أربعة آلاف قصيدة[2].

وأخيرًا فإنَّ الإمام الأسمر صاحب علمٍ وورعٍ وصلاحٍ، وهو أيضًا أستاذ التَّصوُّف السُّنيِّ، وعليه فما نسب له من سبٍّ وهجاء، وأنَّه ينتصر لنفسه من خلال كلامه، كلُّ هذا كذب وادِّعَاءٌ ادّعَاهُ من ساقهم إعصارُ البغض للشَّيخ وطريقه، وقد تصدَّى لهذه الفِرْية وفنَّدها كثيرون، ومنهم مفتي الدِّيار الليبيَّة الشَّيخ الطَّاهر الزَّاوي[3] -رحمه الله- في كتابه «أعلام ليبيا» فقال: «وقد ابتلي بأقوام من العامَّة بعد موته وصفُوهُ بما ليس فيه، ونسبوا إليه ما لم يقله، وألَّفوا فيه قصائد عامِّيَّة ينبو عنها السَّمع ويمجُّها الذَّوق، نسبوها له زُورًا وبُهتانًا»[4].

وحيث إنَّ الإمام الأسمر أحد رموز التصوُّف السنِّي في العالم الإسلامي وإمَامُه إلى يومنا هذا، فقد بات الوقوف مع قصائده ومحاولة دراستها أمرًا حتميًّا في الدِّفاع عن التَّصوُّف الذي تقاذفته أمواج الأفكار المستورة حتّى صار عارًا ومَنْقَصَةً لأتباعه، ومن هنا وردت فكرة الكتابة والسَّبب لاختياري هذا الموضوع الموسوم بـ«التَّعابير الجَماليَّة في القصائد الأسمريَّة».

ثمَّ إنَّه ومن منطلق الدّفاع عن مقام الإمام الأسمر العلمي في ميدان الشِّعر الصُّوفي والجمال اللغوي المشتمل على - المعاني - والبيان - والبديع - والذي عُرف به في شِعْره وكلامه وأنَّه أستاذه فضلًا عن بقيَّة العلوم، فإنِّي عقدت العزم محاولًا الكتابة في هذا المجال الذي برز فيه الشَّيخ، والذي يجب أن يُعرَّف لِيَشْرُفَ به ميدانَا العلمِ والمعرفة الصُّوفيين.

---

(1) النَّفحات الفيتوريَّة في القصائد الأسمريَّة، أحمد حامد عبد الكريم الشريف، دار السَّعادة للطِّباعة، القاهرة، ط1، 1998م، ص51.

(2) رسائل الأسمر عبد السَّلام بن سليم الفيتوري الإدريسي الحسني إلى مريديه، مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2002م، ص57.

(3) هو الشَّيخ الطَّاهر أحمد الزَّاوي الليبي الأزهري المولود بليبيا-الزَّاوية الغربيَّة-عام 1880م والمتوفَّى ﵀ سنة 1986م، ومن شيوخه الشّيخ محمَّد بن عمر الصَّالح وبمصر الشَّيخ حسن مذكور ومن مؤلَّفاته: جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، وأعلام ليبيا، وغيرها من كتبه في الأدب والفقه والتاريخ.

(4) أعلام ليبيا، الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط2، 2004م، ص224 و225.

وأمَّا عن أهميَّة الموضوع فإنَّها تكمن في التعرُّف على المفهوم الجمالي من قصائد الإمام الأسمر، والتي تُعدُّ أحدَ أكبر الدَّعائم والأسس الفعَّالة في نشر الفكر والسُّلوك والمنهج الأسمري للطَّريقة الصُّوفيَّة، ذلك الشِّعر الذي يستعرض فيه الشّيخُ الأدبَ والمقاماتِ والمراتبَ، وما إلى ذلك ممَّا ينبغي أن يتحلَّى به المريد.

كما أنَّني لم أقفْ على دراساتٍ سابقةٍ للقصائد الأسمريَّة ودراستها من النَّاحية اللغويَّة أو البلاغيَّة كما هو ديدن هذا البحث ودائمًا «عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود».

وأمَّا عن إشكاليَّة الموضوع فإنَّ هذا البحث يُجيب على تساؤلٍ وفحواه: هل القصائد الأسمريَّة ذات طابعٍ لُغويٍّ بلاغيٍّ تُسْتنبطُ منه اللَّمساتُ وجماليَّاتُ العبارة؟

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التّحليلي الذي أحاول من خلاله إبراز شيء من القيمة الجماليَّة لقصائد الإمام الأسمر.

وفي الجانب العلمي للبحث اعتمدتُ المصادر المهمَّة والأساسيَّة في الموضوع، وعزوتُ ما يجب عَزْوُهُ من الآيات والأحاديث ونحو ذلك، وقد جاء هذا البحث على النَّحو التَّالي:

لمحةٌ عن الجمال في شِعْر الإمام الأسمر

الجمال هو ما يثير فينا إحساسًا بالانتظام والتَّناغم والكمال، وقد يكون هذا في مشهدٍ من مشاهد الطّبيعة أو في أثرٍ فنِّيٍّ من صنع الإنسان[1].

فالشِّعْر أثرٌ فنِّيٌّ من صنع البّشر وبلاغةُ تعبيره وحسنُ أسلوبه ممّا تهتزّ له الرّوح وتطرب له النّفس وترنّ الرّوح لحسنه تعظيمًا فتحفظه وتنطقه ترنيمًا.

ولقد كانت هذه القيمة الجماليَّة حاضرةً في وجدان الإمام الأسمر حضورًا كبيرًا في أغلب قصائده، حتَّى صارت ذاتَ ثراءٍ معرفيٍّ مليءٍ بالمعاني الجماليَّة التي تجذب الرُّوح قبل الأذن لسماعه ومن ثمّ تَذَوُّقِه، وما ذلك إلَّا لأنَّ ألْفَاظَه بعيدةٌ عن الفظاظة والقسوة والتَّصنُّع، وهذا من حيث العموم للقصائد الأسمريَّة.

ومن ناحية أخرى فأغراض الشِّعر كثيرةٌ ومتنوِّعةٌ إلَّا أنَّ القصائد الأسمريَّة يغلب عليها نوعانِ من أغراض الشِّعْر، وهما:

(1) المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م، ص85.

- **الطَّابع الدِّينيُّ** الصُّوفيُّ بأسلوبه الدَّاعي للطَّاعة والمداومة على ذكر المولى سبحانه، ومنه قوله:

الـذّكـر يـشـرح لـي صـدري   تجلى الهموم الـكـلّ معاه
والـخـيـر مـن ربـي مجري   للي تـرك نفسه وهـواه[1]

- **قصائد ذاتيَّة** يعبِّر فيها عن خواطر وأحوال تعتريه أحيانًا، فيجد نفسه أمام حدث مرَّ به وانفعل له مثل قوله:

والـقـلـب مـالـي بـالأنـكـاد   وبقيتُ في مَـهْـمَـهِـيَّـه[2].[3]

وفي هذا البحث وإذ نتحدَّث عن القصائد الأسمريَّة والتَّعابير الجماليَّة فيها، فإنَّني أمام أستاذ الفصاحة وجبل المفردات الدَّالة على الجمال بمختلف مستوياته وميادينه، وأمام تنوُّعٍ في أساليب التَّعبير واللغات المليئة بالجمال، ومن أهمِّها جمال المطلع:

- جمال المطلع:

جمال المطلع هو أوَّل انطباع عن القصيدة، حتَّى إنَّه يُعرِّف بالحالة النَّفسيَّة للشَّاعر، وعليه فهو مهمٌّ وأساسيٌّ بالنّسبة للسّامع، وهذا أنموذج من مطلع قصيدة قِيلت في حضرة سيِّدنا محمَّد -صلى الله عليه وسلم-:

بانـت سـعاد فقلبـي اليـوم متبـول   متيّـم إثرهـا لـم يفـد مكبـول

وعلى الرَّغم من جاهليَّة مطلعها، والتغزُّل العالق بها، وعِداءِ صاحبها للنَّبيّ -عليه الصَّلاة والسَّلام- لكنَّها نالت إعجابَه حتّى إنّه خلع بردته وأكرمه بها.

وجمال المطلع في القصائد الأسمريَّة غالبًا ما تزيِّنه البسملة وتكسوه الصَّلاة على النَّبي ﷺ بهاءً وجمالًا، ومن هذا القبيل ما هو آت:

صلُّـوا علـى زيـن التَّـاج محمَّـد العدنانـي   كنـز الفقيـر المحتـاج الأمجـد رفيـع الشَّـاني[4]

إنَّه الجمال البرَّاق المتلألئ الذي افتتحت به القصيدة بعيدًا عن الدُّنيا والأطلال.

---

(1) سفينة البحور، مصدر سابق، ص26.
(2) نفس المصدر، ص31.
(3) المهمهة اسم سمِّي به الفعل لأنَّه زجر ويقال: مهمهتُ به أي: زَجَرْتُهُ. ينظر: الصِّحاح للجوهري، ص1103.
(4) سفينة البحور، مصدر سابق، ص61.

ولفظة «**زين**» من الزِّينة والجمال، وجاءت لتتحقَّق العلاقة الاستحبابية بين الزِّينة والصَّلاة عمومًا، ثم أضاف الزِّينة للتَّاج، وهنا تقول العرب: «توَّجه فتتوَّج، أي: ألبسه التَّاج»[1]، وسيِّدنا محمَّد ﷺ قد توَّجه ربُّه بكلِّ كمالٍ حتَّى جعله فوقَ الخلق العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القَلَم:4].

ومن جمال المطلع أيضًا النُّعوت بصفات الرِّفعة والعلو مع التَّناسب كـ«**الزِّينة للتَّاج**» و«**الكنز للفقير**» و«**الأمجد**» لـ«**رفيع الشأن**».

وثمّةَ علاقة أيضًا بين «**محمَّد**» و«**العدناني**» حيث إن اسم «**محمَّد**» يفيد المبالغة في الحمد ودوام القيام عليه، وأمَّا «**العدناني**» فمن معانيها ملازمة المكان والبقاء فيه تقول العرب: عدن القوم بالبلد: أي أقاموا وطال عدنُهم فيه وعدُونهم[2]، وبالتَّالي فهي علاقة ملازمةٍ وبقاء.

وفي المصراع الثَّاني جاءت العلاقة الكبرى بين «**كنز**» و«**الفقير**»، وقد صحَّ أنَّ الصَّلاة على النَّبي -صلى الله عليه وسلم- توسِّع الرِّزق وتدفع الهمَّ الذي منه الفقر.

فعن أُبيِّ بن كعب -رضي الله عنه- أنَّه قال للنَّبيِّ -صلى الله عليه وسلم-: «يا رسول الله، إنِّي أكثر الصَّلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: ما شئت، قال: قلت: الرُّبع؟ قال: ما شئت، فإنْ زدت فهو خير لك، قلت: النِّصف؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قال: قلت: فالثلثان؟ قال: ما شئت، فإن زدت فهو خير لك، قلت: أجعل لك صلاتي كلَّها، قال: إذًا تكفى همُّك ويغفر لك ذنبك»[3].

- الجمال المعنوي:

لا شك أنّ الشِّعر الصُّوفي عمومًا والشِّعر الأسمري على وجه الخصوص ممتدَّانِ من الزُّهد والتَّقوى والتَّمسك بالكتاب والسُّنَّة، ومن هنا فقد كانت القصائد الصُّوفيَّة مليئة بألفاظ الرِّجاء والمناجاة والتَّحذير من النَّار وملذَّات وشهوات الدُّنيا، وقد نبعت قصائد الشَّيخ سيِّدي عبد السَّلام من هذا الهاجس المليء بالخوف والودِّ الخالص للخالق ﷻ، وإليك لذَّة وجمال المعنى من نفس القصيدة:

(1) الصّحاح تاج الّلغة وصحاح العربيّة، إسماعيل الجوهري، تحقيق محمد تامر وآخرون، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2009م، ص138.

(2) أساس البلاغة، أبو القاسم الزمخشري، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1998م ص 638.

(3) أخرجه الترمذي.

يـا مـن خلقـت جهنـم وهيئتهـا للكافـر   أنـا عبيـدك مسـلم وعـن قـرب ليـك مسـافر

سـامح الجانـي وارحـم أنـت الرَّحيـم الغافـر   بجـاه النَّبـي والأزواج وأصحابـه الأعيـان[1].

ومقام المشاهدة هو أن تتَّقي حضور غير الله على قلبك لتكون مع الله[2]-سبحانه وتعالى-، وعليه فإنَّ ذكر مثل هذه المشاهد التَّصويريَّة التي تؤدِّب النَّفس وتصقلها كثيرٌ جدًّا في القصائد الأسمريَّة وَفْقَ المذهب الشِّعري الصُّوفي الأسمري.

وذِكْرُ المخوِّف به وهي «**جهنم**» بالخلق والتّهيئة والاستعداد للكافر من أرقى جمالات السّرد المكوّنِ من الخبر والإنشاء.

وفي هذين البيتين تجانس وقرب كبيران حيث إنَّ ذكر النَّار واستعدادها وتهيئها للكافر يستوجب حضور عبارات الانكسار مثل – سامح – ارحم – الرّحيم – الغافر. وفي البيتين جملة من الأوجه البلاغيَّة كالخبر والسَّجع والإنشاء الطَّلبي ومنه الدُّعاء هنا وهو: طلب الأدنى من الأعلى.

- الجمال اللَّفظي:

ومن الجمال اللفظي الصُّوفي الأسمري ما جاء في القصيدة الأسمريَّة في مدح النَّبيِّ ﷺ، والذي منها:

حُلْـوُ المَرَاشِـفِ يشْـتَفي العليـلُ بـه   فكـم شـفى برحيـق الثَّغـر مـن عِلَـلِ[3]

جاء هذا التَّعبير المحبوك المسبوك بالعمق المعنوي المتكوِّن من ألفاظ بليغة في حقِّ الممدوح ﷺ، حتَّى صيَّر علاقةً فائقةَ الجمال بين قوَّة الحبِّ الصُّوفي والتَّأثير اللفظي الأمر الذي جعل الحسنَ يطفو على القصيدة مبرزًا أكبر الصُّور البلاغيَّة.

وقد صوَّر لنا جمال الألفاظ ريقَه الشَّريف -عليه الصَّلاة والسَّلام- بأنَّه المرهم الذي يُتداوى به، ثمَّ جاء بـ«**كم**» الخبريَّة على الجملة الفعليَّة لإفادة الكثرة المخبرة عن التّجربة الحاصلة من الاستشفاء بريقه الشَّريف.

و«**كم**» الخبريَّة يُؤتى بها كنايةً عن عددٍ مبهمٍ، وهنا فعدد الذين شفاهم الله بريق رسوله عليه الصَّلاة والسّلام لا حصر لهم.

(1) سفينة البحور، مصدر سابق، ص64 و65.
(2) التسهيل لعلوم التَّنزيل، محمد بن جزيء الكلبي، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1995م، ج1، ص51.
(3) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص 150.

و«**كم**» الخبريَّة تقتصر على الماضي فقط من الأفعال، وكذلك فالاستشفاء هنا خُصَّ به خاتم المرسلين وريقُه المداوي دون غيره من الأنبياء.

ولأنَّ «**كم**» الخبريَّة لا تحتاج إلى علامة استفهام بعدها على عكس الاستفهاميَّة، فكذلك المُدَاوَى بريقه عليه الصَّلاة والسَّلام لم ولن يتطلب دواءً لذاك الدَّاء أبدًا، وعَيْنُ سيِّدنا قتادةَ خيرُ دليل حيث صارت أحدَّ وأدقَّ عينيه ولم ترمد.

ولأنَّ معجزاته ﷺ كانت ولا تزال محلَّ يقين، فقد جاء بـ«**كم**» الخبريَّة التي لا تحتاج إلى جواب، و«**كم**» هذه من الأسماء التي لها الصَّدارة، وحبيبنا -عليه الصَّلاة والسَّلام- له الصَّدر والصَّدارة على كلِّ البشر لا سيَّما الأنبياء.

المبحث الثّاني: الأساليب المستخدمة.

هذا المبحث يدرس بعض الأساليب البلاغيَّة الجماليَّة في قصائد سيِّدي عبد السَّلام الأسمر، والتي منها وأولها:

- **براعة الاستهلال وهي**: أن يذكر المؤلف في طالعة كتابه ما يشعر بمقصوده[1]، وقد جاء ملمح براعة الاستهلال في قصيدة الحجّ ومطلعها هو المحلّ وفيه:

يا قاصد الحجِّ نلت النَّجام

طـــريـــق الـــسَّـــلام

سلم على الهاشمي والمقام[2]

فهنا تبرز براعة الاستهلال وتحديدًا في عبارة «**يا قاصد**»، حيث استهلَّ القصيدة بكلمة «**القصد**»، وتلك تعريف الحجِّ لغةً[3].

- **العكس أو التَّبديل**: وممَّا جاء فيه هذا النّوع من كلام الإمام قوله:

إلهي بحقِّ النَّبي الشَّريف ... لطيف الكلام كـلام اللطيف

من قصيدة مطلعها:

إلـهـي بحرمة بـدر التَّمام ... تفضَّل علينا بحسن الختام[4].

---

(1) الكليّات، أيوب القريمي الكوفي، تحقيق عدنان درويش وآخرون، مؤسَّسة الرِّسالة، دمشق، ط2، 2018م، ص202.

(2) سفينة البحور، مصدر سابق، ص8.

(3) الحجُّ لغةً: القصد، وكل من قصد شيئًا فقد حجَّه. ينظر: الكليَّات ص300.

(4) سفينة البحور، مصدر سابق، ص75 و76.

من الوجوه البلاغيَّة الواردة في قصائد الإمام الأسمر العكس، وهو: أن تعكس الكلام فتجعل في الجزء الأخير منه ما جعلته في الجزء الأوَّل؛ وبعضهم يسمِّيه بالتَّبديل؛ وهو مثل قول الله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ [الرُّوم:19]، وكقول القائل: اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكر لك[1].

- **الطِّباق**: ويسمَّى التَّضادَّ، وهو الجمع بين متضادَّين[2]، وهنا بَيْنَ المزايا والعيوب:

وجلب المزايا ودفع العيوب وإطفاء نار الهوى والهيام

إلهي بحرمة بدر التمام تفضَّل علينا بحسن الختام[3]

- **التَّشبيه**: وهو الدَّلالة على اشتراك شيئين في وصفٍ من أوصاف الشَّيء في نفسه كالشَّجاعة في الأسد، والتَّشبيه هنا يعتبر تامًّا؛ لأنّه استوفى أركانه الأربعة مشبَّه ومشبَّه به وأداة ووجه الشَّبه[4]، ومحل هذا النَّوع من التَّشبيه عند قوله:

زين جميل بهي لا نظير له كأنَّه البدر أو كالشَّمس في الحمل[5]

التَّشبيه التّامُّ في: «**كأنَّه البدر أو كالشَّمس**» حيث شبَّه النَّبيَّ -صلى الله عليه وسلم- بالبدر وهو المشبَّه والبدر مشبَّه به، وذكر أداة الشَّبه وهي الكاف، وأمَّا وجه الشَّبه هنا فهو الجمال والبهاء.

- **الاستعارة المكنيَّة**: ولغةً هي: من قولهم: استعار المال إذا طلبه عاريةً، وفي اصطلاح البيانيِّين: هي استعمال اللَّفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينةٍ صارفةٍ عن إرادة المعنى الأصلي.

وإذا ذكر في الكلام لفظ المشبَّه فقط، وحذف فيه المشبَّه به، وأشير إليه بذكر لازمه المسمَّى «تخييلًا» فهي مكنيَّة[6].

ومحلُّها هنا قولُه:

---

(1) الصِّناعتين في الكتابة والشِّعر، أبو هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي وآخرون، دار الفكر العربي، بيروت، ط2، 1419هـ ص385.

(2) التفتازاني: سعد الدِّين مسعود بن عمر، المختصر شرح تلخيص المفتاح، سعد الدين التفتازاني، تحقيق عجاج عودة برغس، دار التَّقوى، دمشق، ط1،2021م، ص 673.

(3) سفينة البحور، مصدر سابق، ص77.

(4) المختصر شرح تلخيص المفتاح، مصدر سابق، ص650، وينظر: التعريفات، مصدر سابق، ص120.

(5) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص150.

(6) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد السيد الهاشمي، تحقيق يوسف الصميلي، المكتبة العصريّة، بيروت، د ت، ص258 و260.

يغار غصنُ النَّقا من حسن قامته ويختفي البدرُ تحتَ الغيم من خَجَلِ[1]

قوله: «**يغار غصن النَّقا... ويختفي البدر تحت الغيم... خجل**» حيث شبَّه غصن النَّقاء وهو المشبَّه به بالإنسان، فحذفه ورمز له بشيءٍ من لوازمه وهو الغيرة فتلك استعارة مكنيَّة.

وكذلك «**البدر**» فقد شبَّهه بالإنسان أو بالمرأة فحذفها ورمز إليها بلازمها وهي الخجل والتَّواري تحت الغيم، وهي مكنيَّة أيضًا.

- اللَّمسات الأسلوبيَّة الأسمريَّة:

ونعني بها أسلوبيَّة التَّعبير من حيث الذِّكر والحذف والوصف، وهذا كثيرٌ أيضًا في القصائد الأسمريَّة، وإليك بعض الأمثلة:

هيَّا[2] يا أولادي يا من هو مغروم ويأخذ منِّي المعاني

يأخذ نصيحة في هذا اليوم يفهم دليل القرءان

وفي هذين البيتين ما يُعرف بالتَّفصيل بعد الإجمال، حيث إنَّ النَّصيحة التي ذُكرت في البيت الثَّاني هي من جملة المعاني: «**ويأخذ منِّي المعاني**».

ثمَّ قال:

يا من يصلِّي الفجر المعلوم والصُّبح قبل أن يراني

ظهرٌ وعصرٌ ومغرب متموم صلَّى العشا بات هاني

فالوصف للمغرب بـ«**المتموم**» هنا للدّلالة على لزوم الثّلاث ركعات في المغرب حضرًا وسفرًا على العكس من الظّهرين والعشاء اللذيْن يعتريهما النَّقص في السَّفر.

ثمَّ قال:

اسمع كلامي من بعد اليوم يا تعس من هو آذاني

يبقى كما البئر المعدوم ما عاد يسقي سواني[3]

---

(1) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، 150.

(2) هيَّا: اسم فعل أمر ومعناه أسرِعْ وأقبل. وصُدِّرت القصيدة بها لإيقاظ قلوب المريدين وطلب استعدادها لما هو آتٍ من النَّصائح، ويؤكد هذا أسلوب النداء التَّشويقي «**يا من هو مغروم**».

(3) هذه القصيدة نقلتها عن الشَّيخ أحمد سالم الهاشمي عن والده عن جدِّه أنَّها من كلام الشَّيخ سيِّدي عبد السَّلام الأسمر.

فقوله: «**كما البئر المعدوم**» تعبيرٌ تمثيليٌّ جميلٌ ومختار بدقَّة فائقة؛ لأنَّ البئر والدَّلو والدَّابَّة من الوسائل المعروفة حينها، وهذه أيضًا **كناية** عن انعدام النَّفع من هذا الذي يؤذي ويعادي كما ينقطع النَّفع من البئر متى عُدمت، والغرض من الكناية هنا الابتعاد عن الأسلوب المباشر، وهذا أحد أغراضها.

وفي هذه القصيدة انتقالٌ في التَّعبير الكلامي من اتِّجاهٍ لآخرَ، وهو ما يعرف بـ«**أسلوب الالتفات**» عند البلاغيين، فتارةً بأسلوب النِّداء وأخرى بالمخاطب ومرة بالغائب وهكذا[1]:

- هيا يا أولادي - أنا عطاني - اسمع كلامي - إن كنت، وهلمَّ جرًّا من الالتفات الذي يدفع سآمة السَّامع والمتلقِّي.

خاتمة:

وأختم ورقتي، بذكر نتائج جولتي العاجلة في رياض أزهار أشعار الإمام الأسمر المونقة وغزير أنهار معانيها المتدفقة، فأقول وبالله التوافق:

1 - إن الإمام الأسمر، من أئمة البلاغة والنحو والشعر العربي، غير أن كلامه المنظوم متعدد الأغراض والموازين، وتعابيره الصوفية العميقة، حجبته عن اهتمام الدارسين والباحثين، خصوصًا وأن أشعاره تُعدُّ بالآلاف، وأغلبها لا يزال محفوظًا في الصدور، ولم يجمع في الكراريس والسطور إلا القليل منه.

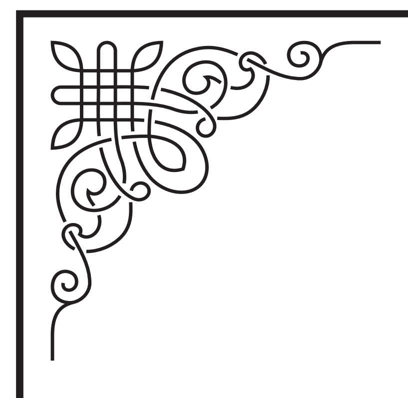
2 - أبانت هذه القراءة العاجلة، عن إمكانية بناء معايير وقواعد يمكن الاحتكام إليها عند تمييز شعر الإمام الأسمر عن شعر غيره، فلشعره لون ونمط خاص يتميز به، من خلال استخدامه الراقي والعذب للصور البلاغية والتحسينات والتعابير الجمالية، وبمزيد تكثيف الدراسات يمكننا تمييزه بمسمى خاص كـ«الشعر الأسمري».

3 - من ذلك، كما مر، استخدام الإمام الأسمر لما يمكننا وصفه بـ«أسلوب الكلمة المفتوحة»؛ لزيادة ثراء اللفظة الواحدة بالعديد من المعاني، ومن ثَمَّ الدلالات، وإن كان هذا الأسلوب عرفه غيره من الشعراء، إلا أنه عنده مختلف، فهو شعر من مقام الصوفي المربي الذي يفتح الباب للقارئ أو السامع للمشاركة في إنتاج المعاني من اللفظ الواحد، وهو ذوق صوفي أسمري خاص كما نراه في وصفه للذات المحمدية، صلى الله

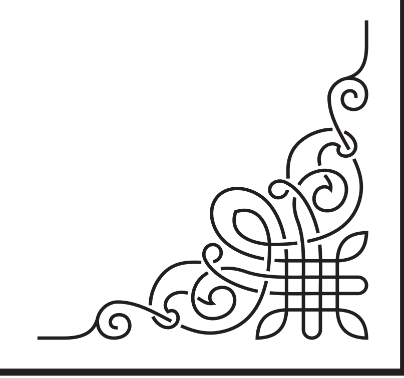
(1) الكفوي: الكليات، ص141.

وسلم وبارك على صاحبها أتم وأكمل صلاة وسلام، ومن يطيق وصفها إلا الكمل من الرجال مثله، رضوان الله عليه، وهو يعلم أن عقول وأذهان غير تقصر عن مقامه، فلا بد من التقريب بألفاظ مفتوحة سهلة ميسورة غزيرة المعاني.

4 - لكن في نفس الوقت، نراه ملتزمًا بتحديد المعنى في مقام التربية الصوفية بالنصح والإفادة، فيوظف فيها طاقات إبداعية تكشف عن شخصية تختزن العشرات من قواميس اللغة وتنقلات معاني مفرداتها في التداول بين الناس لا في زمنه والأزمان التي سبقته، بل بمهارة يستشرف تنقل مدلولات الكلمات مستقبلًا، فتعبيره في الكلمات، وإن ظهرت عامية، إلا أنها فخمة مزينة بالصور البلاغية، والمجاز والكناية والاستعارة والتورية وغيرها من بديع وبيان البلاغة العربية.



5 – في الدعوة والانتشار






الإمام الأسمر ورجاله التسعة في الحبشة وثيقة من وثائق التواصل الحضاري الأفريقي

الشيخ محمد بصري

باحث في التاريخ الثقافي - إرتريا

ملخص:

تهدف هذه المقالة إلى الكشف عن جانب من جوانب تاريخ دعوة الإمام عبد السلام الأسمر، وتحديدًا جانب انتشار دعوته ووصولها إلى آفاق وأقطار وبلدان عدة، ومن بينها شرق أفريقيا التي عرفت دعوة الإمام الأسمر في وقت مبكر من تاريخها من خلال تلاميذه المباشرين الذين شكلوا أهم وثيقة من وثائق التواصل الثقافي والعلمي والحضاري بين ليبيا والحبشة.

ولأن الإمام الأسمر رجل مجدد من مجددي الدين الإسلامي، فلم تكن دعوته التجديدية قطرية أو موجهة لشريحة بعينها، بل كانت شاملة متكاملة الأركان والاتجاهات والأهداف، وهو ما دلت عليه رسائله التي وجهها إلى أتباعه في المغرب وتونس ووسط أفريقيا في تنبكتو، تلك الرسائل وإن كانت توضح مضامين وملامح مشروعه الإصلاحي، إلا أنها في الجانب الأهم تكشف عن انتشار واتساع دعوته ووصولها إلى العالمية.

وفي هذا السياق، رأينا أن نكشف في هذه المقالة عن وصول هذه الدعوة إلى الحبشة أيضًا، وعن شخصياتها الدعوية وزمن وصولهم وأثرهم وفعلهم، بل وأكثر من ذلك الاحترام الكبير الذي حمله أهل الجبشة لهؤلاء الرجال، فلا تزال ذكراهم خالدة في الوجدان، وأضرحتهم الباقية إلى اليوم أكثر شاهد على ذلك للدلالة على أحد أهداف

مشروع الإمام الأسمر، وهو ربط الصلات بين الأقطار الإسلامية في إطار ما يمكن أن نسميه بالوحدة الإسلامية في المشروع الأسمري.

إننا في هذه الورقات نكشف عن جانب جديد من جوانب حياة الامام الأسمر ومشروعه الإصلاحي العالمي، وفكره الدعوي في كافة أقطار الإسلام وربوع الدنيا.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الدعوة، الانتشار، الحبشة، تلاميذ الإمام.

مقدمة:

من المعروف أن الحبشة وصلها الإسلام في وقت مبكر من تاريخ الدعوة الإسلامية، عبر هجرة رهط من صحب النبي ﷺ في صدر الدعوة الأولى للبعثة المحمدية، تلك الهجرة التي جعلت للحبشة حقًّا على المسلمين أوجبه ما فعلته مع المهاجرين الأول من حفظ جوارهم ونجدتهم والترحاب بهم. ومن ذلك اليوم لم يتوقف تدفق أعداد من المسلمين لسكنى الحبشة في جوار أهلها، وصارت من حواضن الإسلام الكبرى عبر التاريخ.

ولا أعتقد أننا بحاجة للتذكير بأن أول من رفع الأذان بين يدي حضرة النبي ﷺ، هو بلال الحبشي، وأن من بين أهم رواة الحديث والفقه في عهد التابعين كان عطاء بن رباح الحبشي، لكن التذكير بهذه الشخصيات الكريمة مهم في الدلالة على عمق الحبشة ورجالها في تاريخ الإسلام.

وقبل الولوج إلى موضوع هذه المقالة، لعله من المفيد المرور ولو بشكل عاجل على تاريخ التصوف في الحبشة، ولاتساع موضوعه وعراقته سنقتصر على ذكر أسماء بعض الشخصيات الصوفية، فإن اشتهر في تاريخ التصوف أقطاب كسيدنا ياقوت الحبشي أحد أهم خلفاء الإمام الشاذلي مجدد التصوف المعروف، واشتهر بين المؤرخين عبد الرحمن الجبرتي الحبشي بكتبه في التاريخ، إلا أن شخصيات أخرى كانت فاعلة ولها دورها في الحبشة لا يبدو أن الكثير من المتابعين للتاريخ الصوفي يعرفها، وإن عرفها البعض وجب التذكير بها.

ومنهم الشيخ عثمان بن سودكيت الذي صحب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، وصار من كبار تلاميذه، والشيخ علي الجبرتي الذي وصل أثره إلى مصر، فأنشأ فيها مسجدًا بالقرب من الإسكندرية، وأوقف عليه أوقافًا كثيرة، والشيخ أبو الخير نزيل المدينة المنورة الذي اشتهر بلقب «الدعوي»؛ لكثرة دعوته وأتباعه. وبمكة المكرمة نزل الشيخ ثقف الحبشي واشتهر فيها.

وممن ألف في التصوف واشتهرت كتبه، الشيخ جوهر الشنكي، الذي انتهت اليه الفتيا في المذهب المالكي، وله كتاب: «الصلوات النورانية على خير البرية» والعشرات من القصائد الأخرى، والشيخ حسن الجبرتي الورهمني، صاحب التفاسير في القرآن الكريم، والشروح في الفقه واللغة، وله شرح على البردة، الشيخ سيد بن فقيه زبير الكاكوري ألف «ترتيب السلوك» و«إتحاف المريد» وغيرها.

وحتى لا نبتعد عن موضوع مقالتنا، يجب أن نشير إلى أحد موائز العمل الصوفي في الحبشة، وهو انتهاج رجاله نهج الرحلة للدعوة، كالشيخ صالح بن سالم الفقيه، والحاج عبد الجليل بن فرج النبري، وغيره الكثير حتى صار التصوف في الحبشة يعرف بهذا النهج، وعليه سار أئمة التصوف في العصر الحديث لنجد أن طرقًا كالصالحية والرشيدية والختمية.

لقد كان رجال التصوف يوفدون تلاميذهم للدعوة، ومن بين الأقطار التي هدفوا لنشر الدعوة فيها أرض الحبشة، فقد وصلها الشيخ محمد هاشم الميرغني مرسلًا من والده الشيخ محمد عثمان، فجال في البلاد ونشر فيها الطريقة الختمية، ومثله كثيرون كالشيخ محمد فقيه المروطي الكوزي الحسيني الرحلة الداعية.

ومن أبرز من اهتم بالدعوة في الحبشة وأرسل تلاميذه إليها، الإمام سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري الإدريسي الحسني الشريف.

الإمام الأسمر وانتشار دعوته في أفريقيا

الاتصال بين الإمام الأسمر وأفريقيا التي كانت تعرف ببلاد السودان يبدو عريقًا ووطيدًا، ليس من خلال الوثيقة التي تمثلها رسالته إلى أتباعه في تنبكتو فقط،[1] بل يبدو

(1) تنظر رسالة الإمام الأسمر إلى أتباعه في تنبكتو في: رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص231.

أن الاتجاه نحو أفريقيا كان قبل ذلك، فبعض الشخصيات في الطريقة العروسية بالفعل اتجهت للدعوة في أواسط أفريقيا، وأهمهم الشيخ فتح الله أبو رأس[1]، الذي يعد من أشياخ الإمام الأسمر المباشرين، ففي ترجمته التي كتبتها الإمام الأسمر قال: «وانتقل من بلادنا إلى أن وصل إلى بلاد السودان ومات فيها وقبره يزار ببرنو»[2]. وشخصية الشيخ أبي رأس يبدو أنها من الشخصيات التي بذلت جهدًا كبيرًا في نشر الدعوة العروسية زمن الإمام الأسمر، فما يفهم من ترجمته أنه كان رحالة للدعوة، فقد أقام زمنًا في الأزهر بمصر، والقرويين في المغرب، أستاذًا وداعية، بالإضافة لوجود قبل ذلك في القيروان حيث كان مفتيًا فيها، وقبل رحلته إلى أفريقيا أقام زمنًا في ليبيا، في طرابلس وبني وليد، ويشعرنا قول الإمام الأسمر: «وانتقل إلى بلادنا إلى أن وصل إلى بلاد السودان» أنه تنقل للدعوة بين العديد من المناطق إلى أن وصل إلى برنو وهي محطته الأخيرة.

ويبدو أن العلاقة بين الإمام وشيخه أبي رأس علاقة وطيدة، والتي كان يعبر بقوله: «وكان يحبني كثيرًا ويقول لي: يا ولد ولدي. وكنت أقول له أنا: يا جدي أبو رأس»[3]، إذ إن أبا رأس هو شيخ الشيخ عبد الواحد الدوكالي أستاذ الإمام الأسمر، تلك العلاقة يبدو أنها لم تنقطع بارتحال الشيخ أبي رأس، بل استمر الاتصال بدليل أنه حدد وعرف مكان وصوله الأخير في برنو، وبتقديري أن الإمام الأسمر تابع أعمال الشيخ أبي رأس الدعوية في برنو، وهو ما يمكن أن نفهمه من قوله: «وقبره مشهور يزار ببرنو» ومعرفته بقبره وأنه مشهور ويزار تعني أنه كان متابعًا عن قرب لضريح الشيخ أبي رأس الذي ربما يكون قد بني إلى جانب معقل دعوي أسسه الشيخ أبو رأس هناك.

وفي كل الأحوال لدينا وثيقة هامة تؤكد العلاقة بين الإمام الأسمر وأواسط أفريقيا، وهي رسالته إلى أهل تنبكتو والتي لا تبدو مجرد رسالة إلى عدد ضئيل من الأتباع، فوجود الشيخين العاقب بن أقيث وأحمد بن أقيث على رأس مشيخة أتباعه في الطريقة العروسية

---

(1) الشيخ فتح الله أبو رأس القيرواني، أحد أهم رجال الطريقة العروسية، أخذها عن الشيخ احمد أبو تليس عن الشيخ أبي راوي الفحل عن الشيخ أحمد بن عروس التونسي مؤسس الطريقة العِروسية، تنقل الشيخ أبو رأس بين مصر والمغرب وليبيا، والتقى به الإمام الأسمر وأخذ عنه، ويُعدّ شيخ الشيخ الدوكالي شيخ الإمام الأسمر، انتهت به رحلاته إلى برنو حيث توفي فيها. تنظر ترجمته وافقة في: موسوعة القطعاني ، مصدر سابق، ج1، ص 364.

(2) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص76.

(3) نفس المصدر، ص75.

في تنبكتو يعني ازدهار الطريقة فيها[1]، لسببين: **أولاً**: للمكانة الكبيرة للعاقب وأحمد الآقيثيين في أوساط تنبكتو، فقد كانا قبلة العلم والمتعلمين في عصرهما، والتف حولهما المئات من طلاب العلم واتصل بهما غيرهم، **وثانيًا**: فإن تنبكتو كانت عاصمة العلم في أواسط أفريقيا وأثرها كان تعتدها إلى أماكن أخرى، حتى أن مدنًا علمية كان قريبة منها كمدينة أروان غاب إشعاعها في وسط إشعاع تنبكتو، فلا ريب أن أتباع الإمام الأسمر هناك كانوا بالمئات، ويدل على ذلك مضمون الرسالة التي تظهر أن الإمام كان يرسي معالم مشروع دعوي، بل وانتقل هذا المشروع خطوات هامة، فمن خلال القراءة التي أجراها شيخنا العلامة أحمد القطعاني في الرسالة فإن الإمام الأسمر ركز على تعليم اللغة العربية ونشرها في تلك المجاهل التي تغلب عليها الرطانات المحلية[2]، وهو فكر دعوي متقدم وواع كما يشير شيخنا القطعاني، ويدل على أن المشروع الأسمري قد خطا خطوات في طريق الانتشار من خلال تلك الرسالة.

اذًا، وصل صدى الإمام الأسمر إلى أفريقيا، وتمكنت شخصيته العلمية والصوفية من التأثير هناك وبناء قواعد دعوية راسخة ومهمة، ولكن يجب أن نشير إلى أن تأخر زمن اتصال أهل تنبكتو بالإمام الأسمر، فالعاقب بن أقيث زار الإمام الأسمر في زليتن سنة 979هـ - 1571م كما يفهم من الرواية التي نقلها عنه الشيخ كريم الدين البرموني في «روضة الأزهار»، إذ العاقب «توجهت لزيارة الشيخ - يقصد سيدي عبد السلام - من طرابلس ومكثت عنده أيامًا، وإذ به قائمًا على حال مخالف لعادته وهو يبكي ويقول: العين تدمع والقلب يخشع، ويحوقل ويسترجع، فقلنا: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على فراق أخيكم أحمد بن عبد الحميد اليربوعي توفي الآن بالزاوية الغربية»[3]، ولا ريب أن الشيخ أحمد اليربوعي توفي عام 979هـ. وهذا فرض وترجيح، فربما يكون اتصال العاقب وأحمد والأقيثيين بالإمام الأسمر تم في تلك الفترة أو قبلها بسنوات، فزيارة العاقب لا بد وأنها جاءت بعد سماعه بالإمام في أحد عواصم العلم في الحجاز أو في مصر.

(1) للمزيد حول ترجمة الشيخين العاقب وأحمد الأقيثيين، ينظر: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 500، 502.

(2) يكشف الشيخ القطعاني عن عمق الفكر الدعوي لدى الإمام الأسمر من خلال هذه الرسالة، للمزيد ينظر: القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م، ص 173.

(3) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 553.

الإمام الأسمر والسلطان أحمد الغازي في الحبشة

لكن ما يجب أن نؤكد عليه أن علاقة الإمام الأسمر بأفريقيا كانت أعمق وأقدم من اتصال الأقيثيين في تنبكتو به، فلدينا ثابت تاريخي لا شك فيه، ويتعلق بصلة عميقة بين الإمام الأسمر والسلطان أحمد الغازي، سلطان الممالك الإسلامية في شرق أفريقيا، الذي استشهد عام 949 هـ/ 1543م، ويبدو أن بينهما مراسلات وأن الإمام على دراية بالأوضاع التي كانت تعيشها الحبشة وحركة الجهاد فيها، حتى أنه أرسل تسعة من كبار أتباعه لمشاركة السلطان أحمد الغازي الجهاد فيها.

والواقع أن كتب التاريخ لم تعتن بذكر العلاقة بين الحبشة والإمام الأسمر، لكن ما لا شك فيه أن هذه العلاقة كانت قائمة وتواتر خبرها عبر الأجيال والقرون، وحفظتها الذاكرة المحلية، والسبب ربما في نشوء هذه العلاقة في زمن كانت في الأحداث متكاثفة حول تفاصيل وقائع الجهاد الذي كان يقوده السلطان أحمد الغازي في بلاد الحبشة، وطوي ظهوره ودوره كل أدوار الشخصيات الأخرى في ذلك الوقت، خاصة وأن كتب التاريخ انصرفت كليًّا لسرد أحداث ووقائع الجهاد وأخبار انتصارات المجاهدين على النصارى والبرتغاليين.

وإن كان البحث التاريخي يعتبر الوثائق والمصادر أساسًا لصحة الأخبار والوقائع والأحداث ومنطلقًا لبحثها ودراستها، ويشكك فيما دون ذلك، فمن المؤكد أن الأدلة الأثرية الأركيولوجية أقوى في شواهدها من الوثائق والمصادر التي عادت ما تنطوي على مواقف وآراء أصحابها، ووجود العلاقة بين الإمام الأسمر والحبشة يؤكده الدليل الأثري، ونعني به شواهد وأضرحة أصحابه الذين أرسلهم إلى المشاركة في الجهاد إلى جانب السلطان أحمد الغازي، فأضرحتهم لا تزال قائمة حتى الآن تعلوها قبابها التي تدل على تمييز أهل الحبشة لهم لدورهم واحترامهم ومكانتهم الكبيرة في وجدانهم.

وحديثنا هذا لتسليط الضوء على العلاقة بين الإمام الأسمر والسلطان أحمد الغازي، لفتح الآفاق للبحث والتنقيب أكثر في هذه العلاقة، فما زلنا نطمح أكثر في الوصول إلى معلومات تجلي هذه العلاقة وتفصلها بشكل أكثر توسع، ومن بين ما اقترحه

الآن أعمال البحث والتقصي في كلام الإمام الأسمر الذي كان صدى لكل اتصالاته بالأوساط العلمية، واحتوى تفصيلًا في بعض الوقائع التي مرت بها، وأخبر بالكثير من الشخصيات العلمية سواء التي عاصرها أو التي سبقته في الفترة التاريخية وفي مختلف المناطق القريبة أو البعيدة منها، فلعل في ثنايا كلامه ما يشير إلى علاقته بالسلطان أحمد الغازي على أهميتها.

ومما قد يقرب العلاقة بين الإمام الأسمر ويرسم معالمها، وجود شخصية صوفية طرابلسية أخرى على علاقة بالسلطان أحمد غران، وهي شخصية القطب الصوفي محمد أحمد الدهماني الذي كان صحبة والدته وأسرته عندما حلُّوا بطرابلس وأسسوا في زاوية لا تزال كامل المنطقة في طرابلس تحمل اسمها، فتعرف بزاوية الدهماني، والشيخ محمد ووالده كان الإمام الأسمر على اتصال وارتباط بهما[1].

يقول الجيزاني الملقب عرب فقيه في كتابه فتوح الحبشة[2]، أنه التقى الدهماني، وقال له: إن السلطان أحمد «قائمة من قوائم الله»[3]، وهو وصف من الشيخ الدهماني يدل على معرفته التامة بجهاد السلطان أحمد، ومعرفة الطرابلسيين أيضًا لتفاصيل هذا الجهاد وشخصية السلطان أحمد. فلا ريب أن الإمام الأسمر عرف في وقت مبكر أحداث ما يدور في الحبشة.

السلطان أحمد الغازي

ولد السلطان أحمد بن إبراهيم الغازي المعروف باسم أحمد غري[4]، أوائل القرن العاشر الهجري في مناطق إقليم هرر لأسرة عريقة اشتهر أفرادها بالعلم والصلاح، ومنهم

(1) للتوسع حول الدهماني وزاويته بطرابلس، ينظر: قفة الصلاح، قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري الإمام سيدي عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص118.

(2) يمثل هذا الكتاب مصدرًا أساسيًّا عن تاريخ الحبشة السياسي والثقافي والاجتماعي، خاصة فيما يتعلق بجهاد السلطان أحمد، إذ مؤلفه شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الجيزاني الملقب بعرب فقيه، عاصر السلطان أحمد وأحداث ووقائع جهاده، فقد توفي بعد سنة 940هـ/ 1533م.

(3) فتوح الحبشة، طبع عام 1894م في EDINBURGH بعناية S. ARTHUR STRONG، ص5.

(4) هذه نبذة لخصتها من الكثير من المراجع والمصادر، وللاستزادة، ينظر:

الإمام أحمد إبراهيم الغازي القائد الصومالي الكبير، هارون حمبا، مجلة قراءات أفريقية، المنتدى الإسلامي، العدد 36، 2018م. =

والده الذي نشأ وتعلم على يديه، قبل أن ينتقل إلى مدينة زيلع؛ ليأخذ عن شيوخها العلم والتصوف، وتمهر في سائر العلوم، حتى أصبح عالمًا مشهورًا متفننًا في العلوم. وبموازاة التعليم تدرب السلطان أحمد في وقت مبكر من حياته على فنون القتال والفروسية، واكتسب الكثير من المهارات العسكرية قبل أن يتجاوز الاثني عشر ربيعًا من عمره المبارك.

ويبدو أن تلك النشأة المتنوعة في عواملها وعناصرها كانت طريقًا لإعداده وصقل شخصيته القيادية، خاصة وأن بلاده في تلك الفترة كانت تعيش فتنًا وأزمات تحتاج لمن يقودها نحو تجاوزها يوحد ممالك الإسلام في الحبشة التي كانت يدب فيها الضعف والتفكك مقابل تنامي قوة النصارى وممالكهم في تلك البلاد، وهو الدور الذي نهض له السلطان أحمد، بدءًا من سلطنة عدل التي برز فيها إلى جانب أميرها الأمير محفوظ، ثم الجراد آبون بن آدش، قبل أن يتولى قيادة راية الجهاد فوحد إمارة عدل الإسلامية عام 1527م، وانطلق بعدها في معارك الجهاد لمدة 14 عامًا وحد لفتح مملكة الحبشة النصرانية التي كادت أن تسقط في يده بالكامل لولا أن جاءها الدعم البرتغالي الصليبي.

لقد فتح السلطان أحمد أكبر معاقل الإمبراطورية الحبشية النصرانية، ومنها ديوارو وشيوا وأمهرة وليستا وتيجراي بين عامي 1529م و1535م، ما جعل بالامبراطور الحبشي غالاوديوس يلجأ إلى الإمبراطورية البرتغالية لحماي ما تبقى من الوجود النصراني في الحبشة.

وهو ما تم، إذ وصل في 1541م دعم برتغالي بقوام 400 فارس بقيادة دوم ابن كريستوفر دي جاما مكتشف رأس الرجاء الصالح، وقابل ذلك أن طلب السلطان أحمد العون من بلاد المسلمين، فجاءه دعم من العثمانيين والهند ومصر والمغرب مكنه من استعادة ما خسره في حروبه أمام الحلف الصليبي، وكان من أهم انتصاراته أنه قبض على دوم كريستوفاو، وقطع رأسه في تلك المعركة في معركة وفلة الشهيرة التي تعد من أكبر المعارك في التاريخ الإسلامي، ومن نتائجها خسارة الصليبيين بشكل بليغ لأكثر قواتهم.

= توحيد أحمد الغازي الإمارات الإسلامية في شرق أفريقيا، بن فراجي نزيهة والداوي صفية، بحث لنيل الماجستير مقدم لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة إدرار بالجزائر عام 2019 – 2020.
الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى، إبراهيم علي طرخان، المجلة التاريخية المصرية، مج 68، 1959م.

معرفة وفلة مهمة في التاريخ الإسلامي، ليس لنتائجها العسكرية، بل لكونها شكلت أول تحالف إسلامي ضد الصليبيين في التاريخ.

وبعد هذا النصر، رجعت أكثر القوات الإسلامية التي جاءت لدعم السلطان أحمد الى بلدانها، فأعاد ملوك الحبشة النصارى التحالف مع البرتغاليين وهاجموا جيش السلطان أحمد بجيش كبير في معركة عرفت باسم معركة واينا داجا، كان من نتائجها استشهاد السلطان أحمد سنة 949هـ/ 1543م وعمره 37 عامًا فقط.

هذا هو السلطان أحمد باختصار للتعريف بفضله ومكانته الكبيرة في تاريخ الأمة الإسلامية، وللدلالة على الدور الصوفي العظيم في تاريخ الإسلام، ولو أردنا الإفاضة والتفصيل في ذلك لاحتجنا لذلك مجلدات وكتب ومؤلفات لن تفيَ بعظم دوره، رحمه الله ورضي عنه.

دعم الإمام الأسمر للسلطان أحمد الغازي

كما أسلفنا لم تفصل أو تذكر كتب التاريخ العلاقة بين الإمامين، الأسمر والسلطان أحمد، لكن لدينا من الوثائق ما يثبت هذه العلاقة، وهي الوثيقة الأركيولوجية المتمثلة في أضرحة الرجال التسعة الذين أرسلهم الإمام الأسمر إلى الحبشة، والوثيقة الثانية هي التواتر إلى حد الاستفاضة والشهرة والاجتماع لدى علماء الحبشة وأوساطها بأخبار هؤلاء الرجال التسعة، وأن من أرسلهم هو الإمام الأسمر.

وتتفق كل الروايات المحلية على أن هؤلاء الرجال التسعة لما أن وصلوا إلى الحبشة كان السلطان أحمد الغازي قد استشهد قبل ثلاثة أيام من وصولهم، وهذا يفيدنا في تحديد تاريخ وصولهم، فقد استشهد السلطان أحمد في معركة معركة واينا داجا التي دارت رحاها بينه وبين الصليبيين يوم 21 فبراير 1543م، ما يعني أن وصول الرجال التسعة كان في فبراير 1543م.

والواقع أننا لا نعرف حتى الآن هل كان إرسال الرجال التسعة بدافع من الإمام الأسمر، أما أن السلطان الغازي هو من اتصل بالإمام الأسمر وطلب العون منه، وربما إن ثبت أنه اتصل بالأقطار الإسلامية الأخرى فسيكون الترجيح الأخير هو سبب الاتصال. وفي كل الأحوال فقد حدث الاتصال ووصل الرجال التسعة الى أرض الحبشة، وفي طريقة وصولهم روايتان:



الأولى: أنهم وصلوا الى الحبشة برًّا إلى مدينة رايا، وترجح الناحية الجغرافية هذا، إذ الوصول من ليبيا إلى الحبشة من طريق السودان أقرب.

والثانية: أنهم نزلوا ميناء أدوليس جنوب شرق عفر، الذي يقع حاليًا في آريتريا، ثم مكثوا مدة عند العفريين، ثم دخلوا رايا من جهة عفر.

وفي كل الأحوال وصل الرجال التسعة إلى منطقة رايا، وكانت الأوضاع وقتها في انهيار في صفوف المجاهدين، وإن كانت راية الجهاد قد استمرت بعد استشهاد السلطان بعد أن التف عدد من المجاهدين حول زوجة السلطان السيدة باتي ديل وإمبارا وابن أخيه السيد نور، إلا أن الضعف كان باديًا على صفوف المجاهدين.

والاتفاق في الروايات المحلية تؤكد أن الرجال التسعة قرروا البقاء في الحبشة، والبدء في بناء الزوايا والمعاقل والانتشار فيها للدعوة، فبقي بعضهم في منطقة ريا، وبعضهم انتقل إلى منطقة ولو ومنطقة جمة، وانتشارهم للدعوة تؤكده مواقع أضرحتهم.

ولا يزال أهل الحبشة يحملون تقديرًا واحترامًا خاصا للرجال التسعة، ومقاماتهم مزارات قائمة إلى اليوم، ويسمونهم أهل الحبشة «التسعة المرشدون» إلى اليوم، ويؤكدون أنهم من ثبت دعائم الإسلام فيها، وعلى يديهم استمر انتشاره، بدليل أن أكبر الأسر العلمية القائمة إلى اليوم هم من نسلهم، وتحديدًا الشيخ نصر الدين بن سيدي عبد السلام الأسمر الذي كان على رأس أولئك الرجال التسعة.

رجال الإمام الأسمر التسعة في الحبشة

نقلًا عن وثائق خطية، مسندة بالتواتر الشفهي في الأوساط العلمية بالحبشة، فالرجال التسعة الذين أرسلهم الإمام الأسمر إلى الحبشة، هم نقلًا عن مخطوط لدى العلامة الشيخ نور الدائم بخط والده العلامة الفقيه محمد أول الحشنكي عن أبيه الشيخ محمد أول:

1 - الشيخ نصر الدين بن الإمام عبد السلام الأسمر، وضريحه في منطقة «جمة» ولذا اشتهر بسيدي «نصر الدين الجمي»، وله ذرية في الحبشة، تحبشوا بالمصاهرة والمواطنة.

2 – الشيخ علي الكروالي، وهو من أشهر الشخصيات العلمية الدعوية في الحبشة، وهو والد العالم الحبشي الكبير الشيخ محمد سعيد الذي تزوج ابنة الإمام السيد فقيه موسى، فأنجب منها الكثير من الأولاد، ومن سلالته العلامة الولي الكامل الفقيه جمال الدين الأني، ومفتي الديار النجاشية العلامة المحدث المسند محمد سراج الأني.

3 – الشيخ هلي الكرذالي الحشنكي.

4 – الشيخ أحمد عسلالى الحشنكي.

5 – الشيخ إبراهيم الأغلب الإفاتي.

6 – الشيخ أحمد الدين الجيَّاني.

7 – الشيخ شمس الدين الشُّملالي.

8 – الشيخ أحمد الموهوب الحزُّيّ.

9 – الشيخ محمد الشُّوسي.

الجهاد في فكر الإمام الأسمر من خلال مريديه التسعة في الحبشة

لقد تنبهت لطريقة وفكر الإمام الأسمر في الجهاد مما كتبه شيخنا القطعاني في هذا الجانب، فقد ركز في مقالاته على أن الإمام الأسمر ذهب بعيدًا للبحث عن الجذور التي بنى عليها المستعمر وجوده، وكثف جهوده من أجل اقتلاعها وإحلال البديل الصحيح محلها، فشيخنا القطعاني يوجه إلى أن الإمام الأسمر تنبه على أخطر قضية يمكن أن تواجه الإسلام في معاقله وأقطاره، وهي قضية العقيدة الإسلامية، فصرف الإمام الأسمر جهده كله لتعزيز الهُويَّة والعقيدة من خلال فكرة الانتماء والتنبيه على الأصول والجذور الإسلامية التي كادت أن تذوب وقتها.

ويقول شيخنا القطعاني: إنه لما كان صدى سقوط الأندلس يدوي وهجمات الصليبيين الحاقد تتوالى بشراسة على مناطق الثغور وتحتلها، وكان أول أهدافها

«المساجد والزوايا وأضرحة الصالحين والمعالم الإسلامية عامة»[1]، فكانت «المآذن تهدم والقباب تدك وأضرحة الصالحين ومشاهدهم ومزاراتهم تسوى بالأرض»[2]، أن الإمام الأسمر قام في هذه الفترة الحرجة التي تمس ما هو أهم من حياة الانسان نفسه وهو العقيدة «بمسح طبوغرافي شامل يحتاج لجانًا أكاديمية متخصصة ومؤسسات وأطنانًا من المراجع والوثائق وزمنًا وتدوينًا، لقد وثق أسماء العلماء والمتصوفين وذوي الصلاح الليبيين وحفظ هذه الأعلام في ذاكرة الأمة. إن بلدًا تخلو ذاكرته من أعلام يدوَّن تراجمهم ويعتز بمآثرهم يعاني نقصًا حضاريًّا شديدًا وخللًا في تركيبته الوجودية هامًّا، إن توثيق أعلام الإسلام هوية ودلالة على عمق مشاعرنا الدينية وأصالتنا الإسلامية إنه قيمة ومفخرة واعتزاز، لذا حظيت كتب التراجم وسير الأعلام بمكانة بارزة في العلوم الإسلامية، واضطلع الشيخ عبد السلام الأسمر في عصره بهذه المهمة الخطيرة في بلادنا»[3].

بهذه الإستراتيجية والفهم العميق لمعنى الجهاد، حفظ الإمام الأسمر على البلاد إسلامها ودينها، فلم يكن رجل مال أو سياسة أو قائد جيوش، وإنما هو رجل ذو حكمة فائقة وقلب كبير كله حب وحنان وعطاء عاصر انحسار الإسلام في أوروبا (جنوب إيطاليا واليونان وأسبانيا ومالطا) وبعض شمال وغرب أفريقيا، وأُلهَم أن طوق النجاة هو مؤسسة علمية متجددة النشاط والتمويل تضمن الحفاظ على الإسلام في بلاده التي تحيط بها الأطماع والغارات البحرية المستمرة وسقوطها متوقع في كل ساعة. فكانت زاويته التي أسسها بزليتن ووفر لها مقر الإدارة والمعلمين والإقامة الداخلية للطلبة والتمويل الدائم وسبل الإعاشة والتموين والمال اللازم بما أوقفه عليها من أحباس وأوقاف كفلت لها الاستمرار لقرون طويلة حتى اليوم رغم الفقر والمجاعات والأوبئة والحروب الأهلية التي ما فتئت تفتك بالبلاد - ولا زالت للأسف - وانعدام المدارس والجامعات... كل هذا عمل شخص واحد فقط اسمه عبد السلام الأسمر»[4].

---

(1) هُويتُنا في فكر الشيخ عبد السلام الأسمر: ضمن كتاب سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص6.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(4) مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، منشورات الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن، 2022م، ص4.

ويلفت شيخنا القطعاني إلى النتيجة التي قد لا يعترف بها الآخرون، وهي أنك لا تجد شيخًا ولا عالمًا ولا فقيهًا ولا محدثًا، حتى في العصر الحديث لا تجد مؤسسة تعليمية أو علمية أو قضائية إلا ولها صلة بزاوية الإمام الأسمر، فرجالها إما درسوا بهذه الزاوية وتخرجوا فيها، أو درسوا على من تخرج فيها، ليؤكد على النتيجة وهي: (لولا الشيخ عبد السلام الأسمر لحل بطرابلس ما حل بالأندلس)[1].

وربما نتمثل بهذه مقولة شيخنا القطعاني، فنقول: إن الإسلام في الحبشة، وفي العديد من الأقطار الإسلامية الأخرى، كان على شفا لولا جهود الإمام الأسمر وفكره العميق لمعنى الجهاد، فما أن شعر رجال الإمام الأسمر التسعة بأن مكاسب السلطان أحمد الغازي على وشك الانهيار حتى بادروا بتنفيذ إستراتيجية شيخهم في الحفاظ على العقيدة وأصولها، وهو ما تم إذ قرروا الانتشار في معاقل الحبشة والبدء في برنامج الدعوة وبناء الزوايا والمعاقل لتدريس العلوم الإسلامية، بتحفيظ القرآن الكريم ثم علوم الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم التي حفظت على الحبشة هُويَّتها الإسلامية.

وغير ذلك، فقد استمر الدور الدعوي لهؤلاء الرجال التسعة رفقة علماء الحبشة وصالحيها، وامتزجوا بهم حتى أنهم تحبشوا بالمصاهرة والاختلاط، ومن نسلهم اليوم أسر علمية لها مكانها ودورها في تعزيز وترسيخ استمرار الإسلام دين الله الحنيف.

خاتمة:

لقد وصل أثر الإمام الأسمر إلى شرق أفريقيا في وقت مبكر من حياة الإمام الأسمر الدعوية، ففي منتصف القرن العاشر كما رأينا أوفد تسعة من رجال دعوته إلى السلطان أحمد الغازي، ما يؤكد وجود علاقة واضحة واتصالات وربما مراسلات بين الإمامين، الأسمر وأحمد الغازي.

ومن المهم أن نلتقط هذه الفائدة، وهي أن عام 1543م، وهو العام الذي استشهد فيه السلطان أحمد الغازي، كانت جهود الإمام الأسمر في أوج نشاطها حتى أن عددًا من مريديه تخرجوا على يديه وأصبحوا مؤهلين للدعوة وتمثيله في الأقطار البعيدة عنه، وكذلك يجب أن ننتبه إلى أن الإمام الأسمر في هذا التاريخ كان على صلة بالعالم ومجرياته وأحداثه العالمية، فلم يكن منقطعًا للعبادة منعزلًا عن محيطه العربي والإسلامي.

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

لقد احتفظ أهل الحبشة باحترام عميق لرجال الإمام الأسمر التسعة، وأقاموا لهم أضرحة، وميزوهم بقباب واضحة لا تزال محل زيارة واهتمام إلى اليوم، ومثل هذه الأضرحة باتت اليوم وثيقة أثرية أركيولوجية ذات بعد ثقافي كبير يعزز العلاقات والتواصل التاريخي بين ليبيا والحبشة، ما يدعونا إلى المزيد من الدراسات للبناء على ما كشفنا عنه في هذه المقالة التي تعد الأولى من نوعها هو الأبعاد العالمية لشخصية الإمام الأسمر ودعوته ومشروعه الإصلاحي.




الموروث الصوفي للإمام سيدي عبد السلام الأسمر وأثره في المجتمع الليبي

أ. فتحي الزريقاني

رئيس مركز الزاوية الأسمرية

للوثائق والمخطوطات وحفظ التراث - ليبيا

ملخص:

تبتغي هذه المقالة العلمية إبراز أثر الموروث الصوفي للإمام عبد السلام الأسمر في المجتمع الليبي، من خلال تتبعه ورصده في الحياة العلمية والاجتماعية والثقافية للبلاد الليبية عبر مختلف فترات التاريخ، سواء من خلال شخصية الإمام الأسمر أو من خلال الفاعلين من تلاميذه وخلفائه في الطريقة العروسية ممن جاءوا بعده.

والباعث على العناية برصد موروث الإمام الأسمر وأثره المجتمعي، كون الإمام الأسمر يُعَدُّ من أبرز الشخصيات الإصلاحية في المجتمع الليبي، فهو أول شخصية ليبية ترسي مبادئ مدونة قواعد سلوك المجتمع في التاريخ الليبي، سواء من خلال وصاياه أو رسائله وأشعاره وقصائده، التي تعد من أهم وثائق التاريخ الفكري والثقافي والمجتمعي في ليبيا، لما توفرت عليه من رصد دقيق للعديد من المشكلات المجتمعية، بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ولم يقتصر فيها الإمام الأسمر على تصور الحلول، بل قدم نماذج عملية لتطبيقها وتنفيذها، فشكل بذلك تجربة ليبية هامة اقتضت المتابعة بالدراسة والبحث والتحليل.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، التصوف، الموروث، الأثر والتأثير.

مقدمة:

لعل من نافل الحديث اليوم، ذكر سيرة الإمام عبد السلام الأسمر بالحديث عن نسبه وأصوله، ومراحل حياته وتعليمه وطريقته الصوفية وزاويته، في شكل سرد تاريخي، خاصة مع وجود عدد من المصادر والدراسات الجادة في ذلك[1]، كما أنني أعتقد أن الكثير من الأعمال التي شاركت في هذا المؤتمر اعتنت بهذا السرد، مما أغنى عن الحاجة لإعادته.

ولكن يبدو من المهم الإشارة إلى بعض القضايا والمسائل في سيرة الإمام الأسمر مما له صلة بموضوع هذه المقالة، فالموروث الصوفي لدى الإمام الأسمر أفاد من تراكم تجارب صوفية سابقة، سواء التراث الصوفي لدى أسرة الإمام الأسمر، وهي أسرة فيتورية ذات أثر صوفي عريق تعود جذوره إلى الأدارسة الأشراف الحسنيين برقعة انتشارهم الواسعة في المغرب العربي[2].

وقد تنوع الإرث الصوفي في شخصية الإمام الأسمر من خلال مصدرين هامين: أولهما عبر أصله الفيتوري، إذ ولد وتربى ونشأ في أسرة بارزة في وسط الفواتير المزدحم بكثرة العلماء والصالحين المتصوفة، كما تعكس ذلك صورة التراجم التي وثقتها كتب التاريخ لوالده السيد سليم الفيتوري وعمه السيد أحمد الفيتوري الإمام الأسمر في موروثه الصوفي[3]، وثانيهما من جهة أمه السيدة سليمة الدرعية المغربية، فهي ابنة الشيخ عبد الرحمن الدرعي أبرز علماء المدرسة الدرعية المعروفة في تاريخ المغرب[4].

كلا المصدرين شكلا خلفية صوفية أثرت في تشكل شخصية الإمام الأسمر، ورسختها العناية الكبيرة التي لقيها من والدته السيدة سليمة الدرعية في سنوات حياته

---

(1) للاستزادة حول سيرة الإمام الأسمر، ينظر:
تنقيح روضة الأزهار، محمد مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966.
القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م.
رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م.
الزاوية الأسمرية العلمية بزليتن ودورها التربوي في ليبيا، رحومة حسين رحومة، مركز جهاد الليبيين لدراسات التاريخية، طرابلس، 2006م.

(2) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص74 – 75.

(3) نفس المصدر، ص85.

(4) نفس المصدر، ص83.

الأولى، ولاحقًا عمه الشيخ أحمد الفيتوري الذي تولى تربيته بعد وفاة والده، حيث يحدثنا الإمام نفسه مفتخرًا بما تلقاه على يد عمه، إذ يقول: «هو أول مشايخي في تعليم العلم، وهو الذي تولى أمري والقيام بشؤوني بعد موت والدي»[1]، وأنه «الذي لفني إليه وكفلني ورباني أحسن تربية، ووضعني في المكتب نقرأ إلى أن حفظت القرآن وعلمني النحو والتوحيد والفقه»[2]، وبوضوح نرى الأثر الصوفي في دعم هذه العملية التعليمية المبكرة، إذ يخبرنا الإمام الأسمر أن عمه أخذه إلى الشيخ عبد الواحد الدوكالي، شيخ الطريقة العروسية الصوفية، ليسلك على يديه التصوف والتربية والتزكية[3].

ومن المهم الإشارة إلى أن هذه المرحلة التكوينية في حياة الإمام تمت داخل المجتمع الليبي، وازدادت كثافة باتصاله بالموروث الصوفي من خلال تتلمذه على أغلب علماء ورموز التصوف في البلاد، إذ يخبرنا الإمام أنه تتلمذ على ثمانين شيخًا بعد تخرجه في مدرسة أستاذه الدوكالي[4]، وهو عدد ليس بالهين، وبكل تأكيد يغطي أغلب الوسط العلمي الصوفي في ليبيا ذلك الوقت.

ومن المهم أيضًا الإشارة إلى أن هذا الموروث الصوفي ازداد متانة وصلة وتراكمًا باتصاله بالمحيط الصوفي المغاربي، من خلال والدته السيدة سليمة الدرعية كما أسلفنا، ولاحقًا من خلال الإمام أحمد زروق الذي كان على صلة وثيقة بعمه الشيخ أحمد الفيتوري وبشيخه الشيخ الدوكالي[5]، والأخير فتح له أفق الاتصال بالموروث الصوفي في تونس من خلال الطريقة العروسية التي أسسها الشيخ أحمد بن عروس في تونس أواخر القرن التاسع الهجري[6]، وانتقلت لاحقًا عبر شخصيات صوفية تونسية إلى ليبيا

---

(1) الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، القاهرة، 1964م، ص17.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، ص3 – 4.
(4) نفس المصدر، ص14.
(5) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976، ص71.
(6) من علماء تونس في القرن التاسع، أسس الطريقة العروسية بعد أن تلق التصوف على يد شيخه الشيخ فتح الله العجمي، توفي عام 868هـ. ترجم له الإمام الأسمر في: الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص82 وما بعدها.

كالشيخ أحمد أبو تليس[1] والشيخ فتح الله أبو رأس[2]، واتصل الإمام بكليهما وإن كان أخذه في السلوك والتربية على يد شيخه الدوكالي.

التصوف أساسًا للفكر الإصلاحي عند الإمام الأسمر

لقد شكلت هذه المصادر المعرفية تراثًا صوفيًّا متراكمًا الصوفية بنى عليه الإمام الأسمر مشروعه الإصلاحي الكبير، لكن الإمام يبدو أنه كان حريصًا على تعزيز هذا التراكم بالاطلاع على الحياة العامة للبلاد، فخرج في رحلة طويلة من زليتن ووصلت إلى تونس حيث أقام لفترة في جبل زغوان، مر في أثنائها على الكثير من المدن والقرى والبيئات والمدارس واطلع على ما فيها، وهي رحلة يبدو أن الإمام الأسمر أفاد منها أمرين أساسيين: أولهما أنه اطلع على الحالة المجتمعية في ليبيا خاصة وفي العالم الإسلامي عامة وما تعانيه من تحديات ومشكلات، ووسع من دائرة اطلاعه ودراساته وبحوثه من خلال هذه الرحلة، خاصة وأنه أقام لفترات طويلة في بعض الحواضر المهمة كساحل الأحامد وطرابلس وغريان وغيرها، والثانية أنه زاد من رصيد الموروث الصوفي متعدد المصادر والمنابع في المعاقل الصوفية التي زارها واتصل برجالها. وكل ذلك مكنه من رسم معالم مشروعه الإصلاحي وبناء منهجه وقواعده.

إذًا شكل التصوف وموروثه أساسًا وقاعدة لمشروع الإمام الإصلاحي، لكن كيف أفاد منه؟ وكيف يمكننا أن نطالع قدرة الميراث الصوفي على بناء منظومة للإصلاح؟، وللجواب فليس بين يدينا إلا ميراثه المكتوب وصاياه ورسائله، وهو كافٍ بشكل كبير للتأكيد على قدرة الإمام الأسمر في توظيفه واستثماره في الإصلاح، إذ رصد في وصاياه ورسائله الكثير من المشكلات التي كان يعانيها المجتمع الليبي، فتحذيره ونهيه عن بعض السلوكيات والتصرفات تعكس لنا صورًا من تلك المشكلات التي هدف لمعالجتها، ويبدو أن عجالة هذه المقالة ستجبرنا على الإشارة إليها في عدة نقاط:

1 - مشكلات دينية وفكرية وتعليمية:

شدد في وصاياه ورسائله على ضرورة تعلم فرائض الدين خاصة العقيدة والتوحيد الصحيح[3]، ويبدو أن هذا التشديد والاهتمام الكبير بجانب العقيدة على علاقة بالآثار

(1) تنظر ترجمته في، الوصية الكبرى، ص76.
(2) تنظر ترجمته في: الوصية الكبرى، ص74.
(3) نفس المصدر، ص4.

الكبيرة للغزو الأسباني على العقائد، خاصة وأنه غزو يحمل الطابع الصليبي، وربما دل عليه وأكده تسليم الأسبان البلاد لمنظمة فرسان القديس يوحنا المعروفة بتطرفها الصليبي.

ومثل تلك الأعمال التي تستهدف التأثير على العقيدة وتغييرها، تحمل أبعادًا ذات طابع استعماري يستهدف في الأساس العقيدة كونها عنصرًا أساسيًّا في المواطنة والقيمة الأولى في قيم الانتماء[1]، وعليه فحث الامام على تعلم العقائد إلى حد تأليفه رسالة في عشرين صفحة في العقيدة تمكن عامة الناس من تعلم العقيدة بسبب اللغة التخصصية التي كتبت بها كتب العقيدة، كالسنوسية وغيرها[2]، التي تحتاج لمعرفة مستوى تعليمي قد لا يتوفر عند عامة الناس.

وقد يرى البعض أن تشديد الإمام الأسمر على ضرورة تعلم العقيدة جاء في سياق النصائح العامة السائرة في الأوساط الوعظية بشكل عام ولدى كل العلماء، لكن حديث الإمام في وصاياه يلامس عمقًا وغورًا بعيدًا في هذه القضية، فمن الواضح أنه لاحظ آثارًا خطيرة ترتبت على غياب معرفة الأساس العقدي في الدين، إلى حد عدم معرفة العامة ببديهيات الثقافة الدينية، كالصلاة وفرائضها والوضوء والطهارة من الجنابة والصوم[3].

لقد عكست الوصايا والرسائل الكثير من التحديات التي كانت تواجه القيم والمبادئ للدين، واجتهاد الإمام في تقديم العلاجات الكافية لمكافحتها في وعي منه بأهمية الدين كعنصر أساسي لتعزيز قيم المواطنة والانتماء للحفاظ على وحدة البلاد، بل ذهب أكثر من ذلك بنقل المواجهة إلى داخل مكونات وتفاصيل المجتمع، وتحديدًا الأسرة التي تعد النواة الأساسية لأي مجتمع، فأمر مريديه بقوله: «وعليكم بتعليم أولادكم ومماليككم القرآن والكتابة وعقائد الإيمان والفرائض... وعلموا أزواجكم وبناتكم كل ما يحتاجونه منكم في أمر دينكم لأن لهم عليكم حقًّا شرعيًّا، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»[4]، وكل ذلك لضمان تعزيز القيم الأساسية للدين.

واستهدف في علاجاتها المؤسسات التعليمية التي يبدو أنها كانت تعاني من أزمة بحث وفكر، سيما وأن مؤسسات غلب عليها الاجترار والإعادة والتقليد، فوجه اهتمامه

(1) للمزيد عن البعد الخاص بقيم الانتماء والهوية في كلام الإمام الأسمر، ينظر: هويتنا في فكر الشيخ عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، ضمن كتاب «سري للغاية»، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط1، 2018م، ص6.

(2) الوصية الكبرى، ص4.

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(4) نفس المصدر، ص19 – 20.

بناء النشء الجديد على أسس من التفكير السليم القائم على تفعيل العقل، ومنه قوله: «عليكم بالنظر حين البلوغ، فمن لم ينظر ولا يأتِ بدليل ولا ببرهان، ففي إيمانه خلاف، وعند جميع الموحدين مقلد. والمقلد ليس بكامل»[1].

وفيما يبدو أنه معالجة لسلوكيات ضارة تعيشها المؤسسة التعليمية، خاصة في العلاقة بين الأستاذ والطالب واختلالها، حث على ضرورة «محبة العلماء واحترامهم»[2]، وعلى «الأدب مع المشائخ»[3]، وفي تمييزه بين الاثنين تحديد للعلاقات العلمية، فالعلاقة بين المؤسسات العلمية فصَّلها في «محبة العلماء واحترامهم»، وبيَّن فيها ضرورة احترام الآراء العملية المختلفة بين المدارس: «واذا عارضوكم بشيء من الفتاوى في البندير والحضرة فلا تؤاخذوهم فإنهم معذورون»[4]، أما العلاقة داخل المؤسسة التعليمية الواحدة ففصَّلها في ضرورة «الأدب مع المشائخ»، ولتحرير مصطلح الشيخ من الانزياحات اللغوية الحاصلة في معناه في أوساط المجتمع حدد من هم المشائخ فقال: «تأدبوا مع مشائخكم الذين تقرأون عليهم ومقتدين بطريقتهم، لا المشائخ اللغويين»[5] وهم سبعة أقسام، منهم مشائخ السلطة، والمؤدبين والأطباء، ولتحصين المؤسسة التعليمية من دخول من ليس منها يفصل في قسم «مشائخ الرحمن» وهم أساتذة العلم والتصوف.

2 - مشكلات اقتصادية واجتماعية:

في وصايا الإمام ورسائله الكثيرة تحمل الكثير من النصائح مضمونًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا في شكل تحذير من بعض السلوكيات والتصرفات والحث على نقيضها كعلاج لها، ففي جانب الاقتصاد هناك العديد من النصائح تقوم سلوك الفرد والجماعة في إطار ما تسميه الدراسات المعاصرة بالاقتصاد السلوكي، وهو فرع من فروع علوم الاقتصاد بات الحرص على إشاعته مهمًّا بقدر الاقتصاد نفسه، يقوم أساسًا على ربط السلوكيات الاقتصادية بأبعادها الاجتماعية والثقافية في المجتمع، وهو عين ما فعله الإمام الأسمر في وصاياه، إذ شدَّد في التحذير من الإسراف والطمع، وتحدث عن أثرهما وبعدهما في

---

(1) نفس المصدر، ص4.
(2) نفس المصدر، ص41.
(3) نفس المصدر، ص48.
(4) نفس المصدر، ص41.
(5) نفس المصدر، ص48.

مستوى الفرد والجماعة، وفي مقابلها تحدث عن ضرر سلوك البخل وأثره المجتمعي خالقًا بذلك موازنة في السلوك الاقتصادي.

نرصد العديد من هذه القضايا ذات البعد الاقتصادي في وصاياه، سواء إذا كانت عامة كتحذيره من حب الدنيا كقاعدة وإطار تنطلق منه أغلب الممارسات الاقتصادية الضارة، أو في جانب التخصيص بتحديدها ظاهرة يتوجب متابعتها ورصدها بدقة كما هو الحال في حديثه عن الرشوة التي يبدو أنها تحولت إلى سلوك معتاد في زمنه، وأخذت مسميات وظواهر عديدة منها: «أخذ البراطيل والشحمة»[1].

وينقل عن شيخ شيخه فتح الله أبو رأس قوله: «البراطيل والشحمة هي الإكراء على الشهادة المزورة الباطلة»[2]، وهو سرد وتفصيل دال بوضوح على متابعته الدقيقة للحياة العامة والخاصة في مجتمعه.

لكن تلك المتابعات وإن جاءت في شكل تحذير ونهي، إلا أنه يقدم الحلول في الأثناء وبشكل عملي تطبيقي من خلال نموذج تلاميذه، فمثلًا في مقابل قوله: «ولا تفعلوا ما يفعله الجهال من السروج المرصعات بالذهب والفضة ومن الركب المغشيات والمموهات»[3]، نجده يوصي تلاميذه بقوله: «فالبسوا الأجاريد (يقصد الجرد) الفاخرة والثياب الفائقات والشواشي الباهيات والعمايم الحسنات والبشاميق الباهرات والأمسات الغاليات والأخفاف المعكرشات، انقلوا الزبد والمسك وجميع الرائحة الفائحة»[4]، ففي الأول تحذير من سلوك الإسراف التبذير، وفي الثاني ضبط لهذا السلوك في غير إسراف أو تبذير، بمعنى معالجته لسلوك إنفاق الأموال في أغراض زائدة قد تضر بالاقتصاديات الخاصة والعامة، بطريقة عملية لا تمنع الفرد من التنعم بالمباح في الحياة.

في الجانب الاجتماعي هناك العديد من المشكلات التي تعكسها وصاياه، مثلًا جهوده في رسم نمط من أنماط الذوق المجتمعي العام من خلال أكثر المناسبات المجتمعية علانية، خاصة مناسبتي الأفراح[5] والمآتم[6] اللتين خصهما بالكثير من النصائح

(1) نفس المصدر، ص18.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، ص27.
(4) نفس المصدر، ص29.
(5) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(6) نفس المصدر، ص30.

لدرء جوانبها السلبية في مقابل عدد من الوصايا تخلق بعدًا إيجابيًّا في تلك المناسبات، وهو ملحظ مهم دال على عمق فكره ذهب فيه إلى التقليل من تأثيرات الانفعالات الزائدة في مناسبات الأحزان والمآتم على الحياة في جوانبها النفسية، مقابل ضبط سلوك الفرح في مناسبات الأعراس، وهو جانب سعى في الكثير من مواضع الحياة بضبطه، حتى أنه اهتم بثقافة الألوان في اللباس وانعكاساتها[1]، فحث على اللون الأبيض وما يقاربه من ألوان في اللباس[2] لما له من انعكاس جمالي إيجابي على نفس وذهن لابسه، ونهى بشدة عن اللون الأسود تحوطًا مما قد نتجه حتى من مقدمات سلبية على نفسية من يلبسه فقال: «فمن لبس منكم الأسود وأصابه شيء من الهموم والغموم والأحزان وشبهها فلا يلوم إلا نفسه»[3].

وفي جانب سعيه لبناء ذوق عام، يجب أن نقف عند قوله: «إخواني: ما نظرت في وجه امرأة قط إلا زوجاتي وبناتي»[4]، لكنه في ذات الوصية ينهى عن بعض ألبسة النساء ويأمر بضدها، ولنا أن نتساءل كيف عرف الإمام الأسمر تلك الألبسة وأشكالها وأنواعها، وهو لم ينظر من النساء إلا زوجاته وبناته، والجواب يكمن في أن تلك الأذواق الرفيعة في اللباس كانت عليها زوجاته وبناته بالقطع حتى عرف ألوانها وأشكالها وأنماطها، وهو ما يعطينا صورة من صور الحياة داخل أسرته رضي الله عنه.

والمشكلات والأمراض المجتمعية التي رصدها الأمام الأسمر في وصاياه وتراثه عديدة، ولعلني أقف مليًّا عن أحد تلك المشكلات التي لا تزال تخلق همًّا لدى الكثير من الدعاة والمؤسسات، وهي ظاهرة الاختلاط الضار بين الجنسين الذي عبر عنه صراحة في النهي بالاختلاط بين النساء والرجال، وذكر بعض مظاهرها في إطارها الزماني في عصره[5]، لكنه قدم لها علاجًا مختلفًا بشكل كبير يجعلني أشيد بريادته المجتمعية وفكره الواعي العميق، ففي الحقيقة لن نجد له أمرًا بالفصل بين الجنسين في هذه القضية لدرء

(1) للتوسع حول فلسفة اللباس والألوان في فكر الإمام الأسمر، ينظر: قفة الصلاح، قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري سيدي الإمام عبد السلام الأسمر، أسامة بن هامل، منشورات مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص 189.

(2) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص27.

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(4) نفس المصدر، ص35.

(5) نفس المصدر، ص5.

مخاطرها، بل كل ما طالب به هو «غض البصر»[1]، وغض البصر قطعًا لا يكون بين جنسين منفصلين وبعيدين عن بعضهما البعض، بل سعى لخلق نمط سلوكي بين الجنسين قوامه غض البصر لمعالجة ظاهرة الاختلاط التي يبدو أنها كانت متفشية بشكل كبير، ويدل على ذلك تشديده الكبير وتكرر نهيه في عدة أسطر ومواضع في وصيته من الاختلاط والنظر.

وأقل ما يستفاد من هذه الآلية التي حث عليها الشارع الكريم في القرآن والسنة، حصانة البيوت والأسر بخلق شعور من الرضا والقناعة والدفء الأسري الحصين، وكذلك هي آلية لإصلاح العلاقات في المؤسسات العامة للحد من الجرائم الأخلاقية. ويهتم الإمام الأسمر بهذه الآلية بشكل كبير إذ جعل لها تدابير عديدة تقي الفرد من الاقتراب منها، ومن تلك التدابير: الاستئذان قبل دخول البيوت وعدم التجسس على الجيران[2]، وحدد للزوجة الرجال الذين تسمح لهم بالدخول إلى بيتها وهم محارمها[3].

3 - **مشكلات سياسية:**

في الواقع أن التعاطي في فكر الإمام الأسمر مع قضايا السياسة له منهجه القائم على ضوابط ومحاذير تصب أغلبها في عدم الاقتراب من الحكام ومؤسسات الحكم وعدم الاتصال بهم إلا لضرورة[4]، لكن هذا لا يعني انفصاله عن الحياة السياسية كليًّا، فالمصادر أخبرتنا العلاقة الخاصة بينه وبين مراد آغا أول الولاة العثمانيين في ليبيا، وزيارته له ونصح الإمام له «بعدم الإضرار بأحد من الناس، وأن يأكل من عمل يده»[5]، فكان هذا الوالي «يتعيش من صنعة خياطة الثياب وبيعها»[6]، ومثل هذا التعامل يؤكد أولاً على متابعة الإمام الأسمر الدقيقة لمؤسسات الحكم حتى حذر من أضرار التعدي على المال العام، وقدم علاجًا هامًّا له يبدأ بإصلاح رأس الحكم.

وفي حديثنا السابق عن الظواهر السلبية في السلوك الاقتصادي ما يمس الجانب السياسي ومؤسسات الدولة، فأسماء الممارسات المتصلة بالرشوة فيها ما يشير إلى

(1) نفس المصدر، ص34.
(2) نفس المصدر، ص22.
(3) نفس المصدر، ص33.
(4) نفس المصدر، ص32 – 34.
(5) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا من الفتح الإسلامي وحتى عام 2000م، أحمد القطعاني، دار الغريب، القاهرة، ط:، 2011م، ج1، ص463.
(6) نفس المصدر، نفس الصفحة.

استخدامها داخل أجهزة الإدارة والدولة وسلوكيات موظفيها، وإن كان تعريف البراطيل والشحمة، وهو نوع من الرشوة، نقله عن الشيخ أبو رأس إلا أنه نقله في وصيته يشير إلى وعيه بأهمية تحديد هذه الأنواع من الرشوة وضررها على سلامة مؤسسات الدولة.

التصوف وأثره في منهج الإمام الأسمر الإصلاحي

إن أول ما يجب أن نلفت إليه، هو أن الموروث المعرفي الصوفي كشف أفقًا واسعًا لمعنى التصوف لدى الإمام الأسمر، فهو لا ينحصر في جوانب التعبد والنسك والزهد، بل هو منهج حياة شامل لكل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية والسياسية، وفي كل الصعد. ولكن أين يمكن أن نحدد وجود وتأثير التصوف في بناء منهجه الإصلاحي، وما هي معالم وملامح هذا المنهج؟

باعتقادي أن الإمام نثر أسس منهجه في وصاياه ورسائله بشكل واضح بقاعدة أساسية، وهي إعطاء كل أساس فيها بعدًا روحيًّا، وما علينا إلا ترتيب تلك الأسس في عدة نقاط، لكن يمكن أن نشير إلى أهمها:

1. «العقيدة» قاعدة ومنطلق: وهو أول ما يفتتح به نصائحه ووصاياه، في دلالة واضحة على أن بناء العقيدة الصحيحة أم القواعد في مشروعه، ويبدو أن للأمر صلة كما أسلفنا بالمخاطر الخارجية وآثارها على يد الغزاة الأسبان وفرسان القديس يوحنا بخلفياتهم الصليبية، التي استهدفت العقيدة الإسلامية. ويعتبرها الإمام أساس الإصلاح ومنطلقه، فبالإضافة لصحة الاعتقاد الأشعري في التوحيد وفق اجتماع أهل السنة والجماعة، فهي تشكل أساسًا لربط مكونات المجتمع بعضها ببعض، وتخلق انتماء واحدًا لبناء المواطنة، كما أنها الضامن للارتباط بالفضاءات المجاورة في الأقطار العربية والإسلامية لخلق وحدة إسلامية شاملة.

والبناء العقدي لدى الفرد ينبني في فكر الإمام الأسمر على قاعدة قوامها عملية تعليمية سابقة تبدأ من المراحل الأولى في حياة الفرد، بحفظ القرآن الكريم ومدارسة مقدمات العلوم في الفقه واللغة والمنطق، قبل أن يصل إلى مرحلة التكليف التي اشترط عليه فيها النظر والاستدلال والإتيان بالدليل والبرهان، فما دام أصبح مكلفًا بالعقل فلا بد من بناء العقل بناء حصينًا بالعقيدة الصحيحة الراسخة قواعدها وفق الاعتقاد الأشعري.

2. بعث التصوف في المؤسسة التعليمية: وهو ما تشكلت عليه شخصية الإمام نفسه في العملية التعليمية، إذ حفظ القرآن الكريم وتعلم مقدمات العلوم على يد عمه

ووالدته الصوفيين، وتاليًا واصل المرحلة التعليمية في المدرسة العروسية الصوفية على يد شيخه الشيخ الدوكالي، وفي زاويته وضع برنامجًا تعليميًّا قوامه الجمع بين العلم والتصوف، فبالإضافة لمواد الفقه والتوحيد واللغة وغيرها في الجانب العلمي، خلَّل البرنامج التعليمي بتدريس التصوف من خلال كتب الحكم العطائية والكتب الغزالية والزروقية وغيرها. وهو هنا يقصد الجمع بين التعليم والتربية، فبعد التربية كان من الواضح أن المؤسسة التعليمية فقدته بشكل شبه كلي، ويظهر ذلك واضحًا في الاعتراضات التي حملتها المناظرات التي حدثت بينه وبين فقهاء عصره، فردوده عليهم لم تحمل طابع الرد الفقهي العلمي، بل جاء رده صوفيًّا للتنبيه على الجانب التربوي الصوفي الذي ينتج ذوقًا في روح تلك العلوم، وهو ما لمسه مناظروه فانخرطوا على الفور في طريقته الصوفية تلاميذ ومريدين بعد أن كانوا علماء وفقهاء[1].

3. إصلاح الفرد أساسًا للإصلاح المجتمعي الشامل: وينطلق فيه موروث صوفي واضح، إذ التربية الصوفية تركز في الأساس على بناء المريد ومن ثم إدماجه في مجتمع الإخوان، ويلاحظ هذا الملمح مضمنًا في وصاياه ورسائله التي يتوجه فيها للفرد بنصائحه، وفي ذات الوقت يحمل خطابه مضمونًا جماعيًّا بتعبير «إخواني»، ومضمون رسالته أن الإخوان (المجتمع) أن لن جماعتهم تنصلح ما لم ينصلح المريد (الفرد)، ويجب ملاحظة أن فلسفته الإصلاحية الموجهة في شكل نصائح يأتي فيها الحث والتحذير متكاثفًا ومتمازجًا، فلا نجد وصاياها مصنفة في موضوعات منفصلة، بل تتصل موضوعاتها الاجتماعية بالدينية والثقافية بالاقتصادية، فيجعل من شروط التوبة، وهي المبحث الشرعي، «غض البصر عن المحارم»[2] لضمان عدم عودة المريد لممارسة سلوكيات منحرفة لها تداعياتها الاجتماعية والأخلاقية. وغني عن البيان أن نظريات الإصلاح التي تتبنى الإصلاح المجتمعي الشامل سبيلًا فشلت في تجاربها، فمثلًا محاولات فرض الإصلاح بالتشريعات والقوانين تبقى قاصرة دون سلطة تجبر مواطنيها على تنفيذها، لكن في نظرية الإمام الأسمر ففي بناء الفرد وتحصينه الصوفي كافٍ، بحيث أننا لا نجد حاجة في المجتمع الصوفي الأسمري لتشريعات وقوانين مفروضة بالقوة. ويقودنا هذا إلى فلسفة الإصلاح التدريجي التي أثبتت نجاعتها اليوم في الدراسات

---

(1) حول هذه المناظرات والمواقف من الإمام، ينظر: تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص96 – 99.
(2) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص5.

الحديثة، وتبدأ بما يعرف بالتوعية الفردية ليكون السلوك الفردي الإيجابي ضامنًا للتحول إلى مجتمع إيجابي في تعامله العام.

4. الإصلاح السياسي يبدأ من القاعدة: وهو ما يشير إليه كثرة نهي الإمام الأسمر مريديه على الاتصال بالحكام ومؤسسات الحكم، وقد يفهم من هذا بناء قاعدة معارضة سليمة في مواجهة تعدي السلطات على الحقوق، ويتضمن هذا الإصلاح أو المعارضة السلمية حث الإمام مريديه على تقديم النصح للحكام في سياسة العدل والرعية، وقد يظهر منهج الإمام الإصلاحي في الجانب السياسي في نموذج مراد آغا وقبوله في الطريقة العروسية مريدًا لبنائه على المستوى الفردي، ومن ثم تأثير هذا البناء الإيجابي على هياكل السلطة وإصلاحها[1].

الموروث الصوفي في وسائل الإصلاح في فكر الإمام الأسمر

لا يبدو أننا بحاجة للتوسع والإفاضة والتفصيل في القاعدة الصوفية الصلبة التي نشأ عليها مشروع الإمام الأسمر، والتي سيكون لها تأثير قطعي في بناء وسائله الإصلاحية، ولكن من المهم إيراد بعض الأمثلة على ذلك:

1. الأوراد: وهي من جملة الموروث الصوفي، بل الأوراد عنصر أساسي في السلوك الصوفي لدى كل الطرق الصوفية، وعند الإمام الأسمر للأوراد أهمية وحضور كبير، حتى أنه أنشأ أورادًا لمريديه في الطريقة العروسية وأحزابًا ووظيفة خاصة أيضًا، لكن ما يجب الانتباه إليه هو تقسيم تلك الأوراد بحسب شرائح مريديه، فمنها ورد لـ«المتجردين»، وورد لـ«الطلبة والفقهاء والمشتغلين بتعليم العلم والنسيخة والناسخين»، وورد لـ«أصحاب الفلاحة والاشتغال»، ويمكن أن نلاحظ الأثر الإصلاحي الصوفي في تلك الشرائح المعنية بالعشرات من النصائح الضابطة لسلوكها وأعمالها في وصاياه ورسائله، وفي ذات الوقت تعمل وفق تلك النصائح الإصلاحية في إطار صوفي ترتبط به من خلال أوراد الطريقة. وبالإضافة للممارسة اليومية للأوراد التي ستكون بالقطع

(1) حول نظرية الحكم والسياسة لدى الإمام الأسمر والسادة العروسية، ينظر: موسوعة القطعاني الوجه الآخر للتاريخ الليبي، أسامة بن هامل، كتاب أعمال الدورة الرابعة للمؤتمر الدولي للشيخ العلامة أحمد القطعاني، منشورات مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط1، ص 392.

خلال ممارسة كل فرد في شريحته لعمله، هناك أيضًا الاجتماع الأسبوعي لقراءة الوظيفة الأسمرية ما يتيح اجتماعًا دوريًّا لمرتين في الأسبوع لكافة تلك الشرائح لزيادة ارتباطهم بالزاوية والطريقة وشيخها[1].

2. الأشعار والقصائد: وتعد هذه الوسيلة من إبداعات الإمام الأسمر في وسائل الخطاب التي اختص بها، فعلى الرغم من أن الشعر والقصائد الصوفية من الموروث الصوفي القديم وشاركه فيه العديد من الصوفيين، إلا أن الجانب الإبداعي فيها لدى الإمام الأسمر هو لغتها ومضمونها، فلغة ميسورة الفهم والعبارات والألفاظ يدل على أنها موجهة لكافة شرائح المجتمع ويمكنهم فهمها بمختلف مستوياتهم، ومضمونها علاجات مباشرة للكثير من الظواهر والسلوكيات الضارة والسلبية.

من مظاهر أثر الموروث الصوفي في مشروع الإمام الأسمر الإصلاحي

صحيح أنه تعوزنا المصادر لرصد صورة الحياة في زمن الإمام لمتابعة أثر مشروعه الإصلاحي، خاصة وأنه مشروع يتجاوز في هدفه ليبيا إلى كافة الأوطان والأقطار الإسلامية، لكن ما شك فيه أن استمرار حضور الإمام الأسمر في الذاكرة المحلية الليبية كشخصية رئيسية على مدى خمسة قرون منذ وفاته وحتى الوقت الحالي - ليدل على عمق أثره في المجتمع الليبي، وهو ما يحتاج دراسات مطولة تقوم على جهد مؤسسي جماعي. ورغم ذلك يمكن رصد أثره الإصلاحي بخلفية الموروث الصوفي في العديد من جوانب حياة المجتمع الليبي:

1. **في الجانب العلمي والتعليمي**: شكلت الزاوية التي أسسها الإمام الأسمر في القرن العاشر الهجري مركزًا هامًّا في التأثير العلمي والتعليمي في المجتمع الليبي، فأغلب الزوايا والمؤسسات التعليمية بعدها كانت وثيقة الصلة بها، خاصة المؤسسات التعليمية التي تأسست في فترة حياة الإمام نفسه على يد مريديه الذين تخرجوا على يديه، وبعملية تقصي عاجلة يمكن تحديد بعض هذه المؤسسات في:

(1) للمزيد حول الإصلاح عبر الأوراد وأبعاد هذا التقسيم، ينظر: قفة الصلاح، مصدر سابق، ص73.

• مدينة طرابلس، وهي التي نشط فيها الإمام الأسمر عند إقامته في طرابلس، وكان فيها إمامًا لجامع الناقة، وواضح أنه أرسى فيها معالم مدرسة علمية وفق رؤيته الخاصة، استمرت بعد انتقاله من طرابلس، وهو ما تؤكده رسالته إلى أتباعه في طرابلس، وتتضمن 19 اسمًا من أسماء تلاميذه العلماء في طرابلس[1]، ولا بد أن هؤلاء الذين خاطبهم برسالة واحد كانت تأويهم مدرسة واحدة في طرابلس، واعتبارهم تلاميذه فمدرستهم عروسية صوفية قطعًا.

• مدينة الخمس: التي ينحدر منها تلميذه المباشر الشيخ عمر بن حجا الذي أوصى الإمام الأسمر بأن يكون خليفته من بعده، فقد بنى فيها ابنه الشيخ محمد بن حجا زاوية قامت على المنهج الأسمري العروسي، حيث خلف الشيخ محمد والده في مشيخة الطريقة.

• مدينة بني وليد: إذ نفهم من ترجمة تلميذ الإمام الأسمر المباشر الشيخ محمد أبو طبل، أنه ممن أذن في التلقين وإعطاء الطريقة في حياة الإمام، وقول المدارس أنه انتفع بأبي طبل خلق كثير، يعني أنه له زاوية عروسية في بني وليد.

• مدينة تاورغاء: وهي أول منطقة نزل فيها الإمام الأسمر بعد أن خرج من منفاه في جبل سوف الجين، حيث كان يدرس الأوضاع والمناطق لتأسيس زاويته، وذكرت المصادر أن من بين أعيانها الشيخ حماد التاورغي كان تلميذًا مباشرًا له، وخروج الامام من تاورغاء لا يعني أنه تركها دون أن يرسي فيها معالم زاوية وربما زوايا.

• مدينة مصراتة: وهي المنطقة الثانية التي حل فيها الإمام الأسمر بعد تاورغاء، ونزل فيها ضيفًا عن تلميذه وصديقه الشيخ علي بودبوس، بل وأخذ فيها عنه أثناء إقامته أزيد من 800 مريد، ما يعني أن بالفعل أرسى فيها زاوية عروسية، خاصة وأنه أرسل من بعد ابنه الأكبر الشيخ أحمد البكر ليقيم في مصراتة بشكل نهائي.

• مدينة الزاوية: وعرفت بالحضور العروسي الأسمري الكبير، إذ تميز منها أكثر مريدي الإمام الأسمر، كالشيخ أحمد بحر السماح، والشيخ أحمد الكمودي، والشيخ عبد الحميد الكمودي، والشيخ أحمد أبو قطاية، وغيرهم، بل وخص الإمام هذه المدينة برسالة كاملة وجهها لأتباعه فيها[2].

---

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص211.
(2) نفس المصدر، ص167.

• مدينة غريان: هي المدينة التي استقر فيها لفترة من الزمن بعد نفيه من طرابلس، ولا بد وأنه أرسى فيها قواعد مدرسة علمية، ويدل على ذلك أحد رسائله التي وجهها لأتباعه في غريان[1].

• مدينة العجيلات: ونشط فيها أكبر تلامذته في زوايا عروسية نشرت دعوته، كالشيخ راشد بن أبي زيد[2]، والشيخ علي أبو عجيلة[3].

• مدينة صرمان: وهي من المراكز العلمية النشطة في نشر الدعوة الأسمرية، فللإمام الأسمر تلميذ هام فيها وهو الشيخ راشد المحجوبي، وتظهر أهميته الخاصة بأن كانت أحد رسائل الإمام موجهة له.

• أبو ماضي بمنطقة ككلة: وإن كانت زاوية أبو ماضي من معاقل العلم القديمة، إلا أن الإمام أعاد دعمها وتحديثها من خلال أكبر تلاميذه وهو الشيخ امحمد الجبالي[4]، الذي نشط في الزاوية ويعد من أهم علمائها.

• مدينة غدامس: وتشير رسالته الموجهة لتلميذه الشيخ سعيد بن عبد الحميد الغدامسي[5]، على قيام هذا التلميذ بالدعوة في غدامس وانتشارها هناك، ولا بد وأنه تم العمل من خلال زاوية فيها.

• مناطق فزان: دون تحديد لمنطقة بعينها في فزان، ويدل على انتشارها هناك رسالة الإمام الموجهة لتلميذه الشيخ عبد الرحمن بن عبد المؤمن الفزاني[6]، وقد يدعونا عدم تحديد منطقة بعينها للقول بأن في فزان أكثر من زاوية عروسية.

• مدينة درنة: حيث يفيد الشيخ القطعاني بأن 12 رجلًا من درنة قدموا إلى الإمام الأسمر وأخذوا عنهم ورجعوا لبلادهم، وهو عدد يقتضي وجود زاوية هناك تجمعهم، وربما يكون الشيخ علي الدرناوي شيخ تلك الزاوية.

• في أقصى الشرق الليبي: حيث يحدثنا الشيخ القطعاني أن الشيخ أحمد بو سعيدة خادم الإمام الأسمر، هاجر إلى أقصى الشرق الليبي واستقر فيه لفترة حيث اشتغل بتعليم القرآن الكريم ونشر الدعوة فيها[7].

---

(1) نفس المصدر، ص187.
(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص498.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحات.
(4) نفس المصدر، ج2، ص16.
(5) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص129.
(6) نفس المصدر، ص125.
(7) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص483.

وباعتقادي أن هذه المناطق هي قواعد أرساها الإمام الأسمر بعناية لتشكل خارطة انتشار لدعوته العروسية وفقًا لتجديده الأسمري، وربما تكون هذه الخطة التي نعتقد أن الإمام الأسمر كان قد أعدها بشكل مسبق لنشر دعوته، هي السبب في التأثير المباشر والمستمر لعدة قرون في المؤسسات التعليمية، خاصة مع احتفاظ الزاوية الأسمرية في زليتن بمركزيتها، والملاحظ أن أغلب علماء ليبيا إما أنهم قد تخرجوا في زاوية الإمام، أو تخرجوا على من تخرج فيها، وهذا استمر حدوثه إلى وقت قريب.

والمقومات الهامة جدًّا التي جعلت مدرسة الإمام الأسمر تستمر في مركزيتها المؤثرة في الأوساط العلمية والتعليمية في المجتمع الليبي، قدرتها على النقد والمراجعة والتماهي من المستجدات لمواجهتها، فحتى بعد أن شهدت الزاوية أكبر حملة عسكرية شهدتها معاقل العلم والفكر في كل التاريخ الإسلامي، وهي الحملة العسكرية التي قادها يحيى بن يحيى السويدي، الذي خرج متمردًا في طرابلس وأقاليمها بعد وفاة الإمام بنحو خمسة عشر سنة، ودمر منشآت الزاوية ومكتبتها وقتل شيخها الشيخ عمران بن الإمام الأسمر[1]، لجأ شيخ الطريقة وقتها الشيخ عمر بن حجا إلى تونس واتخذها مقرًّا لاستمرار نشاط الطريقة[2]، بالتزامن مع حالة إعمار جديدة في الزاوية نفسها تمت على يد الشيخ عبد الوهاب النجل الأصغر للإمام الأسمر[3].

واشتد نشاط الطريقة برجوع الشيخ محمد نجل الشيخ عمر بن حجا إلى ليبيا الذي تخرج على يديه أكبر وأبرز شيوخ الطريقة العروسية والزاوية الأسمرية وهو الشيخ عبد الله أبو راوي[4]، فقد شكلت مرحلة وجوده في الطريقة الزاوية مرحلة نشاط مفصلية أرجعت للطريقة نشاطها الدعوي بشكل واسع، سيما على يد أهم مريديه، وهما الشيخ علي الفرجاني[5] والشيخ عبد السلام بن عثمان[6]. ففي عصر الشيخ أبو راوي وتلميذه

(1) ذكرت هذه الحادثة العديد من المصادر وتوسعت فيها، وللاختصار ينظر: تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص177 - 232.
(2) نفس المصدر، ص248.
(3) نفس المصدر، ص232.
(4) تنظر ترجمته في موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص 169.
(5) تنظر ترجمته في موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص 256.
(6) للتوسع حوله، ينظر: دور الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري في تحديث تجربة جده الأعلى الشيخ عبد السلام الأسمر الصوفية ونشر أفكاره، مجلة الجامعة الأسمرية، العدد11، السنة 6، 2009م، ص403 وما بعدها.

شهدت الطريقة حالة من النقد والمراجعة لنبذ ما شاب الطريقة وفكر الإمام الأسمر من شوائب ودخائل عليها، وقام بجهود مشهودة لمواجهة العابثين بالطريقة، فقام وتلاميذه بنشر الوصية الصغرى، أهم وصايا ونصائح الإمام التي تبين معالم وقواعد الطريقة، وتكشف بوضوح عن معالم فكر الإمام الأسمر.

وضمن جهود الشيخ أبو راوي وتلاميذه استمر مشروع التوسيع في بناء الزوايا والمدارس، وأهمها المدرسة البوراوية التي أسسها الشيخ أبو راوي في تاجوراء بدورها التعليمي والتثقيفي واستمرارها على يد تلاميذه، ومن بينهم الشيخ محمد بن عبد الحفيظ النعاس تلميذ الشيخ عبد السلام بن عثمان، فازداد بذلك أتباع الطريقة، ونشأ جيل من المريدين كان لهم دور كبير في التعريف والتنظير والدفاع عن هذه الطريقة[1]، خاصة وأن الشيخ ابن عثمان قام بدور كبير في التعريف بالطريقة العروسية وفكرها وسلوكها وقواعدها، عبر كتابيه فتح العليم في مناقب سيدي عبد السلام بن سليم، والإشارات لما في طرابلس الغرب من مزارات[2]، وخاصة كتابه الأول الذي أكد فيه وجود انحرافات في الطريقة حدثت بعد وفاة مؤسسها الإمام الأسمر.

وبمرور الزمن انتشرت دعوة الإمام الأسمر وزواياها، وانتسب لها العلماء والوجهاء والعامة من الناس بعدما لمسوا دورها الإيجابي في النهوض بالمجتمع في كافة المجالات، من بينهم الشيخ محمد عبد المولى الهنشيري شيخ الطريقة الذي قام بتحفيظ كتاب الله وتدريس العلوم الشرعية لأبناء منطقته في جامع بيت المال بمحلة الهنشير بمدينة طرابلس[3]، والشيخ العالم عبد الرحمن بن محمد الخازمي الورفلي الذي أسس زاوية أسمرية عروسية في مدينة هون بإقليم فزان، وقام بتحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الشرعية بها[4]، وأسس الشيخ علي النينة زاوية في مدينة مرزق[5]، وتتابع

(1) فصول في تاريخ ليبيا الثقافي، عبد الحميد الهرامة، أصالة للنشر والتوزيع، بيروت، طذ، 1999م، ص227.

(2) دور الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري في تحديث تجربة جده الأعلى الشيخ عبد السلام الأسمر الصوفية ونشر أفكاره، مصدر سابق، ص229.

(3) حادي العقول إلى بلوغ المأمول، أحمد بن حمادي، تحقيق جمعة محمود الزريقي، جمعية الدعوة الاسلامية، طرابلس، د.ت، ص69.

(4) التعليم الديني وأعلامه في مدينة هون 1835-1980م، بدر يوسف جمال، جمعية ذاكرة المدينة، هون، 2021م، ص71.

(5) أرشيف مركز الزاوية الأسمرية للوثائق والمخطوطات وحفظ التراث، قسم الوثائق، وثيقة عن تأسيس الزاوية العروسية في مدينة مرزق.

فتح الزوايا في مدن عدة من الإقليم كسوكنة وهون وسبها وأوباري وغيرها[1]، وفي شرق ليبيا ظهرت شخصيات بارزة ازدهرت على يديها الطريقة على رأسهم الشيخ عثمان بحيح الفيتوري دور كبير في نشر الطريقة بهذا الإقليم[2].

واستدعت تلك الأدوار المجتمعية الكبيرة التي أدتها طريقة الإمام الأسمر، اهتمامًا من قبل الحكام والموظفين والأعيان وعامة الناس من داخل ليبيا وخارجها وفي كل الأزمنة، فسخروا موارد الدولة وأموالهم الخاصة لأجل تقديم الدعم للزاوية، من بينهم أحد الأعيان بالبلاد التونسية ويدعى حسونة بن عمار، الذي قدم صندوقًا مصنوعًا من الخشب والمرايا ليكون تابوتًا على قبر الإمام سيدي عبد السلام[3]، وقام البعض من سلاطين الدولة العثمانيين بإعفاء الزاوية الأسمرية من الضرائب تقديرًا لمؤسسها ولدورها العلمي والتربوي في المجتمع[4]، من بينهم السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي قام بتقديم الهدايا إلى ضريح الإمام[5]، وأوقف على زاويته عدة عقارات في مدينتي طرابلس ومرزق ليكون ريعها على هذه الزاوية[6].

لكن المظهر الأكثر لالتفاف المجتمع حول الزاوية لمواصلة دورها، ظهر في إقبال الناس على وقف بعض ممتلكاتهم أو كلها من أراضٍ زراعية وأشجار مثمرة وعقارات تجارية لتكون وقفًا دائمًا على زاويته، يصرف منه على ترميم واستقبال عابري السبيل من حجاج بيت الله الحرام والزائرين لضريح الإمام وزاويته، ولأجل خدمة الفقهاء

---

(1) مدينة سوكنة في العهد العثماني الثاني، المختار العفيفي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،2001م، ص212. محمود أحمد زاقوب، هون المدينة القديمة 1852-1982م، ط1، جمعية ذاكرة المدينة، هون، 2013م، ص26.

(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق،، ج2، ص523.

(3) جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، محمد الحشائشي، تحقيق علي مصطفى المصراتي، دار لبنان للطباعة، ط1، بيروت، 1965م، ص109.

(4) أرشيف مركز لزاوية الأسمرية للوثائق والمخطوطات وحفظ التراث، قسم الوثائق، رسالة من ناظر المالية بالدولة العثمانية بخصوص إعفاء أوقاف زاوية الإمام سيدي عبد السلام من الضرائب المؤرخة في 15 ذي القعدة 1324هـ/ 1906م.

(5) أرشيف مركز الزاوية الأسمرية للوثائق والمخطوطات وحفظ التراث، قسم الوثائق، رسالة من ناظر زاوية الإمام سيد عبد السلام الأسمر إلى السلطان عبد الحميد الثاني بخصوص الهدايا المرسلة إلى ضريح وزاوية الإمام سيدي عبد السلام الأسمر، بدون تاريخ.

(6) أرشيف مركز الزاوية الأسمرية للوثائق والمخطوطات وحفظ التراث، قسم الوثائق، وقفية السلطان عبد الحميد الثاني على زاوية الإمام سيدي عبد السلام الأسمر بمدينة زليتن المؤرخة في الأول من ربيع الثاني 1323هـ/ 1905م، وزاويته التي بمدينة مرزق المؤرخة في 1324هـ/ 1906م.

وطالبي العلم بالزاوية ومريدي الطريقة الأسمرية العروسية، حتى أصبحت أوقاف الزاوية الأسمرية أكثر الأوقاف عددًا وأكبرها مساحةً في ليبيا[1].

وعلى مدى فترات التاريخ كانت زاوية الإمام الأسمر وجهة لزيارة كبار العلماء والمسؤولين والقادة داخل ليبيا وخارجها، في مظهر آخر يدل على عمق الأثر العلمي والمجتمعي الكبير للزاوية، ونثبت هنا بعض الشخصيات والعلماء والقيادات السياسية التي زارت الزاوية على فترات تاريخية مختلفة، كما حدث في العام 1308هـ / 1887م عندما زارها الحاج أحمد بن محمد الفيتوري شيخ الزاوية العروسية بقابس، ومقدمها الشيخ قاسم الشايب، ومحمد بن الحاج التهامي شيخ زاوية غنوش العروسية، ومحمد بن محمد كمون الشاوش بزاوية الطباع العروسية بصفاقس[2] ومشايخ ومريدو الزاوية الصغيرة والكبيرة العيساوية بطرابلس في العام 1365هـ/ 1946م[3]، والرحالة محمد الحشائشي في العام 1319هـ الموافق 1896م[4] والمسؤولون بالدولة كالوالي مراد آغا والملك محمد إدريس محمد المهدي السنوسي[5] والزعيم الليبي معمر محمد القذافي[6]، ومتصرف لواء الخمس حسن خلوصي في العام 1322هـ/ 1902م، وقائم مقام زليتن محمد أمين أحمد المهدي في العام 1318هـ/ 1898م وعلي يازجي بن صالح زهدي وزوجته وابنيه في العام 1320هـ/ 1900م. وزيارة الأمير علي بن الأمير عبد القادر الجزائري في العام 1330هـ/ 1912م[7]، ووجهاء البلاد كمحمود المنتصر وابنه عمر ومنصور فتحي الكيخيا وعبد المجيد كعبار في العام 1357هـ/ 1938م.

---

(1) أوقاف الزاوية الأسمرية ودورها في الحياة العلمية بمدينة زليتن 1943-1969م، فتحي الزرقاني، مجلة العلوم الإنسانية، المجلد (37)، خاص بالمؤتمر الأول لقسم التاريخ المنعقد في نوفمبر 2022م كلية الآداب الجامعة الأسمرية الإسلامية، ص466.

(2) أرشيف مركز لزاوية الأسمرية للوثائق والمخطوطات وحفظ التراث، قسم المخطوطات، دفتر الزيارات بزاوية الإمام سيدي عبد السلام الأسمر.

(3) صحيفة طرابلس الغرب، (زيارة الزاوية الصغيرة العيساوية لضريح الولي الأكبر سيدي عبد السلام الأسمر)، العدد 875، السنة الرابعة، بتاريخ 10 جمادى الأولى 1365هـ الموافق 13 أبريل 1946م. صحيفة طرابلس الغرب، (الحفاوة الحارة بالزاوية الكبيرة عند زيارتها لمقام سلطان الأولياء سيدي عبد السلام الأسمر)، العدد 857، السنة الرابعة، بتاريخ 1910 ربيع الثاني 1365هـ الموافق 23 مارس 1946م.

(4) جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، مصدر سابق، ص109.

(5) الحياة الثقافية بمدينة زليتن 1951 – 1969م، فتحي سالم الزريقاني، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة مصراتة، 2014م، ص41.

(6) جاء عدة مرات لأجل الزيارة وكان آخرها في العام 2010م. الباحث.

(7) أرشيف مركز لزاوية الأسمرية للوثائق والمخطوطات وحفظ التراث، قسم المخطوطات، دفتر الزيارات بزاوية الإمام سيدي عبدالسلام الأسمر.

2. في الجانب الزراعي والاقتصادي:

كما أسلفنا فقد اعتنى الإمام الأسمر بشرائح الفلاحين والحرفيين والمهنيين والتجارة، ومن المهم أن نشير إلى أن تقسيمه مريديه وفقًا لشرائح الأعمال والأشغال يعد أول تنظيم يرصد في تاريخ المجتمع الليبي، وربما تكون بعض الفترات عرفت انتشارًا للمهن والحرف والأعمال إلى حد تميز أصحابها، لكن لم يسبق وأن رصد تقسيم المجتمع الواحد، كما في المجتمع العروسي الأسمري، وفقًا لشرائح المهن والأعمال، وهذا التقسيم ولا شك أنه لم يكن عشوائيًّا أو جاء بطريق الصدفة، بل كان مبنيًّا على خطط لدى الإمام ليبني عليها مراحل أخرى يستمر معها تنظيم العمل داخل مشروعه.

صحيح، أنه ليس بين مصادر يمكن من خلالها قياس الأثر والفارق الذي أحدثه الإمام الأسمر في الوسط الفلاحي والحرفي، بل الاقتصادي بشكل عام، لكن يمكن الاستئناس بما ذكرته بعض الرحلات الأجنبية التي تحدث عن تلك الفترة، كوصف المؤرخ الأسباني مارمول كاربخال لمدينة زليتن، إذ كتب وصفًا لشمال أفريقيا بين عامي 1573م – 1599م، ويلاحظ بداية عمله في هذا الكتاب تزامن مع العام الذي توفي فيه الإمام الأسمر 981هـ/ 1573م، فقال في وصف زليتن بأن فيها «القرى العديدة والنخيل الفسيح. يتمتع السكان برخاء لا بأس به نظرًا لموقعهم بجانب البحر، والذي يمكنهم من مزاولة التجارة مع المصريين والصقليين، ويستبدلون تمرهم بما يحتاجون إليه من بضائع»[1]. ودون شك عندي فإن هذا الرخاء الزراعي ورواج التبادل التجاري من آثار تنظيم العمل وتنشيطه في مشروع الإمام الأسمر، لكننا بحاجة للمزيد من الوثائق الخاصة بتلك الفترة لنتعرف من خلالها على شكل العلاقات وطريقة التعامل في التبادل التجاري بين أهل زليتن والمصريين والصقليين، وقد أزعم أن من بينهم تجارًا كانوا قد وفدوا على الإمام الأسمر للأخذ عنه، فلا يقبل بحال أن تكون أعداد الوافدين الغفيرة كلهم كانوا من طلاب العلم، فلا شك أن فيهم أيضًا العمال والحرفيين والتجار ومن كافة الفئات والشرائح، ويدعم هذا الفرض أن من مراد آغا وجنوده وفدوا على الإمام الأسمر للأخذ عنه، كما مر بنا، وهم من شريحة المحاربين والسياسيين وليسوا من العلماء وطلاب العلم.

---

(1) أفريقيا، مارمول كربخال، ترجمة محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، ط1، ج3، ص173.

3. في جانب الاستقرار والأمن:

واجهت ليبيا مشكلة عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي بها في ذلك الوقت، بسبب سقوط دولة الحفصيين وسيطرة الإسبان وفرسان القديس يوحنا على طرابلس وطردهم من قبل الدولة العثمانية التي سيطرت على البلاد لعدة قرون، لقاء ذلك تضمن مشروع الإمام الأسمر حرصًا على إحلال عامل هام من عوامل الاستقرار الحضاري، وهو عامل الأمن. وكانت جهوده في هذا الجانب تعكس عمق رؤيته بأهمية تربية الفرد وإعداده كعنصر فاعل، فعملية السلوك الصوفي التي تجمع بين العلم والتربية استهدف الأفراد بتعليم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم والتثقيف الديني وربطهم بمركزية الزاوية والطريقة من خلال الأوراد والوظيفة، مما كان له أثر كبير في انشغال الناس بأمور دينهم بعد قضاء مشاغلهم الدنيوية، فأذهب بذلك الفراغ الذي كانوا فيه والذي هو سبب أساسي لعدم الاستقرار، وانتشرت هذه الإستراتيجية في أنحاء البلاد من خلال مريديه وزواياه التي تعدد تأسيس مواقعها في أغلب مدن ومناطق البلاد، كما رأينا سابقًا، فانتسب لها الناس وحرصوا على تنفيذ تعاليمها، مما كان له أثر كبير في جنوح الكثير من الأسر والقبائل إلى حياة الاستقرار. ومن المهم أن نثبت شهادة كتبها الشيخ عبد السلام بن عثمان في كتابه «فتح العليم» بعد أزيد من قرن عن وفاة الإمام، يقول فيها: «إن نواحي طرابلس الشرقية منذ أن خرج الشيخ عبد السلام بينهم أصبحت أكثر أمنًا واستقرارًا بخلاف النواحي الغربية من طرابلس التي عجَّت بكثرة الفساد، مما جعل سكانها يتمنون أن يكون الإمام بينهم لإنهاء الفوضى السائدة بتلك النواحي»[1].

ولم يبقِ الإمام وصاياه بوجوب احترام العلماء والصالحين في مستوى التنظير، بل نقلها إلى المستوى العملي حتى من خلاله ممارساته الخاصة، إذ تحفظ لنا كتب التاريخ عنايته الخاصة بكثرة زيارة الصالحين والتبرك به والأخذ عنه، وأصبحت ثقافة احترام العلماء والصالحين ثقافة أصيلة راسخة في المجتمع الليبي من خلال الطريقة العروسية، وهو ما يكشف عنه كتاب «الإشارات لبعض ما بطرابلس الغرب من المزارات» للشيخ عبد السلام بن عثمان أيضًا، إذ عكس به الاحترام الكبير الذي يلقاه الصالحون

---

(1) فتح العليم في مناقب عبد السلام بن سليم، عبد السلام بن عثمان، تحقيق نادية مفتاح، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، مرجع سابق، ص71.

في المجتمع الليبي، حتى أصبحت أضرحتهم وزواياهم معقلًا آمنًا يلجأ إليه الناس عند الشدائد والكروب، بل يخشاهم قطاع الطرق واللصوص.

وفي العهد القرمانلي أوصي الوالي علي بن محمد القرمانلي وابنه يوسف اللذان قاما بتقدير الولي الصالح سيدي إبراهيم بن ناصر الفيتوري بمدينة زليتن، ويؤكد نص عهد الأمان الذي كتباه أنهما جعلا ضريحه حرمًا آمنًا لا يستطيع رجال الدولة أن يدخلوه إلا للزيارة فقط، فمن دخله من الرعية خائفًا أو مستجيرًا كان آمنًا مطمئنًّا على نفسه وماله[1].

ومن مظاهر الأمن، السلوك النفسي المطمئن باحترام العلماء والصالحين، الذي شاع في أوساط الناس كأثر من آثار ترسيخ الإمام الأسمر لقيمة احترام العلماء والصالحين، فألفت العديد من الشخصيات التوسل بهم عندما يحدث لهم عارض من عوارض الدنيا[2]، بل وفي فترة الجهاد الليبي ضد الإيطاليين كانت أسماء العلماء والصالحين حاضرة بقوة في المناظيم الشعرية التي كانت تعبر عن عمق الانتماء للوطن، فعبَّروا عن ذلك في قصائدهم الجزلية، من بينهم الشاعر محمد عبد الله عامر، والذي قال في قصيدة نظمها أثناء بداية الغزو الإيطالي واحتلال مدينة طرابلس[3]:

سْنين كاسدة وَهمْ الكَفَرْ كَدَرْهَا

وفي عين زارة[4] هالعين حشرها

طلبناك يا رب متين العروة

يا هاشمي بجاه النبي ومن زاره

طــلــبــنــاك يــا مــولانــا

يا سيدنا تقبل سريع دعانا

يا سيدنا راهي القلوب حيارة

---

(1) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص250.

(2) فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم، مصدر سابق، ص121. من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا 1912م، جون ريمون، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1983م، ص198.

(3) قصائد الجهاد (سلسلة الروايات الشفوية رقم34)، خليفة محمد الذويبي وآخرون، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1995م، ص343.

(4) منطقة تقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس.

بحرمة شيوخ الوِرْدْ وأهل السنة

وعــــبـــــد الــــســـــلام

الــحـــازمـــي[1] وأســـــراره

وقدامنا العوجة تكون سقيمة

ونظم الشاعر رحومة بن مصطفى الورفلي قصيدة يصف فيها حال البلاد وهي تحت الاحتلال الإيطالي، ويطلب من الله أن يبعد عنهم هذا المستعمر بواجهة أوليائه الصالحين، فقال[2]:

طلبتك يا عـدّال المِيـلْ[3]	**تْـفـرّج يـا عـالـم الأسـرار**
بـجـاه الأَوْلِـيـة بالتِجْميلْ	**وكـل مـن هُـو مَشْـهـور زَار**
يـا لسمر[4] يـا سيد الخِيلْ	**اللي ضَـارِي فـارس نَـغَـارْ**
اللي مـاَنَـكْ من سِـرْ عَطِيلْ	**إِنـت سِـرْ فْـواتـيـر أحـرار**
وْجَـاهـك عند الـلـه طويل	**إنـت جِـبـتْ يَـسـيـرة كفّار**
نُـبُـو مـنَّـكْ نـدهَـاتْ جميلَ	**انـت تـعـرف لـلـشـارقْ كَـارْ**
تْـسـخّـرْ بـيـبـان التسهيل	**بنصرْ وتسقِيمَةْ كِـشـوارْ**
بـجـاه رقـود الــرُوضَـــات[5]	**اللي سبعة أولاد سليمان[6]**
وزرُوقْ[7] المصراتيات	**ولسْمر[8] وجـدود الفرجان**

(1) عبد السلام الحازمي: هو عبد السلام الأسمر بن سليم الحازمي الفيتوري.

(2) لجنة جمع التراث، ديوان الشعر الشعبي، مج 1، ط1، جامعة قاريونس، 1989م، ص262، 267.

(3) عدَّال الميل: المقصود به الله الذي يعدل أحوال الناس، الباحث.

(4) لسمر: هو سيدي عبدالسلام بن سليم الفيتوري دفين مدينة زليتن.

(5) أي الصلحاء الذين بنيت على قبورهم حجرات تعرف بالروضات. الباحث.

(6) سبعة أولاد سليمان: هم المشايخ السبعة الفواتير المدفونين في زليتن، وهم أبناء سليمان بن سالم الفيتوري، المدفون بجوار سيدي عبد الله الشعاب بطرابلس. ينظر: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص291.

(7) هو الشيخ العالم الفقيه أحمد بن أحمد البرنسي عرف بزروق ولد بمدينة فاس وتوفي ودفن بزاويته بمدينة مصراتة، وله العديد من المؤلفات في علوم الشرع والتصوف، وتنسب له الطريقة الزروقية. ينظر: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص309.

(8) لسمر: هو سيدي عبد السلام بن سليم الفيتوري دفين مدينة زليتن.

وحمَل الموروث الشعبي الليبي الكثير من القصص والأهازيج التي تشيد بالأولياء الصالحين وتتوسل بهم، من بينها الأهازيج التي تقال في يوم عاشوراء بمدينة سوكنة، حيث تذكر عدد من الصحابة والأولياء والصلحاء، وهم: الحسن والحسين أبناء علي بن أبي طالب، وسيدي مادي وسيدي محمد الحطاب والإمام الأسمر وذريته وسيدي مسكين وسيدي شلميط وسيدي أبو شعالة، وتقول الأهزوجة[1]:

عَـــدالـــةْ هـيــا عــدالــة	افــزعــولــي هــذه الــدَالــةْ
يــــا ســـيـــدي مـــــادي[2]	يا حـطـاب[3] عليك النادي
جــيــتَــكْ مـــن غَــــادِي	حشّدْ لِـي لسمر[4] وعيالهْ
أســـــــيــــــــادي ويــــــن	راقـد مـحـروقـة مسكين[5]
لــحــســـن وحــــســـيــــن[6]	والـحـطـاب وبـو شـعـالـة[7]

وحتى لا يتحول الالتجاء على الصالحين والعلماء سبيلًا للاتكالية عند بعض الناس، عالج المجتمع الليبي هذه الظاهرة، من خلال الأمثال السائرة، التي تحث المسلم على الاتكال على الله ويناشدونه بنبيه وأوليائه، وعليهم كذلك بالعمل لتحقيق ذلك، ومنه المثل السائر: «عاون سيدي عبد السلام حتى بحبيل»[8].

خاتمة:

من أهم النتائج التي تخلص إليها هذه المقالة، أن التصوف في فكر الإمام الأسمر لم يكن ضيقًا في معاني التنسك والعبادة والانشغال بالنفس، بل هو مشروع حياة متكامل، وإذا كان من مثال يمكن أن يضرب عن العبادة والولاية فلن يجد أي منا مثالًا له كالإمام الأسمر الذي قيل في لقبه بالأسمر أنه كان يبيت الليالي سمرًا في طاعة الله، ومع ذلك

---

(1) مدينة سوكنة في العهد العثماني الثاني، مصدر سابق، ص196.

(2) سيدي مادي: هو أحد الصلحاء دفين قرية أشكدة بوادي الشاطئ.

(3) الحطاب: هو محمد بن عبد الرحمن الرعيني المعروف بالحطاب أحد صلحاء دفين مدينة طرابلس.

(4) لسمر: هو سيدي عبدالسلام بن سليم الفيتوري دفين مدينة زليتن.

(5) مسكين بن عبد الله بن سهل هو أحد الأولياء دفين قرية محروقة بوادي الشاطئ.

(6) ابني علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، وهما سبطا رسول الله – ﷺ.

(7) بو شعالة: هو أحد الصلحاء دفين مدينة مصراتة.

(8) الأمثال الشعبية في ليبيا، محمد حقيق، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1978م، ص59.

حملت وصاياه ورسائله مشروع حياة متكامل الأركان، في المجتمع والاقتصاد والثقافة والتعليم والأسرة والسياسة وغيرها.

إن شخصية الإمام الأسمر وحياته وأعماله لترد بشكل واضح وجلي على الدراسات التي ترى في التاريخ الليبي تاريخًا مظلمًا أو تابعًا لغيره من المراكز الحضارية ولم يكن فاعلًا باستقلاله، فما مر بنا من صفحات أنارها الإمام الأسمر بأعماله ومشروعه وفكره فيها الرد الكافي على تلك الافتراءات والاتهامات، من جانب، ومن جانب آخر فمضمون أعماله وآثاره هي الأخرى رد كافٍ وشافٍ لتلك الاتهامات الموجهة من قبل التيارات المتطرفة الجامدة التي نشرت فكرها المختلف القائم على اتهام التصوف والصوفية بالبدعة وغيرها من الأوصاف التي تفندها أعمال الإمام الأسمر وجهوده الحضارية.

وكل ذلك يحثنا ويدعونا إلى وجوب زيادة عدد الدراسات حول شخصية الإمام الأسمر وأعماله ومشروعه الحضاري الإصلاحي الذي اتسع أثره ليصل إلى ديار المسلمين جمعاء، وتقصي أثره في كل الجوانب والأبعاد، والمهم هو الإفادة منه والبناء عليه لتستمر أدوار رموزنا الوطنية في التأثير والعطاء.




اللؤلؤ الأنور في أثر دعوة الإمام الأسمر

أ. وائل محمد أحمد المصك

باحث في التاريخ الثقافي - ليبيا

ملخص:

تتناول هذه المقالة تتبع ورصد أثر دعوة الإمام عبد السلام الأسمر الفيتوري، والوسائل والآليات التي اتبعها في نشر دعوته، ومظاهرها وآثارها، والعوامل والظروف التي وقفت في طريق جهوده، وأخرى ساعدته واستثمرها لصالح دعوته. إن شخصية الإمام الأسمر لجديرة بالدراسة والبحث؛ لما فيها من فرادة وتميز في النظرية والتطبيق، ولما للنجاحات التي حققها من أهمية في حقل الدراسات الخاصة بالدعوة، ما يجعلها من التجارب والمشاريع المميزة في كل تاريخ الفكر الإسلامي.

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الدعوة، الأثر، الانتشار.

مقدمة:

لم يفتأ علماء الأمة الإسلامية السائرون على منهاج النبي ﷺ، قائمين بواجب التبليغ والتعليم والتبيان، فتعم أنوار العلم والهداية مشارق الأرض ومغاربها، ومن العلماء الربانيين الذين عرفتهم الأمة وكان لهم بصمةٌ واضحة، وأثر لا يمحوه الزمان، سيدي الشيخ العالم الفقيه الصوفي الزاهد المجاهد الإمام عبد السلام الأسمر الفيتوري. وسنعرض من سيرته في هذه الورقة وأثره في حياة معاصريه من التلاميذ والمحبين على الصعيد الداخلي الليبي، وعلى الصعيد المغاربي والأفريقي، دون أن نتتبع أثره الدعوي

في مختلف العصور اللاحقة، فهذا مما لا تستطيعه أسطر هذه الورقة؛ لاتساع رقعة أثره وبلوغه مبلغًا عم كل أنحاء الدنيا، فلا يوجد قطر في المعمورة اليوم إلا ويوجد فيه من يعرف له قدره ووصله أثره.

نبذة من سيرة الإمام الأسمر

اتفق المؤرخون والكُتاب في سيرة الإمام الأسمر[1]، أنه شريف النسب من طرفي والده وأمه، فهو إدريسي نبوي شريف، فيتوري إذ يرتفع نسبه من جهة والده السيد سليم الفيتوري إلى السادة الفواتير الأشراف ودرعي مشيشي، إذ يمر من خلال والدته السيدة سليمة الدرعية إلى سيدنا عبد السلام بن مشيش، رضوان الله عن الجميع. أما أوليته فيذكر المؤرخون أنه يولد بمدينة زليتن الليبية عام 880هـ، وتربى في أحضان والدته وعمه السيد أحمد الفيتوري الذي تولى رعايته بعد وفاة والده، وبرعاية والده وعمه حفظ القرآن الكريم وجوده وتفقه، قبل أن يتلقى علوم التوحيد واللغة والفقه والمنطق على يد عمه السيد أحمد الفيتوري.

ولاحقًا وهو في سن العاشرة، تحول إلى مدرسة أستاذه ومربيه الصوفي الأشهر الشيخ عبد الواحد الدوكالي، الذي أخذ عنه الطريقة العروسية، أخذ سلوكًا وإرادة ودراسة، وصحبه لمدة سبع سنوات، قبل أن يتخرج في مدرسته. ويخبرنا مؤرخو سيرة الإمام الأسمر أنه لم يرجع لمسقط رأسه بمدينة زليتن حتى شهد له أزيد من ثمانين عالمًا من العلماء بالأهلية والقدرة على الدعوة لدين الله وسنة نبيه ﷺ، وعندها أسس زاويته الشهيرة بمدينة زليتن معهدًا وجامعة إسلامية أصبحت في زمن قصير تضاهي جامعات العالم الإسلامي، وشاعت دعوته حتى بلغت الآفاق.

ويجب أن نسجل الآتي للتأسيس للمباحث التالية في هذه الورقة:

1 - يسر الله تعالى له مصادر معرفية متنوعة بين ليبيا وتونس والمغرب، وهذه المصادر شكلت له أساس البناء والتكوين المعرفي، فتنوع إرثه الثقافي الصوفي منذ

---

(1) للتوسع حول سيرة الإمام الأسمر، ينظر:
تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966.
القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1992م.
مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، منشورات اللجنة العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن.
رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق محمد بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.

ولادته وبواكير نشأته بين الإرث الفيتوري من طريق والده السيد سليم وعمه السيد أحمد، وبين الإرث المغاربي من طريق والدته السيدة سليمة التي تنتمي لبيت الدرعيين المغاربة المشهورين بالتصوف والعلم والفضل.

وزاد هذا التنوع ثراء باتصاله بأستاذه عبد الواحد الدوكالي، الذي يمثل امتزاجًا آخر بين إرث المدرسة الدوكالية المغاربية، فوالده الشيخ محمد الدوكالي وفد من دوكالة بالمغرب، وهو من كبار علماء الأمة الإسلامية، وبين المدرسة الصوفية التونسية، إذ يعد الشيخ عبد الوحد الدوكالي من كبار شيوخ الطريقة العروسية التي تأسست في تونس على يد الشيخ أحمد بن عروس، وتسلسلت في شيوخها من بعده، وهم أبو راوي الفحل وأحمد أبو تليس وفتح الله أبو رأس، وثلاثتهم من تونس اتصل بهم الدوكالي، ونهل من معارفهم كما يفيدنا الإمام الأسمر نفسه في وصيته الكبرى.

2 - هذا التنوع المعرفي يصب في بوتقة واحدة، وينطلق من أساس واحد متين، ألا وهو التصوف المؤسس على الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية، فقد أخذ الإمام الأسمر عن والدته القرآن الكريم وقراءاته، وعن عمه العقيدة الأشعرية والفقه المالكي، وتاليًا في مدرسة أستاذ الدوكالي زاد تأسيسه وتمكينه على هذه الأسس، فقرأ عليه في الفقه والأصول رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومختصر خليل.

3 - أسس الإمام الأسمر مشروعه الصوفي الإصلاحي على ذات الأسس والمنطلقات، وتحديدًا التصوف المبني على الاعتقاد الأشعري والفقه، مستخرجًا منه منهجًا تعليميًّا رصينًا متينًا رسم منه معالم التجديد والتحديث في طريقته الصوفية العروسية، وهو المنهج الذي عارضه علماء عصره، ودخلوا معه في جدالات من أجله، قبل أن يتراجعوا يقروا بصحة مبناه ومعناه، وينخرطوا فيه تلاميذَ أمام حضرة الإمام الأسمر.

4 - المنهج الرباني الصوفي، التعليمي والتربوي، المؤسس على الفقه والعقيدة الصحيحة، استدعى انتباه طلاب الحق والعلماء في مختلف أصقاع الدنيا، فأقبلوا على الأخذ عنه وملازمته وصحبته، ما يحثنا على المزيد من الدراسات والأبحاث لاستجلاء تفاصيل هذا المنهج الدعوي الإصلاحي الأسمري العظيم.

الإمام الأسمر أثره وآثاره العلمية والدعوية والإصلاحية في ليبيا

1 - انتشار دعوة الإمام الأسمر في الداخل الليبي.

لم يكن الأسمر يعيش في معزل عن الناس، ولم يرحل تاركًا حياة البشر بعد طلبه للعلم وإجازته من العلماء والأشياخ، بل كان مثالًا للعالم الذي ربط علمه بسلوكه ومجتمعه، فسعى للإصلاح والنصيحة بكل ما أوتي من قوة، في زمن انتشرت فيه الجهالات والخرافات والبدع، فرفع لواء التصحيح والتوضيح مشفقًا على الناس، فاتحًا زاويته للطلاب والمريدين، متحاملًا على نفسه وراحته، فكان لا يخصص شيئًا من يومه لنفسه، فجلُّ اليوم يذهب للتعليم والوعظ واستقبال الطلاب في زاويته، فكان يبتدئ يومه بعد الضحى إلى الظهر في دروس التوحيد، ثم يصلي الظهر ليفتتح دروس الفقه وأصوله شارحًا رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر خليل حتى يحين وقت العصر، ليأتي بعد ذلك موعد شرح الحكم العطائية حتى أذان المغرب، وينتهي اليوم بآخر الدروس من بعد المغرب حتى العشاء بعلوم النحو والمنطق والمعقول[1]، ويلاحظ أن القرآن الكريم لم يُذكر في الجدول العلمي للحصص اليومية في الزاوية، والسبب هو أن القرآن الكريم وحفظه مقدمة ضرورية ومرحلة أساسية لكل من يلج الزاوية، سواء لتعليم العلم وفق الجدول المذكور أو لسلوك الطريقة العروسية، وبهذا الجدول والتدرج العملي الرصين تحولت مدينة زليتن قبلة للمتعلمين تؤمها أفواج الطلاب القادمون من الشرق والغرب للدراسة.

وللدلالة على نجاح هذا المنهج التعليمي التربوي، يمكننا تقصي ما توفر من تراجم تلاميذه الذين تركوا في عصره كل المدارس والزوايا والشيوخ، وأقبلوا للتتلمذ عليه، لنجد أنهم وفودوا إليه من كل قرى ومدن البلاد الليبية، ونكتشف أن أغلب علماء ليبيا في ذلك الوقت تخرجوا على يديه، ومنهم:

---

(1) عبد السلام الأسمر آراؤه وأفكاره في ميزان الشريعة، محمد عز الدين الغرياني، الشركة العامة للورق والطباعة، ليبيا، ص10.

- **من مدينة زليتن،** الشيخ سالم بن طاهر[1]، والشيخ سالم الحامدي[2]، وهما من أبرز علماء مدينة زليتن، وكلاهما ممن درس في مدارس عدة داخل ليبيا، قبل أن يتخرجوا في الأزهر، أما الملاحظة الثانية أنهم عندما وفدوا على الإمام الأسمر كانوا علماء، فلا بد أنهم وجدوا في منهج الإمام الأسمر وزاويته التعليمي والتربوي ما يزيد عما هو في موجود في الزوايا والمدارس الأخرى.

- **من خارج مدينة زليتن،** وهم كثر بحيث يطول إحصاؤهم، لكن بعض النماذج كفيلة ببيان انتشار دعوته، وأثر منهجه التربوي الإصلاحي، فمنهم:

- الخمس: الشيخ عمر بن حجا الذي أوصى الإمام الأسمر بأن يكون خليفته من بعده[3].

- بني وليد: وهي المدينة المحاذية لمنفى الإمام الأسمر في جبل سوف الجين إثر إخراجه من طرابلس، ومنها الشيخ محمد أبو طبل كان من أجل أصحابه، يقول العلامة الشيخ أحمد القطعاني: «وهو ممن أذنه الشيخ بالتلقين وإعطاء الطريقة في حياته، فأخذ عنه خلق كثير، وانتفعوا به»[4].

- تاورغاء: وهي أول منازل الإمام الأسمر بعد خروجه من منفاه في جبل سوف الجين، وفيها أخذ عنه خلق كثير، منهم الشيخ حمد التاورغي أحد أبرز أعيان تاورغاء[5]، كما أنها المدينة التي قطنتها خالة الإمام الأسمر السيد عائشة الدرعية، وكان يتردد عليها، وهو من أشرف على دفنها في تاورغاء[6].

---

(1) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21 هـ ـ 644 م إلى سنة 1421 هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ح2، ص26.

(2) نفس المصدر، ج1، ص495.

(3) نفس المصدر، ج1، ص33.

(4) نفس المصدر، ج1، ص493.

(5) نفس المصدر، ج1، ص488.

(6) نفس المصدر، ج1، ص479. وينظر أيضًا: قفة الصلاح: قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري الإمام سيدي عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص236.

• مصراتة: وهي المدينة التي حل فيها الإمام الأسمر بعد تاورغاء في طريقه إلى مسقط رأسه بزليتن، وفيها نزل بدار صديقه الشيخ علي بودبوس الذي أخذ عنه، كما أخذ عنه «أثناء إقامته في مصراتة خلق كثير، يفوق عددهم الثمانمائة»[1].

وفي مصراتة استقر السيد أحمد البكر، نجل الإمام الأسمر، مبعوثًا من والده، وأقيمت على ضريحه زاوية عروسية باقية إلى اليوم[2].

• طرابلس: استقر فيها الإمام لفترة من الزمن إمامًا لمسجد الكبير، مسجد الناقة، قبل أن تخرجه السلطة الأسبانية منها، وخلال تلك الإقامة أخذ عنه خلق كثير من طلاب العلم والعلماء، ويكفي أن نطلب رسالته التي وجهها لتلاميذه في طرابلس[3]، فنطالع في مقدمتها أنه ذكر منهم 19 عالمًا ووجيهًا من أبرز وجوه طرابلس، ومن المؤكد أنه كان شيوخ للطريقة ولهم أتباعهم وزواياهم العروسية.

• غريان، هي المدينة التي استقر فيها لفترة من الزمن بعد نفيه من طرابلس إلى يد السلطة الأسبانية، وفيها انتشرت دعوته، حتى أنه وجه إلى أتباعه فيها أحد رسائله[4].

• أبو ماضي بمنطقة ككلة، وفيها استقر أجل تلاميذه الشيخ امحمد الجبالي[5]، في زاوية أبي ماضي حيث اشتغل بالدعوة ونشر الطريقة.

• صرمان، وفي هذه المدينة استقر الشيخ الجبالي السابق ذكره قبل انتقاله إلى زاوية أبي ماضي، لكن أشهر تلاميذ الإمام الأسمر في صرمان هو الشيخ راشد المحجوبي الذي شاع فيها «فضله وظهرت بركته وبقي بها مقصدًا للزائرين وطالبي الحق إلى أن توفي»[6]، وخصه الإمام برسالة وجهها له[7].

• العجيلات، وفيها اشتهر وعمل على نشر الدعوة كبار أصحاب الإمام الأسمر، كالشيخ راشد بن أبي زيد[8]، والشيخ علي أبو عجيلة[9].

---

(1) نفس المصدر، ج1، ص423.

(2) نفس المصدر، ج1، ص480 و481.

(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م، ص211.

(4) نفس المصدر، ص187.

(5) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص16.

(6) نفس المصدر، ج1، ص492.

(7) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص139.

(8) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص498.

(9) نفس المصدر، نفس الصفحات.

• الزاوية، وهي المدن التي شكلت رافدًا للدعوة الأسمرية العروسية، فقد برز فيها الكثير من تلاميذ الإمام الأسمر، كالشيخ أحمد بحر السماح، والشيخ أحمد الكمودي، والشيخ عبد الحميد الكمودي، والشيخ أحمد أبو قطاية، وغيرهم، وقد خصهم الإمام برسالة كاملة وجهها إليهم[1].

• غدامس: يدل على انتشار دعوة الإمام الأسمر فيها، رسالته التي وجهها إلى تلميذه في غدامس الشيخ سعيد بن عبد الحميد[2].

• فزان جنوب ليبيا: يدل على انتشار طريقة ودعوة الإمام فيها، رسالته التي وجهها إلى تلميذه في فزان الشيخ عبد الرحمن بن عبد المؤمن.

• درنة: ومن هذه المدينة الشيخ علي الدرناوي، وينقل الشيخ العلامة القطعاني عن الشيخ البرموني وجود أكثر من 12 رجلًا من درنة اتصلوا بالإمام الأسمر في حياته.

• أقصى الشرق الليبي: يحدثنا الشيخ العلامة القطعاني أن الشيخ أحمد بوسعيدة خادم الإمام الأسمر، هاجر إلى أقصى الشرق الليبي واستقر فيه لفترة حيث اشتغل بتعليم القرآن الكريم ونشر الدعوة فيها[3].

2 – قراءات في مضمون فكر الإمام الدعوي في الداخل الليبي.

ومن المهم التدقيق والبحث والتقصي أكثر لرسم خارطة انتشار دعوة وأثر الإمام الأسمر في الداخل الليبي، وكذلك دراسة أسباب هذا الإقبال الكبير عليه وعلى زاويته، خاصة وأننا نجد أن أكثر من أخذ وتتلمذ على يديه كانوا قد تخرجوا في مدارس علمية كبيرة داخل البلاد، وأكثرهم تخرج في الأزهر أيضًا، ما يعني أنهم وجدوا عند الإمام الأسمر وزاويته شيئًا مختلفًا أو إضافيًّا لم يجدوه عند غيره.

تفضي قراءة رسائل الإمام الأسمر وما توفر من روايات في مصادر سيرته العطرة، إلى استجلاء جوانب من فكره الدعوي في الداخل الليبي، فالحاجة والظروف والتحديات التي تواجهها البلاد، قد تختلف عنها في خارجها، ولذا سنجد أن الكثير من مواقفه جاءت استجابة للكثير من التحديات والمستجدات على الصعيد الداخلي، وإن كان منهجه في الأساس يسير في توازن بين إصلاح النفوس على الصعيد الفردي، مع إصلاح المجتمع

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص167.
(2) نفس المصدر، ص129.
(3) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص483.

والبلاد، فقد ظهر الأسمر في فترة كانت الأمة الإسلامية بعمومها، بما فيها ليبيا، تواجه تداعيات خطرة، منها سقوط الأندلس، وتشتت المسلمين في طوائف وممالك وصراع وقتال، وبداية الحملات الصليبية الأسبانية على شواطئ شمال أفريقيا، فتنوعت وسائل وطرق مواجهة الإمام الأسمر لهذه التحديات.

وفي الداخل الليبي استخدم الخطاب الشعري، من خلال آلاف القصائد والمناظيم الشعرية بلغة عامية ليبية ميسورة الفهم والألفاظ، تختلف بشكل كبير في موضوعاتها ولغتها عن رسائله التي كتبها بلغة عالية وتخصصية في الكثير من المناسبات.

كما أن رسائله نفسها تعكس اختلافًا في القضايا التي تعانيها المناطق التي وجه إليها رسائله، ففي رسالته إلى أصحابه في فزان، معالجة لقضايا تتعلق بالتعامل بين الإخوان، كقوله: «ولا تعجب بنفسك، ولا ترتفع على إخوانك... والحذر في حب الجاه والشهرة، والصيت بين الناس، والتعظيم والثناء منهم فإن تلك سموم»[1]، ما يعكس معالجة لقضايا تتعلق بالسلوك الصوفي بالدرجة الأولى، بينما نقرأ في رسالته إلى مريديه الشيخ راشد بن يحيى المحجوبي خطابًا علميًّا عميقًا يدل على أن المُخاطب من أهل المعرفة والاطلاع، فالرسالة كلها تأصيلات فقهية وعقائدية عن شروط التكليف، ومذاهب القدرية والجبرية، وأنواع الشرك، وتنتهي بالوصية بالطاعة لله واتباع أوامره ومداومة ذكره[2].

أما في رسالته إلى أصحابه في الزاوية الغربية نجد الإمام الأسمر يتكلم بوضوح عن بعض المسائل، كالنهي عن أكل بعض الحيوانات من الضواري وسباع الطير، ما يعكس فكرًا واعيًا بقضية التوازن البيئي وضرورة الحفاظ عليه والقضاء على ما يهدده، ومسائل أخرى تتعلق بمناسبات المآتم، كالصراخ والنياحة على الميت، وضرورة التزام أدب زيارة المقابر، وكيفية الجنازة[3]، ما يشعر بتفشي بعض الظواهر والانحرافات المجتمعية التي يتوجب علاجها. والجانب الاجتماعي ملمح ملاحظ في رسالته لأصحابه بمدينة طرابلس الغرب، التي ركز فيها على الجانب الأخلاقي في حسن الجوار وطيب المعشر مع العباد، وصلة الأرحام، وبسبب وجود مقر السلطة في طرابلس حذر مريديه من تعظيم السلاطين الظالمين.

---

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص125.
(2) نفس المصدر، ص139.
(3) نفس المصدر، ص167.

وكل هذه الرسائل، تشير إلى أنه وجهها إلى أتباعه بعد حالة الاستقرار السياسي التي حظيت بها البلاد، إثر طرد أهله البلاد بمساعدة العثمانيين لفرسان القديس يوحنا والأسبان، لكن ذلك لا يعني سكوت وصمت الإمام الأسمر عن الانحرافات في الحياة السياسية، فنجد أنه أخذ العهد على مراد آغا، أول الولاة العثمانيين في ليبيا، «بعدم الإضرار بأحد من الناس، وأن يأكل من عمل يده»[1]، شرطًا قبوله مريدًا في الطريقة العروسية، وهو شرط له بعده وغوره العميق، إذ عُرف عن مراد آغا أنه عاش يأكل من عمل يده في مهنة الخياطة وبيعها، في الوقت «الذي تجبى إلى دار حكمه الأموال الوافرة التي بلغت سنة 1560م (100000) سكودو سنويًّا»[2]. والمعنى البعيد والعمق هو أن الإمام الأسمر حارب آفة تعدي الولاة والحكام على أموال الدولة والحد من طغيانهم وظلمهم المسلمين العامة، ومحاربة مثل هذه الآفة كفيل باستقرار هياكل السلطة والسياسة وعدم تفشي ظاهرة الفساد والظلم.

وقبل وصول العثمانيين إلى ليبيا لمساعدتهم في طرد فرسان القديس يوحنا، كان الإمام الأسمر في طرابلس، إمامًا في مسجد الناقة، أكبر مساجد المدينة، يقوم بمهمة توعية الناس من مخاطر الاستعمار الأسباني، ويستخدم في ذلك أسلوبًا توعويًّا مختلفًا تمامًا من خلال إقامة «الحضرة» التي يجمع فيها الناس على ذكر الله، لكنه كان يستخدم آلة الدف «البندير» رفقة قصائد بلغة عامية ميسورة الفهم يعبر فيها عن آرائه، مرسخًا فيها منظومة العقيدة المستقرة منذ عشرات القرون، وهو أسلوب واعٍ ومتقدم عبر عنه العلامة القطعاني بقوله: «وانتصر بندير سيدي عبد السلام الأسمر وقصائده وموسيقاه على ترانيم الكنيسة»[3]، ويشرح ذلك بأنه لما كان المنصرون الأسبان وفرسان القديس يوحنا ينشطون في بناء الكنائس التي باتت ترانيهما الموسيقية وأناشيدها تثير انتباه السكان وتنجح في استمالة بعضهم، رد الإمام الأسمر «بالأسلوب عينه، فيصوغ قيم الإسلام وعقائده وشريعته وأخلاقه وأعلامه في قوالب شعرية، بعضها بالفصحى ليخاطب الأقلية المثقفة،

---

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص463.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، منشورات الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، ط1، ص 8.

وغالبها باللسان العامي ليخاطب المجتمع كله في مقطوعات موسيقية من تأليفه»[1]، وفي لفتة هامة يذكر العلامة القطعاني بأن إيقاع الدف «البندير» الذي استخدمه الإمام الأسمر صحبة تلك الأناشيد هو إيقاع «البطايحي وهو إيقاع رائع خلاب أندلسي المنشأ»[2]، ولعله أراد بذلك التذكير بالأندلس التي سقطت في زمنه، وأرادها أن لا تغادر وجدان المسلمين، سيما وأن الغازي وقتها هم الأسبان القادمون من الأندلس[3].

ولم يقف أثر الإمام الأسمر الدعوي في كل المستويات المجتمعية، ومنها السياسي، عند هذا الحد، فالنهضة الحضارية التي أحدثها تبدو كبيرة حتى أنها أصبحت قاعدة ومعقلًا يُخَرِّجُ ويعد الدعاة والقادة ليس في ليبيا فقط، بل أصبحت محجًّا ووجهة لكل طلاب العلم من مختلف أقطار العالم الإسلامي، حتى أنها اجتذبت انتباه القوى الكبرى في البحر المتوسط، وما كان من دولة فرسان القديس يوحنا وأحلافه إلا العمل على الإعداد لفوضى داخلية، تقدمها وقام عليها يحيى بن يحيى السويدي، الذي اتفقت المصادر على أنه أثار الفوضى ونشر القتل والتعدي على الحرمات وانتهك البلاد، وكان أول عمل قام به هو الهجوم على زاوية الإمام الأسمر بعد وفاته، ودمر منشآتها وقتل علماءها وشرد طلابها، وحرق مكتبتها التي كانت تحوي 500 مجلد من مختلف علوم الإسلام[4].

أثر دعوة الشيخ على الصعيد المغاربي والأفريقي

ما أسلفنا الحديث عنه من انتشار دعوة وأثر الإمام الأسمر في العالم الإسلامي، قضية مهمة تستوجب

البحث والدراسة، وعلى الأقل نرصد ملامح وجوانب من الأمثلة الدالة على ذلك في هذه الورقة.

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) للمزيد عن دور الإمام الأسمر الجهادي ضد الغزاة، ينظر: مقالات أهل الحق، نفس المصدر، ص4 و6.

(4) للمزيد ينظر: قفة الصلاح، مصدر سابق، ص119.

1 - الإمام الأسمر وتلاميذه الوافدون من خارج القطر الليبي:

لم تذكر المصادر والمراجع في سيرة الإمام الأسمر، أن له رحلة إلى خارج ليبيا باستثناء سياحته الصوفية والعلمية التي خرج فيها من زليتن، وانتهت في جبل زغوان بتونس، ورحلة أخرى إلى الأراضي المقدسة للحج، غير أن طلابه وتلاميذه الذين وصلتنا أخبارهم كانوا من أماكن لم يزرها ولم تطأها قدماه مشرقًا ومغربًا، ومن ينظر في رسائله لتلاميذه ومريديه وما تحويه من تفاصيل ودقائق علمية ومعرفية يدرك مدى قوة المنهج العلمي الذي كان يتعامل به في حلقاته العلمية، هذا من جانب، ومن جانب آخر تكشف هذه القوة في المنهج عن المخرجات، ومدى النجاح الذي حققه خارج القطر الليبي.

ولرسم صورة عامة عن انتشار دعوة الإمام خارج ليبيا، سنستعين بما كتبه الشيخ عبد الرحمن المكي، أبرز تلاميذ الإمام من مكة المكرمة، فقد حدثنا أن دعوة الإمام الأسمر وصلت إلى مكة المكرمة عبر الحجاج، فقرر السفر إليه رفقة «نحو المائتين والخمسين فقيرًا»[1]، وعند وصوله إلى الإسكندرية ذكر أن «نحو المائة فقير ومن كل بلد طائفة»[2] رافقوهم للقاء الإمام الأسمر. وفي موسم الحج التالي، يقول الشيخ المكي أنه «اجتمعت عنده (الإمام الأسمر) ستة أركاب المشارقة والمغاربة»[3]، وفي العام الثالث من أعوام الحج شاع خبر الإمام وريادته العلمية حتى أنه «جاءه خمسة آلاف من الشام ومصر وبغداد ومكة المشرفة والمدينة المنورة، وأخذوا عنه العلوم والطريقة، وجاءه من المغاربة تسعمائة فقير، وأخذوا عنه العلوم كالتوحيد والفقه والتصوف»[4].

وتكشف لنا قائمة تلاميذ الإمام الأسمر، جانبًا من انتشار دعوته في العالم الإسلامي، ومنهم:

- الشيخ عبد الرحمن بن علي المكي: وهو كما ذكرنا من مكة المكرمة، صحبه الإمام الأسمر لمدة طويلة، ودون عددًا من الكتب تعد المصدر الأول لسيرته وتاريخه، وعليها اعتمد أغلب من كتب عنه من تلاميذ الإمام الأسمر، كالشيخ كريم الدين البرموني في روضة الأزهار. رجع الشيخ المكي إلى مكة المكرمة بعد وفاة أستاذه وتوفي فيها[5].

---

(1) القطب الأنور، مصدر سابق، ص180.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(4) نفس المصدر، ص180 و181.
(5) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص 19.

- الشيخ سالم السنهوري: وكان من أكابر علماء زمانه، وهو مفتي المالكية في زمانه، وإليه تشد الرحال، لكنه شد الرحلة من مصر إلى زليتن تلميذًا بين يدي الإمام الأسمر، وبعد رجوعه إلى الأزهر ألف في مناقب الأستاذ الأسمر كتابًا سماه «النور النائر» يعد هو الآخر من المصادر المهمة في سيرة الإمام الأسمر[1].

- أحمد بن أحمد بن أقيت: من أبرز علماء ورموز الفكر في تنبكتو بدولة مالي الحالية، التي كانت عاصمة العلم وموطن العلماء في الغرب الأفريقي قاطبة، عالم أصولي وفقيه ومحدث ولغوي، لقي العديد من العلماء، لكنه أخذ طريق التربية والتصوف عن الإمام الأسمر، وصار نقيبًا لمريدي الطريقة العروسية في تنبكتو، وخصه الإمام الأسمر برسالة وجهها لأتباعه هناك من خلاله[2].

- الشيخ محمد بن رباح والشيخ سالم بن مبارك والشيخ ابن عبد الكريم والشيخ مبارك بن يحيى الحمروني، من علماء تونس، وخصهم الإمام برسالة وجهها لأتباعه في تونس من خلالهم[3].

- الشيخ محمد بن سعيد السوسي والشيخ محمد بن علي والشيخ أبوعزة بن عز الدين، من سوس في المغرب الأقصى، خصهم الإمام برسالة وجهها لأتباعه في المغرب من خلالهم[4].

- الشيخ محمد الحطاب، خاتمة علماء المالكية بالحجاز، وسلسال أسرة الحطاب الطرابلسية التي استقرت في مكة المكرمة، شهير الصيت ذائع الفضل والعلم، صاحب العشرات من المؤلفات في الفقه المالكي، وأشهرها مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، وفد على الإمام الأسمر أثناء إقامته بطرابلس، وأخذ عنه[5].

- الشيخ كريم الدين البرموني، وإن كان من علماء ليبيا وولد فيها، إلا أن هجرته بعد وفاة الإمام الأسمر، واستقراره في طنطا التي أصبح مفتيها وعالمها الأبرز، ثم هجرته إلى مكة المكرمة، تجعله من الشخصيات المهمة التي تدل على اتساع أثر الإمام الأسمر، فمن المؤكد أن هناك من أخذ وتتلمذ على يد الشيخ البرموني في طنطا ومكة المكرمة[6].

---

(1) نفس المصدر، ج2، ص52.
(2) نفس المصدر، ج1، ص502.
(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص253.
(4) نفس المصدر، ص283.
(5) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص433.
(6) نفس المصدر، ج2، ص20.

2 - الفكر الدعوي للإمام الأسمر في الخارج من خلال رسائله:

تعتبر رسائل الإمام الأسمر مرآةً واضحة تعكس اللغة العلمية والدعوية التي يتخذها منهجًا له، فدلالتها اللفظية واضحة وقاطعة، ليست كالأشعار أو الحكم المتداولة عنه، فهي قاطعة المعاني وواضحة المدلول، تشترك في مجملها على بيان القواعد الشرعية من حلال وحرام، وأمر ونهي، والآداب العامة بين المسلمين، لكن مضمونها قد يعكس قضايا ومسائل ركز الإمام على معالجتها، وهي قضايا من المهم التوسع في دراستها لفهم فكر الإمام الدعوي بعمق أكثر.

في رسالته إلى أتباعه في تنبكتو ينبهنا العلامة القطعاني على ملمح هام، يعكس جانبًا مهمًّا في شخصية الإمام وفكره، وهو التركيز على تعلم اللغة العربية التي يحتاجها المسلم في تلك البلاد، فيقول: «وسنلاحظ بوضوح أن أسلوب الشيخ رضي الله عنه يتغير في هذه الحالة، فلا يتحدث بتركيز على الالتزام بأخلاق الشرع الحكيم وفرائضه عادته وحسب ما مر بنا في وصيته، وإنما هو الآن يركز على أساس حُسِبَ هامًّا جدًّا لفهم الإسلام والعمل به ونشره لساكني تلك المجاهل، حيث تغلب الرطانة الأعجمية واللغات واللهجات الأفريقية الكثيرة جدًّا، حيث تكاد تكون لكل قبيلة أكثر من لغة ولهجة. فتراه رضي الله عنه يحض أتباعه على تداول اللغة العربية والتحدث بها وتعلمها مبينًا لفضلها، شارحًا لفوائدها، موضحًا لأثرها في فهم التعاليم الإسلامية، مستدلًّا في سياق ذلك بالأحاديث النبوية الشريفة والمنقولات عن كبار علماء الأمة وأئمة الإسلام، ويزين لهم تعلمها بحكمة وبصيرة»[1].

ومثل هذه الطريقة التي قرأ بها العلامة القطعاني مضمون رسالة الإمام إلى أتباعه في تنبكتو، يمكن قراءة الرسائل الأخرى وفقها لرسم معالم منهج الإمام الدعوي، فرسالته إلى أتباعه في تونس يطبعها الاهتمام بالجانب الصحي ورصد وتتبع وضع الأمراض والأوبئة وكيفية مجابهتها، بل ووصف حتى بعض الأدوية لعلاجها، ما يعني أن البلاد وقتها كانت تواجه تحديات وأزمة صحية توجب على الإمام المشاركة في معالجتها.

أما رسالته لأتباعه في المغرب الأقصى، فيغلب عليها الحديث عن قواعد السلوك الصوفي بعمق يتجاوز الشرح والتحليل لمفاهيمها وتبسيط معانيها، بل يتناول القضايا

(1) القطب الأنور، مصدر سابق، ص173.

الكبرى كالصحبة والعهد والطريق والزهد وغيرها، ومسائل دقيقة وتخصصية في علوم متقدمة كعلوم القرآن وقراءاته، وكله وغيره يكشف لنا عن مدى الاستقرار العلمي والصوفي في المغرب الأقصى وقته، ولغة الخطاب العالية التي كان يتحدث بها الإمام معهم.







التواصل الثقافي بين ليبيا وتونس
سيدي علي الفرجاني وزاويته العروسية في قابس أنموذجًا

أ. المختار دبية

باحث في التاريخ الصوفي - تونس

الملخص:

كان التصوف من أبرز وسائل التواصل الثقافية والفكرية بين القطرين التونسي والليبي على مر التاريخ الإسلامي، سواء من خلال امتداد الطرق الصوفية داخل القطرين عبر شخصياتها، أو من خلال الأسانيد التي تُعد بعدًا فكريًّا مهمًّا يحمل مضامين ثقافية تترسخ عبر الزمن كرافد تواصل لا ينضب معينه، وينتج كل ذلك أنشطة وممارسات وتمازج بين القطرين. ومن بين أهم الشخصيات الصوفية التي شكلت جسر تواصل بين القطرين الشيخ علي الفرجاني الليبي منشأ وتكوينًا، وزاويته الفرجانية العروسية التونسية تأسيسًا وأثرًا.

الكلمات المفتاحية:

الفرجاني، العروسية، الأسمر، طرابلس، قابس

المقدمة:

ليس من الغريب أن نجد هذا التواصل الثقافي الوثيق بين تونس وليبيا؛ ذلك أن ترابط الشعبين وتواصلهما يصل إلى مرحلة الانصهار العرقي، فقد كان للتصوف عبر فترات التاريخ الإسلامي دور كبير في ربط التواصل الثقافي والفكري والعلمي بين مختلف الأقطار الإسلامية، وجسرًا لاستمرار هذا التواصل، فنجد مضامين فكرية وثقافية وعلمية حملتها الطريقة القادرية من مركز تأسيسها في بغداد على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ) إلى مختلف أقطار الإسلام التي انتشرت فيها هذه الطريقة وتخللتها ثقافات تلك الأقطار، فخلقت مزيجًا من الثقافات الإسلامية قلّما تمكنت أي وسيلة أخرى من تكوينها، والأمر نفسه نجده في الطريقة الشاذلية التي مرت مراحل تأسيسها على تونس والمغرب وأخيرًا مصر على يد الشيخ أبي الحسن الشاذلي (ت 656هـ)، وحملت معها خلفيات فكرية وثقافية لهذه الأقطار التي عاش فيها الإمام الشاذلي قبل أن تنتشر في كل أصقاع الدنيا وتتفرع عنها طرق أخرى، كل منها يضيف لها تعبيرًا جديدًا عن ثقافة وفكر المكان والزمان الذي تأسس فيه كل فرع.

مثل هذه الظاهرة جديرة بالدراسة والبحث، والتنبيه على رصد آثارها الفاعلة في مختلف المناحي، اقتصادًا واجتماعًا وثقافة وفكرًا وفي كل المستويات. وهنا يضطلع هذا المقال بمهمة رصد أثر الطريقة العروسية التي انتقلت من أقصى المشرق الإسلامي على يد الشيخ فتح الله العجمي الخرساني (ت 848هـ) إلى تونس لتتأسس على يد الصوفي التونسي الأشهر الشيخ أحمد بن عروس (ت 868هـ)، وتتنقل عبر حلقات شخصياتها في تطور وتوسع بين تونس وليبيا، لتستقر أخيرًا على يد مجددها الأكبر الإمام عبد السلام الأسمر (ت 981هـ)، الذي توسع في نشرها في أغلب الأقطار الإسلامية، لكن فاعليتها في الاتصال الثقافي والفكري بين القطرين الليبي والتونسي لم تتوقف. ويحاول هذا المقال كشف النقاب عن دور شخصية عروسية بارزة في التواصل بين القطرين، وهي شخصية الشيخ علي الفرجاني شيخ الطريقة العروسية في زمانه ومؤسس الزاوية العروسية الفرجانية بقابس.

مفهوم التواصل

أ. **التواصل لغة:** من مادة (وَصَلَ): «وصلتُ الشئ وصْلًا وصلة والوصل ضدّ الهجران والوصل خلاف الفصل»[1]، والتواصل مصدر من الفعل المزيد تَوَاصَلَ فنقول: تواصل الصديقان، وَاصَلَ أحدُهما الآخر في اتفاق ووئام، اجتمعا، اتفقا.

ب. **التواصل اصطلاحًا:** هو عملية نقل للأفكار والتجارب وتبادل للمعارف بين الأفراد والجماعات، سيما ذلك التواصل الوجداني الصوفي وما له من أثر في تقوية العلاقات الإنسانية، والمتمثل في السند الطرقي، وهو ما سنتناوله بالبحث من خلال شخصية الشيخ علي الفرجاني وطريقته العروسية.

التواصل الصوفي بين تونس وليبيا
من خلال بعض أهم رجال السند العروسي

كما أسلفنا، فالطريقة العروسية تأسست على يد الشيخ أحمد بن عروس في تونس، ثم تدرج الانتقال والتواصل عبر العديد من الشخصيات العروسية التالية، ومن المهم إبراز هذه الشخصيات للتعريف بها وتنقلاتها، وفي الأثناء التنبيه على جوانب التواصل بين القطرين عبرها.

1. الشيخ أحمد بن عروس

تُنسب الطريقة العروسية للشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الدايم بن عبد القادر المعروف باسم أحمد بن عروس، يرتفع نسبه إلى قبيلة هوارة إحدى بطون قبيلة بني تميم العربية، وُلد سنة 778هـ بوادٍ اسمه وادي الرمل يقع بضاحية قرية المزاتيين بتونس، حفظ القرآن الكريم ومهر في رواياته حتى عُرف عنه إجادته لتسع عشرة رواية، وكان يحفظ عن ظهر قلبٍ: «مختصر خليل»، و«رسالة أبي زيد القيرواني» في الفقه المالكي، و«تاج العروس»، و«متن الحكم» لابن عطاء الله السكندري، و«شرح بن

(1) لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، ص 4850.

عباد الرندي» عليها، ومن المهم أن نشير إلى أن سيرة الشيخ ابن عروس حملت مظهرًا من مظاهر التواصل التونسي الليبي، فوالدته سيدة من مدينة مصراتة الليبية، اسمها سالمة الطرابلسية، توفي زوجها عن ثلاثة أبناء، أصغرهم سيدي أحمد الذي نحن بصدده، فتزوجت من آخر وحملت ابنها الصغير أحمد معها وهي عروس إلى بيت زوجها دون أخويه لصغر سنه، ومن هنا التصق به لقب ابن الطرابلسية وابن عروس، إلا أن الأخير أكثر شهرة، عاش عمرًا مديدًا قارب التسعين عامًا، قضاه في التنقل بين ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، حتى استقر بتونس حيث كانت تأتيه طلاب العلم النافع من كل حدب وصوب لتنهل مما أفاض عليه الله، واتبعه أكابر تونس واعترفوا بفضله بما فيهم السلطان الذي كان يأتي لزيارته. توفي الشيخ أحمد بن عروس سنة 868هـ - 1464م وصلى عليه الشيخ أبو الفضل المصراتي في إشارة لهذا التواصل الذي نحن بصدده[1].

2. الشيخ أحمد بو تلّيس

وهو ثالث رجال الطريقة العروسية؛ إذ أخذها عن الشيخ أبي راوي الفحل السوسي، عن مؤسسها الشيخ أحمد بن عروس. وهو أبو العباس أحمد بن عبد الله الرشيد العبدري نسبًا القيرواني دارًا، المشهور باسم أحمد بو تليس، والذي يرجَّح أن تكون وفاته سنة 916هـ - 1510م، وُلد بالقيروان، وبها تفقه عن رجال عصره ومصره، ثم تصدر لتدريس علم الكلام والمنطق والمقالات والفرق بالجامع الأزهر بمصر، ثم عاد إلى تونس فحسده بعض جهلة الفقهاء، وشكوه إلى السلطان الحفصي بتهم كيدية بعد أن لفقوا شهادة الشهود، فركب البحر في جوف الليل وقدم إلى بلدة بني وليد بليبيا ليقيم بها سبع سنين متصلة، كان فيها محل إكرام ومحبة وتقدير من أهلها الذين تزوج منهم أربعة نسوة، وليلتقي خلال إقامته ببني وليد بسيدي عبد السلام الأسمر، فأخذ الشيخ عبد السلام عنه ووصفه بقوله: «كان الشيخ سيدي أحمد بو تليس ﵀ من أحسن الناس الأخيار والصلحاء الأولياء الأبرار علمًا وعملًا وأدبًا وحلمًا وكمالًا وجمالًا». وبعد وفاة الحاكم الغشوم عاد الشيخ أحمد بو تليس إلى القيروان بعد أن ترك بعض أولاده في ربوع ليبيا، وله ذرية في بني وليد باقية إلى الآن[2].

---

(1) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ ـ 644م إلى سنة 1421هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ج1، ص 357-358.

(2) نفس المصدر، ج1، ص 360.

3. الشيخ فتح الله أبو راس

في نهاية القرن التاسع الهجري كانت ليبيا ملجأ لرجال التصوف التونسيين كلما ضاق بهم الحال أو أهدر دمهم بفتوى فقيه حقود أو حاكم ظالم يرى فيهم ما يحد من سيطرته وجبروته على عباد الله، وكان من هؤلاء الشيخ فتح الله أبو راس، وهو رابع رجال الطريقة العروسية؛ إذ أخذها عن الشيخ أحمد أبي تليس السابق ذكره، وكما تعرَّض شيخه للتضييق ولجأ إلى ليبيا تعرَّض هو أيضًا للتضيق، فقدم إلى مدينة طرابلس مع جماعة من أصحابه، وبها لقيه تلميذه عبد الواحد الدوكالي وأخذ عنه، وتعرَّف به أيضًا الإمام عبد السلام الأسمر. وبذلك كان الشيخ أبو راس الذي وصفت مصادر ترجمته مكانته العلمية وتنقله بين الأزهر والقرويين قبل رجوعه إلى تونس، وأنه كان من الشخصيات العلمية المبرزة في معاقل العلم في الأزهر والقرويين، كان وسيلة ربط مهمة في الطريقة العروسية من خلال علاقته بالشيخ الدوكالي وتلميذه الإمام الأسمر، خاصةً في المجال الفنون الروحية التي أرساها الإمام الأسمر كبُعدٍ ذوقيٍّ عالٍ في منهجه التجديدي للطريقة العروسية؛ إذ كان للشيخ الدوكالي موقف منها، إلا أن الشيخ أبا راس كان عاملًا مساعدًا ومؤثرًا في تقبله لها[1]..

4. الإمام عبد السلام الأسمر

يُعد الإمام الأسمر رجلًا استثنائيًّا من بين رجال السند العروسي؛ فرغم كثرة تنقلات كبار رجالات هذا السند في شمال ووسط إفريقيا إلا أن الانتشار الفعلي للطريقة العروسية كان على يد الإمام الأسمر، ولما كان عنوان مؤتمرنا هذا الذي أتيحت لنا فيه فرصة طرح هذه الورقات قد عُنوِن بـ (الشيخ عبد السلام الأسمر إمام ومصلح ومفكر من أعلام الأمة الإسلامية نحو إعادة قراءة سيرته وأعماله)، فإنه من الجدير بالذكر أن ننوه بدور الإمام الأسمر في عملية التواصل الصوفي بين تونس وليبيا دون التوسع في سرد سيرته، فهو أمر سُبقنا إليه وأُشبع بحثًا وتحقيقًا من قِبل السادة الباحثين المشاركين في هذا المؤتمر، كما أن شيخنا العلامة المؤرخ الكبير سيدي د. أحمد القطعاني ﵀ خص الإمام الأسمر بالعديد من الكتب والدراسات الكافية في التعريف بسيرته العطرة[2].

---

(1) نفس المصدر، ج1، ص 367.

(2) للتوسع في سيرة الإمام الأسمر ينظر: القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب=

والمهم في موضوع هذه المقالة هو الإشارة إلى صلاته الفكرية والثقافية والعلمية والصوفية بالقطر التونسي، وهو محقَّق ومؤكَّد من خلال سنده الذي يرتفع ليمر على الشخصيات التي سبق ذكرها وصولًا إلى الشيخ ابن عروس، كما أنه في بعض مراحل حياته خرج في سياحة علمية صوفية انتهت إلى جبل زغوان، ويجب أن ننبه إلى أنه بكل تأكيد مر على العديد من المناطق والقرى التونسية في طريقه إلى جبل زغوان، ولابد وأن إقامته في هذا الجبل لم تكن للانقطاع للعبادة فقط، بل أثره الذي لا يزال قائمًا إلى اليوم يشير إلى نشاطه الدعوي والعلمي فيها، فقد أحبه التونسيون وسكن في وجدانهم، بل أصبح جزءًا من ذاكرتهم الاجتماعية والروحية، وإلى يومنا هذا تسمى الطرقات والأنهج باسمه بل والأحياء أيضًا، ففي مدينة قابس مثلًا نجد منطقة سكنية كثيفة العدد كبيرة المساحة تقع شمال شرقي المدينة على شاطئ البحر المتوسط تسمى «شط سيدي عبد السلام» ويرجع تاريخ هذه التسمية -كما تواتر عند أهل قابس- إلى أن الإمام الأسمر مرّ بقابس أثناء سياحته واستقر لمدة بها، واتخذ له خلوةً بمكان فيه تُداعب أمواج البحر سيقان نخيل الواحة المترامية الأطراف، وتبركًا بالإمام الأسمر بنى أهل قابس زاويةً في هذا المكان سُميت زاوية سيدي عبد السلام، كانت هي النواة السكنية الأولى في هذه المنطقة، ثم تهافت الناس ليجاوروا هذا المقام المبارك، ورغم أن التوسع العمراني كان على حساب الواحة الخضراء إلا أنه كان دليلًا قاطعًا على ما في وجدان الأهالي من تعلق بأثر الإمام الأسمر والتماسًا لبركته.

واللافت في مظاهر الترابط والتواصل الحضاري بين القطرين أن الطريقة العروسية في تونس اشتهرت باسم الطريقة السلامية نسبةً إلى الإمام الأسمر وهو دفين ليبيا، في حين أنها اشتهرت باسم العروسية في ليبيا نسبةً إلى الشيخ أحمد بن عروس دفين تونس، وهو تعانق جميل بين التسميتين يعرب عن تعانق وجداني روحي واجتماعي بين البلدين.

وعندما وجَّه الإمام رسالته إلى مريديه من أهل تونس[1] ذكر منهم الشيخ مبارك بن يحيى الحمروني دفين قرية عرام الراجعة ترابيًّا لمعتمدية مارث من ولاية قابس، والتي تبعد عن مركز الولاية حوالي 44 كلم، وهو ما يدل على أن الإمام الأسمر كان ينشر

= الليبي، بنغازي، ط2، 1993م. ويرجع أيضًا للترجمة الموسعة التي كتبها شيخنا القطعاني في موسوعته عن الإمام الأسمر: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 486 وما بعدها.

(1) للاطلاع على هذه الرسالة، ينظر: رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق: مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003، ص 253.

طريقته في تونس على قواعدها التربوية والمعرفية ويخاطب مريديه فيها بما تتطلبه التربية الصوفية من علوم معرفية، تزكيةً لنفوسهم وترقيةً لها.

ولئن تعددت خلوات الإمام الأسمر بتونس -ولعل من أشهرها خلوته الموجودة بجبل زغوان، ثم قدوم خليفته وأول مريديه الشيخ عمر بن جحا واستقراره بمنطقة الداموس من ولاية المنستير ووفاته بها[1]- فإن قدوم الشيخ علي الفرجاني إلى مدينة قابس يُعد أفضل مثال يعبر عن روح التواصل الثقافي الصوفي من خلال السند العروسي بعد أن انتهت إليه رئاسته.

الشيخ علي الفرجاني الطرابلسي التونسي

هو ولي الله مجدد الطريقة العروسية ووارث أسرارها الشيخ علي بن عبد السلام الفرجاني[2]، من أهم رجال الطريقة العروسية حتى الآن، وهو خليفة شيخه وأستاذه الشيخ بوراوي (الأسمر الصغير) ومن أَجَلِّ أصحابه. وتُعد سيرة وحياة الشيخ الفرجاني خير مثال يعبر عن روح التواصل الصوفي بين ليبيا وتونس، داعيًا إلى الله على نهج مشايخه، فلا يكاد الدارس لسيرته ولتنقلاته أن يلاحظ أثرًا لحدود بين القطرين الشقيقين، كان صاحب همة عالية لا تثنيه المسافات ولا تعيقه المكائد والعقبات.

1. نشأته

وُلد الشيخ علي بن عبد السلام الفرجاني على الأرجح سنة 1069هـ، وقد حفظ القرآن الكريم في زاوية المشاط بطرابلس، ثم اشتغل سنة 1078هـ بتعليم كتاب الله لزملائه الطلاب وهو لم يبلغ إذ ذاك الحلم، وهي ميزة أظهرت فيه علامات النبوغ منذ سِنيّ عمره الأولى؛ ليظهر أثرها جليًّا في أفكاره وتوجهاته، ثم ليلتحق بعد ذلك بالمدرسة الجمنية بجربة، لشيخها ومؤسسها إبراهيم بن عبد الله الجمني[3]، وينهل من علومها بين منقول ومعقول بعد أن أخذ الطريقة العروسية.

---

(1) للتوسع في ترجمة الشيخ ابن حجا، ينظر: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص 33.

(2) اعتمدت في دراستي هذه عن الشيخ الفرجاني على ترجمته في موسوعة القطعاني كمصدر أساسي، كونها أوفى وأوسع ترجمة له، ينظر: موسوعة القطعاني، ج2، ص 257.

(3) إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن أبي بكر الجمني ولد بجمنة سنة 1037هـ، عالم وفقيه مالكي، أسس مدرسة بجزيرة جربة نشر من خلالها المذهب المالكي، وتفقه على يديه عدد لا يُحصى من الطلبة، توفي سنة 1134هـ ودُفن بزاويته بجربة.

2. سلوكه وتحصيله العلمي

أخذ الشيخ علي الفرجاني الطريقة العروسية عن الشيخ عبد الله بوراوي بن محمد الدوفاني[1]، وهو شيخ غزير المادة الفقهية، علاَّمة في علوم الشرع، له دراية كاملة بعلم الميقات، من خواص أهل الله، له قدم راسخة في علوم القوم، شيخ الطريقة العروسية، يغلظ القول للظلمة ولمبتدعة المتفقرة، لا يُقبِل على مَن لا يتعلم أمور دينه ويُعرِض عنه ويرفضه ويوبخه[2]. في سياق هذا النهج التربوي التجديدي تربى الشيخ علي الفرجاني متشبعًا من منهجية شيخه؛ ليرث منه حبه للعلم والتعلم، وسعيه لتنقية المنهج السلوكي العروسي من كل ما لحق به من شوائب وما عمت به البلوى من بعض المنتسبين للطريقة العروسية، فكان سبَّاقًا لتكميل تحصيله العلمي؛ مما جعله يسافر إلى جزيرة جربة، ويتتلمذ على يدي الشيخ العالم الفقيه إبراهيم الجمني[3]، الذي يُعد من أبرز مشايخ عصره الذين أخذ عنهم الشيخ علي الفرجاني العلم، ويبدو أن التحاقه به كان قبل تأسيسه المدرسة الجمنية بجربة في الفترة التي كان يُدَرِّسُ فيها العلم بجامع الغرباء بحومة السوق، وبقي ملازمًا له ومواكبًا لمراحل بناء شيخه الجمني لمدرسته المعروفة. ومن الشواهد الأثرية التي تركها الشيخ علي الفرجاني في المدرسة الجمنية بجربة أبيات نظمها تؤرخ لوفاة شيخه إبراهيم الجمني، وهي مكتوبة بخط نسخي منزل بالرصاص في لوحة رخامية بمقام ضريح شيخه المذكور، نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

هــذا ضـريـحٌ قـدْ حَـوَى ... عـلَـمَ الـعُـلـومِ الـزَّاخِـرَةْ

الـجُـمَّـنـي الـعَـلَـمَ الـفَـرِيـدْ ... حَـاوِي الْمَعَالِي الْـفَـاخِـرَةْ

ثَـانِـي الـرَّبِـيـعَـيـنِ مَـضَـى ... أَمْـسَـى نَـزِيـلَ الآخِـرَةْ

---

(1) عبد الله بوراوي بن محمد الدوفاني بن عمران بن عبد السلام الأسمر الفيتوري، انتهت إليه مشيخة الطريقة العروسية، وُلد بزليتن سنة 1042هـ، وتوفي بجربة سنة 1071هـ.

(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2 ص 175.

(3) عبد السلام بن عثمان بن عز الدين بن عبد الوهاب بن عبد السلام الأسمر، وُلد سنة 1058هـ بتاجوراء، من أبرز مشايخ الطريقة العروسية وأحد أهم أعلام التصوف في ليبيا، له مؤلفات، كان من أهل البر والإحسان، توفي سنة 1139هـ بتاجوراء.

مِــنْ عَـــامِ أَرْبَـــعَـــةٍ مَـضَـتْ   أَيَّـــامُـــهَـــا مُـــتَـــواتِـــرَةْ
بَـــعْـــدَ الـــثَّـــلَاثِـــيـــنَ خَـــلَـــتْ   مِـــائَـــةٌ وَأَلْـــــفٌ ظَـــاهِـــرَةْ

1134هـ

3. تصدُّره للتربية

لقد رأى الشيخ عبد الله بوراوي في تلميذه علي الفرجاني الصفات التي يبحث عنها كل شيخ طريقة صوفية في مريديه؛ ليميز من بينهم حاملها؛ حتى يكون خليفته ووارث سره، فكان يحبه محبةً عظيمةً ويدعو له ولا يرد له كلامًا، بل وأذن له بتلقين الطريقة العروسية وإعطائها لمستحقها في حياته، وكان يتفقده ويزوره في جربة أيام تحصيله العلمي بها، وقدَّر الله أن تدركه المنية في إحدى هذه الزيارات سنة 1071هـ، بعد أن نصب محراب مسجد زاوية الشيخ إبراهيم الجمني وهو في طور الإنشاء؛ إذ كانت له دراية بعلم الميقات، وهكذا أخذ عن الشيخ الفرجاني الطريقة خلقٌ لا يُحصى، خصوصًا بمدينة جربة وقابس والمهدية بتونس، وليصبح بعد انتقال شيخه مقدَّمًا على بقية أقرانه ممن تتلمذوا معه، ويشهد على ذلك رفيقه ثم مريده الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري.

4. سنده الصوفي

تختلف عملية تحقيق الأسانيد الصوفية وإثبات تسلسل رجالها عن غيرها من الأسانيد العلمية كأسانيد أهل الحديث مثلًا؛ حيث إن المدد الباطني الروحي يعتبر أساسًا فيها، وربما اختلف المحققون، فتجد هذا يثبت اتصالًا بشيخ ما وآخر ينفيه، وعليه فقد اعتمدنا في هذا العنصر على ما أثبته الشيخ العلامة المؤرخ أحمد القطعاني في مؤلفاته التي تناول فيها الطريقة العروسية بالبحث والدراسة؛ ليكون السند الصوفي للشيخ علي الفرجاني كالآتي:

فقد أخذ الشيخ علي الفرجاني الطريقة العروسية عن الشيخ عبد الله بوراوي، عن الشيخ محمد بن جحا، عن والده الشيخ عمر بن جحا، عن الشيخ عبد السلام الأسمر، عن الشيخ عبد الواحد الدوكالي، عن الشيخ فتح الله بوراس، عن الشيخ أحمد بوتليس، عن الشيخ بوراوي الفحل، عن الشيخ أحمد بن عروس، عن الشيخ فتح الله العجمي،

عن الشيخ صدر الدين الناكوري، عن الشيخ نصير الدين محمود الأودهي، عن الشيخ نظام الدين الخالدي الدهلوي، عن الشيخ فريد الدين شكر كنج، عن الشيخ قطب الدين الدهلوي، عن الشيخ معين الدين الجشتي، عن الشيخ عثمان الهاروني، عن الشيخ حاجي شريف الزندني، عن شيخ الطريقة الجشتية الشيخ قطب الدين مودود بن يوسف الجشتي، وأخذ الشيخ قطب الدين مودود بن يوسف الجشتي عن والده الشيخ يوسف الجشتي، عن والده الشيخ محمد الجشتي، عن خاله الشيخ محمد بن أبي محمد إبدال، عن والده الشيخ أبي محمد قرشفانة، عن والده الشيخ أبي إسحاق الشامي، عن الشيخ ممشاد الدينوري، عن الشيخ الخوجة هبيرة البصري، عن الشيخ حذيفة المرعشي، عن الشيخ إبراهيم بن أدهم، عن الشيخ أبي علي الفضيل بن عياض، عن الشيخ عبد الواحد بن زيد، عن الشيخ الحسن البصري، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، عن سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم[1].

5. تأسيسه للزاوية العروسية الفرجانية بشِنِّي قابس

أسس الشيخ علي الفرجاني زاويته العروسية بواحة شنني التابعة لمدينة قابس سنة 1103هـ الموافق لـ 1692م،على قطعة أرض كان قد اشتراها من عائلة ابن رزق، وحبس عليها بعض الأملاك لتغطية مصاريفها ومستلزمات النفقة على الطلبة والمدرسين بها[2]، ويبدو أن الشيخ علي الفرجاني قد لاقى كل الترحيب والتبجيل والتوقير من أهالي شنني؛ إذ إن وجود زاوية تدرِّس القرآن وعلم الدين بمختلف فنونه أمر ليس من السهل توفيره في قرى متشابهة، ولعل العلاقة المتميزة للشيخ إبراهيم الجمني بالسلطة الحاكمة وتزكيته لتلميذه لديها قد منحت الشيخ علي الفرجاني تسهيلات استثنائية، جعلَته محل اعتقاد وتوقير؛ لتتوالى الظهائر السلطانية ناصَّةً على احترامه وتبجيله وإعفائه ونسله ومَن انتسب لزاويته من الضرائب والخدمات المخزنية الموظفة على عامة الناس، وهكذا بدأت الزاوية الفرجانية بشنني قابس في بث رسالتها الدينية والاجتماعية.

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 381 و382.
(2) لقاء مع الشيخ مصطفى السنوسي المكلف بتسيير زاوية سيدي علي الفرجاني بشنني قابس بالزاوية المذكورة يوم 5 نوفمبر 2023.

6. مساهمته في المجال العلمي

لم يؤلف الشيخ علي الفرجاني كتبًا رغم تحصيله العلمي المتين، فقد شهد له علماء عصره بتمكنه ومعرفته بالأصول والفروع، لكن اشتغاله بالتربية الصوفية ونشر العلوم العروسية جعله شيخ السند العروسي في وقته، بل إن أغلب الأسانيد المعتبرة المتصلة الموجودة اليوم تتصل به، ولعل اعتناءه بشؤون الزاوية وعدم استقراره وكثرة تنقله بين ليبيا وتونس وما لاقاه من تضييق في بلده كل ذلك لم يترك له مجالًا ليؤلف كتبًا، ولكنه في نفس الوقت لم يكن بعيدًا عن هذا المجال؛ حيث كان مواكبًا لما يَصدر وما يؤلَّف، بل ربما كان مؤطرًا لبعض تلاميذه وأقرانه وموجِّهًا لهم في بعض تآليفهم، وأكبر شاهدٍ على ذلك إشرافه على ما يكتبه صنوه الشيخ عبد السلام بن عثمان التاجوري، وقد أثبت ذلك الشيخ علي النوري الصفاقسي[1]، في مقدمة كتابه «رسالة في حكم السماع وفي وجوب كتابة المصحف بالرسم العثماني»، حيث يقول: «وبعد، فقد ورد علينا من الشيخ الفاضل المتقن المتفنن الكامل، نخبة الزمان، وقدوة الأقران، سيدي عبد السلام بن عثمان، صرف الله قلبي وقلبه عن التعلق بمن دونه، وجعلنا من قوم يحبهم ويحبونه، تأليفان عجيبان، مشتملان على مسائل وقع فيها الاضطراب بين فقهاء طرابلس المغرب، أدامها الله دار السلام، وصرف عنها أعداء الله الكفرة اللئام، وطلب من الفقير -هو والشيخ الأجل الصالح الناصح سيدي علي عرف الفرجاني- النظر في التأليفين والكتابة عليهما»[2]، مما يعطينا صورةً واضحةً عن حركة علمية وفقهية نشطة، وتبادُل علمي في أرقى مستوياته بين علماء تونس وليبيا كان لشيخنا علي الفرجاني فيه دور هام، بل محفز ومشجع أيضًا.

7. الزاوية العروسية الفرجانية مرفق ديني واجتماعي

كمدرسة فقهية مالكية أشعرية وكزاوية عروسية تربوية صوفية، بدأت الزاوية الفرجانية في بث رسالتها في المجتمع القابسي متناغمةً مع باقي المؤسسات العلمية المتواجدة بالمنطقة في منهج علمي موحَّد شعاره بيت ابن عاشر الشهير:

---

(1) أبو الحسن علي النوري الصفاقسي، فقيه وعالم تونسي، شاع صيته عند العلماء، له عدة مؤلفات في مباحث علمية مختلفة، توفي بصفاقس سنة 1118هـ.

(2) علي النوري الصفاقسي، رسالة في حكم السماع وفي وجوب كتابة المصحف بالرسم العثماني، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص13 و14.

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

ففيها يدرس الطالب القرآن ويختمه حفظًا ورسمًا، ويتلقى في أثناء ذلك بعض المتون العلمية في الفقه والسيرة واللغة العربية؛ ليصبح بعد ذلك مؤهَّلًا لتكميل تحصيله العلمي في الفرع الزيتوني بالجامع الكبير بمنطقة منزل قابس، الذي يبعد عن الزاوية الفرجانية حوالي 4 كلم، كل ذلك كان يتم بالتوازي مع تربية روحية سلوكية قائمة على صحبة الشيخ المربي وملازمة أوراد وأحزاب الطريقة العروسية أو السلامية كما يسميها أهل تونس، فكانت تقام في هذه الزاوية حِلقُ الذِّكر ويُنشَد فيها القصائد كالبردة والهمزية، فخرّجت هذه الزاوية أجيالًا من حفظة كتاب الله ومن رجال صالحين، كان من أبرزهم الشيخ عبد السلام بن علي الفرجاني الذي خلف والده في مشيخة الزاوية وتسييرها، وسار على نهجه علمًا وصلاحًا، ثم خلفه ابنه علي، وبعده عمر بن علي، ثم محمد بن عمر، ثم إبراهيم بن محمد في سلسلة متصلة خلفًا عن سلفٍ. أما من الناحية الاجتماعية فقد كانت الزاوية الفرجانية ملجأ للفقراء والمساكين وعابري السبيل، يجدون فيها المأوى والأكل والشرب، بل إن كل من لجأ محتميًا بالزاوية الفرجانية وكان مطلوبًا من السلطة والقضاء فإنه يبقى في مأمن مادام داخلها إلى حين تسوية وضعيته بشفاعةٍ من شيخها، وكثيرًا ما كان الشيخ علي الفرجاني وخلفاؤه من بعده يُصلحون ذات البين في ما يقع من خصومات في ما يتعلق بتقسيم حصص سقي الحقول والبساتين، حتى إنه حفر واديًا يمر بزاويته درءًا لنزاعٍ وقع بين الفلاحين، وتسهيلًا لوصول الماء إلى بعض البساتين النائية. ولقد ذكَرَت بعض المصادر التاريخية جانبًا من هذا الدور الاجتماعي النشط للزاوية الفرجانية وشيخها علي الفرجاني، حيث كان يترصد قوافل الحجيج المغاربية باذلًا قصارى جهده في حُسنِ ضيافتهم ووفادتهم وتزويدهم بما يحتاجونه من مؤونة، ولم يكن يفوِّت فرصة الاستفادة ممن كان بينهم من علماء ومشايخ وصالحين، وقد وصف ذلك الشيخ أحمد بن ناصر صاحب كتاب الرحلة الناصرية بقوله: «ثم قابس ظهر الأربعاء حادي عشر شعبان... وتلقانا هناك الأخ سيدي علي الفرجاني، ولما اطمأنَّ الركب وبنَوا الأخبية لحِقنا به (في زاويته) وأضافنا بقصعة كبيرة من الطعام مملوءة لحمًا، وأكلها سادتنا الأشراف مع الطلبة، تقبل الله منه... والفرجاني هذا فرح بنا غاية الفرح... ثم ضَعَنّا منه يوم الخميس، وسار معنا سيدي علي الفرجاني أميالًا، ورددناه لما بلّغني سليمان مملوك أخي وأخبرني بتخلف

ولد أخي محمد بن محمد وراءنا ليبحث لنا عليه، وجاءنا به ولحِقنا بالمبيت بمارث... وصحِبنا إلى طرابلس، ونعم الأخ هو»[1].

ورغم هذا التاريخ الحافل للزاوية الفرجانية وما قدَّمَته من خدمات تربوية وتعليمية واجتماعية، إلا أن دورها بدأ يتقلص شيئًا فشيئًا بدءًا من السنوات الأولى من استقلال تونس بعد صدور قانون حل الأحباس، الذي بمقتضاه وضعَت الدولة التونسية يدها على أملاك الزوايا والمساجد، الأمر الذي أحدَثَ عجزًا في ميزانيتها، فلم تَعُد قادرةً على استيعاب الطلبة والمدرسين، بل وحتى إيواء وإطعام عابر السبيل، ونشاطها الحالي مقتصر على قراءة الوظيفة العروسية ليلة كل جمعة مع إحياء احتفال سنوي بذكرى المولد النبوي الشريف، كما يوجد بها مقام الشيخ عبد السلام بن علي الفرجاني يُزار ويُتبرك به.

8. علاقة الشيخ علي الفرجاني بالسلطة الحاكمة

لئن كان الدافع الأساسي لهجرة الشيخ بلده طرابلس إلى تونس هو طلب العلم والاستزادة من التحصيل المعرفي بعد أن تشبَّع من التربية الصوفية بين يدي شيخه أبي راوي، إلا أن هناك سببًا آخر جعل فترة استقراره بتونس تطول؛ ذلك أن خليل بك الأرناؤوطي الذي حكم ليبيا بداية من سنة 1114هـ قد ناصَبَ العداء لرجال التصوف وحارَبَهم بضراوةٍ لما كانوا يجابهونه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كان ظالمًا منحرف الأخلاق، يقول عنه الشيخ أحمد بن ناصر الدرعي: «كان هذا البك ظلومًا فجورًا، يقدِّم الكفرة من الروم على أهل الإسلام، واتخذ بطانةً من النصارى يوليهم أمر المسلمين... ولا لأحدٍ عنده حرمة من أئمة المسلمين وساداتهم، بل يعمل على الإساءة إلى الأعيان من المرابطين والعلماء العاملين، فلا يرقب في أحد إلًّا ولا ذمةً»[2]، وهكذا منع بعض كبار رجال التصوف من دخول طرابلس، وفي مقدمتهم الشيخ علي الفرجاني الذي أنزل به خليل بك ما شاء الله له من خسفٍ ومهانةٍ؛ ليستقر تحت هذه الظروف بمدينة قابس، متنقلًا بين المدن التونسية؛ لينتفع بعلمه مَن كَتَب الله له النفع والانتفاع، ولم يدخل الشيخ علي الفرجاني طرابلس إلا سنة 1121هـ، وهي السنة التي انتهى فيها

(1) الرحلة الناصرية، أحمد بن ناصر، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، ط1، 2011م، ص 163، 165.
(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص260.

حكم خليل بك. أما علاقة شيخنا الفرجاني بالسلطة الحاكمة في تونس فقد كانت طيبةً في عمومها، وقد أشرنا في ما تَقدَّم من هذا البحث أن البايات الذين تولوا الحكم وعمالهم على الجهات التونسية كانوا يُكِنُّون له كل الاحترام والتقدير، بل حتى بعد انتقاله بقي هذا الاحترام يشمل أبناءه وأحفاده، فعوملوا كما يُعامَل المرابطون من أهل الزوايا، حيث يُعفَون من أداء الضرائب، بل وتُحبَس عليهم الأملاك والعقارات حتى يستعينوا بها على تسيير شؤون زواياهم، الأمر الذي جعل الشيخ عبد السلام بن علي الفرجاني يستقر في واحة شنني من ولاية قابس، ويستمر نسله بها إلى يومنا هذا. هكذا كانت فكرة الاستقرار عند سكان تونس وليبيا، فكلما ضاق الخناق على سكان إحدى البلدين لسببٍ من الأسباب لجأوا إلى العيش والاحتماء بالأخرى.

9. بعض من درس أو اتصل سنده بالزاوية الفرجانية بقابس

لعل من أبرز الشخصيات التي أرَّخَت للسند العروسي للزاوية الفرجانية بقابس وللطريقة العروسية عمومًا هو العلامة الشيخ محمد بن مخلوف مؤلف كتاب «مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام بن سليم»، وكتاب «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية»، حيث إنه كان قاضيًا ومفتيًا بمدينة قابس، فسعى ليتصل بسند الطريقة العروسية، ويتتلمذ على شيخ الزاوية الفرجانية، مصرحًا بذلك في كتابه «مواهب الرحيم» قائلا: «وقد مَنَّ الله عليَّ بالاجتماع بالخير العفيف الثقة الشيخ إبراهيم الفرجاني الشناوي»... إلى أن يقول[1]:

قال ابنُ مخلوف عُبيدُ ربهِ	**محمدٌ غدا أسيرَ ذنبهِ**
الحمد لله الكريمِ القادر	**مُيَسّرِ الأمور نعم الجابرْ**
ثم الصلاة والسلام ربي	**على النبي والآل ثم الصحبِ**
وبعدُ فاستمع أخي لقولِ	**مشايخُ الاسناد أهلُ الفضلِ**
أولُهم شيخٌ أصيلٌ فاضلْ	**الماجدُ ابراهيمُ نعمَ الكاملْ**
فعن محمدٍ أبيه المشتهِر	**وذاك عن أبيه مشهورٍ عُمرْ**

(1) تنقيح روضة الأزهار، محمد مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966، ص68 و69.

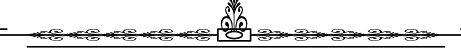
فعن أبيه شيخِنا الفخرِ الجلي	من قد غدا يُدعى أبو الحَسنْ عَلي
فعن أبـيـه الـعـالـمِ الجليلِ	عبدِ السلامِ الصالحِ الاصيلِ
فعن أبـيـه شيخِنا الرباني	فريدِ عصرِه علي الفرجاني
فعن أبــي راوي إمــامِ دهـرهِ	غـوثٍ كبيرٍ واحـدٍ في عصرهِ
عن شيخه قطبِ الزمان الكاملْ	محمدٍ نجلِ جُحا ألواصلْ
فعن أبيه القدوةِ الزّكِيْ عُمرْ	إبن جحا غوث الأنام المعتبر
عن شيخه عبد السلام الأسمرِ	إبـنِ سليمٍ شيخِنا المُشتَهِرِ
فـهـذه الأبـيـاتُ تـم عـدُّهـا	مشايِخَ الأورادِ قـد بيّنتُها
زدهـا إلى السِّلسلةِ الذَهَبيّهْ	وفُـزْ بذكرها تَـرَى المَزيةْ

ومن الشخصيات التي تولت مشيخة الزاوية الفرجانية بقابس، نذكر الشيخ محمد بالهاشمي الفرجاني شهر المؤدب الهاشمي، الذي كان عالمًا وإمامًا خطيبًا، ويرجع له الفضل في تجديد وترميم الزاوية وإحياء نشاطها في سبعينات القرن العشرين، بعد فترة ركود وإهمال عانت منها جُلُّ الزوايا الصوفية بتونس؛ نتيجة حَلِّ أحباسها وإلحاقها بأملاك الدولة، ثم تولى مشيختها وتسييرها الشيخ محمود بن علي بالهاشمي الفرجاني، وكان شاوشًا بها الشيخ محمود بن صالح الجابري، وكان السادة الصادق بن الحاج محمد الأسود النفاتي وأخوه محمد بن أمحمد الأسود ومحمود الفالح وبوبكر بن عبد السلام من كبار مريديها الصادقين. وأما من الذين تولوا التدريس بالزاوية فنذكر الشيخ صالحًا البدروشي الذي كان مؤدبًا ومحفظًا للقرآن الكريم، وكان الفقيه والعالم الزيتوني الشيخ الطاهر بن سالم البرغوثي مدرسًا للفقه وأصوله والبلاغة والنحو، ويُعَد الشيخ صالح بن محمود بن علي بالهاشمي الفرجاني من أبرز المتخرجين من الزاوية الفرجانية بعد أن حفظ فيها القرآن كاملًا، ونهل من العلوم المبثوثة في حِلقِ مدرِّسيها الذين جعلوا من الزاوية العروسية الفرجانية منارة علمٍ وفقهٍ وتربيةٍ وسلوكٍ يهتدي بها الضال ويسترشد بها الراحل والحالُّ[1].

(1) لقاء مع الشيخ مصطفى السنوسي المكلف بتسيير زاوية سيدي علي الفرجاني بشنني قابس بالزاوية المذكورة يوم 5 نوفمبر 2023.

خاتمة:

لئن تقلص حجم النشاط التربوي والعلمي للزاوية الفرجانية بقابس نتيجة اختيارات وسياسات تعليمية اعتمدتها الدولة التونسية منذ الاستقلال وبناء الدولة الحديثة، إلا أنها بقيَت إلى اليوم مقصد الذاكرين والزائرين، وشاهدةً على حقبةٍ زمنيةٍ بذل فيها الشيخ علي الفرجاني ومن جاء بعده النفس والنفيس في سبيل نشر المعرفة والدعوة إلى الله، وإعانة المحتاج وعابر السبيل، ورغم هذا فإن التواصل الصوفي بين تونس وليبيا لم ينقطع لا في سِلم ولا في حربٍ، بل بقي مددًا ساريًا بين أرواح أهل العلم والعرفان من البلدين، ولعل من أبرز مظاهره المعاصرة ما حققه شيخنا العلامة سيدي أحمد القطعاني -قدس الله سره- من نشرٍ للسند الصوفي في رحلاته إلى تونس، وتدبيجه مع غيره من علماء ومشايخ البلدين، لعل من ثمرته ما نلته من شرف المشاركة في هذا المؤتمر العلمي المتميز، رغم قلة الزاد وبضاعتي المزجاة.







الشيخ عبد السلام الأسمر مصدرًا للتواصل بين ليبيا والمغرب

د. فدوى أجمولة

باحثة في الأدب والتصوف

أكاديمية الرباط سلا القُنَيْطِرَةِ - المغرب

ملخص:

شكل الإمام عبد السلام الأسمر حلقة وصل مهمة في التاريخ المغربي، سيما بين القطرين المغربي والليبي، في العديد من الأبعاد والمستويات، وأولها نسبه الطيني الذي يرتفع إلى سيدي إدريس الأزهر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت سيدنا رسول الله ﷺ، أحد أعلام النسب النبوي الشريف المغرب، ومن طريق أمه السيدة سليمة بن العالم المغربي الكبير سيدي عبد الرحمن الدرعي، ولاحقًا عن طريق تلاميذه ومريده في سوس الأقصى كما تجلى ذلك في أحد رسائله الموجهة إليهم. وتطمح هذه المقالة إلى الكشف عن جانب من جوانب التواصل بين القطرين الليبي والمغربي من خلال شخصية الإمام الأسمر وبحث أبعاد هذا الاتصال ووسائله وآثاره.

الكلمات المفتاحية:

الأسمر، المغرب، ليبيا، سوس، التواصل.

مقدمة:

جرت عادة شيوخ التصوف عبر تاريخه الطويل، أن يتصلوا بأسانيدهم الروحية، وينهلوا من مشارب طرقهم الأصلية، ساعين جهدهم لنهل العلوم بالأخذ والتعلم، أو تبليغها عن طريق التدريس والتأليف وتربية النفوس، وذلك في حالي الترحال والإقامة، ولم تكن الحدود الجغرافية حاجزًا لبلوغ مرادهم؛ لأن الأواصر الروحية والتاريخية والثقافية كانت وما زالت أوسع وأشمل.

إن تاريخ رجال التصوف يثبت الوصل بين صوفية المشرق والمغرب، وبين صوفية القطر الواحد أو المنطقة بعينها، ويعد الشيخ العلامة الألمعي الورع الإمام عبد السلام الأسمر الذي عاش في القرن العاشر الهجري (ت 981هـ)، أحد رجالات التصوف الكبار. كان يشتغل بعلوم التربية والتزكية، سخر عمره لجهاد النفس وتزكيتها، وتربية المريدين وتوجيههم، اشتغل بتدريس وتحفيظ وتلقين الطلبة المتعلمين، وشارك في مختلف العلوم، لذلك كانت له علاقات روحية وعلمية كثيرة تبيِّن إشعاعَه في مجالات جغرافية واسعة في إفريقيا والعالم الإسلامي عمومًا.

كان الإمام ذا ثقافة موسوعية كبيرة فاعلًا ومشاركًا في العلوم، والمعارف، واللغة، والنحو، والأدب، والمنطق، والتاريخ، والسياسة، والاقتصاد، والمجتمع وغيرها، وكان مقاومًا قويًّا غير مَهِيضٍ يدافع بالقلم، والسيف، والعصا، والحجر، ثابتًا في مواقفه معبرًا عنها في السر والعلن. وهذا جزء من مشروعه الإصلاحي الذي سعى إلى بناء الإنسان والأوطان، وقد آمن بوحدة الأمة الروحية والفكرية، وساهم في تشكيل حركة أدبية وصوفية بليبيا في مرحلته، وتظل زاويته شاهدة على آثاره إلى اليوم، ساهمت وما زالت في التفاعل الحضاري بين ليبيا وعدة أقطار عربية إسلامية منها المغرب وبلدان في أفريقيا جنوب الصحراء.

إن الدينامية الروحية والفكرية والعلمية للإمام الأسمر، تشهد عليها مظان عديدة سلمت من الضياع، وما زال الباحثون متعطشين للحصول على الضائع منها للإلمام أكثر بتراث هذا الإمام، ونحن نبحث في بعض من أثره عما يربطه بالمغرب الأقصى؛ نقف

عند وشائج سنرصدها في هذا البحث، ولو باختصار، ويتجلى ذلك في روابط النسب، والطريقة العروسية، وهي مشتركة بين المغاربة وغيرهم في شمال أفريقيا. وسنقرأ رسالته التي وجهها لبعض أصحابه بسوس الأقصى، وما سنعرضه هو جانب من جوانب الاتصال بين الإمام الأسمر والمغاربة.

نسب الشيخ الأسمر إلى الأدارسة بالمغرب الأقصى

تؤكد العديد من المصادر التي أرخت للإمام الأسمر ارتباط نسبه بالمغاربة من جهة أبيه وأمه اللذين يرتفع نسبهما إلى السلالة الإدريسية الشريفة التي كانت تعيش في المغرب الأقصى، وقد بحث العلامة الشيخ أحمد القطعاني فروع وأصول الإمام الأسمر، وبحث وتقصى عمود نسبه الشريف وأجداده السادة الفواتير الأدارسة في كتابه: «القطب الأنور عبد السلام الأسمر»، وألحق بالكتاب شجرة نسبه وأجداده مفصلة[1].

ونسبه من جهة أبيه، هو عبد السلام الأسمر بن سليم بن محمد بن سالم بن حميد بن عمران الملقب بالخليفة بن محيا بن سليمان بن سالم بن خليفة بن عمران بن أحمد بن خليفة الملقب بفيتور بن عبد العزيز بن عبد الله الملقب بنبيل بن عمران بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد القادر بن عبد الرحيم بن أحمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن السيدة فاطمة والإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله[2].

وعاش ثمانية من أجداده بالمغرب، ودفنوا هناك؛ آخرهم عمران الذي قدم في القرن السادس الهجري من فاس إلى تونس، ومعه ابنه عبد الله الملقب نبيل البالغ من العمر عشر سنين، قبل أن يرجع إلى المغرب حيث توفي ودفن في أغمات، بينما بقي ابنه عبد الله نبيل وبعض من بني عمومته، وانتهت بهم التنقلات إلى الاستقرار في طرابلس

(1) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م، ص94 و95.

(2) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ ـ 644م إلى سنة 1421هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ج1، ص374.

الغرب، وفيها انتشر نسله الذين عرفوا بالسادة الفواتير، وقاعدتهم الرئيسية في مدينة زليتن، شرقي طرابلس[1]، ومن هذه السلالة الشريفة ينحدر الإمام الأسمر.

كما يتصل الإمام الأسمر بالمغرب أيضًا من جهة والدته السيدة سليمة الدرعية المعروفة بـ«عيادة» الصالحة العابدة التقية النقية بنت السيد عبد الرحمن بنت عبد الرحمن الملقب بالدرعي بن محمد الملقب بعبد الواحد بن أحمد الملقب بالبحر الصامت بن عمر بن عيسى بن عبد الوهاب الملقب بالأصغر بن محمد بن يوسف بن عبد الوهاب الأكبر بن عبد الكريم بن محمد بن عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن بو حرمة بن أبي رواح بن عيسى بن سلام الملقب بالعروس بن أحمد الملقب بمزوار بن علي الملقب بحيدرة بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن السيدة فاطمة والإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بنت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله[2]. إذًا فالإمام الأسمر من نسب شريف من جهة أمه وأبيه وأجداده منهما، ظل وفيًّا لنسبه فاتصل بالمغاربة روحًا وعلمًا.

نسخ المغاربة لمخطوطات الأسمر بالخط المغربي

لقد ضاعت معظم مؤلفات الإمام الأسمر، ولم يبق منها إلا القليل، ومنها رسائله إلى مريديه التي جُمعت مؤخرًا وحُققت ونشرت في كتاب: «رسائل الأسمر إلى مريديه»[3]، واعتمد فيها المحقق على مخطوطة كتاب البرموني «روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب صاحب الطار سيدي عبد السلام الأسمر» للشيخ كريم الدين البرموني أحد التلاميذ المباشرين للإمام الأسمر، والتي تعد المصدر الوحيد للرسائل.

وقد اعتمد المحقق في هذا المخطوط لتحقيق هذه الرسائل، وعددها إحدى عشرة رسالة، على ثلاث نسخ هي، نسخة آل زبيدة، ناسخها محمد بن علي بن أحمد الحملاوي الجزائري المؤدب بمقام سيدي أبي لبابة، كتبت بخط مغربي وبمداد صمغي أسود، ونسخة مركز دراسة جهاد الليبيين بطرابلس، الناسخ محمد بن عبد السلام بن محمد بن

(1) للمزيد من التفصيل ينظر: موسوعة القطعاني، ج1، ص290.

(2) نفس المصدر، ج1، ص479.

(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م. وهو في الأصل أطروحة قدمها المؤلف لنيل رسالة الماجستير، وجمع فيها رسائل الأسمر من متن كتاب «روضة الأزهار».

الدائم الإزدوي نسبًا البراهمي دارًا. كتبت بخط مغربي وبمداد صمغي أسود، ونسخة دار الكتب الوطنية بتونس من رسالة الأسمر إلى عبد الحميد العوسجي، كتبت بخط مغربي واضح.

وأول ما يُلفت الانتباه تكرار عبارة: (نسخة بخط مغربي) في مقدمة محقق الرسائل، وربما يفيد هذا في التأكيد على شيوع استخدام الخط المغربي في ليبيا منذ القرن العاشر الهجري، وهو الزمن الذي كتب فيه البرموني كتابه «روضة الأزهار»، وإن كان هذا لا يغني عن ضرورة البحث عن المخطوطات الأصلية لكتب الإمام الأسمر لمعرفة بأي خط كُتبت، فما أحوجنا إلى ملامسة نسخ مخطوطاته الأصلية حتى نتمكن من دراستها كوديكولوجيًّا وفيلولوجيًّا ونحدد نوع الورق، ومادة الكتابة، وترتيب الكتب، وغير ذلك لكشف خباياها العلمية والمادية، ولعل في الزوايا خبايا نأمل الوقوف بها، كما نتساءل عن حضور التهذيب في كتبه الأسمر، هل أقبل عليها علماء آخرون بعده بالتلخيص والشرح والترتيب والإضافة وغيرها.

إن الحديث عن مخطوطات الإمام الأسمر يرتبط بواقع المخطوط العربي بليبيا وخارجها، وبلوغه أقطارًا أخرى تلقى فيها طلبته وأتباعه كتبه، فحرصوا على نسخها ونقلها، وضياع مخطوطات كتبه، هو جزء من واقع ضياع المخطوط الليبي في القرن العاشر الهجري، فالمعلومات المرتبطة بالشيخ الأسمر تطلعنا على واقع المخطوط العربي الليبي في زمنه، وهذا موضوع ذو شجون يتطلب البحث والتتبع، والكشف عن أسباب ضياعها، وارتباطها بمراكز النسَّاخة بالعالم العربي.

إن نسخ المغاربة لكتب الأسمر يشي بوجود خطوط الوصل العلمية بين النساخ المغاربة والعلماء الليبيين، والأسمر يؤرخ لواقع الكتاب الليبي المخطوط في القرن العاشر الهجري، وهو زمن عرف نشاط علماء كثيرين في شمال أفريقيا والعالم العربي الإسلامي، ونتساءل عن أسباب استمرار تشتت آثاره، ولعل جهود الباحثين اليوم ستساهم في تغيير هذا الواقع.

إن المطلع على كتاب «قفة الصُّلاح»[1] للدكتور أسامة بن هامل الصادر مؤخرًا في طبعته الثانية، سيجد فيه مبحثًا هامًّا تحت عنوان: «حركة النسخ ومهنة الوراقة بزاوية

(1) قفة الصُّلاح قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري الإمام سيدي عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، منشورات مركز العلامة الليبي أحمد القطعاني للثقافة

الإمام الأسمر»[1]، وبه معطيات هامة تخص ارتباط الإمام الأسمر بالمكتبات وبخاصة مكتبة أسرته، وأيضًا مكتبة شيخه الدوكالي، مما ساهم في تشكل شخصيته العلمية، ونضجه المعرفي. ويظهر جليًّا أن الإمام الأسمر كان حريصًا على إنشاء أماكن خاصة بالكتب وبمهن الوراقة والنساخة بزاويته وبليبيا عامة، وذلك وعيًا منه بقيمة هذه الكتب، كما حرص على انتقاء الكتب القيمة النافعة الفاعلة في التدريس والتعليم حتى ينتفع بها أهل العلم في علوم أهمها: المنطق، والنحو، والفقه، والتوحيد وغيرها، كما يظهر في قوائم كتب مكتبه الخاصة، والمكتبة العامة للزاوية التي استخرجها د. ابن هامل[2].

وكان الإمام الأسمر مطلعًا على علوم وتآليف علماء عصره في حواضر العلم في طرابلس وتونس والمغرب، ومن هؤلاء العلماء الإمام زَرُّوق.

كما أن الإمام الأسمر كان حريصًا على تدوين علمه من خلال أماليه على الكُتّاب والنسَّاخ الماهرين المنتقين من طلابه ومريديه، الذين يعدون بالعشرات؛ ومنهم من كانوا يلازمونه طيلة يومه، تخصصوا في النساخة حتى احترفوها مهنة في حياتهم، أبرزهم؛ كاتبه الأول محمد بن عطية، وسالم الحامدي، والفقيه معتوق المدني، والفقيه محمد الشوشان، والفقيه سعيد التطاوني[3].

إن وجود عدد كثير من النساخ تطلبته كثرة الكتب المخطوطة الهامة التي سعى الإمام الأسمر في حفظها وتوفيرها لأهل العلم، داخل القطر الليبي وخارجه، وبفضل ذلك شهدت ليبيا في زمنه تطورًا في مهن الوراقة، والنساخة، والأرشفة، وتطورًا في المعارف المرتبطة بالمخطوط، والمكتبات، وبخاصة مكتبات الزوايا من تصنيف، وخط، وتجليد، وزخرفة، وحبر[4].

وقد حظي القرآن الكريم بعناية الإمام الأسمر ونساخ الزاوية الأسمرية، أقبلوا على نسخه بعد تمكنهم من الرسم القرآني، كما نسخوا المصادر الأساس في جل العلوم، فكان الإمام الأسمر مطلعًا على تآليف أبرز علماء عصره ومنهم السيوطي (ت912هـ)، والإمام زاده الحنفي (ت931هـ)، ويؤكد هذا الانفتاح والاتصال والاطلاع وجود طلابه

والدراسات الصوفية ليبيا ـ طرابلس الطبعة الثانية 2023م.

(1) للاطلاع على هذا المبحث ينظر ص146 وما بعدها من الكتاب.

(2) نفس المصدر، ص134.

(3) نفس المصدر، ص146.

(4) نفس المصدر، ص148.

في أقطار عديدة، وذكره وإحالته على كتابات عصره في تآليفه، ومحاضراته، وأماليه لخلاصات مقروءاته في مجالس العلم الخاصة والعامة[1].

التفاعل الروحي بين الشيخ الأسمر وعلماء المغرب

هناك العديد من المحطات الهامة في حياة الإمام الأسمر تمثل دلالات هامة على كونه شخصية تنصهر في بوتقتها عناصر عديدة من التفاعل الروحي والعلمي المغاربي، ومنها أنه تتملذ بشكل أساسي على الشيخ عبد الواحد الدوكالي الذي يعده أهم شيوخه وأكثر الشخصيات المؤثرة فيه وعلى يديه تكونت وتشكلت شخصية الصوفية والعلمية، وهو تأثير يتحدث عنه الإمام الأسمر نفسه بجلاء ووضوح في وصيته الكبرى، إذ ترجم له بتوسع فيها وأكثر من ذكره في قصائده الشعرية أكثر من أساتذته الآخرين[2]، ويجب أن نتوقف عند نص هام في «الوصية الكبرى» يتحدث فيه الإمام الأسمر عن شيخه الدوكالي، فيقول: «ولم يوجد مثل شيخنا المذكور في جميع الدواكلية حتى في المغرب كله»[3]، وهو كلام هام جدًّا يدل على متابعة ومعرفة الإمام الأسمر للحياة العلمية في دوكالة بل والمغرب كله وعلمائها، وإلا كيف وصل إلى هذه النتيجة فاستطاع معرفة أنه شيخه عبد الواحد بلغ منزلة علمية لم يصلها علماء دوكالة والمغرب كله؟! فلا بد وأنه على تواصل بالمغرب والمحيط العلمي فيه.

والدوكالي، كما يحدثنا العلامة القطعاني، هو الشيخ عبد الواحد بن محمد الدوكالي، نسبة إلى منطقة دوكالة بالمغرب التي ولد بها ربما في عام 840هـ، ورحل رفقة أسرته إلى العديد من الأقطار، ومنها مصر قبل أن تستقر أسرته ببلدة مسلاتة، شرق طرابلس، حيث أسس والده زاوية الدوكالي التي لا تزال باقية إلى اليوم، وتعد من أهم زوايا ومراكز العلم بليبيا، وجلس فيها الشيخ عبد الواحد أستاذًا بعد والده، وفيها أخذ عنه ثلة من العلماء، إلا أن أبرز تلاميذه وأهمهم هو الإمام الأسمر.

وفيما يعرف عن الشيخ الدوكالي أنه أخذ الطريقة العروسية عن أشياخها التونسيين، إلا أن العلامة القطعاني يحدثنا أن شخصيته العلمية برزت في مصر أيضًا، إذ تولى الشيخ الدوكالي مشيخة الأزهر، وذاعت فتواه في طرابلس وتونس، وناظرته العلماء حتى أنه

---

(1) نفس المصدر، ص152.

(2) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص71.

(3) نفس المصدر، ص71 و72.

اجتمع في مجلس واحد مع مائة مناظر قدموا خصيصًا لهذا الأمر من المغرب، فبزهم جميعًا واعترفوا له بالتقدمة والإمامة. وتوفي بمسلاتة وقد بلغ من العمر مائة وثلاثين سنة وهو بصحة جيدة حتى أنه لم تسقط منه سن واحدة يوم الجمعة أواسط شهر رمضان عام 970هـ - 5/ 1563م، وبها دفن[1].

وفي محطات حياة الأمام الأسمر، نجد تفاعلًا مغربيًّا آخر، ممثلًا في علاقته بالشيخ زروق، أحمد البرنسي العالم المغاربي الفاسي الشهير الذي انتهى به التطواف للاستقرار في مدينة مصراتة، غير بعيد عن مدينة زليتن مسقط رأس الإمام الأسمر ومحل نشأته، فكتب المصادر تحكي لنا أن الشيخ زَرُّوق كان صديقًا مقربًا من شيخه، الشيخ الدوكالي، وكذلك صديقًا لأسرته وبخاصة عمه ومربيه الشيخ أحمد الفيتوري، وعند عمه رآه فلاحظ عليه التفوق، فقال عنه: «سيكون لهذا الولد شأن عظيم بطرابلس إلى أن يفوق أهل عصره»[2]. أفاد الأسمر من الشيخ زروق، ويلاحظ هذا من كثرة نقله في رسائله من كتب زروق في مختلف التخصصات، في الفقه والحديث والأصول والتصوف.

وفي ثنايا سيرته نرصد ميله لطريقة المغاربة في عقد حلقات السماع الصوفي، حيث يحدثنا أحد تلاميذه المباشرين وهو الشيخ عبد الرحمن المكي في كتابه «البحر الكبير» عن لقائه بطائفة من المغاربة يضربون الدفوف في روضة أجداده أولاد سليمان[3].

ومن ملامح التفاعل الروحي الواضحة في حياة الأسمر وانشغالاته، ما نرصده في تراثه الشعري من اهتمام بالغ بذكر الأعلام المغاربة، ما يدل على وعيه بقيمتهم العلمية والروحية، فنجده يكثر من ذكر رجال المصامدة وعلماء سوس وفاس، وأولياء المغرب وأبرزهم الجزولي، بل حتى المعاصرين له منه يهتم بذكرهم والإشادة بهم، كالشيخ الكامل محمد بن عيسى المكناسي (933هـ) الذي عناه في الوصية الكبرى أنه «أفضل مرابطي الغرب».

وفي محطة أخرى نلاحظ تفاعلًا مغربيًّا في شخصية الإمام الأسمر، وتحديدًا عند الرحالة العالم أبو سالم العياشي (ت.1090هـ)[4]، الذي يُعد من أهم رجال التصوف

(1) للمزيد عن الشيخ الدوكالي، ينظر: حراس العقيدة، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط3، 2016م، ص28 وما بعدها. وأيضًا موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص369.

(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص23.

(3) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص27.

(4) ماء الموائد العياشي، الرحلة ليبيا ـ طرابلس وبرقة، زغلول عبد الحميد وآخرون، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1996م، ص20.

والمؤرخين لليبيا روحيًّا وعلميًّا واجتماعيًّا في القرن الحادي عشر الهجري، فرحلته إلى ليبيا الموثقة في كتابه «ماء الموائد العياشي، الرحلة ليبيا - طرابلس وبرقة» نجد فيها دلائل واضحة تشير إلى معرفة العياشي لقدر الإمام الأسمر، ومنها قوله عند زيارته لزاويته في مدينة زليتن: «ثم نزلنا في ذلك اليوم بلدة زليتن... وكان نزولنا خارج زاوية الولي الصالح الشهير التصريف الغني بشهرته عن التعريف، سيدي عبد السلام الأسمر... كثير الكرامات عالي المقامات، والغالب عليه الجذب في أول أمره وآخره... ويؤثر عند أهل البلد من تصرفاته آثار كثيرة يطول استقصاؤها، وأخباره في قهر الجبابرة وفك الأسارى من أيدي الإفرنج... ولم تزل بلدة الفواتير مأوى الصالحين»[1].

رسالة الشيخ الأسمر إلى أصحابه بسوس الأقصى

جاءت رسائل الشيخ الأسمر مرتبة مع عناوين تحدد أسماء المخاطبين من خلالها، ومنها رسالته إلى تلميذه الشيخ محمد بن عبد الكريم الشاذلي، ورسالة هامة وجهها إلى مريديه في تنبكتو بمالي غرب أفريقيا وغيرها، ويعنينا هنا الوقوف عند الرسالة الحادية عشرة الموسومة بـ«رسالة إلى أصحابه بسوس الأقصى»[2]، والمقصود بسوس الأقصى مناطق المغرب الوسطى والجنوبية. وهي رسالة طويلة تنيف عن التسعين صفحة من الصيغة المحققة من الكتاب.

تداخل الأجناس في الرسالة:

ونقف في هذه الرسالة مركبة، تندرج ضمن فن أدب رسائل الإخوان الصوفيين، إلا أنها مركبة وتتضمن أنواعًا أخرى هي الوصايا، والأشعار، والأقوال، والآيات، والأخبار، والحكايات، والكرامات[3]، فنحن أمام نص مؤطِر ثري بالنصوص التي تعكس ثقافة المرسل الغنية، وحرصه على التبليغ والتفسير بنصوص شتى تستوعبها ذاكرته، وثقافته، وهو الحافظ القرآن الكريم، المطلع الملم بالحديث الشريف، الغائص في أقوال السلف، الناهل من العلماء المتقدمين والمتأخرين في زمنه وقبله، هذا الإصرارعلى تدوين الرسالة وتبليغها دافعه إيمانه بالوحدة الثقافية المشتركة.

(1) نفس المصدر، ص134.
(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص283.
(3) نفس المصدر، ص28، 29، 30.

البنية الموضوعية للرسالة:

افتتح الإمام رسالته بالبسملة، والصلاة على الرسول الكريم، وحدد المرسل إليهم بأسمائهم الثلاثة، وهم: سعيد بن محمد السوسي، ومحمد بن علي، أبو عزة بن عز الدين. ثم بين قيمة وأهمية معرفة المسلم بالله، والفقه، والتصوف، والزكاة، والصوم، وصدر كل موضع في رسالته بعبارة «اعلم» التي تتضمن فوائد متدفقة، تشي باتساع ثقافة الرجل وغناها، كما تظهر في بنية الرسالة بسطه للكلام بسطًا بقصد الإصلاح والتربية والتوعية لا التلخيص والاختصار.

وفي عرض الرسالة نجد في الصيغة التقليدية المعهودة «أما بعد»، ينتقل بعدها لعرض الوصايا التي يبدأها بصيغة متكررة هي «واعلم أن» في بداية كل وصية، فهي مؤشر انتقال من وصية لأخرى. وداخل الوصية يعرض مفاهيم واستشهادات كثيرة يستدل بها على آرائه المستندة على القرآن والسنة، وأقوال السلف والعلماء والصوفية. وهو لا يختصرها بل يبسطها بسطًا بغرض الإفهام والإخبار والإقناع.

ونستطيع استخلاص أهم الجوانب الموضوعية التي تناولها الإمام بالعرض والتفسير والاستدلال، وهي كالتالي: الاعتكاف في المساجد، والأدب مع الله ورسوله والمشايخ وجميع الخلق، والإحسان إلى الجيران، والأدب مع المريد، وأخذ العهد، والإخلاص في الطاعات وتلاوة القرآن، وآداب الحضرة، والتعامل مع الطلبة، وآداب المريد مع الشيخ، والمشيخة والمقامات، والطريقة العروسية، وتلاوة القرآن، وأنواع الكرامات، والزهد وأنواعه، ومنازل الزاهدين.

الموضوع	جوانبه
الحث على الصوم.	فوائد الصوم – الجزاء والأجر.
الاعتكاف في المساجد، ومجالسة العلماء.	فضائل المجالسة، ما يجوز في المساجد، الاغتسال والتطيب.
الأدب مع الله ورسوله والناس.	الأدب مع الجيران، والأصحاب.
أدب المريد.	أنواع الأدب: أدب الظاهروالباطن، ما يجوز وما لا يجوز، العقوبات، أنواع العقوبات.

الموضوع	جوانبه
علاقة المريد بالشيخ.	أحوال المريد.
الولي، المشيخة.	تعريفه، علاماته، ذكر بعض الكرامات، وعرض بعض أخبار الصلحاء.
حقوق المريد على الشيخ.	

الموضوع	جوانبه
الحث على الصوم.	فوائد الصوم - الجزاء والأجر.
الاعتكاف في المساجد، ومجالسة العلماء.	فضائل المجالسة، ما يجوز في المساجد، الاغتسال والتطيب.
الأدب مع الله ورسوله والناس.	الأدب مع الجيران، والأصحاب.
أدب المريد.	أنواع الأدب: أدب الظاهروالباطن، ما يجوز وما لا يجوز، العقوبات، أنواع العقوبات.
علاقة المريد بالشيخ.	أحوال المريد.
الولي، المشيخة.	تعريفه، علاماته، ذكر بعض الكرامات، وعرض بعض أخبار الصلحاء.
حقوق المريد على الشيخ.	
الطريقة العروسية.	
أخذ العهد.	
الإخلاص في الطاعات.	
تلاوة القرآن في كل حين.	أجر القراءة.

الموضوع	جوانبه
التدبير.	التدبير المحمود والمذموم، تدبير الدنيا، تدبير الآخرة.
بنو إسرائيل.	
أنواع الكرامات.	أنواعها، أفضلها.
الزهد	تعريفه، أنواعه، علاماته، أصنافه، منازل الزاهدين، صفات الزهاد.

البعد الحجاجي في الرسالة:

يقدم مادة دينية موثوقة موثقة لا يقع معها القارئ في الخلط، ويروم التدقيق والتحقيق في المعاني والمفاهيم، منبهًا على الخلل الذي قد يشوبها. ونحن نجد البناء الموضوعي للرسالة محددًا بعناية، يعين المرسل عناصر الخطاب، ويوظف الحجج والاستشهادات من غمار الموضوع، ويحرص على التعريف والمقارنة والتفسير والتجزيء.

يبدو من خلال صيغ خطابات الإمام الأسمر لمريديه، أنه يوجهها إلى مخاطب متعلم يستوعب المفاهيم الدينية والصوفية، وغرضه من الرسالة تعليمي توجيهي تربوي، فالمواضيع المتعددة المتقاربة متكاملة تكون منهاج حياة متوازنة مرنة للتحقيق في السلوك والمعاملات والعبادات والاجتهادات، وهو يخاطب المكلف المؤهل في أهله ومجتمعه ليكون فاعلًا قائدًا له القدرة على القيادة والتسيير والحفاظ على الرسالة.

وظف الإمام الأسمر أنواعًا من الحجج تبرز الأسانيد الدينية والروافد الروحية التي شكلت معرفة الشيخ وتدينه، وهو مربٍّ له واجبات ورسائل يروم تبليغها مريديه وطلبته، فمعظم استشهاداته مستقاة من القرآن، والأحاديث الشريفة، وأقوال السلف الصالح، والسادة العلماء.

ومن جهة أخرى تكاد تكون الرسالة كتابًا منفصلًا متكاملًا متماسك الموضوعات، كأنه محاضرات مفصلة تشمل الأخلاق والعبادات والاجتهاد، تضم الوصايا والوعظ، وهي بمثابة الفرش النظري المنتظر تنفيذه على وجه الاجتهاد والتربية ورياضة النفس،

فلا تصوف دون سلوك؛ فهو أفعال القلوب والجوارح التي ترتقي بالمريدين العباد درجات، وهو سلوك الظاهر والباطن. لا يصدر مثل هذا النص إلا عن شيخ متمرس في التحلية والتخلية، عارف سالك الطريقة وموجه مؤطر لخطوات الوصول.. وكان حريصًا على تكرار صيغة: «اعلموا»؛ لتأكيد قصده في إنجاز وظيفتي الإخبار والتبليغ، وهما مهمتان من مهام المربي الصوفي.

ومعلوم أن الإمام الأسمر حرص على النظم، وهو نقل المعارف والمعلومات من نصوص نثرية إلى أنظام تيسر حفظها واستيعابها، ومعلوم أن النظم وسيلة تعليمية فعالة للتحصيل مألوفة في التراث العربي. وهو يدرك مدى أهمية بناء شخصية المسلم، وقدرتها على التغيير، فيتوالى انتقال الرسالة وأقصد الرسالة المعنوية أي مغزاها من جيل إلى جيل، توخيًا لإيقاظ همم المسترشدين.

ومن جهة أخرى نلاحظ تشابه الرسائل في السلسلة الواردة في كتاب: «رسائل الأسمر إلى مريديه» فلغة الأسمر رصينة متداولة، تجنب فيها عويص اللغة وغريبها، وأكثر فيها الشواهد الشعرية والقرآنية والحديثية، وضمَّنها فوائد كثيرة سعيًا منه لتحقيق وظيفة العالم الرباني التربوية والتوجيهية والعلمية نوجزها في الخطوط العريضة الآتية:

العارف بالله مخاطب مكلف بفهم وتحقيق مضامين الرسالة.

الحرص على إقامة الدلائل التكليفية حتى ينظر كل مكلف في نفسه هل حقق التكليف أم لا؟

تحقيق المناطات التي تناط بها الأحكام أمر أساس.

العلاقة بين التكليف والتشريع وثيقة.

ضرورة الوصل بين الاجتهادين الروحي والتشريعي.

الحث على الانخراط في قضايا العصر بوعي وبصيرة، وتوخي الإصلاح الذاتي والموضوعي في تواشج وتكامل.

الاستشهاد

تقدم الرسالة مادة دينية موثوقة موثقة لا يقع معها القارئ في الخلط، ويروم التدقيق والتحقيق في المعاني والمفاهيم منبهًا على الخلل الذي قد يشوبها. ومن جهة أخرى فقد حرص الإمام الأسمر على تأصيل ثقافة بلاده الدينية بقوة.

عناية الإمام الأسمر بالقرآن الكريم

نقل الإمام الأسمر من القرآن الكريم آيات كثيرة في صميم المعاني الواردة في رسالته، ومن أقوال النبي ﷺ والأنبياء، وأخبارًا عن (لقمان، وذي النون، وداوود...)، ومن أخبار الصحابة (علي، عمرو بن العاص، عبد الله بن عتبة...)، ومن أقوال السلف، والعلماء (أبو سليمان، والغزالي، والشيخ سيدي محمد بن عباد، وأبو عبد الله بن خفيف، والنوري، وابن عطاء، والسري الشنقيطي، والجنيد، وأبو القاسم القشيري، وعلي الدقاق، وعبد الرحمان السلمي، وإبراهيم الخواص، وأبو سليمان الدراني، وإبراهيم بن أدهم، وإبراهيم بن شيبان، وأبو عبد الله النخشي، وأبو عبد الله المغربي، وخير النساج، والحافظ أبو النعيم، وجعفر بن محمد بن نصير، والشاذلي، وأحمد زَرُّوق، وأبو العباس أحمد البوني، وأبو محمد عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي، وعبد الواحد الدوكالي، وأبو بكر القرشي المهدوي، وسيدي علي بن وفا، والجنيد، الفضيل بن عياض، وعبد الواحد بن زيد، وأبو سليمان الدراني أبو عبد الله محمد بن محمد الرازي، وابن حنبل، وأبو طالب المكي...).

ومن الكتب المعتمدة المذكورة في متن نص الرسالة في الاستدلال: القرآن الكريم، والحكم العطائية، والرسالة القشيرية، وغيرها.




الأبعاد العلمية والثقافية والعلمية بين الأزهر والأسمر في ضوء التواصل المصري الليبي

د. نصر الدين عبد العظيم عبد الوهاب

باحث في التاريخ الثقافي - مصر

ملخص:

شكَّل الإمام عبد السلام الأسمر حلقة من أهم حلقات التواصل الثقافي والفكري والعلمي بين ليبيا ومصر، ففي فترة حياته في القرن العاشر الهجري نشط التواصل بين البلدين، من خلال الزاوية التي أسسها في مسقط رأسه بمدينة زليتن والجامع الأزهر، فقد تبادلت المؤسستان الطلاب والتلاميذ والحوارات العلمية البناءة وتأليف الكتب والمدونات في الفكر الإسلامي، وارتبط بذلك السند العلمي والصوفي بين البلدين. بالإضافة إلى ذلك فقد فتح الإمام الأسمر بهذه الحلقة من التواصل الباب للاستمرار في التبادل الثقافي والعلمي منذ عصره وإلى اليوم، فلا يمر عام إلا وعلماء المؤسستين يتزاوران ويحتفيان ببعضهما البعض.

وتعتني هذه المقالة بلفت الأنظار إلى قضية العلاقات بين البلدين، وأهم إجراء الدراسات حول أصولها ومرتكزاتها، وأهمها التواصل على مستوى الثقافة والفكر والعلم، الذي يُعدُّ أساسًا متينًا وركنًا حصينًا لحفظ العلاقات وتقويتها واستمرارها بين الأقطار.

كلمات مفتاحية:

الأسمر، الأزهر، التواصل، العلم، العروسيَّة.

مقدمة:

إن ظاهرة الطرق الصوفية من الظواهر الدينية والاجتماعية الجديرة بالعناية والاهتمام من حيث ثبوتها عبر الزمان والمكان، وقد أفرزت تلك الطرق على مر العصور أقطابًا ربانيين، وعلماء عاملين، ورجالًا صادقين مخلصين، يزخر التاريخ الإسلامي ويزدهي بهم؛ استنادًا إلى مناهجهم الدعوية والصوفية الإصلاحية، وقبولهم الجارف في جميع الأوساط الاجتماعية والعلمية والثقافية، وما وصلوا لهذه المكانة الرفيعة المرموقة إلا بحسن التأسي والسلوك على المنهج القويم من الكتاب والسنة، واحترام علماء الأمة. ومن أقطاب الفكر الإسلامي العارف بالله سيدي الإمام عبد السلام الأسمر، الذي يُعدُّ أهم الشخصيات المؤثرة في القطر الليبي، ولا يزال يحفظ فيه دوره الإصلاحي مكانة في الأوساط في مختلف الأقطار الإسلامية، بدليل كثرة من كُتب عنه من دراسات وأبحاث في أكثر من قطر عربي وإسلامي.

ولما أن تعرضت زاويته بمدينة زليتن لهجوم المتوحشين من أرباب الفكر المتطرف عام 2012م، انبرت مختلف المؤسسات العلمية في ربوع العالم الإسلامي، لا بل والجهات الرسمية والحكومية أيضًا لاستنكار ودحض حجج هؤلاء المتطرفين، فقد أصدر الأزهر الشريف بمصدر والزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب، وهي أعرق الجامعات الإسلامية، مواقف لمواجهة تحديات الفكر المتطرف والتصدي له، ودحض الافتراءات والأكاذيب والادعاءات التي أشاعتها تلك الجماعات المتطرفة، وما كانت هذه المواقف إلا بسبب ذلك التواصل والربط الثقافي والفكري والعلمي العريق والقديم بينها وبين الإمام الأسمر وزاويته.

خلفيات الاتصال والتواصل بين الإمام الأسمر والأزهر

لقد كفتنا كثرة الدراسات والكتب والأبحاث الحديثة التي كتبت حول حياته، وقبلها المصادر والمراجع في تفاصيل سيرته، مهمة التعريف بالإمام الأسمر، فهو علم من أعلام الأمة الذين صارت أسماؤهم دليلًا يتوصل به طالبو المعرفة، فلا يحتاج للتعريف.

ورغم ذلك، من المهم إبراز العلاقة التي بناها الإمام الأسمر بين بلده والجامع الأزهر، ففي تفاصيل سيرته وتاريخ طريقته العروسية العديد من الدلائل التي توضح كيف انبنت هذه العلاقة. وأول ما نرصده في تاريخ الطريقة العروسية التي يعد الإمام الأسمر أبرز أعلامها وشيوخها، هو الاتصال المبكر بمنهج الطريقة الشاذلية التي اتضحت معالمها وأركانها وازدهرت في مصر على يد مؤسسها الإمام أبي الحسن الشاذلي دفين حُمَيْثَرَا المصرية، فنحن نجد اتصالات مبكرة بين شيوخ الطريقة العروسية المؤسسين وبين الشاذلية، وفي فترات لاحقة نجد حرصًا من شيوخ الطريقة على الربط بين المنهج العروسي والشاذلي، ومنها قولهم: «من لم يتعرس أو يتشذل فأحواله تتبدل»[1]، وقول شيخ الإمام الأسمر الشيخ عبد الواحد الدوكالي: «أقرب الطرق إلى الله تعالى وأحسنها وأفضلها وأعمرها وأصحها وأعزها عند الله طريقتنا العروسية والشاذلية»[2].

وفي حياة الإمام الأسمر ما يشير إلى هذه الاتصالات بين طريقته العروسية والشاذلية، وتحديدًا من خلال شخصية الإمام أحمد زَرُّوق، أكبر وأشهر الشخصيات الشاذلية في المغرب العربي، وفي ليبيا على وجه الخصوص، حيث يؤكد الإمام الأسمر أنه لم يعرف «بمدينة طرابلس وسواحلها وقراها شاذليًّا إلا زَرُّوق وتلامذته»[3]، ولاحقًا نجده نقل مطولات من كتبه في رسائله ووصاياه ما يشير إلى تبنيه للفكر الشاذلي.

ومن حلقات التواصل المعرفي والفكري التي أسست لها الطريقة العروسية، رحلة أبرز شيوخها إلى الأزهر، وتوليهم مراكز علمية مهمة فيها، وأولهم الشيخ أحمد أبوتليس، الذي يعد ثالث شيوخ الطريقة العروسية، فقد حلَّ بالأزهر قادمًا من القيروان، وفيه: «تصدر لتدريس علم الكلام والمنطق والمقالات والفرق، وبه كان يقيم حلقات

---

(1) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص61.
(2) نفس المصدر، ص نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، ص68.

السماع والذكر، وينشد قصائد الشيخ أحمد بن عروس»[1]، ومن بعده تلميذه الشيخ فتح أبي رأس الذي كان يلقب بالأزهري؛ لكثرة جلوسه بالأزهر.

ومن المهم الإشارة إلى شخصية تُعَدُّ من أهم الشخصيات العروسية المؤسسة للعلاقة بالأزهر، وهي شخصية الشيخ الدوكالي شيخ الإمام الأسمر، الذي «تولى المشيخة في الأزهر»[2] كما يحدثنا الشيخ العلامة أحمد القطعاني، وهي محطة فارقة في تاريخ العلاقة بين الطريقة العروسية والأزهر، وهو ما يؤكده الإمام الأسمر نفسه عندما يرسم لنا صورة عن تلك المكانة العلمية التي تبوأها شيخه الدوكالي في الأوساط العلمية في مصر، إذ يقول: «وكان علماء مصر يعظمونه تعظيمًا طيبًا، وشهدوا له بالعلم والإجازة والتعظيم والتفويض»[3]. ويبدو أن الشيخ الدوكالي له صلات وتبادل ثقافي وفكري مع علماء مصر، فالإمام الأسمر يذكر له أيضًا اتصالًا بالشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي، إذ لبس مع الحضرمي «القلنسوة»، والحضرمي لبسها من علي القرافي، والقرافي لبسها من الشيخ أحمد بن عروس، إلى آخر السند[4]. وهو سند يبيِّن لنا وجهًا آخر من التلاقح الفكري الصوفي بين الشاذلية في مصر والعروسية، فعلاوة على اتصال الدوكالي بالحضرمي الذي هو شيخ الشيخ أحمد زَرُّوق في الطريقة الشاذلية، فسند الحضرمي ينتهي إلى الشيخ أحمد بن عروس مؤسس الطريقة العروسية. بل كان هذا الارتباط العروسي الشاذلي في مصر، إذ يحدثنا الشيخ القطعاني أن الشيخ الدوكالي «تعرف بمصر على صديقه الشيخ أحمد زَرُّوق، إذ اشتدت بينهما الألفة والأخوة، حتى أنهما عندما تركا مصر واستقرا في ليبيا كانا يتزاوران كثيرًا، خصوصًا وأنهما سكنا مدينتين متجاورتين جدًّا هما مصراتة ومسلاتة، وربما كانت هذه الصداقة بينهما هي السبب في هذا الجوار»[5].

---

(1) موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ ـ 644م إلى سنة 1421هـ ـ 2000م، أحمد القطعاني، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م، ج1، ص 361.

(2) نفس المصدر، ج1، ص483.

(3) نفس المصدر، ص72.

(4) الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح: صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1964م، ص10. وأيضًا: أوبة المهاجر وتوبة الهاجر، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم بالاشتراك مع مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط1، 2022م، ج1، ص241.

(5) حراس العقيدة، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، ط3، 2016م، ص29.

دون شك ولا بد أن هذا التواصل والاتصال أنتج امتزاجًا ثقافيًّا وفكريًّا على الصعيد الصوفي، في شكل أثر وتأثير، يمكن الكشف عنه ورصد ملامحه ومعالمه من خلال المشروع الإصلاحي الذي نفذه الإمام الأسمر فيما بعد في زاويته العروسية بمدينة زليتن.

الإمام الأسمر عنوانًا للتواصل الثقافي الليبي المصري

لم يخلُ تاريخ القطرين: المصري والليبي، من تواصل واتصال عبر فترات تاريخهما العريق، وتعزز هذا التواصل بدخول الإسلام إليهما، فترسخت العلاقات على الصعيد الفكري والعلمي والثقافي، ونجد هذا واضحًا في العديد من الشخصيات التي تبادلت الرحلة بين البلدين، وتركت آثارًا واضحة تدل على متانة العلاقة وعراقتها. ولكن سيرة الإمام الأسمر تضمنت تفاصيل هامة في هذه العلاقة العريقة كان لا بد من إبرازها والحديث عنها، لنكتشف أنها تختلف في بعض جوانبها عن التجارب التي سبقتها في تاريخ العديد من الشخصيات، بل حتى في تاريخ الشخصيات العروسية التي سبقته.

بين أسرة الإمام الأسمر وأسرة اللقاني الأزهرية المصرية:

وأول ما نلاحظه التعارف والتقارب بين أسرة الإمام الأسمر، ممثلة في شخصية عمه الشيخ أحمد الفيتوري، الذي تخبرنا كتب سيرة الإمام الأسمر أنه احتضنه بعد وفاة والده السيد سليم الفيتوري، وقام على تربيته ورعايته، وبين أسرة اللقاني الأزهرية المصرية، التي بدأت منذ بواكير حياة الإمام، إذ تذكر المصادر والمراجع أن الشيخ شمس الدين اللقاني، أبرز علماء الجامع الأزهر وشيخه وقبلة طلاب العلم حول العالم الإسلامي في عصره، زار صحبة شيخه وأستاذ الإمام زروق أسرة الإمام الأسمر، وكان دائم الثناء على أصول الإمام الأسمر الفيتورية، ومنها قوله: «ولا شكَّ أن طيب الفرع يدل على طيب الأصل، والظن أن هاته الأمور التي توجد فيهم خصوصًا خروج الأولياء منهم تدل على طيب أصلهم... وقد سمعت من أستاذي زَرُّوق أن الفواتير والزاوية الغربية ينبتان الأولياء كما تنبت الأرض الطيبة الزعفران، وما رأينا ولا سمعنا وليًّا له بصيرة نافذة دخل طرابلس إلا وهو متأدب مع الفواتير»[1].

---

(1) تنقيح روضة الأزهار، محمد مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م، ص77.

وتعززت هذه العلاقة والصلة بين الأسرتين على يد الإمام الأسمر وصديقه الشيخ ناصر الدين، شقيق شمس الدين، إذ يروي لنا الشيخ كريم الدين البرموني في كتابه «روضة الأزهار» أن شيخه الإمام الأسمر حمَّله السلام إلى الشيخ الناصر اللقاني أكثر من مرة، بعضها كان في شكل نظم شعري[1]، وأنه كان «يعظمه كثيرًا، ويثني عليه، ويشير إليه في مقطعات كثيرة»[2]، ولما سئل عنه قال: «مدينة من مدائن العلم له قدم راسخ في الولاية مجاب الدعوة يستسقى به من أكابر العارفين ومن أجلهم وأعرفهم بالله»[3]، بل ورثاه بقصيدة عند وفاته[4]. ومن جانب الشيخ ناصر الدين يحدثنا البرموني عن تعظيمه لأسرة الإمام الأسمر وطريقته العروسية قائلًا: «وكانت له محبة مفرطة في الفواتير وطريقتهم العروسية»[5].

ومن المهم أن نؤكد أن هذه العلاقة العلمية بين الإمام الأسمر وأسرة اللقاني العلمية المصرية، ليس الوحيدة، فهناك علاقات علمية بشخصيات مصرية أخرى شكلت بوابة للإمام الأسمر ليطلع على الأوساط العلمية ومتابعتها، وحتى وإن لم تسمِّ المصادر تلك الشخصيات إلا أنه يمكننا تأكيد ذلك من خلال الشهادة التي كتبها الإمام الأسمر حول المكانة التي كان يحظى بها شيخه الدوكالي في الأوساط المصرية، بقوله: «وكان علماء مصر يعظمونه تعظيمًا طيبًا، وشهدوا له بالعلم والإجازة والتعظيم والتفويض» وهي شهادة لن يتمكن من إثباتها دون متابعة دقيقة للأوساط في الأزهر خاصة، ومصر عامة.

وبالإضافة للشيخ البرموني، فقد تعززت العلاقة بين الإمام الأسمر وأسرة اللقاني من طريق شخصية علمية أخرى، هامة في تاريخ العلاقة بين الأسمر والأزهر، وهي شخصية الشيخ سالم بن طاهر، الذي تتلمذ للقانيين الشمس والناصر في مصراته أثناء وجودهما فيها صحبة الشيخ زروق، ولشدة ارتباطه بهما رحل معهما إلى «لقانة» بمصر بعدة وفاة شيخهما، ولزمهما لمدة طويلة. ويبدو أن شخصية الشيخ ابن طاهر لها ثقلها ووزنها في مشروع الإمام الأسمر، فقد عدَّته المصادر واحدًا من أهم أصحاب الإمام الأسمر وأكثرهم قربًا منه، حتى أنه أوصى بأن يصلي عليه عند وفاته[6].

(1) نفس المصدر، ص245.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(4) نفس المصدر، ص246.
(5) نفس المصدر، ص244.
(6) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص26، وما بعدها.

ولقوة العلاقة بين الإمام الأسمر واللقانيين، يبدو أنه كان يرسل تلاميذه إليهما، فنحن نقرأ في ترجمة الشيخ أحمد بحر السماح، أنه «حفظ القرآن الكريم في زاوية شيخه سيدي عبد السلام الأسمر وعمره ثماني سنين، وقرأ الفقه المالكي على علماء طرابلس، وارتحل إلى الأزهر لطلب العلم حيث أخذ عن الأخوين شمس الدين وناصر الدين اللقاني، وغيرهما من كبار علماء الأزهر، ولازم المحدث ابن حجر الهيتمي وخدمه وتبرك به وأخذ عنه»[1]. وبحر السماح هو الآخر من الشخصيات الهامة في المشروع الإصلاحي الأسمري، حتى أن الإمام شبه مكانته بمكانة الشيخ عمر بن حجا الذي استخلفه من بعده شيخًا للطريقة العروسية في قوله: «مريدي أحمد لا يشاكله أحد من فقراء العصر إلا عمر بن حجا»[2]، غير أن بحر السماح توفي في حياة شيخه الإمام الأسمر عام 979هـ، وإلا لكان له شأن في تعزيز وترسيخ ودعم هذا المشروع، بل كان كذلك إذ تحول إلى محطة رئيسية للشخصيات العلمية القادمة إلى المغرب خلال مواسم الحج، كما تفيد بذلك ترجمته[3].

وللإمام الأسمر تلاميذ آخرون رحلوا على الأزهر، ودرسوا على الناصر اللقاني، منهم الشيخ عبد الحميد الكمودي[4]، والشيح امحمد الجبالي[5]، والشيخ إبراهيم العوسجي[6]، والشيخ عمر القريوي[7]، والشيخ عبد الرحمن المكي[8].

وأحب أن أسجل ملاحظة هامة هنا، تتعلق بزيارة الإمام الأسمر للجامع الأزهر، ولقيا الشيخ ناصر اللقاني فيه، قبل عام من وفاته، إذ يؤكد الشيخ القطعاني أن الإمام الأسمر حج سنة 957هـ صحبة عدد كبير من مريديه[9]، وهو العام الذي سبق وفاة الشيخ ناصر اللقاني.

---

(1) نفس المصدر، ج1، ص481، وما بعدها.
(2) نفس المصدر، ج1، ص 482.
(3) نفس المصدر، ج1، ص 483.
(4) نفس المصدر، ج1، ص504.
(5) نفس المصدر، ج2، ص16.
(6) نفس المصدر، ج2، ص17.
(7) نفس المصدر، ج2، ص25.
(8) نفس المصدر، ج2، ص19.
(9) نفس المصدر، ج1، ص379.

ويجب أن نتوقف قليلًا عند مكانة الإمام الأسمر في العالم الإسلامي من خلال الصورة التي رسمها تلميذه الشيخ عبد الرحمن المكي عنه في كتابه: «مختصر البحر الكبير»، إذ ينقل عنه الشيخ القطعاني أنه لما قصد الرحلة إلى الإمام الأسمر صحبه من مكة المكرمة «نحو المائتين والخمسين فقيرًا»[1]، وعند وصولهم إلى الإسكندرية صحبه منها «نحو المائة فقير ومن كل بلد طائفة»[2]، وفي العام التالي لتتلمذه على الإمام الأسمر يقول: «اجتمعت عنده ستة أركاب من المشارقة والمغاربة»[3] وهو يقصد أركاب الحج، وفي العام الثالث من أعوام الحج شاع خبر الإمام وريادته العلمية حتى أنه «جاءه خمسة آلاف من الشام ومصر وبغداد ومكة المشرفة والمدينة المنورة، وأخذوا عنه العلوم والطريقة وجاءه من المغاربة تسعمائة فقير، وأخذوا عنه العلوم كالتوحيد والفقه والتصوف»[4]. وهو بالقطع يتحدث عن مرحلة مبكرة إذ إنه كان في معية أستاذه في منفاه في جبل سوف الجين بعد أن أخرجته السلطة الإسبانية من طرابلس[5].

وأقل ما يستفاد من هذه رواية الشيخ المكي أن الإمام الأسمر كان ملء السمع والبصر في العالم الإسلامي قبل رحلته إلى الحج، وبالتالي لن يمر دخوله إلى مصر دون استقباله والاحتفاء به من علماء الأزهر، والأغلب أنه التقى بصديقه الشيخ ناصر اللقاني في تلك الرحلة.

ويعكس ما نقله الشيخ المكي من حوار بينه وبين الشيخ عبد الوهاب الشعراني، أبرز علماء مصر والأزهر، الشهرة والمكانة التي كان عليها الإمام الأسمر في مصر، إذ يقول الشيخ المكي: «وقد اجتمعت بالشيخ عبد الوهاب الشعراني، فوجدناه مريض الجسم، وقرأنا عليه الوصية والشطحة وسلمهما معًا، وقال: إن عشت وأطال الله في عمري لأزورن الشيخ الدوكالي وتلميذه عبد السلام الأسمر، وأمرنا بجمع مناقب الشيخ الأسمر وحكايته وأموره لكي ينقلهم ويترجمهم في رسائله، فمات في ذلك المرض ﵀»[6].

(1) القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م، ص 180.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(4) نفس المصدر، ص180 و181.
(5) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص379.
(6) القطب الأنور، مصدر سابق، ص182.

وعلاقة الإمام الأسمر بالأزهر وعلمائه استرعت انتباه الشيخ القطعاني، الذي وجد في نص الشيخ المكي هذا ما يجيب عن تساؤل طالما راوده «عن السبب في عدم ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني للشيخ عبد السلام الأسمر في مؤلفاته رغم تعاصرهما»، فزيارة التي «لم يذكر الشيخ المكي تاريخها حدثت سنة 973هـ إذ هي سنة وفاة الشيخ الشعراني ﷺ»[1].

ويمكننا القول: إن الشيخين عبد الرحمن المكي وكريم الدين البرموني، شكَّلا أهم الشخصيات الدعوية التي كانت مثلت حلقة وصل بين الإمام الأسمر والأزهر، فكما نفهم من نصوص الشيخ المكي أنه كان يحج كل عام لزيارة المدن والمناطق ذات الثقل العلمي والصوفي؛ للتعريف بفكر شيخه من خلال عرض وصيته وكلامه ومنظوماته الشعرية، كذلك كان الشيخ البرموني رسولًا بين الشيخ ناصر الدين اللقاني والإمام الأسمر.

وحتى في خلفيته وأصوله يُعَدُّ الشيخ البرموني شخصية هامة للوصل بين الجهتين، الإمام الأسمر والأزهر، فهو من بلدة «برمون» إحدى قرى مدينة المنصورة في مصر، فهو ابن الشيخ محمد البرموني أحد أكبر تلاميذ الإمام أحمد زَرُّوق، وشاركه في الأخذ عن الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي في مصر، وهاجر بأمر الحضرمي مع الإمام زَرُّوق إلى ليبيا، حيث استقر في مصراته وتزوج فيها وأنجب الشيخ كريم الدين[2].

ولم تنقطع علاقة الشيخ كريم الدين بمصر، فكما أسلفنا لازم الشيخ في زاوية الإمام زَرُّوق الشيخ شمس الدين اللقاني، وصحبه أثناء عودته إلى لقانة ولازمه فيها إلى أن توفي عام 935هـ، قبل أن يلزم أخيه الشيخ ناصر الدين اللقاني. وبعد وفاة شيخه الإمام الأسمر اختار الشيخ البرموني الإقامة في طنطا، أحد حواضر العلم المصرية[3].
وهنا من المهم أن نسجل ملاحظتين: أولهما: أن توليه الإفتاء في طنطا يدل على أنه كان معروفًا بها، إذ إنها كانت تعج بالعلماء الذين سلموا له هذا المنصب الهام، وثانيهما أنه كتب شرحه على كتاب مختصر خليل في الفقه المالكي فيها، ما يشعرنا بأنه درس علم فيها، وله فيها تلاميذ، وبالقطع فدراسته لهذا الكتاب على يد شيخه الإمام الأسمر، حيث يعد من الكتب الأساسية التي أرساها الإمام في منهج زاويته بزليتن، انعكست على طريقة شرحه، ونحن لم نطلع على نص الشرح هذا، لكن من الراجح جدًّا أنه ضمنه آراء شيخه

(1) نفس المصدر، ص181.
(2) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص408.
(3) نفس المصدر، ج2، ص20، وما بعدها.

الإمام الأسمر الفقهية، وبالتالي درسها لتلاميذه في طنطا، غير أننا نفهم مما ذكره الشيخ البرموني عن أسباب هجرته من طنطا إلى مكة المكرمة في أواخر حياته، ما يفيد بوجود شخصيات علمية كانت تنافسه في طنطا.

الشيخ سالم السنهوري واسطة عقدة التواصل بين الأسمر والأزهر

لكن الشخصية المصرية الأبرز والأهم التي يمكن إبرازها كدليل واضح وأكيد على العلاقة المتبادلة بين الإمام الأسمر والأزهر، هي شخصية الشيخ سالم السنهوري[1]، وبعيدًا عن تكوينه وخلفياته العلمية في الأزهر، لا بد أن نشير إلى أن ما ذكرته المصادر حول أسباب وفوده على الإمام الأسمر، وهو مناقشته ومناظرته في مسائل وقضايا تتعلق بالتجديد الأسمري في التصوف:

أولًا: وفود الشيخ السنهوري على الإمام الأسمر لمناقشته في قضايا صوفية، يدل بشكل أكيد على أن قضية التجديد الأسمري في التصوف، لم تكن قضية محلية بل قضية انتشر صداها في العالم الإسلامي، حتى استدعت انتباه جانب من علماء الأزهر، ويبدو أن وفود الشيخ السنهوري على الإمام الأسمر كان بعد وفاة صديقه الشيخ ناصر اللقاني، أي بعد عام 958هـ، وإن كان السنهوري أدرك اللقاني، وأخذ عنه إلا أنه في عام وفاته كان عمره 13 سنة، إذ ولد السنهوري عام 945هـ، فيبدو أنه من الطبقة الثالثة من تلاميذ الإمام الأسمر، التي أشار الشيخ القطعاني إلى أن الشيخ الحفيدي من هذه الطبقة، خاصة وأننا نجد السنهوري ينقل عنه في كتابه «النور الناير» الذي ألفه في سيرة الإمام الأسمر، كما أن الشيخ كريم الدين البرموني لم يشر إلى كتابي السنهوري والحفيدي في «روضة الأزهار»، ولم ينقل عنهما، ما يؤكد تأخر صحبة الشيخ السنهوري للإمام الأسمر.

واستمرار المعارضة لفكر الإمام الأسمر في الأوساط الصوفية والعلمية حتى وقت متأخر، بدليل معارضة الشيخ السنهوري له، يشير إلى استمرار فاعلية آرائه التجديدية في الوسط الصوفي.

ثانيًا: أن الشيخ السنهوري لم يفد إلى الإمام الأسمر وحده، بل صحبه جماعة من الأزهر، وهو ما يدل عليه تصوير الإمام الأسمر لواقعة اللقاء مع السنهوري بقوله: «جاء بجماعة متحزم بفتاوى للفيتوري»[2].

---

(1) ينظر ترجمته: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص52.
(2) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص151.

وإن لم يذكر من تلك الجماعة المصرية الأزهرية إلا الشيخ السنهوري، فهو دليل على مكانته في الوسط الأزهري وقتها، أو أن من صحبه في ذلك اللقاء هم من طلبة العلم غير المشهورين، لكن المهم في هذه الواقعة هو استمرار التفاعل العلمي والفكري بين الأزهر والإمام الأسمر.

ثالثًا: مضمون المناظرة أو الحوار العلمي الذي دار بين السنهوري والإمام الأسمر، قد يعكس ما تضمنه كتاب «النور النابر» جانبًا منه، وهي قضايا الاجتماع للذكر والجهر به، لكن مثل تلك القضايا لا يمكن أن تستدعي سفر فريق علمي على طول هذه المسافة البرية الكبيرة لمناقشتها فقط، فإما أن لتلك القضيتين أبعادًا أخرى لم تتبيَّن حتى الآن، أو أن الجوانب الأخرى في النقاش والحوار لم ينكشف بعد لتظهر حقيقة تلك القضايا التي أثارها مشروع الإمام الأسمر التجديدي.

لقد اعتنى د. أسامة بن هامل بشكل كبير لإثارة الأسئلة حول ما سمَّاه بقضية المناظرات التي حفلت بها سيرة الإمام الأسمر، لافتًا إلى أنه ليس من المنطقي أن يقطع السنهوري من مصر وأعلامًا آخرين مسافات من مكة المكرمة كالشيخ محمد الحطاب، ومن تنبكتو وسط صحراء أفريقيا كالشيخ العاقب بن أقيث، ومن المغرب كالشيخ سعيد التَّطْوَانِي الذي يدل اسمه على أنه من تَطْوَانَ بالمغرب، فقط ليناظروا الإمام الأسمر في قضايا الاجتماع للذكر وشرعية استخدام «الدف» بمصاحبته، وأكثر من ذلك تحرك جيش السلطة الأسبانية من طرابلس وصولًا إلى بني وليد لمحاصرة الإمام الأسمر في منفاه في جبل سوف الجين فقط لأنه يستخدم «الدف» ويجمع الناس للذكر جهرًا[1].

رابعًا: يمثل كتاب «النور النابر» وثيقة مهمة من الوثائق التي تثبت وصول التجديد الأسمري في التصوف على الأزهر الشريف، فالسنهوري يُعَدُّ من أبرز علماء الأزهر في كل تاريخه، ويتعدى أثره الأزهر إلى العالم الإسلامي، فلا يوجد سند علمي في عصره في مختلف البيئات العلمية الإسلامية لا يمر عليه. وأهمية شخصية السنهوري في كونها تعد من الشخصيات الكاشفة عن مضمون التجديد الأسمري في التصوف، فلا يمكن أن يتتلمذ للإمام الأسمر ولا يترجم فكرته الصوفية في حياته وهو الذي قطع المسافات الطويلة لمناظرته ومعارضته، ولم يتحول تلميذًا له ولازمه لسنوات إلا وقد اقتنع تمامًا

(1) قفة الصلاح: قراءات جديدة في سيرة مجدد القرن العاشر الهجري الإمام سيدي عبد السلام الأسمر وشخصيات أخرى، أسامة بن هامل، منشورات مركز الشيخ أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط2، 2023م، ص21 وما بعدها.

بصلاحية فكرته الصوفية، فمن المهم دراسة هذه الشخصية وتقصي أثرها والتعرف على تلاميذه الذين اجتمعوا حوله في الأزهر، أو في زاويته التي جلس فيها بعد رجوعه من ليبيا، وتُعرَف إلى اليوم بـ«زاوية السنهوري» وتقع قرب جامع «العز» الآن، وهي مزار الجميع.

والسنهوري شخصية مهمة أيضًا للتأكيد على استمرار التلاقح والتواصل الثقافي والفكري على المستوى العلمي والصوفي بين مصر وليبيا، فقد تتلمذت على يديه شخصيات علمية ليبية بارزة، منهم الشقيقان علي وحامد الحضيريان، من جنوب ليبيا، اللذان لقياه وأجيزا منه عام 980هـ، غير أن الشيخ علي كان أكثر ملازمة له والتصاقًا به حتى أنه تزوج ابنته السيدة زبيدة، وأنجب منها ولدًا سماه سالم على اسمه، ولا يزال فرع من الحضيريين يعرف بفرع السوالم حتى الآن[1]، بل ولم يعرف كتاب (النور النائر) إلا في خزائن كتب أسرة الحضيري في ليبيا التي يبدو أنها نسخت أصله وتوارثته.

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج2، ص54.









الزوايا والإصلاح: الوظائف والأدوار

دور الزوايا في نشر الثقافة الوسطية: زاوية الأسمري أنموذجًا

د. ثامر الغزي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوسة - تونس

ملخص:

لم يشهد مجال، في تاريخ المجتمعات العربية، ما شهدته مؤسسة الزوايا من تناوس بين مطلق الرفض والتهجين ومطلق الاهتمام والتثمين، فبعد أن نُظر إلى هذه الزوايا على أنَّها بدعة، وإلى شيوخها وأتباعها ومرتاديها وممارساتها على أنها امتداد للتقاليد الجاهلية التي يجب مقاومتها والتصدي لها، أصبحت هذه الزوايا موضوع اهتمام من الأنثروبولوجيين والمؤرخين وعلماء الاجتماع.

نسعى في هذه المقالة إلى الكشف عن الوظائف التي تؤديها الزوايا أنثروبولوجيًّا ومساهمتها في تشكيل الواقع الجغرافي/ السياسي (**géopolitique**)، معتمدين في ذلك على الشروط الاجتماعية وعلى الوقائع التاريخية، وسنحاول تفكيك الظاهرة وفهمها ضمن ما تلعبه الزاوية من أدوار اعتمادًا على النصوص التاريخية عمومًا والتأسيسيَّة خصوصًا إضافة إلى الأقوال التوجيهية والوصايا الصادرة عن رأس الزاوية الأسمرية، ونحن نقدِّر أنَّه يمكن أن نخلص من هذه المقالة إلى الكشف عن بعض من مساهمة الزاوية الأسمرية في توجيه المجموعات البشرية وتشكيل حضورها الاجتماعي وتنظيم سلوكها.

كلمات مفتاحية:

زاوية، وصية، شيخ، وظيفة اجتماعية، الإصلاح.

مقدمة:

شكلت الزوايا حجر أساس في حياة المجتمعات المغاربية، ومنها ليبيا، إذ قامت بالعديد من الأدوار التعليمية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، ووفرت العديد من عوامل وروافد الحياة تبعًا لهذه الأدوار. ولا يمكننا الإفاضة في الحديث عن محورية أدوار الزوايا في الحياة الليبية في هذه المقالة، فمثل هذا الحديث يستدعي مؤلفات كاملة وشاملة وأبحاثًا مستفيضة، لكن يمكننا بعجالة لتلخيص أدوارها مستندين في ذلك للدراسات التي أجراها العلامة الشيخ أحمد القطعاني[1]، لعدة أسباب، على رأسها أنها دراسات تخصصية وموسعة، سيما وأنه متخصص في مجال التاريخ الصوفي.

وضمت العديد من مدونات التاريخ الليبي حديثًا عن الزوايا ومؤسسيها وأعلامها، غير أنها جاءت ضمن مباحث أخرى في التاريخ الليبي، كما أنها لم تكن شاملة، بل غطت فترات أصحاب تلك المدونات، ومنها «التذكار» للشيخ محمد بن غلبون، و«المنهل العذب» للشيخ أحمد النائب، و«اليوميات الليبية» للشيخ الفقيه حسن، و«أعلام ليبيا» و«معجم البلدان الليبية» كليهما للشيخ الطاهر الزاوي.

وبالإضافة إلى ذلك بحثت بعض المقالات جانبًا من أدوار الزوايا، كبعض جوانب الدور الاجتماعي، ومنها «دور الزوايا الصوفية في تحقيق الاندماج الاجتماعي في المجتمع الليبي»[2]، و«نماذج من زوايا في ليبيا ودورها التاريخي»[3]، و«دور الزوايا في الحياة الاجتماعية بالمجتمع الليبي»[4]، كما خصصت بعضها الحديث عن طريقة صوفية بعينها كـ«الزوايا السنوسية وأثرها في الحياة العلمية والاجتماعية في ليبيا»[5]. ونحن

(1) للشيخ القطعاني عدة دراسات في التصوف، أهمها: موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا منذ الفتح الإسلامي 21هـ- 644م إلى سنة 1421هـ- 2000م، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011م.

(2) ورقة بحثية نشرتها: مجلة روافد المعرفة، كلية الآداب بجامعة ترهونة، العدد السادس، 2019م.

(3) ورقة بحثية نشرتها: المجلة الليبية للدراسات، دار الزاوية للكتاب، العدد السادس، 2014م.

(4) ورقة بحثية نشرتها: مجلة السراج في التربية وقضايا المجتمع، جامعة الشهيد حمه لخضر، العدد السابع، 2018م.

(5) عادل عبد العاطي محمد الشبلي د. عبد الله بن يوسف، الزوايا السنوسية وأثرها في الحياة العلمية =

لا نزعم أنَّنا، في هذا المقال، سنتجاوز كل ما أرسته تلك الدراسات لنفتح أفقًا بكرًا، ولكننا سنسعى إلى محاولة استثمارها، وحسبنا أن نسلط الضَّوء على الدور الاجتماعي للزوايا عمومًا، وللزاوية الأسمرية على وجه الخصوص، ومع ذلك نؤكد أن دراسات العلامة القطعاني تبقى أشمل الدراسات حول التصوف وأدواره العديدة، وأكثرها عمقًا في تناول ظاهرة التصوف وأثرها المتعدد في الحياة الليبية.

لقد نبه العلامة القطعاني على الدور الأساسي للزوايا في تأسيس المناطق والمدن الليبية[1]، فقد أحصى في موسوعته 92 منطقة ومدينة ليبية تسمت بأسماء الصوفيين الذين تأسست حول زواياهم وأضرحتهم تلك القرى والمناطق، كالجغبوب، في أقصى الشرق الليبي، التي تأسست على يد الصوفي الكبير محمد بن علي السنوسي، وقبله كان واحة صحراوية خالية. كما العلامة القطعاني نبه على دور أصحاب الزوايا في استمرار الحياة والدور الحضاري للعديد من المدن، كمدينة بنغازي ذات العمق الحضاري الكبير، فقد كادت أن تندثر لولا أن سكن الصوفي حسن بن غازي في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وأسس فيها رباطه المشرف على بقايا ميناء المدينة، واستأنف بنشاطه فيها دورة جديدة من أدوارها الحضارية.

وتبعًا لتكوُّن وتشكل المدن والمناطق الليبية حول الزوايا، فقد تشكلت أيضًا أنماط العيش والتفكير والسلوكيات المتعلقة بالمطعم والمشرف والملبس والتقاليد وغيرها من شؤون الحياة الاجتماعية على أسس وقواعد وسلوكيات الزوايا وأصحابها ومريديها الذين شكلوا اللبنة الأولى من سكان كل منطقة أو مدينة تكونت حول الزوايا، ويبدو أن تسمى تلك المناطق باسم الزوايا أو أصحابها يشير إلى شدة ارتباط السكان بهم ومبلغ أثرهم فيهم. إن ما يذكره العلامة القطعاني من اضطلاع الصوفية بأدوار كبيرة في إنشاء مشاريع حياتية، زراعية وصناعية واقتصادية، في مناطق تقاطع طرقات التجارة والرحلات لا يشير إلى أن عمليات سكناهم لتلك المناطق كانت تتم بعناية وبعد دراسة وتخطيط.

= والاجتماعية في ليبيا، مجلة الدراسات الإسلامية والفكر للبحوث التخصصية، المجلد 3، العدد 2، نيسان، أبريل 2017م.

(1) ينظر للتوسع في هذا الجانب: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 84 وما بعدها.

وليس ذلك فقط، بل ساهمت الزوايا في توفير الأمن على طول طرقات التجارة، سيما الطرقات الصحراوية المارة شرقًا وغربًا، وأيضًا من عمق الجنوب إلى الشمال حيث تكثر الموانئ للتصدير، والتكتلات السكانية في المدن الكبرى للتسويق والاستهلاك، علاوة على ما وفرته الرباطات على طول شاطئ البحر من أمن للموانئ والتجارة البحرية، وبذلك تكون الزوايا ساهمت في الحياة الاقتصادية[1].

نشأة الزوايا: ظروف النشأة ودواعيها

في ليبيا يبدو أن ظهور التصوف كان بشكل مبكر جدًّا، ففي طرابلس اشتهر الصوفي عبد الله الشعاب المتوفى عام 243هـ/ 857م، وهذا يعني أن التصوف ظهر في ليبيا في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي[2]، والحديث عن هذه الشخصية الصوفية مرتبط بإقامته رباطًا (زاوية) على شاطئ بحر المدينة، ما يعني أن عمله الصوفي كان منظمًا وفقًا لمؤسسة الرباط أو الزاوية، ولم يكن سلوكًا تعبديًّا فرديًّا. وبالاستمرار في مطالعة كتب التراجم الليبية نجد الكثير من الشخصيات الصوفية التي برزت في أوقات مبكرة من حياة البلاد، كالشيخ يونس بن أبي نجم المتوفى عام 305ه/ 917م[3]، والشيخ عبد الله العازب المتوفى عام 307هـ/ 919م[4] وغيرهم، واللافت أن التصوف انتشر أيضًا في أوساط الشرائح المجتمعية كافة، ومنها المرأة، فمن بين الشخصيات الصوفية التي ظهرت في تلك الآونة المبكرة، السيد سمدونة المتوفية قبل عام 375هـ/ 985م[5]، كشخصية صوفية تجاوز صيتها وأثرها القطر الليبي إلى خارجه، وفي ذلك يقول الدكتور أسامة بن هامل أن سمدونة «تولت رئاسة رباط الشعاب الذي كان يُعَدُّ أهم مراكز الثقافة والعلم في المنطقة، ويبدو أنها كانت تعقد فيه مجالس على صلة بثقافة عصرها استدعت انتباه شخصيات علمية مرموقة في مراكز العلم الكبرى في الأقطار المجاورة»[6]، ومن

---

(1) للمزيد حول الدور الاقتصادي للزوايا، ينظر: موسوعة القطعاني قراءة للوجه الآخر للتاريخ الليبي، أسامة بن هامل، المؤتمر السنوي الدولي عن الشيخ أحمد القطعاني، الدورة الرابعة 2022م (قراءات في الإصلاح الصوفي لدى العلامة القطعاني)، منشورات مركز الشيخ القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، 2023م، ص380 وما بعدها.

(2) عن زمن ظهور التصوف في ليبيا بشكل مبكر، ينظر: موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص 200.

(3) نفس المصدر، ج1، ص205.

(4) نفس المصدر،ج1، ص206.

(5) نفس المصدر، ج1، ص224.

(6) موسوعة القطعاني قراءة للوجه الآخر للتاريخ الليبي، مصدر سابق، ص377.

هذه الشخصيات العالم التونسي المعروف محرز بن خلف كان يتردد على مجلسها، كما يلفت الدكتور ابن هامل إلى الرواية التي نقلت عن ابن خلف للدلالة على مكانة سمدونة عند رجوعه من الحج، إذ يقول أنه سئل عمن لقي في طريقه من الصالحين فقال: «رأيت في طرابلس رجلًا وامرأة أما الرجل فأبو عثمان بن سعيد الحشاني وأما المرأة فسمدونة، ما الفضيل عياض بأفضل منهم»، ويخلص الدكتور ابن هامل إلى أنها رواية مهمة، فابن خليف «غني عن البيان أنه مر في رحلته إلى الحج بمعاقل ومراكز العلم في مصر وصولًا إلى الحجاز، ولقي فيها الكثير من الصالحين، إلا أنه لم يذكر من النساء إلا سمدونة»[1].

وفي العموم فإن وظائف الزوايا تتحدد بحسب أنماط التصوُّف الذي تتبناه، أو بحسب الحاجة الظرف، فمثلًا تأسيس الرباط على شاطئ البحر في عهد الشعاب، يشير إلى مهام دفاعية ضد غازٍ قادم من وراء البحر، أما في عهد سمدونة فالدور يبدو ثقافيًّا علميًّا كما تؤكده الشخصيات العلمية البارزة التي كانت تتردد على مجلسها في ذات الرباط.

ولكن في وقت لاحق يبدو أن وظائف الزوايا صارت متعددة، خصوصًا مع ظهور التنظيم القائم على ثنائية الشيخ وأتباعه بحسب تراتبية النظام الهرمي للطرق، ويشير الدكتور حبيب وداعة الحسناوي إلى أن «أحد أبرز ما في ملامح الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر في العالم الإسلامي ظهور وانتشار الطرق الصوفية المنظمة في الزوايا حول شيخ وأتباعه... وقد أصبحت هذه الطرق تشكل جانبًا مهمًّا من جوانب الحياة الإسلامية السياسية الاجتماعية والفكرية والدينية الروحية استمرَّ وجودها وتأثيرها إلى الوقت الحاضر»[2]، وتلك هي سمات العصر الذي ظهر فيه الإمام الأسمر (880هـ/ 1475م981–ه/ 1574م) «حيث برز العلماء والصلحاء أصحاب الزوايا والطرق الصوفية يمارسون أدوارًا واسعة في مناطقهم»[3]، وقد كان لعامل الدين أهمية بالغة في المنطقة، فهو الذي «كان العاملَ الموحِّد الأساس بين شعوب المغرب العربي والأتراك العثمانيين»[4].

(1) نفس المصدر، ص387.
(2) الأوضاع السياسية في شمال أفريقيا وأثرها في نشوء الطرق والزوايا الصوفية، حبيب وداعة الحسناوي، مجلة الجامعة الأسمرية، المجلد الحادي عشر، يونيو 2009، ص51.
(3) نفس المصدر، ص52.
(4) نفس المصدر، نفس الصفحة.

لقد كان الجانب «التثقيفي»[1] أهم مشاغل الزاوية، ويشير الدكتور فوزي صالح الشريف، في مقاله «دور الزوايا في الحياة الاجتماعية بالمجتمع الليبي» إلى أن أهم الملامح العامة لنشاط الزوايا في البلاد الليبية يمكن اختزاله في شقين: شقٍّ تعليمي تلقيني يتمثل في «العناية بحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة»، وشق تربوي قوامه «متابعة المتعلم علميًّا وخلقيًّا،... والاهتمام بعلاقاته الاجتماعية ومشاكله الشخصية، وأدائه للصلوات الخمس في أوقاتها ومذاكرته دروسه»[2]، والطريف أنَّ هذا الشق التربوي ليس منحصرًا في هيكل مخصوص بقدر ما هو مسؤولية جماعية مشتركة بين الأستاذ ومشرف الزاوية وكبار الطلاب[3].

وبخلاف ما قد نتصوَّر، فإنَّ المعارف التي يتمُّ إكسابها للمريدين «ليست مقتصرة على تحفيظ القرآن الكريم والفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف والعقيدة والتصرف»، بل تعنى إلى جانب ذلك «بالأدب والتاريخ والسيرة والفرائض والوثائق والشهادات، وتعنى بالطب والفلك والزراعة والحساب وغيرها من العلوم المختلفة»[4].

غير أنَّ المفارقة في الجانب التثقيفي للزوايا، أنها مع ثراء التكوين فيها تعمد إلى الحفاظ على وسائل بدائية في الوسائل التعليمية بها كالألواح والصمغ ومحابر الفخار.

الخصائص الاجتماعية والأخلاقية للزوايا

يجمع الدارسون من مؤرِّخين وعلماء اجتماع على ما كان «للمؤسسات الثقافية والعلماء والمرابطين والطرق الصوفية في صيغة قيم ورؤية ومرتكزات العلاقات الاجتماعية والاتجاهات والقضايا الفكرية السائدة آنذاك»[5].

ويلح الدكتور الحسناوي، على ما أرساه الإمام الأسمر من «علاقة بين الزاوية الأسمرية التي بناها ببلدة زليتن في الثلث الأول من القرن الخامس عشر وبين المجتمع الذي نمت فيه»[6]، فقد كان «شخصية اجتماعية غير عادية»[7] و«ساد الاعتقاد والتصديق

(1) نفضل استعمال صفة «التثقيفي» للدلالة على الجانب التربوي والتعليمي.

(2) دور الزوايا في الحياة الاجتماعية بالمجتمع الليبي، فوزي صالح الشريف، مجلة السراج في التربية وقضايا المجتمع، جامعة الشهيد حمه لخضر، العدد السابع، 2018م، ص31.

(3) نفس المصدر، ص32.

(4) نفس المصدر، ص32.

(5) الأوضاع السياسية في شمال أفريقيا وأثرها في نشوء الطرق والزوايا الصوفية، مصدر سابق، ص53.

(6) نفس المصدر، ص54.

(7) نفس المصدر، نفس الصفحة.

بولاية الشيخ الأسمر وفضله وكراماته... واللجوءُ إليه في محنهم ومشاكلهم أثناء حياته، وبعد مماته ظلت زاويته منارة لتعليم القرآن والعلوم الدينية»[1]، كما ظلت زاويته مقصدًا للكثير من النَّاس، بناءً على وصيته للمحتاجين بأن يدعوا باسمه، وعلى إيمان الناس بأنه «يؤثِّر في الإحداث بالهمَّة والعزيمة والقدرة الغيبيَّة الربَّانية»[2]، فقد جاء في الوصيَّة الكبرى: «وإذا نزلت بكم مصيبة مثل اللصوص والسوارق [كذا] أو ظالم غشوم أو حيّة مضرّة أو عقرب مهلكة أو حريق نار أو ماء جار أو خوف غرق أو خوف جن أو شيطان... أو أي مصيبة كانت، فاتجهوا إلى الله سبحانه ورسوله ﷺ، وتوجَّهوا لناحيتي، وقولوا: يا الله ويا رسول الله ونادوني يا عبد السلام ويا عباد الله الصالحين. فإنَّ الله تعالى يهوِّن ما نزل بكم عن قريب... وتقولون ذلك بصوت قوي إن كانت المصيبة قوية، وإن كانت المصيبة غير شديدة يكون ذلك بصوت خفي»[3].

الاجتماع:

لا شكَّ أنَّ أهمَّ ما يشغل الإنسان على الإطلاق هو الأمان، وقد جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلَّم: «**من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا**»، والأمان اسم جامع متعدِّد الأبعاد، فهو الأمان من الأعداء، وهو الأمان من الجوع، وهو الأمان من المرض، لذلك كان «الأمان» أهمَّ وظائف الزوايا في المجتمع الليبي، فقد كانت الزوايا بحكم استقرارها وهيبتها في نفوس الناس، صمام الأمان لمختلف الأطراف، إذ كان من مصلحة كل قبيلة «أن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعًا من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلًا»[4] وهو ما بوَّأ الزاوية مكانة كبيرة في وجدان ونفوس الناس. وفي ذلك يشير الحسناوي إلى حلول الزوايا محلَّ السلطات، فقد وصلت الدويلات في أواخر القرن الخامسَ عشرَ إلى مستوى كبير من التدني والانحلال، وأخذ زمام الأمور يفلت من يدها، وضعف قدراتها العسكرية، وإلى انتشار الفتن والانقسامات

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.
(3) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر الفيتوري، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص55.
(4) دور الزوايا في الحياة الاجتماعية، مصدر سابق، ص34.

والصراع... وسادت الفوضى وعمَّت اللصوصية وانعدم الأمن، وضعف البناء الداخلي للدولة. وأمام هذا الانحلال الداخلي ارتخى حبل علاقة الدولة بجمهور الناس وخاصة في المناطق البعيدة عن المركز»[1]، وتشير الكثير من الدراسات إلى أن الزوايا سدت هذا الفراغ الأمني، بل سعت السلطات السياسية في الكثير من الأحيان إلى الأولياء وزواياهم لفك الاشتباكات السياسية والأمنية، كما حدث مع الوالي سليمان باشا داي طرابلس عندما لجأ الى الشيخ الصوفي محمد الصيد لطلب معونته في التوسط لوأد فتنة كادت أن تحدث في طرابلس[2]، ويبدو أن هذه المكانة الاجتماعية الكبيرة التي حظيت بها الشخصيات الصوفية لم تقتصر على نشاطها في القطر الليبي فقط، بل تتحدث الكثير من المصادر التاريخية عن وساطة دبلوماسية قادها الصوفي الطرابلسي محمد الخروبي بين الجزائر والمغرب لمرتين، بين عامي 1549م و1553م، وتمكن خلالهما من رأب صدع كبير بسبب خلاف حدودي[3].

ومما عزز من هذه المكانة، أن السلطة العثمانية الحاكمة في البلاد وقتها، كان الكثير من أفرادها على علاقة بالتصوف، بل ومن أتباع بعض الطرق[4]، وهكذا أصبح للزاوية وظيفة مركزية في حفظ السلم الاجتماعي، ومنع تفكك النسيج والروابط الاجتماعية، وفي ذلك يشير الدكتور الشريف إلى أنَّ الزوايا «قامت بدور كبير في فض المنازعات والمشكلات الاجتماعية بين الناس من خلال قيام الزاوية بتشكيل مجلس من الشيوخ وأعيان المناطق، فيدرسون القضية من كل جوانبها وأطرافها، ثم يقضون فيها إما بطريقة شرعية من خلال إصدار الأحكام، والاستعانة بالأعراف والعادات والتقاليد المتبعة، أو حل القضية بالصلح وهو سيد الأحكام»[5].

وكما حرصت الزاوية على الأمن من الأعداء، حرصت على توفير الأمان من الجوع والبرد، وفي ذلك يشير الدكتور الشريف إلى أنَّ الزوايا «اشتهرت بإسهامها الكبير في التكافل الاجتماعي بمختلف أنواعه، مثل تقديم المساعدة على الإيواء وإطعام

---

(1) الأوضاع السياسية في شمال أفريقيا وأثرها في نشوء الطرق والزوايا الصوفية، مصدر سابق، ص59-60.

(2) موسوعة القطعاني: الوجه الآخر للتاريخ الليبي، مصدر سابق، ص390

(3) نفس المصدر، ص389.

(4) الأوضاع السياسية في شمال أفريقيا وأثرها في نشوء الطرق والزوايا الصوفية، مصدر سابق، ص61.

(5) دور الزوايا في الحياة الاجتماعية بالمجتمع الليبي، ص35.

الطعام وتقديم التسهيلات لراحة المسافرين»[1]، كما «كان للزاوية دور بارز من الناحية الاجتماعية من خلال التصدق على الفقراء والمحتاجين، وذلك بفضل موارد الزاوية المالية من الزراعة وتربية المواشي والهبات الخيرية والزكاة الشرعية، حيث كانت الهبات الخيرية تقدم من أهالي القبيلة».[2]

والإمام الأسمر في حرصه على السلوك الاجتماعي القويم، وتناغمًا مع نفس السياق، كان يحذر أتباعه من التملق لأرباب النعم، فـ«لا يجوز لكم الأكل بالشكر والمدح في القبائل كقوله: فلان جيد، أو: فلان شجاع، أو: يلبس أفخر الثياب، أو: فلان صنديد، أو: فلان جميل، أو: فلان يفعل كذا وكذا ويترك كذا وكذا، الله الله الله فليس هذا من شأن الفقراء العروسية»[3]، وعلى الرغم من علاقته الوطيدة بالحكام العثمانيين، وعلى رأسهم مراد آغا، أول الولاة العثمانيين في طرابلس، الذي وفد عليه بعد أن استقرت له أوضاع البلاد، وصار من مريديه في الطريقة العروسية، بعد أن اشترط عليه الإمام الأسمر «عدم الإضرار بأحد من الناس، وأن يأكل من عمل يده»[4]، إلا أنه في ذات الوقت حذر أتباعه من الاحتكاك: «إخواني، وإيَّاكم وخلطة السَّلاطين والقيَّاد والوزراء والحكَّام»، ويقول: «فلا تخالطوهم، بل ولا تقربوا الجميع، ولا تقفوا عليهم ولا على منازلهم ولا على مجالسهم، إلَّا لضرورة واضحة ومشقَّة فادحة ولم تجدوا غيرهم من يقضي لكم الحاجة منهم، فلا بأس عليكم إذا اجتمعتم بهم ولم تضرُّوا بأحد من المسلمين».

محاربة التطرف: نشر الوسطية

من أهم ضمانات الاعتدال في المعتقد ما كان للإمام الأسمر من تكوين عقائدي معتدل، فالدارس لكتاب «نصيحة المريدين» يلاحظ بناءه لطريقته وفكره على أسس الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية، وهما من أهم العوامل التي ساهمت في الاستقرار المجتمعي في القطر الليبي خاصة والمغربي عامة، فلم يقف عند حدود الدراية بهذه الأسس، بل انتقل إلى نشر تلك المعارف وتعليمها عبر زاويته. وهو لا يكتفي بالحث على التعبُّد النسكي، بل يربطه بالتدين العملي، فنحن إذ نجده في كتابه: «نصيحة المريدين»: «يحث الناس

(1) نفس المصدر، ص 35.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص18.

(4) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص463.

على تعلُّم أحكام العبادات ليتقرَّبوا إلى الله ويعبدوه عبادة صحيحة... نجده يرشدهم إلى أفضل السبل في المعاملات بدعوته إلى تجنُّب الرشوة وشهادة الزور والنميمة، فيقول محذرًا: «إخواني، وإياكم والسُّحت وهو الرشوة في الحكم»[1]، كما نجده يقوم بدور المرشد الاجتماعي، فيوجِّه الآباء إلى تعليم أولادهم وزوجاته القرآن الكريم والكتاب والأخلاق والآداب العامة، تمامًا كما يوجِّه الأبناء إلى وجوب إظهار الطاعة للوالدين والبرِّ لهم، كاشفًا عن سماحة لافتة في قبول الاختلاف ولو بلغ حدَّ كفر الوالدين، فيأمرهم قائلًا: «عليكم بالتواضع للوالدين والأدب معهم غاية الأدب، ولا تعصوهم طرفة عين في شيء من الأشياء، ولو كانوا عصاة، إلا أن يأمروكم بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكذلك إذا كانوا كفارًا فلا بد من التواضع لهم والإبرار إليهم وكفرهم على أنفسهم»[2].

ومنهج الإمام الأسمر الجامع بين الفقه والتصوف ظاهر بشكل جلي في وصاياه ورسائله، كما أن تكوينه العلمي على يد أساتذته وشيوخه الجامع للجانبين ساهم في تعزيز وبناء هذا المنهج، خاصة وأن الطريقة العروسية التي انتمى إليها وصار من كبار شيوخها تعتمد هذا النهج أيضًا، فكما تخبرنا المصادر أن أبرز شيوخها، الشيخ أحمد أبو تليس والشيخ فتح الله أبو رأس[3]، كانا من كبار فقهاء القيروان، ومن مميزات هذا المنهج أن الربط بين النقل والعقل، لم يقلص من دور الأخير، بل شدد الإمام على أهميته، خاصة في قضية المعرفة بالله التي اعتبرها أولوية، فهو يدعو إلى معتقد دوغمائي يقوم على التصديق والتسليم السلبيين، بل يدعو إلى أن يكون ذلك مبنيًّا على النظر والاستدلال فيقول: «اعلموا أن معرفة الله تعالى لا تكون إلَّا بعد معرفة النفس. من عرف نفسه عرف ربه، من عرف نفسه بالعجز والعبودية، عرف ربه بالقدرة والربوبية، ومن عرف نفسه أنه محدَث، عرف ربه أنه قديم باق، من عرف نفسه بالشهود والعيان، عرف ربه بالغيبة والحضور»[4] ويخلص إلى أنَّ من «بلغ حد التكليف فحينئذ يلزمه النظر والاستدلال والبحث عن معبوده»[5].

(1) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص42.
(2) نفس المصدر، ص21.
(3) نفس المصدر، ص74 و76.
(4) نفس المصدر، ص190.
(5) نفس المصدر، ص191.

وبعد أن يعرض لمختلف آراء العلماء، وبعد أن يخلص إلى أن «ما عليه أئمَّة وعلماء المسلمين هو أن الإيمان بالله هو أول الواجبات، ومعنى النظر والاستدلال أن ينظر بين الصانع والمصنوع»[1]، يتبنى دون مواربة منهج النظر والاستدلال حين يتوجَّه إلى أتباعه قائلًا: «واعلموا أن كل صنعة تفتقر إلى الصانع الذي صنعها واخترعها وابتدعها، والصانع هو الله والمصنوع خلقه»[2].

ومن اللافت أنَّ الإمام الأسمر، وفي تميُّز واضح عن مألوف الشيوخ الذين يعتبرون كل خروج عن التقليد ضربًا من البدعة، يهاجم «التقليد» ويدعو أتباعه إلى «النظر» قائلًا: «وضعت لكم عقيدة في التوحيد فتخرجكم من التقليد... فليس في مشايخنا مقلد ولا مشكوك في إيمانه... فعليكم بالنظر حين التكليف ومعرفة الدليل والبرهان... فمن لم ينظر ولم يأت بدليل ولا ببرهان ففي إيمانه خلاف، وعند جميع الموحدين مقلِّد، والمقلِّد ليس بكامل»[3].

غير أنَّنا ينبغي ألا نقع في الخلط بين النظر والاستدلال الفلسفيين الوضعيين، وبين النظر والاستدلال عند الصوفيين، ويمكن الوقوف على ذلك من خلال مناقشة وقعت بين الشيخ محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب والإمام الأسمر، عندما جاء الحطَّاب للقاء الإمام الأسمر في مسجد الناقة داخل مدينة طرابلس، فقال له منكرًا: «يا عبد السلام، ذكروا لنا أنك تلمُّ الفقراء وتقول معهم بلفظ الجلالة، فهذا ذكر غير مشكور؛ لأنه بدعة لم تنقل عن السلف، وأن الذاكر لا أجر له، فقال له الشيخ: وعمَّن نقلت ذلك؟ فقال: نقلته من جواب للعزِّ بن عبد السَّلام. فقال الشيخ: يا محمد بن محمد دعني في حالي، فهذه ساعة لا يسعني فيها إلا ربي. فقال وقد امتلأ غيظًا وغضبًا: ما هذا جواب، وما هذه طريقة الصالحين. فقال الشيخ: انته عما تقول، وإلا أطيرك بعلمك المحطب الذي أفنيت عمرك في تحطيبه، ولم تدرك له حقيقة»[4]، وهو حوار هام جدًّا يكشف عن طبيعة المعرفة في فكر الإمام الأسمر، فالمعرفة عنده قائمة على التأمل القلبي والعقلي في المنقولات والآثار، وهو معناه بقوله: «هذه ساعة لا يسعني فيها إلا ربي»، بمعنى أنه في لحظة تأمل قلبي في ما النقل الذي جاء به الشيخ الحطاب، وهو ما لم يدركه الأخير واغتاظ مطالبًا بجواب من النقل أيضًا كما هو جوابه الذي لم يدرك «له حقيقة».

---

(1) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) نفس المصدر، ص4.

(4) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص435.

إن هذا المنهج الجامع بين النقل والعقل، لا بل يبرز للعقل دوره - كان كفيلًا بالوصول إلى نتائج تجاوز فيها الإمام الأسمر القطرية المحلية، إلى الإقليمي ثم العالم الإسلامي، من خلال بناء جيل قادر على التفكير والتأمل والتحليل وفق منهجه التربوي الصوفي، ونرى تطبيقات ذلك فعليًّا في الانتشار الواسع لتلاميذه الذي تعكسه رسائله الموزعة بين تلاميذه في تونس وأقصى المغرب وتنبكتو، عدا الموزعة بين تلاميذه في الداخل الليبي.

ولأن عملية التربية الصوفية، كما أنها عملية أساسية، فهي أيضًا عملية تحفها المخاطر إذا لم تتوفر في الشيخ المربي صفات المشيخة، ولذا كان الإمام الأسمر حريصًا على تحديد صفات من لا تجوز مشيخته، فقد فصَّلها في خمس، يمكن تأويل إحداها على أنها معرفية هي الجهل بالدين، أمَّا الأربع الباقية فتتعلق بتصرُّفاته في المجموعة، وهي إسقاط حرمة المسلمين، والدخول فيما لا يعنيه، واتباع الهوى، وسوء الخلق[1].

ويتجلَّى هذا الحرص على البعد الاجتماعي في التربية في كل عناصر العملية التربوية، وكما حدَّد مبطلات المشيخة، ضبط شروط المريد، لا مع شيخه فقط، بل ومع إخوانه أيضًا. ونحن نلمس في فكر الإمام الأسمر موقفًا تربويًّا صارمًا من خلال قوله: «وتأدَّبوا مع مشايخكم غاية الأدب الذين تقرؤون عليهم العلم ولا تتعنتوا عليهم، واعرفوا حقهم وتفضيلهم وتكريمهم وتصديقهم فيما يقولون لكم، واصدقوا معهم وأحبوا لهم ما تحبون لأنفسكم، فإنكم تنالون إرثهم الذي ورثوه ظاهرًا وباطنًا وهو العلم والولاية والبركة»[2]، لكن هذا الموقف لا يخلو من نقد جريء لمؤسسة المشيخة، فهو يقسم المشايخ إلى عدَّة أقسام ويوجِّه أتباعه إلى كيفية التعامل مع كل نوع منهم حرصًا منه على عدم وقوعهم في الفتنة. فمنهم مشايخ الزمان (المؤدِّب والطبيب الماهر)، ومنهم مشايخ الشيطان («شيخ العرب على الجهالة والأداءة والفتن، وشيخ الرعية على استخلاص مال السلطة، فهذان يقال فيهما: إنهما من أولي الأمر؛ لأنهما من تحت أعلام الأمير، وما أقاما بتلك المرتبة إلا بإذنه. فهذان أحسنوا لهما مما تأكلون وما تدّخرون، ففيهم الصلاح لكم عند الأمراء وحرمة ما تعطونهم فهو سحت عليهم، وأنتم لا إثم عليكم؛ لأنهم سفهاء،

---

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م، ص 314 و 317.

(2) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص12.

فاشترُوا ألسنتهم لأجل صلاحكم، ولا بارك الله فيما يأخذونه منكم»)[1]، ومنهم مشايخ الرحمن («ثلاثة: شيخ العلم، وشيخ الورد، والشيخ الكبير الهرم، فهذه ثلاثة ينبغي الأدب معهم»)[2].

دور الزوايا في نشر الثقافة الوسطية: زاوية الأسمري أنموذجًا

إنَّ الظروف التي حفَّت بنشأة الزوايا تجعل من الحتمي عليها أن تؤدِّي الدور الذي تقتضيه ظروف النشأة، فكان أن تهيَّأت الظروف لتكون الزاوية حاملة لواء الثقافة. وممَّا يُحسب للإمام الأسمر أنَّه، رغم إلحاحه على الجانب الإيماني والروحاني، لم ينسق وراء اختزال التديُّن في جانبه المناسكي كما فعل كثيرون غيره، بل فصل بين مستويين هما المناسك والمعاملات:

1 - التدين المناسكي: هيمن هذا النمط من التدين المناسكي على مدخل الوصية الكبرى، وهذا أمر بديهي بالنسبة إلى شيخ متصوِّف، فافتتح وصيته بحديث عن الجانب المعرفي لهذا النمط، بادئًا بـ«معرفة الله وفرائض الدين»، أتبعه حديث عن «التوبة وشروطها»، ثم عن «محبة النبي» و«محبة آل البيت» و«كثرة الصلاة على النبي»، كما عرض للجانب العملي/ الممارَسي منه، فخصَّص حديثه عن «الصلاة وحكم تاركها».

والملاحظ أنَّ الإمام الأسمر يراوح في وصيته بين الوجه المناسكي المحض والوجه المناسكي العملي والوجه التعاملي، في ضرب من التداخل بينها، ولعلَّ ذلك يعود إلى سببين: أوَّلهما، وهو الأرجح لدينا، طبيعة جنس «الوصية»، فهي غالبًا قريبة من الصيغة الارتجالية، وهو ما يعسِّر بناءها بشكل تراتبي، وثانيهما رغبة الإمام الأسمر في التلميح إلى العلاقة العضوية بين شقي المناسك والمعاملات في الدين، معتبرًا ترابطهما عضويًّا.

2 - التدين التعاملي: بدا هذا الشقُّ أكبر من حيث الكم والتنويع، فلئن امتدَّ القسم الأول على ثماني صفحات من الوصية، فقد حظي القسم الثاني (التعاملي) بإحدى وخمسين صفحة، وهذا يعكس إيمانًا من الإمام الأسمر بمركزية هذا الشقِّ.

---

(1) نفس المصدر، ص48-49.

(2) نفس المصدر، ص49.

لقد بدا لنا الإمام الأسمر حريصًا على أن تكون رسالته محيطة بحياة الناس في كل جوانبها، وخصوصًا ما ينصبُّ في علاقات البينية، فتحدَّث مثلًا عن «آداب العشرة»[1]، وعن «معاملة الجيران»[2]، وعن «آداب المحادثة»[3]، حاضًّا على «محاسن الأخلاق» عادًّا إيَّاها «عفوًا وإحصانًا»[4].

وعلى العموم فقد فرَّع الإمام الأسمر وصاياه في الدين العملي على جلِّ فروع الحياة من تعامل بين الناس في المجتمع الواسع، ومن تعامل بين أفراد الأسرة (تعليم الأولاد والزوجات)[5]، وبين الطبقات الاجتماعية (حب المساكين)[6]، ومن علاقة بين الشيخ ومريده (الأدب مع المشايخ، ومحبة العلماء واحترامهم)[7]، ومن سلوك اجتماعي عامٍّ (على غرار نصيحة للنساء بغض البصر عن جميع المحارم، وكف الأسماع عن جميع المآثم[8]، وتكرار تلك النصائح للرجال وعموم الناس[9]، كما بدا ساعيًا إلى الإلمام بكل جوانب الحياة فعرض لما يكون في سلوك الناس من وجوب تجنب الزنا وشرب الخمر، من آداب السماع والأكل والاجتماع، سواء في الأفراح كالزواج، أو في الأتراح كالجنائز، أو في التعبُّد كحلقات الذكر.

وممَّا يلفت النظر، ما اتسمت به وصايا الإمام من حرص على تجنيب أتباعه الفتنة في مختلف وجوهها بدءًا من فتنة النساء «مصائد الشيطان» حيث يحذِّر منهنَّ قائلًا: «فخذوا حذركم من النسوان ومخالطتهن والنظر إليهن والتلذذ بكلامهن، والذكر معهن من أكبر الفتنة وأكبر منه فتنة استماع زغاريتهن [كذا] فاحفظوا جهدكم من مصائد إبليس اللعين»[10] وصولًا إلى فتنة الخوض في خلافة النبي ﷺ موصيًا بالامتناع عن الخوض في أحقِّية علي بالسلطة، متخلِّصًا بطريقة ذكية من التورُّط في الجدل القديم حول الأَولى بالخلافة بعد النبي ﷺ، قائلًا: «إن تنازعوا بين أيديكم فأمسكوا عنهم وعن حالهم؛ لأن

(1) نفس المصدر، ص11.
(2) نفس المصدر، ص20.
(3) نفس المصدر، ص22.
(4) نفس المصدر، ص16.
(5) نفس المصدر، ص19.
(6) نفس المصدر، ص40.
(7) نفس المصدر، ص41 و48
(8) نفس المصدر، ص33 و34.
(9) نفس المصدر، ص34.
(10) نفس المصدر، ص5.

العبد ليس من شأنه أن يتكلم أو يصلح بين أسياده»[1]، مرورًا بالتحذير من فتنة السلطان عمومًا ومن «القرب إلى أرباب الدولة وإظهار الإصيات [كذا] بغير حقيقة وحب الرياسة وطلب العلو والتمرد والزندقة»[2].

لقد تحلى الإمام الأسمر شيخًا ذا رؤية براغماتية (**stratagème**) يحسن إيلاء الحديث وظائفية واضحة، فيوجِّه أتباعه إلى كيفية تصريف الحديث بحسب المتقبِّل، ويمكن وضع تعاليمه في الجدول التالي[3]:

	(المتحدَّث إليه) إذا جلستم مع:	موضوع الحديث
1	أهل الآخرة	فعظوهم [كذا] بالكتاب والسنة وتعظيم دار الآخرة.
2	الملوك	فحدثوهم بسيرة أهل العدل وآداب العقلاء وبالعفاف عما في أيدي الرعية.
3	العلماء	فأخبروهم بالروايات الصحيحة في المذاهب المعلومات.
4	الفقهاء	فحدثوهم بالأقوال المشهورة من المختصر والرسالة بالحق دون اللهو.
5	أهل الحديث	فحدثوهم الأخبار الصحيحة وبالناسخ والمنسوخ وبالمطلق والمقيد والعام والخاص.
6	الصوفية	فحدثوهم بما يشهد لعلومهم الظاهرة والباطنة، وبما يشهد لأحوالهم وزهدهم في الدنيا وأخذهم بالأحوط وتورعهم وتركهم المكروه والمختلف فيه.
7	القراء وأهل الرسوم	فحدثوهم بالقرآن ورسمه وبالحذف والإثبات... وحدثوهم بالتجويد والضوابط والروايات كنافع وغيره.

(1) نفس المصدر، ص9.
(2) نفس المصدر، ص7.
(3) نفس المصدر، ص32-33.

	(المتحدَّث إليه) إذا جلستم مع:	موضوع الحديث
8	الصالحين	فحدثوهم بالكرامات والمناقب وبما كتبه القوم كاليافعي والمنهاج والشيخ القشيري وغيرهم.
9	الفقراء أهل الذكر	فجاوبوهم بما يشهد لأحوالهم وأفعالهم الحقانية وذكرهم وما يقيم لهم الحجة على المنكر عليهم.
10	العارفين بالله	فحاضروهم بما شئتم فإن لكل شيء عندهم من وجوه المعرفة نصيبًا، لكن بشرط لين الكلام وحفظ الحرمة والأدب؛ لأن حضرتهم صياغة فالمعنى والقصد الذين [كذا] تدخلون به عليهم تخرجون به منهم بمشهدكم فيهم.. ويلبسكم ما توجهتم به إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًّا فشر.
11	الجاهلين	فأمروهم بالقراءة والتعليم وما تصح به صلاتهم. وقولوا لهم الجاهل كالعامد، ويعذب عذابين الأول على الجهل وعدم القراءة، والثاني على قلة العمل بذلك

خاتمة:

وفي الجملة فإن الإمام الأسمر أدى، وما يزال، دورًا هامًّا في نشر الثقافة الوسطية المعتدلة سواء عبر تلاميذه الذين توارثوا تعاليمه، وقد أُثر عنه أنه «كان محدِّثًا ومفسِّرًا قويًّا وصاحب شخصية جذابة ومهيمنة»[1]، أو عبر تآليفه، إذ «كان عالمًا صاحب قضية وطريقة صوفية» وهو الذي بلغ أعلى مراتب الصوفية (أن يكون قطبًا أو غوثًا)، أو عبر ما تقوم به الزاوية الأسمرية التي أصبحت قبلة الزوار، خصوصًا وأنها «من أقدم المؤسسات التعليمية في إقليم طرابلس التي حافظت على وجودها واستمرارها»[2]، وهي تقوم بإشاعة ثقافة دينية، وغرس التقاليد والعادات والطقوس الصوفية.

---

(1) الأوضاع السياسية في شمال أفريقيا وأثرها في نشوء الطرق والزوايا الصوفية، مصدر سابق، ص55.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.





مناهج الدعوة إلى الله عند الشيخ عبدالسلام الأسمر من خلال رسائله إلى مريديه

أ. مروة مخزوم يحيى

الجامعة الأسمرية - ليبيا

ملخص:

تهدف هذه المقالة إلى معرفة مناهج الدعوة إلى الله عند الإمام عبد السلام الأسمر من خلال رسائله إلى مريديه، وبما أنه داعية ومصلحا فقد نجح في نشر الدعوة الإسلامية الوسطية اتباعا لمنهج النبي ﷺ والسلف من علماء التصوف؛ فوظف علم التصوف في دعوته مستخدما مناهج الدعوة إلى الله تعالى، خصوصا منها منهج قائم على الموعظة الحسنة فخاطب مريديه بالرفق، واللين، والنصح، والإرشاد متوددا لهم بمدحهم وذكر محاسنهم، ومرغبهم في فضائل الأعمال؛ ومحذرهم من الرذائل جامعا بين الترغيب والترهيب، واستخدم المنهج الحسي التجريبي الذي يعتمد على شد انتباه حواس المدعو بأساليب مختلفة كدعوتهم إلى التدبر والتأمل في ملكوت الله واستخدم أيضا المنهج العقلي فأيد كلامه بالحجج والأدلة العقلية، وأسلوب ضرب الأمثال، والأقيسة العقلية؛ هذا التنوع في الخطاب الدعوي كان له دور كبير في نجاح دعوة الإمام وانتشارها وبقاءها مع طول الأزمنة، وقبل كل ذلك فقد كان الإمام مثالا عمليا حيا للقدوة الحسنة كونه شيخا مربيا جامعا لكل شروط التربية الصوفية الحقة.

كلمات افتتاحية:

مناهج، الترغيب والترهيب، الوسطية، الإمام الأسمر.

مقدمة:

إن الإمام الأسمر من الدعاة الذين تميز خطابهم الدعوي بالتنوع في استعماله لمناهج الدعوة بما يتناسب مع حال المدعو وموضوع الدعوة؛ فلم يقتصر على منهج واحد كحال بعض الدعاة؛ الذين اقتصر خطابهم على المنهج العاطفي؛ فمنهم من اقتصر على منهج الترهيب فقط مما أدى إلى انتشار الإرهاب؛ ومنهم من اقتصر على استخدام المنهج العقلي فانتشر الإلحاد، وحصر الدعوة في استخدام منهج دعوي واحد كان سببًا في ضياع الوسطية بين الإفراط والتفريط؛ من هنا جاء سبب اختياري لموضوع مناهج الدعوة عند الإمام الأسمر؛ لإبراز إرثه الدعوي، وبيان شموليه دعوته للعديد من الأساليب والوسائل، ومستويات تأثيرها دعوته في المجتمع، فقد كان خطابه موجها للعامة والخاصة على حد سواء.

وحديثي عن الدعوة الأسمرية متعددة المناهج هو مساهمة في تعزيز الهوية الوسطية الليبية، وكذلك لفت أنظار المؤسسات المعنية بقضايا وأزمات الحاضر للمعالجة الأمثل للقضاء على مظاهر الإرهاب والإلحاد، والتي تنتج عن اقتصار الدعاة على استعمال منهج واحد في الدعوة وقد اتبعت في مقالتي هذه لبحث هذه القضية المنهج الاستقرائي الذي اقتضه طبيعة الموضوع، وذلك بتتبع أقوال الإمام الأسمر فيما يتعلق بالدعوة، وكذلك المنهج الوصفي التحليلي، بتحليل واستنباط تلك الأقوال، وتصنيفها كل تحت المنهج المناسب لها.

المنهج العاطفي في دعوة الشيخ عبد السلام الأسمر

مفهوم المنهج العاطفي وأساليبه

أولا: تعريف المنهج العاطفي

عرف علماء الدعوة المنهج العاطفي بعدة تعريفات؛ منها (هو مجموعة من الأساليب؛ التي ترتكز على القلب وتحرك الوجدان)[1]، وأنه (مجموعة النظم والخطط الدعوية التي تخاطب القلب وتحرك الوجدان بغية الاستجابة للدعوة)[2].

أختار منها التعريف الأول وهو ما ذهب إليه الشيخ محمد البيانوني، لأن مجموعة النظم تحتاج إلى تخطيط ومنهجية مسبقة، وأرى أن ذلك لا يشترط في استعمال المنهجي العاطفي؛ فإن استعمال الأسلوب العاطفي في الخطاب للداعية ولو لم يكن بمنهجية وخطة يعد استعمالا للمنهج العاطفي.

وقد استعمل الإمام المنهج العاطفي كثيرا وذلك بأساليبه المختلفة في رسائله مع مريديه، وقبل أن نذكر تلك المواضع لابد من الإشارة إلى أساليب المنهج العاطفي ليسهل علينا تصنيف المنهج العاطفي للإمام من خلال رسائله لمريديه.

ثانيا: أساليب المنهج العاطفي في الدعوة إلى الله

1 - أسلوب الموعظة الحسنة: وهي مجموعة من الأقوال والأفعال اللينة واللطيفة المباشرة، وغير المباشرة؛ والتي يخاطب بها القلب وتؤثر على المدعوين[3].

ويعد هذا الأسلوب أسلوبا قرآنيا أمر الله تعالى رسوله ﷺ استعماله في الدعوة إلى الله؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النَّحل:125]، ويندرج تحته عدة أنواع من الخطاب الدعوى؛ أبرزها: القول اللين، وهو التودد والتلطف في الكلام.

---

(1) المدخل إلى علم الدعوة، محمد البيانوني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 3، 1995م، ص204.
(2) المنهج العاطفي في الدعوة إلى الله- أساليبه، استعمالاته، إبراهيم أحمد، مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية، المجلد: الرابع، العدد: الثامنة، 2020م. ص99.
(3) ينظر: المصدر نفسه، نفس الصفحة.

2 – القصة: ويعد الأسلوب القصصي من أقوى أساليب الدعوة تأثيرا؛ لأن النفس البشرية مجبولة على محبة القصص والميل إليها والانتباه إلى الأمثال وربطها بالواقع، وحفظها أكثر من غيرها من الأساليب، وبمجرد سردها تقبل الأسماع عليها وتتأثر بمضمونها تأثيرا عظيما فالنفوس مجبولة على متابعة القصة وسماعها[1]؛ وقد أمر الله تعالى نبيه بها بقوله: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف:176].

3 – الإشارة اللطيفة والمفهومة: كابتسامة الداعية في وجه المدعو عند الحديث، أو حركات يده؛ التي تساعد على التوضيح والفهم.

4 – **التذكير بنعم الله–تعالى–**: ويعد نوعا من أنواع الموعظة الحسنة وقد أمرنا الله تعالى به في عدة آيات؛ منها قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البَقَرَة:47].

5 – **الترغيب والترهيب**: الترغيب هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه، أما الترهيب فهو كل ما يحذر ويخيف المدعو من عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات[2].

2 – **أسلوب المدح والذم**: وهو استعمال الألفاظ التي تدل على المدح مما يحرك وجدان المدعو، أو ذم شيء ما ليكرهه.

3 – **أسلوب الوعد بالنصر والتمكين**: منه قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [مُحمد:7][3].

4 – **أسلوب قضاء الحاجات**: ويكون بمساعدة المدعوين والوقوف معهم في المحن فهو يرطب القلوب ويلين النفوس[4].

نماذج لاستعمال الإمام الأسمر للمنهج العاطفي في الدعوة إلى الله مع مريديه

في رسائل عدة نصح الإمام الأسمر مريديه استخدام المنهج العاطفي لما فيه من تأثير على القلوب والنفوس؛ من ذلك قوله: (وعليك: بسعة الصدر وأوامر البشر وطلاقة

(1) ينظر: البصيرة في الدعوة إلى الله عزيز العنزي، دار الإمام مالك– أبوظبي، ط:1، ص138وص139.
(2) أصول الدعوة، عبدالكريم زيدان، ط: 3، 1396ه، ص41.
(3) المنهج العاطفي في الدعوة إلى الله– أساليبه، استعمالاته، مصدر سابق، ص102إلى ص108.
(4) المدخل إلى علم الدعوة، مصدر سابق، ص204.

الوجه وطيب الكلام وخفض الجناح ولين الجانب مع إخوانك المؤمنين، وأحسن التودد إليهم التألف لهم، ودار من يحتاج المدارة منهم فيما تقدر عليه على نية إصلاحه واستقامة دينه واشكر لمحاسنهم، واثن عليهم بالخير من غير إفراط، وتجاوز عن مسيئهم، وانصح من يحتاج إلى النصح منهم بلطف وشفقة في خلوة، وكن كثير الاحتمال دائر العفو والصفح عن عثرات الإخوان، والحذر من الجفاء والغلظة والفضاضة فإنها أخلاق الجبابرة، ولا تعاتب أحدا منهم على تقصير في حقك أبدا)[1].

في هذه النص وضع الإمام الأسمر أسسا مهمة يقوم عليها المنهج العاطفي لابد لكل داعية اتباعها وبناء منهجه الدعوي عليها؛ فجمع الأسس التي يشتمل عليها المنهج العاطفي تتمثل في النصح وسعة الصدر ولين الجانب مع المخاطب، وذكر محاسنه والثناء عليه وقد نبه على ضرورة التوازن في الثناء؛ لأن المبالغة فيه قد تورث العجب، وحذر من الجفاء والغلظة في النصح تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عِمران:159]؛ ثم شدد على استخدام المنهج العاطفي بالنسبة للمبتدئ وفي ذلك دليل على حكمته في الدعوة إلى الله؛ يقول: (فترفق بالمبتدئ والضعيف الرغبة أكثر من غيره، وفي الرفق الخير كله فعليك به) وأيضا أشار إلى ذلك في رسالة أخرى بقوله: (وإذا أمرت أحدا بمعروف أو نهيته عن منكر فيكون ذلك برفق ولطف وشفقة)[2].

1 - **استخدام الترغيب**: كثر استعمال أسلوب الترغيب في فضائل الأعمال عند الإمام الأسمر بتذكيره جزاء الله تعالى عليها؛ من قوله: (وأوصيك بالمحافظة على صلاة الوتر فإن الله يحب من يصليها، وعلى صلاة الضحى ففيها بركة كثيرة، وهي جالبة لسعة الرزق)[3]، وذكر في موضع آخر: (والله الله في حسن الخلق فإنه أثقل شيء يوضع في الميزان، وبه يدرك الإنسان درجة الصائم القائم كما ورد)[4]، أشار بذلك لقوله ﷺ: (ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق)[5].

2 - **استخدام الترهيب**: استخدم الإمام الأسمر الترهيب في مواطن عدة؛ منها عندما أراد أن يحذر من ترك الذكر والابتعاد عنه؛ بقوله: (وعليك بدوام الذكر، وإياك والغفلة عن

(1) رسائل الشيخ عبدالسلام الأسمر إلى مريديه، مصطفى بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص127.
(2) نفس المصدر، ص137.
(3) نفس المصدر، ص135.
(4) نفس المصدر، ص 137.
(5) أخرجه أبوداود، (ك: الأدب، ب: في حسن الخلق، 4/ 247، 4799).

ذكر مولاك فإن الغافل عن ذكر ربه ميت)[1]؛ وذلك مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ١٢٤﴾ [طه:124].

3 – **أسلوب قضاء الحاجات**: حث الإمام الأسمر مريديه على قضاء حاجات الناس ومساعدتهم في عدة مواضع؛ لما فيه من الألفة والرحمة بين العباد، من ذلك؛ قوله: (وأكثر من الصدقة، وبذل الفضل، واصطناع المعروف استطاعتك فإن ذلك يوسع الرزق، ويطيب الذكر، ويحبب إلى الناس، وفيه الإشراف العظيم، والجزاء الكريم في دار النعيم، والسخاء من أخلاق أهل الله)[2]، جمع في هذا النص بين أسلوب قضاء الحاجات وأسلوب الترغيب ليندفع المدعو لمساعدة الناس بحب وإخلاص.

4 – **التذكير بنعم الله تعالى**: يقول الإمام الأسمر في إحدى الرسائل مذكرا أحد مريده بأن لا ينسى نعم الله عليه، ويبلغ ذلك للناس: (وعليك: بذكر ما أسبغ عليك من نعمه الظاهرة والباطنة الدينية والدنيوية، وبالغ في القيام بشكرها لسانا وقلبا؛ فشكر القلب بأن كل نعمة عليه من الله، وفرحته بالنعمة من حيث إنها وسيلة إلى القرب من الله، وشكر اللسان كثرة الثناء على المنعم، وشكر بقية الجوارح والأركان صرف جميع النعم في مرضاته جل وعلا والاستعانة بها على طاعته)[3].

5 – **الأسلوب القصصي**: كاستخدامه أسلوب القصة عند ذكره لفضائل سورة البقرة[4].

المنهج الحسي في دعوة الشيخ عبد السلام الأسمر

مفهوم المنهج الحسي وأساليبه

أولا: تعريف المنهج الحسي

عرف علماء الدعوة المنهج الحسي التجريبي بعدة تعريفات؛ منها:

(هو النظام الدعوي ومجموع أساليبه التي ترتكز على الحس وتعتمد على المشاهدات والتجارب)[5].

---

(1) رسائل الشيخ عبدالسلام الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص 132.
(2) نفس المصدر، ص135.
(3) نفس المصدر، ص146.
(4) نفس المصدر، ص337.
(5) المدخل إلى علم الدعوة، مصدر سابق، ص214.

لهذا المنهج عدة أساليب يمكن من خلالها مخاطبة المدعو والتأثير فيه، وهومن المناهج التي تؤثر في نفس المدعو لأنها تعتمد على التجربة والحس؛ ويمكن معاينتها بإحدى الحواس.

ثانيا: أساليب المنهج الحسي

1 - استخدام الأسلوب الذي يلفت انتباه السامع للتركيز على المحسوسات؛ التي يمكن إدراكها بالحواس كما خاطب الله تعالى به عباده في آيات كثير منها قوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ [الغَاشِية:17].

2 - القدوة العملية في تعليم الأخلاق والسلوك؛ فقد جعل الله تعالى رسوله ﷺ قدوة؛ بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزَاب:21].

3 - تغيير المنكر باليد على وجه يشاهد المدعو إزالة المنكر؛ لقوله ﷺ: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده)[1]؛ وقد فعل ذلك ﷺ عندما حطم الأصنام في مكة.

4 - تأييد الرسل والأنبياء بالمعجزات الحسية والخوارق؛ كما حدث مع كثير من الأنبياء والرسل عليهم السلام.

وغيرها من الأساليب الحديثة التي يتم إدراكها بالحواس؛ كالتمثيل، أو الرسائل المرئية والمسموعة عبر وسائل التواصل الاجتماعي؛ وهي تعد من مقتضيات تطور العصر.

نماذج لاستعمال الشيخ للمنهج الحسي في الدعوة إلى الله مع مريديه

استخدم الإمام الأسمر هذا المنهج في رسائله إلى مريديه؛ وذلك سعيا منه لاستثارة حواسهم والتأثير فيهم بكل الوسائل والأساليب؛ وفي هذا المطلب نماذج تطبيقية للشيخ لأساليب دعوية تندرج تحت المنهج الحسي التجريبي:

1 - **استخدام الأسلوب الذي يلفت انتباه السامع للتركيز على المحسوسات**؛ في نصوص عدة دعا الإمام الأسمر مريديه إلى التأمل والتدبر: (فإني أوصيكم بتقوى الله، واتباع سنة رسول ﷺ.. وبالنظر والاستدلال وذلك أول الواجبات)[2]، كما دعا إلى

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، (ك: الإيمان، ب: كون النهي عن المنكر من الإيمان...، 1/ 69، الحديث: 49).

(2) رسائل الشيخ عبدالسلام الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص214.

التأمل والتدبر في آيات القرآن الكريم مطلقا بما فيه من الآيات التي تشمل النظر والتأمل في المحسوسات لما فيه من القرب لله تعالى وزيادة الإيمان وتثبيته في القلب؛ ويكون ذلك باستعمال الحواس والتفكر؛ وهو يرى أن القراءة من المصحف عند التلاوة أفضل من الحفظ وفي هذا لفت منه لاستخدام العينين للتركيز والتدبر؛ يقول: (والذي نعرفه أن القراءة من المصحف أفضل من القراءة من حفظه؛ لأحاديث وردت ذكر الأحاديث... ولأن القارئ نظرا استعمل جوارحه: عينه، وفمه، ويديه، وحجره، وكان سيدي فتح الله أبو راس يقول: القراءة من الرأس تنفي الخشوع)[1]، ويحذر من التدبر في آيات الله تعالى دون علم؛ يقول: (وعليكم: بتلاوة القرآن في كل حين وأوان إن كنتم تحفظونه فإن لم تكونوا تحفظونه فعليكم بالإنصات لقارئه مع التدبر فإن صعب عليكم أي فهم معانيه فلا تتدبروه بالجهل)[2].

2 –**تغيير المنكر باليد**: هذه المسألة اختلف فيها الفقهاء فمنهم من يرى أن تغيير المنكر هو حق لكل مسلم ولم يشترط في ذلك أخذ إذن من الدولة؛ ومنهم الغزالي في كتابه الإحياء[3]؛ أما شيخنا الإمام الأسمر فدعا إلى تغيير المنكر ولكنه اشترط في ذلك العلم وإذن الدولة؛ لعل ذلك سدا للذرائع لكي لا تنتشر الفوضى؛ وقد ذكر ذلك في قوله: (فعلى العاقل أن يدع الناس، وما صنعوا في غفلاتهم إلا أن يكون أمارا بالمعروف ناهيا عن المنكر قادرا على التنكير والتغيير بإذن الأمير، مع إقامة رسم الشرع؛ لأن تغيير المناكر لا يكون إلا لأمير أو مأمور)[4].

3 – **القدوة الحسنة**: لا تكاد تخلو رسالة من رسائل الإمام الأسمر من نصح مريديه للتحلي بصفات المؤمن الصالح؛ والتي تتمثل في اجتنابه لصفات السوء واتباعه مكارم الأخلاق؛ كقوله: (ثم نصيحتي لك أن تكون بمولاك مكتفيا وواثقا، ومتعلقا، وبمكارم الأخلاق متخلقا، وللدنيا مطلقا، ولنفسك من أشراك الحظوظ مطلقا، ومن رقها معتقا، ولأبواب الشهوات مغلقا)[5].

---

(1) نفس المصدر، ص244.
(2) نفس المصدر، ص326و ص327.
(3) ينظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، تحقيق: بدوي طبانة، دار إحياء الكتب العربية– القاهرة، د ط، د ت، ج2، ص308.
(4) رسائل الشيخ عبدالسلام الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص215وص216.
(5) نفس المصدر، ص130.

وقد أمرهم باتباع السلف لكونهم قدوة حسنة ليكونوا هم قدوة حسنة لغيرهم؛ يقول: (وأيضا ففي ذكر السلف الصالح، وإثبات سيرهم أنس تام لسالك طريق الآخرة فإنهم القدوة، وبهم الاقتداء)[1]، ثم بين الفائدة من اتباع السلف بوصفهم قدوة حسنة؛ فقال: (وإنما يعرف الإنسان ما هو عليه من القصور والتقصير عند العلم بما كان عليه السلف من الجد والتشمير؛ أما من ينظر إلى أهل الزمان، وماهم عليه من التسويف والغفلة فلا يرجع إلا بالإعجاب بنفسه، أو سوء الظن بهم، وكلا الأمرين شر؛ فالعبد من اقتدى بسلفه، واحتج على نفسه فطابت نفسه أن تسير بسيرهم المحمودة على جادتهم المستقيمة)[2].

4 - **تأييد الأولياء بالكرامات الحسية**؛ وذلك عند ذكر الإمام الأسمر مواقف لهم تظهر فيها كراماتهم وإشاراتهم؛ كذكره إحدى كرامات الإمام الجنيد[3].

المنهج العقلي في دعوة الشيخ عبد السلام الأسمر

مفهوم المنهج العقلي وأساليبه

أولا: تعريف المنهج العقلي

من تعريفات هذا المنهج، أنه (النظام الدعوي الذي يرتكز على العقل، ويدعو إلى التفكر والتدبر والاعتبار).

وأنه (مجموعة الأساليب الدعوية؛ التي ترتكز على العقل، وتدعو إلى التفكر، والتدبر والاعتبار)[4].

ثانيا: أساليب المنهج العقلي

تتمثل أساليبه فيما يلي:

1 - المحاكمات العقلية، والأقيسة بجميع أشكالها: قياس الأولى، والقياس المساوي، وقياس الخلف (العكس)، والقياس الضمني.

---

(1) نفس المصدر، ص281.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(3) ينظر: نفس المصدر، ص296.

(4) المدخل إلى علم الدعوة، مصدر سابق، ص214.

2 – الجدل والمناظرة والحوار.

3 – ضرب الأمثال: بأنواعها صريحة كانت أو كامنة؛ وقد استخدمه الله تعالى في آيات عدة؛ كقوله–تعالى–: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا﴾ [البَقَرَة:17].

4 – القصص التي يستخدم في التدبر والتفكر؛ للاعتبار؛ قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يُوسُف:111].

نماذج لاستعمال الشيخ للمنهج العقلي في الدعوة إلى الله مع مريديه

استخدم الأنبياء والرسل –عليهم السلام– المنهج العقلي في الدعوة إلى الله –تعالى–، وقد استطاعوا من خلاله نشر دعوتهم عبر الأزمان؛ لما له من تأثير قوي في الإقناع، كما له دور كبير في سرعة الفهم والإدراك؛ لأنه يقوم على تفعيل العقل؛ الذي هو مناط التفكير والفهم؛ لذا استخدم الشيخ أساليبه في رسائله؛ منها ما يلي:

1 – **استخدام الدليل العقلي**: اعتمد الإمام الأسمر الدليل العقلي لإقناع مريده في مسائل عدة فقد بين مفهوم الحكم في العقيدة كما قسمه الأئمة إلى حكم شرعي وعادي وعقلي؛ بقوله: (فاعلم أني أوصيك بتصحيح إيمانك على ما قرره الأشعري والقدوة إمامنا السنوسي في عقائده: اعلم يرحمك الله أن الحكم: «إثبات أمر أو نفيه، وينقسم إلى ثلاثة أقسام: شرعي وعادي وعقلي... وأما الحكم العقلي فهو: إثبات فهو: إثبات أمر أو نفيه من غير توقف على تكرار، ولا وضع واضع»[1].

2 – **ضرب الأمثال**: استخدم الإمام الأسمر أسلوب ضرب الأمثال لعدة أهداف منها: لغرض التوضيح: (وإني أوصيك بحفظ هذه الأصول الأربعة، وإحكامها، وملازمتها، وتصحيحها؛ فإن عليها فإن عليها مدار الأمر كله، وهي البداية التي إذا صحت أتمرت صحت النهاية؛ الأول منها: حسن المحافظة على الفرائض الباطنة؛ كالإخلاص)[2]؛ فقد وضح الفرائض الباطنة بمثال بقوله: «كالإخلاص».

ومنها لغرض العظة والعبرة: (لعلك تفهم من هذا الكلام الذي هو منزلة الزاهدين، والمنتسبين في رتبة واحدة وليس الأمر كذلك، ولن يجعل الله من تفرغ لعبادته، وشغل أوقاته به كالداخل في الأسباب، ولو كان فيها متقنا... مثل المتسبب والمتجرد كعبدين

(1) رسائل الشيخ عبدالسلام الأسمر إلى مريده، مصدر سابق، ص142.
(2) نفس المصدر، ص144.

للملك؛ قال لأحدهما اعمل وكل من كسب يديك؛ وقال للآخر: الزم أنت حضرتي وخدمتي، وأقوم لك بما تريد. فهذا قدرة عند السيد أجل وصنعه به ذلك على العناية أدل، ثم إنه قلما تسلم من المخالفات تصفو لك الطاعات مع الدخول في الأسباب لاستلزامها لمعاشرة الأضداد، ومخالفة أهل الغفلة والعناد)[1].

3 - **المحاكمات العقلية والأقيسة**: استخدم الإمام الأسمر القياس لبيان الأحكام الشرعية؛ قال: (وإياكم واصطياد الورل والأبية، ولو أباحهما الشارع فإنهما من الأصدقاء لقتلهما الثعابين المؤذية، ولا ينبغي أكل السمومات كالحية المذكية، ولو أمن سمها؛ لأن ذكاتها صعبة؛ وسموماتها كثيرة في كل عظم ومفصل؛ منها، وقد قالوا ذكاتها صعبة؛ لأن المذكي لها إذا لم يقطع في موضع ذكاتها شيء من رأسها وذنبها في دفعة لم ينج من سمومتها؛ لأن إذا بقي شيء منها ولو جلدة لم تؤكل؛ لأن السم يسري فيما بقى منها، ولو جلدة، وربما يكره أكلها غير ضرورة كما لابن حبيب وسموماتها كثيرة في كل عظم ومفصل منها؛ وقد قالوا: من داوم على أكل الحيات لا يموت إلا بالسمومات، ولا ينبغي أكل الجرذان البري والبحري والوزغ، والزلاليم لما فيهم من السمومات، لو أباح الله أكلها فالترك أولى، وقد كان رجل من أصحابنا يكثر من أكل الجران في الطبخ بالزيت فظهر عليه أثر السم من ذلك ومات)[2].

فلم يبح أكل الزلاليم والوزغ قياسا على حكم أكل الثعابين لاشتراكها في العلة وهي السمومات.

وكذلك استخدم القياس في قوله: (لا يأكل المكروه، ولا المختلف فيه إلا عند الاضطرار؛ كالأسد، والذئب، والفهد، والضبع، والهر مطلقا، والنمر مطلقا. لخبر «كل ذي ناب من السباع حرام»[3].

فكره أكل الأسد، والذئب، والفهد، والضبع؛ لاشتراكها في علة واحد: وهي أنها من السباع ذات الناب.

(1) نفس المصدر، ص369.
(2) نفس المصدر، ص179.
(3) نفس المصدر، ص180.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات؛ أما بعد:

فبعد البحث والدراسة توصلت إلى ما يلي:

1 - حرص الإمام الأسمر على نشر الدعوة الإسلامية والإصلاح.

2 - الرسائل من ضمن الوسائل الدعوية للإمام؛ حيث وجه منها الكثير إلى مريديه.

3 - تنوع الخطاب الدعوي للإمام في رسائله إلى مريديه.

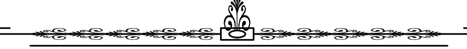
4 - استخدم الإمام المنهج العاطفي في الدعوة إلى الله؛ ويتمثل ذلك في استخدامه لأساليبه؛ كالموعظة الحسنة، والترغيب والترهيب.

5 - استخدم الإمام المنهج الحسي التجريبي في الدعوة إلى الله، ويتمثل ذلك في استخدامه لأساليبه؛ كتغيير المنكر باليد والقدوة الحسنة.

6 - استخدم الإمام المنهج العقلي في الدعوة إلى الله؛ ويتمثل ذلك في استخدامه لأساليبه؛ كضرب الأمثال، والقياس.

7 - غلب على دعوة الإمام الرفق واللين؛ مما أدى إلى نجاح دعوته وانتشاره.

8 - تميزت دعوة الإمام بالوسطية فهو يعد «أنموذجا» للداعية الجامع لكل شروط الداعية، ويمكن البناء على نتائج دعوته.







معالم التجديد الصوفي في التجربة الروحية للإمام عبد السلام الأسمر

د. إسماعيل نقاز

باحث أكاديمي - الجزائر

ملخص:

يعد الإمام عبد السلام الأسمر الفقيه الصوفي الزاهد أحد رواد الإصلاح الديني في القرن العاشر الهجري بالقطر الليبي الشقيق، ويعتبر مشروعه الفكري والإصلاحي حلقة تواصلية ممتدة تربط الحاضر بماضيه، وتنشد المستقبل، وتتطلع إلى آفاقه وتحدياته. شكلت الحقبة الزمنية المركبة التي عاشها أهم إلهام فكري وإصلاحي اتخذه مسارًا نحو مقاربة مزدوجة تلامس الإصلاح الحقيقي للتراث الإسلامي الذي ينتمي إليه ويشكل هويته ومصدر جينالوجيا تفكيره، وفي الوقت نفسه مقاربة أخرى تثاقفية تقف على مسافة قريبة جدًّا من التحديات الحضارية التي عاصرها في زمانه.

لا شك أن الإمام الأسمر ورث كغيره من العلماء الجادين ميراثًا صوفيًّا ضخمًا، لكن هذا الميراث أصبح في عصره وقبله بفترة تشوبه مظاهر أبعدته عن ينابيعه الأصلية التي نشأ فيها، لذلك أحس بضرورة إعادة بعث المعرفة الصوفية وتجاربها وفق النسق الجنيدي الأصيل، مناهضًا كثيرًا من المظاهر السلبية التي بات يعيشها التصوف في عصره.

إن المتبصر في المشروع الفكري والإصلاحي لدى الإمام الأسمر -بتعدد فضاءاته وموضوعاته- يجد أنه يرتكز على مدخل محوري أساس، ألا وهو: فلسفة التشريع، ومقاصده مفعمة بتجربة روحية ذوقية، حيث ترجع كل اجتهادات الإمام في مختلف القضايا الفقهية والعقدية والاجتماعية، إلى ازدواجية العلم والعمل، أي ضرورة

استصحاب العلم الأصيل السني الراشد الذي يتحرر من ربقة التقليد، والركون نحو السكون، والعمل الذي لا يتحقق إلا عبر تجربة روحية صوفية يرتقي فيها المريد والفقيه والعالم والمجاهد وحتى العوام.

تظهر معالم التجديد الصوفي عند الإمام الأسمر من خلال قراءة جديدة لأبجديات التصوف، وتبني الخط الجنيدي بعيدًا عن لوثات ما يُعرف في الأوساط الأكاديمية بالتصوف الفلسفي الذي أصبح يعيش معركته خارج التجربة العملية بل في مصطلحات نظرية فلسفية. وبعيدًا أيضًا عما تعيشه بعض الطرق الصوفية التي غلبت عليها بعض المظاهر السلبية من قبيل التقديس والتسيب والاختلاط بين الجنسين والدعة والفتور والاختلاط بالسلطان، والتي تعتبر كلها مظاهر تنافي طريق الترقي. كما ينادي الإمام الأسمر بنفي التقليد العقدي، وذلك عندما يقارب مفردات العقيدة مقاربة ذوقية صوفية تنبع من وحي التجربة والمشاهدة العملية، لا مجرد نظريات جامدة مجردة، كما يستلهم من المنحى الفقهي والمقاصدي كل معاني توظيف الدرس الصوفي بغية تشغيله وبعثه في النوازل الصوفية والمظاهر الحاصلة.

أمام هذه الرؤية التي دبجنا بها المساطر العامة التي يتحرك في إطارها سؤال التجديد الصوفي عند الإمام الأسمر؛ يمكننا أن نحدد الإشكال الدقيق الذي تقوم عليه دراستنا البحثية كالتالي:

ما هي المساطر المنهجية التي اعتمدها الإمام الأسمر في تصور التجديد الصوفي الذي انتخبه فلسفة غائية للترقي في المعرفة الصوفية؟

يتفرع عن الإشكال الجوهري تساؤلات ثانوية تناقش ثنايا الموضوع، وتقف على ضفاف الإشكال الجوهري يتحدد بها التصور الكامل للدراسة:

ما هو الإطار المفهومي الذي يقوم عليه التجديد الصوفي؟ ثم ما هي المصادر المعرفية والمبادئ العامة التي يقوم عليها هذا التجديد؟ ما هي المظاهر السلبية التي عاش في عصرها الإمام الأسمر؟

تستدعي المقالة مجموعة من المساطر المنهجية التي ننتخبها في معالجة الموضوع، وبحث إشكالاته المركبة، حيث نوظف المنهج الوصفي الكشفي في الدراسات المسحية لبيبلوغرافيا الإنتاج الفكري الصوفي وغيره للإمام الأسمر، فالرؤية الشاملة لمفهوم

التجديد الصوفي لديه موزعة في ثنايا كتاباته ودراساته المتنوعة. ويأتي توظيفنا للمنهج النقدي التحليلي استجابة لتفكيك مختلف الإشكالات المركبة المتعلقة بتحليل مختلف النصوص والإشكالات المتعلقة بالدرس الصوفي نظرية وتجربة.

تقف أهمية وأهداف هذه الدراسة لتكون استجابة لضرورة بعث المشاريع التجديدية الجادة في الحقل الإسلامي، واستيعاب إشكالياته وخلاصاته المعرفية الصوفية السلوكية والفقهية والعقدية، فالأمة الإسلامية تقف على تحدٍّ حضاري كبير، وحيث إنها الأمة الخاتمة التي فضلها الله بوحي الكلمة المطلقة الخالدة؛ فإنها تحمل عاتق المسؤولية الهدائية والاستخلافية والشهودية، ولن يكون لها نصيب في هذه الإضافة الحضارية والقرآنية إلا إذا استحقت لقب الاستخلاف وامتلكت مفاتيح الشهود.

الإطار المفهومي للتجديد الصوفي

تقوم أساسيات تجربة المعرفة الصوفية عند الإمام الأسمر على أساس معرفي بوصفه مركزًا تدور عليه أركان التصوف ووسائل الطريق، ويقصد به المعرفة بالله، لكن الوصول إلى هذا النوع من المعرفة لا بد أن يمر أولًا عبر معرفة النفس كضرورة منطقية تراتبية، إحداهما تؤدي إلى الأخرى ولا عكس، أي معرفة النفس جناح روحي يحلق به المريد إلى معرفة الله، يؤكد هذا الأساس المركزي بقوله: »واعلموا أن معرفة الله لا تكون إلا بعد معرفة النفس، فمن عرف نفسه عرف ربه«[1]، ثم هو يحدد مدلول معرفة النفس ومعرفة الحق، فيحدد مناطها بقوله:»فمن عرف نفسه بالعجز والعبودية، عرف ربه بالقدرة والربوبية، ومن عرف نفسه أنه محدث فان، عرف ربه أنه قديم باق، ومن عرف نفسه بالشهود والعيان، عرف ربه بالغيبة والحضور«[2]، أمام الوصول إلى تحقيق هذه المعرفة الحقة، يتوسل الأسمر منهجية إصلاحية تجديدية في مفردات التصوف بغية تحقيق الغرض، وتجاوز مختلف عقبات الطريق، وما علق بها من مظاهر سلبية مشينة. أي أن مناقشة التجديد الصوفي في مدونة الإمام الأسمر تعني مناقشة التجربة الروحية التي خاضها في جوار تعاليمه وكتاباته، وتظهر أبجديات التجديد من خلال الحس النقدي

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، تحقيق مصطفى عمران رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م، ص190.
(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

والإصلاحي للمظاهر الروحية في عصره، ويمكن استخلاص مظاهر التجديد في ثلاثة أطر:

الإطار الأول: يتعلق بضرورة توثيق التجربة الروحية بمعين الوحي، بمعنى ضرورة التأكيد على معيارية الوحي من قرآن وسنة في أي سلوك روحي، وهذا تأكيد ممتد عبر القرون من طرف أعلام التصوف، حيث ركزوا جميعًا بأن يكون طريق الله موثق الصلة بالقرآن والسنة، وما كان خارجًا عن ذلك، فهو غريب عن أصول الطريق وفروعه، كما يقول إمام الطائفة أبو القاسم الجنيد: »الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ«، وقال: »علمنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يُقتدى به«[1]، وفي هذا الصدد يتوجه الإمام الأسمر إلى المظاهر السلبية التي تفشت في عصره مما يُتوهم بأنها ضمن مسار الطريق وأبجدياته، وهي في الحقيقة لا تُمِتُّ بأي صلة إلى مقاصد التصوف وتجربته الروحية في تقويم السلوك الإنساني، وصدق الصلة بالله تعالى ومعرفته حقًّا.

الإطار الثاني: يتعلق بضرورة الالتزام بمقومات التصوف الحقيقية التي تجمع بين الشريعة والحقيقة، أو العلم والمعرفة، أو الفقه والسلوك، كلها ثنائيات يؤكد عليها منهج الإمام الأسمر في التجديد الصوفي والإصلاح السلوكي، وعدم إهمالها تحت أي مسوغ تفرضه أعراف الكسل والقعود عن أخذ الكتاب بقوة، أو الفهم المشوه للنصوص، فالطريق مضنون به على غير أهله، وهو طريق غير ممهدة؛ لأنها تعتمد في أعمق مقوماتها طريق المجاهدة والعلم. فالبطالة في طريق التصوف مرفوضة وغير موصلة إلى المراد من المريد في تجربته الروحية، كما أن عدم احترام شروط الطريق والفقه في الدين والأخذ بأركانه مما يبعد المريد عن مقصوده في طريقه إلى الله.

الإطار الثالث: ويتعلق بالفعل الاجتماعي الذي كانت تشع به الزاوية الأسمرية، حيث إن دور الإمام الإصلاحي لم يقف عند حد التعليم والتسليك للمريدين داخل أسوار الزاوية، بل كان له حضور على المستوى المجتمعي، ومتابعة أمور الناس في معاشهم وديانتهم وتعميم طريق التصوف بين الأوساط، حيث لم يبقَ التصوف منعزلًا داخل أسوار الزاوية، بل خرج به إلى المجتمع ناشدًا في ذلك صلاحه، ومعينًا لأفراده بما يشع المحبة والتكافل بينهم، لذلك نجد أن الذكر الجماعي والجهر به، والأنظام القصائدية العامية

(1) الإمام الجنيد سيد الطائفتين: مشايخه، أقرانه، تلامذته، أقواله، كتبه، رسائله، أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2006م، ص150 و151.

وضرب الدف في المحافل والمناسبات كان أحد العوامل التي ساهمت بشكل كبير في نشر دعوته وتعاليمه، واصطفاف العامة إليه مما ألب عليه وشاة الفقهاء والقضاة إلى الولاة الإسبانيين المحتلين[1]، ومكانته الاجتماعية جعلته في محل أنظار الولاة بالتضييق عليه، والشعور بالخطر أمام توعيته الاجتماعية واجتلاب المريدين والعوام نحوه.

وتظهر ملامح التجديد والإصلاح في هذه المحاور من خلال التأثير الذي تركه شيخه في الشريعة والحقيقة عبد الواحد الدوكالي، والذي يبدو عليه ملامح تجديدية ورؤية مختلفة عن أبجديات التصوف التي أصبحت سائدة، والتي آل إليها الدرس الصوفي، وشكلت تأثيرًا واضحًا على تلميذه المبرز الإمام الأسمر، ونظرًا لتأكيد المنهاجية الدوكالية على اصطحاب الظاهر مع الباطن، والتفقه في الشريعة تمهيدًا لخوض باطن الشريعة وحقيقتها، فإن الإمام الأسمر حاز قصب السبق في فنون الشريعة، فقد عرض مشروعه على ثمانين عالمًا من علماء البلاد منهم الشيخ سيدي عبد الله العبادي، حيث أذنوا له جميعًا بالتصدر للدعوة والريادة العلمية والذوقية[2].

إلا أن منهجه التجديدي وأسلوبه الإصلاحي بعد ذلك لم يحمل قبولًا لدى بعض الفقهاء، وأيضًا في الأوساط السياسية، حيث كان يشكل لهم موقفًا معارضًا، مما عرَّضه كثيرًا للوشاية والمناظرة، وحتى التهجير أو الإخراج من كل منطقة يصل إليها[3]، ولعل تأثير دعوته وإصلاحاته ومعارضته السياسية كانت تثير حفيظة الولاة الظلمة المحتلين، مما جعل والي طرابلس في ظل الاحتلال الإسباني يجهز جيشًا لمحاصرة الإمام في منفاه في بني وليد، وفعلًا تم ذلك مع فشل محاصرته، حيث ما إن وصل إليه الوالي حتى خيره في الانتقال خارج بني وليد، فاختار الإمام موطنه الأصلي بزليتن، فجعله محط رحاله وزاويته ومركزه الدعوي[4]، وهذا دليل آخر على أن الأمر يتعدى مجرد الخلاف مع القضاة أو الفقهاء بالوشاية والحسد... إلخ، ليتحدد في ظهور معارضة سياسية كان يبديها الإمام تجاه السلطة الفاسدة.

---

(1) سري للغاية، أحمد القطعاني، دار بشرى وكلثوم، طرابلس، 2018م، ص6.
(2) الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1964م، ص15.
(3) فقه الصلاح؛ قراءات جديدة في سيرة الإمام الأسمر، أسامة بن هامل، منشورات مركز الشيخ العلامة أحمد القطعاني للثقافة والدراسات الصوفية، طرابلس، ط:2، 2023م، ص21.
(4) نفس المصدر، ص 25.

كما تظهر معارضة إصلاحاته وتأثيره على الساحة الاجتماعية التي تتعدى جانب التعليم والتسليك في الزاوية للمريدين، مما جعل قاضي المدينة أبو محمد بن يحيى الطرابلسي يكتب في رسالته شكاية للوالي الإسباني بشأن الإمام قوله: «ها هنا رجل من أهل زليتن يزعم أنه القطب ويؤم الناس، فأخرجه لئلا يشوش عليك»[1]. وهذا تصريح واضح يبين حقيقة الفعل الاجتماعي الذي صنعه الإمام الأسمر تجاه المجتمع فضلًا عن مريديه وتلامذته، يتجاوز مجرد الخلاف الفقهي أو السلوكي مع الفقهاء والقضاة.

لكن مع تغير الظروف السياسية ومجيء العثمانيين في ليبيا ومختلف الحواضر العربية، استقرت أموره ولقي قبولًا سياسيًّا، بل إن أول الولاة العثمانيين وهو مراد آغا زاره في زاويته، وأخذ عليه الطريقة العروسية، وأصبح أحد تلامذته ومريديه[2]، وقدم له الولاء الديني، وعاهد الشيخ وأخذ عليه العهد: «بعدم الإضرار بأحد من الناس، وأن يأكل من عمل يده»[3]، فكان هذا الوالي «يتعيش من صنعة خياطة الثياب وبيعها»[4]، فساعدت الظروف الإمام الأسمر في نشر خططه الإصلاحية بين مختلف الأوساط والحواضر داخل ليبيا وخارجها، ولعل رسائله إلى مريديه وأتباعه في عدة أقطار خارج المحل الليبي تدل على ذلك بشكل واضح[5].

ورغم فِعلِ الإمام الأسمر السياسي في الوعي ورفض الاحتلال، ثم احتكاك الولاة العثمانيين به في زاويته، إلا أنه ظل كما يؤكد الشيخ القطعاني وفيًّا لمبادئه الصوفية التي يصدح بها أمام مريديه في عدم الاحتكاك والاقتراب من الحكام، وتفادي مجالس السلاطين والأمراء، بل كان يتفادى استقبال الولاة في زاويته، وقد حدث هذا مع الوالي

(1) نفس المصدر، ص 36.

(2) تؤكد العديد من المصادر العربية والأجنبية أن مراد آغا زار الإمام الأسمر في زاويته بزليتن، وأخذ عليه عهد الطريقة العروسية، وصار من تلاميذه. وقد ترجم العلامة أحمد القطعاني مراد آغا في رجال الطريقة العروسية وذكر أحواله مع الإمام الأسمر. ينظر: موسوعة القطعاني: الإسلام والمسلمون في ليبيا من الفتح الإسلامي وحتى عام 2000م، أحمد القطعاني، دار الغريب، القاهرة، ط: 2011م، ج1، ص462.

(3) نفس المصدر، ج1، ص463.

(4) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(5) ينظر بتوسع عن أثر الإمام الأسمر في العالم الإسلامي: القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط 2، 1993م، ص180 وما بعدها.

العثماني مراد باشا، الذي أصر على مقابلته رفقة جنده وحاشيته، إلا أن الوالي بقي أسبوعًا كاملًا ينتظر موافقته، ولما ظهر له حرص الوالي وإصراره، أذن له بالدخول واستقبله[1].

ويؤكد هذه المعاني الإمام الأسمر في كتابه العظمة في التحدث بالنعمة: «ومما أنعم الله به علي؛ لم أمش إلى صاحب دنيا، ولا متكبر، ولم أمش إلى حاكم، وإلى قائد من القياد، ولا شيخ من شيوخ الرعية، ولا قاضٍ من القضاة، ولا أمير من الأمراء»[2].

المصادر العامة في بنية وتكوين التجديد الصوفي ومبادئه لدى الإمام الأسمر

يصرح الإمام عبد السلام الأسمر في كتاباته انتسابه إلى الطريقة العروسية الممتدة، حيث إنه استلهمها معرفة وعرفانًا وسندًا وعلمًا وتجربة من شيخه عبد الواحد الدوكالي، فقد كان منهج شيخه يعتمد فقه الظاهر والباطن معًا، أو الشريعة والحقيقة، ويظهر على منهج الأسمر الصوفي ذلك التأثير الدوكالي في تلقين الطريقة وشروطها ومقوماتها، إذ يؤكد على مقام شيخه الدوكالي، الذي انسلك في زمرة سلسلته المباركة بقوله: «وهو الذي اقتبسنا من نوره، وسلكنا على مناهج آثاره، وهو الذي أسرع بأسرارنا، حتى لقننا، وفتق ألسنتنا حتى نطقنا بكل حكمة، وغرس عرائس المعرفة في قلوبنا فأينعت ثمراتها وفاحت زهراتها»[3]. أما الطريقة العروسية فهي نسبة إلى مؤسسها الشيخ أحمد بن عروس، وقد سميت بالعروسية بما قاله الشيخ عبد الرحمن المكي: «وقد سميت بالعروسية لتعظيمها وتفضيلها»[4].

وعلى الرغم من أن الطريقة العروسية جشتية الأصول والانتساب، وهو ما يؤكد الشيخ القطعاني[5]، بل والإمام الأسمر نفسه إذ ترجم لشيوخ الطريقة الجشتيين في وصيته

(1) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص463.
(2) نفس المصدر، ج1، ص377.
(3) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص4.
(4) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص17.
(5) ناقش الشيخ القطعاني السند العروسي مناقشة تحقيق وبحث وتقصي في كتابه القطب الأنور، وأثبت وجود انقطاع في السند العروسي الشاذلي المتداول بين، تحديدًا بين ياقوت العرش المتوفى عام 732هـ على أصح الروايات وعام 707هـ على رواية القطب الشعراني في طبقاته، وبين فتح الله العجمي الذي ولد بعد عام 767هـ ما يجعل الفارق الزمني بين وفاة الأول وميلاد الثاني 35 عامًا =

الكبرى بعد الشيخ ابن عروس[1]، إلا أنه تبنى النظرية الشاذلية في السلوك كأحد أهم روافد وأسس التجديد الأسمري في الطريقة العروسية، ويظهر التأثير الشاذلي من خلال سلوكه وتعاليه بشكل واضح، إذ تركز الشاذلية أساسًا على المعاني الجمالية القائمة على أساس الحب الإلهي والمبالغة في الوداد مع الخلق، في مقابل الاقتصاد في العبادة المحضة دونما مجاهدات عميقة يلفها العنت والتشدد، فإشاعة الوداد وفق قواعد الأدب مع الخلق بغية الوصول إلى الحب الإلهي ضرورة في الانتساب الشاذلي، لأن الخلق عيال الله، والرفق بهم وإخلاء النفس في التعامل معهم هي موارد الوصول إلى الله.

تأكيدًا لهذه المعاني الشاذلية نجد الإمام الأسمر يوثق صلة المريد بالخلق من حيث الرفق بهم ومخالفة النفس في التعامل معهم:» إخواني، وعليكم بالعفو عمن ظلمكم، وتعدى عليكم فاعفوا، واصفحوا الصفح الجميل... وإياكم ونظرة الخزي، ونظرة البغض، ونظرة العداوة، وإياكم ونظرة النهر والغضب«[2]. ويلخص أساس

= ما لا يتحقق معه الاتصال المباشر. وبيَّن الشيخ القطعاني أن العجمي تربى وتسلك بطريق الإرادة على الشيخ صدر الدين الناكوري بسنده الجشتي المعروف، خصوصًا وأن العجمي صوفي خراساني دخل أفريقية (تونس) وبجلها بالزوايا كما يذكر السخاوي في الضوء اللامع، وكونه خراسانيًّا يزيد من قوة اتصاله بالطريقة الجشتية التي تأسست وازدهرت في الشرق الأقصى.

وإن كان الشيخ القطعاني يثبت للعروسية اتصالًا بالشاذلية من طريق الشيخ محمد المجاهدي وصولًا إلى الإمام الشاذلي. للتوسع أكثر حول قضية السند الأسمري العروسي، ينتظر: القطب الأنور، مصدر سابق، ص103 وما بعدها.

(1) ترجم الإمام الأسمر لشيوخ الطريقة الجشتية، بعد ترجمة للشيخ فتح الله العجمي، وهم الشيخ صدر الدين الناكوري والشيخ نصير الدين الأودهي والشيح فريد الدين الشكركنجي (ينظر الوصية الكبرى، ص87 وما بعدها)، ولم يذكر أحدًا من رجال الطريقة الشاذلية، لكن رسالته الأنوار السنية، جاءت لتحمل تأكيدًا على شاذلية الطريقة العروسية فقد حمل عنوانها هذه العبارة: (الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية المسماة بالطريقة العروسية الشاذلية) وفي متنها سند جشتي وسند شاذلي، كما يتوارث أهل الطريقة العروسية منظومة تسمى بالسلسلة الذهبية تشير إلى السند العروسي الجشتي، وسندًا آخر عروسيًّا شاذليًّا، وربما ساق الإمام الأسمر السند الشاذلي في إطار التأكيد على التجديد الأسمري الشاذلي للطريقة العروسية، بنقل منهجها من الجشتية إلى الشاذلية، مع تأكيده على أصلها الجشتي.

والجشتية هي من الطرق الصوفية التي تنتمي لمدرسة الصبر، المنسوبة إلى الإمامين الغزالي والجيلاتي، وتقوم على شدة العزم في الزهد والسلوك وتربية النفس بالرياضات القاسية، قبل أن يُدخل الإمام الشاذلي تجديدًا صوفيًّا عُرف بمدرسة الشكر، قائم على التيسير والجمال والشكر، وانتهجته أغلب الطرق الصوفية بعده، والإمام الأسمر منهم بكل تأكيد.

(2) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص29.

مصدرية هذا الانتساب بقوله:» إخواني، وأصل هذه الطريقة التواضع والصدق والمحبة والصبر والإنصاف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر«[1]. فمحل المجاهدة الأقوى عند الإمام الأسمر لا تقف عند حد المحافظة على الأوراد، بل تتجاوز ذلك إلى ما هو أصعب وأكثر بلاء وامتحانًا ومجاهدة، وهو نفي النفس في معاملة الخلق، وأَعظِمْ بِها من مجاهدة، وأَكْرِمْ بها من طريق مختصر يبلغك في الوصول إلى الله. بل هي العقبة الحقيقية أمام المريد.

ويقوم هذا الانتساب الصوفي على معطيات شرعية ضرورية، فطريقته لا تند قيد أنملة عن الكليات العامة في التشريع، والقائمة على أساس الكتاب والسنة وكلام المجتهدين الثقات، فهو يوصي مريديه بضرورة التزام هذه الكليات، والسير على وفقها في كل الأحوال، لأنها طريق القوم ومحل قدوتهم، فيقول:»أوصيكم أيها الإخوان، يا أهل الحضرة والطيران، فعليكم بالتوحيد وحفظ العلوم، واتباع السنة والقرآن، وعليكم بتعليم أولادكم وأزواجكم ومماليككم عقائد الإيمان، فمن لم يعرف العقائد فليس بعارف«[2]، وهذا التأكيد الذي يحرص عليه الأسمر في ضرورة التزام مصدرية الانتساب لكليات الكتاب والسنة، هو منهجية الفقهاء والأصوليين عبر تاريخ الفكر الإسلامي، فالقرآن والسنة هما مصدرا التشريع المتفق عليهما عند المسلمين قاطبة، يقول ابن عاصم في مرتقى الوصول[3]:

أَصـلُ الأدلـةِ القرآنُ ما كُتِب	في المصحف الذي اتِّباعُه يَجِب
أنـزلـهُ سبحانَه على النبي	فـيـه بـلـسـانٍ عـربـي
ففيه مـا فـي ذلـك اللسانِ	مـن الـدَّلالـة على المعَاني

ويقول ابن أبي كف في إيصال السالك[4]:

أدلـةُ المذهب، مذهبُ الأغَر	مَـالـكٌ الإمـامُ سِـتـةَ عَشَر
نَـصُّ الكتابِ ثم نَـصُّ السُّنة	سُـنَّـةُ مَـن لَـهُ أَتَّـمُ المِنَّة

(1) نفس المصدر، ص61.
(2) نفس المصدر، ص 4.
(3) نهاية السول شرح مرتقى الوصول، عبد الله بن إبراهيم الشنقيطي، الطبعة المولوية، فاس، ط1، 1327هـ، ص130.
(4) إيصال السالك في أصول الإمام مالك، عبد الله بن الطالب، تونس، 1346هـ، ص38.

مظاهر التجديد الصوفي والإصلاح الاجتماعي للمظاهر السلبية في عصر الإمام الأسمر

يؤكد الإمام عبد السلام في مساره التجديدي كما رأينا على الأطر الثلاثة سالفة الذكر: إطار التزام الكتاب والسنة والتحذير من المظاهر السلبية التي تجانب ذلك، وإطار ضرورة التزام شروط الطريق وأركانه، والإطار الاجتماعي، وفي هذا الصدد نجمل أهم المظاهر السلبية ومعترضات الطريق التي واجهها الإمام بالإصلاح التربوي الصوفي والاجتماعي.

1- ضرورة اتخاذ الشيخ والتتريب عن الاستهانة به:

يعتقد أهل التصوف قاطبة ضرورة اتخاذ الشيخ في سلوك التربية الروحية، وهذا ما تؤكده نصوص الكتاب والسنة، ودأب عليه العارفون وأهل الله منذ العهد النبوي على امتداد أهل السلسلة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وهو كما قال الإمام عبد الواحد بن عاشر[1]:

يصحب شيخًا عارف المسالك   يقيه في طريقه المهالك

أمام هذه الضرورة التي تقتضيها أركان الطريق، فإن الإمام الأسمر واجه في عصره مظاهر كثيرة تستهين باتخاذ الشيخ، وتجعله قضية أقرب إلى السخرية والجهل، حيث يصف هذه المظاهر بقوله: «والعجب مما رأيت من بعض الجهلة، يزعمون أنهم فقراء، فإذا رأوا أحدًا يريد الانتساب إلى شيخ معين من شيوخ العصر يمنعونه منه، ويقولون له بجهلهم: أنت يا فلان لا تحتاج إلى شيخ فنحن نكفوك عنه، فإن طريقتنا لا تحتاج إلى شيخ»[2]، وواضح هذا الانفلات في دلالته على جهل مركب فشا في عصره يحط من شيوخ التربية، ويسخر من خطورة الطريق، وهو لا يستقيم للمريد إلا بشيخ يقيه المهالك. لذلك حث الإمام الأسمر على ضرورة اتخاذ الشيخ في كثير من المواضع التي حدد بها شروط الطريق من كتبه، مستدلًّا على ذلك بمنطوق النصوص، وكلام الأئمة على مر

---

(1) المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، عبد الواحد بن عاشر، اعتنى به صلاح المجذوب، الإصدار الثالث، 2012م، ص22.

(2) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص4.

العصور، حيث نص بأن المشايخ الكُمَّل قالوا:» إن لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه، لأن شيخ التربية واجب متأكد في حق كل فقير، ولو بلغ ما بلغ«[1]، وفي هذا المقام يؤصل لشروط المشيخة؛ لأنها ليست دعوى أو عبثًا يدعيها من يشاء، بل لا بد من تحصيل شروطها في التربية والتسليك، ويذكر الإمام الأسمر أوصاف المشيخة وشروطها فيقول: »ولا تصلح المشيخة الكاملة إلا لمن كان على قدم رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو من كملت أحواله، واستقامت أقواله وأفعاله، وكان متخلقًا بالقرآن العظيم، متحليًا بمعاني أسماء الله الحسنى، وكان ذا علم راسخ، وعقل سليم، ونفس طاهرة«[2].

2- ترسيخ التصوف الشعبي والتأسيس له:

إن الإمام الأسمر يعد رائدًا في التأسيس والتأصيل للتصوف المجتمعي، ونقله من برجه العاجي في مجالس الخاصة بعد أن كان حكرًا على المريدين، وإخراجه من جبة الانعزال والقفار والانزواء، ليصبح معه مشعًّا في كل الأوساط المجتمعية وما تقتضيه فرص الاجتماع في المواسم والمحافل والمناسبات، فكان يعلن تأسيسًا على وفق ذلك، وتأكيدًا في خضم ذلك حشد كل الوسائل التي من شأنها تجذب العوام وتشوقهم، فأسَّس مجالس الذكر الجماعي جهرًا، ثم ضرب الدفوف على أنظام قصائد الزهد والحب الإلهي والتهوين من الدنيا ومصائبها، وحَفَزَ الهمم على سلوك طريق المحبة والرضا والعبودية، وكذا المدائح النبوية والشمائلية لإشاعة حب المصطفى عليه الصلاة والسلام في قلوب العامة والخاصة، صغارًا وكبارًا ورجالًا ونساء. كما اختار من الوسائط لتمرير ثقافة التصوف المجتمعي وتحبيبه للناس، نظم القصائد باللغة العامية واللهجات المحلية، لتكون معاني التصوف قريبة في مخيال العوام وميسورة لاستيعابها وفهم مراميها[3]. لذلك يحصي الشيخ القطعاني مجموع قصائده بأنها سبعمائة قصيدة باللغة العربية الفصحى، وأربعمائة مقطعة شعرية باللسان الدارج، وثمانمائة قصيدة على موازين سيدي الششتري، وآلاف القصائد الملحونة[4].

(1) نفس المصدر، ص5.

(2) تنقيح روضة الأزهار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر، محمد بن مخلوف تونس، 1325هـ، ص306.

(3) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص22.

(4) موسوعة القطعاني، مصدر سابق، ج1، ص378.

3- ضرورة ربط التصوف بالعلم الظاهر وإحكامه:

يؤكد الإمام الأسمر على أن التصوف والطريق إلى الله لا يكون بجهل، فالله لا يُعبد بجهل، لذلك فإنه واجه بعض المظاهر الصوفية في الاستهانة بالمعارف وعلوم الظاهر، وادعاء العلم اللدني دون خوض مشوار المعرفة الظاهرية، والعلوم الضرورية لعلوم الشريعة، وهذا المعنى تردده كثيرًا كتب التصوف في مقولة إمام دار الهجرة مالك ﵁: »من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق«[1]، وهذان الجناحان الضروران في خوض طريق التصوف أي العلم والتجربة العرفانية هما مما استلهمه الإمام الأسمر من شيخه عبد الواحد الدوكالي، فقد تفنن على يديه في علوم الظاهر والباطن، ويؤكد ذلك البرموني نقلًا عن عبد الرحمن المكي في صغيره في مناقب الأسمر ما نصه: »قرأ على شيخه الدوكالي المختصر والرسالة والحكم والتوحيد والمعقول، وغير ذلك من العلوم، وصار فقيهًا متفننًا محافظًا على السنة«[2]، لذلك نجده في زاويته ينشئ في جوار مجالس الأوراد والأذكار مجالس تستغرق النهار كله وبعضًا من الليل في مختلف الفنون من تفسير ونحو ومنطق وفقه... إلخ.

وعلى هذا الأساس نجده يحرص كل الحرص على ضرورة إتقان مفاتيح العلوم، وهنا نقف معه وقفة وهو يؤكد على مفتاحين جليلين منها؛ أي علمي النحو والمنطق، خاصة المنطق الذي رفضه بعض المتشددين، فهو يؤكد على هذه الآلات الفنية الضرورية فيقول: »علم المنطق علم شريف يحتاج إليه في كل شيء، فمن لم يتوغل في النحو والمنطق، لا ثقة لي بعلمه، لأن من لا يذكرها لا يجوز له القدوم على قراءة التصانيف، وقراءة الحديث والتفاسير«[3]، فإحكام الجانب المعرفي ضروري في خوض أي تجربة صوفية، حيث يؤكد ذلك مرة أخرى بقوله: »وأوصيك بالحرص على طلب العلم النافع قراءة، ومطالعة، ومذاكرة، وتحصيلًا، ولا يحملنك على تركه الكسل والملالة، ولا مخافة ولاية، فإن ذلك ضرب من الجهالة«[4].

(1) قواعد التصوف، أحمد زَرُّوق، تحقيق عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2007م، ص 22.
(2) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص93.
(3) القطب الأنور، مصدر سابق، ص176.
(4) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص135.

لذلك نجد أن اهتمامه بالعلم الظاهر والباطن، أو بالطريقة والحقيقة ماثلًا في أحزابه وأوراده التي يرددها مريدوه دومًا من أجل ترسيخ معنى ازدواجية العلم والمعرفة، فيقول: »واجعلنا من التابعين للطريقة والحقيقة«[1]. لذلك نجده في زاويته العامرة يجمع بين العلم والمعرفة، والذكر والفكر، فبعد أن ينتهي بمعية مريديه من الأذكار والأوراد وتلاوة القرآن، »يقرئ درسًا في التوحيد إلى أن يصير الظهر. وبعد صلاة الظهر يقرئ المختصر والرسالة إلى أن يصلي العصر. وبعد ذلك يقرئ الحكم إلى صلاة المغرب. ثم يقرئ النحو والمعقول إلى توسط العشاء«[2].

4- التأكيد على التصوف الجنيدي وتبنيه سلوكًا ومشربًا:

يشكل التصوف مع عصري الجنيد والبسطامي انعطافة كبيرة، حيث انشق إلى سبيلين: التوجه الجنيدي والتوجه البسطامي، ولا شك أن التوجه الجنيدي هو الأكمل، حيث إنه يحفظ المريد عن كل أنواع الشطح والسكر والجذب الحاد والفناء، عكس التصوف البسطامي، فالتصوف الجنيدي مرتبط بمقامات الصحو والثبات والبقاء والتمكين لا التلوين[3]، وملتزم بظاهر الشريعة كما هو باطنها، دونما أي سلوكات توحي بتنكب عن ظواهر الشريعة، رغم أن أصحابها معذورون فيما يعتريهم من أحوال الفناء والشطح كما هو الحال في التصوف البسطامي[4]، وإن الإمام الأسمر يحرص في تعاليمه وتسليكه على تبني التوجه الأول وهو التصوف الجنيدي لأنه الأكمل والأثبت والأرسخ، ولأنه يقف متأدبًا تمام الأدب مع ظواهر الشريعة، خاصة وإن الإفراط والغلو في التصوف البسطامي حمل كثيرًا من الجهالات والظواهر السلبية التي اعتلقت به، فامتدت إلى عصر الإمام الأسمر وزمانه وما بعده أيضًا.

لذلك إعمالًا لقاعدة سد الذريعة قام بالتحذير والنقم على ما اتخذه بعض مدعي التصوف من خبال وسلوكات مَرَضية بدعية لا تمت بأي صلة لظاهر الشريعة وباطنها، ذلك أنهم يتخذون من فسحة السكر والشطح تبريرًا لأعمال منكرة لا ترتضيها مقاصد الشريعة

(1) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص92.

(2) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص308.

(3) التصوف السني حال الفناء بين الجنيد والغزالي، مجدي إبراهيم، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002م، ص29.

(4) التصوف الإسلامي في المغرب، علال الفاسي، مطبعة الرسالة، الرباط، د.ت، ص21.

في أصولها وفروعها وظاهرها وباطنها، كإسقاط التكاليف والاستخفاف بالعبادة... إلخ، ويبررون ذلك كله بدعوى الشكر والشطح، فقد وقف الإمام الأسمر حازمًا في منهجه التربوي بعيدًا عن لوثات هذه الجهالات المنكرة، لذلك فهو يؤكد على «الذاكر الواعي الصاحي» كما يصطلح عليه، ويذكر أوصافه ومميزاته، ويحرص على المريد أن يتمثلها حتى يكون متمكنًا راسخًا في قبول واردات الأنوار،»فالذاكر الواعي الصاحي يكون بعد الورد ساكنًا ساكتًا، لا يخالف الشريعة، عن صحو«[1].

ومن المحاذير التي دعا المريدَ لتجنبها، ما شاع في زمانه أيضًا من ادعاء التقوى وتقفي الخوارق من طرف مدعي التصوف من أصحاب الغلو في الفناء والشطح، حيث يعتبر ذلك استدراجًا ومقتًا من الله، وبلاء عظيمًا يقع فيه هؤلاء المُدَّعون، لذلك يشدد بتحذير مريديه وأشياعه منهم، فيقول:»وإياكم ومخالطة فقراء هذا الزمان الذين لا يرجعون لأصل ولا قاعدة، والغالب عليهم الجهالة، ولا يتبعون سننًا ولا فرائض، فإن مخالطتكم لهم تورث العلة والفساد«[2].

5- مراعاة مقاصد التشريع في التجربة المعرفية الصوفية:

إن قراءة متأملة لوصاياه وتعاليمه التربوية تعطي لنا تصورًا كاملًا عن عنايته رضي الله عنه بمقاصد التشريع ومآلاتها وحِكَمها، وتوظيفها توظيفًا حكيمًا في السلوك التربوي أثناء المجاهدة والتعبد، لأن الله لا يعبد بجهل، بل يعبد بفقه وأدب، ثم إن هنالك علاقة وطيدة بين المقاصد والأدب، لأن الأدب هو غاية العبودية وأس العلاقة بين العبد وخالقه، ولن يحصل الأدب في العبودية والسلوك إلى الله إلا بوعي مقاصدي يَكسبه فِقهًا باطنيًّا شفَّافا يراعي فيه مجاريَ الأدب، حيث إنه دوما يُذكِّر مريديه بمراعاة المآلات وترتيب الأولويات، وأن يأخذوا بفقه الموازنات، وهذه المقامات المقاصدية تنبض بالأدب والفقه عن الله. ففي مقام الأولويات والمآلات ينادي بالحذر أمام تقديم المستحب على الواجب، أو اجتناب المكروه ليقعوا في الحرام، كما في تعريفه للهوى، حيث يؤكد هذه المعاني بقوله:» وحقيقة اتباع الهوى: هو أن يشتغل المريد بالأوراد والفضائل، ويترك ما أوجب الله عليه، وتعلم الواجبات. فمن كان هكذا وصفه، فلا تقبلوه قط بالكلية، لأنه

(1) الوصية الصغرى للإمام الأسمر، ضمن كتاب تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص277.
(2) نفس المصدر، ص275.

لا يفلح أبدًا«[1]. وفي مقام فقه الموازنات بين العادات والأعراف والشرائع والتعاليم، فهو ينصح باللين في الدعوة وتمثل تعاليم الإسلام، أثناء تقديم وتعليم وصاياه ونصائحه الصغرى للناس؛ لئلا ينجم عن الشدة والعنف ما لا يُحمد عقباه، فيقع المريد في سوء الأدب من حيث يدري أو لا يدري، فيؤكد بخصوص الحكمة في تبليغ نصيحته الصغرى بقوله:» وقد كان بعض الصالحين يبخل بها، ولا يمكنها لأحد، خوفًا أن يكون بإظهارها متسببًا في إذاية ذرية الشيخ«[2].

ومن مظاهر العناية بمقاصد التشريع ونشدان الأدب في كل سلوكات المريد، نهيه مريديه عن دخول السوق إلا لضرورة بيع أو شراء، وأن يترك المريد فضول النظر وبطالة الأوقات في الأسواق، فالضرورة تقدر بقدرها كما تشير القاعدة المقاصدية، »لأن دخوله في هذا الزمان فيه علة عظيمة، وفساد في الدين والعقل«، ولا شك أن حفظ الدين والعقل من أصول المقاصد، حيث تقع ضمن الضروريات المقاصدية الخمس. وفي السياق نفسه في حفظ الدين على سبيل الترقي والتعبد الحق، وحفظ النفس على سبيل صيانة الجسم من الأدواء وأسبابها؛ يؤكد الإمام الأسمر على الجوع في سلوك الطريق -كما يجعله عامة أهل التصوف أحد أركان التصوف- فيقول:» وعليكم الجوع؛ لأن المأكول يصير نجسًا في الجوف، والنجس ظلمة، والذكر نور، والظلمة والنور لا يجتمعان في مكان واحد، فافهموا. والجوع يقهر النفس والشيطان، وفيه صحة الدين والجسد. والشبع يقوي النفس، ويقرب منكم الشيطان، خصوصًا إذا كان طعامًا من حرام، ففيه فساد الدين والجسد، وفضل الصوم كثير عند الله تعالى«[3].

6-ضرورة العناية بالأدب في سلوك الطريق أو لباب التصوف:

يطالعنا البحث في كتابات الإمام الأسمر عن اهتمامه البالغ بقضية الأدب في التصوف، فالأدب هو لب التصوف ولبابه، ومن فاتك في الأدب فاتك في التصوف، ونجد هذه القضية واضحة وضوحًا تامًّا لدى تعاليم الإمام الأسمر، وهذا ما يعطي لنا انطباعًا آخر، ألا وهو قوة الطرح الصوفي عند الأسمر وبعده عن المظاهر الفارغة، والسلوكات الطقسية الروتينية، فتكون التجربة المعرفية لديه محاطة بسياج العناية الفائقة

(1) نفس المصدر، ص271.
(2) نفس المصدر، ص265.
(3) نفس المصدر، ص280.

بمعاني الأدب في التصوف، دون التأثر ما آل عليه التصوف في زمانه وما بعده، والذي أصبح في كثير من الأحيان مجرد سربال طقسي فارغ عن معانيه الروحية الحقيقية، فيكون نموذج التصوف الأسمري أمام واقعه الرثّ بعثًا جديدًا يعود به إلى أصوله الأولى في سلسلة التصوف الجنيدي الصافي. نضرب لذلك بعض النماذج على سبيل المثال، ففي سياق حديثه عن معاني الدعاء وموقعه في التجربة الصوفية المعرفية، يحرص على فهمه فهمًا رقيقًا بعيون الحقيقة واستدرار أنوار الأدب، حيث يوصي المريد أن يتحقق بالدعاء عبودية وإظهارًا لحقيقة الافتقار والاضطرار، وليس تحينًا أو سبيلًا لتحقيق مطلبه فقط، فيقول إزاء ذلك:» وكذلك الدعاء لا تفرحوا فيه بالإجابة، ولا يكون مقصودكم به حصول الحاجة، ولكن يكون مقصودكم خطاب ربكم، الذي خطابه أحلى من خطاب كل شيء، ويكون فرحكم بالذي وفقكم لخطابه ﷻ... ولو عرفتم الحق حق معرفته، ما أعجبكم شيء سوى الله تعالى«[1].

كما أنه يحذر من طريق المستدرجين اللاهثين خلف الخوارق والكرامات، وهؤلاء يراهم الإمام الأسمر منقوصي العبودية لتخلف الأدب في سلوكهم، حيث إنهم يتوسلون المجاهدة والتزام الأوراد لاستدرار الفتح، وطلب الكرامات، تلبية لحظوظ أنفسهم، وإصابة لدنيا خسيسة، أو حظوة بالتميز عن غيرهم، أو دعوى خصوصيتهم، ومن كانت هذه حاله فهو مستدرج في بلاء مبين، لقد احتقب عوارض الطريق وقواطع السلوك، فيقول:»وإياكم ومخالطة أهل الهوى، والبدعة، والخوارق، والمستدرجين، فإنكم لا تنالون منهم إلا الظُّلمة والشك في الاعتقادات الجميلة، فلا تخالطوهم ولا تقربوهم قط«[2]، فالمجاهدة وملازمة الأوراد أركان في الطريق لمحض العبودية الحقة، دونما شائبة شرك، وحظ نفس. وينقم كثيرًا -في تجربته الإصلاحية بمعول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- على المظاهر البدعية التي تنتسب إلى التصوف زورًا وبهتانًا، فيلهث أصحابها خلف هذه الخوارق والمظاهر الخسيسة الظلمانية:» من الجنون، وعمل الشيطان، والاستدراج، ومخالفة السنة، أكل السمومات، ولحس المناجل المحميات بالنار، والضرب بالسيوف والسكاكين على يمينه وشماله وبطنه«[3].

---

(1) نفس المصدر، ص274.
(2) نفس المصدر، ص274.
(3) نفس المصدر، ص207.

وفي سياق الأدب نفسه يحذر من مظاهر أخرى أصبحت تُلَوِّح بانتمائها للتصوف والخصوصية والكرامة في عصره زورًا وبهتانًا، بغية تبريرها وجعلها مستساغة ضمن مفردات التصوف حتى لا يلحق بأصحابها إنكار ولا شناعة، فيواصل ثورته الإصلاحية في نشر الوعي والتزام الأدب بقوله:» وإياكم واتباع علم الكيمياء، والكنوز، والجداول، والتبريج، والفال، وتقليب القلوب... ومن الباطل أيضًا علم العزائم والأسحار«[1]، والأدب في الفلسفة الصوفية عند الإمام الأسمر يشمل كل معاني الحكمة والتصرف الحسن في علاقة المريد في أدبه مع الله، ومع رسوله، ومع الخلق أجمعين.

المقاربة الفقهية في الدرس الصوفي وإجابات النوازل الصوفية

يشكل المنحى الفقهي حضورًا كثيفًا في الدرس الصوفي والاشتغال الذوقي، والمنهج التربوي الإصلاحي لدى الإمام الأسمر، حيث إنه رسم كثيرًا من الوسائط والوسائل في تبليغ الثقافة الصوفية، والمنحى السلوكي لدى العامة والخاصة، ولعل أهم تلك الوسائط كما رأينا من قبل استعمال الدف في نشيد وتلحين مختلف القصائد والمدائح الصوفية، وكذا تأسيس مجالس الذكر الجماعي الجهري، وهذان الرافدان يشكلان سلوكًا إجرائيًّا يحتاج إلى تسويغ فقهي وفق مقاصد التشريع، وإلا يتعرض صاحبه للنقد والتثريب، وهذا ما حدث فعلًا، فما إن أطلق مجالس الذكر الجماعي، وضرب الدف لتصبح المجالس موسيقية على ألحان القصائد حتى أشهر عليه مختلف الفقهاء سيف التحريم والتثريب، وهو ما دعاه لخوض مناظرات فقهية علمية بخصوص ذلك وغيره[2]. ويذكر لنا الشيخ القطعاني خطة الإمام الأسمر في ذلك بأنه:» يصوغ قيم الإسلام وعقائده وشريعته وأخلاقه وأعلامه في قوالب شعرية بعضها بالفصحى ليخاطب الأقلية المثقفة، وغالبها باللسان العامي ليخاطب المجتمع كله في مقطوعات موسيقية من تأليفه يصحبها إيقاع البندير بالوزن المعروف في موسيقى المغرب العربي باسم (بطايحي)، وهو إيقاع خلاب أندلسي المنشأ«[3].

---

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص248.

(2) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص 21 وما بعدها.

(3) سلسلة مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، الشؤون العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن، 2018م، ص18.

إن قضية الدف الفقهية وحدها جعلت كل من إمام المالكية في الأزهر سالم السنهوري من القاهرة، وشيخ المالكية في مكة محمد الحطاب، والشيخ العاقب بن أقيث من تنبكتو؛ أقصى مجاهل أفريقيا وغيرهم من العلماء يسافرون جميعًا إلى زليتن مركز دعوته بليبيا لمناظرة الإمام الأسمر بخصوص عدم شرعية ضرب البندير وإنكاره عليه[1]، لكن ولمَّا وقفوا على حقيقة فقه الإمام وسلوكه المُعَتَّق بالكتاب والسنة لم يسعهم إلا أن يكونوا بعد ذلك من أكابر خُلْصَانه ومُقدَّمي تلاميذه وأَوِدَّائِه[2].

إن الأصل في الضرب على الدف يحمل معانى الفرح والسرور، وقد كانت الجاريتان تُغنيان في بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتشهران الفرح في بيته، وهو يؤكد عليهما أنهما في يوم عيد وسرور وحبور[3]، وهو أصل يؤكد دائرة المباح والتوسعة في فرح المؤمن بربه وحاله، ومنه استند الفقهاء في تأصيل إباحة الدف على سبيل إظهار السرور في الأعياد والمناسبات[4]. ثم إن الأسمر لم يوظف ترانيم الدف على سبيل السَّرَف أو مجرد التغني واللهو، بل إنه مثل جلال الدين الرومي تمامًا عندما هندس في أذواقه لإضافة الناي في تهدئة أشواق المحبة، والتحكم في الانفعالات النفسية التي تعتري المريد في سروره واكتفائه بربه، وما تغمره من انفعالات شديدة ومواجيد، تبعث على قمة الفرح والشوق[5].

وفي هذا السياق تأتي قضية الدف في مجالس الإمام الأسمر بكونه معبرًا للمواجيد:» ثم بعد ظهور خمرتها اضربوا البنادير، وقولوا كلامي وتأملوا معناه«[6]، في مقابل ذلك يمنعهم من مجرد ضرب الدف على سبيل اللعب واللهو، فيؤكد ذلك بقوله:»ولا تضربوها إلا بعد أن تظهر الخمرة، ولا تضربوها إلا وأنتم طاهرون، وإياكم ثم إياكم أن تضربوا البنادير لأجل طلب الدنيا، فإن ذلك يضركم مع الله مضرة شديدة،

(1) قفة الصلاح، مصدر سابق، ص24.
(2) نفس المصدر، ص57 و58.
(3) أخرجه البخاري.
(4) عبد السلام الأسمر؛ آراؤه وأفكاره في ميزان الشريعة الإسلامية، محمد عزالدين الغرياني، مطابع الجماهيرية، سبها، ص19.
(5) عن «دف» الإمام الأسمر و«ناي» مولانا جلال الدين الرومي وتقارب أساليبهما الدعوية، ينظر: قفة الصلاح، مصدر سابق، ص198.
(6) تنقيح روضة الأزهار، مصدر سابق، ص200.

ولا أرضى ذلك ولا من يفعله، ومن خالف فلا يلوم إلا نفسه»[1]. فعند هيجان الحال وإحراق الوجد لا يتنفس المريد ولا تستريح نفسه إلا بسماع الدف، وترانيم القصائد التي تهدئ روعه وتضبط أشواقه.

خاتمة:

وفي ختام هذه الرحلة البسيطة في التجربة المعرفية الصوفية للإمام الأسمر ومقوماتها ومداخلها الإصلاحية والتجديدية، يمكن أن نستخلص النتائج التالية:

1. يعتبر الإمام الأسمر أحد مجددي القرن العاشر الهجري في المناحي المعرفية، فهو مدرسة صوفية مهمة في سلسلة الامتداد الصوفي سابقًا ولاحقًا، وهذا ما يدعو قيام الشأن العلمي بمزيد بحث في مكنونات هذه المدرسة المباركة.

2. لقد قام مشروع الإصلاح لدى الإمام الأسمر على مقومات ثلاثة: تأكيد مصدرية الانتساب للكتاب والسنة، وتحقيق معاني التصوف علمًا وسلوكًا؛ تأصيلًا وتطبيقًا، ثم توظيف كل هذه المعاني في المناحي الاجتماعية بكل روافدها السياسية والتكافلية والإسعافية بين المجتمع والمخيال الشعبي.

3. إن تأثير المدرسة الشاذلية وامتدادها المبارك عبر شيخه عبد الواحد الدوكالي تشكل التصور الفلسفي الذي تقوم عليه محاور المدرسة الأسمرية في التصوف.

4. تأكيدًا على الاستمداد الشاذلي؛ فإن الإمام الأسمر يؤكد في تجربته المعرفية على الأبعاد الجمالية في أركان الطريق، وهي المبالغة في توطيد العلاقة الودادية مع الخلق مع الاقتصاد في العبادة المحضة، فالنجاح في الأدب مع الخلق هو الأساس في معرفة الحق ومحبته سبحانه، وهو محل المجاهدة الأقوى.

5. الانتساب للطريق الدوكالي العروسي هو الانتساب إلى معين كليات الوحي قرآنًا وسنة، فلم تخرج الطريق عن رافدي الكتاب والسنة قيد أنملة، ويكفي أن أهل السلسلة المباركة كلهم فقهاء وعارفون أرباب علم ومعرفة.

6. إن أبعاد التجديد في التجربة المعرفية والإصلاحية للإمام الأسمر، يتمثل في ترسيخ التصوف الجنيدي لكونه ينطق بمعين السنة ويلتزم آدابها ظاهرًا وباطنًا، وهذا ما أشاعه في مدرسته الأسمرية، بعدما ظهرت في عصره طرق تحيد عن هذا الأدب وتتوسل الكرامات والخوارق حرفة في طريقها بدل تزكية النفوس في معرفة الله.

---

(1) نفس المصدر، ص199.

7. إن حضور الدرس المقاصدي وكليات التشريع وحكمِه في المشروع الإصلاحي للأسمر يعبر عن جدية الإصلاحات التي توسلها في تجربته المعرفية، كما يقفنا على الخلفية الفقهية العالمة لدى الإمام.

8. تعتبر ثنائية الظاهر والباطن، أو العلم والمعرفة أحد أركان ومقومات المدرسة الأسمرية، حيث لم تكن زاويته مجرد مأوى للعُبَّاد والناسكين المتجردين، بل إنها جامعة مكتملة تجمع بين فَرْضية العلم الظاهر وضرورته، وبين التزام السلوك العملي والتطبيقي لخوض العرفان.

9. تعتبر إشاعة التصوف الشعبي عند الإمام الأسمر أحد مميزات المدرسة الأسمرية، حيث أخرجه من الخلوات والمجالس الخاصة، وأشاعه في أواسط المجتمع، بعدما زوده بوسائل القصائد ذات التعابير العامية لتصل المعاني إلى كافة شرائح المجتمع.

10. يمثل الأدب أحد المداخل التجديدية المُلهِمة في تجربة الإصلاح المعرفية لدى الإمام، حيث رأى الإمام أن كثيرًا من المظاهر والسلوكات الصوفية السلبية المنتسبة للطرق، إنما ترجع إلى افتقاد بوصلة الأدب في التربية والمعرفة والسلوك. مهما كان المُدَّعُون لتلك المظاهر السلبية شيوخًا كانوا أو مريدين، فالخلل مرجعه إلى غياب الأدب في تجاربهم الروحية الناقصة.

توصيات:

وفي ختام أهم النتائج المذكورة يمكن الإدلاء بتوصيات يقترحها البحث في النقاط الآتية:

* ضرورة عمل موسوعة تجمع فيها كل أعمال الإمام والدراسات المنجزة على ضفافها، لتكون دائرة معارف إسلامية صوفية موثقة تشهد لحقبة زمنية امتد تأثيرها عبر قرون في القطر الليبي وخارجه، ولتكون مصدرًا ومرجعًا لمزيد اكتشاف هذا الإمام وإشاعة تجربته الإصلاحية في التصوف علمًا ومعرفة، أو تأصيلًا وتجربة.

* التنقيب على تراث الإمام الأسمر، وجمع مخطوطاته والبحث عنها، ثم العمل على تحقيقها تحقيقًا علميًّا أكاديميًّا مؤصلًا، ضمن رسائل الماجستير والدكتوراه في كليات الدراسات الإسلامية في طبعات أنيقة يسهل الرجوع إليها، والإفادة منها.

* تأسيس مؤتمر دولي سنوي حول الإمام الأسمر يهتم بزوايا دقيقة في حياته، يتناول في كل طبعة جانبًا مهمًّا من جوانب سيرته وحياته وعلمه ومعرفته ودوره السياسي والإصلاحي والصوفي، وتتبع مدرسته عبر تلاميذه والقرون التي توالت في تخليد زاويته وفكره، ليكون المؤتمر مرجعًا أكاديميًّا وبمثابة ورشة علمية دائمة تعمل على فكره تحليلًا ومناقشة وتنويرًا للزوايا الخافية من حياته وسلوكه.




الأبعاد الثّوريَّة للبرنامج الإصلاحي للإمام عبد السَّلام الأسمر

أ.وفاء وهيبي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة - تونس

ملخص:

لا شكَّ أنَّ الدِّين ليس مجرَّد أحكام تتَّبعُها جماعةٌ مخصوصة، أو مجرَّد عبادات تمثِّل سبل الهداية والنَّجاة من المنكرات والفواحش، وأحكامًا تبيِّن لهم الجائز والمحظور، بل الدِّين أعمق من ذلك، فهو عبارة عن منهج حياة متكامل.

وفي هذا الإطار تتنزَّل الظَّاهرة الصُّوفية بأبعادها الرَّمزية والإبستيمولوجية المخصوصة، بالإضافة إلى أبرز سماتها الاجتماعية والسياسيَّة والثقافية والأخلاقية والعلمية والتَّربوية الّتي دفعتنا إلى الاهتمام بالبرنامج الإصلاحي للإمام عبد السَّلام الأسمر، حيث وسمنا مقالتنا بـ«الأبعاد الثّوريّة للبرنامج الإصلاحي للشيخ عبد السَّلام الأسمر»، وفيها نهتم بإبراز دوره الاجتماعي والسياسي في توجيه الحركة العلمية والدَّعوية في المغرب الإسلامي، من خلال زاويته وحِلَقِ العلم والذكر والوعظ والإرشاد والتوجيه لإرساء برنامج إصلاحيٍّ يُمكن من خلاله تفعيلُ الحياة الرّوحيّة على أرض الواقع، والثورة على الظلم ورفض الاستبداد والطغيان والعزو والاحتلال من الأبعاد التي حواها برنامج الإمام الأسمر الإصلاحي، وثورة على المفاهيم السلبية السائدة سواء في التفكير أو الممارسة، وثورة للإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وعلى كل المستويات.

لقد عاش الإمام الأسمر في فترة انفصلت فيها طرابلس عن حكم الدَّولة الحفصيَّة (866هـ - 1460م)، إذ كانت المدينة في الظاهر تحت حكم أحد المشايخ الَّذين صعدوا للحكم، ولكن فعليًّا فقد كان الحكم والسيطرة في بعض الأحيان لكبار التُّجار وأصحاب رؤوس الأموال الَّذين ساهموا وبشكل كبير في انتشار الفساد من أجل تكديس الثّروات، ونشر كل مظاهر البذخ والمجون في مقابل تغييب تام للجانب الرُّوحي والدِّيني في الحياة اليوميَّة، وتلا هذه الفترة احتلال أسباني صليبي أعقبه احتلال آخر من قبل منظمة فرسان القديس يوحنا المتطرفة الصليبية.

لذلك جاءت دعوة الإمام الأسمر كرد فعل مضادٍّ لهذا النِّظام القائم عبر التركيز على جانبين مهمِّين، هما الجانب الاجتماعي والجانب السياسي اللذين سنهتم بهما في هذه المقالة، بالإضافة إلى تسليط الضَّوء على ملامح طريقة الصوفية الدعوية وأبرز ركائزها، وفي كل ذلك سنجيب على أسئلة قد تثور في ذهن القارئ والمهتم بهذه الشخصية، كمن هو؟ وما هي طريقته؟ وفيم يتمثَّل برنامجه الإصلاحيُّ؟، ثم ما نتائج أعماله وجهوده في مشروعه الإصلاحي؟، وما مدى تأثير مشروعه الإصلاحي على التصوف الإسلامي؟

كلمات مفتاحية:

الإمام الأسمر، الأبعاد الثَّوريَّة، البرنامج الإصلاحي، البعد الاجتماعي، البعد السِّياسي.

مقدِّمة:

إنَّ التَّصوَّف -في نظرنا- لا يقلُّ عن كونه علمًا يشكِّلُ فرعًا مهمًّا من شجرة الفكر العربي الإسلامي منذ نشأته إلى يومنا هذا، وهو بهذه الأهمية لاعتبارات عدَّةٍ، منها ما يتعلَّق بآليات إنتاجه وتشكُّله، ومنها ما يتعلَّق بالقضايا الدِّينية والدُّنيويَّة التي خاض فيها، إمَّا لغاية إصلاحها أو لأخذ العبرة من باب الوعظ والإرشاد.

فالتَّصوُّف إنتاج ضخم يتضمن العديد من المسائل الشَّائكة، بالإضافة إلى كونه ثمرة مقاربة تأويليَّة مخصوصة للإسلام النَّصِّي، وتفاعلًا حيًّا مع الأوضاع التَّاريخيَّة الّتي

مرَّ بها المسلمون، فكان أرضية مناسبة لتناول العديد من القضايا وتنوُّع الإشكاليات والمجادلات الَّتي وقعت إثارتها من قبل المتصوِّفة، وحسبنا في هذا السياق أن نشير إلى الدَّور المهم الَّذي اضطلع به المتصوِّفة في إثارة قضايا فقهية وكلامية وسياسية واجتماعية هامة لمعالجتها وَفْقَ رؤية مختلفة عن السَّائد والمألوف. وهذا ما ساهم وبشكل مباشر في تنشيط الحوارات والنقاش بين الفرق الإسلاميَّة والكلاميَّة وإضفاء شيءٍ من التنوُّع على التُّراث الفكري للحضارة الإسلاميَّة.

والتَّجربة الصُّوفية تجربة لها مكانتها في الثقافة العربية ولها تأثيرها، والاهتمام بها هو من باب استثمار المناهج المختلفة في دراسة هذه الظَّاهرة بما في ذلك الاهتمام بالتَّجارب الأكثر تأثيرًا في الفكر الصُّوفي، ووضعها ضمن سياقاتها التَّاريخيَّة المؤثرة في نشأتها وفي تشكُّلها وفي نتائجها أيضًا.

ورغم أنَّه يصعب -في اعتقادنا- الإقرار المطلق بقدرة هذه التَّجارب على إيضاح الأسرار وكشف الأستار والوصول إلى حقائق مطلقة بعد الخوض في عدَّة مسائل، إلَّا أنَّنا نقرُّ بأهمية بعضها وبحفاظها على سيرورتها واستمراريتها في تحريك السَّواكن واستنباط زوايا جديدة في البحث والطرح والمعالجة، وعلى سبيل المثال نذكر تجربة الإمام الأسمر.

وتجربةُ الإمام الأسمر لها خصوصيتُها ومركزيتُها في الفكر العربي الإسلامي عامَّة وفي الفكر الصُّوفي خاصَّة، وذلك لأهميَّة صاحبها في حدِّ ذاته في المجتمع اللِّيبي خاصَّة وفي المغرب وكل أتباعِ الفِّكر الصُّوفي عامَّة، فقد عمل على إقامة جبهات لمواجهة الفكر التكفيري، والفكر المنغلق الَّذي يرى في التَّصوُّف خروجًا عن السُّنة وعن مبادئ الدِّين الحقيقيَّة، خصوصًا وأنَّ الفكر الصُّوفي يتميَّز بالوسطيَّة والاعتدال والسَّماحة والمحبة، وهذا ما جعله عرضة للنَّقد والرَّفض من قبل جماعة من الفقهاء المتشبِّثين بحرفيَّة النصوص وظواهر الأحكام دون النَّفاذ لحكمتها. ولهذا سنهتمُّ بتجربة الإمام الأسمر في محاولةٍ منَّا تقديمَ هذه التَّجربة والحديث عن أبعادها وملامحها وما نتج عنها فيم بعد. وسنفتتحُ حديثَنا بإشارةٍ تعريفيةٍ موجزة عن الإمام الأسمر، لننطلق منها للحديث

عن برنامجه الإصلاحي من خلال الاهتمام بالجانبين الاجتماعي والسياسي، ثمَّ نمرُّ إلى رصد ملامح هذه الحركة الإصلاحية.

الإمام الأسمر: النَّشأة والطَّريقة

لن نوغلَ كثيرًا في تفاصيل سيرة الإمام الأسمر، باعتبار اهتمام الكثير من المصادر والمراجع والدراسات الحديثية بسردها وتفصيلها، لكن ربما نتوقف عند بعض الوقائع والأحداث فيها لصلتها بموضوع هذه المقالة.

تشيرُ العديدُ من المواقفِ في حياةِ الإمام الأسمر لقدرته على نقد بعض المُسلَّمات الراسخة، والتي قد تشكِّلُ قيدًا وعائقًا أمام الإبداع، ففي موقف ناقد ومتسائل عن الحاجة لخوض تجربة التصوف على يد مربي ضمن عملية تربوية سلوكية صرفة، دخل الإمام الأسمر في نقاش عريض وعمق مع عمه الشيخ أحمد الفيتوري[1]، الذي تولى تربيته وتعليمه بعد وفاة والده السيد سليم الفيتوري، حول حاجته لشيخ مربٍّ لسلوك التصوف، مشيرًا إلى أنه وصل لمنازل الحقيقة وشارف ربوعها واستجلى معارفها، وإن كان موقف كان موقف المتسائل إلا أنه لم يخلو من نقد لعملية السلوك الصوفي، لكننا نراه في مراحل تالية يعود ويؤكد على أهمية الشيخ المربي في عملية السلوك الصوفي، وهو تأكيد جاء في إطار نقده للواقع الصوفي غير المنضبط، إذ يقول: «والعجب مما رأيت من بعض الجهلة يزعمون أنهم فقراء، فإذا رأوا أحدًا يريد الانتساب إلى شيخ معين من شيوخ العصر يمنعونه منه، ويقولون له بجهلهم: أنت يا فلان لا تحتاج إلى شيخ، فنحن نكفوك عنه، فإن طريقتنا لا تحتاج إلى شيخ، بل إذا اجتمع ثلاثة منا ولقنوك الذكر اكتفيت. لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون. فهذا لا يصلح أن يقول به مسلم إلا جاهلًا غير معتدٍّ به، فكيف هذا وقد قالت المشايخ الكمل: إن من لم يكن له شيخ فالشيطان شيخه؛ لأن شيخ التربية واجب متأكِّد فى حق كل فقير ولو بلغ ما بلغ»[2].

---

(1) للاطلاع على الحوار بين الإمام الأسمر وعمه السيد أحمد الفيتوري، ينظر: القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1993م، ص43 - 44.

(2) الأنوار السنية والمنن البهية، عبد السلام الأسمر، تصحيح: صالح الجعفري، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، 1964م، ص4 - 5.

ومن الوقائع المهمة التي تندرج في مواقفه الثورية، واقعة الخلاف الكبير الذي دار بينه وبين أستاذه الشيخ الدوكالي حول اختياره لآلة «الدف» للتعبير بها عن مواجيده، فرغم الرفض الذي أبداه الشيخ الدوكالي باعتبار الآلات واستخدامها مخالف لعادات وتقاليد السلوك الصوفي، إلا أنه أصر على موقفه واستطاع إقناعه وفرض أسلوبه في التعبير عن مواجيده الخاصة[1]، لا وبل طوره ليكون أحد الأسس التي بنى عليها مشروعه كأحد أدوات الخطاب الصوفي الاجتماعي والسياسي.

وتحدثنا المصادر أن أسلوبه الدعوي القائم على جمع الناس في حلقة ذكر جهارًا وعلى الملأ واستخدام آلة «الدف» بمصاحبتها، لقي انكارًا واعتراضًا شديدًا من فقهاء عصره، وأُحِيطَ أسلوبُه هذا بالكثير من الجدل الفقهي، لكن ما يجب أن نقف عنده أن حالة الاعتراض والجدل هذه اشترك فيها الفقهاء والسلطة الحاكمة، فقد شارك «القائد» وفقهاء البلاد بمدينة زليتن في أول المناظرات التي وقعت للإمام بزليتن، تقول كتب السيرة: إن الشيخ سالم الحامدي الأزهري، أكبر علماء زليتن، «جمع جماعة من الفقهاء والطلبة وأهل زليتن والشيخ والقائد»[2] وطلبوه للمناظرة التي ظهر عليه فيها ودفع حججهم، ويبدو أن تحول الحامدي من مناظر إلى تلميذ له ضمن طريقته الصوفية أوغر صدور «الشيخ والقائد»، وهما من مسميات السلطة السياسية المحلية في أنظمة الحكم في ذلك الوقت.

ويلاحظ أن الاشتراك في الموقف بين الفقهاء والسلطة ظهر جليًّا عندما حل الإمام الأسمر في طرابلس، وصار إمام جامعها الأعظم والتف حوله الناس فيه، ما استدعى إصدار السلطة السياسية بدعم من مفتي وقاضي المدينة قرارًا بنفيه خارجها[3]، بل ملاحقته فيما بعد بجيش على رأسه الوالي والقاضي والمفتي ومحاصرته في منفاه[4].

تلك الوقائع هامة، وإن كنا لا نملك تفاصيل واضحة حولها، لكنها معطيات أيضًا يمكن أن تعكس لنا مواقف الإمام الثورية الرافضة للسائد، وأن خطابه عبر الوسائل

(1) للاطلاع على التفاصيل الموقف والخلاف فيه، ينظر: تنقيح روضة الأزهار، محمد مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966م، ص94 وما بعدها.

(2) نفس المصدر، ص97.

(3) نفس المصدر، ص104.

(4) نفس المصدر، ص110.

الجديدة التي استحدثها حمل نقيضًا للمُسلَّمات الراسخة التي يرى الفقهاء ورجال السياسة في تغيرها تهديدًا لمكانتهم وسلطتهم.

إن ما يغري حقًّا في دراسة هذه الشخصية، أن تكوينه العلمي والثقافي لا يختلف بشكل كبير عن تكوين غيره من العلماء، حيث درس العلوم المعتادة في وقته كالفقه والتوحيد والنحو وغيرها، وتربَّى على يد شيخ صوفي كما هي قواعد السلوك الصوفي، لكن ربما نجد اختلافًا في سلم ومراحل التكوين ويتعلَّقُ بتتلمذِه على عدد من علماء وقته بعد تخرجه في مدرسة أستاذ الدوكالي، وهو خلاف ما تقتضي العملية السلوكية الصوفية التي تتطلب لزوم شيخ واحد، فالإمام يروي لنا أنه أخذ عن أزيد من ثمانين شخصًا[1]، وربما كان توجهه هذا من ملامح الثورة على الأنماط السائدة في العملية التعليمية والصوفية، وتمكن من تنويع مصادره المعرفية والاطلاع على أكثر من ثقافة ومدرسة.

وبحسب نظري فسيرته ما تزال تحتاج التأمل لبناء صورة متكاملة لمنهجه الإصلاحي، فعلى الرَّغم مما يظهر من مفردات منهج التعليم والتربية في الزاوية التي أرساها في زُلَيْتِنَ، كتدريس كتب معينة في الفقه مثل المختصر والرسالة، والحكم العطائية في التصوف، إلا أننا نجد المصادر لا تذكر كتبًا معينة درسها الإمام في التوحيد والنحو المنطق. وهي مسألة مُلحَّة وهامة للنظر فيها، ففي التوحيد على الرغم من تأكيده على الاعتقاد الأشعري، إلا أنه يقف موقف الرافض للتقليد، بل يجعل إيمان المقلد مختَلَفًا فيه، فلا بد «من النظر حين البلوغ، فمن لم ينظر ولا يأتِ بدليل ولا ببرهان ففي إيمانه خلاف، وعند جميع الموحدين مقلد، والمقلد ليس بكامل»[2].

ولا يقف عند حد الدعوة للتفعيل العقل كوسيلة للإيمان والتفكير والابداع، بل يضع لذلك ضوابط وقواعد؛ حتى لا تنفلت عملية التفكير عن إطارها الرصين والسليم، فهو يجمع في أحد المحاضرات اليومية الثابتة بين النحو والمنطق، وهي مسألة هامة جدًّا تجلِّي لنا بعدًا من أبعاد فكر الإمام ومواقِفِه الثورية الناقدة، إذ العلاقة بين العلمين مسألة فلسفية جدلية طال فيها النظر والكلام منذ القدم.

وإن كان مهمًّا الإشارة إلى وعي الإمام بمسألة الربط بين إصلاح اللسان (النحو) وإصلاح التفكير والعقل (المنطق)، إلا أننا في هذه المناسبة نشير إلى الجدل الكبير

(1) الأنوار السنية، مصدر سابق، ص14.
(2) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1976م، ص4.

والواسع في الأوساط الفقهية بسبب الموقف من تعلم المنطق إلى حد الذهاب إلى القول بحرمة تعلُّمه، وهو رأي قطاع عريض من الفقهاء، من بينهم السيوطي الذي استمر على يديه الجدل حتى القرن العاشر الهجري[1]، لكن الإمام الأسمر كان له موقف آخر، فقد نص الامام على ضرورة تعلم المنطق، بل وإدراجه مادة أساسية في برنامج زاويته، ما يعد موقفًا ثوريًّا آخر على المواقف الجامدة والسائدة من العلوم والمعارف وقتها، ويحسب للإمام وعيه بأهمية هذا العلم لفتح الآفاق أمام العقل وضرورة التفكير، وقدرته على بناء موقف خاص على الرغم من علمه بحكم أئمة أعلام بحرمة تعلم المنطق، إذ يقول: «وقد حرمه الشيخ النووي وجماعته، والمشهور جوازه لمن كَمُلَ عقلُه»[2]، بل ولحشد مواقف إلى العلماء إلى جانبه لمواجهة مواقف المحرمين ولشرح فائدة هذا العلم، ينقل عن شيخه الدوكالي قوله: «علم المنطق علم شريف يُحتَاج إليه في كل شيء، فمن لم يتوغل في النحو والمنطق لا ثقة لي بعلمه؛ لأن من لا يذكرها لا يجوز له القدوم على التصانيف وقراءة الأحاديث والتفسير»[3]، وربما قصد أيضًا بهذا النقل تأصيل هذا العلم في مدرسته الصوفية العروسية من خلال أستاذه الدوكالي.

إذًا لقد بنى الإمام الأسمر تجديده الصوفي في الطريقة العروسية ذلك على التجديد والتحديث منطلقًا فيه من نقد الواقع، حتى في العملية التربوية التعليمية لم يقتصر على تكوين تلاميذه وتربيتهم وَفْقَ منهجه ونظرياته وآرائه، بل توجه بجهوده أيضًا لمن هم من خارج طبقة التَّلاميذ، بخلاف التعليم والتربية في طرق التصوف الأخرى التي تقتصر على حصر وتكثيف الجهود داخل الزاوية على الأتباع والمريدين فقط، بل اهتم بطبقات المجتمع غير المتعلِّمة بأن وجَّه لهم دروس الوعظ والإرشاد الَّتي بسَّط فيها قواعد الفقه والشّريعة والسّلوك، كما نبَّههم إلى القضايا المتعلِّقة بحياتهم الخاصَّة من ناحيَة والقضايا المتعلِّقة بالأمَّة ككل من ناحية ثانية، كما كان يشجعهم على العبادات كالذِّكر والصَّلاة من خلال استخدامه لوسائل دعوية مختلفة لحث الشَّباب على التَّديُّن، ومن بين هذه الوسائل مثلًا إقامته لحلقات الذِّكر والإنشاد الصُّوفي الجامعة لكل شرائح المجتمع المختلفة كما

(1) للاطلاع على موقف السيوطي من علم المنطق والقول بحرمته، ينظر كتابه: صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، وهو مطبوع عدة طبعات.
(2) القطب الأنور، مصدر سابق، ص157.
(3) نفس المصدر، ص157 – 158.

أسلفنا الإشارة، فساهم بذلك في إرساء ثقافة إسلاميَّة ثابتة وعميقة في ظلِّ انتشار كلِّ ملامح المجون والخروج عن التَّديُّن، فكان برنامجه قائمًا أساسًا على مخاطبة العقول أوَّلًا، لذلك علَّمهم النحو والمنطق وبيَّن لهم السُّلوك القويم والتَّربية الحسنة قبل أن يُحدِّثهم عن الفقه وأحكامه وقواعده، لذلك يمكن القول أنَّ برنامج الأسمر كان ثورة قام من خلالها بهدم كل ما هو سائد ومفسد للمجتمع، ليعيد بناء منهج إسلاميٍّ حافظ من خلاله على موروثه الدِّينيِّ استمرَّ إلى يومنا هذا، ولعلَّ الزَّاوية والمسجد اللَّذين أسَّسهما خير دليل على استمرارية فكره ورسوخ تعليماته وتوجيهاته ليس في المجتمع اللِّيبي فحسب، بل في المغرب الإسلامي ككل.

سعى الإمام الأسمر إلى بناء منهاج إسلاميٍّ قويم يكون موجَّهًا إلى شرائح المجتمع كلِّها كالقارئ والمتعلِّم والأميِّ كلِّهم على حدِّ السَّواء، لذلك اعتبره الكثير مجدِّدًا للتصوف في الطَّريقة العروسيَّة؛ لأنَّه نظَّر للتَّصوُّف واعتبره عين التَّوحيد، ودعا كلَّ فئات المجتمع إلى اتِّباعه واعتناقه في حيواتهم اليوميَّة، وهو ما جعله عُرضة للرَّفض والمهاجمة من قبل العديد من الفئات، جاهلة بالتَّصوُّف كانت أو متشدِّدة في مواقفها الفقهية، غير أنَّه قابل ذلك بالصَّبر والمحبَّة وذكر الله، فهي المبادئ الأساسيَّة في دعوته، والَّتي سعى بكل جهده إلى إيصالها وتعليمها إلى مريديه وتلاميذه وكلِّ فئات المجتمع الَّتي اتَّبعته.

يمكن القول انطلاقًا مما ذكر أنَّ دعوة الإمام الأسمر ما هي إلَّا إعادة إحياء لأفكار ومبادئ التصوف في إطار تحديده للطريقة العروسية، وَفْقَ تغييرات جذريَّة شملت المنهج وطريقة الذِّكر، حيث أدمج ضرب الدُّفوف بالسَّماع الصُّوفي في الحضرة، وَفْقَ برنامج أسبوعي بضوابط وأسس وشروط لقواعد عملها.

ونظرًا لكل ما سبق، فلم يكن مشروع الإمام الأسمر الإصلاحي عشوائيًّا في شكل رداتِ فعل، أو متماهيًا مع الواقع، بل كانت له أبعاد مخصوصة وركائز محدَّدة وملامح، سنعرض لها في الجزء الثاني من هذه المقالة.

البرنامج الإصلاحي للإمام الأسمر: الملامح والركائز

شهد العالم الإسلامي في فترة من فترات توهُّجه العديدَ من الحركات الدَّعوية، منها ما تعلَّق بالدِّين في حدِّ ذاته، ومنها ما تعلق بمسألة الحديث بين أخذ ورد وتحقيق ومراجعة، بالإضافة إلى مسألة الشعائر الدينيَّة وكيفية آدائها، وكلُّ هذا تزامن مع وجود حركات دعويَّة تسعى إلى الخروج بالدِّين من أبعاد حرفية النصوص إلى حيِّز روحانيٍّ/ وجدانيٍّ يجعل من العلاقة بين العبد وربِّه أكثر شفافيَّة وأكثر عمقًا وصدقًا، حيث حمل العديد من الدُّعاة على عواتقهم مهمَّة إنقاذ الدِّين من إمكانيَّة ضياعه بين فكر متشدِّد وفكر منشق، فكان التَّصوُّف هو الحلَّ باعتباره ثورة روحانيَّة داخل المنظومة الإسلاميَّة، بل لنَقُلْ هو عين التَّوحيد وأساس التَّديُّن، ومن بين هؤلاء الَّذين سعوا إلى خلق ثورة داخل هذه المنظومة هو عبد السَّلام الأسمر الَّذي كانت دعوته عبارة عن ثورة فكريَّة ومجتمعيَّة داخل مجتمع فيه الكثير من الجاهلين بالتَّعاليم الحقيقيَّة للدِّين، وفيه الكثير من الرَّافضين له ولفكره ولدعوته بتعلَّة أنَّ التَّصوُّف ضرب من الزَّندقة والرُّعونة وخروج عن ثوابت الشريعة، غير أنَّه لم يستجب لمحاولاتهم الرَّدعيَّة ولم يستسلم، بل حاول قدر المستطاع إلى جانب أتباعه مواجهة هذا الفكر الجامد لتغييره وتجديده عبر التَّركيز على جانبين مهمين هما الجانب الاجتماعيُّ والجانب السِّياسيُّ، إذ يمكن القول: إنَّهما أهم ركائز البرنامج الإصلاحيِّ للأسمر، وذلك بالإضافة طبعًا إلى الجانب التَّربويِّ الَّذي يمكن أن يكون موضوعًا مستقلًّا للبحث فيه.

أ- الملامح

يعتبر الإمام الأسمر أحد رموز الإصلاح الدِّيني والنَّهضة بليبيا، ولعلَّ أبرز دليل على ذلك رسائله الَّتي بقيت من آثاره، والَّتي تعبِّر عن دفاعه عن الحقِّ والنُّهوض الفكري والحثِّ على ملازمة دين الحقِّ. فقد حرص الإمام الأسمر في دعوته على أن يجمع بين ثلاثة أركان هي أساس حركته الاصلاحيَّة، والَّتي تتمثَّل في التَّربية والعلم والجهاد، ومن هنا نتبيَّن ملامح هذه الحركة الَّتي اعتبرناها حركة ثوريَّة إصلاحيَّة، إذ أخذ الإمام

الأسمر على عاتقه مهمَّة نشر الفكر الإسلاميِّ السَّمح/ الاعتدالي عن طريق نشاط طريقته الصُّوفيَّة، الَّتي طوَّر فيها وغيَّر في بعض قواعدها، حيث إنَّ الطَّريقة الأسمريَّة الجديدة تتأسس رؤيتها على قاعدة سيكولوجيَّة صلبة، وهذا نجده واضحًا جليًّا في رسائله وفي رسائل تلاميذه ومريديه.

لقد ألحَّ الإمام الأسمر على مبدأ التَّربية والأدب في رسائله وفي دروسه ومحاضراته وحَضَرَاتِهِ؛ رغبة منه في بناء مجتمع يرتكز على مبادئ إنسانيَّة وأخلاقيَّة، ومن هنا تتبلور ملامح هذه الحركة الَّتي سبق وأن قلنا إنَّها حركة ثوريَّة إصلاحيَّة تزامنت مع فترة صعبة وحسَّاسة تعيشها ليبيا في ظلِّ الاستعمار الخارجي والتَّواطؤِ الدَّاخلي، فاهتزت القواعد الأخلاقيَّة والتَّربويَّة والدِّينيَّة للمجتمع، فأضحى مجتمعًا يسوده الفسق والفساد، وطغى الباطل فيه على الحقِّ، فجاءت دعوة الإمام الأسمر كحركة معارضة للسائد، محاربة له، وتحمل معها بديلًا ثوريًّا، أخلاقيًّا/ دينيًّا ثابتًا وقويمًا. لأنَّ الأخلاق عند الإمام الأسمر هي «جملة الأخلاق الإسلاميَّة الَّتي جاء بها الشَّرع الحنيف للحثِّ عليها والحضِّ على لزوم طريقها والتَّلبُّس بمقتضاها بين مجتمع المؤمنين داخليًّا ومع غير المؤمنين من المخالفين خارجيًّا»(1)، ولأنَّ ما يتبناه غير موجود في هذا المجتمع، فكان لا بدَّ من ثورة فكريَّة وإصلاحيَّة تعصف بكلِّ ما هو سائد لتؤسِّس لفكر مجتمعيٍّ متوازن ومتماسك أساسه تبنِّي التَّصوُّف الإسلاميِّ والالتزام به.

ولعلَّ ما يلفت انتباه الباحث أو القارئ لرسائل الإمام الأسمر، يلاحظ تأكيده وإصراره على طلب العلم؛ لأنَّ العلم والمعرفة من أبرز ملامح النَّهضة الفكرية، فمن دون أن تكون عالمًا أو عارفًا لا يمكنك أن تمشيَ قُدُمًا أو أن تتخلَّص من الثَّوابت والمعتقدات المغلوطة الَّتي تشوِّه الحقيقة الدِّينيَّة وتغيِّر التَّعاليم الحقيقيَّة للإسلام، فالنَّبيُّ ﷺ كان زاهدًا ومحبًّا ورحيمًا ورؤوفًا وحليمًا وصادقًا... إلخ، وهي صفات الصُّوفيِّ والمتصوِّف، وكلُّها تعدُّ من ملامح العقيدة الصُّوفيَّة. وفي هذا الإطار يقول الإمام الأسمر في أحد رسائله: «وأوصيك بالحرص على طلب العلم النَّافع وقراءة ومطالعة ومذاكرة وتحصيلًا،

(1) د. إدريس مقبول، إحداثيات الإصلاح في رسائل عبد السَّلام، مجلَّة الجامعة الأسمريَّة، المجلَّد الحادي عشر، ص3، يونيو 2009.

ولا يحملنَّك على تركه الكسل والملالة، ولا مخافة ولاية فإنَّ ذلك ضرب من الجهالة»[1]، من هنا نتبيَّن أنَّ ملامح البرنامج الإصلاحي للإمام الأسمر بدأت تتبلور منذ البداية، أي منذ إقامته لدروس محاضرات وإصراره المستمر على إيصال الفكرة إلى مختلف شرائح المجتمع؛ لأنَّه مؤمن تمامًا أنَّ العقليَّة الرَّاسخة لا يمكن أن تتغيَّر إلَّا بالعلم، لذلك كانت ركيزته الأولى هي تعليم الناشئة وتعليم الناس الَّذين هم من خارج دائرة التَّلاميذ؛ لأنَّه في النّهاية يسعى إلى بناء مجتمع مفكِّر ومتعلِّم، يعرف كيف يتعاطى مع المسائل الدِّينيَّة، وكيف يتعامل معها دون الوقوع في ما هو جائز أو ما هو مخالف للشَّريعة الإسلاميَّة، فالباحث في فكر الإمام الأسمر لا يجد صعوبة في رصد ملامح هذه الحركة ومبادئها؛ لأنّها واضحةً وجليَّةً في رسائله ودروسه الّتي تستهدف المجتمع لإصلاح ما به من آفات، وتوحيد صفوفه، وتقويم معوجِّه.

إنَّ حديثنا عن ملامح الحركة الثَّوريَّة/ الإصلاحية للإمام الأسمر ما هو إلَّا تمهيد للانتقال إلى حديثنا عن ركائز هذه الحركة؛ لأنَّه وفي حقيقة الأمر لا يمكن فصل الملامح عن الرَّكائز؛ لأنَّها مترابطة ومتشابكة ومتداخلة، لذلك لم نطل الحديث في هذه النُّقطة كثيرًا، ولكن انطلاقًا مما ذكر يمكن القول: إنَّ الحركة الإصلاحية الَّتي قادها الإمام الأسمر هي حركة صوفيَّة ثوريَّة، وهي تعلن عن نفسها منذ بداية تشكُّلها، ذلك أنَّ ملامحها الأولى بدأت بالظُّهور عندما تجاوز الإمام الأسمر أسوار المدرسة الَّتي أسسها وحلقات الدُّروس الَّتي يقدِّمها والمحاضرات ليخرج إلى المجتمع أين يوجد بقيَّة النَّاس الَّذين هم لا ينتمون إلى حلقات التكوين في زاويته، ولكن إيمانه بالدَّعوة الَّتي يرنو إلى تحقيقها على أرض الواقع لتصبح منهجًا تسير به الجماعة وتقتدي به دفعه إلى المجازفة والمجاهدة من أجل إيصال أفكاره وبرنامجه، لأنَّ غايته في النِّهاية هي غاية مجتمعيَّة بالأساس، هو يسعى إلى بناء مجتمع صالح مستقيم سويٍّ، وهذا لن يتم إلا عبر جانبين مهمِّين هما الجانب الاجتماعيُّ والجانب السِّياسيُّ، فهو من ناحية يعمل على إعادة هيكلة المجتمع وتخليصه من شوائب شوهته وغيَّرت مسار الدِّين فيه، ومن ناحيَّة ثانية يحارب استعمارين: استعمارًا أجنبيًّا خارجيًّا، واستعمارًا داخليًّا يتمثَّل في أهل الحكم في تلك الفترة الَّذين ساهموا وبشكل كبير في نشر الفساد في المجتمع اللِّيبي وتجهيله، كما عارضوا أيضًا

---

(1) عبد السَّلام الأسمر، الرَّسائل، تحقيق: مصطفى عمران رابعة، دار المدار الإسلاميِّ، ط1، 2003، 135.

الدَّعوة الأسمريَّة وحاربوها بكل الطُّرق، وحاولوا إفشالها، ولكنه ومن معه قاوموا هذه الظُّروف من أجل الخروج من صورة مجتمعيَّة مؤمنة وعارفة ومتعلِّمة، وهذا ما سنتبيَّنه في النُّقطة التَّاليَّة أين سنتحدّث عن الرَّكائز الأساسيَّة للبرنامج الإصلاحي للطَّريقة الأسمرية، بالتَّركيز أساسًا على ركيزتين وقت اختيارهما بناء على الظُّروف الَّتي نشأ فيها هذا الفكر وتبلورت ملامحه، لأنَّه في النِّهاية إعادة بناء أيِّ مجتمع تتطلَّب بالضَّرورة محاربة الثوابت القائمة ومحاولة إصلاحها.

ب- الرَّكائز

قامت الدَّعوة الأسمريَّة أساسًا على مخاطبة المجتمع ومحاولة توعيته، وقد انطلقت هذه الدَّعوة من داخل حلقات علميَّة ارتكزت محاورها على تعليم أصول الفقه والشَّريعة والتَّوحيد، ثمَّ التَّربيَة والأخلاق، وانطلاق الإمام الأسمر من تعليم أصول الفقه والشَّريعة لم يكن اعتباطيًّا؛ لأنَّ المجتمع في تلك الفترة يعتنق الإسلام ويطبِّق الشَّريعة وعالم بأصول الفقه، ولكن المعضلة تكمن في كون ما يقوم به هؤلاء النّاس مرهق للروح، ولا يمكن أن يكون سببًا في ربط صلات وثيقة بين العبد وربِّه، فالإمام الأسمر أراد أن يُبسِّط التَّعاليم الدِّينيَّة، وأن يقدِّمها بأسلوب سلس بحيث يمكن للجميع فهم مقصده دون الوقوع في فهم خاطئ أو اتِّهام باطل في حقِّه كأن يُتَّهم بالخروج عن مقاصد الدّين مثلًا، وهو الَّذي ركَّز في دروسه على مقاصد الشَّريعة، وسعى بكل الطُّرق إلى ترسيخ مبادئ الدِّين الحقيقيَّة عند الخاصَّة والعامَّة على حدِّ السَّواء.

لم تقف جهود الإمام الأسمر في تحرير العقول وإنارتها عند حلقات الدَّرس والمحاضرات والتَّلاميذ فحسب، بل خرج إلى المجتمع بكل فئاته واختلافاته قارئًا كان أم أميًّا؛ إيمانًا منه بأنَّ تحرير المجتمعات من الجهل والثَّورة على الأنظمة الفاسدة ينطلق أساسًا من تحرير العقول وإصلاحها، وما هو معروف في سيرة الإمام الأسمر أنَّه عاش على أمل إصلاح مجتمعه، باحثًا عن بذرة إيمان قد تكون مطمورة تحت الرُّكام ليصيبها غيث دعوته فتهتزَّ وتثور وتنمو من جديد، بل لينمو معها مجتمع صالح كما كان يحلم، لذلك اعتبرنا أنَّ من الرَّكائز الأساسيَّة في دعوة الإمام الأسمر هي الجانب الاجتماعي الَّذي لا يمكن في الحقيقة فصله عن الجانب التَّربويِّ لأنَّ تحرير المجتمع وإصلاحه تكون عبر تربيته وتعليمه أوَّلًا، ولكنَّنا كما سبق وأشرنا أنَّنا قمنا بمجرَّد اختيار لجانبين

اثنين هما الاجتماعيُّ والسِّياسيُّ دون إقصاء الجوانب الأخرى، ثمَّ إنَّه لا يخفى عن الباحث أو القارئ أنَّ المجتمع اللِّيبي في فترة دعوة الإمام الأسمر كان يعاني من الهشاشة والتَّصدُّع بسبب حكم العثمانيِّين الَّذي كان في نهايته والَّذي تميَّز بالضَّعف والوهن، وهو ما انجرَّ عنه ترك لمقاليد الحكم بيد الفاسدين سواء كانوا رجال دين أم رجال سياسة، وهذا من شأنه أن ينعكس وبصورة مباشرة على المجتمع.

ينتهج الإمام الأسمر منهجًا بيداغوجيًّا فريدًا في تعليم الخاصَّة والعامَّة، هو منهج مجرَّد من كلِّ مظاهر التَّباهي ومُعرض عن كلِّ أشكال الكِبْرِ، فتجده بسيطًا متواضعًا يمشي بين النَّاس يعلِّمهم ويدَّعي أنَّه يتعلّم منهم وأنَّه ليس بعالم، وإنَّما عنده القليلُ من الكثير الموجود، وهو يسعى إلى مشاركة علمه البسيط مع سائر النَّاس، فبهذه الطَّريقة تلقى دروسه وأفكاره ومبادئه قبولًا من النَّاس؛ لأنَّهم يأخذونها عنه بالمحبَّة لا بالإكراه، فما فائدة أن تكون عالمًا ولا تجيد التَّعامل أو تعليم الآخر أو أن تحسن عملك، ولأنَّ الإمام الأسمر يرى في نفسه صاحب رسالة فكان لا بدَّ أن يحسن عمله هذا، حيث أكَّد على هذه القيمة في أغلب رسائله، ونذكر على سبيل المثال رسالته إلى تمبكتو حين كتب: «واعلموا أنَّ فائدة العلم العمل به»[1]. انطلاقًا من هذا المبدأ وعملاً به تمكَّن الإمام الأسمر من التَّوغُّل داخل المجتمع بكل فئاته ليريهم طريق الحقِّ، ويرفع عن أعينهم غشاوة التَّخلُّف ويحرِّرهم من سلطان الجهل الرَّابض على عقولهم وقلوبهم، والمتمكِّن من أفكارهم حدَّ السيطرة، ولعلَّ تركيزه على الجانب العلميِّ هو تأكيد على أهميَّة هذا الجانب في كلِّ مشروع واضح المعالم ومتكامل الرؤى، خصوصًا إذا كان هذا المشروع هو تغيير مجتمع وإصلاح حال أمَّة، وتغيير حالها من تخلُّف حضاريٍّ وفكريٍّ وأخلاقيٍّ وسياسيٍّ إلى قوة وتماسك، ومن تيه إلى رشاد.

لقد راهن الإمام الأسمر على هذا المجتمع، وسعى جاهدًا إلى تغييره وإصلاح حاله رغم ما لحقه من أذى ورفض ومقاومة، حتَّى أنَّه في مرحلة ما غادر إلى طرابلس هروبًا من بطش الكائدين له، ولكنَّه رغم ذلك قاوم وجملة من أتباعه ومريديه هذا التَّيَّار؛ لأنَّ المتصوِّفة على مرِّ التَّاريخ كانت لهم طرقهم وأساليبهم في إيصال أفكارهم، وإن كانت هناك فرق مغالية بعض الشيء، ولكن هناك طرق معتدلة ترى أنَّ التقرُّب من الله ونيل مراتب متقدِّمة في التَّصوُّف ودرجات عليا في الإيمان يبدأ أوَّلًا بالتعلُّم ثمَّ العمل،

(1) الأسمر، الرَّسائل، 250.

ونجد فيه الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وهو المبدأ الَّذي ألحَّ عليه الإمام الأسمر في جميع رسائله ودروسه معتبرًا أنَّ النَّهي عن المنكر أو الكفَّ عنه شرط أساسي في تحقُّق الإيمان، بل إنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر من النَّصيحة الواجبة الَّتي لم ينسَ الإمام الأسمر التَّذكير بها، خصوصًا إذا ضاع الأدب واللُّطف في معاملة النَّاس، وإنَّ الأمر بالمعروف يكون بأدب ولين ورفق والنَّهي كذلك[1]، ولهذا نجده يسعى جاهدًا إلى إصلاح حال أمَّتِه وتعديل أوتار بوصلتها الَّتي حادت عن الطَّريق وأسباب ذلك كثيرة كنَّا قد ذكرنا بعضها.

لقد سعى الإمام الأسمر في دعوته هذه إلى نشر ثقافة المحبة والتَّسامح والتعايش الرَّحيم بين كلِّ فئات المجتمع، حتَّى أنَّه كان يتعمَّد إمامة الصَّلاة بالفقراء ليبيِّن لهم أنَّ أصل الإنسان في جوهره، وأنَّه وأمثاله ما هم إلَّا جند سخَّرهم الله لإماطة اللِّثام عن الباطل والمنكر ونشر الحق والأمر بالمعروف، لذلك نجد أنَّ أساس دعوته وبرنامجه الإصلاحيَّ انطلق أولًا من التَّربية السويَّة والتَّعليم - والعلم سابق للتَّربيَّة - ثمَّ انطلق نحو المجتمع بكل فئاته إيمانًا منه بضرورة تصويب أخطائه وإصلاح أحواله ومعالجة أفكاره؛ لذلك ركَّز كثيرًا في دعوته هذه على الجانب الاجتماعيِّ، وحاول قدر المستطاع أن يبقى دائمًا في تواصل دائم مع فئات المجتمع سواء في التعليم أو في الصَّلاة ليُبلِّغ رسالته على أكمل وجه؛ لأنَّه في النِّهايَة كان يحلم بمجتمع صالح خال من الفسق والفساد والصِّراعات والتَّجاذبات، ولهذا بالذَّات كان الأسمر السَّبب الرئيس في جعل المذهب المالكي هو المذهب الرَّسمي في المجتمع اللِّيبي بل في المغرب الكبير ككلٍّ، فالإمام الأسمر كان سنِّي مالكي، ورغم أنَّ الأشعري كان مسيطرًا في تلك الفترة في المجتمعات الاسلاميَّة إلَّا أنَّ الإمام الأسمر سعى جاهدًا إلى إخراج المجتمع من دائرة التَّجاذبات الفقهيَّة هذه، لأنَّه في غنى عنها، وليست هي المحدِّد الأساسيَّ في علاقة العبد بربِّه أو المحدِّد الأساسيَّ في نيل درجات متقدِّمة في الإيمان، لذلك أصبح المذهب المالكي المذهب الرَّسمي في المجتمع اللِّيبي رغم وجود العديد من الرَّافضين والمعارضين؛ لأنَّهم من أصحاب مذاهب مختلفة، ولكن الإمام الأسمر كان مصرًّا على تقويم اعوجاج هذا المجتمع وإصلاح حالهم.

(1) مصطفى بن رابعة، مصدر سابق، ص136.

على قدر اهتمامه بالجانب التَّربوي ثمَّ الاجتماعيِّ خاصَّة في دعوته، فقد تجنب الإمام الأسمر الخوض في الجانب السِّياسيِّ أو الاقتراب من الحكَّام وأصحاب الجاه وأصحاب الملك، رغم أنّ في الكثير من المناسبات دعا أصحابه إلى ضرورة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ولم تكن كلمته مجرَّد دعوة في مواجهة الفساد والباطل، بل كان يُحرِّض عليه لأنَّ إنكار المنكر من الدِّين[1]، يقول في رسالته إلى أهل تونس: «وإن استطعتم أن تقولوا الحقَّ فافعلوا، فإنَّه لا يسوغ السُّكوت على الباطل إلَّا عند تيقن العجز عن الباطل»[2]، غير أنَّ تحريضه على دفع البلاء والأمر بالمعروف لم يشمل السَّلاطين والحكَّام، ودليل ذلك أنَّه كان يحذِّر تلاميذه من مخالطتهم والجلوس في مجالسهم أو التَّشبُّه بهم خصوصًا مع تزامن فترة دعوته مع توتُّر الأوضاع السِّياسيَّة في ليبيا، يقول في هذا الإطار: «وابعدوا عن أبواب السَّلاطين، واتركوا الحاجة الَّتي تجيء بكم إليهم، فلا خير لكم فيها وقد قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: من قرب أبواب السَّلاطين افتتن»[3].

جاءت دعوة الإمام الأسمر في مقاطعة مجالس السَّلاطين والحكَّام في مقابل إقامته لمدرسة تقوم على طلب العلم والأدب وإشاعة قيم الخدمة والتَّواضع في المجتمع وبين النَّاس، ثمَّ إنَّ خلافه مع السّلاطين لم يتجاوز حدود الأدب والمعاملة الحسنة كما شاع عنه بين الأوساط الشَّعبيَّة والدِّينيَّة والسِّياسيَّة، يقول: «وإن كنتم فقراء تأدَّبوا مع العلماء؛ لأنَّهم أطباء الدِّين وأمناء الرُّسل ما لم يدخلوا الدُّنيا ولم يُخالطوا السُّلطان فاحذروهم واعتزلوهم، فشؤمهم على أنفسهم، ولا تقولوا فيهم شيئًا يسوؤهم فإنَّ لحومهم سمٌّ قاتل، ولا بدَّ لكم من زيارتهم يوم الجمعة واطلبوا منهم الدُّعاء»[4]، ولعلَّ هذا الموقف الَّذي اتَّخذه من رجال السِّياسة والحكَّام والسَّلاطين راجع إلى المحن الَّتي واجهها، وجعلته لا يعرف استقرارًا ولا أمنًا لا مع السُّلطتين السِّياسيَّة والعلميَّة في مرحلة من مراحل دعوته الإصلاحيَّة.

إنَّ رفض مخالطة الحكَّام والسَّلاطين وكل من له علاقة بالدَّولة والسِّياسة هي عادة دأب عليها كلُّ المتصوِّفة منذ القديم، ولم يكن الإمام الأسمر السَّبَّاق في هذا، فالحارث

(1) د. إدريس مقبول، إحداثيات الإصلاح في رسائل عبد السَّلام الأسمر، مجلَّة الجامعة الأسمريَّة، المجلَّد الحادي عشر، ص 727، يونيو 2009.
(2) مصطفى بن رابعة، مصدر سابق، ص269.
(3) المصدر نفسه، ص169.
(4) المصدر نفسه، ص224.

المحاسبي على سبيل المثال كان ممن رفض مجالسة السَّلاطين، وأخذ الحذر من الناس أجمعين؛ لأنَّ في ذلك هلاكًا للمؤمن وضياعًا للدِّين، والإمام الأسمر سار على درب المتصوِّفة ونبَّه تلاميذه ومريديه وراسلهم وحثَّهم على ضرورة تجنُّب مجالس الحكَّام وتجنُّب التَّشبُّه بهم في الملبس والمشرب والمأكل، لأنَّها أشياء للدُّنيا وملهاة عن طلب العلم والدِّين والتَّقرُّب إلى الله، فالتَّقرُّب إلى الله يقتضي العمل والاستثمار في الأرض من أجل تحصيل الآخرة، أما حياة أهل السِّياسة ما هي إلَّا ملذَّات دنيويَّة تلهي المؤمن عن رسالته الحقيقيَّة في الأرض وهي إعمارها وحسن العمل فيها والحفاظ عليها.

من هنا نتبيَّن موقف الإمام الأسمر من الجانب السِّياسي في دعوته، والَّذي اكتفى بتحذير تلاميذه من اتِّباعهم ومجالستهم وقصدهم في طلب حاجاتهم، وهذا يمكن أن نفسِّره بالأشياء الّتي عاشها بسببِهم، حيث ساهموا في جعله لا يشعر بالأمن ولا بالرَّاحة في مدينته وبين أهله، لذلك وجد راحته في اعتزالهم وترك مجالسهم وأحوالهم وأخبارهم، واكتفى بدعوة النَّاس إلى تغيير المنكر والإخبار عنه إن وجد لأنَّ ذلك من الدِّين، وهي دعوة يمكن للقارئ أن يتأوَّلها على أنَّها تحريض مبطن بالثَّورة على الحُكَّام والسَّلاطين الفاسدين لأنَّ المنكر لا يمكن أن يأتي من غيرهم، ولكن الجانب التّلميحي في دعوته كان تجنُّبًا لوقوعه في مواجهة مباشرة معهم، وهو الَّذي كان يرفض التَّواجد بمكان يقتربون منه.

ما يمكن أن نستجليه ممَّا ذكر أنَّ الإمام الأسمر أقام دعوته على ركيزتين أساسيتين هما التَّربيَة والمجتمع، حيث عمل على تربية المجتمع وتعليمه أصول التَّعايش بمحبة وسلم فيما بينهم، وسعى إلى ترسيخ قيم الأدب والأخلاق لبناء مجتمع صالح كما عبَّر الشَّيخ عن ذلك، ولكنه في المقابل أهمل نوعًا الجانب السِّياسي، وارتأى تجنُّب رجال السِّياسة والسَّلاطين رغم ما يتسبَّبون به من مشاكل داخل المجتمع؛ لأنَّهم سبب مباشر في فساد المجتمعات وخروجها عن طريق الحقِّ، وهم السَّبب في تخلُّف المجتمعات وجعلهم مجرَّد كائنات حيَّة مستهلكة منهمكة في قوت يومها، تؤدي من الدِّين ما أُمرت دون تفكير أو تأمل أو بحث أو إعمال عقل، لتصير مجتمعات في تبعيَّة مستمرة إلى الآخر؛ لأنَّها مجتمعات لا تفكِّر ولا تبحث ولا تتعلَّم ولا تؤمن، ربَّما كان للإمام الأسمر في إماطة اللِّثام قليلًا عن هذه القيم السَّلبيَّة، وعملت على إعادة مراجعة هذه المسلَّمات وهذه الأفكار لتقويمها وتعديلها، وهذا من شأنه أن يكون له تبعات على المجتمع اللِّيبي

خاصَّة باعتباره المعنيَّ الأوَّل بهذه الدَّعوة، ثمَّ آثار هذه الدَّعوة على باقي مجتمعات المغرب الكبير وعلى التَّصوُّف الإسلاميِّ عمومًا في منطقة المغرب.

نتائج الحركة الإصلاحيَّة للإمام الأسمر

إنَّ دعوة الإمام الأسمر كباقي الدَّعوات الأخرى الَّتي تنبني على ركائز وأساسيات تكون نواة هذه الدَّعوة، وبالتَّالي فإنَّنا ننتظر منها أن تكون لها نتائج سواء سلبيَّة أو إيجابيَّة، وهذه النتائج يمكن أن نستجليها انطلاقًا من وضع المجتمع اللِّيبي بعد هذه الدَّعوة ومدى تأثيرها عليه على جميع المستويات، فلا يمكن أن نُنكرَ فضل مرابطي الطُّرق في إشرافهم على المؤسسات التَّعليميَّة وتدخُّلِهم في النِّزاعات بين القبائل لفضِّها، ولكن فيما يتعلَّق بالمجتمع فإنَّ الكثيرين يضعون اللَّوم على الطرق والزوايا في المشاكل المجتمعيَّة الَّتي خلقتها، أمَّا الإمام الأسمر فهو الشَّيخ الثَّوري الَّذي لا يختلف اثنان في مساهمته المباشرة في النُّهوض بالبلاد والعباد، فقد ساهم في بناء جيل جديد من أهل العلم والعرفان بعد أن انكبَّ في مدينته زليتن على إصلاح البلاد وتعليم العباد ونشر ثقافته ومعرفته بالعقيدة الإسلاميَّة، ولعلَّ بناءه للزَّاوية ساهم وبشكل كبير في تبلور فكره وترسيخ ثقافة صوفيَّة قائمة على حلقات العلم والذِّكر والسَّماع الصُّوفيِّ، وقد كان سلاحه في هذا التَّربية الرُّوحية بالتَّصوُّف الإسلاميِّ، لتصبح هذه الزَّاوية فيما بعد ملجأً للنَّاس ومهربًا لهم من فساد المحيط المجتمعيِّ وتردِّي الأوضاع السِّياسيَّة، وصارت الزَّاوية «موئل طلاب العلم وحماية النَّاس»[1].

عاش الإمام الأسمر في محيط اجتماعيٍّ تحرِّكه عوامل محليَّة تتمثَّل في الجانب الرُّوحي وتمثِّله الطَّريقة العيساوية والعروسيَّة، وفي جانب دينيٍّ يتلخَّص في المذهب المالكي والإباضي، ولأنَّه سنيٌّ مالكيٌّ يتبنَّى الطَّريقة العروسيَّة، بل وهو المجدِّد في بعض أفكارها والمواصل لمنهجها ومشروعها الصُّوفيِّ، فقد ساعده ذلك في افتكاك مكانة في مجتمعه لما يتمتَّع به رجال الدِّين ورجال الطُّرق والفكر الصُّوفيِّ من وقار وهيبة ومكانة مرموقة لدى النَّاس، من هذا المنطلق أراد أن يكون مؤثرًا، وأن يصنع الفارق في مجتمع كان واقعًا في مأزق معرفيٍّ وفكريٍّ ودينيٍّ، فجاء الإمام الأسمر وخلَّصه من هذا، بل إنَّه

(1) عميراوي حميدة، خطاب الزَّاوية في الثَّقافة اللِّيبيَّة،، مجلَّة الجامعة الأسمريَّة، المجلَّد الحادي عشر، ص305، يونيو 2009.

ساهم في تخريج جيل جديد مؤمن بالعقيدة الإسلاميَّة وبالفكر الصُّوفيِّ فكان مربيًا ومعلِّمًا وموجِّهًا ومصلحًا وفقيهًا وعالم دين، ولطالما توفَّرت فيه هذه الصِّفات في مجتمع يعاني من الكثير من الآفات، فقد حمل على عاتقه مهمَّة إنقاذه وتقويم معوجِّه، وهذا لا ينكره حتى معارضوه، فكانت زاويته منارة علم في تلك الفترة ومكانًا مقدَّسًا لتعليم القرآن وأصول الفقه للناشئة إلى يومنا هذا، فإنَّ الزاوية الأسمريَّة تحتل مكانة مرموقة ومحوريَّة في المجتمع اللِّيبيِّ، بل في العالم العربيِّ ككل. وهذا ما دفعنا إلى القول بنجاح هذه التَّجربة إلى حدٍّ كبير رغم العواقب والمواجهات الَّتي واجهها صاحبها وأتباعه في حياته وما واجهته زاويته ومن يتَّبعها من بعده، حيث دُمِّرت الزَّاوية سنة 995هـ بسبب رجل يُدعى يحيى بن يحيى السُّويدي، الَّذي ادَّعى النبوَّة وكان يُوقع الأذى بالعديد من القرى والأرياف في ليبيا حسب ما ذُكر عنه، ولأنَّ زاوية الإمام الأسمر اعترضت على أفعاله هذه واستنكرتها ورفضت ادعائه للنُّبوَّة قام بمهاجمة مدينة زليتن فدمَّر الزّاويّة ونهب مكتبتها التّي حوت وقتها ما يقارب الخمسمائة مجلَّد نادر، وقتل ما يقارب العشرين من الأشراف منهم الشيخ عمران ابن عبد السَّلام الأسمر شيخ الزَّاوية آنذاك، ولم تقف محاولات التَّدمير عند السُّويدي فقط، بل تواصلت إلى ما بعده، بالرَّغم من نجاح دعوة الأسمر في خلق تغيير جذريٍّ في المجتمع في تلك الفترة وحتى في مراحل متقدِّمة فإنَّ الأصوات الرافضة لهذه الزاوية كثيرة خصوصًا ما يُطلق عليهم السَّلفيَّة، الذين وصلوا إلى حدِّ تحريم الصَّلاة في المسجد الذي بناه الإمام الأسمر بدعوى أنَّها بدعة وحرام، وهذا فيه شرك بالله على حدِّ قولهم، إلى حدِّ قيامهم بتدمير الزَّاوية وتفجيرها وحرق مكتبتها وإتلاف ممتلكاتها إبَّان الثَّورة اللِّيبيَّة سنة 2012م.

لعلَّ هذه الممارسات الوحشيَّة الرَّافضة لطريقة الإمام الأسمر هي اعتراف مباشر بنجاح الفكر الصُّوفيِّ وتغلُّبه على باقي التيَّارات المتشدِّدة الَّتي تدعو إلى القتل والدَّمار والتَّشدد والمغالاة في أفكارهم ومواقفهم وفتاواهم، على عكس الطرق والتَّيارات الصُّوفيَّة القائمة أساسًا على المحبَّة والتَّسامح وآداب التَّعامل والتَّواصل بين النَّاس، حتَّى أنَّ حلقات الإنشاد والوعظ والمدح الصُّوفي فيها نوع من التَّرابط الرُّوحيِّ بين الحاضرين، بين الشُّيوخ والمريدين، بين المعلِّم وتلميذه، ولذلك نجد هذه الطُّرق ذات تأثير عميق في النَّاس؛ لأنَّها تيَّارات تدعو إلى الحياة وإن دعت إلى الفناء فهو فناء من أجل البقاء، وهو فناء من أجل اللِّقاء، أمَّا التَّيارات الأخرى كالسَّلفيَّة مثلا ما هي إلَّا تيارات دم وقتل وتشدُّد وتشتيت، تيارات ظلامية تدعو إلى الموت.

انطلاقًا من النَّتائج الَّتي أجملنا القول فيها، يمكن أن نقرَّ بنجاح تجربة الإمام الأسمر في تغيير وضع المجتمع وإصلاح أحواله، كما يمكن القول: إنَّها تجربة ثوريَّة بامتياز؛ لأنَّها ثارت على العقول المتجمِّدة، وسعت إلى إعادتها إلى وضع الحياة والنَّشاط من جديد.

خاتمة:

نجمل القول فنقول: إنَّ التَّجارب الصُّوفيَّة هي عمومًا تجارب قائمة على مبدأ ثابت متكوِّن من قيمتين راسختين في الفكر الصُّوفيِّ، هما «المحبَّة والتَّسامح»، لأنَّها تجارب تسعى إلى توحيد الجماعة المؤمنة حول فكرة التَّصوُّف الَّذي يمثِّل الدِّين الحقَّ، وقد اتَّخذت المتصوِّفة منهجًا مغايرًا في نشر أفكارها عبر الحضرة والذِّكر الجماعيِّ وإحياء المناسبات الدِّينيَّة المختلفة، وهذا ما جعلهم موضع وقار دائم في المجتمع.

أمَّا الإمام الأسمر فهو شيخ صوفيٌّ، حمل بين يديه رسالة توعويَّة وبرنامجًا إصلاحيًّا، حتّى وإن خلق له العديد من الضغوط والمشاكل اليوميَّة إلَّا أنَّه غض بصره وسمعه عن كلِّ هذا، ومضى قدمًا نحو هدفه، مدافعًا عن فكرته المتمثِّلة في إرساء ثقافة مجتمعية ثابتة أساسها تربية روحيَّة صوفيَّة تستند إلى مقاصد الشَّريعة وأصول الفقه والمعاني الحقيقيَّة للدِّين الإسلاميِّ وخاصَّة المعنى الحقيقيَّ للتَّوحيد، ولذلك يمكن أن نقول أنَّ للإمام الأسمر دورًا هامًّا في النُّهوض بالحياة الثَّقافيَّة والرُّوحيَّة اللِّيبيَّة، خصوصًا وأنَّ أثر ما ركَّز عليه في تجربته وفي برنامجه الإصلاحيِّ هو العلم ليتأكَّد لنا إثر ذلك نواياه تجاه مجتمعه وتجاه الإنسانيَّة بصفة عامَّة، لأنَّه لا يبني من أجل مخاطبة مجموعة محدّدة، بل هو يبني فلسفة روحية عالميَّة، ودليل ذلك أنَّ للإمام الأسمر أتباعًا ومريدين من مختلف الجنسيات وفي جميع أنحاء العالم، خصوصًا إفريقيا ومنطقة المغرب.

وفي الختام نقول: إنَّ دعوة الإمام الأسمر جاءت موافقة للشَّريعة الإسلامية غير خارجة عنها -كما زعم الكثير من المعارضين هذا- بل يمكن أن نقول: إنَّ دعوته جاءت مبسِّطة لمعالم أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة، شارحة لها، ومكمِّلة للمبادئ الإنسانيَّة الَّتي حملتها في طيَّاتها، فكانت دعوة صادقة للنَّاس الذين يسعون إلى السَّير في طريق الاعتدال لطلب الحقِّ من ناحية، وكانت من ناحية ثانية مبنيَّة على قيم الحقِّ والصِّدق والأمانة والمحبَّة وحسن السُّلوك وآداب التَّعامل بين النَّاس، لذلك ذاع سيطها، وكُتب لها النَّجاح، حتَّى وإن دمَّروا الزاوية أكثر من مرة، فإنَّهم لم يدمِّروا مكانة الإمام الأسمر وتأثير تجربته في قلوب النَّاس من بعده.





فقه الإصلاح الدعوي عند الإمام عبد السلام الأسمر

أ. عبد العزيز أحمد عبد الله

كلية الدراسات الإسلامية بالجامعة الأسمرية - ليبيا

ملخص:

تهدف هذه المقالة إلى إبراز أسس منهج الإصلاح ومرتكزاته ووسائله عند الإمام عبد السلام الأسمر، وكيفية الاستفادة منه، وتيسير ذلك أمام المصلحين وجهود الإصلاح، والكشف عن شخصية الإمام الأسمر التي جعلته نموذجًا فريدًا في تحقيق عملية الإصلاح.

اعتمدت في مقالتي هذه على المنهج الوصفي التحليلي للأفكار والمسائل والمواقف في قضية الإصلاح عند الإمام الأسمر، سواء منهجه ومجالاته وأولوياته، وكل ذلك من خلال عرض فكر ومشروع الإصلاح عنده، ورصد أهم الإشكاليات الدعوية والمنهجية في مشروعه الإصلاحي، لخدمة هدف المؤتمر الأساسي الرامي إلى التعريف بشخصية الأسمر وإحياء تراثه الفكري.

كلمات مفتاحية:

الإصلاح الدعوي، التغير، فقه الإصلاح، الإمام الأسمر.




نبذة عن سيرة الإمام الأسمر[1]

تجمع المصادر والمراجع عن سيرة الإمام الأسمر أنه ولد بمدينة زليتن عام 880هـ، وتوفي بها عام 981م، وبينهما قضى حياة داعية ومرشد إلى حضرة الحق على بصيرة. وقد شكل له انتماؤه إلى أسرة علمية أرضية صلبة لبناء شخصيته، وعوامل أثرت في توجهه إلى الدعوة إلى الله.

تخبرنا المصادر أن نسب الإمام الأسمر يرتفع إلى السادة الفواتير، أحد فروع الأدارسة الحسنيين من آل بيت النبي ﷺ، ويبدو أن هذا الانتماء للنسب النبوي الشريف حمل أول الموافقات الربانية الكريمة، إذ ولد الإمام الأسمر يوم الإثنين ليلة اثنتي عشر من ربيع الأول لأبوين كريمين، وكان وحيد أبويه حيث توفي أبوه وهو ابن سنتين وشهرين فنشأ يتيمًا. فتكفل برعايته وتربية عمه الشيخ أحمد الفيتوري، الذي يعد أول أساتذته، كما أن أمه السيدة سليمة هي ابنة صوفي وداعية له باعه في مجال الإرشاد إلى الحق وهو الشيخ عبد الرحمن الدرعي المغربي.

كل تلك الأصول والانتماءات والظروف، من انتسابه إلى الأرومة الشريفة حيث عُرِفَ عن أجداده السادة الفواتير نشاطٌ كبيرٌ في مجال الدعوة إلى الله، وأمه ابنة الشيخ الصوفي من كبار رجال التربية والدعوة الشيخ عبد الرحمن الداعي، وأخيرًا عمه وأستاذه الأول الشيخ أحمد الفيتوري الذي وصفه الإمام الأسمر بأنه «من أكابر الفقهاء الطرابلسيين متبعًا لظاهر الشرع لا يخرج عنه يمينًا ولا شمالًا»[2]، كل ذلك شكل للإمام الأسمر منطلقًا وخلفية هامة لبناء شخصيته كداعية من أبرز الدعاة إلى الله في القرن العاشر الهجري.

وفي أحضان هذه الأسرة اكتمل البناء الأول لشخصيته، بحفظه للقرآن الكريم وتلقيه مقدمات ومتون العلوم الشرعية، لكن أسرته فيما يبدو كانت تفكر في دفعه نحو مراحل

(1) للتوسع حول سيرة الإمام الأسمر، ينظر:
تنقيح روضة الأزهار، محمد بن مخلوف، المكتبة الثقافية، بيروت، 1966.
القطب الأنور عبد السلام الأسمر، أحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي، بنغازي، ط2، 1992م.
مقالات أهل الحق، أحمد القطعاني، منشورات اللجنة العلمية بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر، زليتن.
رسائل الأسمر إلى مريديه، جمع وتحقيق محمد بن رابعة، دار المدار الإسلامي، بيروت، 2003م.
(2) الأنوار السنية والمنن البهية، مصدر سابق، ص17.

أخرى من التأهيل في طريق إعداده داعية ومربيًا، إذ لما بلغ عمره اثنتي عشرة سنة رحل به عمه الشيخ أحمد الفيتوري إلى زاوية الدوكالي بمسلاتة؛ لتلقي العلم الشرعي على يد الشيخ عبد الواحد الدوكالي، الذي يعد أشهر شيخ له بعد عمه، وعليه تتلمذ وبه تأثر فتلقى عليه أنواع العلوم وضروب الفنون، فقرأ عليه رسالة ابن زيد القيرواني، ومختصر خليل في الفقه المالكي، والحكم لابن عطاء الله السكندري، والتوحيد والمعقول، وعنه أخذ التصوف، ولازمه سبع سنين حتى صار فقيهًا متفننًا، وشهد له أستاذه الدوكالي بالأهلية للتصدر للدعوة وإرشاد الخلق، وهو ما شهد به أيضًا ثمانون عالمًا من علماء البلاد زارهم الإمام الأسمر بعد تخرجه من مدرسة أستاذه الدوكالي.

لقد حظي شيخنا الإمام الأسمر بمكانة كبيرة لدى عامة الناس وخاصتهم، وتعدت شهرته التراب الليبي، لما كان يملكه من صفات خَلْقية وخُلُقِية أهَّلته ليكون داعية ومصلحًا في نفس الوقت، والقارئ حين يتأمل في مكانته العلمية وكفاءته التربوية يجزم بأن لها انعكاسًا إيجابيًّا في مجال الإصلاح، فقد ترك من بعد تراثًا مكتوبًا متمثلًا في عدد من الرسائل والوصايا، وطريقة صوفية ازدادت توسعًا وانتشارًا وقبولًا بين الناس، حتى قصدته في حياته العلماء من كل أقطار العالم الإسلامي، وتخرجوا على يديه دعاة لدين الله، واستمرت طريقته وزاويته في مهمته الدعوية إلى اليوم.

منهج الإمام الأسمر في الإصلاح

يقوم منهج الإمام الأسمر في منهج الإصلاح على عدة أسس ومبادئ انطلق منها، ويمكن حصرها فيما يلي:

1 - **البدء بإصلاح النفس أولًا:**

إن أول خطوة في الإصلاح تبدأ بإصلاح الشخص لنفسه، وإصلاح النفس يبدأ بإصلاح القلب؛ لأنه بمنزلة الأمير للجسد وبصلاح الأمير تصلح الرعية وبفساده تفسد، كما قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1]. يقول الأسمر موجهًا خطابه إلى أحد مريديه: «وأوصيك: بإصلاح القلب وافتقاده، فإنه رئيس الجوارح وأميرها، وعلى صلاحه وفساده يدور صلاحها وفسادها»[2].

(1) أخرجه البخاري.
(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص154.

2 - **التعليم:**

إن العلم الذي لا يوصل صاحبه إلى حقيقة الإيمان والصلاح والإصلاح، فهو مجرد حجاب لا يزيد العبد إلا بعدًا عن الله وتكبرًا على عباده وتمردًا على شرعه، ولأجل تلك الغاية من العلم جعل الإمام الأسمر أساس الإصلاح هو التعليم ورفع الجهل وتصحيح العقيدة، وجعل رأس ذلك تعلم القرآن الكريم أولًا، ومن هنا كان مسار الإصلاح عنده واضحًا، فقد ركز فيه على إصلاح الفرد المسلم أولًا، وبنائه بناء شرعيًّا متكاملًا، حيث كان يحرص على تثقيف المسلمين وتعليمهم أمور دينهم الهامة، وهذا المبدأ لا يحتاج إلى نقول، فسيرة الإمام الأسمر حافلة بذلك ومنهجه التعليمي والكتب التي كان يدرسها وكيف رتب لدرسه أوقاتًا على طول اليوم خير شاهد على ذلك.

3 - **التدرج في الإصلاح:**

إن التدرج في الإصلاح سنة من سنن الشرع، ولأن الواقع لا يمكن أن يتم إصلاحه دفعة واحدة، وعلى هذا المنهج الرباني في الإصلاح سار الإمام الأسمر من خلال تقديم الدعوة إلى العقيدة وإصلاحها على الدعوة إلى الشريعة والأخلاق، ونجد هذا جليًّا في الأوراد التي رتبها لمريديه، فجعل وردًا خاصًّا بطلبة العلم وآخر لأصحاب الحرف والمزارعين إلى غير ذلك من صور التدرج.

4 - **اعتبار الوحدة الثقافية للمجتمع:**

إن الحفاظ على وحدة المجتمع الثقافية هي بوابة الإصلاح الحقيقي، وهذا ما نراه عند الإمام الأسمر، فقد حافظ عليه من خلال عدم دعوته إلى مذاهب شاذة غير متعارف عليها في المجتمع.

5 - **احترام علماء الشريعة وعدم التنقص من قدرهم:**

يعاني الدعاة والعلماء اليوم من الطعن والتشويه والتجريح من بعض الفتيان الذين ينسبون أنفسهم إلى السنة زورًا وبهتانًا، وهذا الطعن من شأنه أن يعزل الأمة عن علمائها وقدواتها، ويحول دون عملية الإصلاح والدعوة، وهذا الخطر نبه عليه الإمام الأسمر للحد منه، وذلك بدعوته إلى احترام العلماء، ومنه قوله: «تأدبوا مع العلماء؛ لأنهم أطباء الدين وأمناء الرسل... ولا تقولوا فيهم شيئًا يسوءهم فإن لحومهم سم قاتل»[1].

---

(1) نفس المصدر، ص224.

6 - التسامح والصفح:

لقد كان الإمام الأسمر يعتمد على هذا المبدأ مع الناس، حتى مع من أنكر عليه من العلماء أمثال سالم بن طاهر وكريم الدين البرموني وغيرهم[1]، ويشدد على هذا المبدأ في الكثير من المواضع، ومنه قوله: «إخواني، عليكم بالعفو عمن ظلمكم وتعدى عليكم، فاعفوا واصفحوا الصفح الجميل»[2].

7 - الشمول في جوانب الإصلاح:

لقد شمل منهج الإمام الأسمر الإصلاحي جميع مناحي الإصلاح الديني والاجتماعي والاقتصادي، غير أنه أولى اهتمامه بالجانب الديني، وذلك بالدعوة إلى جميع العبادات التي من شأنها أن تساعد في عملية إصلاح الفرد والمجتمع.

8 - التواصل الفعال مع الآخرين:

وهذا المبدأ كان يعتمد عليه الأسمر في التواصل مع مريديه ونظرائه من العلماء لتحقيق الإصلاح وتغيير سلوكهم، ورسائله إلى مريديه خير مثال على ذلك.

9 - سلامة لغة الخطاب:

إن من أهم الركائز التي يمكن أن يقال أنها أدت إلى نجاح الإمام الأسمر في منهجه الإصلاحي، هي اللغة التي خاطب بها المدعوين، حيث إن أسلوبه في الموعظة كان مناسبًا لجميع طبقات المجتمع يتصف بعدة صفات، كما أن اختيار الموعظة المناسبة في الوقت المناسب بحسب ما يحتاجه المدعوون، كان له دور كبير في إصلاحاته، وهذا الأسلوب في اختيار الموعظة هو الذي قرره لمريديه في معرض حديثه عن كيفية النصح والمجالسة[3].

أبرز ملامح الإصلاح ووسائله عند الإمام الأسمر

أولًا: أبرز ملامح منهج الإصلاح:

إن الذي يقف على مؤلفات الإمام الأسمر يرى بوضوح أن هناك قضايا دعوية

(1) الوصية الكبرى، عبد السلام الأسمر، مكتبة النجاح، طرابلس، 1964م، ص46.

(2) نفس المصدر، ص16.

(3) نفس المصدر، ص32. وكذلك: رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص243.

واجتماعية مهمة شغلت فكره ووقته، حاول إصلاحها والانطلاق منها في عملية الإصلاح، ويمكن أن نقول أن تلك القضايا تدور حول النقاط التالية:

1 - تصحيح العقيدة أساس الإصلاح: ويدل عليه قوله: «واعلموا -رحمكم الله- أن أحق شيء بالتقديم في النصيحة والوصية تقوى الله، واتباع سنة رسول الله ﷺ، فأوصيكم أيها الفقراء المنتسبين إلينا وإلى طريقتنا... بتصحيح إيمانكم، ثم معرفة ما يصلح بكم من فرض العين كالطهارة والوضوء والصلاة ونحو ذلك»[1].

2 - العلم والعمل به: ومنه قوله: «وأوصيكم بالحرص على طلب العلم النافع قراءة ومطالعة ومذاكرة»[2]، وقوله: «واعلموا: أن فائدة العلم العمل به»[3].

3 - التمسك بالكتاب والسنة: ومثاله قوله: «واجعل الكتاب والسنة حاكمين عليك وقائدين لك»[4].

4 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: كقوله: «وإذا أمرت أحدًا بمعروف أو نهيته عن منكر، فيكون ذلك برفق ولطف وشفقة»[5].

-5 النصيحة لولي الأمر: ومنه قوله: «إخواني، وإذا لقيتم الأمراء في طريق من الطرقات أو قبيلة من القبائل أو غير ذلك فسلموا عليهم... وإن علمتم أنهم يقبلون منكم النصيحة فانصحوهم بترك الظلم وبالعفو عن الخلائق»[6].

6 - الأخلاق أساس الإصلاح: كقوله: «وأوصيك... بمتابعة الرسول -عليه الصلاة والسلام- في الأخلاق والأقوال والأفعال»[7].

ثانيًا: وسائل الإصلاح:

من وسائل الإصلاح الدعوي عند الإمام الأسمر:

أولًا: إقامة العبادات من وسائل إصلاح الفرد والمجتمع: شدد الإمام الأسمر على ضرورة لزوم بالشريعة وإصلاح العبادات على أكمل وجه، في العديد من المواضع

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص232.
(2) نفس المصدر، ص236.
(3) نفس المصدر، ص250.
(4) نفس المصدر، ص126.
(5) نفس المصدر، ص137.
(6) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص13.
(7) رسائل الأسمر إلى مريديه، ص158.

في كتبه، كقوله: «أوصيكم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج إلى بيت الله الحرام»[1]، وقوله لأحد مريديه: «وأوصيك بحضور القلب وخشوع الجوارح في جميع عباداتك، فبذلك يحصل لك ثمارها وتفيض عليك أنوارها»[2]، ودعوات تظهر فقه الإمام الأسمر في الإصلاح القائم على إصلاح النفس بمجاهدة العبادات التي بمرور الوقت يظهر أثرها على الفرد والمجتمع، وتظهر ثمرتها في سلوكياتهم.

ثانيًا: الإخلاص في الدعوة: ويظهر ذلك في قوله: «عليكم بالإخلاص في كل الطاعات والعبادات، والإخلاص هو: إفراد الحق ﷻ في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى»[3]، فالإخلاص من أهم أسباب نجاح الداعية في دعوته، وهو أيضًا من الصفات التي يجب أن يتحلى بها الدعاة إلى الله، وإذا كان الإخلاص مهمًّا ولازمًا لكل مسلم في عباداته، فهو للداعية أهم وألزم؛ لأن الداعية هو القدوة العملية لغيره، ولذا نجد الأسمر يؤكد عليه.

ثالثًا: الدعاء: فهو من أعظم وسائل الإصلاح النافعة، وهو السلاح المعطل عند كثير من الدعاة اليوم، وقد فرطوا به إما جهلًا منهم، أو قلة يقين بتأثيره، فلم يغفل الأسمر عن هذه الوسيلة، فكثيرًا ما كان يختم بها رسائله ووصاياه إلى مريديه[4].

رابعًا: القدوة في الإصلاح: وهي الدعوة بالحال المتمثلة بالقيام بما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه، مع التخلق بمكارم الأخلاق، ولا يخفى ما في هذه الوسيلة من إصلاح، حيث إن الداعية إذا لم يكن قدوة بأفعاله فهو يفسد أكثر مما يصلح، فاجتهد في بناء مريديه كقدوات قبل أن يرسلهم للدعوة، كما أنه نفسه كان من أبرز القدوات وسيرته لها أثرها البالغ في الدعاة والمصلحين ونفوس المحبين إلى يومنا هذا، والشواهد على هذه الوسيلة أكثر من أن تحصى.

خامسًا: المراسلة: تعد الرسالة من الوسائل المهمة في نشر الدعوة؛ لما لها من أثر بالغ في نفوس المدعوين متى كتبت بأسلوب خطاب يتناسب مع مستوياتهم العلمية والاجتماعية، فهي تعطي لهم الفرصة للتفكير والمراجعة والتأمل والاستجابة، ورسائل الأسمر إلى مريديه خير دليل على هذه الوسيلة.

(1) نفس المصدر، ص285.
(2) نفس المصدر، ص153.
(3) نفس المصدر، ص325.
(4) نفس المصدر، ص138.

سادسًا: التسامح مع المخالف: وهو صفة من صفات أهل الإيمان، لا يتخلق به إلا المصلحون الذين طهرت نفوسهم من الأمراض وصفت سرائرهم من الأحقاد، وهو من أقوى وسائل الإصلاح في الدعوة[1].

اتجاهات الإصلاح والتربية ومجالاتها وأولوياتها في فكر الإمام الأسمر

لقد عرف الإصلاح في الثقافة الإسلامية له اتجاهان، الاتجاه الأول: الإصلاح انطلاقًا من القمة، والاتجاه الثاني: الإصلاح انطلاقًا من القاعدة[2].

وعُرف عن الاتجاه الثاني، أن أغلب علماء الأمة انتهجوه لما فيه من تحقيق لمنطلق الإصلاح في الشريعة الإسلامية، والإمام الأسمر منهم، فأعماله التي توجه فيها بجهوده إلى الناس بمختلف طبقاتهم بعيدًا عن رأس الهرم في المجتمع دليل على ذلك.

1 - في جانب الإصلاح:

يمكن حصر مجالات الإمام الأسمر الإصلاحية وأولوياتها وجوانبها في الآتي:

أولًا: الإصلاح في جانب العقيدة:

لقد شغل إصلاح العقيدة حيزًا من فكر الإمام الأسمر ووقته حتى ألف فيها رسالة على منهج أهل السنة والجماعة، لأهمية إصلاح العقيدة كأولوية يبدأ فيها بغرس العقيدة الصحيحة في نفوس المدعوين بالأدلة النقلية والعقلية التي تناسب مستوياتهم العلمية، ولا شك أن للعقيدة أثرًا كبيرًا في القضاء على الأمراض والانحرافات في المجتمع في عديد المستويات النفسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وغيرها.

ويبرز فقه الدعوة عند الإمام الأسمر تركيزه على مناقشة التفاصيل في قضايا العقيدة؛ لأهميتها في العملية الإصلاحية، ومنه تصحيح مفهوم أهل السنة في العقيدة، كما تعكس ذلك عباراته التي يوجه فيها مريديه إلى أخذ العقيدة كما قررها أئمة الاعتقاد الأشعري، ومنه قوله: «اعلم أني أوصيك بتصحيح إيمانك على ما قرره الإمام الأشعري، والقدوة

(1) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص46.
(2) مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، مجموعة مؤلفين، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م، ص 3.

إمامنا السنوسي في عقائده»[1]، كما اعتنى بشكل كبير ومفصل بتصحيح مفاهيم الاعتقاد، كمفهوم الإيمان، وما يتصل به من مسائل دقيقة كزيادته بالطاعة ونقصانه بالمعصية كقوله: «وفي الإيمان من يزيد وينقص»[2]، ومثل هذه التحديدات لمثل هذه المفاهيم الدقيقة من شأنه أن يحفظ السلوك ويصحح الفكر لدى أفراد المجتمع؛ حتى لا ينجروا وراء القول الذي يقول بأن العمل شرط لصحة الإيمان فيستحلوا به دماء الأبرياء من المسلمين.

ومن المفاهيم التي اعتنى الإمام الأسمر بتحديد معانيها، مفهوم الاستدلال الذي مالت فيه بعض الفرق الإسلامية إلى تحكيم العقل وجعلوه مقدمًا على النقل، فاهتم الإمام الأسمر بتصحيح ذلك المنهج وفق منهج أهل السنة والجماعة بالمزاوجة بين النقل والعقل في الاستدلال على مسائل العقيدة[3]. والهدف الرئيس من جهوده في إصلاح وتصحيح العقيدة هو الطمأنينة في المجتمع ودفع أفراده للتضحية بالغالي والنفيس لتغيير الواقع وإصلاح المجتمع.

ثانيًا: الإصلاح في جانب الشريعة:

انشغل الإمام الأسمر بهذه القضية؛ لما لها من أثر كبير في إصلاح حياة المسلمين، فبالفقه مثلًا يعرف المسلم كيف يأكل الحلال ويجتنب الحرام، ويستطيع به أن يضبط سلوكه وفق ما أمره الله به، ولذا شدد على مريديه في أهمية تعلم الفقه، والمحافظة على الفرائض الشرعية، وإصلاح ما وقع فيها من خلل، لا شك أن منهجه في الدعوة إلى تطبيق الشريعة يحول العبادات بأشكالها وألوانها وصورها إلى وسيلة من وسائل التربية، فهو قد جعل العبادات وسيلة من وسائل إصلاح النفس.

ومن جوانب جهوده في إصلاح الشريعة:

1 – إصلاح الصلاة: لقد انصب تركيز الأسمر على إصلاح روح الصلاة، ألا وهو الخشوع فيها، فهو يقول: «واعلموا رحمكم الله أن الصلاة لا تصح إلا بمعرفة واجباتها ومبطلاتها وسننها، ولا تكمل إلا بمعرفة مندوباتها ومكروهاتها»[4]، ويقول: «وعليكم بالمحافظة على الصلوات الخمس... وبالخشوع وحضور القلب في جميع الصلوات، فإن المصلي مع الغفلة وشغل القلب بحديث الدنيا لا يعد عند الله من المصلين، ورأس

(1) رسائل الأسمر الى مريديه، مصدر سابق، ص 140
(2) نفس المصدر، ص 194.
(3) نفس المصدر، ص 199 وما بعدها.
(4) نفس المصدر، ص 177

المحافظة حضور القلب فيها، وقبيح بالمصلي أن يكون جسده بين يدي ربه وقلبه متردد في أودية الدنيا»[1].

2 - إصلاح الزكاة: لقد دعا الإمام الأسمر إلى إصلاح الخلل الذي طرأ على ركن الزكاة، ونبه إلى أهمية هذا الركن في تحقيق العدالة الاجتماعية والتكافل، فقال: «وأوصيك ونفسي بتقوى الله... وبإخراج الزكاة إن كان عندك مال تجب فيه إخراجها وأنت طيب القلب فرح مسرور بذلك، وضعها حيث وضعها الله في الفقراء والمساكين، ولا تطلب على ذلك ثناء منهم ولا من غيرهم، ولا تعمل إلا لوجه الله، فإن الفاعل لوجه الناس مردود العمل، وأن الله سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما هو خالص لوجهه»[2].

-3 إصلاح الحج: يقول الإمام الأسمر: «وعليكم بتجريد النية والقصد لحج بيت الله الحرام وقضاء مناسككم وتعظيم حرماته وشعائره، وزيارة قبر النبي ﷺ فلا يكن لكم في سفركم غرض ولا أرب غير ذلك، وما يلحق به من المقاصد المحمودة، واحذروا: أن تخلطوا بهذه النيات الشريفة طلب نزهة أو رغبة في تجارة، وعليكم: بالإكثار من الطواف بالبيت العتيق، فإن الطائف به خائض في الرحمة، ولتكن قلوبكم في حال طوافكم طافحة بتعظيم رب البيت وإجلاله، ولا تشتغلوا في طوافكم بشيء سوى التلاوة والذكر والدعاء، واحذروا: من اللغو فيه، وحافظوا: على الأذكار والدعوات التي تقال في الطواف والسعي وغيرهما من المواطن»[3]، وهو يركز في إصلاح هذا الركن على التحذير مما قد يخالط الحج من أغراض دنيوية، ولذا دعا إلى إصلاح النية وفق المقاصد الشرعية للحج حتى تظهر آثاره على الحاج.

ثالثًا: الإصلاح في جانب التصوف:

انشغل الإمام الأسمر بهذا الجانب الإصلاحي بشكل كبير، كون مشروعه الإصلاحي قائمًا على التصوف، ولذا فمن المهم إصلاح التصوف الذي ظهر عنده في الآتي:

1 - طلب العلم شرط لسلوك طريق التصوف: ومنه قوله: «وأوصيكم: بالحرص على طلب العلم النافع قراءة ومطالعة ومذاكرة؛ لأن علم الدين أفضل ما يحوزه العبد من المراتب العلية، وأشرف ما يكتسبه العبد من المناقب السنية... واعلموا: أن فائدة

(1) نفس المصدر، ص 256

(2) نفس المصدر، ص 134.

(3) نفس المصدر، ص 269.

العلم العمل به»[1]، لأن العلم سياج حصين يقي صاحبه من الانحطاط والفساد، وفي هذه الوصية تصحيح لمفهوم التصوف، فهو علم وعمل وليس فيه دعوة للركون والراحة وإسقاط التكاليف كما يدعي جهلة الصوفية.

2 - تصحيح معنى الكرامة: يقول الإمام الأسمر: «إياكم والإنكار على كرامات الأولياء ودرجاتهم وعلو قدرهم ومناقبهم الزكية ومراتبهم العلية وأحوالهم السنية، وإياكم وذمهم وسبهم وشتمهم فإن لحومهم سم قاتل، وهم على أقدام الرسل وخليفتهم، وإياكم وكلام الجاهلين في الأولياء والعلماء، ففي الناس فريق معتقد ومصدق وفريق منتقد ومكذب كما وقع للرسل عليهم الصلاة والسلام... فإن قيل: إن هذه الكرامات تشبه السحر، فالجواب أن الفرق بين الكرامة والسحر أن السحر يظهر على يدي الفسقة والزنادقة والكفار الذين هم على غير شريعة ومتابعة، والأولياء رضي الله عنهم فإنما وصلوا إلى ذلك بكثرة اجتهادهم واتباعهم السنة وأخذهم بالأحوط وتحفظهم على الديانة حتى بلغوا فيها الدرجة العليا»[2].

3 - تصحيح القول بانقطاع شيخ التربية، وأنه ليس له وجود: وهو قول شاع في عهد الإمام الأسمر، ولذا اهتم بتصحيح هذا الخطأ، وبالتأكيد على أن التربية لم تنقطع، وأن شيوخ التربية موجودون في كل عصر، لكنه في ذات الوقت ولقطع الطريق أمام المدعين، بيَّن الشروط والصفات التي وضعها لشيخ التربية، فقال: «لا بد أن تتوافر في الشيخ القائم بالتربية الذي يلقي إليه المريد نفسه خمسة شروط هي:

1 - علم صحيح، لأنه دليل، ولا بد للدليل من علم تصح به دلالته.

2 - وذوق صريح، إذ بالذوق تتحقق عباراته وتفهم إشاراته فبعلمه يقتدى، وبذوقه يهتدى، فبعلمه تستقيم الظواهر في الأقوال والأفعال، وبذوقه تتحقق البواطن في الأحوال، فبعلمه يختبر ظواهر المريدين، وبذوقه تختبر بواطن السالكين.

3 - وهمة عالية عن الأكوان، لتنتقل همم المريدين إلى الله تعالى، إن همة المريد من همة شيخه.

4 - وحالة مرضية، مع الله تعالى، ومع الخلق، مع الله تعالى باستقامة أحواله، ومع الخلق بمكارم الأخلاق.

(1) نفس المصدر، ص 236.

(2) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص46 و47.

5 - وبصيرة نافذة، لينظر بها بنور الله تعالى في أحوال تابعيه الباطنة، فمن لا بصيرة له ينظر بها بنور الله تعالى، فتابعوه معه على غرر، لعدم اطلاعه على بواطنهم[1].

وبعد أن ذكر هذه الشروط أعقبها بقوله: «ولا تصح المشيخة الكاملة إلا لمن كان على قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو من كملت أحواله، واستقامت أقواله وأفعاله، وكان متخلقًا بالقرآن العظيم، متحليًا بمعاني أسماء الله الحسنى، وكان ذا علم راسخ، وعقل سليم ونفس طاهرة، فأمحى هواه وانشرح صدره، وتنور قلبه بأنوار المعرفة، فسلمت فطنته وفطرته، وتنورت بصيرته وترجح رأيه»[2].

وهو بهذا التصحيح، ينبه على خطأ من يقول بانقطاع التربية وشيوخها، ربما بسبب انتشار المدعين للتربية والمتكسبين بها، ولقطع الطريق أمام الشريحة الأخيرة نص على شروط الشيخ المربي، ويمكننا القول بأنه بهذه الشروط فإنه يدعو إلى إعداد دعاة مدربين ومؤهلين للقيام بعملية التربية، التي هي بمثابة صمام الأمان للأفراد والمجتمعات ضد كل الأفكار والتيارات التي تخالف الشريعة الإسلامية.

6 - تصحيح مفهوم الحضرة: يقول الإمام الأسمر: إن الحضرة «هي حضور القلب مع الله تبارك وتعالى، وأما في الاصطلاح واللغة هي السماع ويعبرونه بالحضرة لحضور الإخوان واجتماعهم للذكر»، ويبدو أن بيانه لمعنى الحضرة كان سببه ما طرأ عليها من التغيير، جعل معناها ينصرف في الأذهان إلى نوع من أنواع الفن واللهو، ولم يتوقف تصحيحه على مفهومها، بل أكثر من ذلك بيَّن شروطها بقوله: «إخواني، وللحضرة شروط... ومن شروطها أن لا يكون فيها رقص ولا تصفيق ولا صراخ ولا تمزيق الإزار ولا إساءة أدب... ولا تبتدعوا في حضرتنا، ولا تعتقدوا أن الرقص والتصفيق من الدين، ولا تفعلوا ما يفعله أهل البدع، فإن كل محدثة بدعة، ولا شك أن البدعة المحرمة ضلالة والضلالة وصاحبها في النار»[3].

رابعًا: الإصلاح في الجانب الاجتماعي:

وفي هذا الجانب، يمكن تتبع الكثير من نصائح ووصايا الإمام الأسمر، التي يمكن الكشف من خلالها على طبيعة فكره الاجتماعي، ولكن طلبًا للاختصار يمكننا حوصلة أهمها في الآتي:

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص314.
(2) نفس المصدر، ص314 و315.
(3) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص42 وما بعدها.

أولًا: اختيار الزوجة الصالحة:

وهو ملمح هام يدل على وعيه بأهمية بناء الأسرة على أساس سليم، فأولى اختيار الزوجة التي هي ركن أساسي عناية خاصة، وحث على أهمية حسن اختيارها لتعين زوجها على أمور الدنيا والآخرة[1]، وبالتالي فقد اتجه في هذا الأمر إلى الإصلاح من الأسس المجتمعية الأولى، وتحديدًا من داخل الأسرة باعتبارها قاعدة الإصلاح العام.

ثانيًا: الاهتمام ببناء الأسرة:

ولم يكتف الإمام بإصلاح الركن الأول للأسرة، وهو حسن اختيار الزوجة، بل واصل الاهتمام بضرورة بناء الأسر بشكل متماسك كأحد عوامل الإصلاح الاجتماعي، من ذلك نصحه ووصيته ببناء علاقات متماسكة داخل الأسر قوامها التراحم والتواصل، ومن ذلك قوله: «إخواني: عليكم ببر الوالدين، وأحسنوا لهم، ولا تنهروا في وجوههم... إخواني: فعليكم ببر الوالدين وقلة العقوق لهم... وعليكم بوصول الأرحام وزيارتهم»[2]، بل يذهب أبعد من ذلك لبناء علاقات متينة بين الأسر، من خلال الدعوة للإحسان للجيران: «وعليكم بحفظ الجيران والإحسان إليهم... واقضوا حوائجهم وإن كان عندكم شيء من الحوائج من مأكول أو مشروب فأعطوهم منه، ولا تمسكوا عليهم شيئًا من حوائج الدنيوية والأخروية، ومن مرض منهم فزوروه»[3]، بهذه العبارات يظهر فقه الإمام الأسمر واضحًا جليًّا في الحفاظ على كيان الأسرة الذي هو مظهر من مظاهر الإصلاح الاجتماعي.

خامسًا: الإصلاح في الجانب السياسي:

يرى الإمام الأسمر أن السبيل للإصلاح السياسي هو إصلاح القاعدة المجتمعية أولًا، وأن هناك واجبات على أفراد المجتمع يجب عليه القيام بها، لكن التماس مع السلطات الحاكمة نصح الإمام الأسمر أن يكون بحذر، ومنه قوله: «إخواني: وإذا لقيتم الأمراء في طريق من الطرقات أو قبيلة من القبائل أو غير ذلك، فسلموا عليهم»، وحث على نصحهم، ولكن أيضًا بحذر، فقال: «وإن علمتم أنهم يقبلون منكم النصيحة فانصحوهم بترك الظلم، وبالعفو عن الخلائق المحبوسين في دار الفناء، وإن علمتم وتحققتم أنهم لا يقبلون منكم فاتركوهم يهديهم الله»[4]، وفي موضوع آخر بين فيه آداب الجلوس مع

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص245.
(2) الوصية الكبرى، مصدر سابق، ص21.
(3) نفس المصدر، ص20.
(4) نفس المصدر، ص13.

كل شريحة في المجتمع، قال بشأن القادة والساسة: «وإذا جلستم مع الملوك فحاضروهم بسيرة أهل العدل وسياسة العقلاء»[1]، وفي العموم فالإمام الأسمر يتبنى الانطلاق في الإصلاح من القاعدة، لا من رأس الهرم.

وخلاصة القول: أن فقه الإصلاح تجلى في منهج الإمام الأسمر من خلال الأسس والمرتكزات والوسائل التي سار عليها في عملية الإصلاح، وظهرت ثمرة ذلك الإصلاح في نخبة من تلاميذه الذين حملوا لواء الدعوة والإصلاح في كل الميادين.

2 - في جانب التربية:

يرى الباحث أن منهج الإمام الأسمر في إصلاح التربية انفرد فيه عن غيره من مناهج المصلحين بالربط بين التعليم والتربية، وهو ربط وتميز وتفرد تفتقده المؤسسات التعليمية اليوم، كما أن إصلاحه كان تطبيقًا عمليًّا أكثر منه نظريًّا ربط فيه بين العبادات والأخلاق وعدم التفريق بين العقيدة والعمل، وكان لكل هذا أثر إصلاحي في مختلف صعد حياة الأفراد والمجتمع، لكن بشيء من التفصيل يمكننا الإشارة إلى مفردات منهج التربية عند الإمام الأسمر:

أولًا/ إصلاح الأنفس، ووسائله وآلياته:

ويندرج هذا الجانب في ما أشرنا إليه سابقًا من أن عملية الإصلاح تبدأ بتغيير الأفراد وإعدادهم قبل الأنظمة والمؤسسات، إذ لا أمل في إقامة بناء سليم متين، إذا كانت لبناته واهية أو فاسدة، وإصلاح الأنفس يحقق ذلك، ولذا انصب اهتمام الإمام الأسمر في هذا الاتجاه، سيما وأنه أساس العمل الصوفي التربوي القائم على تزكية الأنفس وإصلاحها.

ومن وسائل إصلاح الأنفس في فكر الأمام الأسمر: إصلاح النية، وإليه أشار في قوله: «ولا تدخل في شيء من العبادات إلا بنية صالحة، وكذلك المباحات والحذر من الغفلة عن حسن النية وعن استحضارها عند كل حركة»[2]، ويبين أنه «وبالنية الحسنة الصالحة يحصل للإنسان ثواب جميع ما نواه إذا عجز عن العمل، ومن صلحت نيته وطاب ضميره وصفت سريرته حصل على الخيرات كلها الآجلة منها والعاجلة»[3]، كما

(1) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص243.
(2) نفس المصدر، ص126.
(3) نفس المصدر، ص137.

أن التوبة من وسائل الإصلاح لديه، في معناه العميق الذي يمكن في الاعتراف بالخطأ والإقرار بالذنوب بالنسبة للأفراد، وبالتالي قدرة المربين على إصلاح أخطائهم، بخلاف من يعيش الشخصية المستكبرة وغير المبالية بما وقع منها، وفي ذلك يقول: «إخواني: بادروا بالتوبة كل يوم وليلة... فالتوبة واجبة عليكم وأنتم مأمورون بها، فالعجل العجل، والتوبة قبل أن يدركم الموت... فالموت قريب منكم، فتوبوا وأكثروا من الاستغفار في العشي والإبكار، إخواني: تيقظوا من نومكم، وانتبهوا من غفلتكم، وأخلصوا أعمالكم، وعليكم بالسهر والعزلة والجوع وكسر النفس، فمن لم تكن فيه هذه الخصال وأوصاف أهل السنة فهو تائه عن طريق الحق، فالتوبة هي حقيقة الإسلام، والدين كله داخل في مسماها، وبها استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»[1]، ولا ليس ذلك فقط، بل يجب عند الإمام تجديد التوبة على الدوام لتجديد مراجعة النفس لأخطائها وتصحيحها من ثم، فيقول: «وعليك بتجديد التوبة، وبالإكثار من الاستغفار في كل حين، والزم قلبك شهود التقصير منك من القيام بواجب حق مولانا عليك، وإن عبدته عبادة الأولين والآخرين»[2].

ويكمل الإمام الأسمر عملية إصلاح النفس، فمن وسائل الإصلاح الأخرى بعد النية والتوبة، يلزم تصحيح الإيمان، فيوصي مريديه: «بتصحيح إيمانكم وبالنظر والاستدلال، وذلك أول الواجبات»[3]، وقد أسلفنا الحديث عن مدى أهمية صحة الإيمان القائم على الاستدلال والنظر كوسيلة للحفاظ على النفس من الانحرافات، وما يولده الإيمان الصحيح من خشية ومراقبة، فإذا ما تعثر ووقع في المعصية بادر بالتوبة والرجوع إلى الله.

ووسائل إصلاح النفس التي أقام الإمام الأسمر عمله ومنهجه على أسسها - عديدة، وترتيب على الوسائل السابقة، كالمعرفة بالله الناتجة عن الإيمان والاعتقاد الصحيح، ولتحصينها يدعو مريديه، فمثل هذه المعرفة تدعو المريد لدوام تفقد قلبه، فيقول: «وأوصيك: بإصلاح القلب وافتقاده، فإنه رئيس الجوارح وأميرها، وعلى صلاحه

(1) على هامش حياة عبد السلام الأسمر، مصدر سابق، ص461.
(2) رسائل الأسمر إلى مريديه، مصدر سابق، ص132.
(3) نفس المصدر، ص214.

وفساده يدور صلاحها وفسادها، وهو محل المعرفة بالله التي هي رأس العلوم وأشرفها، ومعدن النية التي هي مصدر الأعمال ورأسها، وله سمع وبصر يفرق بهما بين الحق والباطل، ولكن لا تكون كذلك حتى تصير طيبًا نظيفًا من أدناس الاعتقادات الباطلة، والأخلاق السافلة، مزينًا بالاعتقادات المستقيمة، والأخلاق الكريمة، محفوظًا من الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية»[1].

ثانيًا/ العلم قبل العمل:

وهو من مفردات منهج التربية لدى الإمام الأسمر، وقضية هامة تندرج في العمل الإصلاحي الصوفي، حيث ينبه على أهمية التعليم قبل العمل في العديد من المواضع والمواقف، كقوله: «وأوصيكم: بالحرص على طلب العلم النافع قرءاة ومطالعة ومذاكرة؛ لأن علم الدين أفضل ما يحوزه العبد من المراتب العلية، وأشرف ما يكتسبه العبد من المناقب السنية... واعلموا أن فائدة العلم الإخلاص فيه لله تعالى، والأدب مع سائر الخلق بارًّا وفاجرًا، ونفي الكبر من قلبه، ومن علامات الإخلاص: أن لا يتكدر ممن نسبه إلى الجهل وعدم الفهم، ولا من قال فيه: إن فلانًا يتعلم العلم حجة عليه، أو فلانًا لا يعمل بعلمه وغير ذلك، فيتساوى عنده نسبته للجهل ونسبته للعلم على حد سواء... واعلموا: أن فائدة العلم العمل به»[2]، وفائدة هذه المعرفة أنها علم مؤسس على أن الكتاب والسنة يمنع صاحبه من هتك الحرمات والتعدي على حدود الله، بل تدعوه لتعظيم حقوق العباد وحفظ مصالحهم، وحمله على العمل الصالح المؤسس على علم صحيح.

ثالثًا: التربية قبل الدعوة:

وهو جانب مهم في إعداد الداعية تربويًّا، ونعني بالتربية التكوين في بناء الداعية والمصلح بناءً شرعيًّا سليمًا حتى يستطيع أن يقوم بأعباء الدعوة وحمل راية الإصلاح وهذا المنهج نبوي أصيل، إذ مكث النبي ﷺ في بداية الدعوة ثلاثة عشر سنة في مكة يعلم فيها التوحيد ويربي أصحابه على مكارم الأخلاق قبل أن يصبحوا دعاة بالعمل قبل العلم.

رابعًا: تهيئة البيئة:

ويتعلق هذا الجانب ببناء المؤسسة الدعوية في ظروف صالحة للدعوة، ويتجلى هذا الجانب في اتجاه الإمام منذ البداية إلى إنشاء زاوية تحتضن جهوده الدعوية، ويتسنى

---

(1) نفس المصدر، ص154.

(2) نفس المصدر، ص236.

له من خلالها القيام بواجبه الدعوي التربوي، وهو ما حدث فعلًا، فالشواهد من سيرته تبين كيف أنه قام بترتيب دروسه العلمية لتشمل جميع جوانب الإصلاح، فأسهمت في نشر تعاليم الإسلام ومحاربة البدع والخرافات، وخلقت ظروفًا وأجواء خاصة جعلها محجًّا ووجهة لكل طالب للحق.

ومن جوانب تهيئة البيئة اللازمة للدعوة، أنه ألحق خطوة إنشاء الزاوية بخطوة أخرى، وهي وقف الأوقاف عليها لضمان استمرارها في رسالتها، سواء في الجانب التعليمي والتربوي الصوفي، وفي جانب المساعدات المجتمعية التي أشاعت روح التعاون والتراحم في المجتمع وهو مظهر من مظاهر الإصلاح.

سبل الاستفادة من فقه الإصلاح الدعوي في فكر الإمام الأسمر

يمكن للداعية الاستفادة من فقه الإصلاح عند الإمام الأسمر من خلال التعرف على الأسس والمبادئ والوسائل والمرتكزات التي انطلق منها وسار عليها، كما بيناها سابقًا، وكيف استطاع أن يقدم مشروعه الإصلاحي، وكيف تعامل مع من خالفوه وعارضوا جهوده. فالتعرف على كل هذه الجوانب كفيل بتوجيه الداعية اليوم لبناء مشروعه الإصلاحي في ضوء تجربة الإمام الأسمر الإصلاحية ناجحة.

ومن بين المهم في مشروع الإمام الأسمري الإصلاحي الذي يجب التركيز عليه، هو كيفية بناء اتجاه خطابه الإصلاحي انطلاقًا من القاعدة إلى القمة.

ومن المهم أيضًا التنبيه على جوانب الأولويات وأهميته في فكر الإمام الدعوي الإصلاحي، فنجد أنه ركز على أولوية إصلاح النفس من خلال عملية مزدوجة تقوم على إصلاح الجوارح وضبطها بأحكام الشرع الشريف، وإصلاح القلب وضبطه بأحكام فقه القلوب القائم على التربية والتزكية المستمدة من الكتاب والسنة.

ويفضي التركيز على إصلاح النفس إلى اصلاح أفراد المجتمع، وبالتالي فامتدادات فقه الإصلاح عند الأسمر نفذت إلى مستويات أخرى من الإصلاح، على

الصعيد الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، فالمبدأ والأولوية بقضايا الجانب الديني والأخلاقي أساس ومنطلق في فقه الدعوة عند الإمام.

وبالجملة يمكن الاستفادة من فقه الإصلاح عند الإمام الأسمر من خلال النقاط التالية:

1 - الإعداد العلمي والتربوي للدعاة، وذلك بإعادة التقويم والتدريب للدعاة والوعاظ والخطباء والمدرسين.

2 - ربط التعليم بالتربية وعدم التركيز على جانب دون آخر.

3 - توظيف الوقت وبذل الجهد وتسخير المال في خدمة الدعوة.

4 - التركيز على القضايا المهمة وتحديد مواضع الفساد في المجتمع والعمل على إصلاحها.

خاتمة:

هذه لمحة عن سيرة الإمام الأسمر وجوانب من منهجه الإصلاحي، والحقيقة أن من يريد دراسة شخصيته يجد صعوبة كبيرة في اختيار أي الجوانب من بين جوانبه المختلفة لدراستها في عجالة، ورغم ذلك يمكن الوصول إلى عدة نتائج من خلال هذه الدراسة:

1 - إن سر نجاح منهج الإصلاح عند الإمام الأسمر يكمن في توظيف الوقت في خدمة الدعوة، وهنا يتجلى فقه الإصلاح عنده.

2 - إن الإمام الأسمر رجل من رجال الإصلاح المخلصين بذل كل ما بوسعه في إصلاح مجتمعه، وقد سلك في ذلك منهجًا فريدًا جمع فيه بين التربية والتعليم.

3 - كانت ولا تزال دعوة الإمام الأسمر الإصلاحية ومنهجه الدعوي نبراس نور يضيء للدعاة والمصلحين طريقهم نحو الإصلاح.

4 - لقد استطاع الإمام الأسمر توظيف التصوف في إصلاح المجتمع من خلال تعزيز القيم الروحية والأخلاقية.

5 - إن منهج الإصلاح عند الإمام الأسمر يهدف إلى تنمية الجانب الفكري والاجتماعي والأخلاقي، فقد جمع فيه بين الدعوة والتربية الروحية فاهتدى به خلق لا يحصيهم إلا الله فذاقوا حلاوة الإيمان.

6 - مكانة الإمام الأسمر والشهرة التي حظي بها كان لها دور بارز في نشر أفكاره ودعوته الإصلاحية.

يتضمن هذا الكتاب المقالات البحثية المشاركة في المؤتمر الدولي السنوي عن العلامة الشيخ أحمد القطعاني في دورته الخامسة التي نُظمت عام 2023م تحت عنوان (الشيخ عبد السلام الأسمر إمام ومصلح ومفكر من أعلام الأمّة الإسلاميّة - نحو إعادة قراءة سيرته وأعماله).

وقد ناقشت هذه المقالات مختلف الجوانب في حياة وفكر الإمام الأسمر، العلامة كاشفة عن أبعاد جديدة في شخصيته العلمية والفكرية، وبحثت مختلف جوانب وزوايا مشروعه الإصلاحي الكبير الذي أطلقه في القرن العاشر الهجري ووصل صداه على مختلف أصقاع المعمورة، مساهمة بذلك في تحديث أدوات تناول التاريخ الإسلامي وشخصياته البارزة والمؤثرة، وضرورة إعادة قراءة سيرها وأعمالها وبحثها على المستوى الثقافي العام والأكاديمي الخاص.